قِصَّةُ بَدْءِ الخَلْقِ

وَخَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

- الموضوع: دراسات
- العنوان: قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام
- تأليف: د. علي محمد محمد الصلابي

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

ISBN 978-614-415-370-3

- الطباعة : دار القماطي للطباعة - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1184 / الوزن: 1450 غ

ISBN 978-614-415-370-3

9 786144 153703



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+



website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 daribnkatheer  daribnkatheer  @daribnkatheer   /daribnkatheer

قِصَّةُ بَدْءِ الخَلْقِ

وَخَلْقِ آدمَ عَلَيهِ السَّلَامُ

تأليف

د. علي محمّد محمّد الصَّلّابي




بسم الله الرحمن الرحيم



إلى إخوتي وأخواتي من بني آدم (عليه السلام) :

الباحثين عن :

- حقيقة الخلق .
- ونحو قصة أبينا آدم عليه السلام .
- وعن نشأة الإنسان وطبيعتها : **ـ البدنية . ـ الروحية . ـ العقلية . ـ الفكرية .**

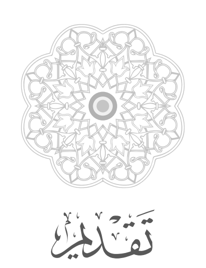
ستجدون الأجوبة الشافية ـ بإذن الله تعالى ـ عن الأسئلة الوجودية الكبرى في حياة الإنسان، فقد تبيَّنتْ قصة الخلق وخلق آدم عليه السلام من الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وهذا الكتاب مليء بالدروس والفوائد والسنن والنواميس . قال تعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

[الكهف : ١١٠] .

* * *



تقديم

بقلم أ.د. علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

حقاً لقد استمتعت بكتاب رائع في موضوعه ومحتوياته، رائد في أفكاره ومجالاته، هادف في مباحثه وغاياته، إنه «قصة بدء الخلق، وخلق آدم عليه السلام» لمؤلفه المفسر المؤرخ المفكر الدكتور علي الصلابي، الذي وفقه الله تعالى بفضله ومنِّه ليقدم إلى أمته هذا الغذاء الصافي من المنبع المبارك الكافي، فالقرآن الكريم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

فالقرآن الكريم وصفه الله تعالى بأنه النور والشفاء، والهداية المطلقة، والبرهان، والنور المبين، فهو ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، إنه حقاً يهدي إلى الصراط المستقيم، ويخرج الناس من ظلمات الجهل والتردد إلى نور العلم واليقين.

هكذا كان يقيني بالقرآن العظيم، إنه تبيان خير لكل شيء تحتاج إليه البشرية، وازداد يقيني بهذا الكتاب الذي أزاح اللثام عن موضوعات في غاية الأهمية، خاض فيها العقل المادي، فتاه في بعضها وتضارب نتاجه في بعض آخر، واختلفت نظرياته حسب بدء الخلق، وفي خلق الإنسان وأجله، حتى وصل

بعضها إلى نظريات لا تتوافق مع كرامة الإنسان وعقله، كما أن بعضها المتأخر ينسخ المتقدم. فقد كان أرسطو (ت ٣٢٣ ق.م) يظن أن الأرض قديمة ثابتة في مركز الكون، ثم جاءت نظرية النسبية العامة لعالم الفيزياء «إلبرت إينشتاين» سنة ١٩١٥م التي تقوم على أن الأرض متجانسة، ومتوحدة الخواص، وهي في حالة سكون، غير قابل للتغيير، ثم تم التخلي عنها فيما بعد من خلال نظرية الانفجار العظيم «Big Bang» التي توصل إليها صاحباها العالم الروسي «ألكسندر فريدمان» والعالم البلجيكي «جورج لوماتر»، حيث نجح فريدمان في حل معادلات نظرية النسبية واستنتج منها فكرة «تمدد الكون»، ثم جاء العلماء الآخرون فأكدوا هذه النظرية التي تؤكد ما ذكره القرآن الكريم بصورة أدق، وهو قصة الفتق العظيم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقصة خلق الإنسان خاض فيها الكثيرون، وخاصة داروين (ت ١٨٨٢م) عام ١٨٥٩م، حيث ادعى أن الحياة نشأت بمحض المصادفة، وأعلن عن نظرية النشوء والتطور، وأن الأساس فيها الصراع، وأن البقاء للأقوى الأصلح في نظره، واستغلها المستعمرون الذين زعموا أن العنصر الأبيض هو الأقوى والأصلح، وبُنيت عليها فلسفات مدمرة مثل النازية، والفاشيستية، كما أن الفلسفة المادية والإلحادية التي سادت أوروبا في القرن ١٩ إلى القرن العشرين قد احتضنت نظرية داروين لإنكار وجود الخالق، مع أن صاحبها لم يكن ينكر وجود الله تعالى، بل كان يدعي بأنه يؤمن بالخالق الذي وهب الحياة، ولكن الملحدين وجدوا في نظريته ضالتهم[١].

---

(١) الموسوعة الحرة، ويكيبيديا، مصطلح تطور الإنسان، ود. عبد الخالق حامد السباعي، بحثه القيم المنشور في مجلة رابطة العالم الإسلامي العدد (٢١) والمنشور أيضاً في موقع رابطة العالم الإسلامي، مع مصادره المعتمدة.

ولكن نظرية داروين قد انتُقدت علمياً، وردَّ عليها كثير من العلماء من منطلق العلم، ومنطق المشاهدة والتجارب، حيث كشف العلم الحديث أن للكون الذي نعيش فيه نظاماً عاماً دقيقاً، ونظاماً بيئياً متزناً بدرجة متناهية من الدقة؛ ولذلك يستحيل أن يُخلَق دون خالق مبدع مدبر منظم، فقد أثبت العلم نفسه بأن القول بأن الخلية الحية وُجدت مصادفة وتطورت تلقائياً يتعارض مع قوانين الديناميكا الحرارية في الكيمياء الطبيعية، والتي تنص على أن الطاقة لا تفنى ولا تُستحدث ـ أي من جديد ـ، كما أنها تقطع كذلك باستحالة وجود الماكينة التي تدور تلقائياً إلى ما لا نهاية[١].

إن أحدث ما وصل إليه العلم هو في مجال DNA والهندسة الوراثية، وعالم الجينات، حيث يستحيل في العقل أنها تكونت من غير خالق بارئ مصور، ولذلك أسلم بعضهم كما ظهر ذلك في الكتاب الرائع الذي سماه مؤلفه «**الله يتجلى في عصر العلم**»، كما أن الهندسة الوراثية تثبت أن الإنسان مخلوق مستقل، وكذلك جميع الكائنات الحية، بل إن البصمة الوراثية لكل إنسان مختلفة عن بصمة شخص آخر من بين مليارات البشر[٢].

إن المصادفة لخلق جزء من خلية واحدة ـ حسب النتائج العلمية ـ تحتاج إلى بلايين السنين، فقد قام العالم شارلر إيجين بحساب احتمال التكون بعامل المصادفة لجزيء بروتين واحد، فوجد أن هذا يمكن أن يحدث مرة في فترة زمنية لا تقل عن عشرة آلاف ومائتين وثلاث وأربعين مليون سنة، وهذا يزيد عن بلايين أضعاف عمر الأرض، وقام عالما الكيمياء «ماكولم ديكسون، وأيدوب» في عام ١٩٦٢م بحساب احتمال تكون جزيء البروتين ذاتياً، فوجدا أن هذا الاحتمال

(١) د. السباعي: المرجع السابق.

(٢) يراجع: أ.د. محمد حافظ: مدخل لدراسة الهندسة الوراثية، نشر طب المنصورة، ص ٣٠، ود. كيث مولر: علم الأجنة في الكتاب والسنة، طبعة هيئة الإعجاز، ص ٢٠، ود. محمود نجا: بحثه حول حديث القرآن والسنة عن الحامض النووي في الأمشاج، المنشور في موقع إعجاز القرآن والسنة، في ديسمبر ٢٠١٩م.

يحتاج إلى حجم من مخلوط الأحماض الأمينية المعروفة يصل إلى أضعاف حجم الكرة الأرضية بمقدار (١٠٥٠) أضعاف حجم الكون كله، وتكررت هذه المحاولات في عام ١٩٨٧م من العالمين «والاس، وسيمونيس» فتوصلا إلى مثل النتيجة السابقة[١]. وبذلك نُسفت نظرية داروين في التطور- حيث أعلن عالما الوراثة «والاس، وسيمونس» عام ١٩٨٧م استحالة المصادفة في خلق الحياة والكون فذكرا: إذا كان يصعب على الإنسان أن يتنبأ بطريقة قاطعة عن مسار كرة تهبط فوق سطح أكثر من مائة دبوس، وتنتهي بخمس عشرة فتحة، إذا كان التنبؤ هنا مستحيلاً، فكيف يمكن التنبؤ بمصير أكثر من ٣٥ مليون نوع من الكائنات التي تتعايش حالياً مع بعضها ومع الإنسان على ظهر الأرض؟!

وقد أثبت العالم الأمريكي جوزيف كوهين أن نظرية داروين مليئة بالأخطاء، منها أن الحياة لا يمكن أن تنشأ من مواد كيميائية فقط، واستشهد بالحامض النووي للإنسان، وقدم العلماء الأمريكيون في عام ٢٠٠٩م دليلاً جديداً على بطلان نظرية داروين، من خلال اكتشاف الهيكل العظمي لمخلوق اسمه «أردى» قبل أربعة ملايين سنة، حيث أثبتت دراستهم أن الإنسان لم يتطور من قرد[٢].

وقد استطاع عالم التشريح «راندل شورت» الذي قضى حياته في دراسة تشريح جسم الإنسان أن يثبت خطأ التوافق الجنسي بين الإنسان والقرد الذي ذكره بعض علماء التشريح الذين زعموا أن جنين الإنسان مزود بفتحات خياشيمية زائدة، تمثل مرحلة تطور الإنسان من الحيوانات المائية كالأسماك، فرد على هذه النظرية «راندل» بالأدلة العلمية بأن ما يسمى بفتحات خياشيمية

---

(١) د. عبد الخالق حامد السباعي: بحثه القيم: الخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية، المنشور في موقع رابطة العالم الإسلامي، ومصادره المعتمدة الكثيرة، والمنشور أصلاً في العدد (٢١) من مجلة الرابطة، وهناك أكثر من ٥٠ كتاباً في الرد على نظرية داروين علميًّا من مسلمين وغيرهم.

(٢) موقع الجزيرة، وتعليق النجار على ذلك في ٣/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

ليست زائدة، بل هي عبارة عن ثنيات في الأنسجة لازمة لتثبيت الأوعية الدموية في جنين الإنسان، ولكون هذا التفنيد قطعياً اضطر جوليان هاكسلي في كتابه عن التطور للتسليم بما أثبته راندال، كما أن فريقاً من علماء أنثربولوجيا مكوناً من عشرة علماء مختصين بقيادة (Time White) الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بيركلي عام ١٩٨٧م قاموا بفحص ٣٠٢ من هياكل وعظام الحفريات لبقايا ما يسمى إنسان ما قبل التاريخ لأكثر من مليون ونصف مليون عام، فنشروا نتائج بحوثهم التي دلت على عدم الارتباط بين الكائنات الحالية والكائنات السابقة حتى ما سمي بإنسان ما قبل التاريخ، حيث إن الإنسان اليوم متميز تماماً ظاهرياً وتشريحياً، وسلوكياً وقدرات، وعقلاً، وملكات عن أي كائن آخر[١].

وهذا ما أثبتته الاكتشافات العلمية الجديدة لخريطة الجينات، حيث دلت قطعياً على أن كل إنسان متميز عن الإنسان الآخر في صفات فردية لا تتكرر، مثل بصمات أصابع اليدين والقدمين، والحامض النووي DNA، كما أثبت علم البيولوجيا الاجتماعية أن الإنسان كائن مستقل، وليس وليد التطور، وأن له مميزات لا توجد في أي كائن آخر.

بل كلما تقدمت العلوم ازدادت تجليات الله والقرآن الكريم، فمثلاً نجد عالم الكيمياء الأمريكي (Pauling Linus) الحائز على جائزة نوبل عامي ١٩٥٢، ١٩٦٢ م ذكر في احتفال أقامته الجمعية الكيميائية الأمريكية عام ١٩٨٣ م قال في كلمته: «إنه يهتم بالعمل على التقدم المستمر للمعرفة الإنسانية، وإنه يعتبر أن هدف المعرفة يجب أن يكون معرفة الله، بعيداً عن أي طواغيت أخرى، وأنه بذلك يمكن أن يتحقق الالتقاء بين العلم والدين؛ لضمان تحقيق عالم أفضل».

وذكر العالم الأمريكي (Maxwell) في كتابه «العلم يعود إلى الله» عام ١٩٧٠م أن نظرية داروين قد استنفدت أغراضها في زمن إعلانها؛ لأنها قد

(١) موقع الجزيرة، مع مصادره المعتمدة، والموسوعة الحرة، ويكيبيديا، مصطلح: تطور الإنسان.

أصبحت لا تتلاءم مع مستجدات العلم في القرن العشرين[١].

● **بدء الخلق فيه كثير من الغيبيات:**

والحقّ ديناً وعقلاً وعلماً أن نشأة خلق الكون والكائنات الحية فيها كثير من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٣٦]، وهذا لا يمنعنا من وجوب البحث، ولكن يجب علينا أن نستفيد من هذه المعلومات الخالصة الدقيقة من كتاب ربنا، ونستثمر عقولنا فيما يُمكن للعقل أن يخوض فيه، ، فقد أظهر الأخ الدكتور الصلابي كلَّ هذه المعلومات الكثيرة العظيمة الدقيقة المتوافرة في القرآن الكريم، فلو بنى عليها علماؤنا، ثم دخلوا في غمار استكشاف المزيد لخدمة الإنسانية وتعمير الكون كانت أمتنا اليوم هي ما أراده الله لها بأن تكون خير أمة أخرجت للناس، وتكون أمة الشهود الحضاري، وأمة التقدم مع الحفاظ على أخلاقيات العلم في تعاملها مع البيئة ومع الحقائق العلمية، حيث يعاني العالم كله من الأزمة الأخلاقية.

● **الكتاب يثبت تقصير الأمة الإسلامية:**

إن الإنسان المنصف ليقف بإجلال وتعظيم أمام هذه المعلومات الكثيرة الدقيقة والمفصلة المتوافرة في القرآن الكريم التي عرضها مؤلف الكتاب الدكتور الصلابي، حيث لم يترك القرآن شيئاً يتعلق بخلق الكون وكيفية تكونه، وخاصة ما يتعلق بخلق الإنسان الأول، سيدنا آدم عليه السلام، وكل ما يدور في فلكه.

فلو أنَّ علماء المسلمين اعتمدوا على هذه المعلومات الدقيقة، ثم طوروا أفكارهم وعلومهم المتعلقة بطبيعة الكون، وخصائصه، ووجهوا جهودهم نحو استكشاف الحقائق العلمية والابتكارات، لكان لأمتنا السبق والفضل،

---

(١) موقع الجزيرة، مع مصادرها المعتمدة.

ولتحققت لها الخيرية التي يريدها الله تعالى لها في الدنيا والآخرة.

● **مصدر إضافي حول الطبيعة:**

إن أمتنا تمتاز بمصدر معرفي في مجال الطبيعة موثوق لا يوجد لدى الأمم الأخرى، لذلك كان من المفروض أن تكون أكثر تقدماً من غيرها؛ لأنها تشترك مع جميع الأمم في مصادر المعرفة المتمثلة بالعقل والحواس، والتجارب، لكنها مع الأسف ـ في القرون الأخيرة ـ لم تستفد لا من ذلك المصدر الصافي الاستفادة المطلوبة في المجال العلمي والمعرفي، ولا من المصادر الأخرى كما هو الحال لدى الأمم المتقدمة.

والخلاصة أن الكتاب موسوعة معرفية شاملة جامعة حول قصة بدء الخلق، وخلق آدم عليه السلام، ملأت فراغاً كبيراً من مثل هذه الدراسات الجامعة، ويحتاج إليها كل باحث في الإحاطة بقصة بدء الخلق، وخلق آدم عليه السلام. كما يحتاج إليها كل من يريد اكتشاف معالم جديدة عن حقائق القرآن العظيم، ويستفيد من إشعاعاتها، وكذلك لا يستغني عنها مفسر ولا مؤرخ ولا مفكر.

فجزى الله خيراً مؤلفها الأخ الحبيب المفسر الأديب، والمؤرخ الرتيب الدكتور علي الصلابي حفظه الله، وبارك فيه، ووفقه للمزيد من الكتب النافعة للأمة الإسلامية، بل للإنسانية جمعاء، والمؤلفات الهادفة لخدمة القرآن الكريم وعلومه. آمين.

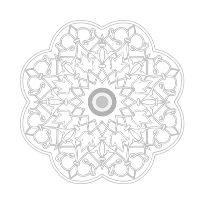
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى ربه

أ.د. علي محيي الدين القره داغي

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

١٣/ ذي الحجة/ ١٤٤١هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ـ٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد؛

فكنت ولا زلت أحلم بإنجاز موسوعة (أولي العزم من الرسل)، وذلك قبل الرحيل عن هذه الدار، والانتقال إلى عالم البرزخ والقدوم على الله عزَّ وجلَّ.

وبعد دراسة مستفيضة وموسعة لسيرة نبي الله ورسوله الكريم نوح عليه السلام، ومعرفة بدايات ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية ومراحلها وأسباب زوال الحضارة الإنسانية الأولى، قادني توفيق الله عزَّ وجلَّ وتسديده، ومن ثم شغفي

بالبحث والمعرفة للعودة إلى المرحلة التي سبقت قصة نوح؛ للتعرف على جذور الحضارة الإنسانية الأولى وقصة الخلق وآدم عليه السلام. ومع أن آدم عليه السلام ليس من أولي العزم لكنّ أولي العزم هم أولاده الخمسة (نوح ـ إبراهيم ـ موسى ـ عيسى ـ محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام).

وإنني أحمد الله عزَّ وجلَّ أن هداني للاهتمام بهذا الميدان المعرفي الغزير في رحاب سور القرآن الكريم وآياته، وأمدَّني بالهمة والعزيمة والصبر والمتابعة في البحث والوصول إلى حقائق ما كنت أعلمها لولا فضل الله وتوفيقه. وكنت كل يوم أكتشف جهلي وقصور علمي، وكذلك حسرتي على السنوات التي ضاعت في غير محلِّها من العلوم النافعة، وتبين لي أن خير الأوقات هي تلك التي تمضي في تعلُّم العلم والمعارف الهادفة التي تستمد معينها من القرآن، واستقصاء سير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

كانت رحلة ماتعة ونافعة قضيتها مع قصة الخلق وآدم عليه السلام واكتشاف معالم جديدة بالنسبة لي من حقائق القرآن الكريم والتفسير الموضوعي للآيات القرآنية. وقد تقيدت في هذه الدراسة بأقوال علماء التفسير والفقه الكبار، وأعمدة التاريخ، ممن ساهموا في إثراء المكتبة الإنسانية والإسلامية بهذه العلوم، وانتهجت منهاجاً اعتمدت فيه على الآيات القرآنية وتفسيراتها المتنوعة، وأقوال العلماء فيها مع الابتعاد عن الكلمات الغامضة، التي يصعب فهمها ما استطعت، مخاطباً أبناء عصري بلغتهم وأسلوبهم، محترماً منطقهم وعقولهم، ومحركاً لقواهم الروحية والوجدانية والنفسية وطاقاتهم الكامنة، من خلال البراهين الناطقة والأدلة الدامغة، التي جاء بها الذكر الحكيم.

إذن، هذا الكتاب من الناحية المعرفية هو محاولة جادة لجمع وتفسير ما يقدمه القرآن الكريم بشأن بدء الخلق، وخلق آدم عليه السلام، استخلصتُها من مطالعة ما ورد في كتاب الله العزيز وكتابات العلماء والمفكرين وأهل التخصص.

وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مدخل وثلاثة فصول وعدة مباحث وخاتمة.

يبدأ الكتاب **بمدخل تمهيدي**، ومن ثم يبدأ **الفصل الأول** للكتاب ويضم مبحثين:

ففي **المبحث الأول**، كان الحديث فيه عن معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وفضلها وشروطها.

وتضمن **المبحث الثاني** أدلة إثبات وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى. ومن هذه الأدلة التي ذُكرت في القرآن الكريم:

❋ دليل الخلق.

❋ دليل الفطرة والعهد.

❋ دليل الآفاق.

❋ دليل الأنفس.

❋ دليل الهداية.

❋ دليل انتظام الكون وعدم فساده.

أما **الفصل الثاني**، فقسمتُه إلى مبحثين:

تناولتُ في **المبحث الأول** قصة بدء الخلق وقدرة الخالق على إيجاد المخلوقات، حيث بيَّنت فيه أن بداية الخلق لم تكن غامضة، وأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو رب العالمين، وأنه سبحانه تحدى الملحدين. ووضَّحتُ كيفية القضاء على وسوسة الشيطان في مسألة الخلق كما بين رسول الله ﷺ في إثبات صفات الكمال لله عزَّ وجلَّ، وكيف عَرَّف الله نفسه لخلقه في كتابه، وتحدثت عن آية الكرسي التي هي أعظم آيات القرآن الكريم. ومن ثم تناولت ثنائية الخلق دليلاً على وحدانية الخالق، وأشرت إلى مظاهر الحكمة في الخلق.

وأجبتُ في **المبحث الثاني** من هذا الفصل عن سؤال في غاية الأهمية وهو: أيُّ المخلوقات خلقت أولاً!؟

وتحدثت عن خلق الله عزَّ وجلَّ للعرش، وأنه أكبر المخلوقات، وعن خلق الله للماء، وخلقه اللوح المحفوظ، وخلق الزمان، وخلق الأرض، وخلق الجبال، وأنها خُلقت بعد الأرض، وعن عبوديتها لله عزَّ وجلَّ وسجودها وتسبيحها وخشيتها وفوائدها وزوالها وفنائها.

وتحدثتُ عن خلق السماوات، فذكرتُ أن السماء والأرض كانتا ملتصقتين، وأن السماء سقف الأرض، مرفوعة بغير عمد ومع ذلك يمتنع سقوطها على الأرض، وتحدثتُ عن خلق الشمس والقمر، وأنهما تابعان للسماء والأرض، وعن ضياء الشمس ونور القمر، وتسخيرهما وأنهما آيتان لحساب الأيام والشهور والأعوام، وتعرضتُ لخلق الليل والنهار والنجوم والمجرات وماهيتها، وأسباب قسم الله عزَّ وجلَّ بمواقع النجوم، وخلق الرياح وأنواعها وفوائدها، والسحب البسيطة والركامية، والرعد والبرق والصواعق، والشجر والنبات وأنواعها ومنافعها وثمارها وألوانها، وختمت بالحديث عن خلق الظلال.

وأما **الفصل الثالث،** فكان لحديث القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام. وقسمت هذا الفصل إلى عدة مباحث حسب ذكر قصة أبينا آدم عليه السلام في سور القرآن الكريم.

في **المبحث الأول** من هذا الفصل درستُ قصة آدم عليه السلام في **سورة البقرة** دراسة تفسيرية تحليلية:

ركزت على الآيات التي قبل القصة والتي بعدها. ففي ذلك أسرار وفوائد ولطائف عظيمة تساعد على التدبر والتأمل والتفكر والوصول إلى نتائج علمية ومعرفية واضحة وأصول عقائدية راسخة، وكان حديثي في المبحث الأول عن معنى اسم الله (الرب)، وعن الملائكة، وعن الخليفة في الأرض، وعن أصل البشرية. وما الغاية والحكمة من خلق الإنسان؟ وهل هناك مخلوقات في الأرض قبل آدم عليه السلام مكلّفة؟

وشرحت المقصود من التسبيح والحمد والتقديس الذي قالته الملائكة:

﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ [البقرة: ٣٠]. كما تكلمت على تعليم آدم عليه السلام للأسماء كلها والمقصود بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. وتحدثتُ كذلك عن العقل الذي هو الأداة الأساسية في التعليم، وعن نشأة اللغة، وعن لمحات الإعجاز الغيبي في القصة، ولماذا سُمي آدم بهذا الاسم؟ وكيف كانت حرية التعبير عنده؟ وأيضاً عن مكانة حرية التعبير في حياة الإنسان. ووقفت متأملاً في دلالات العليم والحكيم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]. وذكرت بعض متعلقات علم الله عزَّ وجلَّ بخلقه وأمره، وآثار الإيمان باسمه (العليم) وكذلك (الحكيم).

وفي الفقرة السابعة من هذا المبحث كان الحديث عن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، وطبيعة هذا السجود، وأنه لم يكن لعبادة آدم عليه السلام، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله، طاعةً له فيما أمر، وإكراماً لآدم به وإظهاراً لفضله وتنويهاً على مكانته عند الله، وبيَّنت حقيقة السجود الذي أمر به الله تعالى الملائكة، وهل كل الملائكة أمروا بالسجود؟ وما مكانة آدم عليه السلام بين المخلوقات؟ وما الأسباب التي جعلت إبليس يمتنع عن السجود؟ وهل إبليس من الجن أو من الملائكة؟ وما الحكمة من خلق إبليس؟

وقد نقلت أقوال العلماء في ذمّ التَّكبر والكِبر وإجماعَهم على أن أصله إبليس، وأن إبليس أول مخلوق أمرنا الله بالحذر منه، وأن الله خلق أُمَّنا حواء كونها شريكة لأبينا آدم في الحياة وبناء اللبنة الأولى من الحضارة الإنسانية وانطلاقها، كما كان الحديث عن الجنة، التي ذكرت في القصة، والسماح لهما بالعيش فيها والابتعاد عن شجرة معينة حُدِّدت لهما حتى لا يكونا من الظالمين، وتحذيرهما من عدوهما إبليس.

وقد ذكرتُ أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ ﴾ [البقرة: ٣٦]. وبيَّنت المقصود بوسوسة إبليس، وأهدافه التخريبية للإنسان في عقله ونفسه وقلبه وبدنه وعمله، بغية إيقاعه في المعاصي

والذنوب والخطايا، ووضحت الآيات الكريمة التي في سورة البقرة المتعلقة بقصة آدم إلى نهايتها في قوله تعالى:

* ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وإن قصة آدم عليه السلام، كما جاءت في سورة البقرة، وقد حرصت على بيان دروسها وفوائدها وقيمها، وسننها النافعة لبني الإنسان؛ فبيَّنتُ الحكمة من معصية آدم عليه السلام وتوبته، والفرق بين معصية آدم وإبليس، وأن الخطيئة عند الله ليست موروثة.

وتحدثتُ عن هبوط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض، والحكمة من الهبوط، وأن آدم وزوجه مهيّآن لعمارة الأرض التي هي المنزل الكبير لهما ولذريتهما.

ووقفتُ وقفة تأمل وتدبُّر في أقدم الوصايا في تاريخ البشرية، وهي قوله تعالى في نهاية القصة في سورة البقرة: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨ـ٣٩].

وكذلك تكلمت على نبوة آدم عليه السلام ورسالته لبنيه.

وفي **المبحث الثاني** من الفصل الثاني، تحدثتُ عن قصة آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس في **سورة الأعراف**، التي تناولتْ آياتُها الكريمة عدة أمور:

* بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عزَّ وجلَّ.

* خلق الإنسان وتصويره، وبيَّنت المراحل التي مر بها:

المرحلة الأولى: التراب.

المرحلة الثانية: الماء.

المرحلة الثالثة: الطين.

المرحلة الرابعة: الطين اللازب.

المرحلة الخامسة: الحمأ المسنون.

المرحلة السادسة: الصلصال.

وبعدما مر آدم عليه السلام بالمراحل المذكورة وهي: خلقه من تراب، ثم تحويل التراب إلى طين، ثم تحويل الطين إلى طين لازب، ثم تحويل اللازب إلى صلصال من حمأ مسنون، ثم تحويل ذلك الصلصال إلى صلصال كالفخار، صار آدم عليه السلام تمثالاً مجسماً دون روح، وهذه المرحلة هي مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ـ٧٢].

لقد نفخ الله في هذا التمثال المجسَّم من روحه، فدبت فيه الحياة، وصار إنساناً حيّاً متحركاً؛ أي بث الله فيه الروح التي هي سر الحياة، والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها، فهي من عالم الغيب، وهي الجزء المهم من هذا الإنسان، وهي التي أعطته القيمة والكرامة.

إن نفخة الروح سبب الحياة وسرُّها، وكم من أمر لا يعلمه البشر، ولكنهم يؤمنون به، فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً، أفلا يؤمن بها البشر!؟

كيف لا، وجُلُّ حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن يؤمنوا بوجودها وينتفعوا بها، ولم نسمع منهم من يقول: أقنعني بوجود الكهرباء؟

إن كرامة الإنسان متمثلة بنفخة الروح لا بقبضة الطين، فسمت قبضة الطين بنفخة الروح وتوحيد الخالق الكريم والدين العظيم. وإن الدين هو روح الروح، فكأنما الكرامة لهذا الإنسان بالروح وروح الروح، فتأمل![(١)]

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط١، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص٢٠٣.

لقد حاولتُ في هذا الكتاب تبيان ماهية الروح وطبيعتها وجوهرها واستحالة معرفة حقيقتها. كما أنني بيَّنتُ أول قول وفعل لآدم عليه السلام، وكان الحديث موسعاً عن زوجة آدم عليه السلام أُمِّنا حواء، والشراكة بينهما في تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى بأبعادها المادية والروحية، القائمة على توحيد الله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالعبادة واتباع شرعه سبحانه.

كما أن معرفة قصة آدم عليه السلام ومراحل خلقه، وخلق ذريته، توضِّح لكل عاقل مُتبصِّر أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وتبطل كل دعوى في أن الخلق وجد مصادفة، أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون وما فيه من مخلوقات، أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت بعد مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكوينها وتطورها أخرجت لنا الإنسان. فهذه النظرية تسمى بنظرية التطور والارتقاء التي جاء بها داروين، وهذه النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي أظهرها علم التشريح، حيث بيَّنَ فروقاً خلقية بين الكائنات الحية تُثبتُ خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية[(١)].

وقد ناقشتُ النظرية الداروينية بتوسع في هذا الكتاب، وبيَّنتُ بطلانها بأدلة العلماء، وبراهين العقل، واستدلالات المنطق، وأن الحديث العلمي والأبحاث البيولوجية الثابتة تنسجم مع خطاب القرآن الكريم، وهو القول الحق: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وبعد الدراسة المعمقة للنظرية، تم بيان بطلانها وعدم صحتها، بالاستناد إلى الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، والاستئناس بأدلة العلماء الذين ألف العشرات منهم مئات الكتب والتقارير والنشرات والتحليلات حول بطلان نظرية داروين علميّاً وعقلياً، وقد توصلوا بجهودهم العلمية إلى نسف النظرية من

---

(١) تنوع الخطاب في العهد المكي، رجاء صالح البحر، مكتبة المتنبي، الدمام، ط١، ٢٠١٧م، ص١٥٢.

أساسها وتقويض أركانها ودعائمها مستندين في ذلك إلى ما قررته العلوم الحديثة، كعلم الوراثة والجيولوجيا وغيرهما.

وقد تعرضتُ للقضايا التي ذكرتها قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف، وأهمها:

* سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين، وبيان سبب عدم الامتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ.

* إصرار إبليس على إغواء بني آدم وإتيانهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

* مخاطبة الله له بالإهانة وإخراجه مذؤوماً مدحوراً.

* قصة آدم في الجنة وخروجه منها.

* النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصة آدم، وما فيها من تقرير وتحذير كما جاءت في سورة الأعراف.

وفي **المبحث الثالث** من الفصل الثاني تناولت قصة آدم عليه السلام في **سورة الحِجْر**:

فتحدثتُ فيه عن خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وخلق الجان من نار السموم، وأصل المادة التي خُلق منها الجان، وإثبات تكليف الجان. وبيَّنتُ أن ﴿مِن رُّوحِى﴾؛ «من» في هذه الآية بيانية وليست تبعيضية، وإيحاءات كلمة الروح في القرآن الكريم، وأهم المظاهر للحياة الروحية للإنسان، ومنها:

* العيش في واحة الأسماء الحسنى.

* التأمل العقلي في مخلوقات الله المبثوثة في الكون.

وشرحتُ كل الآيات المتعلقة بقصة آدم عليه السلام، ومصير من اتبع صراط الله من الجنان والسعادة الأبدية، ومآل من سلك طريق إبليس إلى جهنم التي وصفتها الآيات بأن لها سبعة أبواب، وأن لكل باب منهم جزءاً مقسوماً.

وفي هذا المبحث وضحتُ وسائل إبليس في إضلال الناس، كما بيَّنتها الآيات في سورة الحجر متمثِّلةً بالتزيين والإغواء: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ فالتزيين والإغواء ركنان أساسيان في الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، فمَن يُغوي الناس عن الحق، ويزين لهم الباطل، فليَعلمْ أنه من معسكر إبليس. وبيَّنتُ الوسائل التي استعملها إبليس وتم فضحها في هذا الكتاب:

❋ التشكيك في وجود الخالق.

❋ التشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الأصنام.

❋ التشكيك في العقائد الإيمانية.

❋ التشكيك الذي يشمل حياة المسلم عامةً.

❋ تزيين الهوى والمعاصي.

❋ التثبيط عن فعل الطاعات.

وكذلك بيَّنتُ طريق النجاة التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في هذه القصة، وأهمية الإخلاص لله رب العالمين، في التغلب على الشيطان وأتباعه، فالإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها، لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة.

وفي **المبحث الرابع** من الفصل الثاني تحدثت عن قصة آدم عليه السلام كما جاءت **سورة الإسراء**:

حيث شرحت الآيات، معتمداً على علماء التفسير من المتقدمين والمتأخرين، ووقفت على قوله تعالى في نهاية القصة التي جاءت في سورة الإسراء: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾؛ متأملاً ومتفكراً ومتدبراً في إيحاءات اسم الله الوكيل، وعلاقته بأحداث القصة، وأثر ذلك على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وخصَّصتُ **المبحث الخامس** من هذا الفصل لقصة آدم عليه السلام كما جاءت في **سورة الكهف**:

فوضَّحتُ الآيات وبيَّنتُ معانيها وأحكامها وأسرارها وفوائدها. وتوسعت في شرح قول الله تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وفي **المبحث السادس** من الفصل الثاني بحثتُ في قصة آدم عليه السلام كما جاءت في **سورة طه**: فشرحتُ الآيات المرتبطة بها، وركزت على استخراج دروسها وعبرها وفوائدها المتعلقة بـ:

❋ العهد والنسيان والعزم.

❋ احتياجات الإنسان الرئيسية.

❋ حرص إبليس عدو آدم على الإغواء.

❋ مدخل إبليس من الغرائز، ومن أهمها: غريزة الملك والخلود.

❋ توبة الله على آدم وهدايته.

❋ الهدى والرحمة في شرع الله.

❋ الضنك والتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن الهدى.

في **المبحث السابع** من الفصل الثاني تناولت قصة آدم عليه السلام كما وردتْ في **سورة ص**:

وقد بحثت في الآيات التي سبقت القصة وعلاقتها بها، وشرحتُها وبيَّنتُ تفسيرها، ثم شرعت في الحديث عن بداية الإنسان، والحوار الذي حدث في الملأ الأعلى، المتعلِّق بخلق آدم عليه السلام، وأوضحتُ أن ذلك كلَّه من الغيبيات التي لا يمكن الوصول إلى معرفتها إلا عن طريق القرآن الكريم الذي نزل على الصادق المعصوم نبينا ورسولنا محمد ﷺ.

وتحدثتُ في **المبحث الثامن** من هذا الفصل بشيء من التفصيل عن هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض وقصة آدم عليه السلام، وذكرت أموراً مهمة منها:

❋ بداية الحضارة الإنسانية الأولى.

❋ الزواج والتناسل.

❋ توافر أسباب الحياة.

❋ آدم عليه السلام داعية التوحيد والهداية الربانية.

❋ عبادة الله في الأرض.

❋ آدم عليه السلام والبيت الحرام.

❋ البناء الأخلاقي للحضارة الإنسانية الأولى.

❋ أصول الأخلاق والفضائل الإنسانية الأولى.

❋ عمارة الأرض.

❋ المنهج الرباني.

❋ الاستخلاف ومقوماته.

❋ بنو آدم عليه السلام والأمانة.

❋ مفهوم الأمانة ومجالاتها.

❋ مقومات الأمانة.

❋ بنو آدم والكرامة الإنسانية.

❋ التكريم الجسدي.

❋ التكريم العقلي.

❋ التكليف وأمانة الاستخلاف.

❋ من مظاهر التكريم.

❋ قصة ابني آدم عليه السلام (هابيل وقابيل).

❋ وفاة آدم عليه السلام والرحيل.

❋ ❋ ❋

لقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الخميس في تمام الساعة السابعة وأربع وثلاثين دقيقة قبل صلاة المغرب بمدينة إستانبول بتاريخ: ١٩ شوال ١٤٤١هـ/ ١١ يونيو ٢٠٢٠م، وذلك في أثناء حصار البشر، وانقطاع أسباب السفر بسبب وباء كورونا، الذي تجاوزت أعداد المصابين به أكثر من عشرة ملايين شخص حول العالم، وتجاوزت أعداد الوفيات أكثر من نصف مليون إنسان حتى تاريخ كتابة هذه الكلمات.

اللهم ارفعه عن الإنسانية، وردهم إليك ردّاً جميلاً يا أرحم الراحمين.

والحمد لله على فضله ومنِّه، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يُكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع إخوتي الذين ساعدوني في إتمام هذا الكتاب.

وأخيراً: لا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرِّئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله خالقي وهو المتفضل، وربي الكريم وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلَّد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفَّت العواطف، وتحجَّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان. . . اللهم يا مقلب القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك وعلى طاعتك.

اللهم إني أعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطريق الغواية.

اللهم بَصِّرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك،

واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تُثَبِّتَني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم.

رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين.

نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته من دعائه، قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

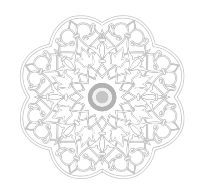
والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. علي محمّد محمّد الصّلاّبي

/ إستانبول/

١ شوال ١٤٤١هـ/ ١١ يونيو ٢٠٢٠م



تمهيد

إن الحديث عن قصة بدء الخلق وآدم عليه السلام، وجذور الحضارة الإنسانية الأولى، يسمو بنا لنستشعر عظمة الخالق الحكيم، والواهب العظيم، الفعّال لما يريد، الكريم المنّان، الواسع العليم، الذي رأيتُ من خلال تأملي في الحياة والتاريخ عظمتَه، وهي تتجلى في قيامِ الدول وزوالها، وانتشارِ الحضارات واندثارِها، وعزّ الحكومات وإذلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ.

ويبدو لكل من يتأمل ويتفكر أن الذين آمنوا بالله العظيم، واتبعوا رسوله الكريم ﷺ، هدى الله قلوبهم، بل زادها إيماناً، إذ عرفوا ربهم، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم، الذي ابتلى إبراهيمَ بكلمات، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات، واستجابَ لزكريا فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مَهدِيّاً، وحناناً من لدنه وكان تقيّاً.

الله جلَّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداوُد، وسخّر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّى هوداً وأهلك قومه، ونجّى صالحاً من الظالمين، فأصبح قومه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفدى إسماعيل بذِبحٍ عظيمٍ، وجعل عيسى وأمّه آيةً للعالمين.

الله جلَّ وعلا الذي أغرق فرعون وجنوده، ونجّاه ببدنه ليكون لمن خلفَه آية، وخسفَ بقارون وبدارِه الأرض، ونجّى يوسف من غيابة الجُبّ، وجعلَه على

خزائن الأرض، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين، ونجّاه وأهله من الكرب العظيم.

الله جلَّ وعلا الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأجدَّ وأبلى، ورفع وخفض، وأعزَّ وأذلَّ، وأعطى ومنع.

الله جلَّ وعلا الذي هدى نوحاً وأضلّ ابنه، واختار إبراهيمَ وأبعد أباه، وأنقذَ لوطاً وأهلكَ امرأته، ولعن فرعونَ وهدى زوجتَه، واصطفى محمّداً ومقت عمَّه، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومته؛ كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته[١].

الله جلَّ وعلا الذي جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصرُ الجمال في هذا الكون مقصودٌ قصداً، جمالٌ مقصودٌ، وكمالٌ بلا حدودٍ، فرؤيةُ الجمال على حقيقته لا تكونُ إلا حينما ينظرُ القلبُ بنور الله، فتتكشّفُ له الأشياءُ عن جواهِرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكّر اللهَ كلّما وقعت عينُه أو حِسُّه على شيءٍ بديع، أو منظرٍ حَسَنٍ، فيُحسُّ بالصلةِ، ويشعرُ بالترابط بين المبدع وما أبدعَ، والجميلِ وما جمّل، والمحسنِ وما أحسنَ، ويرى مِنْ وراء هذا الجمال جمالَ الله وجلالَه وكمالَه.

والقرآن الكريم يوقظُ القلوبَ لتتبُّع مواضع الحسنِ وآيات الجمالِ في هذا الكون البديع، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]. وتأمّلْ جملةَ: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ﴾ إنّه استفهامٌ استنكاري لأولئك الذين لهم أعينٌ لا يبصرونَ بها، وقلوبٌ لا يفقهون بها، ولا يرونَ ذلك الجمالَ الساحرَ، والإبداعَ الأخّاذ،

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، ناصر بن مسفر الزهراني، شركة العبيكان، السعودية، ط٧، ٢٠٠٧م، ص٤١.

والحُسْنَ الجذّابَ، الذي يدل على ربّ العبادِ، ولذلك يكثرُ في القرآن الكريم الأمرُ بالنظرِ لأخذِ العبرة، وللإحساسِ بالجمال. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: ١٠١]. فأينَ الأعينُ الناظرةُ، والقلوبُ المبصرةُ، والأذهانُ المتوقّدةُ، والفطرةُ السليمةُ، والمشاعِرُ الحيّةُ، والأحاسيسُ المرهَفَةُ؟! يا الله، ما أروعَ هذا الكون! وما أجملَ هذا الوجود! إن المتأمِّلَ فيه يُبْهَرُ بجماله، وروعةِ نظامه، وعظمةِ إحكامِهِ، كلُّ شيءٍ فيه جميلٌ، ليلُه ونهارُه، صبحُه ومساؤه، أرضُه وسماؤه، بدرُه وشمسُه، حَرُّه وبردُه، غيمُه وصحوُه، أخضرُه وأغبرُه، جبالُه وتلالُه[1]، سهولُه وودیانُه، بَرُّه وبحرُه، كلُّ شيءٍ جميلٌ، وكلُّ شيءٍ بديعٌ، وكلُّ شيءٍ متقَنٌ، وكلُّ شيءٍ متناسِقٌ، وكلُّ شيءٍ منتَظِمٌ، وكلُّ شيء بقدر، وكلُّ شيءٍ بإحكامٍ، مِنَ الذرَّة الصغيرةِ إلى الجِرْمِ الكبير، ومنَ الخليّةِ الساذجةِ إلى أعقدِ الأجسام.

انظر إلى الإنسان وروعة خَلْقه، وتباينِ أجناسِه، وتعدُّدِ لغاتِه، واختلافِ ألوانِه، فالله جلَّ وعلا قد أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه، ومنْ أحسنِ مخلوقاتِهِ وأجملِها الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

(١) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص٦٦ ـ ٦٧.

فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

انظر إلى السماء وهيبتِها، والنجومِ وفتنتِها، والشَّمسِ وحُسنِها، والكواكبِ وروعتِها، والبدرِ وإشراقِه، والفضاءِ ورحابتِه، تأمّلِ السماء في ليلةٍ حالكةٍ وقد انتشرت فيها الكواكبُ، وبُثَّتْ فيها النجوم.

انظر إلى الأرض كيفَ دحاها، وأخرجَ منها ماءها ومرعاها، والجبالَ أرساها. هذه البحارُ، هذه الأنهارُ، هذا الليلُ، هذا الصبحُ، هذا الضياءُ، هذه الظلالُ، هذه السُّحبُ، هذا التناغُمُ الساري في الوجودِ كلّه، هذا التناسقُ، هذه الزهرةُ، هذه الوردةُ، هذه الثمرةُ اليانعةُ، هذا اللَّبنُ السائغُ، هذا الشَّهْدُ المـُذابُ، هذه النخلةُ، هذه النحلةُ، هذه النملةُ، هذه الدُّويبةُ الصغيرةُ المجهّزةُ بالأرجلِ والشُّعيراتِ لتشقَّ طريقَها، وتتعاملَ مع واقعِها، هذه السمكةُ، هذا الطائرُ المغرِّدُ، والبلبلُ الشادي، هذه الزاحفةُ، هذا الحيوانُ؛ جمالٌ لا ينفد، وحُسْنٌ لا ينتهي، وقرَّةُ عينٍ لا تنقطعُ[1]. قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٩].

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ ليس له شريكٌ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، كلُّ ما في الكون من إبداعٍ ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبِّره واحدٌ، ولو كان وراءَ هذا الكون أكثرُ من مدبِّرٍ، وأكثرُ من منظِّمٍ، لاختلَّ نظامُه، واضطربَتْ سنَنُهُ. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد بأنّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين بذلكَ وهم

(١) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص٦٨ ـ ٦٩.

مشركون، بل التوحيدُ يتضمّن محبَّةَ اللهِ، والخضوعَ له، والذلَّ له، وكمالَ الانقيادِ لطاعتِه، وإخلاصَ العبادةِ له، وإرادةَ وجههِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعطاءِ، والحُبِّ والبغض، وهو واحدٌ سبحانه في ألوهيته، فلا يستحقُّ العبادةَ إلا هو، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه. لا خشيةَ إلا منه، ولا ذلَّ إلا إليه، ولا طمعَ إلا في رحمته، ولا اعتمادَ إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه[١]. الله جلَّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه، قال تعالى: ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قد يُعْطَى الإنسان أموالاً، وقد يُمْنَحُ عقاراً، وقد يُرْزَقُ عيالاً، وقد يُوْهَبُ جاهاً، وقد ينَالُ منصباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً، قد يحفُّ به الخدمُ، ويحيطُ به الجندُ، وتحرسُه الجيوشُ، ويخضَعُ له الناسُ، وتذلُّ له الرؤوسُ، وتدينُ له الشعوبُ، ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إلى مولاه[٢]. الله تعالى أسعدَ عبادَه بكتابه، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه، وأنارَ بصائِرَهم بقراءته، أكثرُهم قراءةً له أشدُّهم تعظيماً له، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه، وأقرَؤُهم لوحيه.

كلامٌ معجزٌ، وقرآن مبهجٌ، وحبلٌ متينٌ، ونورٌ مبينٌ، ينطِقُ بالعظمةِ، ويهتِفُ بالإبداع، ويصدَحُ بالألوهيةِ، ويشهدُ بالربوبية[٣]. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. وجودُ الله جلَّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس، متمكّنٌ في الفِطَرِ، مزروعٌ في الأذهانِ، مغروسٌ في الأفئدةِ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا يتطلّب إثباتاً، ولا يفتقِرُ إلى توكيدٍ. قال الشاعر المتنبي:

---

(١) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص٨٥.
(٢) الزهراني، المرجع السابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) الزهراني، المرجع السابق، ص٤٩٠.

وَلَيسَ يَصِحّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتَاجَ النّهارُ إلى دَليلِ

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسةِ، والأنْفُسِ المريضةِ، والعقليّات المتعنّتَةِ، قد يجادلون في ذلك، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضمائرهم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]. وجاء القرآن الكريمُ مزدهراً بآياتٍ تنطِقُ بالعظمةِ، وتشهدُ بالربوبيّةِ، وتَسُرُّ نفوسَ الواثقين، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين، قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ، وأمناءُ الوحي، وحملةُ الدعوةِ، ومصابيحُ الدجى، وأنصارُ التوحيدِ، لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصورِ، مع اختلافٍ في طبقاتهم، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنَّه رب العالمين، فأيّد الله أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ، ودلائلَ باهرةٍ، وأدلةٍ قاصمةٍ، وصواعقَ مرسلةٍ، تدمِّرُ أباطيلَهم، وتنسِفُ افتراءاتِهم، وتزلزِلُ كياناتِهم، وتُظْهِرُ سُخْفَ عقولِهم، وقلّة فهمهم، وانحطاطَ أمانيهم؛ فهذا إبراهيمُ عليه السلام يحاوِرُ النمرود، الذي طَغَى وتجبّر، وعتا وتكبّر، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليل الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيته فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾. قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأُتي برجلين قد تحتّمَ قتلهما، فأمرَ بقتلِ أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأمات الآخر)، وهذه حجةٌ واهيةٌ وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي هذه الشمسُ مسخّرةٌ كلَّ صباحٍ تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيِّرُها وقاهِرُها؛ اللهُ الذي

لا إله إلا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنَّك تحيي وتميتُ فائتِ بهذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، ودانَ له كُلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هذا، فإنْ لم تفعلْه فلستَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه السلام(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال الصحابي (الشاعر) لبيد بن ربيعة:

فيا عجباً كيفَ يُعْصَى الإلـ ـه أمْ كيفَ يجحَدُهُ الجاحِدُ
ولله فِي كلِّ تحريكةٍ علينا وتسكينةٍ شاهدُ
وفي كلِ شيءٍ لـه آيةٌ تدلّ على أنه واحدُ

وما أجمل هذه الأبياتَ الرائعةَ التي قالها الشاعر إبراهيم بريول رحمه الله:

إني أويت لكل مأوى في الحيا ةِ فما رأيت أعز من مأواكا
وتلمّستْ نفسي السبيل إلى النجا ةِ فلم تجد منجى سوى منجاكا
وبحثتُ عن سر السعادة جاهداً فوجدت هذا السر في تقواكا
فليرضَ عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

إلى أن قال:

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي بالله جلَّ جلالُهُ أغراكا؟
فاسجد لمولاك القدير فإنما لا بدَّ يوماً تَنْتَهِي دُنياكا
وتكونُ في يومِ القيامةِ ماثلاً تُجْزَى بما قَدْ قدّمَتْهُ يَدَاكا

إنَّ حقائقَ الاسلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة الرسول ﷺ، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ، وطلاّبَ العلمِ فيها، يتناولونها بالشرح والتفسيرِ بحيث تُواكب الواقع

(١) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص٥٦٧.

الذي يعيشُه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيه من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو السلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً قصة الخلق وآدم عليه السلام.

❊ ❊ ❊



الفصل الأول

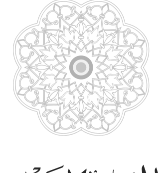
أدلة وجود الخالق وبدء قصة الخلق

المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله؛ فضلُها وشروطُها.

المبحث الثاني: إثبات وجود الخالق.

* * *





المَبْحَثُ الأَوَّل

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فضلُها وشروطُها

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ (لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله)، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزَّ وجلَّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ ﷺ بالرسالةِ. أنْ يشهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المستحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَرفَ قواه ـ قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنِهِ وجوارحِهِ ـ في التسبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإله العظيم، الذي أنتَ أيُّها الإنسان من بعضِ فضلِه، ومن بعضِ خلقِه، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به، وتمجِّده، وتسبِّحه، شئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنسان أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[1]، وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً ﷺ الخاتمَ للرسل هو عبد اللهِ ورسولُه، أرسلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، ويكون ذلك إقراراً باللسانِ، وإيماناً بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً: معنى: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»:

إن معنى كلمة «لا إله إلا الله» أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه

(١) مع الله، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٣٩.

المستحقُّ بأنْ تكونَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].
وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ومعنى شهادةِ «أنَّ محمداً رسول الله»: الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بن عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ الله إلى جميع الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فكلمة «لا إله إلا الله» تشمل جزأين؛ النفي والإثبات:

ـ أما «لا إله»: فنافيةٌ لجميعِ ما يُعْبَدُ منْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و«النكرةُ في سياقِ النفي تفيدُ العمومَ»؛ فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى[1].

ـ أما «إلا الله»: فَمُثْبِتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر «لا» المحذوفَ «بحق» هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى «لا إله بحق إلا الله»: أي لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجاد، والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في

(١) العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، ١٤٣٤هـ، ص٢٦٠.

التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالألوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

ـ أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة «الله» عزَّ وجلَّ:

ـ فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عندَ قومٍ.

ـ وهو أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

ـ و«الله» هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف ألسنتهم.

ـ و«الله» هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية.

ـ وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

ـ و«الله» اسمٌ للربِّ المعبودِ المحمودِ، الذي يمجِّده الخلقُ، ويسبّحونه، ويحمَدونه، وتسبّحُ له السماوات السبعُ، والأرضونَ السبعُ، ومن فيهنّ، والليل والنهار، والإنس والجن، والبَرُّ والبحر، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ـ و«الله» هو الربُّ الذي تُؤلِّهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكره وقربِهِ، وتشتاقُ إليه، وتفتقر إليه المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبليةِ، فهو مبدئها ومعيدُها، ومُنْشِئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ به، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما

مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَناً ونعماً، وأفاضَ عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه الشيء الكثير، فجديرٌ إذاً أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

ـ «الله» عظيمٌ في ذاته وصفاته وأسمائه وجلاله ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدرِكُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظُّنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن كانت تستطيع بما مُنِحَتْ من الطّوْقِ والقدرةِ أن تدرِكَ جانباً من هذه العظمةِ يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له بكلِّ ما تستطيع[1].

قال الشاعر:

لله فـــي الآفـــاق آيـــات لعـــلَّ ... أقلهـــا هـــو مـــا إليـــه هـــداكـــا

ولعـل مـا فـي النفـس مـن آيـاتـه ... عجـبٌ عجـابٌ لـو تـرى عينـاكـا

والكـــون مشحـــون بـــأســـرار إذا ... حـــاولـــت تفسيـــراً لهـــا أعيـــاكـــا

ـ «الله» هو الإله المعبود، الذي يُخْلِصُ له المؤمنون قلوبَهم، وعبادتهم، وصلاتَهم، وحَجَّهم، وأنساكَهم، وحياتَهم، وآخرتَهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. وروحُ (لا إله إلا الله) وسرُّها: إفرادُ الربِّ جلَّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتباركَ اسمُه، وتعالى جَدُّه، ولا إله غيرُه؛ بالمحبةِ، والإجلالِ، والتعظيمِ، والخوفِ، والرجاءِ، وتوابعِ ذلك من التوكلِ، والإنابةِ، والرّغبة، والرّهبةِ، فلا يُحَبّ سواه، بل كلُّ من كانَ يحِبُّ غيره فإنما يحبُّه تبعاً لمحبته، ولأنّه وسيلةٌ إلى زيادةِ محبته، ولا يُخَاف ولا يُرْجَى سواه، ولا يُتَوَكَّلُ إلاَّ عليه، ولا يُرْغَبُ إلاَّ إليه، ولا يُرْهَبُ إلاَّ منه، ولا يُحْلَفُ إلاَّ باسمِهِ، ولا يُنْذَرُ إلاَّ له، ولا يُتَابُ إلاَّ إليه، ولا يُطَاعُ إلاَّ بأمرِه، ولا يُحْتَسَبُ إلاَّ له،

---

(١) مع الله، العودة، مرجع سابق، ص٣٦ ـ ٣٧.

ولا يُسْتَعَانُ في الشدائِدِ إلاَّ به، ولا يُلْتَجَأُ إلاَّ إليه، ولا يُسْجَدُ إلاَّ له، ولا يُذْبَحُ إلاَّ له وباسمِهِ، يجتمع ذلك في حرفٍ واحدٍ؛ هو ألاَّ يُعْبَدَ بجميع أنواعِ العباداتِ إلاَّ هو. فهذا هو تحقيقُ شهادةِ «أن لا إله إلاَّ الله»، ولهذا حرَّمَ الله على النارِ مَنْ شهدَ «أنْ لا إله إلا الله» حقيقةً، ومحالٌ أن يدخل النارَ مَنْ تحقَّقَ بحقيقةِ هذه الشهادة، وقامَ بها كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣]. فيكونُ قائماً بشهادتهِ في باطنِهِ وظاهره، وفي قلبه وقالبه(١).

ومقتضى هذه الشهادة أنْ تصدِّق رسول الله ﷺ فيما أخبرَ، وأن تمتثل أمرَه فيما أمر، وأنْ تتَجَنَّبَ ما عنه نهى وزجر، وألا تعبدَ الله إلا بما شرع، وألا تعتقد أنَّ لرسول الله ﷺ حقّاً في الربوبية، وتصريفِ الكون، أو حقّاً في العبادةِ، بل هو ﷺ عبد لا يُعْبَدُ، ورسولٌ لا يكذَّبُ، ولا يملِكُ لنفسِهِ ولا لغيره شيئاً مِنَ النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله(٢).

لقد عُرِفَتْ (لا إله إلا الله) لدى المسلمين بـ: «كلمة التوحيد»، و«كلمة الإخلاص»، و«كلمة التقوى»، وكانت (لا إله إلا الله) إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً. وكانت (لا إله إلا الله) نداءً عالمياً لتحريرِ الإنسان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِق، وكانت (لا إله إلا الله) عنوانَ منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلا له، ولا تنقادُ القلوبُ إلاَّ لحكمه، ولا تخضعُ إلاَّ لسلطانه(٣).

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٩٩٧م، ص١٣٩.

(٢) الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٣م، ١/ ٢٣٣.

(٣) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٣٩٩هـ، ص٣١.

ثانياً: فضل كلمة «لا إله إلا الله»:

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من الفضائل الجمّة لهذه الكلمة، والخصالِ العديدة، والأوصافِ الحميدةِ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه، وأنزلَ كتبَه، وشرعَ شرائعَه، ولأجلِها نُصِبَتِ الموازينُ، ووضعت الدواوينُ، وقام سوقُ الجنّة والنار، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار.

فهي منشأُ الخلقِ والأمر، والثوابِ والعقابِ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ، وعليها نُصِبَتِ القبلةُ، وعليها أُسّسَتِ الملّةُ، ولأجلِها جُرّدتْ سيوفُ الجهادِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ.

فهي كلمةُ الإسلام، ومفتاحُ دارِ السلامِ، وعنها يُسْألُ الأولون والآخرون، فلا تزولُ قدما العبد بين يدي الله حتى يُسْألَ عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجوابُ الأولى: بتحقيق لا إله إلا الله؛ معرفةً، وإقراراً، وعملاً. وجواب الثانية: بتحقيق «أن محمداً رسول الله»؛ معرفةً، وإقراراً، وانقياداً وطاعةً[(١)].

ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِفَتْ بـ: الكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥]. وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(١) الجواب الكافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، المرجع السابق، ١/ ٣٤.

ومن فضائلها أنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشِّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً:

فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ، أو بِضْعٌ وستون شُعْبَةً، أفضلُها: قولُ لا إله إلا الله، وأَدْناها: إمَاطَةُ الأذى عن الطريق**»[(١)].

ومن فضائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، كما قال الرسول ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا منّي دماءَهم وأموالَهم، إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ**»[(٢)].

ومن فضائلها أنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب، كما جاء في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئاً، أظلمَك كَتَبتي الحافظونَ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ. فيقولُ: بلى إنَّ لك عِنْدَنَا حسنةً، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، فيقول: احْضُرْ وزنَكَ.**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم: (٣٥)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، رقم: (٢٥)، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ.

فيقول: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مَعَ هذهِ السّجلاتِ؟ فقال: إنّك لا تُظْلَمُ. قال: فتوضع السجّلاتُ في كِفّةٍ، والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشتِ السجلاّتُ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ» (١).

ثالثاً: أفضلُ الذكرِ «لا إله إلا الله»:

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسَّرهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرء: لا إله إلا الله. وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله**» (٢).

وهذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أنْ يتعلَّمَها، ويعلمَ مضمونَها ومعناها، وشروطها وأركانها، وكلَّ ما يتعلّق بها؛ لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلماً، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام، ولأنَّ الله جلَّ جلاله أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ ﷺ أنْ يَعْلَمَ كلَّ ما يتعلَّقُ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقد ذمّ الله سبحانه من استكبرَ عنها، وأعرضَ عنها، وتركَ العمل بها، في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦]. ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم: (٢٦٣٩). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦م.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب دعوات رسول الله ﷺ، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وحقَّقها إبراهيمُ عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ـ٢٨].

رابعاً: أشعةُ كلمةِ «لا إله إلا الله» تبدِّدُ ظلماتِ القلوبِ:

اعلمْ أنَّ أشعة (لا إله إلا الله) تبدِّدُ مِنْ ضبابِ الذنوبِ وغيومِهَا بقدر قوّةِ ذلك الشّعاع وضعفه؛ فلها نورٌ، وتفاوتُ أهلِها في ذلك النّور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس مَنْ نورُ هذه الكلمةِ في قلبه كالشمس، ومنهم مَنْ نورها في قلبه كالكوكب الدرِّي، ومنهم مَنْ نورُها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراجِ الضعيف، ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيمانهم، وبينَ أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً.

وكلّما عَظُمَ نورُ هذه الكلمة واشتدّ أحرقَ مِنَ الشبهاتِ والشهواتِ بحسب قوته وشدّته، حتى إنّه ربما وصلَ إلى حالٍ لا يصادفُ معها شبهةً ولا شهوةً ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حالُ الصادقِ في توحيدِهِ، الذي لم يشركْ باللهِ شيئاً، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شبهةٍ دنت من هذا النور أحرقَها، فسماءُ إيمانه قد حُرِستْ بالنجوم من كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا يَنَالُ منها السارقُ إلا على غرّة وغفلةٍ، لا بدّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعلمَ ما سُرِقَ منه استنقذه من سارقه، أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجنِّ والإنسِ، ليسَ كمَنْ فتحَ لهم خزانَته، وولّى البابَ ظهره[1].

خامساً: توافق بين «لا إله إلا الله» و«إياك نعبد»:

إنّ معنى (لا إله إلا الله) تضمّنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) الجواب الكافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩.

نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهذه الآية متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات؛ ففيها يُسْرُ الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمّنةٌ لأجلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديتُه، وأفضل الوسائل إعانتُه، فلا معبودَ يستحقُّ إلا هو، ولا معينَ على عبادته غيره، فعبادتُه أعلى الغايات، وإعانتُهُ أجلُّ الوسائلِ.

وقد اشتملت هذه الكلمةُ على نوعَي التوحيد؛ وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتضمّنت التعبُّدَ باسم الرب واسم الله، فهو يُعْبَدُ بألوهيته، ويُستعانُ بربوبيته، ويُهْدَى إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أولُ السورةِ ذكر اسمه: «الله» و«الرب» و«الرحمن» تطابقاً لأجل الطالبِ من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعينُ على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[1].

سادساً: شروط «لا إله إلا الله»:

لما كان معنى (لا إله إلا الله) هو أنّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، ولما كان كثيرٌ من الناس يدرِكُ معنى وأهمية (لا إله إلا الله)، كان لا بدّ لنا أن نتحدّث عن شروطِ هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ (لا إله إلا الله) مفتاح الجنّة؟

قال: بلى، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسنان فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتَحَ لك، وإلاّ لم يفتحْ لكَ[2]، وهذه الأسنانُ هي شروطُ هذه الكلمة العظيمة، وعددُها سبعة عند العلماء، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، فكم

(١) العقيدة في الله، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١٢، ١٩٩٩، ص٩٦، نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، (١/ ٤١٧). مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني، ص٢١.

منْ عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمَها، ولو قيل له عدِّدها لم يُحْسِنْ ذلك. وكم حافظٍ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً فيما يناقِضُها، والتوفيق بيد الله[١].

إليك هذه الشروطَ وأدلّتها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مع الاختصار:

١ ـ العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَل الجنّة**»[٢].

٢ ـ اليقين المنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائلُها مستيقناً بمدلولِ هذه الكلمة يقيناً جازماً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقال رسول الله ﷺ: «**أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبد غيرَ شاكٍّ فيهما إلَّا دخلَ الجنَّة**»[٣]. وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرةَ رضي الله عنه: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ فَمَنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ مستيقناً بها قلبُه فبشّره بالجنة**»[٤].

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٩٩٠، ١/ ٣٧٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٢٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٢٧).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٣١).

٣ ـ القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان :

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سَبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبِلَها وانتقامه ممَّن ردّها وأباها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣]. وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف: ٢٥].

وقال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ بهِ مِنَ الهُدى والعِلْم كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ مِنْها نقيّةٌ قَبِلتِ الماء فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسكتِ الماءَ فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى إنَّما هيَ قِيعانٌ لا تمسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً. فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وعَلَّم، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ولم يَقْبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرْسِلتُ به»** [1].

٤ ـ الانقياد لما دلّت عليه، المُنافي لترك ذلك :

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

٥ ـ الصّدق المنافي للكذب :

وذلك بأنْ يقولَها صدقاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسانَه. قال تعالى: ﴿ الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم، رقم: (٧٩). صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم: (٢٢٨٢).

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]. وقال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقاً مِنْ قلبِهِ إلَّا حَرّمهُ اللهُ على النَّارِ**»[1].

٦ ـ الإخلاص:

وهو تصفيةُ النية في العملِ الصالحِ من جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. وقال رسول الله ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه**»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله حَرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا الله يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله**»[3].

٧ ـ المحبةُ:

لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبُغض ما ناقض ذلك: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا للهِ، وأنْ يكرَهَ أنْ**

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألّا يفهموا، رقم: (١٢٨)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٣٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، رقم: (٩٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: المساجد في البيوت، رقم: (٤١٥). صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم: (٣٣).

يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّار» [١]. وقال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين**» [٢].

ومحبةُ اللهِ سبحانه وتعالى لا تتمُّ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه، وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول ﷺ ومحبتُه، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ ﷺ واتباعَه وطاعتَه[٣]، فهذه الشروطُ مَنْ حقَّقَها وعملَ بها وابتعدَ عمّا يناقِضُها أوجبَت له مغفرةَ الذنوبِ بإذن الله تعالى[٤].

سابعاً: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولما كان أصلُ الموالاة الحبَّ، وأصلُ المعاداةِ البغضَ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ؛ كالنُّفْرَةِ، والأُنْسِ، والمعاونة، وكالجهادِ، والهجرة، ونحو ذلك[٥]، فإنَّ الولاءَ والبراءَ مِنْ لوازمِ لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: (١٦). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم: (٤٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم: (١٥). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم: (٤٤).

(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٢٨، ٢/ ٦٢٣.

(٤) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ٢/ ٦٢٣.

(٥) الرسائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن، ص٢٩٦.

وقال رسول الله ﷺ: «**أوثقُ عُرا الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله**»[(١)].

ولقد ضرب نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين؛ حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله، ومنهم أبوه. وقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأيِّ نبيٍّ رسول؛ حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلّ طاغوت يُعْبدُ من دون الله[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٩]. وتلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن؛ دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هذه الدعوة فالاعتزالُ لهذا الباطل وأصحابه، لعلّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكّراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، مع عدم تمكّنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيّناً أنّه استخدمَ مع

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الإيمان والرؤيا، رقم: (٣٠٤٤٣)، قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية، ص١١٩: صحيح.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط ١، ص١٤٥.

قومه كلَّ حجة ودليل، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧].

ولما لم يجدوا حجّةً، وإنّما هو التقليدُ الأعمى لفعل الآباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو آلهتكم هذه، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: «لا موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصح الموالاةُ إلا بالمعاداة»[(١)]. وكما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٧]، فلم تصحَّ لخليل الله هذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هذه المعادلة؛ فإنّه لا ولاءَ إلا لله، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]، أي جعلَ هذه الموالاة لله، والبراءةَ من كلِّ معبودٍ سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ، وهي كلمة (لا إله إلا الله)، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وقد كان من نتيجة هذه المعاداةِ وهذا البراء القويّ أن أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم، كما هو حال كل طاغية على مرّ عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله؛ لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام، فصارت النارُ

(١) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغُلِبوا، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ، إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الربُّ جلَّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠]. وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد ﷺ باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

فهذه الأخبار مِنَ اللهِ لأُمّة محمد ﷺ عَنْ فعلِ إبراهيم عليه السلام من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على الله وحده، وعبادةِ الله وحدَه، والبراءِ من الشركِ وأهلِهِ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه[١].

(١) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص١٤٨ ـ ١٤٩.

والأمثلةُ على أنّ مِنْ لوازمِ (لا إله إلا الله) الولاءَ والبراءَ كثيرةٌ؛ كقصة نوح عليه السلام مع زوجه، وغيرها من القصص[1].

لقد جمعت (لا إله إلا الله) صُهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمانَ الفارسي، وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض، وقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنّها مُنتنةٌ**»[2]. وقال: «**ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ**»[3].

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل، ورضي بذلك النهجِ القويم[4].

وقد أورد الشيخ الدكتور علي القره داغي (الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) خلاصة في الولاء والبراء في حديثه معي بالقول:

إن الولاء لا ينقطع بين المؤمنين ما دام الإيمان قائماً، قال تعالى: ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٧١].

وأن هذا الولاء لا ينقطع بالمعاصي، ويدل عليه قوله تعالى في حق المؤمن القاتل لمؤمن آخر: ﴿ **فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ**

(١) القحطاني، المرجع نفسه، ص١٥٠.
(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، رقم: (٤٩٠٥). صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصرُ الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم: (٢٥٨٤).
(٣) أخرجه أبو داوُد في سننه، كتاب الأدب، باب: في العصبية، رقم: (٥١٢١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
(٤) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص١٥٨.

تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨] [(١)]، وقد ذكر المفسرون أن العافي هو أهل المقتول، والقاتل هنا قاتل بالعمد، وقال بعضهم، منهم ابن عباس رضي الله عنهما: «فالعفو أن يقبل الدية في العمد، فالآية نص على بقاء الأخوة الإيمانية حتى بعد القتل العمد الذي يعد من السبع الكبائر الموبقات[(٢)].

وكذلك يبقى الولاء بين المؤمنين حتى ولو تقاتلوا فيما بينهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، فقد أثبتت الآية لهم صفة الإيمان وهم يقتتلون، وذلك في بداية الآية، ثم ختمها بإثبات الأخوة لجميع المؤمنين، ثم أكد ثالثاً بالإصلاح بين الإخوة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذه الآيات وغيرها حجة قطعية على بقاء الأخوة، والولاء للمؤمنين حتى ولو ارتكبوا القتل، وفي ذلك حجة داحضة لقول الخوارج والجماعات المتشددة المكفرة للمسلمين لمجرد أي خلاف.

ومما لا شك فيه أن على المسلم أن يبغض المعاصي والذنوب الصادرة منه، أو من إخوانه في الإيمان، ولذلك فهو ينبذ ويبغض المعاصي، ولكن بغضه للمعاصي لا يجوز شرعاً أن يؤدي إلى بغض صاحبها المؤمن، بل يحبه في دائرة الإيمان، ويدعو له، ويدعوه إلى ترك العصيان وتغييره بجميع الوسائل المتاحة، حسب قدراته ـ كما وردت في ذلك أحاديث صحيحة ـ، فإن أهل الحق يفرقون

---

(١) تفسير الطبري للآية (١٧٨) من سورة البقرة.

(٢) روى البخاري في صحيحه (٢٧٦٦) ومسلم في صحيحه (٨٩) وغيرهما بسندهم أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بالله وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

بين المعاصي، وبين أصحابها، بل حتى بين كلمات الكفر وأصحابها، فقد تكون الكلمة كفراً، ولكن لا نستطيع الحكم على صاحبها بالكفر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦]، حيث إن سيدنا الحبيب المصطفى ﷺ بريء من عملهم، ولم يتبرأ منهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن البراءة اتجهت نحو العمل، وليس إلى الأشخاص، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، فالكلام موجه نحو العمل، وليس نحو الشخص، وقوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]، وكذلك فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث لم يتبرأ من أبيه ومن معه في البداية، بل تبرأ من عمل المشركين، فقال لهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧]، ثم لما تبين له أنهم أعداء الله تعالى، ولا ينفعهم نصحه تبرأ منهم فقال: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وكذلك سيدنا الرسول ﷺ، بذل كل جهده طوال أكثر من عشرين سنة مع المشركين الذين نقضوا العهود، وجادلوا واستمروا في محاولة اجتثاث الإسلام وأهله، ثم لما تبين له أنهم مصرون على قتالهم ونفاقهم تبرأ منهم، ونزلت سورة البراءة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

إن مما لا شك فيه أنه لا يجوز أن يكون للمسلم ولاء النصرة والمحبة لأعداء الله تعالى المحاربين، ولكن معظم آيات الله تعالى ركزت على أن تكون البراءة من الشرك، ومن محاربتهم لله وللرسول ﷺ، أي: إن البراءة تكون من المشركين المعتدين.

● **جعل الولاء والبراء شعار بدعة عند بعض السلف:**

ولكن مع كل ذلك لم يشتهر هذا المصطلح (مصطلح الولاء والبراء) شعاراً للمسلمين إلا في عهد الخوارج الذين انطلقوا من تكفير المسلمين بالكبائر، ومخالفيهم في أصولهم، وبالتالي وجوب البراءة منهم، ووجوب قتالهم، ولذلك قال الإمام أحمد في رواية الإصطخري: «والولاية بدعة، والبراءة بدعة، وهم الذين يقولون: نتولى فلاناً، ونتبرأ من فلان، وهذا القول بدعة فاحذروه» [(١)]، بل إنه حذر من هذا الشعار في كتاب السنة لابنه عبد الله بن أحمد، حيث جاء فيه: «حدثني أبي، نا معاوية بن عمر، نا أبو إسحاق، عن الأوزاعي، قال: «كان أبوسعيد الخدري يقول: «الشهادة بدعة، والبراءة بدعة، والإرجاء بدعة» [(٢)]، وكذلك روى بسنده عن علي رضي الله عنه قال: «الإرجاء بدعة، والشهادة بدعة، والبراءة بدعة» [(٣)]، وقال أيضاً: «حدثني أبي، نا وكيع، عن سفيان، عن سلمة بن كهيل، قال: «اجتمعنا في الجماجم ـ منطقة قرب الكوفة ـ أبو البختري، وميسرة، وأبو صالح، وضحاك المشرقي، وبكير الطائي، فأجمعوا على أن الإرجاء بدعة، والولاية بدعة، والبراءة بدعة، والشهادة بدعة» [(٤)].

فلا يجوز أن يُجعل ذلك شعاراً وسيفاً لتكفير المسلمين والبراء منهم.

---

(١) طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسن الفراء (١ / ٣٥).

(٢) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ت ٢٩٠هـ) بتحقيق د. محمد سعيد القحطاني، ط دار ابن القيم، عام ١٤٠٦هـ (١ / ٣١٨) الأثر رقم (٦٤٢)، قال ابن بطة في الإبانة الصغرى ص (٢٢٣): «والشهادة أن يشهد لأحد ممن لم يأت فيه خير: أنه من أهل الجنة، أو النار، والولاية أن يتولى قوماً ويتبرأ من آخرين، والبراءة: أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة».

(٣) كتاب السنة، الأثر رقم (٦٤٢).

(٤) المصدر السابق (١ / ٣٢٦) الأثر رقم (٦٦٩)، وقال محققه: «إسناده صحيح».

● **ولاء البر لغير المعتدين مطلوب:**

وأما ولاء البر والإحسان لغير المسلمين المسالمين فثابت بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ـ٩].

وهاتان الآيتان الكريمتان جاءتا بعد الآيات التي افتتحت بها سورة الممتحنة، وهي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ١ـ٢].

● **فقه الميزان:**

هنا يبرز فقه الميزان بكفتيه الواضحتين، وهما ميزان الحرب والعداء والاجتثاث، حيث يقوم على الشدة والبراء لدرء الأعداء والقضاء عليهم، وميزان السلم والتعايش الذي يقوم على البر والعدل والإحسان(١).

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التوثيق: خلاصة في الولاء والبراء، علي محيي الدين القره داغي، الدوحة، ١٦ ذي الحجة ١٤٤١ هـ.

---

(١) يراجع: فقه الميزان، للدكتور علي محيي الدين القره داغي، ط. دار النداء، إستانبول، ٢٠١٨م.

ثامناً: آثار الإقرار بـ «لا إله إلا الله»:

إن لكلمة (لا إله إلا الله) آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ؛ منها:

١ ـ أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

٢ ـ أن الإيمان بهذه الكلمة يُنشئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء؛ لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومن ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحد من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا إليه، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلا من كبريائه وعظمته؛ لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣ ـ ينشأ من هذه الكلمة تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٌ من غير كِبْرٍ.

٤ ـ المؤمن بهذه الكلمة يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنَّهم يقضون حياتهم في آمال كاذبة؛ فمنهم من يقول: إنَّ ابن الله قُتِلَ وصُلِبَ كفّارةً لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذّبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا. ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله فيعتقدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته وهو عبد لهما.

٥ ـ قائل هذه الكلمة لا يتسرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط؛ لأنَّه يؤمنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

٦ ـ الإيمان بهذه الكلمة يربّي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصّبر والثبات والتوكّل، حينما ينهض بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله. إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخُه وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور كالجبال الراسية، فأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

٧ ـ هذه الكلمة تشجعُ الإنسان وتملأ قلبه جرأةً؛ لأن الذي يجبِّنُ الإنسان ويوهنُ عزمه شيئان:

ـ حبه للنفس والمال والأهل.

ـ واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرء بـ «لا إله إلا الله» ينزعُ من قلبه الأولَ وهو «حبّه للنفس والمال والأهل»، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيس عنده، كما ينزع الثاني وهو «اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان»، بأن يلقِي في روعِهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أجَلُه، من أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زَحفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرّصاص، ولا وابلُ القنابل.

٨ ـ الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

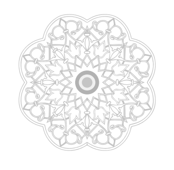
٩ ـ الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظاً عليه، فإنَّ المؤمن يعتقدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشِ أيٍّ كانَ فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنَ اللهِ

عزَّ وجلَّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخاً في ذهن الإنسان يكونُ متّبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيماناً بـ «لا إله إلا الله» هو في الحقيقة عبد مطيعٌ منقادٌ لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِه إنّما هي مبنيةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

* * *

(١) مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط ٣، ١٩٦١، ص٨٧.



المبحث الثاني

إثبات وجود الخالق

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثِّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً ـ أيَّ أثرٍ ـ من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟! ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧].

فكان موسى عليه السلام لا يعيرُ اهتماماً لهذه الإنكارات، وتعامل مع فرعونَ على أساسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكارَ إلى التكبُّرِ والعِنادِ، فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ـ٤٧]. وأوضح ذلك أكثر فقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

إن البيئة التي أُنزل فيها القرآن الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب، وكتابيةً في بعض القرى، أو بعض الأشخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأمّا الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان فإنّهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجَّل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع[١]، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]. ولهذا لم يَحْتَج القرآن الكريم أن يفتحَ الموضوع مع هؤلاء الناس. بل حتّى خارج هذه البيئة لم يُعرف هناك منكِرٌ للخالق.

يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالم عن الصانع العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلةٍ من الدهريّة، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممّن ينكرُ الصانع، بل هو معترِفٌ بالصانع، فما عُدَّتْ هذه المسألةُ من النظريات التي قام عليها دليل[٢]. ومع خلو القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق فإنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[٣].

ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً: دليل الخلق:

وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]. يقول لهم: أنتم

(١) المحكم في العقيدة، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط ١، ص٦٥ ـ ٦٦.
(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥، ص١٢٣ ـ ١٢٤.
(٣) المحكم في العقيدة، الكبيسي، مرجع سابق، ص٦٦.

موجودون، هذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك السماوات والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سببٍ لوجودِهِ. وهذا يدركُه راعي الإبل، فيقول: البعرةُ تدل على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فجاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواج، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ؟! ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء، والمقتدر على كل شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنعه، حتى صرتُ دَهِشاً متحيّراً؛ فأيُّ قدرةٍ، وأيُّ حكمةٍ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتٍ يده صغيرِها وكبيرِها!؟[1].

وهذا الذي أشارتْ إليه الآية هو الذي يُعْرَفُ عندَ العلماء باسم: قانون السببية، هذا القانون يقول: إنَّ شيئاً من الممكنات لا يحدُثُ بنفسه من غيرِ شيء؛ لأنّه لا يحمِلُ في طبيعته السببَ الكافي لوجودِه، ولا يستقلُّ بإحداثِ شيءٍ، لأنَّه لا يستطيعُ أن يمنحَ غيرَه شيئاً لا يملكه هو[2].

وبهذا الدليل كان علماءُ الإسلام ولا يزالون يواجِهون الجاحدين؛ فهذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمالِ، مملوءةً من الأنفال، قد احتوشتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة، ورياحٌ مختلفة، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً، ليس لها ملاّح يجريها، ولا متعهِّدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلك في العقل؟

قالوا: هذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقلِ سفينة تجري في البحرِ مستوية من غيرِ متعهِّدٍ ولا مُجْرٍ، فكيف يجوزُ قيامُ هذه الدنيا على اختلافِ

(١) مع الله، حسن أيوب، ص٦٧.
(٢) العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص٦٩.

أحوالها، وتغيُّر أعمالها، وسَعَةِ أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟! فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقتَ، وتابوا[١].

هذا القانون الذي سلّمت به العقول، وانقادت له، هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]. وهو دليلٌ يُرغِمُ العقلاءَ على التسليم بأنَّ هناك خالقاً معبوداً، إلاّ أنَّ الآية صاغته صياغةً بليغةً مؤثرةً، فلا تكاد الآية تمسُّ السمعَ حتى تزلزلَ النفسَ وتهزَّها[٢]. قال أبو العتاهية:

فوا عجباً كيف يُعْصَى الإلـ ـهُ أم كيفَ يجحدهُ الجاحدُ
وفي كل شيءٍ له آية تدلّ على أنّه واحدُ

لقد تناولَ القرآن الكريمُ قضيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في آفاقِ الكونِ وآيات اللهِ الكثيرة، وأهابَ بالعقلِ أنْ يستيقظَ من سُباته، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماوات والأرضِ، وما أُودِعَ فيها من الآيات. ويكرِّرُ القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوعة، ليرى هذا الإنسانُ ويسمعَ في آفاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلمَ أنَّ هذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ اللهِ الخالق المدبر المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريك له[٣].

ثانياً: دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفة الخالق والإقرارَ بوجودِه تبارك وتعالى وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ، بعيداً عن كلِ المؤثّرات الخارجية، وعن كلِّ الشوائب العقدية، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهذا الكونِ خالقاً مدبِّراً ومتصرِّفاً، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبّةِ خالقِهِ.

---

(١) حسن أيوب، مرجع سابق، ص٦٨. وانظر: العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص٧٠.
(٢) العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص٧١.
(٣) حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص٢١٦.

ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالق جلَّ جلاله من الملحدين إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم، ومن تأثيرِ الشياطين عليهم، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هذا دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جلَّ جلاله فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[١]. قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الفِطْرَة، فأبواه يهوّدانِه، أو ينصّرانِه أو يمجّسانِه، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء؟**»[٢]. **وفي الحديث القدسي**: «**يقول تبارك وتعالى: إنّي خَلَقتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتهُم عن دينهم**»[٣].

ومعنى «حنفاء» أيّ: مائلينَ عن الأديانِ كلِّها إلى دين الإسلام[٤]. ومعنى «اجتالتهم»: استخفّتهم، فجالوا معهم في الضلال[٥].

ومن أجل أهميّةِ الفطرةِ في دلالةِ الناسِ على ربّهم وتعريفهم به كان رسول الله ﷺ إذا أصبحَ أو أمسى يقرّرُ أنه يُصْبحُ ويُمْسِي على هذه الفطرةِ، فطرةِ الإسلام، وأنّها لم تتأثَّرْ بالمؤثّرات والعوارض الخارجية من نزغات الشياطينِ

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ١/٣٦٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ رقم: (١٢٩٢). صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: (٢٦٥٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف الجنة وأهل النار، رقم: (٢٨٦٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤، ٢٠/ ١٤٤.

(٥) النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ١/٣١٧.

ووساوسهم، فقد ورد عنه ﷺ أنَّه كان يقولُ إذا أصبحَ وإذا أمسى: «**أصبحنا ـ أو أمسينا ـ على فطرةِ الإسلام، وعلى كلمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نبيّنا محمَّدٍ ﷺ، وعلى ملّةِ أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»[١].

فقد أكّد سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: «وعلى كلِمَة الإخلاص»، وهي شهادة «أن لا إله إلا الله». وبقوله: «وعلى دينِ نبينّا محمَّدٍ ﷺ» وهو الدين الإسلامي، وبقوله: «وعلى مِلّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسلماً» أي مائلاً عن كلِّ ما يخالِفُ هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة، التي تنكِرُ الربَّ سبحانه وتعالى، أو تزعمُ أنَّ معه شريكاً في مُلْكِهِ أو عبوديتِهِ إلى الإسلام الخالص، فإذا حقَّقَ توحيدَ الألوهية «توحيد العبادة» كان توحيدُ الربوبية محقّقاً؛ لأنَّ توحيدَ الألوهية يتضمَّنُ توحيدَ الربوبية، وبذلك تكونُ الفطرةُ قد دلّت على توحيدِ الربوبية[٢].

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيق بالعهد الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذَّرِّ، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جلَّ جلاله على الناس مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا. فمنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضاه ولازِمه؛ من عبادة ربه وحده لا شريك له، وتوحيده، وصَدّقَ رسلَ اللهِ، وآمن بهم وبما جاؤوا به. ومن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت، واجتالته الشياطين ـ والعياذ بالله ـ فنسيَ ما شهدَ عليه، وما جُبِلَ عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده، باب: عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وآخرين، رقم: (١٥٣٦٠)، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠١.

(٢) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ١/ ٣٧٠.

من الإقرار بربوبية الله عزَّ وجلَّ، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أنَّ الله سبحانه لم يتركْ عبادَه سدًى، بل أرسل لهم الرسلَ، وأنزل معهم الكتبَ، ليُذكِّروا الناس بهذا الإشهاد وهذا العهد والميثاق.

ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرّ، فقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه ذِكْراً يقولونه في الصباحِ والمساءِ، ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «**سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلّا أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت**»[١].

فقوله: «وأنا على عهدِكَ»: أي ما عاهدتُكَ عليه من الإيمان بِكَ، والإقرارِ بوحدانيَّتِكَ، لا أزولُ عنه[٢]، قال ابن حجر: وقال ابن بطال: قوله: «وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ» يريدُ العهدَ الذي أخذَه الله على عبادِه، حيثُ أخرجَهم أمثالَ الذَّرّ وأشهدهم على أنفسِهم: ألستُ بربكم؟ فأقرّوا له بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانية، و«بالوعدِ» ما قاله على لسان نبيه[٣].

فهذا الذكرُ العظيمُ مَن داومَ عليه يومياً ولازمَه حفِظَ نفسه ـ بإذن الله ـ من انحرافِ فطرتِه وتغيّرها، ووفّى بعهدِه الذي بينه وبين ربه[٤].

ثالثاً: دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم: ٦٣٠٦.

(٢) نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار، محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق عبد العزيز الهبدان وعبد العزيز الدخيل، ط ١، ١٩٩٦، دار الصميعي، ص٢٤٠.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩، ١١/٩٩.

(٤) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ١/ ٣٧٣.

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[١]، وقوله: «في الآفاق»، يعني: أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات[٢]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله.

وفي حديثِ العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدلُّ على آيات الله في الآفاق، والتي منها:

١ ـ نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

تنصُّ هذه الآية الكريمة على أن الإنسان عندما يصّعّد في السماء ـ أي يرتفع في أعالي الجو ـ يضيقُ صدرُهُ، ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقةٌ علميةٌ سببها أنَّ نسبة الأوكسجين تقلُّ كلما ارتفعنا إلى أعلى، كما يقلُّ الضغطُ الجويُّ، وهذان السببان يجعلانِ الإنسانَ يشعر بضيق النفس.

٢ ـ حركة النجوم والكواكب في مَداراتها:

كان الناسُ يرونَ أنَّ الأرضَ مركزُ الكون، وتدور حولها الشمسُ والقمرُ والنجومُ السيّارة، ويرونَ نجوماً ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر «غاليلو» رأيٌ يعتبِرُ أنَّ الأرض هي التي تدورُ حولَ الشمس، وأنَّ الشمسَ هي مركزُ الكونِ.

أمّا القرآن الكريمُ فقد رفضَ قبلَ ذلك جميعَ الآراءِ التي تزعمُ أنَّ للكونِ مركزاً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٥/ ٣٧٤.
(٢) القرطبي، المرجع نفسه، ١٥/ ٣٧٤.

ثابتاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وكانَ ذلك في عصره سَبْقاً علميّاً[١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦].

فقد وجدَ العلماءُ أنَّ مواقعَ النجومِ ومساراتها ليست اعتباطيةً، فالكوكبُ وُضعَ في مسارٍ بحيثُ لا تؤدّي قوى التجاذبِ الكونيةُ الكثيرةُ والقوى النابذةُ الناشئةُ عن الدوران، إلى اضطرابٍ كوني، ولقد اختِيْرَ له المسارُ الذي يحقّق له التوازنَ بين تلك القوى الكثيرة. ووجد العلماء أيضاً أنَّ أبعادَ المجموعة الشمسية تتبعُ سلسلةً حسابيةً، وأن للعربيّ الجاهلي الذي كان يرى النجومَ مبعثرةً في صفحةِ السماءِ أن يعرفَ من تِلقاءِ نفسه أنَّ لمواقِعها شأناً عظيماً[٢].

٣ ـ دوران الأرض والجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] لقد كان الناس قديماً يرون أنّ الأرضَ وجبالها ثابتةٌ، بل يضربون المثلَ بثباتها، فجاء القرآن الكريم ليخالفَ ما أَلِفه الناسُ، واستقرّ في أذهانهم، وتحدَّثَ عن ظاهرةٍ كونيةٍ، فقال عن الجبال: إنّما تمرُّ مرَّ السحاب، أي إنَّ الجبال كالسحاب، فكما أنَّ السحابَ لا يتحرّكُ ذاتيّاً إلا إذا كان هناك شيءٌ يدفعه إلى التحرك، والذي يحرّكُ السحابَ ويدفعُه هي الرياح، فكذلك الجبالُ لا تتحرَّكُ بنفسِها لأنها أوتادُ الأرضِ، ولكن تتحرك، وحركتُها تابعةٌ لحركة الأرض، فالأرضُ تتحرّكُ وتدورُ، وإلا فكيفَ تتحرَّكُ الجبالُ، وتمرُّ مرَّ السحاب؟ وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء، حينئذٍ يكون هناك يقينٌ ثابتٌ[٣].

---

(١) البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، عبد المجيد العرجاوي، دار وحي القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٨، ص١٠٥.
(٢) العرجاوي، المرجع نفسه، ص١٠٦.
(٣) تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص١٧٨.

٤ ـ حاجز بين بحرين مالحين :

قال تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢٢] .

تتحدّثُ الآيات الكريمةُ عن بحرين يتلاقيان، وفي مكان تلاقيهما يوجدُ حاجزٌ، والظاهر أنها تتحدّث عن بحرين حقيقيين مالحين، وليس عن بحرٍ ونهرٍ ؛ لأنه قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٢٢]. والمرجان هو الخرز الأحمر، لا يخرجُ إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمةُ إذاً تتحدَّثُ عن حاجزٍ حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحرانِ يتلاقيان في المضايق ؛ لأنه إن لم يكن هناك مضيقٌ فليس من مسوّغٍ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إنَّ هذا الذي أثبتته الآية الكريمةُ مستغربٌ جدّاً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أنَّ المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة، ولا تخطرُ له على بالٍ، إلى أن اكتُشِفَتْ عام ١٩٦٢م، وثبت أنَّ ما قاله القرآن الكريم حقيقةٌ مدهشة[١] .

٥ ـ اهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر :

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] إن العلمَ يؤكّد أنَّ الأرضَ تهتزُّ فعلاً بنزول الغيثِ عليها، فالحبوبُ والبُصَيلاتُ والدّرناتُ والحُوَيصلاتُ والبكتيريا والجراثيمُ كلُّها تبدأُ بالحركة والانقسامات الخلوية، وامتصاص الماء، وتحليل الغذاء المعقّد إلى وحدات أقل ارتباطاً، وأكثر عدداً، وأكبر حجماً، وبامتلاء مسامِّ الأرضِ بالماء تتحرّك جُزيئات الطينِ، وتبدأُ عمليةُ تأيُّنٍ عجيبةٌ في جُزَيئات التربةِ، وتنشطُ الديدانُ الأرضيّةُ في شَقِّ الأنفاقِ الأرضيةِ، وابتلاع كمياتٍ كبيرةٍ من التربة المتلاصقة، وإخراجها بعدَ ذلك مفككةً، كلُّ هذه النشاطات تؤدي إلى زيادةِ حجم التربة،

---

(١) البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، العرجاوي، مرجع سابق، ص١١١ .

ويمكنُنا رؤية صورةٍ مصغّرة لهذه العمليات بتخمير العجين وزيادة حجمه نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدثُ ضروبٌ كثيرةٌ لمثل هذا النشاط، مِنْ كلّ ما سبق نجدُ التوافقَ بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم(١).

٦ ـ أوهن البيوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، إنَّ قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]: يشيرانِ إلى أنَّ وَهْنَ بيت العنكبوتِ المتحدَّث عنه وَهْنٌ غيرُ ظاهرٍ ومعروف لدى عامة الناس، وقد ضُرِبَ هذا الوهنُ مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم بعضاً، فماذا وجد العلماءُ عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أنَّ الروابطَ بين أفراد العنكبوت في غاية التفكّك، فالأُنثى كثيراً ما تأكل الذكرَ بعد الإلقاح، وقد تأكلُ أبناءها، والأبناءُ يأكُل بعضُهم بعضاً، فهو بيتٌ متفكِّكٌ متداعٍ، وذلك مثلُ موالاةِ الكافرين بعضهم بعضاً(٢).

رابعاً: دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه، دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرة ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه

---

(١) البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية، العرجاوي، مرجع سابق، ص١٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٨. والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضوع؛ منها: «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» د. حامد أحمد حامد، و«وحدانية الله تتجلى في وحدة خلقه» للأستاذ عمر أحمد الهواري. وغير ذلك كثير لمن أراد التوسع.

ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجد آثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه(١).

وإليك بعضَ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

١ ـ الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

وهذه حقيقةٌ كونيةٌ؛ وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذابَ، فالإذاقةُ ـ حسب القرآن الكريم ـ محلُّها الجلدُ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلد أنّه عضوٌ غني بالألياف العصبيّةِ التي تستقبل وتنقل جميعَ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقاتِ الجلدِ «البشرة، والأدمة، والنسيج تحت الأدمة»، وهي تنقلُ حِسَّ الألم، والحرارةَ والبرودةَ، والضغطَ، وحِسَّ اللّمس، فالقرآن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب استبدلَ بجلودِهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ جلوداً سليمة لم تحترقْ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى، وعندما يأتي التشريحُ المجهري ليقول: إنَّ الأليافَ العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً(٢).

٢ ـ البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤]. لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر، وبيّنَ أنَّ

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ١/ ١٩٠.

(٢) تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص١٨٠.

البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشرَةِ الجلدِ، تجاورها منخفضاتٌ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية، تتمايل هذه الخطوطُ وتتلوّى، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٌ وفروع، لتأخذَ في النهاية في كلِّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ، يتكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، ويظلُّ ثابتاً ومميّزاً له طوالَ حياته، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقارباً شديداً، ولكنّهما لا تتطابقان البتَّةَ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان، معمولاً بها في كلِّ بلاد العالم، ويعتمدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكونُ هذا هو السرُّ في أنَّ الله سبحانه وتعالى خصَّ البنانَ بالذكر، ليبيّن للإنسان هذين الأمرين :

ـ السرَّ المختفي في البنان، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية .

ـ القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان بصورته وخِلقته التي كان عليها[١] .

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكّر في أجهزته العضوية؛ كالجهاز الهضمي، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وإلى التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد .

خامساً: دليل الهداية:

قال تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣]. وقال تعالى : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه[٢] .

---

(١) تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص١٨٠ ـ ١٨٢ .

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، محمد بن أبي بكر=

ومن أسماء الله الحسنى: «الهادي» سبحانه وتعالى، الذي يُبصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به، والإقرار بألوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها وسننها، حتى هدى الطيورَ والحيواناتِ والهوام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها. وقد جاء اسم «الهادي» في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

إنّها **أولًا**: هدايةُ المعارفِ الفطريةِ الضروريةِ لكلّ مخلوق: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

وهي **ثانياً**: هداية الإرشاد والبيان التي بَعَثَ بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وهي **ثالثاً**: الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ ﴾ [يونس: ٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وهو منزل الكتاب، الذي مَنْ تركه ضاعَ في بيداءِ الحياةِ، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضلَّه الله[(١)].

وقد نبّه العلماء على كثيرٍ من هداية الله لمخلوقاته، وكتبوا في ذلك كُتباً نافعة، فتحدّثوا عن هداية الله للنملِ والهدهدِ والنحلِ وغيرِها من مخلوقات الله الكثيرة، وهذا بابٌ واسعٌ يكفي فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ

= ابن القيم، بيروت، ص١٠٩. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص٧٨.

(١) مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٢٨٠.

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهذه الأمم تعبدُ الله وتسبّحه وتحمده، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

وتأمل معي في كل من:

١ ـ النحل:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩].

فانظر إليها وإلى اجتهادِها في صنع العسل، وبنائها البيوت المسدّسة، التي هي من أتمِّ الأشكالِ، وأحسنِها استدارةً، وأحكمِها صنعاً، وتلك مِنْ أثرِ صنع الله وإلهامه إياها، وإيحائه إليها. ثم انظر إلى حسن الامتثال؛ اتخذتِ البيوتَ أولاً، فإذا استقرّ لها بيت خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم أوت إلى بيوتها لأنَّ ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا سلكتْ سُبُلَ ربها مذلّلةً، لا يستوعِرُ عليها شيءٌ، ثم ترعى، ثم تعود.

ومن العجيبِ أنَّ لها أميراً يسمّى «اليعسوب»، لا يتمُّ لها رواحٌ ولا إيابٌ، ولا عملٌ ولا مرعًى إلا به، فهي مؤتمرةٌ بأمره، سامعةٌ له مطيعةٌ، وله عليها تكليفٌ وأمرٌ ونهيٌ، وهي منقادةٌ لأمره، متبعةٌ لرأيه، يدبّرها كما يدبّرُ الملِكُ أمرَ رعيتِه، حتى إنّها إذا أوت إلى بيوتها وقف على بابِ البيت، فلا يدعُ واحدةً تزحم الأُخرى، لا تتقدّم عليها في العبور، بل تعبرُ بيوتها واحدةً بعد واحدةٍ بغير تزاحمٍ، ولا تصادم ولا تراكمٍ، كما يفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكره إلى معبرٍ ضيّقٍ، لا يجوز إلا واحداً واحداً. ومن تدبَّر أحوالها وسياساتها وهدايتها، واجتماعَ شملها، وانتظامَ أمرِها، وتدبيرَ مُلكها، وتفويض كلِّ عملٍ إلى واحدٍ

منها، يتعجَّب منها كلَّ العجب، ويعلمُ أنّ هذا ليسَ في مقدورِها، ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه أعمالٌ محكمةٌ متقنةٌ في غايةِ الإحكام والإتقان، فمنِ الذي أوحى إليها أمرَها، وجعل ما جعل في طباعها؟! ومن الذي هداها لشأنها؟! ومن الذي أنزلَ لها من الطَّلِّ ما إذا جنتْهُ ردّتْهُ عسلاً صافياً، مختلفاً ألوانُه، في غايةِ الحلاوة واللذاذة والمنفعة؟[1]. وقد قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

٢ ـ الهدهد:

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبيِّ الله سليمان عليه السلام، وقد فقده وتوعّده، فلمّا جاء بَدَرَهُ بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه، ومن ضمن هذا: إنّي أتيتُك بأمرٍ قد عرفتُه حقَّ المعرفة ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ بحيث أحطتُ به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]. و«النبأُ» هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه «نبأ يقين» لا شكّ فيه ولا ريب، فهذه مقدّمةٌ بين يدي إخباره لنبيّ الله سليمان بذلك النبأ، استفرغتْ قلب المخبَر لتلقّي الخبر، وأوجبتْ له التشويقَ التامَّ إلى سماعهِ ومعرفتهِ، وهذا نوعٌ من براعةِ الاستهلالِ، وخطابِ التهييج، ثم كشفَ عن حقيقةِ الخبرِ كشفاً مؤكداً بأدلّةِ التأكيد فقال: ثم أخبر عن شأنِ تلك ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [النمل: ٢٣]، وأنها من أجلِّ الملوك، بحيث أوتيت من كل شيء يَصْلُحُ أن يُؤتاه الملوك، ثم زادَ في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم.

ثم أخبرَه بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عُقرِ دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، وحذفَ

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٠.

أداةَ العطفِ من هذه الجملةِ، وأتى بها مستقلّةً غيرَ معطوفةٍ على ما قبلَها؛ إيذاناً بأنّها المقصودةُ وما قبلَها توطئةٌ لها. ثم أخبر عن الـمُغوِي لهم، الحامل لهم على ذلك ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] المستقيم، وهو السجود لله وحده. ثم أخبر أنَّ ذلك الصدَّ حالَ بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، ثم ذكرَ مِنْ أفعاله سبحانه إخراجَ الخَبْء في السماوات والأرض، وهو المخبوءُ فيهما من المطر، والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرجُ من الأرض.

وفي ذكر الهدهدِ هذا الشأنَ من أفعال الربِّ تعالى بخصوصهِ إشعارٌ بما خصّه اللهُ به من إخراج الماء المخبوءِ تحتَ الأرضِ، قال صاحب «الكشاف»: وفي إخراجِ الخَبْءِ أمارةٌ على أنّه من كلامِ الهدهدِ؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرضِ، وذلك بإلهام ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥]، جلّت قدرتُه، ولطفَ علمُه، ولا يكاد يخفى على ذي الفِراسة الناظرِ بنورِ الله مخايل كلِّ شخصٍ بصناعة أو فَنّ منَ العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عَمِلَ آدميٌّ عملاً إلا ألقى الله عليه رداءَ عمله[1].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبِّره واحدٌ لا إله غيره[2].

قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. لو كان في السماوات والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله

---

(١) العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص١١٦.

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٠٨، ٣/ ٤٦٤.

الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له، أي لفسدَ أهلُ السماوات والأرضِ. وقال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يقول تعالى ذكره: ما للهِ مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم، أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ، مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزل كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتعالوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ؛ لأنَّ القويَّ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن يكون إلهاً، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجَّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر[(١)].

وهكذا؛ فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌّ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماوات والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفردٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجبُ صرفَ العبادة له دونَ سواه[(٢)].

سابعاً: دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ علمِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِه[(٣)].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠، ١٣/ ١٧.

(٢) محمد بن جرير الطبري، المرجع نفسه، ١٨/ ٤٩.

(٣) الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠٠٠، ص٣١٤.

ثامناً: دليل التسوية:

قال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨]، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] .

والتسوية : إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مُهَيَّأً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها[١] .

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها[٢]، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٧ ـ ٨] .

وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ لتبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستهواءٍ .

والأجهزةُ العامةُ لتكوين الإنسان الجسدي؛ كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي . . إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة، كلٌّ منها عجيبةٌ لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس[٣] . وخلقُ الإنسانِ على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبرَ الطويلَ؛ لأنَّه خلقٌ لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له بأنْ

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٥٩ .

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر ـ الأسس ـ الخصائص ـ التحديات)، أحمد محمد بن جلي، ٢٠١٦، ص٧٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩، ٤/ ٣٩٦ .

أكرمه بهذه الِخلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها(١).

إنَّ أدلةَ إثبات وجودِ الخالق جلَّ جلالُه؛ كدليل الخلق، ودليل الفطرة والعهد، ودليل الآفاق، ودليل الأنفس، ودليل الهداية، ودليلُ انتظام الكونِ وعدم فسادِه، ودليل التقدير، ودليل التسوية، تثبت أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة ولم يوجد اعتباطاً ولم يكن دون قصد(٢). إننا ونحن في رحابه نشاهدُ الترابطَ بحيث يمكن أن يقال في يقين جازم إن الكون كلّه؛ سماواته وأرضه وما بين السماوات والأرض، بحارُه وأنهارُه، جِبالُه ووديانُه، نباته وحيوانه، إن جميع أجزاء الكون تُؤلِّف وحدَةً متكاملةً مترابطة، هذا التكوين المترابط في ملايين الجزيئات الكونية، بل في بلايين بلايين هذه الجزيئات، ينفي ـ في تأكيد مطلق ـ فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة. وإذا انتَفَت فكرةُ المصادفة فإن النتيجة التي تترتب على ذلك هي أن يكون للكون مكوِّن.

ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى، انظر إلى هذا الترابط في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ـ٣٢].

انظر إلى الترابط بين السماء والأرض وبين الماء والنبات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

---

(١) الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبيدات، مرجع سابق، ص٢٩٤.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠، ص١١.

هذا الترابط هو ترابط غائي؛ أي: ترابط هادف. هذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذي يعتبر دليلاً باهراً على وجود الله إنما هو ترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، إنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد وفيه الغاية، ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمِّي هذا الدليل أيضاً «الدليل الغائي»، إذ إن كل شيءٍ له غاية، وسمِّي أيضاً «دليل القصد»، وذلك أن كل ما في العالم مقصود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، وانظر إلى القصد والغاية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ ـ ١١].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٥ ـ ٦٩].

إن الله سبحانه يمسك النظام المترابط في كل لحظة وفي كل ثانية، وإنه سبحانه لو تخلَّف عن شيءٍ منه طرفة عينٍ لتلاشى، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

هذه العقيدة تحتاج إلى إيضاح أكثر؛ في سورة فاطر نجد الآية الكريمة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾، وهو سبحانه الذي يمسك الطير في جو السماء، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

ويقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

وهو سبحانه مالك الملك يؤتيه في أي لحظة من يشاء، وينزعه في أي لحظة ممن يشاء. وهو سبحانه الذي يصرِّف الليل والنهار كلما أشرف فجر وغربت شمس، وهو الذي يهب الحياة أو يسلبها كلما تنسَّم كائن الحياة وكلما فارقها، يقول سبحانه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] .

لعل القارئ الكريم يلاحظ استعمال الفعل المضارع في هذه الآيات القرآنية ودلالة الفعل المضارع إنما هي للحاضر وللمستقبل.

والآيات القرآنية ـ من هذا القبيل كثيرة ـ يقول سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٦] . ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم : ٤٦] . ويقول سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٤٨ ـ ٥٠] .

وما من شك في أن الله خلق وقدَّر، ووضع النواميس، وقعَّد القواعد، وذلك شيء، وإمساك كل ذلك والقيّومية عليه شيء آخر، فمع الخلق الإمساك، والإمساك مستمر لا ينتهي، وهذا هو معنى القيّومية، وهي من صفات الله تعالى. و«القيّوم» اسم من أسمائه سبحانه. ومعنى القيّوم أنه القائم بنفسه، وأنه الذي

يقوم به كل موجود، حتى إنه لا يكون للأشياء وجود ولا دوامُ وجودٍ إلا به[(١)] .

ـ أهي قيوميّة فحسب؟ لا ؛ إنها قيومية علم وتدبير قائم على العلم، فضلاً عن كونها قيومية إمساك . إن قيومية الله على العالم هي قيومية إمساك للعالم وإلا لتلاشى، ومن هنا كان المعنى العميق للدعاء الذي يدعو به كثير من الصالحين وهو : اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك . إذ لو أن الله وكل إنساناً إلى نفسه لتلاشى، فهو ممسك له مادياً، ولو وكله إلى نفسه روحياً لصار فريسة سهلة للنفس الأمّارة بالسوء وللشيطان الموسوس بالشر .

ـ وقيومية الله على العالم قيومية علم محيط شامل، فهو سبحانه كما يقول في كتابه : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧]، أما السر، فأمره معروف، وإنما الأخفى من السر فهو ما في دائرة اللاشعور .

ـ وهو سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

ـ وهو سبحانه : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

ـ وهو سبحانه الذي : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ٨ ـ ١٠] .

وعلمه سبحانه ليس مقصوراً على الماضي أو الحاضر فحسب، ولكنه شامل للمستقبل أيضاً، يقول تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلن أن علمه عام شامل بقوله : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] . إذ إن عالَم الغيب هو ما وراء الطبيعة، وعالم الشهادة

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٦ .

هو الطبيعة، فإن الله قد فصَّل الأجزاء والجزئيات، وبيّن أنه يعلم اليسير والصغير والكبير، يقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠]. ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢ ـ ٣].

وأما الأصغر من الذرة الذي ذكره الله سبحانه في الآية الكريمة فلك أن تقول عنه بسهولة ويسر: إنه البروتون والإلكترون، ويكون القرآن بذلك قد أشار إلى تفتيت الذرة قبل أن تُفتَّت. وهذه قيّومية العلم، وهي لا تنفك عن قيومية التدبير، إن قيومية التدبير قائمة على قيومية العلم لا تنفك عنها، وهي تلازمها حتى لكأنهما صفة واحدة[١].

تاسعاً: دليل العناية:

إن الله سبحانه معنيٌّ بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه، وإذا كانت كلمة «العناية» لا تخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فإنها تلوّن الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، وإذا تلوّن هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سمِّي «دليل العناية».

والقرآن الكريم غاصٌّ بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون، فمن أجل الإنسان كانت رحمة الله فيَّاضة

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٨.

بالنعم على الإنسان في نفسه، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. ويقول تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن نعمه العديدة التي أسداها إلى الإنسان، فنعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

إن دليل العناية من أجلِّ الأدلة على وجود الله الذي يقول:

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وسنذكر ـ مسترسلين مع التيار القرآني ـ أقوالاً لبعض الحكماء تؤيد هذا الدليل من حيث الترابط الهادف أو من حيث العناية. إن عناية الله السماوية في الكون كله التي يلاحظها الإنسان في عينيه تبصران، وفي أذنيه تسمعان، وفي عقله يفكر، وفي لسانه ينطق. إن عناية الله التي يلاحظها الإنسان في كل ما يحيط به ويغمره من نعم الله تنفي المصادفة، وإن الترابط الهادف يلغي المصادفة، وإن القصد الظاهر في نظام الكون ينفي المصادفة. ولنتحدث الآن عن التركيب وكيف أنه يرشد إلى الصانع:

خذ شيئاً من أيسر الأشياء في تركيبها؛ خذ الفأس مثلاً التي يستعملها الفلاح في حقله أو المعول الذي يستعمله العامل في عمله، إذا مر إنسان على الفأس

فرأى قطعة الخشب ملساء مستطيلة قد ثُبِّتت فيها بطريقة محكمة قطعة من الحديد خاصة، أتراه يظن أن ذلك وليد المصادفة البحتة؟ وإذا كان ذلك الظن لا يتأتَّى في اليسير السهل فإنه من باب أولى لا يتأتى في المعقّد الكثير التركيب كالساعة أو جهاز الراديو مثلاً[١].

والآن قدِّر في ذهنك ـ كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ـ بيتاً منسَّق البنيان، فاخر الأساس والرِّياش، قائماً على جبل مرتفع تكتنفهما غابة كثيفة، وقُدّر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه ولا حوله ديَّاراً ولا نافخ نار، فحدّثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمّع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً وتركبت أبواباً وسرراً ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشّاة، ثم تقطعت طنافس فانبثَّت في حجراته، واستقرت على أرائكه، وأن المصابيح جعلت تهوي إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت في سقفه زرافاتٍ ووحداناً. . ألست تحكم بأن هذا حلم نائم أو حديث خرافة قد أصيب صاحبه باختلاط في عقله؟

فما ظنك بقصرٍ، السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحه؟ أيكون في حكم العقل أهونَ شأناً من ذلك البيت الصغير؟ أولا يكون أحقَّ بلفت النظر إلى بارئ مصور حي قيوم خلق فَسوَّى وقدّر فهدى؟!

إن الاستدلال على وجود الله سبحانه بدليل العناية قديم قدم الإنسانية نفسها، فكل إنسان يشعر بأنه مغمور بنعم الله سبحانه في داخل نفسه وفي خارجها،

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٠.

ويقول الله تعالى معبّراً عن حقيقة يلاحظها كل إنسان بتدبير يسير : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤]، ويقول أيضاً : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

بهذا الدليل نفسه يقيم أحد الحكماء الحجة على المنكرين لوجود الله ؛ كان ذلك في العصر اليوناني، وكان المنكر هو أرسطو ديموس ـ وهو غير أرسطو الشهير ـ وجرى الحديث بينه وبين سقراط ـ أبي الفلاسفة ـ على النحو التالي :

قال سقراط : أفي الناس من تعجبك براعته في الصنائع؟

قال : نعم، وسمى من الشعراء والمصوِّرين ممن كان يعدّه أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأناً؛ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصوِّر الأشباح الحية المتحركة؟

فقال : من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بيّنة القصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء؟ ما هي التي عندك من فعل العقل وما هي التي عندك من فعل المصادفة؟

قال : ما ظهر قصده ومنفعته هو من فعل العقل . وقال سقراط : أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما لتلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه نافعاً صالحاً؟

وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا أنوف نشتمُّها؟ وكيف ندرك المطاعم ونفرّق بين المر والحلو لو لم يكن لنا لسان نذوق به؟

إن بصرنا معرَّض للآفات . . . أولست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يعيب العين «آلة البصر»، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟

وما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلئ أبداً؟ أما رأيت الحيوانات؟ وكيف رُتِّبت أسنانها المقدَّمة وأُعدَّت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقّها دقّاً؟ فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك: هل هي من فعل المصادفة أم هي من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس: نعم، إذا تفكَّرنا في ذلك فإننا نؤمن أنها من فعل صانع حكيم، كثير العناية بمصنوعاته(١).

إن هذا النهج الاستدلالي الذي سرنا عليه حتى الآن هو النهج الذي يقول فيه «كانط» فيلسوف ألمانيا الأكبر: إنه أوضح الأدلة وأقواها على وجود الله، وهو نهج قرآني إسلامي، بيد أن في الإسلام نهجاً آخر في موضوع وجود الله سبحانه وتعالى.

إن دليل القصد أو دليل العناية، أو دليل الترابط ـ أو غيرها ـ الذي سبق أن تحدثنا عنه بألوانه المتعددة، لا يعدو أن يكون دليلاً واحداً يسمَّى باسم اللون الغالب الذي يظهر فيه، وهو لا يعدو أيضاً أن يكون دليل الأثر على المؤثِّر، ودلالة الأثر على المؤثر دلالة سهلة واضحة. وإذا كان أثر القدم يدل على المسير ـ كما قال الأعرابي قديماً ـ فإن سماء ذات أبراج وأرضاً ذات فجاج يدلّان ـ لا ريب فيه ـ على الحكيم الخبير(٢).

عاشراً: الله سبحانه وتعالى هو الظاهر:

إن الله سبحانه وتعالى ـ في أعراف المؤمنين ـ ظاهر ظهوراً واضحاً، وهو عزَّ وجلَّ أظهرُ من كل ما سواه. إن المؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر،

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، وإن من أسماء الله اسم «الظاهر».

يقول تاج الدين بن عطاء الله السكندري عن هذا المعنى ـ متفنناً في التعبير والمعنى ـ جملة من التعبيرات تتَّحد ألفاظها إلا لفظاً واحداً أو لفظين، فيتغير المعنى بسبب ذلك ويكون للعبارات في مجموعها معنى لطيف. . . إنه يقول:

ـ كيف يُتصوَّر أن يَحجُبَه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كلِّ شيء؟

أما عن الاستدلال بالأثر على المؤثِّر فإن ابن عطاء يقول في مناجاته:

«إلهي كيف يُستدلُّ عليك بما هو في وجوده مُفتقِرٌ إليك؟»

والمفتقر إلى الله ـ في كلمة ابن عطاء الله ـ هو الكون كله، هو هذه الآثار كلها، في وجودها وفي ارتباطها، وفي إمساكها، وفي العناية بها[١].

ويتابع ابن عطاء الله مناجاته فيقول متجهاً إلى الله:

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهِرَ لك؟ متى غِبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك[٢]؟

وفي هذا المنهج كلام كثير، ومهما يكن من شيء فإنه سواء سار الإنسان على

---

(١) الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، العبيدات، مرجع سابق، ص٢٤.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٥.

النهج الصوفي أو على نهج الاستدلال فالله موجود، وقد كان في أزل ولا شيء معه ثم خلق الخلق[١].

ومن أسماء الله الحسنى «الظاهر»، ومن معاني كلمة الظاهر هو أن الله لكثرة البراهين الدالة عليه، ولكثرة الدلائل التي تشير إليه: ظاهر... قيل: يا إمام متى كان الله؟ فقال الإمام علي: ومتى لم يكن[٢]؟

وقال العلماء: لقد خلق الله كل الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات[٣].

ومن أدق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته وعلاماته، كل الكون يدل على الله أبداً، كل الكون بمجراته، بالسماوات، والأرض، والنبات، والحيوان، والأطيار، والأسماك، والإنسان، والطعام، والشراب، لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف من خلاله على الله، ولو لم نستفِد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف على الله من خلاله ما حقَّق الهدف من وجوده[٤].

وقيل في الاسم الظاهر: هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزّه بمعاني أسمائه وصفاته، فهدايته واضحة، وآياته واضحة[٥].

قال العلماء لا ترى ذرة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلّقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال، كل الخير من الله، كل الكمال من الله، كل الأعمال الصالحة بتوفيق

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، المرجع نفسه، ص٢٦.

(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٢/ ١٠٠٤.

(٣) النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.

(٤) النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.

(٥) النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.

الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر. قالوا: الظاهر لا يخفى على كل متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له. قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون، محلّى بالكمال، وكل شيء فيه ينادي: أشهد أن خلاَّقي ذو الجلال والإكرام ظاهر[١]. والظاهر: هو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه[٢]. وقد قال الإمام ابن القيم عن اسم الجلالة (الظاهر) في نونيته:

والظاهر العالي الذي ما فوقه ... شيء كما قد قال ذو البرهانِ
حقاً رسول الله ذا تفسيره ... ولقد رواهُ مسلمٌ بضمانِ
فاقبلْهُ لا تقبلْ سواه من التفا ... سير التي قيلت بلا برهانِ
والشيء حين يتمُّ منه علوّه ... فظهوره في غاية التبيانِ
أَوَما ترى هذي السما وعلوَّها ... وظهورها وكذلك القمرانِ
والعكس أيضاً ثابتٌ فسُفُولُهُ ... وخفاؤُهُ إذ ذاك مصطحبانِ
فانظر إلى علو المحيط وأخذِهِ ... صفةَ الظهور وذاك ذو تبيانِ
وانظر خفاءَ المركز الأدنى ووصـ ... ـف السفل فيه وكونه تحتاني
وظهوره سبحانه بالذات مثـ ... ـلُ علوِّه فهما له صفتانِ
لا تجحدَنَّهما جحودَ الجَهْمِ أو ... صافَ الكمال تكون ذا بهتانِ
وظهوره هو مقتضٍ لعلوِّه ... وعلوُّه لظهوره ببيانِ[٣]

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: و«الظاهر» يدل على عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، ويدل على علوِّه[٤].

---

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٢٧/ ١٢٤.
(٣) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٧٤.
(٤) الجليل، المرجع نفسه، ص١٧٥.

واسم الله الظاهر مقترن بالباطن، ومن أسرار اقتران أسماء الله الحسنى: الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة؛ الأول والآخر والظاهر والباطن، هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه[١].

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة؛ وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوَّليَّته وآخريَّته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوَّليَّته، وكل آخر انتهى إلى آخريَّته، فأحاطت أوليَّته وآخريَّته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريَّته وباطنيَّته بكل ظاهر وباطن، فما ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده؛ فالأولُ قِدمُه، والآخرُ دوامُه وبقاؤُه، والظاهرُ علوُّه وعظمتُه، والباطنُ قربُه ودنوُّه، فسبق كلَّ شيء بأوَّليَّته، وبقي بعد كل شيء بآخريَّته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطناً، بل الباطنُ له ظاهرٌ، الغيبُ عنده شهادةٌ، والبعيدُ منه قريبٌ، والسرّ عنده علانيةٌ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد؛ فهو «الأولُ» في آخريَّتِهِ، و«الآخرُ» في أوَّليَّته، و«الظاهرُ» في بطونه، و«الباطنُ» في ظهوره، لم يزل أولاً، وآخراً، وظاهراً، وباطناً[٢].

وقد أورد ابن القيم هذه الأسماء مجتمعةً في نونيَّته الشهيرة حيث قال:

هـو أولٌ هـو آخـرٌ هـو ظـاهـرٌ ... هـو بـاطـنٌ هـيَ أربـعٌ بـوِزانِ
مـا قبلَـهُ شـيءٌ كـذا مـا بعـدَهُ ... شـيءٌ تعـالـى اللهُ ذو السّلطـانِ
مـا فـوقَـهُ شـيءٌ كـذا مـا دونَـهُ ... شـيءٌ وذا تفسيـرُ ذي البُـرهـانِ

---

(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز الجليل، المرجع نفسه، ص١٧٨.
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤، ص٢٥.

فــانظــرْ إلــى تفسيــرِهِ بتــدبُّــرٍ وتبصّــــرٍ وتعقّــــلٍ لِمَعــــانِ[١]

فالله سبحانه لَمّا كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكرُهُ أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه. وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته[٢].

❋ ❋ ❋

---

(١) نونية ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، ط١، ١٤٠٤هـ، ٢/ ٢١٣.

(٢) كلام ابن تيمية نقلاً عن: قصة الخلق، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ٢٠٠٨، ص١٣.



الفَصْلُ الثَّانِي

قصة بدء الخلق

المبحث الأول: بدء الخلق وقدرة الخالق سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني: أي المخلوقات خُلق أولاً؟

* * *





المبحث الأول

بدء الخلق وقدرة الخالق سبحانه وتعالى

إن الناس ـ في كل زمان ومكان ـ يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده. . . إنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد.

لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة، فأخذوا يسألون رسول الله ﷺ عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتجشَّمون السفر من أجل المعرفة. . . ها هم أولاء ناس من أهل اليمن، كما يروي الإمام البخاري رضي الله عنه، فيقولون: جئنا نسألك عن هذا الأمر؛ أي أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاؤوا من اليمن يسألون عن الخلق متى وكيف؟

وقد روى الإمام البخاري أيضاً عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتَّى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه[1].

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله ﷺ أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرِّجاً مع الترتيب حتى انتهى إلى نهاية العالم ومصيره، والبعث والحساب،

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٧.

حتى دخل الذين نالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكتسبوا السيئات عاقبهم الله بما كسبت أيديهم فأدخلهم النار.

ولقد رُوي عن بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ خطبهم في ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله خطب في ذلك عدة مرات، فقد روى الإمام مسلم عن أبي زيد الأنصاري قال: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس، فحدثنا بما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا.

ولقد روت الأحاديثُ الصحيحةُ جملةً من القضايا؛ منها ما رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ وهي إجابة الرسول ﷺ عن سؤال وفد اليمن؛ والقضية الأولى في ذلك: كان الله ولم يكن شيء غيره. والقضية الثانية: كان عرشه على الماء. والقضية الثالثة: أنه سبحانه وتعالى كتب في الذِّكر كلَّ شيءٍ «أيّ: في محل الذِّكر؛ أي: اللوح المحفوظ». والقضية الرابعة: أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض[1].

فقد قال رسول الله ﷺ لأهل اليمن: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**»[2].

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. فالقرآن الكريم من طريقته أن يتخذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب،

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٢٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٤.

تبحث فيها عن آيات الله، وترى دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده. ومشاهد الكون وظواهره حاضرة أبداً لا تغيب عن إنسان، ولكنها تفقد جدَّتها في نفوس الناس بطول الأُلفة، ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار، فيردُّهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة، وإلى تلك الآيات الباهرة، بتوجيه الموحي، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر، ويثير تطلُّعَهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها، ويجعل منها دلائلَه وبراهينَه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر، ولا يتخذ طرق الجدل الذهني البارد، والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة، التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلَّت غريبة عليه، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق[1].

ـ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملَّها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقةٍ دقيقةٍ، وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيءٍ من مشاهده أو عجائبه، حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسُّه وقلبه إلى كل مشهد، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمرُّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد وروح جديدٍ ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته، وعادت مشاهد موطنه وعجائبه تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها، أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه، فسبحان منزل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس[2].

ـ ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾: إن التعبير هنا بلفظ الماضي «كيف بدأ الخلق»، بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، يثير في النفس خاطراً معيناً؛ ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى وكيفية بدء الخليقة فيها، كالحفريات التي يتتبَّعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢، ٥/ ٢٧٢٩.
(٢) سيد قطب، المرجع نفسه، ٥/ ٢٧٣٠.

الحياة؛ كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سرِّ الحياة: ما هي؟ ومن أين جاءت إلى الأرض؟ وكيف وُجد فيها أول كائن حي؟ ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى، والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة.

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر؛ ذلك أن المخاطَبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثاً، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذٍ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به ـ لو كان ذلك هو المقصود ـ فلا بدَّ أن القرآن كان يطلب منهم أمراً آخرَ داخلاً في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصوُّر النشأة الآخرة، ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان؛ ويكون السير في الأرض ـ كما أسلفنا ـ لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التأمُّل والتدبُّر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظةٍ من لحظات الليل والنهار.

وهناك احتمال أهم يتماشى مع طبيعة هذا القرآن؛ وهو أنه يُوجِّه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعاً، ومستوياتهم جميعاً، وملابسات حياتهم جميعاً، ووسائلهم جميعاً، ليأخذ كلٌّ منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته، ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبداً، ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين، هذا أقرب وأولى.

ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة ومن قدرة الله على كل شيء[1]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٣٠.

أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤].

أولاً: بداية الخلق ليست غامضة:

بداية الخلق ليس بداية غامضة أو هلامية كما يصوّرها الفكر الغربي المادي الحديث، الذي يتيه في شعاب من التجارب والنظريات المتناقضة في كثير من الأحيان، وما زال المفكرون الغربيون وعلماء الفيزياء والفلك في حيرة من أمرهم في مسألة تحديد بداية الخلق ونشأة الكون، بل لقد أفضت بهم تلك الحيرة إلى الإلحاد في التصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية ـ كما يقول جعفر شيخ إدريس ـ هو مع الأسف تصوُّر مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية، وأن الكون مكتفٍ بنفسه، غني عن أيِّ شيءٍ خارجي[1].

ولذا جاء تفسير بداية خلق الإنسان بعيداً عن الدين، وجاء تبعاً لذلك الفكر الاجتماعي والتربوي الإنساني منطلقاً من هذه النظرية المادية الملحدة التي ترفض الدين والإيمان بالله وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وهذا يؤكد ما سبق ذكره من أهمية الحديث عن قصة الخلق وارتباطها بكثير من القضايا الكبرى في عقيدة المسلم وحياته[2].

ـ الله هو الأول: فأول تلك المعالم حقيقة أن الله سبحانه وتعالى هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وفي صحيح مسلم من

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط ١، ٢٠٠١، ص١٥.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٥.

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**اللهمَّ أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شَيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ...**»[١].

قال ابن تيمية رحمه الله: وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخِر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته، فهو سبحانه الأول دون بداية، فلا يُسأل متى ولا كيف[٢]. ولذلك قال ابن جرير الطبري في تفسيره: هو الأول قبل كل شيء بغير حَدٍّ[٣].

ويقول الشيخ السعدي: الأول: يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويجب على العبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى[٤].

ـ وقد اقترن اسم الأول باسمه الآخر سبحانه وتعالى مرة واحدة في القرآن؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ـ وفي الحديث الشريف عن عائشة أم المؤمنين قول رسول الله ﷺ: «**اللهمّ أنتَ الأوّلُ الذي ليسَ قبلكَ شيء، وأنتَ الآخِرُ الذي ليسَ بعدكَ شيء، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيء، وأنت الباطنُ فليسَ دونكَ شيء، اقْضِ عنّا الديْنَ وأغنِنا من الفقرِ**»[٥]. قال الخطابي: «الآخِر» هو الباقي بعد فناء الخلق، وليس

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقوله عند النوم، رقم: (٢٧١٣).

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٥.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٢٧/ ١٢٤.

(٤) شرح أسماء الله الحسنى، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد ١١٢، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ، ص١٦٩.

(٥) تفسير القرآن، ابن كثير، ٨/ ٣١.

معنى «الآخِر» ما له انتهاء، كما ليس معنى «الأول» ما له ابتداء. وقال البيهقي: «الآخِر» هو الذي لا انتهاء لوجوده. وقال الطبري: «الآخِر» بعد كل شيء بغير نهاية[١].

وأحسن التعريفات وأكملها ما فسّره أعرف البشر بالله عزَّ وجلَّ سيدنا رسول الله ﷺ؛ وذلك في قوله: «**وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ**»[٢]. ومن آثار الإيمان بهذين الاسمين؛ يقول ابن القيم رحمه الله: فعبوديته باسمه «الأَول» تقتضي التجرُّد من مطالعة الأسباب والوقوف عليها والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأيُّ وسيلة كانت هناك؟! وإنما هو عدمٌ محضٌ، وقد أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجُوده. فمن نزَّل اسمه «الأَول» على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصّاً وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه «الآخِر» تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلُّق بها تعلقٌ بما يعدم وينقضي، والتعلق بـ «الآخر» سبحانه وتعالى تعلُّقٌ بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق ألَّا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به.

فتأملْ عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيءٍ سواه، وأن الأَمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأَسباب والوسائل، فهو أَول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو إلهه وغايته التي

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٦٨.
(٢) تفسير القرآن، ابن كثير، ٨/ ٣١.

لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأَن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأَول الذي ابتدأَت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراءَ الله شيء يُقصد ويُعبد ويُتألَّه، كما أَنه ليس قبله شيء يَخلق ويَبرأ، فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تأَلهك وعبوديتك، وكما ابتدأ وجودُك وخلقُك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتأَلهك إليه لتصحّ لك عبوديته باسمه «الأَول والآخر»، وأَكثر الخلق تعبَّدوا له باسمه «الأَول»، وإنما الشأْن في التعبد له باسمه «الآخر»؛ فهذه عبودية الرسل وأَتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده[١].

ومن أسرار اقتران اسمَي الجلالة: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، يقول ابن القيم: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وهذا من سرِّ اسميه: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾؛ فهو المُعِدُّ، وهو المُمِدُّ، ومنه السبب والمسبَّب، وهو الذي يُعيذ من نفسه بنفسه. كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»[٢]. ويقول أيضاً: منه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢][٣].

وقال رحمه الله تعالى: والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فانتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية، لا في وجوده ولا في مزيد جُوده؛ إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و«الآخر» الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قرباً لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبداً لا يقف

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٠ ـ ٢١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم: ٤٨٦.

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ١/ ١٤٣.

على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء أن أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاء، فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُم وجنَّكم قاموا في صَعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألتَه: ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما يَنقُصُ المِخيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ**» [1].

ومن تلك المعالم ما قرَّرته أول آية في سورة الفاتحة، تلك السورة العظيمة التي يكررها المسلم في كل ركعة من صلاته، ركناً لا تصح صلاته دونه، حيث حدد الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] حدد الوجود في شيئين؛ ذاته الجليلة سبحانه، وخلقه، فهو الربُّ وما سواه مربوب، إذ معنى «العالمين»: ما سوى الله سبحانه وتعالى، قال قتادة رحمه الله: العالمون جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى. ورجحه القرطبي رحمه الله فقال: لأنه شامل لكل مخلوق موجود، دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٤].

وليس في الوجود شيء غير الخالق والمخلوق، فلا قوة فوق قوة الله، ولا إله بحق غير الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. كما أنه لا شيء في الوجود خارج عن هذه العالمية المربوبة لله عزَّ وجلَّ، فالكل تحت تصرُّفه وملكه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] [2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم: ٢٥٧٧. وانظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٢٦٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧.

ويبين الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى معنى قوله: «رب العالمين»، فيقول: وربوبيته للعالم تتضمَّن تصرُّفَه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كلَّ وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن؛ يخلق ويرزق، ويُميت ويُحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه[١].

ويتحدث رحمه الله تعالى عما يشاهده العبد من اسمه سبحانه «رب العالمين»، فيقول: وشاهد من ذكر اسمه «رب العالمين» قيوماً قام بنفسه وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرِّها، قد استوى على عرشه وتفرَّد بتدبير ملكه فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته؛ بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطيَ لما منع، ولا مُعقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مُبدِّلَ لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتُعرَض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيُقدِّر المقادير ويُوقِّت المواقيت ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كله، وحفظه ومصالحه[٢].

وقد امتدح الله عزَّ وجلَّ نفسه بأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. والعالمون جمع عالم، وكل ما سوى الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] والنصوص المعرّفة بأنه رب العالمين كثيرة جداً، كما مدح نفسه بأنه رب كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وإن الله عزَّ وجلَّ ربُّ كل شيء وخالقه ومليكه والقادر عليه

---

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، ٤/ ١٢٢٣.

(٢) الصلاة وحكم تاركها، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٦٩ ـ ١٧٠.

والمتصرف في جميع أموره، وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره؛ لأن أحداً لا يدّعي أنه أو غيره من المخلوقين هو الخالق البارئ المحيي المميت القادر على كل شيء، والمتصرف في كل شيء[١]. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

١ ـ الله (عز وجل) يتحدّى الملحدين:

أقام الله عزَّ وجلَّ الحجَّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم التي تصبُّ في الإلحاد أو ادِّعاء الشريك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧].

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كاد قلبي أن يطير.

فهذه الآية تنفي شبهة مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق له خالق[٢]. ففي قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ بيان واضح بأن وجودهم من غير شيء أمرٌ ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدَّعوه ولا يدَّعيه مخلوق.

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٩١.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧٠.

وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة فلا تبقى إلا الحقيقة التي يقرِّرها القرآن؛ وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة، وهو منطق واضح وبسيط. كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم؛ فهل هم خلقوها؟ فإنها لم تَخلق نفسَها بطبيعة الحال كما أنهم لم يَخلقوا أنفسَهم: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

وهم وكلُّ مَن يحتكم إلى منطق الفطرة ـ لا يقولون إن السماوات والأرض خلقت نفسها، أو خُلقت من غير خالق، وهم كذلك لا يدَّعون أنهم خلقوها، وهي قائمة حيالهم، وبذلك تبقى قصة الخلق سؤالاً حيّاً يتطلب جواباً على وجوده، قد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض يقولون الله، ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي تنشأ آثاره في القلب، ويتحوَّل إلى اعتقاد واضح دقيق: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾. ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض فيسألهم: هل هم يملكون خزائن الله، ويسيطرون على القبض والبسط، والضرِّ والنفع؟

ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾: وإذا لم يكونوا كذلك ولم يدعوا هذه الدعوى فمن ذا يملك الخزائن؟ ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور؟ القرآن يقول: إنه الله القابض الباسط، المدبر المتصرف، وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير، بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور. ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨].

إن محمداً ﷺ يقول لهم إنه رسول يُوحَى إليه، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى، وهم يكذّبونه فيما يقول، فهل لهم سلّم يستمعون فيه فيعلمون أن محمداً لا يُوحَى إليه، وأن الحق غير ما يقول؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾:

أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يُلجئها إلى التصديق، وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه، وهم يكابرون فيها ويعاندون[١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]. كما جعل الله التذكير بمبدأ الخلق باباً من أبواب مقتضيات الإيمان به سبحانه وتوحيده في العبادة، وأنه المستحق لذلك وحده دون ما سواه، وذلك في أكثر من آية في كتاب الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤]. إلى غير ذلك من الآيات المبثوثة في القرآن الكريم[٢].

٢ ـ القضاء على وسوسة الشيطان في مسألة الخلق:

التفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخلٌ من مداخل الشيطان ووسوسته، والشيطان لا يترك سبيلاً للتشويش على ابن آدم إلا سلكه، فمن ذلك ما بيّنه النبي ﷺ مما يعرض للإنسان في مسألة الخلق من وساوس الشيطان التي تجرُّه للسؤال عمن خلق الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وما ينبغي له حينما يعرض له ذلك الأمر. فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يَبرحَ الناسُ يتساءلونَ حتى يقولوا: هذا الله خالقُ كلِّ شيءٍ، فمَن خلقَ الله؟**».

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٣٤٠٠.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٨.

قال ابن حجر: وفي رواية بدء الخلق: «**مَن خلقَ ربَّكَ؟**»، وزاد: «**فإذا بلغَهُ فليَسْتَعِذْ به ولْيَنْتَهِ**»، وفي لفظٍ لمسلم: «**فَمَن وَجَدَ مِن ذلك شيئاً فلْيَقلْ: آمنتُ بالله**»، وزاد في أخرى: «**ورسلِه**»، ولأبي داوُد والنسائي من الزيادة؛ فليقل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، **ثم لِيَتفُلْ عن يَسارِه، ثم لِيَسْتَعِذْ**. وفي رواية أخرى: «**فإذا وَجَدَ أَحَدُكُم ذلك فَلْيَقُلْ: آمنتُ بالله ورسولِه، فإنَّ ذلك يُذهِبُ عنهُ**».

وهذه من الشبه التي يلقيها الشيطان على ابن آدم، ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، ولذا نبه لها النبيُّ ﷺ حتى لا يقع فيها المسلم، وبيّن طريق التخلص منها، وأنها وسوسة من الشيطان للتشويش على إيمانه، وجرِّه إلى دوامة من الوهم[١].

روى أبو داوُد عن أبي هريرة قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ من أصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنّا تكلمنا به فقال: «**أَوَجَدْتموه؟ ذلك صَريحُ الإيمانِ**»[٢]. ولابن أبي شيبة من حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إنِّي أحدِّثُ نفسِي بالأمرِ لأنْ أَكونَ حُمَمَةً أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ به، فقال: «**الحمدُ لله الذي ردَّ أمرَه إلى الوسوسةِ**».

ثم نقل الخطابي: المراد بصريح الإيمان هو الذي يعظم في نفوسهم أن تكلَّموا به، ويمنعهم من قبول ما يلقي الشيطان، فلولا ذلك لم يتعاظم في أنفسهم حتى أنكروه، وليس المراد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، بل هي من قبل الشيطان وكيده[٣].

وكذلك بيّن ابن عباس كيفية علاج الوسوسة الشيطانية، فعن أبي زميل قال:

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) سنن أبي داود نقلاً عن قصة الخلق، ص٢٠.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٠.

سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] [(١)].

ويعلق ابن القيم على هذا الأثر فيقول: فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو «الرب» الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالقٍ غير مخلوقٍ، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه وكل شيء قائم به، موجود بذاته وكل شيء موجود به، قديم لا أول له وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه باقٍ بذاته، وبقاء كل شيء به، فهو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و«الآخر» الذي ليس بعده شيء، «الظاهر» الذي ليس فوقه شيء، «الباطن» الذي ليس دونه شيء[(٢)].

٣ ـ الله عزَّ وجلَّ لم يزل خلاَّقاً وخلقه دليل على المعاد:

ومن معالم هذه القصة الكبرى أن الله سبحانه لم يزل خلّاقاً، فصفة الخلق لله سبحانه وتعالى صفة ذاتية أزلية، فهو لم يزل خالقاً عليماً، وليس الخلق مرحلة انتهت أطوارها وتوقف سيرها، فما يحدث في الكون من فعل أو تقدير أو تدبير أو تغيير أو تبديل، أو تصريف لشأن من شؤونه؛ من ليل ونهار، أو صيف أو

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٨٠.
(٢) الجليل، مرجع سابق، ص١٨١.

شتاء، أو حياة أو موت، أو عِزٍ أو ذُلٍّ، أو نصر أو هزيمة، فهو بأمر الله وتدبيره، قال ابن السعدي في تفسير قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]: فإنكم ستجدون أمماً من الآدميين لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث، وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدُّدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة[١].

كما جعل سبحانه مبدأ الخلق دليلاً على قدرته تعالى على إعادته فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فالقادر على البداية أقدر على الإعادة، والإعادة على مثال سابق أيسر من البداية بغير مثال[٢]. وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ويقولُ الله تعالى كذَّبَني ابن آدمَ وما يَنبغي له أنْ يُكذبَني، وشَتَمني وما يَنبغي له أنْ يَشتمَني، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقولُه: لنْ يُعيدَني كما بَدَأني، وليسَ أوَّلُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شتْمُه إيَّايَ فقولُه: اتَّخذَ الله ولداً، وأنا الله الأحدُ الصَّمدُ، لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كُفواً أحدٌ**»[٣].

ثانياً: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

ورد في القرآن الكريم وصف الله بصفات الكمال، وأنه المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠، ص٥٦٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢.

(٣) البخاري نقلاً عن قصة الخلق، ص٢٢.

يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. وصف الله سبحانه وتعالى في هذه السورة نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق[١]. وجاء معنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد[٢]. ويدل هذا المعنى للصمد على الإثبات والتنزيه.

فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يعمد إليه، أي: يرجع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمَردُّ إليه سبحانه[٣].

وأما التنزيه: فوصفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس مثله شيء، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير[٤]. ويدل وصفه سبحانه وتعالى بأنه أحد صمد على اتصافه بالكمال المطلق. كما أن «أحد صمد» يدلاَّن على معنى آخر هو نفي الولادة والتولُّد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له، ولا أحشاء، فلا يأكل ولا يشرب. كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ

---

(١) إثبات علو الله على خلقه، أبو الحسن خوجلي إبراهيم، ص٢٨. بتصرف. لا تتوفر معلومات أخرى.

(٢) تقريب التهذيب، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط ١، ١٩٨٦، ٢٠/ ٢٤٥.

(٣) إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص٢٩.

(٤) إبراهيم، المرجع نفسه، ص٢٨ ـ ٢٩.

أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

فإن الأحد هو الذي لا كُفُؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون من شيئين:

قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. وفي هذا نفي عن المخلوق مكافأته أو مماثلته للخالق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيراً، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: لا شيء يساميه، لا ندَّ ولا عدل، ولا نظير له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل، وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص(١).

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

ثالثاً: الله يُعرّفُ نفسه لخلقه في آية الكرسي:

تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه(٢).

وهذه الآية تملأ القلب مهابةً من الله وعظمته وجلاله وكماله، فهي تقرِّر أن

---

(١) إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص٢٩، بتصرف.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ٢٠٠٣، ١/ ٢٤٥.

الله تعالى منفرد بالألوهية والسلطان والقدرة، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض[١]. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وإليك شرحَ هذه الآية العظيمة التي تحدَّث الله فيها عن نفسه عزَّ وجلَّ:

ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾:

أي: لا خالق ولا معبود بحق وصدق إلا الله عزَّ وجلَّ، وكل ما سواه باطل أصلاً، وهذه الآية أصل في التوحيد؛ فالله سبحانه واحد ليس له شريك، ولا نظير، ولا وزير، ولا مشير، فلا يجوز أن يُعبد شيء غير الله[٢]. فهو الإله المستحِقُّ لجميع أنواع العبادة والطاعة والتأليه، لكماله وكمال صفاته، وعظيم نعمه، وجديرٌ بالإنسان المخلوقِ أن يكون عبداً لربه ممتثلاً أوامره، مُجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبِّراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة[٣].

ـ **«الله»**: هو اسم دالٌّ على ذات الله تعالى، رب العالمين، الإله المعبود حقّاً، المتّصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ولا تُحَدُّ ولا تُستَنقَصُ، والمتنزه عن جميع العيوب والآفات، ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه[٤].

---

(١) التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨، ٣/ ١٨.

(٢) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٩، ص٧٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٤/ ١٨١٠.

(٤) المسيح عيسى ابن مريم الحقيقة الكاملة، محمد علي الصلابي، ط ١، ٢٠١٩، ص٤٣٦.

ـ «اللهُ»: هذا الاسم الجليل، تعلّقت به جميع العوالم بذاتها وبأنواعها قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. فجميع العباد يقولون: يا الله، دعاءً أو سؤالاً، نداءً أو ذكراً أو مناجاة[١].

ـ «اللهُ»: هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية، الظاهرة والباطنة على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات[٢].

إن معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[٣].

ـ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾:

مدَح الله نفسه بصفتين جليلتين جميلتين هما: «الحي القيّوم»؛ «الحي»: الذي لا يموت، الحي من صفات الله تعالى، وهو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواه؛ يعتريهم الموت والعدم، فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى[٤]. «الحي»: من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع «صفات الذات»؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك[٥]. والحياة التي وُصف بها الإله الواحد هي «الحياة الذاتية»، التي لم تأتِ من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة على هذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٤/ ١٨١٠.
(٢) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح العود، مرجع سابق، ص٧٩.
(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢، ٢/ ٢٠٨.
(٤) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العودة، مرجع سابق، ص٨٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.

المعنى، كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية[١].

«**القيوم**» أي: دائم القيام بجميع شؤون الخلق، وهو القائم على كل شيء، فالله عزَّ وجلَّ قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه.

«**القيوم**»: هو الذي قام بنفسه وقام به غيرُه، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين؛ من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قَيُّوميَّة الباري[٢].

إن صفة «الحياة» متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة «القيومية» متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى هو اسم «الحي القيوم»، ويكون التوسّل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء؛ وهي أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات «الحي القيوم»، والمقصود أن لاسم «الحي القيوم» تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات، ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: **يا حيُّ يا قيوم**[٣].

ـ ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾:

هذا من تمام حياته وقيوميّته، أنه تبارك وتعالى ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾. أي: لا يعتريه نعاس ولا نوم؛ لأنه من أعراض البشرية، والله بخلاف ذلك.

ـ «**السِّنة**»: ابتداء النعاس، يصير نوماً، و«النوم» أقوى من السِّنة، وإذا كان ذلك كذلك فإن نفي استيلاء السِّنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال «الحياة»

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٦٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.
(٣) المسيح عيسى ابن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص٤٣٨.

ودوام التدبير، وإثبات لكمال «العلم»، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال[١].

والخلاصة: هذه الجملة مؤكِّدة لما قبلها، مقرِّرة لمعنى الحياة والقيوميَّة على أتم وجه، إذ مَن تأخذه السِّنة والنوم يكون ضعيف الحياة، ضعيف القيام بشؤون نفسه وشؤون غيره[٢].

ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

لما كان الله سبحانه وتعالى دائم القيام في ملكه وليس لأحد معه فيه شركة، ولا لأحد عليه سلطان، قرَّر عزَّ وجلَّ قيوميّته هذه بقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جميع من فيهما ملكه، يتصرف بهم وحده بحكمته وقدرته وعنايته[٣]، وجميع عبيده وملكه تحت قهره وسلطانه[٤].

ـ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾:

أي: ليس لمخلوق ـ كائناً من كان؛ لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل ـ شفاعة ولا ضراعة عند الله عزَّ وجلَّ إلا برضاه وبعد إذنه، فإن «الشفاعة» كلها لله وحده، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزَّ وجلَّ، وأنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنٍ له من الله في الشفاعة[٥].

إن الله تعالى لا يشفع عنده أحد بحق ولا إدلال؛ لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يُظهر كرامته عنده، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد[٦].

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص٨٦.
(٢) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص٤٣٩.
(٣) مرجع سابق، ص٤٣٩.
(٤) مرجع سابق، ص٤٣٩.
(٥) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق ص٩١.
(٦) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ٣/ ٢١.

ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

أي: إن الله عزَّ وجلَّ عليم بكل ما في السماوات وما في الأرض من شؤون خلقه؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن أمر الدنيا والآخرة، والمقصود من ذلك: عموم العلم بسائر الكائنات في الأرض وفي السماوات(١). وإن الله عزَّ وجلَّ عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء، والطير في الهواء والسمك في الماء(٢). فلا تخفى عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا ما بينهما، فهو عالم بخفايا وأسرار ملكه ومخلوقاته سبحانه وتعالى(٣).

ـ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾:

أي: لا يدركون من العلم أو المعرفة إلا بقدر ما علَّمهم ربُّهم، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم(٤). فآتاهم الله من علمه ما شاء، وكما شاء، لا معقِّب لحكمه وهو سريع الحساب(٥). لا يطّلع أحد على شيء من علم الله إلا بمشيئة الله وتعليمه، فما عرفه الإنسان من عالم الغيب، وما عرفه الإنسان من عالم الشهادة وقوانين هذا الكون، وكيفية تسخيره، لم يكن إلا بمشيئة الله وتعليمه، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي علّم كل شيء ما عَلِمَ(٦).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على سعة علم الله عزَّ وجلَّ، وأنه محيط

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص٩٤.
(٢) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص٤٤٠.
(٣) الصلابي، مرجع سابق، ص٤٤٠.
(٤) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص٩٦.
(٥) الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: أحمد شاكر، ١٩٤٠، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص٤٨٥.
(٦) الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٤، ١/٥٩٦.

بكل شيء؛ قلَّ أو كثر، صغر أو عظم، كما جاء تحديداً في سورة يونس: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

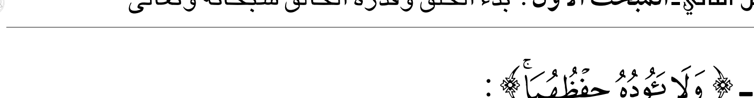
إن علم الله تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة؛ إلاّ ما علّمهم الله تعالى[١].

- ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾:

إن الكرسي هو كناية في الآية عن عظم العلم وشموله واتساعه، وتفسيره بعظم السلطان يتناسب مع قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾، ولذلك يصح أن نقول: إن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ كناية عن عظم قدرته ونفوذ إرادته وواسع علمه وكمال إحاطته، وقد فسر ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأن ﴿كُرۡسِيُّهُ﴾ علمه؛ هو كناية عن سعة الملك وسعة العلم[٢]. وهذه الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقاً وثباتاً، فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن الصورة التي ترتسم في الحسِّ من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن[٣]. تأتي: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ لتقرير ما تضمّنته «الجمل» كلها من عظمة وكبرياء وعلم وقدرة في حق الله عزَّ وجلَّ في علاه، ولبيان عظمة خلقه في مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه، أو إظهار سعة ملكه[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ١/ ١١٢.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ٢/ ٩٤٠ - ٩٤١.
(٣) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٩٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٥/ ١١.



ـ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾:

أي: إن الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات كثيرة لا يشق عليه حفظهما، ولا يعجز عن رعاية ما أوجده فيهما، ولا يثقله تسيير شؤونهما حسبما قضاه وقدَّره فيهما[١]. فسبحان من تقوم السماء بأمره، وتدور الأرض بوحيه، رفع الجبال وأجرى الأنهار وحرّك الهواء وشق الحَب وأخرج الثمار، والوجود في قبضته وكل ما فيه إنما إرادته، لا تعصيه سماء ولا تخرج عن طاعته أرض ولا سحاب[٢].

ـ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾:

أي: الله تعالى فوق خلقه، فلا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد، وهو أيضاً الكبير ذو الهيبة والجلال، المتعالي بعظمته جلَّ جلاله على كل عظيم. «العلي»: يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً، فهو أحق بصفات الكمال، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة، فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون، وكان النبي ﷺ يستفتح دعاءه: **سبحان ربي العلي الوهاب**، فكان النبي ﷺ إذا سجد ـ أي في صلاته ـ قال: **سبحان ربي الأعلى «ثلاثاً»**.

«**الْعَظِيمُ**»: الذي قد كمل في عظمته[٣]، فهو عظيم في ذاته وصفاته، فذاته العليَّة جلَّت عن المشابهة، وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذي يسبّح كل شيء في الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود وحده، والمعظَّم وحده، وإذا كانت غواشي الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمته في الفانية فستنجلي لهم عظمة ذي الجلال في الباقية[٤].

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص١١١.
(٢) العود، المرجع نفسه، ص١٠٢.
(٣) العود، المرجع نفسه، ص١٠٣.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٢/ ٩٤٢.

هذان هما الوصفان الشاملان: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ لكل الأوصاف السابقة، فالله سبحانه وتعالى هو العلي العظيم.

إذن هذه آية الكرسي، أعظم آية في كتاب الله، كما ورد في بعض الآثار المثبتة في الصحاح، وإنها لتدل على وحدانية الله تعالى بكل شُعبها، فقد دلت على وحدانية الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ووحدانية الخلق والتكوين، فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته، وقد دل على ذلك بأكثر ما في الآية الكريمة؛ كقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وفيها تتجلّى وحدانية الذات والصفات، بمعنى أن الله لا يشبهه شيء أو أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، تعالى الله رب العالمين علوّاً كبيراً، تولانا سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته[١].

رابعاً: الله غني عن خلقه:

ومن أهم المعالم في هذه القصة العظيمة أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد[٢].

ومن أسماء الله الحسنى: «الغني»، وقد ذُكر في القرآن ثماني عشرة مرة؛ تارة مفرداً، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨]. وتارة مقروناً باسمه «الحميد» ـ وهو أكثرها ـ كما في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، المرجع نفسه، ٢/ ٩٤٢.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢.

تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]. ومرة مقروناً باسمه «الكريم»، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ومرة مقروناً باسمه «الحليم»، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقد قال الخطابي: «الغني» هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم وهم إليه فقراء محتاجون، كما وصف نفسه تعالى فقال عز من قائل: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في قوله تعالى ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]: فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيّاً؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية[١]، فالله سبحانه وتعالى ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه[٢].

خامساً: خلق الله الخلق في أوقات متفاوتة:

من معالم قصة الخلق أن الله سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد، ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه. قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٦٢٩.
(٢) الجليل، مرجع سابق، ص٦٧٧.

أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق ذلك كله في أقل من هذه المدة، بل في أقل من طرفة عين، لكن حكمته اقتضت أن يكون الخلق على هذا النسق المتميز في هيئته، المرتب على كيفيته، وفي ذلك من الحِكَم ـ لمن تأملها ـ الشيء الكثير، كما أن خلق الإنسان يمر بأطوار ومراحل؛ النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم تأتي مراحل أخرى في البطن، وبعد خروج الطفل من بطن أمه يمر بمراحل نمو مختلفة، تظهر فيها قدرة الله على الخلق والتدبير، وتظهر فيها حِكَم كثيرة في حياة الإنسان وتكوين تجاربه وخبراته لا يُتصور حصولها بغير ذلك[(١)].

سادساً: ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق:

من المعالم أن الله سبحانه خلق كل نوع وجنس من الخلق من زوجين، قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، برٌّ وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له[(٢)]. فجعل ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق سبحانه.

يقول القرطبي: لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يُقدَّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ هو عزَّ وجلَّ وِتْرٌ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[(٣)]. وقال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٢٣٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ٥٣.

خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]. فضرب المثال لذلك بأزواج النبات والبشر، وهذا مما يعلم الناس، ثم ثنَّى بأنه سبحانه جعل الزوجية في الخلق عامة، منه ما يعلمه الناس ومنه ما لا يعلمونه، ومن يدري؛ فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد، وقد أصبح من المعلومات المتداولة أن الذرة ـ أصغر ما عُرف من أجزاء المادة ـ مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان كما شوهد في عالم الفلك والكائنات الأخرى[١].

سابعاً: مظاهر الحكمة في الخلق:

إن الله عزَّ وجلَّ ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، فلم يخلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، وإنما خلق الخلق جميعه لحكمة، وخلق تفاصيل الخلق لحكم عظيمة يدركها الإنسان في خلقته، وفيما حوله من المخلوقات التي يمتلئ بها الكون؛ من حيوانات، وحشرات، وشجر، ونبات، ومن بحار، وأنهار، وجبال، وسهول، ورياح، وأمطار، وهي حكم متعددة ومتداخلة يؤكد بعضها بعضاً، ويسوق بعضها بعضاً في صور من الجلال والإبداع والكمال، وغايتها وحقيقتها تحقيق العبودية لله دون ما سواه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩].

يخبر سبحانه وتعالى عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولا لهواً، ولا سدًى من غير فائدة، وأنه ما خلقَهما إلا بالحق، وخلقُهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبده من فيهما وحده لا شريك له، وليأمر عباده وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم[٢].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص٧١٩.

وإن الحكمة من أعظم معالم حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن قصة الخلق، فالخلق صفة من صفات الله سبحانه، كما أن أثر هذه الصفة فعل من أفعال الله المنزهة عن العبث واللعب، وإذا تقرر أن كل ما في الكون مخلوق لله سبحانه، من كائنات وما يصدر عنها من أفعال ـ كما سيأتي مزيد توضيح له في ثنايا هذا الكتاب بإذن الله تعالى ـ فإن من استقر في نفسه ذلك، وترسَّخ في قرارة قلبه، تنفتح له آفاق عظيمة في تلمُّس أسرار الخلق العظيم، وما يجري فيه من حركة وسكون، وسعادة وبؤس، ورخاء وشدة، وعز وذل، وخيرٍ وشر، وحرب وسلم، وحياة وموت، ونصر وهزيمة.

ولقد قال الله سبحانه في قصة من أكثر القصص إيلاماً وأشدها أذى، تلكم هي قصة الإفك الأثيم الذي افتُري على الطاهرة المصون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، قال الله فيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [النور: ١١].

قال ابن كثير: أي يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] الآية، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنهما وعنها وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء[١].

لقد كان هذا الأمر ـ الذي هو في ظاهره شر ـ خيراً لآل أبي بكر وللمسلمين من بعدهم، فقد كان شهادة من الله بمنزلة هذه الأسرة الطاهرة، التي تعرضت لكثير من الأذى والتهم الباطلة. حيث تولى الله الدفاع والذبَّ عنها والشهادة لها

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢٨٢.

بالخيرية، ودفع السوء عنها؛ بما لم يكن للأمة أن تدفعه بقدر ما دفعه القرآن ونافح عنها به، ليس في وقت تنزّل القرآن ووقوع هذه الحادثة الآثمة فحسب، وإنما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[١].

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى في موضوع الحكمة كلاماً نفيساً أوضح فيه معالمها وبيَّن فيه أدلتها وأثرها في إيمان العبد بربه، ومعرفته به سبحانه، وأنها من لوازم الإيمان، وردَّ على شُبه نفي الحكمة بأسلوب علمي، استوفى فيه الموضوع من جوانبه كلها، يقول رحمه الله تعالى: قد دلت أدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة؛ أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا في مواضع لا تكاد تُحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها، فنذكر بعض أنواعها[٢].

ومن ثم ذكر ـ رحمه الله ـ اثنين وعشرين نوعاً من أنواع الأدلة على إثبات الحكمة؛ من الخلق والأمر، وعقّب على ذلك مبيناً أهمية إثبات الحكمة والإيمان بها في خلق الله وأمره، وخطر إنكارها أو تجاهلها على إيمان العبد وعبوديته لله سبحانه وتعالى، فيقول في ذلك: وكيف يَتوهَّم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك وهذا الوجود شاهد بحكمته وعنايته بخلقه أتمَّ عناية، وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة، أعظم من أن يحصره عقل، ويكفي الإنسان بفكره وخلقه وأعضائه ومنافعها وقواه وصفاته وهيئته، فإنه لو استنفد عمره لم يُحِطْ علماً بجميع ما تضمّنه خلقه من الحكم والمنافع على التفصيل، والعالم كله علويُّه وسفليُّه بهذه المنزلة[٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٤٣.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٤٤.
(٣) الخرعان، المرجع السابق، ص٤٤.

ثم قال: وسبحان الله! كيف يستجيز أحد أن يظن برب العالمين وأحكم الحاكمين أنه يعذب كثيراً من خلقه بأشد العذاب الأبدي لغير غاية ولا حكمة ولا سبب، وإنما هو محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب، فلا سبب هناك ولا حكمة ولا غاية، وهل هذا إلا من أسوأ الظن بالرب تعالى؟!

ثم بيّن رحمه الله خطر إنكار الحكمة في الخلق في الصَّدِّ عن دين الله عزَّ وجلَّ، فيقول: وجناية هذا القول على الشرائع من أعظم الجنايات، فإن العقلاء لا يمكنهم إنكار الأسباب والحكم والمصالح والعلل الغائية، فإذا رأوا أن هذا لا يمكن القول به مع موافقة الشرائع، ولا يمكنهم دفعه عن نفوسهم، خلَّوا الشرائع وراء ظهورهم، وأساؤوا بها الظن، وقالوا: لا يمكننا الجمع بينها وبين عقولنا[١].

والنظر في الحكمة من الخلق لا يقتصر على النظر في المخلوقات الظاهرة؛ كالجسم والسماء والأرض والكواكب والنبات والحيوان، وإنما يتعدى ذلك ليشمل كل ما يجري في هذا الكون من أحداث وأفعال للعباد؛ من حياة وموت، ومن صحة ومرض، ومن تسلُّط للأعداء وإيذاء لعباد الله الصالحين، أو من نصر للمؤمنين، وهزيمة للكافرين والفاسقين، فكل ما في الكون من أفعال وتصرفات مخلوقة لله سبحانه، ولا يجري في ملكه إلا ما أذن بإجرائه، ووراء كل شيء من ذلك حكم وغايات وعبر وعظات لمن تأملها وتدبّرها، وقد قال الله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

أي: لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسَوْا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان، ولا تفرحوا بما

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٤٥.

آتاكم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، قال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً[١].

والحديث عن الحكمة من الخلق بحر لا ساحل له، ولا يمكن حصره.

وفِي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ   تَدُلُّ على أنّهُ الواحِدُ

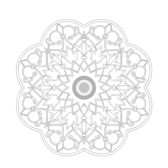
سبحانه وتعالى، تقدس في علوّه وعظمة سلطانه، وعز ملكوته[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، المرجع نفسه، ص٤٦.

(٢) الخرعان، مرجع نفسه، ص٤٦.



المبحث الثاني

أي المخلوقات خُلق أولاً؟

إن مصدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وما فَهمه أهل العلم منهما، إذ لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات وتوقعات، ولا تلبث في كثير من الأحيان أن يتراجع عنها القائلون بها ويكتشفون ما ينقضها مما يُطلعهم الله عليه من علمه. وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى، في مقدمة كتابه البداية والنهاية: وكان من أعظم نعمه عليهم ـ أي على بني آدم ـ وإحسانه إليهم بعد أن خلقهم ورزقهم ويَسَّرَ لهم السبيل، وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم؛ مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة، فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد، والنواهي بالتعظيم[(١)].

إن الحقيقة المجردة تقول إنه لا مصدر حقيقيّاً لمعرفة بداية الخلق غير الوحي المعصوم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

هذا وقد تعددت أقوال العلماء في أي المخلوقات خُلق أولاً؟ فمنهم من قال بأن الماء أول المخلوقات، ومنهم من قال بأن أول المخلوقات هو العرش،

---

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٩٩٧، ١/ ٥.

ومنهم من قال بأن القلم هو الأول، ومأخذهم في ذلك من فهمهم للنصوص التي تحدثت عن هذا الموضوع. قال ابن كثير في تاريخه: وقد أجمع علماء الإسلام قاطبة ـ لا يشك في ذلك مسلم ـ أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما دل عليه القرآن الكريم.

ثم قال: واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء، وأنهما خلقتا من العدم المحض، وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (١). وقال في التفسير: قال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن يخلق شيئاً، وكذا قال وهب بن منبه، وضمرة وقتادة وابن جرير، وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ينبّئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض.

وأما الاختلاف: هل خلق العرش أولاً أم الماء أم القلم؟ فقد اختار ابن جرير وابن الجوزي رحمهما الله تعالى أن القلم أول المخلوقات، وهو القلم الذي كُتبت به مقادير الخلق، واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوُد والترمذي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أولَ ما خلقَ الله القلمُ، ثم قالَ له: اكتُبْ، فجَرَى في تلكَ السَّاعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ**» (٢).

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور ـ فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره ـ أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتبَ الله مقاديرَ الخلائقِ قَبلَ أنْ يَخلقَ السماوات والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ**، قال:

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٨.
(٢) رواه أحمد وأبو داوُد والترمذي، انظر: قصة الخلق، ص٥٦.

وعرشُه على الماءِ»، قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير. وقد دل هذا الحديث على أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كُتبت به المقادير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، أي ما عدا العرش والماء[١].

وقال ابن حجر في الفتح: وأما ما رواه أحمد والترمذي وصحَّحه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «**أوَّلُ ما خَلَقَ الله القلمُ، ثمَّ قالَ: اكتبْ، فَجَرَى بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ**»، فيُجمع بينه وبين ما قبله بأن أوليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي إنه قيل له: اكتب أول ما خُلق. وأما حديث: «**أوَّلُ ما خَلَقَ الله العقلَ**» فليسَ له طريقٌ ثَبْتٌ[٢].

وقال آخرون: بل أول ما خلق الله الماء قبل العرش وقبل القلم، واستدلوا بحديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً: «**أنَّ الماءَ خُلِقَ قَبلَ العَرشِ**»، وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء.

وعلى أيٍّ من هذه الأقوال فما يُرجِّحه كثير من أهل العلم أن العرش والماء هما أول المخلوقات، قال ابن حجر في الفتح: أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم، لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[٣].

أولاً: خلق العرش والكرسي:

عرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفية وأعلاها مكاناً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٥٧.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص٥٧.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٣٣٤.

الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم؛ فيقال: «عرش الرحمن»، ونسبه إلى نفسه كما نسب عظائم مخلوقاته، فقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، ووصفه بالكريم في قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، كما وصفه بالعظيم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦].

والعرش: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

والعرش، كما قال القرطبي: لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد؛ قال الجوهري وغيره: العرش سرير الملك، وفي التنزيل: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والعرش سقف البيت. وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع، والجمع عروش.

والعرش: المُلْكُ والسُّلطانُ، يقال: ثُلَّ عرشُ فلان: إذا ذهب مُلكُه وسلطانُه وعزُّه[١].

ولا مجال للخوض في كيفية العرش وحجمه وخلقه إلا عن طريق الوحي المعصوم، مما ثبت عن الله عزَّ وجلَّ في كتابه، وثبت عن رسوله ﷺ في سنّته، إذ

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص: ٦٠.

هو من الأمور الغيبية التي لا مجال للحس والعقل بالخوض فيها، ولذا فالمُعوَّل عليه النص الثابت[١]. وقال ابن عباس: إنما سُمِّي العرشُ عرشاً لارتفاعه، وقال محمد بن إسحاق في ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش العزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، وخلق الله العرش بيده سبحانه وتقدّس من بين أربعة أشياء، كما قال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده؛ العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان. أخرجه الدارمي وأبو الشيخ واللالكائي بسند صحيح على شرط مسلم[٢]. ومما ثبت عن رسول الله ﷺ في ذلك قوله: «**فإذا سألتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِردَوسَ، فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ**»[٣].

ففي هذا الحديث إثبات علوِّ العرش على جميع المخلوقات، وأن الله عز وعلا وجل فوقه مستوٍ عليه، على الوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى، بعيداً عن خوض الخائضين، وإفك الأفَّاكين، وتخرّصات الظَّانِّين. كما صح عنه ﷺ أن للعرش قوائم، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**يصعَقُونَ يومَ القيامةِ فإذا أنا بِمُوسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرشِ**»[٤]. قال ابن حجر: قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾: إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق. وختم الباب ـ يعني البخاري ـ بالحديث الذي فيه «**فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش**»، فإن في إثبات القوائم للعرش دلالة

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، المرجع نفسه، ص٦٠.
(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص٦١.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ رقم: (٧٤٢٣). ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ٤١٥.
(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، رقم: (٧٤٢٧). ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٤١٦.

على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف مُحدَث مخلوق.
وقال البيهقي في «الأسماء والصفات»: اتفقت أقاويل هذا التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جِسمٌ خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[1].

وقد أوكل الله تعالى بهذا العرش ملائكة عظاماً يحملونه، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وفي آية أخرى تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة يقول سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وجاء في وصف عظمة خلق هؤلاء الملائكة ما رواه أبو داوُد عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُذن لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِن ملائكةِ الله عزَّ وجلَّ مِن حَمَلَةِ العَرشِ؛ إن ما بينَ شَحمةِ أُذُنه إلى عاتِقه مَسيرةُ سَبعِمائةِ عامٍ**»[2]. صححه الألباني، ورواه ابن أبي حاتم، ولفظه: «**تخفُقُ الطَّيرُ سبعَمائةِ عامٍ**»[3].

فسبحان الله العظيم! إذا كان هذا ما بين شحمة أذن هذا الملك وعاتقه، فما صفة بقية خِلقته؟ إنه خلق عظيم لا يُحيط به وصفٌ، ولا يحدُّه حِسٌّ، ولا يخضع لحسابات الحاسبين، وتوقُّعات الخارصين، وإذا كانت هذه صفة بعض خلق الله سبحانه من حملة العرش، فما صفة العرش؟ والله أعلى وأعظم من كل عظيم،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ١٣/٤١٦.
(٢) أبو داوُد، كتاب: السنة، باب: في الجهمية. صححه الألباني.
(٣) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠١، ص١٣٩.

وأكبر وأجلُّ من كل كبير: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد رأينا ورأى الناس في بعض صور الفَلَك التقريبية أحجام المجرات والأفلاك، مما يُذهِل الرائي، ويجعله خاضعاً ذليلاً أمام عظمة الله العظيم، والذي تبدو فيه الأرض كذرة متلاشية وسط الأفق، لا تساوي في ملك الله ولا خلقه شيئاً يُذكر، والعرش لا يقدّر قدرَه إلا الله تعالى. والكرسي، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه: «الكرسيُّ مَوضِعُ القَدَمَين، والعَرشُ لا يُقدِّرُ قَدْرَه إلا الله تعالى». وفي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، قال ابن عباس: أي: علمه، كما مرّ معنا في رواية، وفي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾، فالسماوات السبع والأرضون السبع ـ على عظم خلقها وسَعة حجمها ـ قد وَسِعَها الكرسيُّ، وغطَّت سَعتُه على سَعتِها، بل لقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا أبا ذرٍّ، ما السماوات عِندَ الكرسيِّ إلَّا كحلقةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فَلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على الحَلَقةِ**». وفي رواية: «**كحَلقةٍ من حديدٍ**». وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن، ثم وِصْلَن بعضُهن إلى بعضٍ، ما كُنَّ في سَعةِ الكرسيِّ إلا بمنزلة الحلقةِ في المفازة. فيا سبحان الله! ماذا تساوي حلقة من حديد لا تتجاوز ثلاث بوصات بالنسبة لفلاة مثل الربع الخالي، أو مثل الصحراء الكبرى!؟

إن النتيجة هي نسبة حجم السماوات والأرض إلى الكرسي، وهي كذلك نسبة حجم الكرسي إلى العرش العظيم، فسبحان من لا يُحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء، وسبحان الله العظيم في ذاته، العظيم في صفاته، العظيم في خلقه وعِلمه[١].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق ص٦٤.

١ ـ الله غني عن عرشه :

إن ما ينبغي التنبيه عليه في مسألة خلق العرش أنه لا يعني وصف العرش بأنه عرش الرحمن، وأنه بمنزلة السرير للملك، أن الله محتاج إليه، فالله أعظم من ذلك، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله، يحتاجون إليه، لا قيام لهم إلا به، والله هو الغني الحميد. قال ابن أبي العز في العقيدة الطحاوية : أما قوله : وهو مستغنٍ عن العرش وما دونه، فليبيّن أن خلقه للعرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه؛ بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي محيطاً به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها.

فالرب تعالى أعظم شأناً وأجلّ من أن يلزم من علوِّه ذلك، بل لوازم علوِّه من خصائصه؛ وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عزَّ وجلَّ به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحَمَلته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه[1].

ومثل ذلك خلق الله العباد لعبادته، لا يعني حاجته وافتقاره إليهم وإلى عبادتهم، فهو سبحانه مستغنٍ عنهم وهم الفقراء إليه المحتاجون إليه، وما عبادتهم له إلا دليل فقرهم إليه، وضعفهم بين يديه، فالعرش والسماوات والأرض والملائكة والجن كلهم عباد لله[2].

٢ ـ اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ ومأوى أرواح الشهداء في الجنة :

والعرش العظيم حبيب لعباد الله الصالحين، محبّ لهم، متودّد إليهم، فكما أنه اهتزّ لموت سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري، رضي الله عنه؛ فرحاً وسروراً

(١) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المرجع السابق، ص٥١.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٦٥.

بقدوم روح هذا الصحابي الجليل ـ كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح ـ فإن العرش العظيم مَوئلٌ ومُستراحٌ لعباد الله الصالحين، ومُستظلُّهم ومكان اجتماعهم عند ربهم يوم القيامة، فإليه تأوي أرواح الشهداء في الجنة حينما يروحون ويغدون بين خمائلها وبساتينها، قال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أرواحُهُم في جَوفِ طَيرٍ خُضرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرشِ، تسرحُ في الجنَّةِ حيثُ شاءَتْ، ثمَّ تأوي إلى تلكَ القَناديلِ، فاطَّلعَ إليهم ربُّهُم اطِّلاعةً، فقال: هل تَشتَهونَ شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشتَهي ونحنُ نَسرحُ من الجنَّة حيثُ شئنا؟ ففَعلَ ذلك بهم ثلاثَ مرَّاتٍ، فلمَّا رَأَوا أنَّهم لن يُترَكوا من أنْ يُسأَلوا، قالوا: يا ربِّ نريدُ أنْ تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتَّى نُقتلَ في سبيلِكَ مرَّةً أُخرى، فلمَّا رَأَى أن ليسَ لهم حاجة تُرِكوا**»[(١)].

٣ ـ العرش مستظَلُّ عباد الله الصالحين:

حينما تذهل المرضعات وتتلاشى الصداقات والقرابات، وتدنو الشمس فلا يَحول دونها شيء، ويزول كلُّ ظِلٍّ إلا ظل العرش، كما ثبت ذلك في حديث السبعة الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ قال رسول الله ﷺ: «**سَبعَةٌ يظلُّهم الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ؛ الإمامُ العادلُ، وشابٌّ نشأَ في عبادَةِ ربِّه، ورجلٌ قلبُهُ مُعلَّقٌ في المساجدِ، ورجُلان تحابَّا في الله اجتمَعا عليه وتفرَّقَا عليه، ورجلٌ طلبتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ تصدَّقَ أخفَى حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضَتْ عَيناهُ**»[(٢)]. وفي رواية عند

---

(١) رواه مسلم نقلاً عن قصة الخلق، ص٦٦.

(٢) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٢/ ١٦٨.

سعيد بن منصور: «**سَبعةٌ يظلُّهم الله في ظِلِّ عرشِهِ**[١]... الحديث». وقال في الفتح: حديث حسن.

٤ ـ العرش ملتقى المتحابِّين بجلال الله:

والعرش ملتقى المتحابين بجلال الله ومستظَلُّهم، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن الله تعالى يقول: أينَ المُتَحابُّونَ بجَلالي؟ اليومَ أُظلُّهُم في ظِلِّ عَرشي يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّي**»[٢].

٥ ـ هو مستظل الرحماء:

الذين يتجاوزون عن عباد الله عند الاقتضاء، كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن تَرَكَ لِغَريمِهِ أو تَجاوَزَ عنه كانَ في ظلِّ العرشِ يومَ القيامةِ**»[٣].

٦ ـ هو مستقر كتاب رحمة الله:

التي كتبها على نفسه لعباده، كما ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله لمَّا قَضَى الخلقَ كتبَ عندَه فوقَ عرشِهِ: إنَّ رَحمَتي سَبَقَتْ غَضَبي»[٤].

٧ ـ تحته موضع السجود الكريم:

للنبي محمد ﷺ حينما تستشفع البشرية به يوم القيامة إلى ربها ليشفع لهم في فصل القضاء، كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢) مسند أحمد، باب: مسند أبي هريرة، رقم: ٧٢٣١.

(٣) إسناده صحيح أخرجه أحمد وغيره، شمس الدين الذهبي، مختصر العلو للعلي العظيم، ص٢٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، رقم: (٧٤٢٢).

بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجبه، فنهش منها، ثم قال: «**أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ القيامةِ**»... وذكر الحديث إلى أن قال: «**فأنطَلِقُ فآتي تحتَ العرشِ فأَقَعُ ساجداً لربِّي، ثمَّ يُقالُ: يا محمَّدُ، ارفَعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأَرفَعُ رَأسي فأقولُ: يا ربِّ أمَّتي**»[١].

٨ ـ حملة العرش أحباب الصالحين:

حملة العرش ومن حولهم من الملائكة هم أحباب عباد الله الصالحين، الذين يغمرونهم باستغفارهم ودعائهم لهم عند الله، رحمة بهم وتحقيقاً للحميمية التي تجمعهم بهم في طاعتهم لله عزَّ وجلَّ وقربهم منه سبحانه بأعمالهم الصالحة وحُبِّهم له[٢].

كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

إن حملة العرش ومن حوله ـ وهم من بين القوى المؤمنة في هذا الوجود ـ يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم، ويَستغفرون لهم، ويستنجزون وعدَ الله إياهم؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين. وهؤلاء العباد المقربون يتوجَّهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن. وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلّمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]. يُقدِّمون بين

(١) البخاري ومسلم وغيرهما. قصة الخلق، الخرعان، ص٦٧.
(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص٦٨.

يدي الدعاء بأنهم ـ في طلب الرحمة للناس ـ إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويُحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وأنهم لا يُقدِّمون بين يدي الله بشيء، إنما هي رحمته وعلمه، منهما يستمدون وإليهما يلجؤون[١]. قال تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وتلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة، وبصفة الله هناك: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيم، بصفة الله «شديد العقاب» في سورة غافر، ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

ودخول الجنة نعيم وفوز تُضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات، وهي نعيم آخر مستقل، ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين. فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج، ولولا هذه العقدة لتقطّعت بينهم الأسباب. والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وهذه الدعوة ـ بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن ـ لَفتةٌ إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي تُوبقُ أصحابَها في الآخرة، وتُوردُهم موردَ التَّهلكة. فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٣٠٧١.

وعواقبها، وكانت هذه الرحمة هي الرحمة في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم(١).

فالعرش والملائكة من حَمَلته والذين مِن حوله خلقٌ من خلق الله الذين تربطهم بعباد الله الصالحين وشائج الإيمان بالله عزَّ وجلَّ والعبودية الخالصة له سبحانه، إنها العلاقة الحميمة بين عباد الله الصالحين وبين بقية خلق الله؛ علاقة الانسجام والود والتكريم. فالعرش يهتز لموت سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، والعرش مأوى أرواح الشهداء، ومُستظَلٌّ المتقين، ومُستقَرُّ رحمة الله الرحمن الرحيم، والإنسان العابد لله يستشعر هذه المودة مع هذا المخلوق العظيم الذي جعل الله فيه من المنافع لخلقه ما لا توازيه منفعة، حينما تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وهو أثر عن القرب من الله العلي الكبير، والإيمان به والتصديق بما جاء عنه وعن رسوله ﷺ من الوحي المعصوم(٢).

ثانياً: خلق الماء:

الماء هو سر الحياة ومنبعها، وهو من أول المخلوقات وجوداً، بل هناك من أهل العلم من قال بأن الماء أول المخلوقات، حتى قيل إنه خلق قبل العرش، ثم خلق العرش بعد ذلك، وحجتهم في ذلك قوله الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

كما روى ابن جرير قال: وقال آخرون: بل خلق الله عزَّ وجلَّ الماء قبل العرش. رواه السدي عن أبي مالك وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٣٠٧١.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٦٩.

أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء[١].

وقد قرن الله ذكر خلق الماء بخلق العرش، كما في الآية السابقة، باعتبارهما أول المخلوقات، قال ابن حجر رحمه الله: أشار بقوله ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء. وعن مجاهد قال: بدءُ الخلق العرش والماء والهواء، وخُلقت الأرض من الماء[٢]. وقال القرطبي في قوله سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء، ولا يلزم من الماء الذي عليه العرش أنه هو الماء الموجود في الأرض، فخلق الله لا يحيط به إلا هو سبحانه، كما قاله بعض العلماء، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إنه سُئل عن قوله عز وجل ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح[٣].

١ ـ الماء أساس المخلوقات:

الماء من أعظم مخلوقات الله عزَّ وجلَّ ومن أولها في الوجود، وقد جعله الله أساس الحياة وعنصرها الذي تقوم عليه وتبدأ منه، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إذا رأيتُكَ طَابَتْ نفسي وقرَّتْ عَيني؛ أَنْبئني عنْ كلِّ شيءٍ، قال: «**كلُّ شيءٍ خُلقَ من الماءِ**»[٤]. وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٩.
(٢) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٣٣٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ٩/ ٨.
(٤) المرجع السابق، ١١/ ٢٨٤.

خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور : ٤٥]. وقد ورد ذكر كلمتي «ماء، والماء» في القرآن الكريم «٥٩» مرة، وورد ذكر الماء في كلمات أخرى «ماءكِ، ماءها، ماؤكم، ماؤها» أربع مرات، وبذلك يكون الماء ورد ذكره في القرآن الكريم «٦٣» مرة، **وبقراءة الآيات القرآنية التي ورد ذكر الماء فيها يمكن إدراجها تحت المواضيع التالية :**

٢ ـ نزول ماء السماء بقدر :

قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون : ١٨]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بحكمة وتدبير؛ لا أكثر فيُغرِق ويُفسِد، ولا أقلّ فيكون الجدب والمَحْل، ولا في غير أوانه فيَذهب بِدَداً بلا فائدة.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما أشبهه وهو مُستكِنٌّ في الأرض بماء النُّطفة، وهو مُستقِرٌّ في الرحم.

﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة، وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن في التصوير.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾؛ فيغور في طبقات الأرض البعيدة بكسر أو شق في الطبقات الصخرية التي استقر عليها فحفظته، أو بغير هذا من الأسباب، فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته، إنما هو فضل الله على الناس ونعمته(١).

٣ ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ :

قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤٦١.

ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

وهذا الماء أصل الحياة وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدَّرَ الله، فما دور الإنسان؟ دوره أن يشربه، أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه؛ فهو الله سبحانه، وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان، ولو شاء الله لجعله أُجاجاً مالحاً لا يُستساغ، أو لا يُنشِئُ حياة، فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان[1]؟!

٤ ـ نزول الغيث من مفاتيح الغيب:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَفاتيحُ الغَيبِ خَمسٌ لا يَعلمُهنَّ إلا الله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤]»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ سبحانه وتعالى قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه؛ ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقّع دائم، ومحاولة دائمة أن يُقدِّموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي، فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد وكنز الرصيد.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ والله ينزل الغيث وفق حكمته بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يَقدِرُون على خلق الأسباب التي تُنشِئُه. والنصُّ يُقرِّر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو

---

(١) المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٦، ص١١٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، رقم: (٤٦٢٧). ابن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، ٨/ ٥١٤.

المُنشِئُ للأسباب الكونية التي تُكَوّنه والتي تُنظِّمه، فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة كما هو ظاهر من النص، مع علم الله الشامل المحيط بكل شيء، فعلم الله وحده هو العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا تلحق به زيادة ولا نقصان.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر الساعة، فهو سبحانه الذي يعلم وحده علمَ يقينٍ ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض، ومن حمل، حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين، وخواصه، وحالته واستعداداته، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛ ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعمّ من الربح المالي وما في معناه؛ وهو كل ما تصيبه النفس في الغداة، وهو غيب مغلق، عليه الأستار، والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب لا تملك أن ترى شيئاً مما وراء الستار.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، فذلك أمر وراء الأستار المُسبَلة السميكة التي لا تنفذ منها الأسماع والأبصار. وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود، وعجزها الواضح، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدَّعاة، وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يُؤتَوا من العلم إلا قليلاً، وأن وراء الستر الكثيرَ مما لا يعلمه الناس، ولو علموا كل شيء فسيظلون واقفين أمام تلك الأستار لا يدرون ماذا يكون غداً، بل ماذا يكون في اللحظة التالية، وعندئذٍ تَطامَنُ النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله.

والسياق القرآني يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب في الزمان ومُغيَّب في المجهول، وموضع الموت والدفن.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾، وليس غيره بالعليم ولا بالخبير(١).

٥ ـ المطر مصدر جميع مياه الأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

٦ ـ ماء المطر يتوقف عليه كيان الزراعة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

٧ ـ دورة المياه في الأرض ثابتة:

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٩٩.

شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبيرٍ يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير يسع علماً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يُوقَد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدِّرة له حتى تذهب وتَضمحلَّ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي، والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات؛ لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتَضمحِلَّ، ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. وقال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] (١).

ففي الآية السابقة مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً، ولكنه بَعدُ زبدٌ أو خُبثٌ ما يلبث أن يذهب جفاء، مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسُك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض، كالماء المحيي والمعدن الصريح ينفع الناس؛ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾. وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال، وهو الله الواحد القهار، المدبّر للكون والحياة، العليم بالظاهر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص٤٧١.

والباطن، والحق والباطل، والباقي والزائل[١].

هذا كما أن في الآية حقيقة علمية تقول: إن دورة المياه الأرضية ثابتة ما دامت قد وُجدت الحياة، وإنه لا سبيل إلى زيادة الماء قطرة ولا أن تنقص منه قطرة، فالماء يتبخَّر من الزرع والنبات، وما تستهلكه كل الأحياء من ماء إنما يعود إلى الأرض ثانية كاملاً غير منقوص في مُخلَّفاتها، أو في بقايا أجسامها، وإن جبال الجليد والثلوج عندما تسيل فإنها لا تضيف جديداً على الماء لأنها أصلاً من ماء الأرض، وهذه الدورة المائية الثابتة والمقدَّرة قد سبقت بها وإليها آيات القرآن الكريم[٢].

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن جعل الماء على كيفية وهيئة تُمكِّن من الانتفاع به على الوجه الأكمل، فينزل المطر من السماء، فيغسل به الأرض ويُطهِّرها، ويُنقِّي الهواء من الدخان والغبار والتلوث، فتتجدَّد الأرض، وتصفو السماء، ويطيب الهواء. قال ابن القيم رحمه الله: ثم تأمَّلِ الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علوٍّ ليعمّ بسقيه وِهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها، ولو كان ربُّها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر، وفي ذلك فساد، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها، فيُنشئ سبحانه السحاب وهي روايا الأرض، ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى[٣].

ومن حكمته سبحانه في خلق الماء: أن منه ما يجري على وجه الأرض كالأنهار، ومنه ما هو مُستقِرٌّ فوق ظهرها كالبحار، ومنه ما يَستقرُّ في باطن الأرض

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٠٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص١٦٨.
(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٢٣.

كمياه الآبار، ومن رحمته سبحانه أن جعل فيه العذب والمالح الأجاج، وجعل العذب ـ وهو مياه الأنهار ـ يجري حتى لا يتعفّن كذلك، ولا يتعفن ما يموت فيه من الحيوانات البرية، وجعل الماء المخزن في الأرض قريباً يمكن تناوله والوصول إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

قال القرطبي: يعني الماء المختزن، وهذا تهديد ووعيد؛ أي في قدرتنا إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] أي: غائراً ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠] [(١)]. والآيات القرآنية كثيرة في بيان الحديث عن الماء وأهميته ومواضيعه، فكم هو ثمين هذا الماء؟ وكم من نعم لا نشعر بأهميتها إلا بعد ضياعها؟ وصدق رب العزة حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ولولا الله ثم الماء الذي خلقه سبحانه وتعالى ما كان الإنبات ولا النبات ولا الحياة.

ثالثاً: خلق القلم:

المقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سبحانه وتعالى في بدء الخليقة بأن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه، ومقتضى كماله وجلاله، فخلق بعلم، وقدّر بعلم، فلا يحدث شيء في ملكه إلا بعلمه، ولا يخرج شيء مما يقع عن علمه وإحاطته سبحانه، في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٧٦.

خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**يا غُلامُ إنِّي أُعلِّمُكَ كلماتٍ؛ احْفَظِ الله يحفظْكَ، احفظِ الله تَجدْهُ تجاهَكَ، إذا سَأَلتَ فَاسأَلِ الله، وإذا استَعَنتَ فَاستَعن بالله. وَاعلَم أنَّ الأمَّةَ لوِ اجتَمَعَتْ على أنْ يَنفَعوكَ بشيءٍ لم يَنفَعوكَ إلَّا بشيءٍ قَد كَتَبَه الله لكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يَضرُّوكَ بشيءٍ لم يَضرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كَتَبَه الله عَلَيكَ، رُفِعتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[١].

وقد سبق ذكر أقوال العلماء في أي المخلوقات خُلق أولًا؛ فمنهم من قال القلم، ومنهم من قال العرش، ومنهم من قال الماء، ورجَّحَ بعضُهم[٢] أن أول المخلوقات هو العرش، وهو ما سِرنا عليه في ترتيب المخلوقات في هذا الكتاب، وقد خرج العلماء من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «**أوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ، ثم قال اكتُبْ، فجرى بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**»، بأن المقصود بذلك ـ يقول ابن كثير ـ أنه أول المخلوقات من هذا العالم[٣]. أي: عدا العرش، أو أن الله قال له: اكتُبْ أول ما خلقه، واستدلُّوا بعدم أسبقية خلق القلم بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتبَ الله مقاديرَ الخَلائقِ قَبلَ أنْ يَخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعَرشُهُ على الماء**»[٤].

قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل بعد أن ذكر حديث عبد الله بن عمرو السابق: وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم، وهذا أصح القولين، لما روى أبو داوُد في سننه، عن أبي حفص الشامي، قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُنيَّ إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن

---

(١) مسند أحمد، رقم: ٢٦٧٠. وفي سنن الترمذي، رقم ٢٥١٦.

(٢) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المصدر السابق، ص٣٣٣.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق: ١/ ٩. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٧٨ ـ ٧٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: (٢٦٥٣).

ليخطئك، وما أخطأك لم يكن لِيصيبَكَ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**». يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن ماتَ على غيرِ هذا فليسَ منِّي**»[١].

● **القلم وكتابة المقادير:**

وكتابة القلم للقدر كانت في الساعة التي خُلق فيها، لما رواه أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الوليد، قال: حدثني أبي، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشَرِّه. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشَرُّه؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّلَ ما خلقَ الله تعالى القلمُ، ثم قال اكتُبْ، فجرى في تلك السَّاعةِ بما هو كائنٌ إلى يَومِ القيامةِ**». يا بنيَّ إنْ متَّ ولست على ذلك دخلتَ النار[٢].

رابعاً: خلق اللوح المحفوظ:

اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٧٩.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٥٥ ـ ٥٦.

من أن ينفُذ إليه أو يغير ما فيه من حكم أو قضاء أو قدر[١]. قال ابن كثير: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل[٢]، ومكانه على ما روي عن مقاتل عن يمين العرش[٣]. واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي لم يُفرِّط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله تعالى، وأدلة هذه المرتبة في القرآن الكريم كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]. حيث ذُكر أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ[٤].

وقال تعالى في قصة أسرى بدر: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]. أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحلّ لكم الغنائم، وأن الله رفع عن أمة محمد ﷺ العذاب، لمسّكم عذاب عظيم[٥]، فالآية دليل على الكتاب السابق. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وهذه الآية من أوضح الأدلة على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علّم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ[٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]. أي: خفيّة أو سرٍّ من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، فقد

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٤.

(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط ٢، ١٩٩٧، ص٦٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١٩١.

(٦) الإيمان بالقدر، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ط ٢، ٢٠١١، ص٤٨.

أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جليّ أو خفيّ، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ(١).

وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أيُّ شيء؛ حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين هاتين المرتبتين(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. أي: جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور، مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ههُنا هو أم الكتاب(٣). وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢ ـ ٥٣].

أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، «وكل صغير وكبير» أي: من أعمالهم «مُستَطَر» أيّ: مجموع عليهم، ومُسَطَّر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها(٤).

وقال تعالى عن موسى عليه السلام حين قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٥٩٨.
(٢) السعدي، المرجع نفسه، ٣/ ٣٦٦.
(٣) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٣/ ٦٥٤.
(٤) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٤/ ٣٣٥.

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر وهدى شَرَعَ يحتجُّ بالقرون الأولى؛ أي الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول: لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يشذّ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان؛ **أحدهما**: عدم الإحاطة بالشيء. **والآخر**: نسيانه بعد علمه، فنزّه نفسه عن ذلك[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

١ ـ وظيفة اللوح المحفوظ:

إن وظيفة اللوح المحفوظ ـ كما في الآيات والأحاديث ـ محل كتابة القدر، فقد أمر الله القلم فكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال القرطبي: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذِكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم، وهو أم الكتاب. وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: اللوح المذكور هو الذي كُتب مقادير الخلائق فيه[(٢)].

٢ ـ القرآن محفوظ في اللوح منذ الأزل:

كتب الله فيه القرآن وحفظه فيه منذ الأزل، وهذا معنى قول الله سبحانه

(١) العدوي، المرجع نفسه، ٣/ ١١٥.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٥.

وتعالى : ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج : ٢١ ـ ٢٢]، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : ٤]. قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يعني : القرآن في اللوح المحفوظ. وقال ابن القيم في شفاء العليل : والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى : ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج : ٢١ ـ ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تبارك وتعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه ؛ فتَبَّت يدا أبي لهب، في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب[(١)].

وقال ابن كثير : في قوله سبحانه : ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ [الإسراء : ١٠٦]. معنى فرقناه : فصَّلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرَّقاً منجَّماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس[(٢)].

واللوح المحفوظ في خلقه ووظيفته مظهر من مظاهر قدرة الله الباهرة، والعظمة التي لا تدانيها عظمة، والجلال الذي يقصّر دونه كل جلال، وهو في ذاته كمال وأي كمال، وآية على علم الله المحيط بكل شيء، وإرادته التي لا يحول دونها حائل، ولا يندّ عنها أو يتجاوزها ذو قدرة أو سلطان، وهو معبّر عن عدل الله المطلق الذي لا يتطرق إليه ظلم ولا جَور، فسبحان الله وتقدس في ذاته وصفاته عن كل ما ببال، أو يرد به خيال، وسبحانه وتعالى عن كل نِدٍّ أو مثيل

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/٦٨.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. وسبحانه وتقدّس عما يتقول به المتقوِّلون، أو يتأوّل المتأوِّلون، أو تطيش به عقول القاصرين، وتتردَّد فيه أفهام ضعفاء المخلوقين[(١)].

خامساً: خلق الزمان:

إن المسلم الذي يؤمن حق الإيمان بمعنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]، يعرف حقَّ المعرفة أنه ليس هناك في الوجود أحد سوى الله إلا وهو مخلوق بعد أن لم يكن، وأن الله سبحانه هو الخالق لكل شيءٍ صغيراً كان أم كبيراً، محسوساً أم غيبياً، ومن ذلك الزمان والمكان، والليل والنهار، ومقدار ذلك كله، قال ابن حجر في الفتح عند قوله ﷺ: «وكُتِبَ في الذِّكْرِ كلُّ شيءٍ»: وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث[(٢)].

والزمان نوع من مخلوقات الله العظيمة قلّ من يتأمّله أو يلتفت له؛ فهو الزمان والوقت الذي نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، الوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال[(٣)].

والزمان كما يقول ابن تيمية رحمه الله: هو مقدار الحركة[(٤)]، أي حركة الأفلاك. وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع؛ كقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]. وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٨.
(٢) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٣٣٤.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٨.
(٤) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥، ٢/ ٤٩٢.

لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وغير ذلك من النصوص التي تبين أنه خالق الزمان[١].

وقد جاء ذكر الزمان في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتبَ الله مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يَخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ. قال: وعَرشُه على الماءِ**»[٢]. فالزمان كان مخلوقاً ومقدّراً حينذاك، وقد جاءت ألفاظ القرآن لتؤكد هذه الحقيقة؛ في مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠]. فبين سبحانه مقدار المدة التي خلق فيها السماوات والأرض وما فيهما، وحددها بأنها ستة أيام، قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق العالم ـ سماواته وأرضه وما بين ذلك ـ في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن؛ والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع، ومنه سُمِّيَ السَّبتُ؛ وهو القطع[٣].

وهذه الأيام لا يلزم منها أن تكون مثل أيام الدنيا في القدر والكيفية، وإنما هي من أيام الله التي يقدّرها كيف يشاء سبحانه، قال ابن كثير: عن ابن عباس

---

(١) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، المرجع السابق، ٢/ ٤٩٢.
(٢) سبق تخريجه. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٩٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٢ ـ ٩٣.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض(١).

وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، يقول: لو وَلِيَ حسابَ الخلائق غيرُ الله ما فرغ منه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ويفرغ الله منه بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا إذا أخذ في حساب الخلائق، فذلك قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. يعني: سرعة الحساب(٢).

وقال ابن تيمية: والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع إخباره بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدّرة بطلوع الشمس وغروبها، أو قيل: إنها أكبر منها، كما قال بعضهم: إن كل يوم قدره ألف سنة، فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وتلك الأيام مقدّرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض.

وقد أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآنُ خلقَ شيءٍ من لا شيء، بل ذكرَ أنَّ الله تعالى خلقَ المخلوقَ بعدَ أن لم يكن شيئاً، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. مع إخباره أنه خلقه من نطفة(٣).

وقدرة الله لا يحدّها وصف، ولا تخضع لتصور، ولا يقف دونها حائل أو

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ٣/٢٢٨.

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط ١، ص٩٣.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣٦، بتصرف.

مانع، فهو سبحانه قادر على أن يُجري الأحداث الكثيرة في الزمن القصير الذي لا تجري فيه عادة، بل ولا يُتصوَّر في إطار حدود الحسّ أن تجري فيه، ولنتأمل قصة الإسراء والمعراج لنجد فيها ما يبين قدرة الله سبحانه في التصرف في الزمان والمكان على الكيفية التي يريد، وأنه القادر على كل شيء بحق سبحانه؛ فقد أسري برسول الله ﷺ من بيت الله الحرام من مكة إلى بيت المقدس في الشام، ثم صلى فيه بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، يُستفتح له عند كل سماء، ورأى عدداً من الأنبياء؛ يسأل عنهم، وكَلَّمَ بعضهم، ورأى أهل النار، ودخل الجنة، ووصل إلى مكان سمع فيه صريف أقلام الملائكة، وفُرضت عليه الصلاة في تلك الرحلة العظيمة، ثم هبط إلى الأرض، ورجع إلى فراشه في مكة في أقل من ليلة، وليس هذا بغريب ولا مستحيل، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الزمان، وخلق أفعال العباد، وهو القادر على أن يتصرف فيها بما شاء، وأن يصرفها على ما يشاء، وأن يجعل فيها ما يخرق به عادتها وطبيعتها، ولذلك لما قالت قريش لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ذلك مستنكرةً شامتةً بما قاله الرسول ﷺ قال: والله لئن كان قاله لقد صدق؛ فما يعجبكم من ذلك؟ فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: «**نعم**». قال: يا نبي الله، فصِفْه لي فإنّي قد جئته، فقال رسول الله ﷺ: **فرُفع لي حتى نظرت إليه**. فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، حتى إذا انتهى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: **وأنت يا أبا بكر الصِّدِّيقُ**، فيومئذٍ سمَّاهُ الصِّدِّيقَ[١].

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٩٥٨، ص٩٤ ـ ٩٥.

وبعد أن تحدثنا عن مبتدأ خلق الزمان قبل خلق السماوات والأرض جاء الحديث عن الزمان في الحياة الدنيا والمرتبط بحركة الشمس والقمر، فبحركة الشمس يُعرف اليوم الزماني، وبحركة القمر يُعرف الشهر، ومن ثم السنة، يقول الله عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١ ـ ٦٢]، أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عبادِه له عزَّ وجلَّ، فمن فاته عمل الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل النهار استدركه في الليل[١]. وقال سبحانه: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فاليوم هو مجموع الليل والنهار، يخلف أحدُهما الآخرَ في حركة مرتبطة بحركة الشمس وجريانها حول الأرض[٢]. كما جعل الله القمر مدار تحديد مدة الشهر، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦]. ففي هذه الآية الكريمة يُقرر الله سبحانه وتعالى أن كون شهور السنة اثني عشر شهراً هو من وضعه عزَّ وجلَّ وليس من وضع البشر، وأن ذلك مقرَّر عنده يوم خلق السماوات والأرض وليس أمراً حادثاً أو جديداً، والمقصود هنا بالشهور الشهور القمرية لا الشمسية، وإن توافقت في كون عدة كل منها اثني عشر شهراً؛ لأن الأشهر الأربعة هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، كما في حديث البخاري ومسلم، وهي أشهر قمرية وليست شمسية[٣].

عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «**ألا إنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كَهَيئتِه يومَ خَلقَ الله السماواتِ والأرضَ؛ السَّنةُ اثْنا عشرَ شَهراً؛ منها أربعةٌ حرمٌ؛ ثلاثةٌ متوالياتٌ؛ ذو القَعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرَّمُ، ورجبُ**

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٢٤.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٩٦.
(٣) الخرعان، المرجع نفسه، ص٩٦.

مُضَرَ الذي بينَ جمادى وشَعبانَ»[١]. وعن ابن عباس قال: وقوله ﷺ في الحديث: «إنَّ الزَّمانَ قدِ استَدارَ كَهَيئَتِهِ يَومَ خَلَقَ الله السماواتِ والأرضَ» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر؛ من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: **إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة**، وهكذا قال هُهنا: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض[٢].

١ ـ المشركون يعبثون بالتوقيت:

وقد عبث المشركون في الجاهلية بترتيب هذه الشهور، وهو المُسمَّى في كتاب الله بالنَّسيء، أي تأخير الشهور عن مواضعها، وسبب ذلك ـ كما يقول المفسّرون ـ أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات، فكان يَشقُّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يُغيرون فيها، وقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها لنهلكنّ، فأخّروا حرمة محرَّمٍ إلى صفرٍ، وهو النَّسيء، وقد سمَّى الله عزَّ وجلَّ ذلك زيادة في الكفر، لما فيه من اعتداء على ما وصفه الله من نواميس كونية، وأحكام شرعية، وإضلال للناس بإباحة خرقهم لحرمة الأشهر التي حرّمها الله، إذ إن مما يترتب على ذلك أن يحجَّ الناس في غير موسم الحج ويصوموا في غير موسم الصوم، وهكذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

---

(١) الخرعان، المرجع نفسه، ص٩٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٣٥٤.

٢ ـ حكمة خلق الشهور:

ومن حكمة وضع الشهور وتسميتها وتوقيفها أنه بذلك يتمكن الناس من معرفة مواقيت عباداتهم، وضبط آجال عقودهم ومعاملاتهم، وقد بين الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وروي عن عطاء والضحاك وغيرهما في ذلك: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم[١].

وقال القرطبي: في ذلك تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه؛ وهو زوال الإشكال في الأيمان والمعاملات والحج والعدد والصوم والفطر ومدة الحمل والإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد، ونظيره قوله الحق: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ [يونس: ٥]. وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام[٢].

٣ ـ الأسبوع لا يُعرف إلا بالوحي:

أما أيام الأسبوع وتحديد أسمائها فهو مما اختص به أهل الوحي والشرائع السماوية، وهو تحديد توقيفي من الله سبحانه وتعالى لا يُدرَك بحساب ولا بعقل؛ لأنه لا شيء من ذلك يدل على تحديدها وتسميتها، وفي هذا يقول ابن تيمية: إن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، وذلك يتضمن معرفته لما أبدعه من مخلوقاته، وهي

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ٢/ ٣٤٢.

المخلوقات المشهودة الموجودة؛ من السماوات والأرض وما بينهما، فأخبر في الكتاب الذي لم يأتِ كتابٌ أهدى منه بأنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وشرع لأهل الإيمان أن يجتمعوا كل أسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحتفلون بذلك، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذي خلق الله فيه السماوات والأرض، ولما لم يُعرف الأسبوع إلا بخبر الأنبياء فقد جاء في لغتهم عليهم السلام أسماء أيام الأسبوع، فإن التسمية تتبع النصوص، فالاسم يعبر عما تتصوَّره، فلما كان تصوُّرُ اليوم والشهر والحول معروفاً بالعقل؛ تَصوَّرتَ ذلك الاسم وعبّرت عن ذلك، وأما الأسبوع فلما لم يكن في مجرد العقل ما يُوجب معرفته فإنما عُرف بالسمع، وصارت معرفته عند أهل السمع المتلقّين عن الأنبياء دون غيرهم، وحينئذٍ أخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود وابتداء خلقه، وأنه خُلق في ستة أيام[1].

فالوثنيون المنقطعون عن الوحي لا يمكنهم معرفة تحديد تلك الأيام ولا التفريق بينها، وقد ذُكر أن الشيوعيين في الاتحاد السوفييتي - إمعاناً منهم في الإلحاد - قد غيّروا أيام الأسبوع إلى خمسة أيام في بداية الثورة البلشفية، ثم إلى ستة أيام، وعادوا بعد ذلك إلى الأيام السبعة، وذلك أنهم بحكم إلحادهم ورفضهم لما له صلة بالدين وجدوا أن إثبات أيام الأسبوع نوع من الاعتراف بمصدرية الدين، وعلاقته بالحياة، لأنه دليل مادي على تسمية أيام الأسبوع وكونها سبعة أو خمسة أو ستة[2].

سادساً: الأرض خُلقت قبل السماوات:

ومما يدل على أن الأرض خُلقت قبل السماوات، قوله سبحانه: ﴿ ۞ قُلْ

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١٨/ ٢٣٠ - ٢٣٦.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٠٠.

أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

وفي الآيات الكونية إشارة إلى ثلاث حقائق كونية؛ خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء، أصل الكون المادي من الدخان، الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية ما زالت تحاول التعرف على أصل الكون ونشأته، والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية، وطريقة تشكيلها، ولقد درسوا ملياً ما يقع على الكرة الأرضية من خارج مجالها من النيازك[1]، والأتربة الكونية، وما حصلوا عليه من قطع من سطح القمر، كل ذلك يؤكد وحدة أصل الكون المادي، وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمجرات، ولن يستطيعوا ذلك إلا ظنّاً وتخميناً، قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد، وساق حقائق كونية في غاية الوضوح، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٢]. ويفصّل في آيات أخرى مراحل الخلق

---

(١) النيزك: كتلة صلبة تخترق الغلاف الجوي وتصل إلى الأرض.

والتكوين، فيقول جلَّ جلاله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١].

وأما قوله سبحانه ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٣١]. وهو ما يوحي بأن السماء خُلقت قبل الأرض، حيث قال سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فقد فرّق العلماء هنا بين الخلق والدَّحي، وأن الخلق غير الدَّحي، الذي يعني إخراج الماء والمرعى وإرساءها بالجبال، وفي هذا يقول ابن كثير : ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه قال : وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودَحيُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى : «دحاها». وقوله : «خلق الأرض في يومين»، فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين[١].

إن الآيات في سورة فصلت بيَّنت أن خلق الأرض ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام، كل ذلك كان قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات، وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض؛ لأن وسائل البشر محدودة، فلا يستطيعون أن يخترقوا بوسائلهم المادية حُجُبَ غيب الماضي ليعرفوا تكوين الأجرام الكونية السابق منها عن اللاحق[٢].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٠٣.
(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٢٦.

وأما الحقيقة الثالثة في آيات سورة «فصلت»، فهي الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها في ستة أيام، وقد اختلف المفسرون قديماً في مقدار اليوم المقصود من الآيات الكريمة؛ فاليوم الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك هو من مطلع الفجر أو الشمس إلى غروبها، إلا أن هذه المدة الزمنية المعينة لا تُقدَّر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس ووجود دوراتهما في أفلاكهما، والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف تقدر قبل وجودهما؟

وإن هذا ما دفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترة زمنية تتناسب مع أدوار التكوين، فعن مجاهد: يوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدون، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وجاء في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

ويَذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يطلقون عليه «النسبة الزمنية»، وأن لكل كوكب وحدته الزمنية الخاصة به، وذلك يُقدَّر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها[1]. وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا. هذا ما جعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يطلقون اصطلاح الدورات التكوينية؛ فالدور الأول كون الأرض مع السماء رتقاً، والدور الثاني انفصال الأرض عن السماء، والدور الثالث والرابع هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير الأقوات وخلق الحياة، إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتّبعون الظَّنَّ، وما هم بِمُستيقنين[2].

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٢٨.
(٢) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط ٢، ١٤١٦، ص١٨٣.

١ ـ الأرضون سبع :

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق سبع أرضين، كما خلق سبع سماوات، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وفي الصحيح عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «**مَن أَخَذَ شَيئاً منَ الأرضِ بِغيرِ حقِّهِ خُسفَ به يومَ القيامةِ إلى سبعِ أرضينَ**» [١]. قال ابن تيمية: وقد خلق الله سبع أرضين، بعضُهن فوق بعض، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن ظَلمَ شِبراً منَ الأرضِ طُوِّقَه مِن سبعِ أرضينَ يومَ القيامةِ**»، وقد ذكر أبو بكر الأنباري الإجماع على ذلك، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة[٢].

٢ ـ مدة خلق الأرض :

بيّن الله عزَّ وجلَّ أنه خلقَ الأرضَ في يومين، وخلقَ سبحانه الجبالَ وقدّر أقوات الأرض ومصالحها في يومين آخرين، فاستغرق خلق الأرض وما فيها أربعة أيام، كما قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠]. ففصّل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس،

---

(١) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، المرجع السابق، ١/ ٣٣٨.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٠٥.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وهو ما يُحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرعُ وتُغرس، يعني يومي الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾. وقال مجاهد وعكرمة في قوله عز وجل: «وقدّر فيها أقواتها»: جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه العَصَبُ باليمن، والسابِرِيُّ بسابور، والطيالسة بالري[1].

وقال ابن كثير: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: هيّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار، ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحا الأرض، فأخرج منها ما كان مودعاً فيها، فخرجت العيون وجرت الأنهار ونبت الزرع والثمار، ولهذا فُسِّرَ الدَّحيُ بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣]، أي: قرَّرها في أماكنها التي وضعها فيها وثبّتها وأكّدها وأطّدها[2].

٣ ـ كروية الأرض:

يشير القرآن الكريم في بعض من آياته إلى أن الأرض كروية الشكل، فهي بذلك ليست في حقيقتها ممتدة امتداداً ينتهي عند حافة من الحواف، كما كان يتصور الأقدمون ويعتقدون، ولكن الأرض ذات شكل بيضوي كالكرة، وذلك ما تقتضيه سنة الطبيعة في دورتها الرتيبة المنتظمة، وما تقتضيه عجلة الكون المتحرك الدقيق، ولو لم تكن الأرض على هذا النحو من الاستدارة لتعطّلت نواميس الخلق على هذا الكوكب، ولباتت الحياة على ظهره مشلولة أو مستحيلة، ومن الآيات الدالة على كروية الأرض قوله عز وجل: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٣.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ١٦.

يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠]. فقد جاء ذلك رداً على السابقين لفهمهم أن اليوم يكون مبدوءاً بالنهار ثم يعقبه الليل، فكأن الله سبحانه يقول لهم: لا يسبق النهار الليل، ولا يسبق الليل النهار، ولكنهما موجودان معاً وفي آنٍ معاً[(١)].

ومن المعلوم أن أجزاء الأرض تتفاوت فيما بينها من حيث إقبال النهار بضيائه أو حلول الليل بسواده، فبينما تزهو بقاع من الأرض بضياء الشمس تسكن بقاعٌ أخرى من الأرض بعد أن أرقدها الليل بظلامه، وذلك كله لا يقع بالتعاقب، ولكنه واقع في الآن نفسه، ما يدل على أن الأرض كروية؛ استناداً إلى الظاهر من دلالة النص القرآني: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥]. وقوله: «يكور» من التكوير؛ وهو اللفّ، تقول: كار الرجل العمامة كوراً بمعنى أدارها على رأسه، وكوَّرتُ الشيءَ: إذا لففتَه على جهة الاستدارة، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١]. يعني: طُويت كطَيِّ السِّجِل[(٢)]. ولابن جرير الطبري في تفسيره: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ أي: يُغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [الحديد: ٦] [(٣)].

يُستفادُ مما ورد في التكوير أن المراد به اللَّفُّ على هيئة الاستدارة، وبذلك فإن تكوير الليل على النهار يعني انبساطه عليه بغِشائه الملتفِّ، وذلك على النحو المستدير، وفي ذلك دلالة على أن الأرض مستديرة في هيئتها طبقاً لصورة الغشاء الذي يلفّ الأرض لفّاً دائرياً على شكل الكرة[(٤)].

---

(١) معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٧٨، ص٩٤.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ٢/ ٢٠٥. أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٨، ٢٠٠٥، ٢/ ١٣٤.

(٣) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٩/ ١٢٣.

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آيات إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل؛ قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦].

والولوجُ لغةً هو الدخول، ولما كان من غير المعقول دخول زمن على زمن آخر اتضح لنا أن المقصود بكل من الليل والنهار هو المكان الذي يتغشّاه زمن كل من الليل والنهار، أي: الأرض، بمعنى أن الله تعالى يُدخل نصف الأرض الذي يخيّم عليه ظلام الليل بالتدريج في مكان النصف الذي يَعمُّه نور النهار، وهو ما يشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بطريقة غير مباشرة، ولكنها تبلغ من الدقة والشمول والإحاطة ما يعجز البيان عن وصفه[١].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض: آية سلخ النهار من الليل؛ قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]. ومعنى ذلك أن الله تعالى ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشّاها الليل بالتدرُّج كما ينزع جلد الذبيحة عن كامل بدنها بالتدرج، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وفي هذا النص القرآني سبقٌ بالإشارة إلى رقة طبقة النهار في نصف الكرة الأرضية المواجهة للشمس، وهي حقيقة لم يُدركها الإنسان إلا

(١) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ص٢٦٨ ـ ٢٧٠.

بعد زيارة الفضاء في النصف الثاني من القرن العشرين، واتضحت كذلك لمحة الإعجاز القرآني في تشبيه انحسار طبقة النهار الرقيقة من غلاف الأرض بسلخ جلد الذبيحة عن بدنها. وفيه تأكيد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن نور النهار ظاهرة رقيقة عارضة لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس، الذي يتحرك باستمرار مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس(١).

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض: آية مرور الجبال مرّ السحاب:

يقول الخالق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. ومرور الجبال مرّ السحاب هو كناية عن دوران الأرض حول محورها، وعن جريها وسبحها في مداراتها، وذلك لأن الجبال جزء من الأرض، ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط كذلك بالأرض برباط الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة كل من الأرض والسحاب المُسخَّر فيه(٢).

ومن الآيات الدالة على كروية الأرض ودورانها آيات غشيان الليل والنهار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. ومن معاني ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أن الله يُغطّي بظلمة الليل مكان نور النهار على الأرض بالتدريج فيصير ليلاً، ويغطّي بنور النهار مكان ظلمة الليل على الأرض بالتدريج فيصير نهاراً، وهي إشارة

(١) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، زغلول محمد النجار، المرجع نفسه، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) المعجزة الخالدة، علي الصلابي، مرجع سابق، ص١٦٤.

لطيفة إلى كل من كروية الأرض ودورانها، ودَورانُها حول محورها أمام الشمس دورةً كاملة في كل يوم مدَّتُه في زمننا الحالي «٢٤» ساعة، يتقاسمها بتفاوت قليل اللَّيلُ والنهارُ، في تعاقب تدريجي ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، فلو لم تكن الأرض كروية الشكل لما استطاعت الدوران حول محورها، ولو لم تدر حول محورها أمام الشمس لما تبادل الليل والنهار[1].

٤ ـ الأرض تتحدث وتخاف وتبكي:

جاء الحديث القرآني عن الأرض كما لو أنها كائن حي ناطق، وفي أكثر من آية، والله سبحانه خلق الخلق وأودع فيهم ما يشاء من القدرة والحياة والفعل على الكيفية التي يريدها سبحانه، فقد قال الله تعالى وتقدس عن السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. قال الحسن البصري: لو أَبَيَا عليه أمرَهُ لعذَّبَهما عذاباً يجدانِ أَلَمَه[2].

كما أنها تتحدث يوم القيامة بما أحدث الناس على ظهرها من خير وشر، كما في قوله سبحانه ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، أي: تحدّث بما عمل العاملون على ظهرها من خير وشر، كما في قوله ﷺ «**أتَدرونَ ما أَخبارُها؟** قالوا: الله ورسولُه أعلمُ، قال: **فإنَّ أخبارَها أنْ تشهدَ على كلِّ عبد أو أَمَةٍ بما عملَ على ظَهرِها؛ أنْ تقولَ عملَ كذا وكذا يومَ كذا وكذا، قال: فهذه أخبارُها**»[3].

ووصفها الله بالخوف والإشفاق والتأبّي تعظيماً لأمر الله، مع عدد من مخلوقاته العظيمة؛ حينما عرض سبحانه عليها أمانة التكليف، يقول عز

(١) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص٢٧٢.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١١٣.
(٣) الخرعان، المرجع نفسه، ص١١٣. رواه الترمذي، رقم: ٢٤٢٩.

وتقدس : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢].

ووصفها الله بالموت والحياة في مشاهد حسية حينما يبلغها الجفاف والقحط، أو حينما ينزل عليها المطر فتُنبت وتزدهر وتهتز بالعشب الأخضر الرفراف.

ووصفها بأنها تبكي، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [الدخان: ٢٩]، ففيه إثبات البكاء للسماء والأرض، وأنهما لا تبكيان على الكافرين بل تبكيان على فراق المؤمن الصالح في هذه الدنيا، وليس بالضرورة أن يكون هذا البكاء بدموع وأنين حتى يشبه بكاء الإنس والجن، ولكنه بكاء خاص بهما لا يعلمه إلا خالقهما[1].

يقول ابن تيمية : بكاء كل شيء بحسبه؛ قد يكون خشية لله، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن[2]. وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟ وهذا تعبير عن مدى العلاقة الوثيقة بين هذه المخلوقات العظيمة وبين عباد الله الصالحين، وهي علاقة العبودية لله عزَّ وجلَّ، وأيّ معنى عظيم في هذه العلاقة التي تجعل المسلم منسجماً مع ما حوله من المخلوقات التي سخّرها الله عزَّ وجلَّ لعبادته؟! وأي حرمان وخسارة يعيشها الكافر والمنافق، بل وأصحاب المعاصي، وأي وحشة يجدونها بينهم وبين ما حولهم من خلق الله الذين يعبدون الله ويسبحونه، وهم يعصونه ويكفرون به؟[3]

---

(١) عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، فرع العقيدة، ص٣٣٤.

(٢) جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط ١، ٢٠٠١، ص٣٧.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١١٤.

قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خُلقت، رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها[١]؛ خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً، وذلّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم، ووسّع أكنافها ودحاها، فمدّها وبسطها، وطحاها فوسّعها من جوانبها، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمّهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات، وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها[٢].

قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]. وهذا كثير في القرآن، فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت فتحركت ورَبَت، فارتفعت واخضرّت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب الأقوات على اختلافها، وتباين مقاديرها، وأشكالها، وألوانها، ومنافعها، والفواكه، والثمار، وأنواع الأدوية، ومراعي الدواب والطير. ثم قِطَعِها المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحد فتُنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة؛ واللّقاح واحد والأم واحدة، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي

---

(١) بديعها: فعيل بمعنى مفعول، أي: مبدعها.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩٩.

ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]. فكيف كانت هذه الأجنّة المختلفة مودَعة في بطن هذه الأم؟ وكيف كان حملها من لَقاح واحد؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبّه إليه عبادَه وهداهم إلى التفكير فيه(١).

إن هذه الأرض هي مُستقَرُّ بني آدم، فيها معاشهم ومسكنهم وموطن رزقهم وكدّهم وكسبهم، وهي مقرّ إقامتهم في هذه الحياة الدنيا، منها خُلقوا وإليها يعودون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب، كانت أوَّلَ ما خلق الله من هذا العالم المشهود قبل السماوات والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وقبل الشجر والجبال والدواب، منها خُلق آدم عليه السلام؛ فهي مخلوقة قبل خلق البشر، خلقها لهم لتكون مُستقَرّاً لهم، وإقامة في هذه الحياة الدنيا، وجعلها الله لهم فراشاً ومهاداً وذلولاً يمشون في مناكبها وأرجائها لتدبير معاشهم وتدبّر عظمة خالقهم، فهي مسكن هُيّئَ لساكنيه قبل أن يوجدوا، ووُضع لهم فيه معاشهم وقِوام حياتهم قبل أن يُخلقوا، فسبحان الله المبدع القدير، العظيم في خلقه وأمره، الذي خلق فأبدع ودبّر فأحكم، علّم كل شيء قبل أن يكون، أحاط بكل شيء علماً، وجعل لكل شيء سبباً، جعلها الله دليلاً على قدرته وحكمته وبديع صنعه، وشاهداً على وحدانيته وعظمته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته(٢).

سابعاً: خلق الجبال:

الجبال خَلقٌ من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٠١.

من أربعين موضعاً؛ تتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها، وتدعو إلى التأمل فيها والتدبُّر في كيفية خلقها، وتشير إلى شيء من عظيم قدرة الله في تكوينه لها، وشدة بنائها، كما تتحدث عن مصيرها ومآلها يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماواتُ، وكيف تتحوَّل هذه الجبال مع عظمتها وقوة خلقها هباء مُنبثّاً وكالعِهنِ المنفوش[1].

١ ـ الجبال خُلقت بعد الأرض:

تشير الآيات القرآنية إلى أن خلقَ الجبالِ جاء بعد خلقِ الأرضِ؛ بمعنى أن الأرض خُلقت أولاً، ثم خُلقت فيها الجبالُ بعد ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٢].

وقد سبق القول ـ كما ذكر المفسرون ـ بأنَّ الدَّحيَ هنا للأرض جاء بعد الخلق الأول لها، وبعد خلق السماء كذلك، وعلى هذا فخلق الجبال هو بعد الدحي ومرتبط به، قال به كثير.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: قرَّرها وأثبتها وأكَّدَها في أماكنها، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خَلَقَ الله الأرضَ جَعَلت تَميدُ فخَلَقَ الجِبالَ فألقاها عليها فاستقرَّت**»[2].

وقد وصفها الله بأنها رواسٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. وأنها رواسٍ شامخات كما في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]. ووصفها بأنها أوتاد في قوله عز وجل: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، المرجع نفسه، ص١١٧.
(٢) الخرعان، مرجع سابق، ص١١٨. رواه أحمد، رقم: ١٢٢٥٤.

ودعا عزَّ وجلَّ إلى النظر إليها كيف نُصبت في قوله : ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية : ١٩] (١).

٢ ـ الجبال في منهج القرآن الكريم :

جاء حديث القرآن عن الجبال على وجوه كثيرة ؛ منها :

ـ شاهدة على تعنُّت الفئة الكافرة التي رفضت عبادة الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٢ ـ ٤٣].

ـ شاهدة على مهارة قوم صالح في النحت والصناعة، وشاهدة على تعنُّتهم وعصيانهم : قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : ٨٢ ـ ٨٣].

٣ ـ عبودية الجبال لله :

دلت النصوص الشرعية على أن الجبال تسجد لله تعالى وتُسبح وتخشع له، وأنها ثالث الكائنات التي عُرضت عليها الأمانة لحملها، وأنها جاءت بأفعال تدل على إدراكها، وإليك بيانها في النصوص :

أ ـ سجود الجبال لله تعالى :

ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨]، فهذه

(١) قصة الخلق، الخرعان، المرجع نفسه، ص١١٨.

الآية عامة في إثبات السجود لله تعالى من جميع الكائنات، والعطف يفيد أنها جميعاً عابدة لله تعالى، فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه. يقول ابن كثير رحمه الله عن سجود الجبال: «وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل»[١].

ب ـ تسبيح الجبال:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

فالتسبيح في الآيات السابقة هو على الحقيقة، فقد جعل الله سبحانه لها إدراكاً تسبّح به، واقترانها بالتسبيح مع داوُد عليه السلام وتسخيرها لذلك هو من باب إظهار معجزة هذا النبي عليه السلام، وكذلك استئناساً وإعانة له على التسبيح؛ بحيث تُردِّد معه تسبيحَه أو تُسبِّح هي بأمره لها، فجعلها الله عزَّ وجلَّ مُسخَّرة لأمره عليه السلام[٢]، فالنداء في قوله تعالى: «يا جبال» للخطاب لمن يُدرك.

ونورد هنا أقوال بعض العلماء[٣]:

قال القرطبي رحمه الله: ذكر الله تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة؛ وهو تسبيح الجبال معه، قال مقاتل: كان داوُد إذا ذَكر الله عزَّ وجلَّ ذَكرت الجبال معه، فكان يفقه تسبيح الجبال. ثم قال رحمه الله: وإن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال، وكان عند طلوع الشمس وعند غروبها[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢١١. التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مرجع سابق، ص٣١٤.
(٢) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص٣١٥.
(٣) التوني، المرجع نفسه، ص٣١٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٥/ ١٥٩.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ تسبيح حقيقي؛ لأن الله جلَّ وعلا يجعل لها إدراكات تسبّح بها، يعلَمُها هو جلَّ وعلا ونحن لا نعلمها. كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١] [الإسراء: ٤٤].

ج ـ خَشية الجبال:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فالله عزَّ وجلَّ يُذكّر الناسَ بخشيته والخوف منه سبحانه، وذلك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، فيضرب الله تعالى مثلاً بقياس الأَولى؛ فالجبل مع صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع لله تعالى، فالبشر مع تفضيل الله تعالى لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر لله تعالى خشية[٢].

يقول محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم ينزل القرآن على جبل، لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [٣]. كما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ أمثلة أخرى لهذا التصدّع للجبال من خشيتها لله عزَّ وجلَّ، فيقول: وقد جاء في القرآن الكريم ما يدلُّ على أقلَّ من هذا التصدُّع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فهذا نص صريح بأن الجبال أشفقت من حمل الأمانة، وهي أمانة التكليف

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥، ٤/ ٦٧٢.

(٢) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص٣١٧.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، ٨/ ١٠١.

بمقتضى خطاب الله تعالى لها، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أُنزل عليها وكُلِّفت بها(١)؟

إن القرآن تحدث عن الجبال بما لم يتصوَّره باحثٌ، أو يقف عليه دارس، إنه حديث عن عبودية هذه المخلوقات لربها وخالقها سبحانه، وذُلِّها ـ على عظمتها وصلابتها ـ بين يدي مُوجدها وبارئها، بل إنها لتندكُّ لتجلّي ربها إعظاماً وإجلالاً وذلاًّ وخوفاً، كما في قصة موسى عليه السلام عندما قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وذلك أن الجبل حين كُشِف الغطاء ورُئِي النور صار مثل دَكٍّ من الدِّكاك، وقال بعضهم: ﴿ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ أي: فتّته. وقال مجاهد في قوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾ دُكَّ وتفتَّت واستولى الهول على قلب موسى فخرّ صعقاً(٢).

د ـ غضبة الجبال الكونية:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١].

فكانت هذه الغضبة الكونية التي اشتركت فيها السماوات والأرض والجبال حتى تحولت إلى زلزال كبير مدمّر بمجرد سماعهم لهذه الكلمة ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، وكأن الكون كله قد تحول إلى أفواه مزمجرة تقول لهؤلاء

(١) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص٣١٧.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٢٤.

المشركين : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾، لقد اهتزَّ كل ساكن، وارتجَّ كل مستقر، وغضب كل ما هو داخل هذا الكون غضباً شديداً لبارئه وخالقه ؛ لأن هذه الكلمة صدمت كيانه وفطرته، وخالفت ما وقر في ضميره وعقله وما استقر في كيانه وحسّه، وهزت القاعدة التي قام عليها الوجود واطمأن إليها، قال تعالى : ﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩١ ـ ٩٢].

وفي وسط هذه الثورة العارمة تدوّي في جنبات الكون اللانهائي آيات بينات، تنزيل من حكيم حميد[١]. قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥].

هـ ـ إعجاز الحديث القرآني عن خلق الجبال :

حديث القرآن الكريم عن خلق الجبال كان حديثاً مفصلاً بكونها أوتاداً ورواسي، وأنها ذات ألوان مختلفة متنوعة، وهو ما لم تعرفه البشرية من قبل، ولم يتوصل له العلم الحديث إلا منذ نحو أربعين سنة فقط، يقول الدكتور زغلول النجار في معرض حديثه عن بعض الاكتشافات العلمية المتعلقة بالجبال : هذه المعلومات المكتسبة عن الجبال بدأ الإنسان في جمع أطرافها ببطء شديد منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يتبلور مفهوم صحيح لها إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين، عندما كان مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض في مرحلة التبلور النهائي له، وفي المقابل نجد أن القرآن العظيم الذي أوحاه الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يحوي من حقائق الكون ـ ومنها حديثه عن الجبال ـ ما لم يكن متوفراً لأحد في زمان نزوله، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك النزول[٢].

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٦٩.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٢٣، منقول بتصرف.

و ـ ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ :

تشير الآية إلى أن الجبال أوتاد للأرض، والوتد يكون جزء منه ظاهراً على سطح الأرض ومعظمه غائراً فيها، ووظيفته التثبيت لغيره، بينما نرى علماء الجغرافيا والجيولوجيا يعرّفون الجبل بأنه كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل[١]. ويقول د. زغلول النجار: إن جميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس، دون الإشارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات[٢]. ثم يقول: ولم تُكشَف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، عندما تقدم السير جورج آيري بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تُمثِّل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبل لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، ومن ثم فلا بد أن تكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكاشفة؛ لضمان ثباتها واستقرارها[٣].

وهذه الحقيقة العلمية لم تُعرف إلا منذ أمد قصير؛ بعدما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن، إذ وُجد أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه في باطن الأرض هو ما يُثبِّت الجبل مكانه، وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب ولا لغيرهم وقت نزول القرآن؛ حتى يقال إن محمداً ﷺ اقتبسها من علوم عصره، إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر بأنهم سيعلمونها

---

(١) بينات الرسول ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة، ص٨٨. لا تتوفر معلومات أخرى.

(٢) الزنداني، مرجع سابق، ص٨٨، منقول بتصرف.

(٣) لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢، ص١٩٦.

يوماً من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبيَّنون أنها وحي من عند الله[(١)].

ولقد وصف القرآن الجبال شكلاً ووظيفة، فقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. والجبال أوتاد بالنسبة إلى سطح الأرض؛ فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض. وكما تُثبَّت السفن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تُثبَّت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية[(٢)].

وفيما يخص الجبال فثمة حقيقة؛ وهي أنها خُلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، فهي ـ بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض ـ تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة ليستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنون من منازل ومنشآت، ولولاها لظلَّت الأرض تميد بالناس وترتجّ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فتحدث الزلازل بين الحين والحين، وبصدد تلك الرواسي جاء في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وهذه الآية وحدها تحمل حشداً من المعلومات العلمية متتابعة تتابعاً علميّاً لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجري فيه؛ فالرواسي ـ وهي الجبال ـ تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصدّ الرياح المحملة ببخار الماء؛ فيصعد إلى الأعلى، فيبرد، فيتكاثف، فينزل

(١) لا يأتون بمثله، محمد قطب، المرجع نفسه، ص١٩٦.

(٢) بينات الرسول ومعجزاته، الزنداني، مرجع سابق، ص٩٠.

إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار، ومن هنا نجد أن ذكر الأنهار بعد الرواسي ليس مجرد تعداد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك ترابط علمي بينهما، وهو ترابط السبب والنتيجة.

ومرة أخرى يأتي الترابط العلمي فيما بين الأنهار والثمرات، فالأنهار هي التي تسقي الزروع فتنتج منها الثمار، وثمة حقيقة علمية أخرى؛ هي أن الثمرات أزواج، ولكن الذي يلفت النظر العلمي ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات، وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً؛ وهي أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضروري لإنضاج الثمرة، وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الإظلام في الليل فإنه يضعف ويذوي[1].

ز ـ زوال الجبال وفناؤها:

جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتبين أن هذه الجبال يوم القيامة تكون كالصوف المنفوش، وأنها تُسَيَّر، وأنها تُفتّت حتى تكون كالهباء المنبثّ في شعاع الشمس.

ويقال إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه؛ فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ـ٩].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن.

والحالة الرابعة: أن تُنسَف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في موضعها والأرض تحتها غير بارزة، فتُنسف عنها لتبرز، وذلك بإرسال الرياح عليها.

(١) لا يأتون بمثله، قطب، مرجع سابق، ص١٩٧.

والحالة الخامسة : أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتُظهرها شعاعاً في الهواء، كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعد حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي في الحقيقة مارّة، إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة .

والحالة السادسة : أن تكون سراباً، فمن نظر إلى موضعها لم يجد منها شيئاً إلا كالسراب[١] .

قال ابن القيم عن الجبال : هذا وإنها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تُنسف فيها نسفاً، وتصير كالعهن من هوله وعظمته، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له، وكانت أم الدرداء رضي الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها : أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال : ما أسمعها؟ فتقول : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ ـ ١٠٧] . فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرُها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجباً من مُضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تُتلى عليها، ويُذكر الرب تبارك وتعالى؛ فلا تلين ولا تخشع ولا تُنيب، فليس بمستنكَر على الله عزَّ وجلَّ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تُذيبها؛ إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم يُنب إليه، ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتَّع قليلاً فإن أمامه الملّيِن الأعظم، وسيُردُّ إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] .

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٢٧ .
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب، إنه مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب؟ وتتبدَّى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان. وكذلك تتكشَّف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية[١]، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. فالجبال الراسية قد نُسفت نسفاً، وتحطَّمت بعد أن كانت حصوناً، وتساوت بالأرض بعد أن كانت تُطاول السماء، وبعضها يُبثُّ كما يُبثُّ الدقيق، فيكون ذرات صغيرة متطايرة[٢]. وقد قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥ ـ ٦]. إنه للهول الكبير الذي لا يُبقي ولا يَذر، إنها الواقعة الكبرى التي تُبدِّل الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسَّماواتِ غيرَ السماواتِ، والناس أين هم[٣]؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] [٤]. ومن مشاهد يوم القيامة العظيمة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] [٥].

ثامناً: خلق السماوات:

إن حديث القرآن الكريم عن قصة الخلق، لا سيما خلق السماوات والأرض، حديث تكرّر في العديد من آياته العظيمة، وتناول الكثير من التفاصيل التي يعجز البشر عن إدراكها أو الوصول إليها؛ كالحديث عن الكون

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٢٧٤.
(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٧٠.
(٣) التفسير العلمي المعاصر، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥، ص١٢٣.
(٤) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٧٠.
(٥) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٢٨.

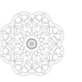
ومادة تخلّقه وأول ما خُلق منه، وترتيب خلقه، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

وقد نفى الله سبحانه وتعالى أن يكون لأحد معه نصيب في شهود هذه البداية العظيمة، فقال سبحانه: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم؛ لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقِلُّ بخلق الأشياء كلها ومدبّرها ومقدّرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مُشير ولا نَظير(١).

يقول الدكتور زغلول النجار في هذا المعنى: إن قضية الخلق؛ خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، لا يمكن أن تخضع للإدراك أو للمشاهدة المباشرة من أي من الجن أو الإنسان، ولذلك لا يستطيع أي عالم تجريبي، بل أي إنسان، أن يتعدى فيها مرحلة التنظير، فلا يمكن لعالم يحترم نفسه أن يقول: نعم هكذا خُلق الكون أو هكذا سيَفنى الكون، أو هكذا سيُعاد خلق الكون، فهذه القضايا لا تخضع للإدراك المباشر للعلماء، ولذلك لا يستطيع العالم التجريبي أن يتجاوز فيها مرحلة التنظير(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٨٩.
(٢) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، ط ٤، ٢٠٠٧، ص٣٧.



١ ـ السماء والأرض كانتا ملتصقتين:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومن التفاسير لهذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: الجاحدون لألوهيته العابدون معه غيرَه، ألم يعلموا أن الله هو المُستقِلُّ بالخلق، المُتفرِّد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيرُه أو يُشرَك به سواه؟ ألم يروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾؟ أي: كان الجميع متصلاً بعضُه ببعضٍ، متلاصقاً، متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي: وهم يشاهدون المخلوقات، تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قيل: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سماوات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين. وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء(١).

إن دراسات علماء الفلك والكون تؤكد أن الكون كان كتلة متماسكة حارّة، ثم بدأ بانفجار مدوٍّ عظيم أدّى إلى انفصال الكتلة الملتحمة وتفرُّق أجزائها في أنحاء الفضاء، وكانت درجة الحرارة عالية جدّاً، ثم تبرَّدت وانخفضت، هذا ما وصل إليه العلماء بعد دراسات حثيثة ومُضنية(٢).

---

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٣/ ١٥٠.
(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٣٠.

٢ ـ السماء سقف الأرض :

جعل الله السماء سقفاً للأرض، هيَّأها الله لعباده، وجعلها موضع عبرة ومحلَّ تدبُّر وتفكُّر لعباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

٣ ـ رفع السماوات بغير عمد :

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢ ـ ٣]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠ ـ ١١].

وذكر المفسرون تفسيرين للآيات المتعلقة بالعمد؛ فمنهم من أثبت أن السماوات لها أعمدة إلا أنها لا تُرى، فمعنى الآية: الله الذي رفع السماوات بغير عمد مرئية، وذلك بجعل جملة «ترونها» صفة «العمد»، والضمير يعود إلى «عمد». ومنهم من ذهب إلى أن السماوات ليس لها عمد أصلاً، ويكون معنى الآية: الله الذي رفع السماوات كما ترونها بغير عمد، وذلك بجعل جملة «ترونها» حالاً من السماوات، وبعود الضمير إلى السماوات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التفسير الأول؛ فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق عزَّ وجلَّ وجعل كل جُرمٍ بمنزلة لبنةٍ من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلَّها بعضها فوق بعض بقوى هي نوع القوة الطاردة

المركزية، كما ربطها في الوقت نفسه برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية، أو قطاعات ناقصة، وهي بمنزلة الأعمدة المقامة بالفعل، وإذا كُنّا لا نبصرها بأعيننا فإن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي، وربما إذا مُنح شخص منا حاسة أخرى زيادة على ما لدينا من حواس يستطيع أن يرى تلك الأعمدة أو يحس بها تماماً، كما ندرك بحواسنا العادية أي جسم مادي أو عادي(١).

يقول الدكتور زغلول النجار: تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنة الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي أجرام السماء كافة، تحكم بناء الكون وتُمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيُدمِّره، ويعيد خلق غيره من جديد، ومن القوى التي تعرّف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء أربع صور يُعتقَدُ أنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق، وإلا انفرط عقده؛ وهذه القوى هي: القوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة، والقوة الكهربائية «المغناطيسية والكهرومغناطيسية»، وقوة الجاذبية.

وهذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن هذه القوى الأربع لا بد أن تلتقي في شكل واحد للقوة يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه(٢).

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٣٦.
(٢) الصلابي، المرجع نفسه، ص٣٧.

٤ ـ امتناع سقوط السماء على الأرض :

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج : ٦٥] .

وهنا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي : ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة؟ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من حيوانات ونباتات وجمادات، فجميع ما في الأرض مُسخَّر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحَمْله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي : سخر الفلك، وهي السفن، ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ : تحملكم وتحمل تجارتكم، وتُوصلكم من محلٍّ إلى آخر، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض، فتلِفَ ما عليها، وهلك ما فيها : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أرحم بهم من والدَيهم ومن أنفسهم، ومن رحمته أنه سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء(١) .

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته، ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها، فضلاً عن الانتفاع بها وبما فيها، وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له، وحكّم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، ولا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً. والله سبحانه هو الذي أنشأ الناموس المنظِّم للوضع القائم، والله سبحانه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص٦٣٣ .

ٱلۡأَرۡضِ﴾، يفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها، وهو من صنعه، ﴿إلا بإذنه﴾ وذلك يوم يعطّل الناموس الذي يُعمله لحكمة ويُعطِّله كذلك لحكمة[١]. وقد خلق الله السماوات على هيئةٍ حسنةٍ جميلة وزيّنها بالنجوم والكواكب ليعظُم الاعتبار بها والتفكُّر في خلقها[٢].

فالله عزَّ وجلَّ أخبر عن خلق السماوات وعظمة اتساعها وارتفاعها، وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، أي: الخلق الحسن. وقال تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]. أي: خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي: كليل ضعيف، ولو نظر حتى يَعي ويكلّ ويضعف لما اطَّلع على نقص فيها ولا عيب؛ لأنه تعالى قد أحكم خلقها، وزين بالكواكب أفقها، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، أي: النجوم، وقيل: محالّ الحرس التي يرمي منها بالشهب لِمُستَرِقِ السمع، ولا مُنافاة بين القولين.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٧]، فذكر أنه زيّن منظرها بالكواكب الثوابت والسيارات، والشمس والقمر والنجوم الزاهرات، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها، وهو معنى: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ [الصافات: ٦ ـ ٨]. فسبحان المبدع العظيم الذي خلق فسوى، وقدر فهدى[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤٤١.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٣٩.
(٣) الخرعان، مرجع سابق، ص١٤٠.

وخَلقُ السماوات من العظمة والجلال بما لا يُحيط به وصف، ولا يُدرِكه حِسٌّ، فهي من مخلوقات الله العظيمة الجليلة، وخلقَ الله فيها من المخلوقات ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، ففيها من الملائكة الكرام ما لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ، ويكفي في ذلك ما ورد عند البخاري رحمه الله في حديث المعراج؛ أن النبي ﷺ قال: « . . . **فرُفِعَ لي البيتُ المعمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المعمُورُ، يُصلِّي فيه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ مَلَكٍ، إذا خَرجوا لم يَعُودوا إليه آخِرَ ما عَلَيهم**» [(١)]. فإذا كان هذا من أول الخلق، فسبحان الله العظيم كم عدد ملائكة الله على عظمة خلقهم؟ وكم سعة هذه السماوات العظيمة التي استوعبتهم عليهم الصلاة والسلام.

وقد جاء في حديث آخر: «**أطّتِ السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها مَوضِعُ أربعِ أصابع إلا عليهِ مَلَكٌ ساجِدٌ**. . .»، وإذا كان هذا واحداً من خلق الله الذي جعله في السماء، فكيف بمخلوقات الله الأخرى التي لا يعلمها إلا هو؟ ويكفي لمتأمِّل أن يتأمل في حديث المعراج، وما كُشف للنبي ﷺ مما في السماء من خلق[(٢)].

ومن بديع خلق السماوات والأرض لونُها الأزرق الجميل. يقول ابن القيم رحمه الله: ثم تأمل ما وُضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدُّها موافقة للبصر، وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضرّ ببصره يُؤمَر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد. فتأمل كيف جُعل أديم السماء بهذا اللون ليُمسِكَ الأبصار المتقلِّبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: (٣٢٠٧). ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٣٤٩.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٤٥.

(٣) مفاتيح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ٢٠٧.

تاسعاً: خلق الشمس والقمر:

خلق الله الشمس والقمر ـ تلك الآيتين العظيمتين في فضاء السماء ـ ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، ليُميِّز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، فسبحان الخالق المبدع المُصوِّر المُبدئ المُعيد، ولم يأتِ الحديث عن خلق الشمس والقمر منفصلاً كما هو بالنسبة لخلق السماء والأرض، وإنما جاء حديث القرآن الكريم عن خلق الشمس والقمر تابعاً لحديثه عن خلق السماء والأرض في آيات كثيرة باعتبارهما جزءاً تابعاً لهما؛ من مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]. وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

١ ـ الشمس والقمر مخلوقان تابعان للسماء والأرض:

والشمس والقمر مخلوقان مع السماوات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدّره الله لا تتعداه، ولا تُقصِّر عنه، وليس لها تصرّف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي بعزّته دبّر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ ينزلها؛ كل ليلة ينزل منها واحدة، ﴿ حَتَّىٰ عَادَ ﴾ يصغر جدّاً فيعود ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ أي: عرجون النخلة الذي من قِدمه نشَّ وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتمَّ نورُه ويتَّسِقَ ضياؤُه، وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدَّره تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وُجد عُدِمَ الآخر، ولهذا قال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾، أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي: يتردَّدون على الدوام. فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع(١). وقد قال الشاعر:

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيضٌ من عطاياهُ

الطير سبَّحه والوحش مجَّده ... والموج كبَّره والحوت ناجاهُ

والنمل تحت الصخور الصم قدَّسه ... والنحل يهتف حمداً في خلاياهُ

والناس يعصونه جهراً فيسترهم ... والعبد ينسى وربي ليس ينساهُ

ومن أوجه الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩]. أن التعبير بمنازل القمر يُشير إلى مواقع القمر الثمانية والعشرين، وهي مواقعه اليومية المتتالية في السماء بالنسبة إلى نجوم تبدو مواقعها قريبة ظاهريّاً، فإن التعبير «منازل القمر» يمكن إطلاقه على مراحل القمر المتتالية، وعلى منازله المتوافقة مع تلك المراحل، وهناك ترابط شديد بين منازل القمر ومراحل أشكال القمر المتتالية؛ من الهلال الوليد، إلى التربيع الأول، إلى الأحدب الأول، إلى البدر، ثم الأحدب الثاني، ثم الهلال، ثم المحاق، إلى الهلال الوليد للشهر القمري الجديد. والقمر يبدأ

---

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص٨١٩.

ميلاده بهلال دقيق، ثم يتدرَّج في النمو حتى يصبح بدراً كاملاً، ثم يعود التناقص بالحجم حتى يصير كالعرجون القديم، ثم يختفي لمدة يوم أو يومين في مرحلة المحاق[١]، وتتكرر هذه الدورة في كل شهر قمري حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وضوء الشمس يغمر نصف القمر باستمرار، فيعكس من فوق سطحه المظلم نوراً ينير ظلمة ليل الأرض، وكل ما يستطيع أهل الأرض إدراكه من هذا النور يختلف من يوم إلى يوم تبعاً لموضع كل من الأرض والقمر والشمس في صفحة السماء، والجزء المرئي من نور القمر قبل اكتمالِه بدراً يُعرف باسم «قوس النور». أما البدر الكامل فيُعرف باسم «دائرة النور»، ونظراً لترنّح القمر في دورانه حول محوره، ولضخامة حجم الشمس بالنسبة إلى حجم القمر، فإن ضوء الشمس ينير أكثر من نصف سطح القمر بقليل، ولذلك يمكن أن يُرى خيط رفيع من النور يحيط بالقمر عند ميلاد الهلال.

وتقدير هذه المنازل القمرية فيه من الدلالة على طلاقة القدرة الإلهية ما فيه؛ لأهميته في معرفة الزمن وتقديره وحسابه باليوم والأسبوع والشهر والسنة، وفي التأريخ للعبادات والأحداث والمعاملات والحقوق، ولما فيه من تأكيد ضبط سرعة القمر ضبطاً دقيقاً من أجل الحيلولة دون ارتطامه بالأرض فيُفنيها وتُفنيه، أو انفلاته من عقال جاذبيتها فينتهي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله. وفي الوقت نفسه الارتباط الدقيق بين سرعة دوران كل منهما حول محوره، فإذا زادت إحداهما قلّت الأخرى بالمعدل نفسه، ولما كانت سرعة دوران الأرض حول محورها في تناقص مستمر بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمن، فإن سرعة دوران القمر في تزايد مستمر بالمعدل نفسه تقريباً، ما يؤدي إلى تباعد القمر عن الأرض بمقدار ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، وهذا التباعد سوف يُخرج القمر في يوم من

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٤٢.

الأيام من مسار جاذبية الأرض ليدخله في نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه، تحقيقاً للواقعة القرآنية التي يصفها الحق عز وجل: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٧ ـ ٩].

ومن هنا كانت هذه الإشارة القرآنية المعجزة التي وصفت مراحل القمر المتتالية في كل شهر، التي يقول فيها ربنا عز وجل: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩].

ومن المعجزات القرآنية في هذا الباب وصف المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة الشهرية للقمر بالعرجون القديم، وهو العنقود من الرطب «العذق» إذا يبس وانحنى واصفرّ لونه، وهو عند يبوسه على النخل ينحني تجاهها، فكذلك الهلال الثاني ينحني بطرفيه تجاه الأرض، وأما الهلال الوليد فينحني بهما بعيداً عنها، فما أروع التشبيه القرآني المعجز[1].

٢ ـ ضياء الشمس ونور القمر:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾، يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه؛ أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل القمر نوراً، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل؛ فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكتمل بدرُه، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر. كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٧، ص٥٢٢.

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩ ـ ٤٠]، وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله في الآية الكريمة الأولى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر، ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾؛ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر وتُعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وقوله ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: يُبيِّن الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وتقول المعارف الحديثة إن القمر جرم بارد لا حرارة فيه، وإنه يكتسب أشعته ونوره من جرم آخر، ثم يعكسه إلى الأرض، وإن الشمس مضيئة إضاءة ذاتية بأشعة حارة، ولذلك وصفها الله تعالى «بالتوهج» في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]. وهذه هي الحقيقة العلمية لكل من الشمس والقمر(١).

وانطلاقاً من هذه الحقائق العلمية التي تُمايِز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل ملتهب مضيء بذاته في درجات حرارة عالية، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد، فيتلقى شعاع الضوء فيعكسه نوراً، ركّز القرآن الكريم باستمرار على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجاً وكون القمر نوراً، فقال عز من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

---

(١) المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩، ص ١٨٨.

وقابل القرآن الكريم الظلمات بالنور وليس بالضياء في آيات كثيرة؛ من مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. ووصف الشمس بأنها سراج وهاج، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

وحينما وصف الله تعالى خاتم أنبيائه ﷺ بأنه سراج، بمعنى أنه مضيء بذاته، أضاف إلى وصف السراج بأنه منير بهداية ربه المُنزَّلة عليه، فقال عز سلطانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]. وحينما وصف النار وصفها بالضياء، ووصف أشعتها الساقطة على ما حولها بالنور، فقال عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. ووصف أشعة البرق بأنها ضوء، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ووصف ذاته العليّة عزَّ وجلَّ بأنه نور السماوات والأرض، وأعطى مثلاً لذلك النور الإلهي، ولله المثل الأعلى، ووصف في هذا المثل الزيت بأنه يضيء، ووصف سقوط ضوئه على ما حوله بالنور، قال تبارك وتعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. وقال عن غيبة الشمس: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

وإن هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نوراً من

سطحه؛ بطريقة مطردة في كل القرآن الكريم، لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه[١].

٣ ـ تسخير الشمس والقمر:

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]. ومن معاني تسخير الشمس والقمر: ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون، واستقامة الحياة على الأرض[٢].

وجاءت الإشارات القرآنية إلى تسخير كل من الشمس والقمر وإلى جريهما لأجل مسمى في أربعة مواضع من القرآن الكريم على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

ومعنى ذلك أن كلاًّ من الشمس والقمر يجري إلى نهايته المختومة بقيام الساعة، وأن هذا الأجل المسمّى صورة من صور التسخير، والساعة لا تأتي إلا بغتة، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٤٩.
(٢) الصلابي، مرجع سابق، ص٤٩.

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٧].

ولذلك فقد أبقى ربنا تبارك وتعالى في صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يؤكد لكل ذي بصيرة حتميةَ فناء كل من الشمس والقمر، فتفقد في كل ثانية من عمرها على هيئة طاقة تعادل «٦ , ٤» ملايين طن من كتلتها، ما يعني أن الشمس تحترق بتدرُّج واضح ينتهي بها حتماً إلى الفناء التام، ولكن الآخرة لن تنتظر فناء الشمس باحتراقها بالكامل، وذلك لأن الآخرة أمر إلهي «كن فيكون»، وعلى ذلك لا تأتي إلا بغتة دون انتظار لحركة السنن الراهنة التي أبقاها الله تعالى شاهدة على حتمية الآخرة، وإن كانت الآخرة لن تتم بوساطتها[١].

وقد ثبت أن الأرض تفقد بدورانها حول محورها ـ بفعل كل من الأمواج البحرية، خاصة عمليتي المد والجزر في البحار الضَّحْلة، وحركة الرياح ـ ما يقدَّر بنحو واحد من الألف من الثانية من سرعتها في كل قرن من الزمان، وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها ـ على ضآلته ـ يؤدي إلى تزايد مُطَّرد في سرعة دوران القمر حول محوره، ما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، ويُقدِّر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يُخرجه حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض إلى نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه، وتكون في ذلك نهايته الحتمية، وهنا تكفي الإشارة إلى سبق القرآن الكريم بتقرير حتمية ابتلاع الشمس للقمر من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة : ٧ـ٩].

٤ ـ الشمس والقمر آيتان لحساب الأيام والشهور والأعوام :

قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص٥٨٦.

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. وهما آيتان صريحتان في هذا المعنى، وقال بعض المفسرين في تفسير قوله سبحانه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] ما يشير إلى معنى كونهما للحساب، قال القرطبي: يعني أن بهما تُحسَب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدرِ أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً[١].

وقد خلق الله الشمس والقمر لحكم عظيمة من أعظمها كونهما آيتين لمعرفة الزمن، ففي حركة الشمس اليومية يُعرف زمن النهار؛ أوله، ووسطه، وآخره، وما بينهما، وقد كان الأولون يعرفون الزمن بحركة الظل، وموضع الشمس من السماء من جهة المشرق أو المغرب، كما يُعرَف بالقمر توقيت الشهر منذ إهلاله وحتى يصير بدراً، ثم تضاؤله، كما يُعرف أيضاً الشهر بوقت شروقه وغروبه[٢].

قال ابن القيم: تأمّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معايشهم ويتصرَّفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنَّون بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمَّلِ الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السُّبات وجُموم الحواس. ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفاً كله لفاتت مصالح الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعاً كله أو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ١٥٣.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٥٣.

خريفاً كله، ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أُودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السَّنة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يُعلَم حساب الأعمار والآجال المؤجَّلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك.

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قَدَّره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل سرمديّاً على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمديّاً على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء[١]، وقال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وهذان المخلوقان على عظمتهما «الشمس والقمر» وجلال نفعهما، منقادان خاضعان لله عزَّ وجلَّ ولسلطانه، ذليلان مستسلمان لأمره وقدره، شأنهما في ذلك شأن كل مخلوقات الله التي تُسلِّم قيادها لربها ذلاًّ وخضوعاً واستسلاماً، شرعاً وقدراً، فقد ذكر المفسرون أن لهما أجلاً ينتهيان إليه، وساعة يتوقفان عندها بأمر الله عز وجل[٢]. جاء عند القرطبي من معاني قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥] «بحسبان» تقدير آجالهما، أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا، نظيره: ﴿ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩]. وقال الضحاك: بقدر[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٥٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ١٥٣.

عاشراً: خلق الليل والنهار:

خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس: ١٠]. وهذا كثير في القرآن.

فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته؛ كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كدّ السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار، يقدُمُ جيشَه بشيرُ الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزّقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها.

فيا له من معاد دالّ على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلُّف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويُضِلُّ من يشاء، وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يُعمِيَ عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يُبصرها؛ كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء[١].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وفي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبُّر والاعتبار بتصرُّم الأيام وتبدُّل الأحوال، فكم إنسانٍ أصبح غنياً وأمسى فقيراً، وكم إنسانٍ أمسى عزيزاً وأصبح ذليلاً. وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار(١).

والليل عظيم قدره، أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بقيامه، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٦ ـ ٧]. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش(٢).

وخص الله الليل بأن جعل منه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ ـ ٥]. وهي الليلة المباركة التي يُفرَق فيها كل أمر حكيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣ ـ ٤]؛ أيّ: في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤٣٥. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧٦.

آخرها، ﴿حَكِيمٍ﴾ أيّ: مُحكَم لا يُبدَّل ولا يُغيَّر[١].

كما أن الليل وقت خلوة المؤمنين بربهم وانطراحهم بين يديه وتضرُّعهم إليه، فهو كذلك كان وقت مناجاة المؤمنين من عذاب الله الذي يُنزله بالقوم الكافرين، كما في قصة لوط وقصة موسى عليهما السلام، قال سبحانه عن لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]. كما قال عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

وهو كذلك موعد اللقاء العظيم والرحلة الجليلة المباركة لسيد الأولين والآخرين محمد عليه الصلاة والسلام، تلك الرحلة العظيمة التي طُوِيَت له فيها الأرض ومعارج السماء، فرأى من آيات ربه الكبرى؛ إنها رحلة الإسراء والمعراج، قال عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، إذن، إنها علاقة وثيقة بين هذا الكون بما فيه من أرض وسماء وليل ونهار وبين عباد الله المؤمنين، إنها علاقة تربطهم بالخالق الواحد والإله العظيم؛ الذي خلق وصور، فأحكم خلقه وأبدعه، فسبحانه من خالق عظيم ورب كريم[٢].

الحادي عشر: خلق النجوم:

النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، والنجوم خلق جميل بلألائه بديع بنوره وسنائه، أقسم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ فهي زينة للسماء، وهداية للسائرين، ورجومٌ للشياطين، تسجد لربِّها وتخضع لسلطانه، فأقسم الله بها، كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٦٨.
(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص١٦٩.

ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١ ـ ٣]. وكما في قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]. وإن مواقع النجوم في السماء، فأقسم الله بها قسماً مغلّظاً، وبيّن أن هذا القسم جليل عظيم لو كنتم تعرفون قدره، أقسم بأن هذا القرآن كتاب كريم، جمّ الفوائد والمنافع؛ لاشتماله على أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق، والمعاملات، وعلى غير ذلك من أمور الغيب وضوابط السلوك، وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة والعبر المستفادة منها، وعلى عدد من حقائق ومظاهر الكون الدالة على وجود الله وعظيم قدرته وكمال حكمته وإحاطة علمه.

ويأتي جواب القسم: بأن الله تعالى قد تعهد بحفظ هذا الوحي الخاتم في كتاب واحد مصون بقدرة الله، ومحفوظ بحفظه من الضياع والتبديل والتحريف، وهو المصحف الشريف الذي لا يجوز أن يمسّه إلا المطهَّرون من جميع صور الدنس المادي، أي: المتوضِّئون الطاهرون، ولا يستشعر عظمته وبركته إلا المطهرون من دنس الشرك والكفر والنفاق ورذائل الأخلاق؛ لأن هذا القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وهو معجزته الخالدة إلى يوم الدين، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وربنا سبحانه هو الإله الخالق رب السماوات والأرض ومن فيهن، وقَيُّوم الكون ومليكه سبحانه، يقول عز وجل: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

وهذا القسم القرآني بمواقع النجوم يُشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، التي مفادها أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن هذا الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرّت بها النجوم ثم غادرتها، وفوق ذلك أن هذه المواقع كلها نسبية وليست مطلقة؛ لأن الضوء كأي صورة من صور المادة والطاقة لا يتحرك

في صفحة السماء إلا في خطوط منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلا في خطوط مستقيمة، وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجم من فوق سطح يراه على استقامة آخر نقطة ينحني ضوؤُه إليها، فيرى موقعاً وهمياً للنجم من غير الموقع الذي انشقَّ منه ضوؤُه، فنظراً لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية.

ليس هذا فحسب، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجوماً قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الحالي، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها، على عظم قدر النجوم، التي كشف العلم عنها أنها أفران نووية كونية عجيبة يخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة التي ينبني منها هذا الكون المدرك، ثم إن عدد ما أحصاه علماء الفلك من النجوم في الجزء المدرك من السماء الدنيا إلى يومنا هذا تعدى سبعين مليار تريليون نجم[(١)].

١ ـ ماهية النجوم:

إن النجوم هي أجرام سماوية منتشرة في السماء الدنيا؛ كروية، أو شبه كروية، غازية، ملتهبة، مضيئة بذاتها، متماسكة بقوة الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مذهلة، وتشعُّ موجات كهرومغناطيسية على هيئة الضوء المرئي وغير المرئي بجميع موجاته. ويمكن بدراسة ضوء النجم الواصل إلينا التعرف على العديد من صفاته الطبيعية والكيميائية؛ من مثل درجة لمعانه، وشدة إضاءته، ودرجة حرارته، وحجمه، ومتوسط كثافته، وكتلته، وتركيبه الكيميائي، ومستوى التفاعلات النووية فيه، وموقعه منا، وسرعة دورانه حول محوره، وسرعة جريه في مداره،

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول النجار، مرجع سابق، ص١٩٧.

وسرعة تباعده عنّا أو اقترابه منا، إلى غير ذلك من الصفات[١] .

٢ ـ الشمس نجم عادي من نجوم السماء الدنيا :

الشمس هي النجم الذي تتبعه أرضنا فتدور حوله مع باقي أفراد المجموعة الشمسية، وتدور معه حول مركز المجرة، ومع المجرة حول مراكز أعلى بالتدريج إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، والشمس أقرب نجوم السماء إلينا، ويُقدَّر بعدها عنا بنحو مائة وخمسين مليوناً من الكيلومترات، ويقدر نصف قطرها بنحو سبعمائة ألف كيلومتر[٢] .

وتجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية في صفحة الكون بسرعة تقدر بنحو ١٩ كيلومتراً في الثانية نحو نقطة في كوكبة هرقل بالقرب من نجم النسر الواقع، وهي تُسمَّى علميّاً باسم «قمة الشمس»، ولعلها هي ما يُسمِّيها خالقها عزَّ وجلَّ في مُحكَم كتابه باسم «مستقرّ الشمس»، كما تجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية بسرعة تقدر بنحو «٢٢٠» كيلومتراً في الثانية حول مركز مجرتنا درب التبانة، لتتم هذه الدورة في «٢٢٥» مليون سنة من سِنيِّ الأرض، وأقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس، وهو كوكب عطارد، يبعد عنها بنحو «٥٨» مليون كيلومتر، ويُعتقَد حسابياً أن هناك كوكباً أبعد من بلوتو، ولكن لم يُرصَد بعد.

وإذا خرجنا عن نطاق المجموعة الشمسية فإن هذه المقاييس الأرضية لا تفي بقياس المسافات التي تفصل بقية نجوم السماء الدنيا عنّا، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كم/ ثانية في سنة من سنيِّنا، وهي مسافة تقدر

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص١٩٧ .
(٢) المرجع السابق، ص٢٠١ .

بنحو «٥ , ٩» مليون مليون كيلومتر[١] .

٣ ـ المجرات تجمعات للنجوم :

المجرات هي نظم كونية شاسعة تتكون من التجمعات النجمية والغازات والغبار الكونيين «الدخان الكوني»، بتركيز يتفاوت من موقع لآخر في داخل المجرة، وهذه التجمعات النجمية تضم عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم في المجرة الواحدة، وتختلف نجوم المجرة في أحجامها، ودرجات حرارتها، ودرجات لمعانها، وفي غير ذلك من صفاتها الطبيعية والكيميائية، وفي مراحل دورات حياتها وأعمارها؛ فمنها النجوم المفردة، والمزدوجة، والعديدة، والعماليق الكبار، والأقزام الحمر، والنجوم القزمة البيضاء والبُنّيّة والسوداء، والنجوم النيوترونية، والثقوب السوداء، وأشباه النجوم، وغيرها مما يتخلق باستمرار من الدخان الكوني، ويُفنى إليه .

ومن المجرات ما هو حلزوني الشكل، ومنها ما هو بيضاوي، ومنها ما هو في حجمها أو أصغر منها، وتتبع مجرتنا ما يعرف باسم «المجموعة المحلية»، وهي عبارة عن تجمع محلي لعدد من المجرات، وقد يتجمع عدد أكبر من المجرات على هيئة أكبر تعرف باسم «عنقود مَجرِّي»، كما يتجمع عدد من العناقيد المجرية على هيئة عنقود مجري عملاق يضم عشرات الآلاف من المجرات[٢] .

وبالإضافة إلى المجرات وتجمعاتها المختلفة في الجزء المدرك من السماء الدنيا فإننا نرى السدم؛ وهي أجسام دخانية عملاقة بين النجوم، وقد تتخلق بداخلها النجوم، وعلى ذلك فمن السدم ما هو مضيء وما هو مُعتِم[٣] .

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص٢٠٣ .
(٢) النجار، المرجع نفسه، ص٢٠٥ .
(٣) النجار، مرجع سابق، ص٢٠٥ .

● **من أسباب القسم بمواقع النجوم :**

نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عنا فإنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً ولا بأي وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعة مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكسار والطمس.

فالشمس ـ وهي أقرب نجوم السماء إلينا ـ تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرّت به الشمس، بسرعة تقدر بنحو (١٩) كيلومتراً في الثانية، فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلث الدقيقة تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بنحو (١٩) كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع، فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء، ونحن لا نرى ضوءها إلا على هيئة صورة وهمية للموقع الذي انبثق منه الضوء الذي رأيناه[١].

وتتغير مواقع النجوم من لحظة إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسُّع الكون وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعض منها بسرعات تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصل ضوؤُه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن؛ نظراً لاستمرار تباعد المجرات بعضها عن بعض بسبب اتساع الكون، ومن النجوم التي تتلألأ أضواؤها في سماء ليل الأرض ما ثبت علميّاً أنه قد انفجر وتلاشى، أو طُمس واختفى منذ ملايين السنين؛ لأن آخر شعاع انبثق منه قبل انفجاره أو طمسه لم يكن قد وصل إلينا

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، المرجع نفسه، ص٢٠٦.

بعد، والضوء القادم منه قد يعبّر عن ماضٍ قد يقدر بملايين السنين[١] .

ثبت علميّاً أن الضوء مثل المادة ينحني أثناء مروره في مجال تجاذبي مثل الكون، وعليه فإن موجات الضوء تتحرك في صفحة السماء الدنيا في خطوط منحنية، يصفها القرآن الكريم بـ «المعارج»، ويصف الحركة ذاتها بالعروج، وهو الانعطاف والخروج عن الخط المستقيم، كما يمكن أن يفيد معنى الصعود في خط منعطف، ومن هنا كان وصف رحلة المصطفى ﷺ في السماوات العلى بـ «العروج»، وسُمِّيت الليلة باسم «المعراج»، والجمع «معارج ومعاريج».

وحينما ينعطف الضوء الصادر من النجم في مساره إلى الأرض فإن الناظر من الأرض يرى موقعاً للنجم على استقامة بصره، وهو موقع يُغاير موقعَه الذي صدر منه الضوء، وهذا يؤكد مرة أخرى أن الإنسان من فوق سطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً[٢] .

إن النجوم في داخل المجرة الواحدة مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية المتبادلة بينها، التي تحكم مواقع النجوم وكتلها، فمع تسليمنا بأن الله تعالى هو الذي يمسك السماء والأرض أن تزولا، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]. ويقول ربنا: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ٦٥]. إلا أن الله تعالى له سننه التي يُحقِّق بها مشيئته، وهو القادر على أن يقول للشيء «كن فيكون»، وهو تعالى وضع للكون هذه السنن المتدرِّجة لكي يستطيع الإنسان فهمها ويتمكن من توظيفها في حسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، فمواقع النجوم على مسافات تتناسب تناسباً طرديّاً مع كتلتها، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى الجاذبية التي تمسك بها في تلك المواقع، وتحفظ السماء أن تقع على

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، المرجع نفسه، ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٧٦.

الأرض إلا بإذن الله، ومن هنا كانت قيمة مواقع النجوم التي كانت من وراء هذا القسم القرآني العظيم.

أثبتت دراسات الفلك ودراسات كل من الفيزياء الفلكية والنظرية أن الزمان والمكان شيئان متواصلان، ومن هنا كانت مواقع النجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، التي تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزليّاً، إذ كانت له بداية يحددها الدارسون باثني عشر بليوناً من السنين على أقل تقدير، ومن هنا كان في القَسم بمواقع النجوم إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا بنهاية القرن العشرين(١).

فسبحان الله العليم الحكيم القائل في محكم كتابه: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

٤ ـ وظائف النجوم:

وقد بين الله سبحانه الحكمة من خلقها، وبيّن وظيفتها في الكون في ثلاث وظائف؛ فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]. وخلقها زينة للسماء وجمالاً، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]. وقال: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥] (٢).

إن النجوم من آيات الله الدالة عليه الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص٢٠٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧٢.

ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]. وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده، وسخّرها لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠] [١].

الثاني عشر: خلق الرياح:

مخلوق عجيب نحسّ به ولا نراه، ويمتلئ به المكان من حولنا، لكنه لطيف رقيق لا يُزاحم أحداً ولا يصبر عنه كائن حيّ، إنه الهواء الذي جعله الله عنصراً للحياة لا يستغني عنه الإنسان، وكل كائن حي قد يصبر عن الماء والطعام ساعات وربما أياماً، لكنه لا يستغني عن الهواء دقائق معدودة، فسبحان الله الخالق العظيم.

إن خلق الهواء هو جزء من خلق هذا الكون، وهو محيط بالأرض، غير أنه يتناقص كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى، كما أثبت العلم الحديث، لا سيما مع توفر إمكانيات الطيران والصعود إلى طبقات الجو العليا، حيث برز فرع من فروع الطب يسمى «طب الفضاء»، فيقول العلماء: إذا ارتفع الإنسان فوق خمسة وعشرين ألف قدم دون حماية من قلة الضغط وندرة الأكسجين فسيموت في الحال، وتتوقف أجهزته؛ مثل الجهاز العصبي، والجهاز التنفسي، فيختنق الإنسان وينتهي[٢]، وهذا مصداق قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقد جعل الله هذا الهواء عنصراً أساسياً من عناصر الحياة؛ فبه يتنفس الإنسان

---

(١) قصة الاخلق، لخرعان، مرجع سابق، ص١٧٥.
(٢) من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ٢/ ١٧٨.

والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النبات في حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش دونه، وقد يَسَّر الله لها من الخياشيم ما يجعلها تستخلص الهواء من الماء وهي في أعماق البحر وظلماته[(١)].

إن الرياح هي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم[(٢)]. وقد قال تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. والرياح قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]. والله عزَّ وجلَّ يرسلها في صورة ما من صورها في الوقت المُقدَّر على من يريد به الهلاك والدمار أو الحياة أو الرحمة[(٣)].

ويرى بعض العلماء أن عامة المواضيع التي ذكر الله تعالى فيها الرياح بلفظ الواحد هي للتعبير عن العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩]، وفي الحديث عن غزوة الأحزاب قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

وشبه الحق أعمال الكفرة بالرماد الذي تشتدّ به الريح، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [إبراهيم: ١٨].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٢) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦، ص٣٠٩.

(٣) التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص١٦٢.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ [آل عمران: ١١٧].

● **المواضع التي ذُكرت فيها الريح بلفظ «الرياح» تدل على رحمته عز وجل:**

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. فالأظهر فيه الرحمة، وقرئ بلفظ الجمع[١].

ويُعلِّق القرطبي على هذه القضية فيقول: فمن وحّد الريح، فلأنه اسم للجنس ويدل على القليل والكثير، ومن جمع فلاختلاف الجهات التي تَهبُّ منها الرياح، ومن جمع مع الرحمة ووحّد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتباراً بالأغلب في القرآن: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] و﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، فجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبّت الريح: «**اللهمَّ اجعَلْها رِياحاً ولا تَجعَلْها رِيحاً**»[٢]. وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة؛ فلذلك هي الرياح، فأُفردت مع الفلك في سورة يونس لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متصلة، ثم وُصِفت بالطِّيب ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ، ص٣٧٠.

(٢) أحمد بن علي أبو يعلى، مسند أبي يعلى رقم: (٢٤٥٦)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ٤، ١٩٨٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١/١٩٨.

وإنها لدقة عالية في التعليل لدى القرطبي؛ فالريح هي التي تحمل الدمار والخراب والشر، وشدة قوتها واتصال أجزائها لا يشعر بها الناس، حتى إذا ما وصلت إليهم ونسفت قواعدهم، ودمرت منازلهم، تراهم قد أُصيبوا بالهلع والذعر، وربما الزوال، أما الرياح فهي النسيم العليل الحافل بالخير والبركة والهدوء والمطر والراحة النفسية، والطمأنينة القلبية، فتبارك الله الذي جعل للهواء جناحين؛ جناح رحمة وجناح عذاب[١].

● **وقد ورد ذكر الريح والرياح في القرآن على وجوه عديدة منها :**

١ ـ رياح النصر :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩].

٢ ـ مسيّرات السفن في البحار :

هي سبب لتحريك السفن على وجه الماء، ودونها تبقى راكدة دون حراك، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢ ـ ٣٣].

٣ ـ معنى نسمات الرحمة :

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧]. فالله عزَّ وجلَّ هو الذي يرسل الرياح، فهي لا تُرسل من تلقاء نفسها، ولكن الله سبحانه هو الذي يرسلها، يرسلها بالرحمة لعباده محمّلة بالأمطار، ولا تتنزَّل إلا بأمره ولا تهطل إلا بإرادته، فهي متناسقة مأمورة حتى تأتي الأرض الموات فتهبط بأمر ربها لإحيائها عندما تكون

---

(١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازاني، مرجع سابق، ص٣١٢.

قد أدّت ما أُمرت به، وتُخرج الأرض ـ بأمر الله تعالى ـ الغلال والثمار، وهذه الدورة التي قامت بها الريح والأرض في إخراج الثمر وتقديم العطاء ليس فيها عسر ولا نصب، ولا يكتنفها جهد ولا مشقة؛ لأنها تسير بقوة الله التي لا تُغلب، وبأمره الذي لا يختلف ولا يتوقف: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

كذلك قضية البعث، وقضية إحياء الموتى، وقضية جمع الذرات المتناثرة والأشلاء المتباينة؛ هينة على الله الذي خلقها من عدم، وهو قادر على إعادتها بعد تفرُّق. عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يُعيد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «**أما مررتَ بوادي قومِكَ جَدباً، ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟ قال: نعم، قال: فتِلكَ آيةُ الله في خلقِه**»[(١)].

وقيل: وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشقُّ عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح، ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

ومن فوائد رياح نسمات الرحمة أنها تحمل البشرى والخير والبركة للخلائق ساكني الأرض، ولها وظائف أخرى سخّرها الله عزَّ وجلَّ لمصلحة عباده؛ ومن تلك الوظائف ما ذكره الحق عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾: فالرياح تبشّر بالمطر، وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها، ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء. ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾:

---

(١) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٩/ ٤٧٠. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص١٦٨.

سواء بدفع الرياح لها أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري فيها السفن، وهي تجري مع هذا بأمر الله ووفق سنته التي فطر عليها الكون، وحسب تقديره سبحانه، فقد أودع كل شيء خاصيته ووظيفته، وجعل من شأن هذا أن تطفو الفلك على سطح الماء فتسير، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار أو ضد التيار، وكل شيء عنده بمقدار[(١)].

٤ ـ إنها بمعنى «العذاب في العقوبة»:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠].

تقول الروايات إنه أصابهم حرٌّ شديد، واحتبس عنهم المطر، وانتشر الحرُّ والجفاف، ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء، قائلين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. وجاءهم الرد من الخالق المبدع: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥]. وهي الريح الصرصر العاتية التي ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

وتُصوِّر الآيات أن الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الناس؛ فهذا الوجود حيٌّ، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها، وتتوجّه لما تُكلَّف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حقَّ الإيمان، ويفتح قلبه

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٧٤.

للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب مع الحياة والإدراك، ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار التي تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار، وقد أدت الريح ما أمرت به؛ فدمَّرت كل شيء فأصبحوا لا يُرَون إلا مساكنهم[١].

٥ ـ إنها بمعنى «القوة والدولة»:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦]. أي: تذهب قوتكم ونصركم، والقوة عز لأهلها، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وقال الإمام الشافعي:

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها ... فَعُقْبَى كُلِّ خافِقَة سُكُونُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فلا تدري السكونُ متى يكونُ[٢]

٦ ـ إنها بمعنى «اللواقح»:

هو كذلك سبب لإثارة السحاب وتلقيحه وتسييره من مكان إلى مكان آخر، ومن بلد إلى بلد آخر، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢]. بيَّنت هذه الآية أن إنزال الماء من السماء بتلقيح الرياح للسحب وتزويد السحب بقطرات الماء، وهذه حقيقة مشاهدة أثبتها علماء المناخ وأفاضوا في الحديث عنها.

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٢٢٦٧. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص١٦٦.
(٢) التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص١٦٣.

يقول القرطبي : معنى لَوَاقِحَ : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع ، وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أي : تقلّه وتصرِّفه ، ثم تمريه فتستدرّه ، أي : تنزِّله[١] .

وقال الطبري : اختلف أهل العربية في وصف الرياح باللاقحة ، وإنما هي مُلقحة ، لا لاقحة ، وذلك أنها تُلقح السحاب والشجر ، وإنما تُوصف باللقح الملقوحة لا المُلقح ، كما يقال : ناقة لاقح . وبعد أن ذكر أقوال العلماء قال : والصواب في ذلك عندي أن الرياح لواقح ، كما وصفها به جلَّ ثناؤه من صفتها ، وإن كانت قد تُلقح السحاب والأشجار ، فهي لاقحة مُلقِحة ، ولَقْحُها : حملها الماء ، وإلقاحها السحاب والشجر : عملها فيه ، وذلك كما قال عبد الله بن مسعود[٢] .

ويمكن أن نستخلص من معطيات الآية القرآنية ما يلي :

إن الله عزَّ وجلَّ أرسل الرياح وسخّرها لمنافع العباد ، وصورة المنفعة في هذه الآية أنها تعمل على التلقيح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ ، والتلقيح يكون للأشجار والسحب معاً ، إلا أن الآية هنا تتحدث عن تلقيح الرياح للسحب فقط ، ولقد صرَّف وجهَ الإعجاز في هذه الآية عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين على أن المقصود باللواقح تلقيح الزرع والشجر ، والذي يتمعّن في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ يجد أنها تستوعب كلا المعنيين ، لكن لا ينبغي أن نغفل الجزء الثاني من الآية ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ ، فلو أن ما ذهبوا إليه من أن الرياح تلقح الأشجار فقط لاستلزم المعنى واقتضى السياق القرآني أن يُبنى عليه إخراج الزروع والثمار بدل إنزال الماء ، أما وأن القرآن قد رتّب وعقَّب على إرسال الرياح اللواقح إنزال الماء من السماء ليسقيه الناس فقد تحتّم أن يكون المقصود باللواقح تلقيح الرياح للسحب لإنزال المطر ، ويتضح الربط هذا من

(١) تفسير سورة الحجر ، القرطبي .
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري ، مرجع سابق ، ١٤/ ١٤ .

الفاء، التي ربطت بين السبب والمسبب، وأقامت العلاقة المتينة بين العلة والمعلول، ليكون المعنى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وهذا هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني في هذا الصدد، وهذا ما أثبته علماء المناخ[١].

ويذكر الدكتور زغلول النجار في حديثه عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أن هناك ثلاثة أنواع من التلقيح التي تتم في السحب؛ تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة، ما يزيد عملية التكاثف ومن ثم نزول المطر. وتلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة فيحدث تفريغ وشرر كهربائي، فيكون المطر مصحوباً بالبرق والرعد، وهو صوت تَمدُّد الهواء الناجم عن التفريغ. والتلقيح الثالث ـ وهو أهم أنواع التلقيح جميعاً ـ أنّ الرياح تُلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر، إذ إن نُويّات التكاثف، وهي النويات التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطاً من الماء نامية داخل السحب، هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هي أملاح البحار، وما تذرّه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للأمطار، وهذه هي فكرة المطر الصناعي؛ عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق أن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف، يتكاثف عليها المطر ويهطل، أي إن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب وتلقيحها ونزول المطر، ودائماً ما يربط القرآن بين الرياح والمطر[٢]. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله كلاماً عجيباً عن الهواء ووظائفه ومنافعه، وأنه وسيلة اتصال بالمفهوم الحديث لهذا المعنى؛ ينقل الكلام من مكان لآخر، كما

---

(١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص٣١٥.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد السقا، ص٣٠٦ـ٣٠٧.

ذكر وظائف ومنافع أخرى له غير ذلك، فقال: ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذَّى به ظاهراً وباطناً، وفيه تطَّرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد، كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل؛ وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات، وهو أيضاً الحامل للحر والبرد وما هُيِّئَ له من الرحمة والعقاب.

وتأمَّلْ كم سُخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسُخّرت له «المثيرة» أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سُخرت له «الحاملة» التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سُخرت له «المؤلّفة» فتؤلف بين كِسَفِه وقِطَعِه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فتصير طبقاً واحداً، ثم سُخِّرت له «اللاقحة» بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتُلقِحُه بالماء، ولولاها لكان جهاماً لا ماء فيه، ثم سُخِّرت له «المُزجِية» التي تُزجيه وتَسوقُه إلى حيث أُمر فيفرغ ماءه هنالك، ثم سُخِّرت له بعد إعصاره «المفرّقة» التي تبثّه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً، ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرّقه فتجعله قطراً، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيماً، وكذلك الرياح التي تسيّر السفن، ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تُبرِّد الماء، وتُضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفّف الأشياء التي يُحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح؛ فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذَوى النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد؛ ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضى، وأفسد الثمار، وعفن الزرع، وأحدث الوباء في الجو؟

فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي برَوحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي في الرياح: **إنها من رُوح الله تأتي بالرحمة**[١].

الثالث عشر: خلق السحاب والرعد والبرق والصواعق:

إن من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سبحانه وتعالى.

١ ـ السحاب

تحدث الله سبحانه وتعالى عن السحاب، وهو نوعان:

أ ـ السُّحب البسيطة:

ذُكر هذا النوع في القرآن الكريم، وهي كما يُفهم من اسمها تظهر بشكل طبقات تحجب السماء بأكملها، ولا توجد لها حدود واضحة، ويمكن تشبيهها بالضباب المرتفع، وهي من السحب المنخفضة، وقد تصل قاعدتها في بعض الأحيان إلى سطح الأرض فتظهر بشكل ضباب، وقد يحدث أن تتكون من الضباب نفسه عندما يرتفع بتأثير حرارة الشمس أو الرياح أو كليهما، وهي من السحب التي قد يصحبها هطول خفيف من الرذاذ أو حبيبات الثلج، ويكون الهطول عادة متصلاً أو منقطعاً، ومنها ما يكون رقيقاً شفافاً لا يحجب الشمس، ومنها ما يكون سميكاً معتماً، والنوع السميك منها يصاحبه في المعتاد هطول من المطر أو الثلج أو خليط منهما[٢].

وفي هذا النوع قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص٣٢٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ : وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتعريفه . ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ : بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض . ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : ويفرشه ويَمدُّه . ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ : بتجميعه وتكثيفه وتراكمه بعضِه فوق بعضٍ ، أو يصطدم بعضُه ببعض ، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة ، أو كِسفة منه وكِسفة . ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ : وهو المطر يتساقط من خلال السحاب . ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ؛ لا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر(١) .

ليس في الكلام مثل هذا الكلام من حيث جمال التعبير واكتمال المعنى ، ومن حيث المرونة في العرض الذي يستقيم به المعنى لكل ذي لبّ من الناس ، سواء كان في الزمان الغابر وما فيه من بدائية المعرفة ، أو كان في زماننا هذا بما فيه من ظواهر مذهلة في العلم والاختراع أو تقدم مثير في الخبرات والنظريات العلمية . إن كلاماً يسمو فوق آفاق العقول في عامة الأدهار ، وينسجم تمام الانسجام مع المعطيات الكونية التي يتوصل إليها الإنسان رويداً رويداً ، إن هذا الكلام بهذه الطريقة والكيفية في العرض لا جرم أن يكون من عند الله وأنه معجز(٢) .

ب ـ السحب الركامية :

تتكون من تراكم السحب وركوب بعضها على بعض ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور : ٤٣] . وتمثل هذه الآية الكريمة إعجازاً علميّاً رائعاً في علم المناخ والرياح

---

(١) في ظلال القرآن ، قطب ، مرجع سابق ، ٥/ ٢٧٧٥ .

(٢) إعجاز القرآن ، أمير عبد العزيز ، مكتبة دنديس ، عمان ، ٢٠٠٤ ، ص١٩٢ .

وتكوين السحب الركامية؛ فهي تتحدث عن تكوين السحب الركامية، التي تبدأ بدفع الرياح للسحب رويداً رويداً. ثم تأتي المرحلة الثانية التي تتمثل بتأليف وجمع قطع السحاب، ثم تصبح هذه القطع مركومة بعضها فوق بعض، وعملية الركم هذه تتبع نزول المطر، وبسبب التراكم التقاعدي تنشأ جبال سيارة من البَرَد، ونُويَّات البَرَد هذه محصورة في السحب الركامية، ولم نقرأ في السحب البساطية أنها تحتوي على البَرَد أو البرق أو الرعد، ثم إن الآية تُخبر أن هذا البَرَد له برق، والبرق نتيجة حتمية للبَرَد، وغير هذه الحقائق والأسرار تحتويها هذه الآية، وسوف نرى بإذن الله أن العلم وصل بشكل دقيق إلى ما أوضحته الآية القرآنية بعدما تطور علم الأرصاد الجوية واستعمال العلماء أجهزة الاستشعار عن بعد والرادارات والأقمار الصناعية وغيرها[١].

وفي آية النور يعرض الله المشهد في إطالةٍ، وتُترك أجزاؤُه للتأمُّل قبل أن تلتقي وتتجمع، كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه، وبعثه إلى التأمل والعبرة، وتدبر ما وراءها من صنع الله.

إن يد الله تُزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تُؤلِّف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع الثلج الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقّاً؛ بضخامتها، ومساقطها، وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مُصوِّر للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ركوب الطائرة. وهذه الجبال مُسخَّرة بأمر الله، وفق ناموسه الذي يحكم الكون، ووفق هذا الناموس يُصيب الله بالمطر من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وتكملة المشهد: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾: وذلك ليتم التناسق مع جو النور

(١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص٣٢٥.

الكبير في الكون العريض، على طريقة التناسق في التصوير[١]. لقد وصفت الآيات القرآنية الوصف الكامل بالضبط لطريقة تكوين السحاب والظواهر المصاحبة لتكوينه، والنتائج المترتبة عليه؛ يبدأ بالسَّوق، ثم بالتأليف، ثم بالتراكم، فينزل المطر.

تغيير حرف العطف: انظر إلى الدقة على مستوى الحرف؛ لأن المدة من السوق إلى التأليف تأخذ زمناً، ومن التأليف إلى نهاية المطر تأخذ زمناً، لكن بعد أن ينتهي الرَّكم إلى نزول المطر لا وجود للزمن، ولذلك كان التعبير المناسب لهذا المعنى بحرف «الفاء»؛ الذي يدل على التعقيب والترتيب بسرعة، ولذلك قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُـزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾.

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: يعني يقول لك: انظر إلى السماء. «من جبال»؛ ماء الجبال، أي: ﴿ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾: إذاً هي سحاب.

لا يتكون البَرَد إلا في السحاب الركامي الذي تختلف درجة حرارة قاعدته عن قمّته، وبسبب هذا الشكل الجبلي للسحاب يتكون البَرَد، وأما الشكل الطبقي فلا يتكون فيه بَرَد، ولذلك قال: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾، فيجب أن يكون السحاب على شكل جبل. ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾: يصيب الله به من يشاء، والضمير يرجع إلى البَرَد. يقول علماء الأرصاد: يتكون البَرَد وينزل إلى قاعدة السحاب، وفجأة يأتي تيار هوائي يصرفه ويعيده إلى وسط السحاب.

أما كيفية فهم قوله تعالى: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾؛ فيعني: كان متّجهاً إلى قوم فقال له: ارجع، وتتبّع علماء الأرصاد ذلك فوجدوها دورة تدورها حبّة البَرَد وتكون غلافاً، فلما تنزّلت حبّة البَرَد إلى الأرض نعرف كم

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٥٢٢.

دورة دارت حبّة البَرَد في جسم السحاب. قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾: سنا برقه: لمعان برقه؛ في عام ١٩٨٥م بيّن مؤتمر دولي ـ لأول مرة ـ أن البَرَد هو السبب الحقيقي لتكوين البرق، فعندما يتحول البَرَد من سائل إلى جسم صلب تتكون الشحنات الكهربائية الموجبة والسالبة، وعندما تدور حبّة البَرَد توزع الشحنات الموجبة والشحنات السالبة، ومع استمرار الدورات تكون عملية التوصيل، فالبرق من البَرَد[١].

ومن الآيات التي تحدثت عن السحب ونزول الأمطار قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]. أي: جعل فيها جبالاً رواسي ثابتات سامقات، تتجمّع على قممها السحب، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب، أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير وحكمة وتدبير؟[٢]. فالجبال الشاهقة تكون مصدراً للأمطار، حيث تعترض الرياح المحملة ببخار الماء، إذ تجبر الهواء الرطب على الارتفاع إلى الأعلى فيبرد ويتكاثف ويسقط مطراً غزيراً[٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: أي: السحاب. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾: أي: كثيراً جداً[٤].

فقد أثبت العلم الحديث أنه بعد أن يتكون السحاب يمر فيه تيار هوائي دائري يدور كالعصارة، فيرفع بدورانه هذه السحابةَ المشبعةَ ببخار الماء إلى الأعلى فيبرد ويتكثّف ويلقح أيضاً، وتبدأ عملية العصر عند نقطة محدّدة في مكان محدّد من الطبقات العليا، فينزل المطر، ثم لا تلبث أن تُرفع كمية أخرى من الهواء

---

(١) دلائل الإعجاز العلمي، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، ٢٠٠٦، ص٤٣٦.
(٢) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٢٧٩٣.
(٣) الاكتشافات العلمية الحديثة، سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط ١، ١٩٨٧، ص١٥٧.
(٤) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص١٠٧٢.

المشبع ببخار الماء من الأسفل إلى الأعلى، وتتكثَّف وينزل الماء، فعن طريق العصر ينزل الماء من السحب دفعة دفعة، وليس بانسياب مستمر، وهذه الظاهرة تشاهد كثيراً في المناطق الاستوائية حيث تيارات الحمل قوية، فتحمل السحاب وينزل المطر وتكثر الغابات وتتشابك، وتلتفُّ الأشجار بعضها حول بعض(١) .

١ ـ الرعد والبرق والصواعق :

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢ ـ ١٣]؛ أيّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ يخبر تعالى بأنه هو الذي يسخّر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ : خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقّته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله .

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي : يخلقها مُنشَأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ لقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي : خُشَّعاً لربهم خائفين من سطوته، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ أي : من عباده بحسب ما شاءه وأراده. ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي : شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب، فإذا كان وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يُخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة، فهو الذي يستحق أن يُعبَد وحده(٢) .

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص١١٠ .
(٢) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص٤٧٠ .

وفي هذه الآيات حقيقة كونية؛ وهي أن سبب حدوث البرق والرعد والصواعق مع تكوين السحاب الثقال الممطر، أي: المتشابه الضخم في الجو العاصف، هو اجتماع الحالتين المتضادتين المتكهربتين المتجاذبتين تجاذباً شديداً في هذا السحاب عندما يقترب بعضه من بعض، ثم يجتمعان.

ويخبر العلم بأن البرق شرر كهربائي عظيم الحرارة شديد الضوء مفرط السرعة، ويحدث بمرور الكهرباء في الهواء بين كتل السحاب الرعدي، فيسخن الهواء في مقاومته بمرور الكهرباء خلاله إلى درجة عظيمة، ويتمدَّد بسرعة كبيرة، ولكنه يبرد ويرجع إلى حالته الأصلية بسرعة كبيرة أيضاً، فيتولَّد من تمدُّده وانكماشه السريعين موجات اهتزازية عظيمة السعة، فتنتشر في الهواء بين السحاب والأرض، فينشأ عنهما صوت الرعد. فالعلماء إذاً متفقون في السبب العام لتولد البرق والرعد والصواعق وهو التكهرب الموجب والسالب في السحاب[1].

٢ ـ أخطار الصواعق والبرق:

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٩ ـ ٢٠]. إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء؛ صيّب من السماء هاطل غزير ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾، ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾، ﴿ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي: وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون وهم مُفزَعون، ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه وموقف العلماء منه، بكر زكي إبراهيم عوض، ص٧٠ ـ ٧١.

إن الحركة التي تغمر المشهد كله؛ من الصيّب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزَعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يُخيِّم الظلام، إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثُّر الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق التي يعيش فيها أولئك المنافقون(١) .

الرابع عشر: خلق الشجر والنبات:

الشجر والنبات نعمة من نعم الله في الخلق، وقد كرّر الله ذكرها في كتابه العزيز تذكيراً بما فيها من الجمال والظلال، وما فيها من الثمار والمنافع التي لا تُحصى، والمتاع النافع للناس ولأنعامهم، وهي آية من آيات الكمال في الخلق الذي أبدعه الله وسَوَّاه وأحكمه وأحسن صنعه سبحانه؛ فخلق الأرض وقدَّرَ لها أن تكون مكاناً ليعيش فيه بنو آدم ودوابهم، وقضى لها أن تكون كوكب حياة، فجعل فيها ما يُحقِّق هذه الغاية؛ بالقدر السابق من الله عزَّ وجلَّ أن تكون سكناً لآدم عليه السلام وزوجه وذريتهما من بعدهما، ولذا جاء خلق النبات والشجر مصاحباً لخلق الأرض، والحديث عنه في القرآن مقترن بالحديث عن خلقها .

إن ذلك يُقرِّر الحقيقة العظمى في انتفاء المصادفة عن الخلق، وأن هذا الكون بما فيه خُلق وفق قدر محكم، ونظام دقيق، وحكمة عظمى، لا ترى فيه من تفاوت، ولا تُحِسُّ فيه من خلل، ولا تلتمس فيه من نقص ولا عيب، فسبحان الذي خلق فسوى وقدَّرَ فهدى، وسبحان العليم العظيم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً(٢) .

١ ـ خلق النبات:

تُقرِّر الآيات الكريمة بداية خلق النبات في الأرض في مرحلة الدَّحيِ الوارد

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ١/ ٤٦ .
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٣٩ .

فــي قــولــه تعــالــى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١].

فإخراج الماء والمرعى هو معنى الدَّحي، قال القرطبي: أي: بسطها، وقيل: دحاها سواها، وقيل: دحاها: حرثها وشقَّها. وقيل: مهّدها للأقوات. والمعاني متقاربة. وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخرج من الأرض. ﴿مَآءَهَا﴾ أي: العيون المتفجرة بالماء. ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: النبات الذي يُرعى. وقال القُتَبي: دلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحَبِّ والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح[1].

وقال سبحانه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠]، وعن ابن عباس قال: خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودَحيُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾[2].

٢ ـ منافع النبات:

والله سبحانه يقرر حقيقة أن هذه الأرض وُضعت في الأصل للناس لعمارتها والعيش فيها، ولذا جعل فيها ما يحقق هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠].

قيل في معنى: ﴿لِلْأَنَامِ﴾: الناس، وقيل: الجن والإنس، وقيل: بل كل ما دبّ على وجه الأرض. ثم يبين سبحانه ما وضع فيها من مقومات حياتهم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٩/ ٢٠٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٢. الخرعان، قصة الخلق، مرجع سابق، ص٢٤٠.

فيقول عز وجل : ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن : ١١ ـ ١٢].

ويقول عزَّ وجلَّ مبيناً نعمته على عباده بتنويع نعمه وفضائله فيما يبثه من أنواع النبات وأشكاله وطعومه، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ـ ١١].

وقد كرر الله تعالى التذكير لعباده في كتابه العزيز بأنه سبحانه الخالق وحده لهذا النبات، ابتداءً يوم خلقَ السماوات والأرض، وامتداداً حين ينزل الماء من السماء، ويخرج الزرع والثمر، في آية من آياته المبهرة الدالة على قدرته على الحياة والموت والبعث والنشور. قال سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤].

وبيّن سبحانه نعمته على عباده بأن جعل لهم في هذه الأرض من المتع وموارد العيش ما يُقيم حياتهم وحياة أنعامهم، قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢]. والحَبُّ : كل ما يُذكَر من الحبوب، والقضب : العلف. وأما الفاكهة : فكل ما يُتَفكّه به من الثمار، والأبّ : ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابُّ ولا يأكله الناس[1].

وكما أنها للعيش والأكل فهي كذلك للبهجة والجمال والسرور، قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٤٣.

ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠] [١].

٣ ـ جمال الأشجار ومنافعها:

الأشجار رمز للجمال، وتُعتبَر من أهم الزينات التي تُزيِّن الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم:

أ ـ شجرة النخيل:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥]. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها. ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي: النخلة. ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في قلب المؤمن علماً واعتقاداً. ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من الكلم الطيِّب، والعمل الصالح، والأخلاق المَرضِيَّة، والآداب الحسنة، في السماء دائماً. ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينتفع به غيره. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما أمرهم به وما نهاهم عنه[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠]. ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾: وهي الطوال، وهو نوع خاص من النخل يتميز بطول ساقه حتى ليتجاوز الثلاثين متراً بالارتفاع. ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: متراكب بعضه على بعض، وفي ذلك القدرة الإلهية المبتدعة التي تتجلى في خلق النخلة الباسقة بهذا

---

(١) الخرعان، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٢) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص٤٨٣.

الطول الفارِهِ، وإعطائها من القدرات البينة الظاهرة والخفيّة المستترة ما جعل من النخل مضرب المثل في القرآن الكريم، الذي ذكره في عشرين موضعاً، وفضّله على غيره من أنواع الزروع والفاكهة، وجعله في مقابلة غيره من أنواع النبات.

فمن القدرات الظاهرة للنخل ثباته في الأرض، وارتفاعه فوق سطحها، ومقاومته للريح، وتحمله لكل من الحرارة الشديدة والجفاف، وقوته وتعميره، ووفرة إنتاجيته تحت أقسى الظروف، وتعدد أشجاره وثماره شكلاً ولوناً وطعماً وحجماً ونفعاً، وتعدد الفوائد المرجوة من كل جزء من أجزاء شجرته المباركة... إلخ(١).

ب ـ شجرة الزيتون:

ذكر الله في القرآن الكريم شجرة الزيتون كواحدة من مكونات المثل الذي ضربه الله لنوره في السماوات والأرض، الأمر الذي يدل على اهتمام القرآن الكريم بجمال الأشجار، فقد زادت الدنيا جمالاً إلى جمالها ونوراً إلى نورها.

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]. وقد فُسِّر قوله تعالى ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ بكونه مُنوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشْتُقَّ اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، والنور يُضاف إليه سبحانه على أحد وجهين؛ إضافة صفةٍ إلى موصوفها، وإضافة مفعولٍ إلى فاعله(٢).

(١) آيات النبات في القرآن الكريم، زغلول نجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص٤٠٩.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٩٨٨، ص٦.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وهي أن أصل الإيمان يكون من الله، وعندما يشرح الله صدر عبده المؤمن للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة، وقد شبّه العلم المستفاد من الوحي الواصل للقلب بالزيت الجيد، فاستدامة النور وقوته وسلامته وتنامي حياة القلب إنما تكون بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادة حياته[١].

إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تَحمِلُه، فتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها، ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طَفِئَ كما تُطفأ النار بفراغ مادتها[٢].

إن المثل دل على أن الإيمان يزيد وينقص، ويزيد العلم الواصل للقلب المستفاد من نور الكتاب والسنة كما ينقص بنقصه، ومأخذ ذلك من المثل هو تشبيه العلم الذي يمد القلب بالمعارف والحقائق الإيمانية بالزيت الذي يمد المصباح بالوقود، وكون المصباح يزيد ضوؤُه ويصفو بزيادة الزيت وجودته.

والمؤمنون يتفاوتون بقوة النور الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان، وأكمل المؤمنين نوراً هو النبي ﷺ؛ لكمال علمه وإيمانه.

إن المثل دل على أن النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذ ذلك هو تشبيه ذلك النور الذي يُعلم معناه ولا تُعرف كيفيته بنور المصباح.

هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة من حيث إن كلاًّ منهما في أصل خلقه ووضعه مُهِمٌّ لاستدعاء وتشرّب ما يناسبه؛ فالفتيلة تتشرب الوقود المناسب وتمتصه

---

(١) الأمثال القرآنية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٠، ١/ ٣٦٠.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٢٠٥.

وتتبلَّل به وتصبح مُهيَّأة به للاشتعال إذا أُوقدت، وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوب العباد عليها، مهيأة لاستدعاء ما يناسب من التوحيد والدين الحق، فإذا تشربت ما يرد إليها من ذلك من العلم بالكتاب والسنة فإنها تكون مهيأة لإيقاد مصباح، وقذف نور الإيمان به. قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

فالله عزَّ وجلَّ فطر كل الناس على معرفته وتوحيده ومحبته، وجبل نفوسهم على قبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام، والفطرة تُزكَّى بالعلم المستمَدِّ من الكتاب والسنة، وتُطهَّر من مكائد شياطين الإنس والجن الذين يجتهدون في إفسادها[١].

إن المثل دل على أثر نور العلم والإيمان على العقل، حيث أكسبه سلامة التعقُّل وسداد النظر وصحة الاستنتاج.

وإن الطريق إلى الحق في كل المطالب الدينية إنما يكون بإعمال العقل المستنير بالوحي النازل على الرسول ﷺ لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وإن العقل المجرد عن العلم لا سبيل له إلى تلك الحقائق، كما دلَّ المثل على أن النور سطع وأشرق على كل أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد والعواطف والإرادات والانفعالات، فأخصبها بالخير والسلام والصلاح.

وفي قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ دل على أن نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يُغذِّي نور الإيمان ويزيده ويُقوِّيه.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ دليل على أن النورين من الله؛ نور الإيمان الذي يُقذف في القلب، ونور العلم الذي طريقه الوحي، فمن هُدي إلى الأول واهتدى بالثاني فقد أعطاه الله نوراً تامّاً. ومن كان غير ذلك

---

(١) الأمثال القرآنية، الميداني، مرجع سابق، ١/ ٣٩٠ ـ ٤١٢.

فليس له من نور، بل في طريق من طرق الضلال سائر في الظلمات[١].

وفي قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ﴾ نور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطَبون، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل، إنما كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة في الوادي المقدس في الطور، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب، وهي شجرة مُعمَّرة، وكل ما فيها ينفع الناس؛ زيتها وخشبها وورقها وثمرها. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليُذكّر بالأصل الكبير، فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها مُتحيِّزة إلى مكان أو جهة، إنما هي مثل مجرد للتقريب: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾، وزيتها ليس زيتاً من هذا المشهود المحدود، وإنما هو زيت آخر عجيب؛ ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌۚ﴾ فهو من الشفافية بذاته ومن الإشراق بذاته، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق[٢].

وذكر تعالى شجرة الزيتون أيضاً في قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]؛ ﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾؛ هذه الآية تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التي تُؤكل ثمارها، ويُؤتدم بزيتها، وبما فيه من منافع للناس.

وفي قوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ أي: تنبت ثمارها ملتبسة بالدهن وهو زيت الزيتون. ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾: أي: إدام وطعام لهم، سُمِّي صبغاً لكون إداماً، ولأنه يصبغ الخبز إذا لامسه، ولعل في ذلك إشارة إلى ما هو غير الدهن من مئات المركّبات الكيميائية المهمة التي مكّن الله تعالى شجرة الزيتون من استخلاصها من ماء الأرض وتربتها، ونقلها من العصارة الغذائية، وتخليقها في أوراقها وثمارها، وهو ما تعجز أكبر المصانع التي بناها الإنسان عن تحقيقه، لذلك

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٢٠٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٥٢٠.

امتدح ربنا تبارك وتعالى كلاًّ من شجرة الزيتون وزيتها في ستة مواضع أخرى من القرآن الكريم، وأقسم بالتين والزيتون في موضع سابع منه، والله تعالى غني عن القسم لعباده[١].

وقد ثبت بالدراسة أن أفضل الزيوت النباتية على الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله تعالى من خاصية خفض الدم، وتقليل امتصاص الجسم للكوليسترول بصفة عامة، وإبقاء المعدل الكلي للكوليسترول في الدم بحدود (١٣٪)، وإنقاص معدل الكوليسترول الخفيف بنسبة (٢١٪)، فيرفع نسبة الكوليسترول المفيد نسبياً في الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل.

ومن الثابت طبياً أنه كلما انخفضت نسبة الكوليسترول الضار وزادت نسبة المفيد منه في الدم قلّت نسبة الإصابة بالجلطة القلبية؛ من مثل الإصابة بالمرض المعروف باسم «احتشاء العضلة القلبي»، وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمي القلب من أمراض انسداد الشرايين، وهي من أكثر الأمراض انتشاراً في الزمن الحاضر.

وقد ثبت بالتحليل الدقيق احتواء كل من ثمرة الزيتون وزيتها على مركبات كيميائية تمنع تخثر الدم، وانطلاقاً من ذلك يُوصي الأطباء كل من أُجريت لهم عمليات توسعة لشرايين القلب بتناول (٤ ـ ٥) ملاعق من زيت الزيتون، ويستخدم في إنتاج العديد من الأدوية، والدهانات الطبية، وزيوت الشعر والصابون، وبه كانت توقد المصابيح في المنازل والمساجد قديماً؛ لصفاء اللهب الناتج عن اشتعاله.

ج ـ شجرتا التين والزيتون:

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣].

---

(١) من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، المرجع السابق، ص٤٢٢.

هذه الآيات القرآنية الثلاث يُقسم فيها ربُّنا تبارك وتعالى بكل من التين والزيتون، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة، والله تعالى غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية بصيغة القسم كان في ذلك تنبيه لنا على أهمية الأمر المُقسَم به.

وفي القَسَم الثاني بالتين تأكيد لتميُّز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مفيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات، والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، كما أثبتت الدراسات مؤخراً، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميُّز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفَّر لغيره من النباتات[١].

د ـ شجرة اليقطين:

قال تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٥ ـ ١٤٦].

بتأمُّل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الصافات، يتبادر إلى الذهن اختيار الله عزَّ وجلَّ للتعبير القرآني ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾، لحماية عبده ونبيّه يونس بن متى، على نبينا وعليه من الله السلام، بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أي: وهو مُنهَك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير في الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذي عرفه العرب، ومنه كلٌّ من القرع العسلي، وقرع الكوسا، والحنظل، وليست نوعاً محدداً[٢].

وتُوحي الصياغة القرآنية: ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ بأن المقصود هو عموم اليقطين الذي نعرفه، وهنا يظهر التساؤل المنطقي؛ وماذا في اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التي مرَّ بها نبي الله يونس عليه السلام بعد أن

---

(١) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، زغلول النجار، ص٣٠٧.
(٢) من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص٥١٢.

التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم؟ أي مريض مُنهَكُ القوى[١] .

وثبت بالدراسة المختبرية التي قام بها الدكتور كمال فضل خليفة، الأستاذ المشارك في علم النبات بجامعة الخرطوم، أن اليقطينيات تحتوي على عدد من المركبات الكيميائية المهمة التي لها تأثير طبي علاجي ووقائي واضح؛ يبرز في مقاومة الحشرات، وفي علاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرُّحاتها[٢] .

وفي علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمي والبولي، وفي مقاومة بعض الأمراض السرطانية ـ عافانا الله جميعاً منها ـ هذا بالإضافة إلى القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التي لا تُؤكَل؛ مثل ثمار الحنظل، وهنا تتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٦] .

هـ ـ شجر المراعي:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] .

وفي قوله: ﴿مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، ومن الثابت علميّاً أن الماء سابق في وجوده على الأرض لخلق جميع أحيائها، وأن النبات سابق في وجوده لخلق الحيوان، وكلاهما سابق في وجوده لخلق الإنسان، وبتقدير الله قام النبات ـ ولا يزال قائماً ـ بالدور الرئيسي في إمداد الغلاف الغازي للأرض بالأكسجين، وفي تخليق الجزيئات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل من النبات والحيوان والإنسان، ومن هنا كان اعتماد كل من الإنسان والحيوان في غذائه أساساً على النبات، وهي حقائق لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من

---

(١) من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص٥١٤ .

(٢) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، النجار، مرجع سابق، ص٣٠٨ .

بعده، وهذا يؤكد روعة الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١١].

وفي قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تدبير هذا الكون ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، أو موافقة لفطرته، أو ملبّية لحاجته، والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما يُنشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره. وأما الغافلون فيمرُّون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء وفي الصيف والشتاء فلا تُوقظ تطلُّعَهم، ولا تُثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد(١).

و ـ تنوع الأشجار واختلاف ألوانها:

تختلف الأشجار اختلافاً كبيراً في أنواعها وأشكالها وألوانها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، فمنها الباسق، والقصير، ومنها السميك والنحيف، ومنها كثير الفروع وقليله، ومنها المتسلّق والزاحف، وتختلف أيضاً في تنوع ثمارها وأوراقها، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا التنوُّع.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء، فهو الذي أخرج

---

(١) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢١٦٢.

الحياة من الموت، وهذه الجنات منها المعروشات التي يتعهّدها الإنسان بالعرائش والحوائط، ومنها البريات التي تنبت بذاتها، بقدَر الله، وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم، وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان مُنوَّعَ الصنوف، متشابهاً وغير متشابه، وإنه هو الذي بثَّ الحياة في هذه الأرض ونوّعها هذا التنويع وجعلها مناسبة للوظائف التي تتطلبها حياة الناس في الأرض، فكيف يذهب الناس في مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق إلى تحكيم غير الله في شأن الزروع والأنعام والأموال[١]، وغير ذلك في كونه ومخلوقاته ومناحي الحياة؟!

ز ـ الشجر يؤمن بالله ويسجد له:

وثمة أمر عظيم هنا، تؤكده الآيات القرآنية الكريمة في هذا الخلق النافع الجميل البهيج؛ من أنه مخلوق، يؤمن بالله، طائع منقاد له، يعبده ويسجد له في ذُلٍّ وخضوع، مثله في ذلك مثل السماوات والأرض والجبال وعباد الله المؤمنين، في إشارة إلى تناغم هذا الوجود المطيع لربِّه الخاضع لسلطانه، المنقاد لأمره في ذُلٍّ وخضوع وسجود[٢].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج: ١٨].

وبتدبُّر القلب هذا النص فإذا به حشد من الخلائق مما يُدرِك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا به حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وحشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله، وتتَّجه إليه وحده دون

(١) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٢٣.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٤٣.

سواه، تتَّجه إليه وحده في وحدة واتِّساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرَّق ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، فيبدو هذا الإنسان عجيباً في ذلك الموكب المتناسق، وهنا يقرِّر أن من يَحِقُّ عليه العذاب فقد حَقَّ عليه الهوان ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فلا كرامة إلا بإكرام الله، ولا عزة إلا بعزة الله، وقد ذُلَّ وهان من دان لغير الله[١].

ح ـ ثمرات مختلف ألوانها:

الثمار جزء من جمال الحدائق إن لم تكن أجمل ما فيها، حيث إنها من الألوان والأشكال ما يضفي على الحدائق جمالاً وبهجة، والثمار تختلف في ذلك من نوع لآخر، ومن صنف لآخر، بل تختلف حتى في الصنف الواحد، فألوان الثمار تتدرَّج وتزداد تدرُّجاً كلما دخل عليها يوم جديد، وهكذا إلى أن يكتمل جمالها باكتمال نضجها[٢].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في عواملها في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً، وتبدأ بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات المختلفات الألوان. وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه الرسامون في جميع الأجيال، فما من نوع من الثمار يُماثِلُ لونُه لونَ نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونُها لون

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤١٤.
(٢) الجمال الحسي في القرآن، ص١٧٤.

أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء في ظاهرهما، ومن ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية؛ ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك، حتى ما تكاد تُفرِّق من الثمار صغيرها وكبيرها.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ﴾، والجدد: الطرائق والشعاب، وهنا لفتة في النص صادقة، فالجُدَد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجُدَد عامةً مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون، والتظليل، والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد وغرابيب سود حالكة شديدة السواد، واللفتة إلى ألوان الصخور وتعدُّدها وتنوُّعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهزُّ القلب هزّاً وتُوقِظ فيه حاسّةَ الذوق الجمالي التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية؛ فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفة كلٍّ منهما في تقدير الإنسان، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك يستحق النظر والالتفات، ثم ألوان الناس وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل مُتميِّز في توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحد.

وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب أشمل، والأنعام أخفى، فالدابة كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصَّصها من الدواب لقربها من الإنسان، والألوان والأصباغ فيها كذلك معرض جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور السوداء.

هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين يفتحه القرآن ويُقلِّب صفحاته، ويقول إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والعلماء هم الذين يتدبَّرون هذا الكتاب العجيب ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثم يخشونه حقّاً ويتَّقونه حقّاً، ويعبدونه حقّاً؛ لا بالشعور الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر الذي يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾؛ عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء، غفور يتدارك بمغفرته من يقصّرون في خشيته وهم يرون بدائع صنعته[١].

● **تأثير «جيمس جينز» [٢] وتأثُّره بهذه الآية:**

هذه الواقعة رواها العالم الهندي المغفور له بإذن الله «عناية الله المشرقي»، يقول: كان ذلك يوم أحدٍ من عام ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور «السير جيمس جينز»، الأستاذ بجامعة كامبريدج ذاهباً إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه وسلَّمتُ عليه، فلم يَردَّ عليّ، فسلَّمتُ عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أريد أمرين يا سيدي؛ الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر، فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصِّيتِ في العالم مثلك لأن يتوجَّه إلى الكنيسة؟

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٩٤٢.

(٢) جيمس جينز James Hopwood Jeans (١٨٧٧ ـ ١٩٤٦): درسَ الرياضيات في جامعة كامبريج، وهو عالم بريطاني عمل في مجال الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك، ومن أشهر إنجازاته تعيين كتلة جينس وهي أقل كتلة لسحابة من الغاز والغبار الكوني يمكن أن يتكون منها نجم.

وأمام هذا السؤال توقَّفَ السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت السيدة جيمس في الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلتُ عليه غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر رَدِّي بدأ يلقي محاضرة عن تكوّن الأجرام السماوية ونظامها المدهش، حتى إني شعرت بقلبي يهتزُّ بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقَّف فجأة، ثم بدأ يقول: يا عناية الله، عندما أركع أمام الله وأقول: إنك العظيم، أجد أن كل جزء في كياني يُؤيِّدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكونٍ وسعادة عظيمتين، وأُحِسُّ بسعادة تفوق الآخرين ألف مرة، أفهمت يا «عناية الله خان» لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلامة «عناية الله» قائلاً: ولقد أحدثت المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثَّرتُ جدّاً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية في كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهزَّ رأسه بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨]. فصرخ السير جيمس: ماذا قلت؟! ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؟

مدهش، وغريب، وعجيب جدّاً! إن الأمر الذي كشفت عنه هو دراسة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب مُوحًى من عند الله. ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً: لقد كان محمد أميّاً، ولا يمكن أن يكشف

عن هذا بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السرِّ، مدهش وغريب جدّاً.

الخامس عشر: خلق الظلال:

هذا المخلوق اللطيف العجيب، إنه الظلال الذي خلقه الله وجعله آية من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته، حيث يسجل الله هذا الامتنان بهذه النعمة في آية النحل في:

١ ـ نعمة الظل:

في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١]. وقد قال القرطبي: الظلال كل ما يُستظَلُّ به من البيوت والشجر، وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ ﴾: يَعُمُّ جميع الأشخاص الـمُظِلَّة[١].

فالظلُّ نعمة تقي الإنسان حرَّ الشمس، ويَستبرد فيه ويَتَّقي به لهيبها وشعاعها، كما أنه وسيلة توقيت يعرف بها الإنسان مراحل النهار؛ فيقيس بالفيء ـ وهو امتداد الظل ـ حركة الشمس، وأوقات الصلاة النهارية؛ الظهر والعصر، وبه تُعرف أوقات النهي وصلاة الضحى.

ويتحدث الله سبحانه عن حركة هذا المخلوق اللطيف، وكيف أنه سبحانه يحركه بلطفه وقدرته ويَمدُّه ثم يقبضه، ممتنّاً لكل تلك الحركة العجيبة الهادئة، مذكراً بأنه سبحانه القادر على جعله ساكناً لا حراك فيه.

٢ ـ إعجاز الله في خلق الظل

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٠/ ١٥٩.

شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؟ هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أيّ لولا أن الشمس تطلع عليه لما عُرف، فإن الضِّدَّ لا يعرف إلا بضِدِّه، وقوله تعالى: ﴿يَسِيرًا﴾ أي سهلاً، وقيل سريعاً، وقيل قبضاً خفيفاً حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلَّتِ الشمس ما فوقه(١).

إنه تعبير يدعو إلى التأمل ويقظة الحِسِّ لتلك الحركة التي لا تُخطئها عين، ومتابعة خطوات الظل في مدة انقباضه يشيع في النفس نداوة وراحة، كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة وهي تتبّع صنع الباري اللطيف القدير، وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب، وهي تطول وتطول، وتمتد وتمتد، ثم في لحظة واعدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعاً، لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال.

وإن بناء الكون المنظور على هذا النسق، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذي جعل الظل متحركاً هذه الحركة اللطيفة، ولو اختلف هذا النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره في الظل الذي نراه، ولو كانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لا يمتد ولا ينقبض، ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي عليه لكان الظل في امتداده وقبضه أبطأ وأسرع، فتنسيق الكون المتطور على ناموسه هذا هو الذي يسمح بظاهرة الظل، ويمنحها خواصَّها التي نراها.

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التي نراها كل يوم، ونمرُّ بها غافلين، هو طرف من منهج القرآن في استحياء الكون دائماً في ضمائرنا، وفي إحياء شعورنا بالكون من حولنا، وفي تحريك خوامد إحساسنا التي أفقدها طول الأُلفة إيقاعَ المشاهد

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٢٠.

الكونية العجيبة، وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب[١].

٣ ـ الظل الساجد:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى هذا المخلوق اللطيف «الظل الساجد» لله عزَّ وجلَّ، والآية الكريمة دعوة مباشرة للتأمل والتدبر في تلك الحركة العجيبة التي يتوقف اهتمام الكثيرين بها عند حد الاتقاء بها من حر الصيف اللاهب، إنه المعنى الإيماني الذي تُعبِّر عنه حركة الظل، معنى الخضوع والسجود لله الواحد الأحد في انسجام تام بين مخلوقات هذا الكون الساجد لربه الخاضع المنيب له سبحانه[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥].

يُخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها؛ جماداتها وحيواناتها، ومكلَّفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ـ أي بكرة وعشيّاً ـ ساجد بظلِّه لله تعالى، قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عزَّ وجلَّ.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون، وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيئُهُ، وذكر الجبال قال: سجودها فيئُها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته[٣].

وقال القرطبي: ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تَبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريف الله إياها على

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٥٦٩.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٥٤.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره[١].

فبئساً لهذا الكافر الذي ينطق كل ما حوله بالوحدانية ويظل في عناده وشذوذه البائس عن هذا الكون في عبادته لله الواحد الأحد، حتى ظله الذي يطبع شكله على الأرض ويتبعه في كل مكان.

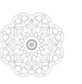
إن هذا المعنى العظيم لسجود الظل يستحق من كل عاقل الوقوف أمامه معلناً عبوديته لله، وبراءته من كل جحود أو استكبار عن عبادته سبحانه، أو الذل له، ومظهراً حاجته لفقره لمعبوده الذي يسجد له كل شيء، حتى الظلال.

وقد كرر الله ذكره في أكثر من آية في موضوع من الامتنان العظيم الذي امتنَّ الله به على عباده، فها هو موسى عليه الصلاة والسلام يسجّل الله رحلته من مصر إلى مدين التي لاقى فيها من العنت والشدة ما لاقى، وبعد أن سقى للمرأتين يأوي إلى ظل شجرة وارفة مسلِّماً أمره إلى الله، طارحاً شكواه بين يديه في أدب ولطف، قال سبحانه: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

ويتوالى ذكر امتنان الله بنعمة الظل في قصة قوم موسى عليه السلام، وهو ظل ليس من نوع الظل الذي استظلّ به موسى عليه السلام، ولكنه ظل لطيف آخر؛ إنه ظل السحاب البارد اللطيف، يقول سبحانه: ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٩/ ٣٠٢.



٤ ـ الإهلاك بالظل :

الظل كما كان لبني إسرائيل نعمة ورحمة ومنّة من الله، فقد كان لغيرهم عذاباً وهلاكاً، والله سبحانه يخلق الشيء وضِدَّه، يخلق من الشيء أضداداً بمنتهى حكمته وبالغ فضله وكرمه؛ ليعلم الناس أنه على كل شيء قدير. والظلُّ خَلْقٌ من مخلوقات الله، وجندي من جنوده المنقادين لأمره، فيجعله الله رحمة لقوم وعذاباً لآخرين، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فقد كان الظل عذاباً لقوم شعيب أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجر الملتف الكثير الظلال، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٧٨]، إلى قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن عباس: أصابهم حرٌّ شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صِيح بهم فهلكوا، وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم وألهبها حرّاً حتى ماتوا من الرَّمد[١].

وقيل: وسلَّط الله عليهم الحرَّ حتى أخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظلٌّ ولا ماء، فكانوا يدخلون الأسراب ليتبرَّدوا فيها فيجدونها أشدَّ حرّاً من الظاهر، فهربوا إلى البرّية، فأظلَّتهم سحابة ـ وهي الظُّلة ـ فوجدوا برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا[٢].

فالظِّل في الدنيا رحمة لعباد الله المؤمنين، ونعمة من النعم التي خلقها الله وسخّرها للناس أجمعين، لكنه يتحول بإرادة الله وقدرته عذاباً وجحيماً على العاصين الكافرين المنكرين لوحدانيته، المعارضين لرسله[٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٥٧.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٣/ ١٣٥ ـ ١٣٧، بتصرف.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٥٨.

٥ ـ الظلال في الآخرة :

ذكر الله الظلال في صور نعيم الجنة التي يُنعِم الله بها على عباده في ذلك المستقَرِّ الكريم، بل جعل ذلك من أخص خصائص الجنة، حين قال سبحانه : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة : ٣٠].

وقال عز وجل : ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد : ٣٥].

فالجنة ظِلُّها لا يزول ولا يقلَّص، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء : ٥٧].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «**إنَّ في الجنَّةِ شجرةً يسيرُ الرَّاكبُ المجدُّ الجوادَ المضمرَ السَّريعَ في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يَقطَعُها، ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾**»[1].

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات : ٤١].

وقال : ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس : ٥٦].

وقال تعالى : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان : ١٤].

وحينما يُحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة، وتدنو منهم الشمس، ويزول كل مُلكٍ وسلطان غير ملك الله وسلطانه، لا يبقى إلا ظِلُّ عرشِه العظيم يَستظِلُّ به المؤمنون الذين سبقت لهم الحسنى في أمان الله، ويبقى غيرهم في عرقهم يسبحون في كرب شديد وهول عظيم، كما في الحديث الصحيح؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**سبعةٌ يُظلُّهُمُ الله في ظلِّهِ يَومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ**»[2].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٢٠.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٥٨.

وفي مقابل ذلك يُحرَم من هذه النعمة أهل النار، أعاذنا الله وإياكم منها، ويُصبح ظلُّهم دخاناً ولهباً، لا بارد يُستظَلُّ به، ولا كريم في رائحته يُستأنَسُ به، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣١].

وهو ظِلُّ دخانِ جهنَّمَ، يبدو في ظاهره ظِلاًّ وهو دخان كريهٌ لاهب، قال تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤٣ ـ ٤٤].

❊ ❊ ❊

فيتحول هذا الكائن اللطيف إلى عذاب على من عصى الله وخالف أمره[١].

❊ ❊ ❊

هذا وقبل الشروع في قصة آدم عليه السلام رأيت أن أتحدَّثَ عن بعضِ المخلوقات التي خلقها الله عزَّ وجلَّ قبل آدم، وقد تحدث الدكتور محمد بن عبد الله الخرعان بنوع من التفصيل في كتابه (قصة الخلق)، وإن كنت استفدت من الكتاب إلا أنني رجعت لمصادر متخصصة أخرى، وتركت الحديث عن الملائكة والجن والشياطين والجَنّة مستقلة، وإنما سيأتي الحديث عن هذه المخلوقات عند دخولي في الكتابة عن قصة آدم عليه السلام، فقد كان الحديث عن معالم الخلق في القرآن والسنة، وأنه هدي نبوي، وأن بداية الخلق ليست غامضة، وأن الله هو الأول، وقد تحدَّى الملحدين، وأنه سبحانه خلق كل شيء فقدّره تقديراً، ولم يزل خلاقاً عليماً قديراً، وأنه سبحانه غني عن خلقه، وله صفات الكمال والأسماء الحسنى، وقد أشرت فيما مضى إلى أن الخبر عن الله جلَّ وعلا ورسوله ﷺ مصدر المعرفة ببدء الخلق، وبيَّنت أول مخلوقات الله وآراء العلماء في التقديم والتأخير، وبدأت بـ:

ـ خلق العرش والكرسي.

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٦٠.

ـ وخلق الماء، والقلم، واللوح المحفوظ، والزمن، والأرض، والجبال، والسماوات، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنجوم، والرياح، والشجر، والظلال، قبل الكتابة عن آدم عليه السلام. وعشت مع الآيات القرآنية مُتأمِّلاً ومُتدبِّراً ومُتفكِّراً، ورأيت عظمة الله من خلال آياته القرآنية والكونية. وتبين لي أن كل مخلوقات الله عزَّ وجلَّ في الوجود تسبح بحمد الله، وكلٌّ عَلِمَ صلاته وتسبيحه، وكل ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله.

ـ كل شيء يسبح بحمده:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكل شيء في الوجود يسجد لله[١]. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، وإن الآية الكريمة تُبيِّن أن الجميع يسجد لله، جميع دواب الأرض والسماوات والملائكة، والآية التي قبلها فَصَّلت وعَمَّمت. سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

❊ ❊ ❊

(١) خليفة الله في الأرض الإنسان من الخلق إلى البعث، عبد الحافظ سلامة حافظ، ص٦٥.



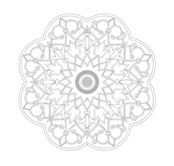
الفصل الثالث

حديث القرآن الكريم عن آدم عليه السلام

وردت قصة بدء الخلق وخلق أبينا آدم عليه السلام في القرآن الكريم، الذي هو أكمل وأعظم مصدر تاريخي حفظ لنا تلك المرحلة التأسيسة من الخلق وبداية الحضارة الإنسانية الأولى منذ انتقال آدم من الجنة إلى الأرض ومرحلة العمارة الأولى. وقد وردت غالب تفاصيل قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه...

* * *





المبحث الأول

قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٩].

أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكتَه بأنه سيجعل خليفة في الأرض، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً بعد جيل إلى ما شاء الله.

وذكر سبحانه وتعالى قصة آدم عليه السلام بعدما ذكر من الآيات الكريمة المتعلقة بأصل الإنسان، وبأن الله عزَّ وجلَّ خلق له ما في الأرض جميعاً، وملّكه

حقَّ الانتفاع بها، وأشار إلى خلق السماوات، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨ ـ ٢٩].

في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم، بل نُطفاً وعَلقاً ومُضَغاً مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه يُميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد هذه الأطوار الثلاثة الأُوَل ويُكذّب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتاً ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يُميتكم؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرَّد بالله؟ فكيف يقع منكم بعدما شهدتموه؟ ففي ضمن هذه الآية الاستدلالُ على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد[١].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، ٤/ ١٣٧.

بيان نعمة أخرى مرتَّبة على الأولى؛ فإنه خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وخلق لهم ما يتوقَّف عليه بقاؤهم، ويَتمُّ به معاشُهم، ومعنى «لكم» لأجلكم، ولانتفاعكم، وفيه دليل على أن الأصل في إباحة الانتفاع بالأشياء المخلوقة العموم حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها، مما يُنتفع به من غير ضَررٍ، وفي التأكيد بقوله «جميعاً» أقوى دلالة على هذا[١].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، أي: توجَّه إليهنَّ فدبّرهن بقدرته، وأتمّهن وأحكمهن وقوّاهن، وخلقهن سبع سماوات[٢].

وختم الآية: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أيّ: فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته بما ينفع الناس، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يَصحُّ له أن يُنكِرَ عليه أن يُرسل من يشاء من خلقه لهداية من يشاء من عباده؟[٣]

ثم ذكر سبحانه وتعالى معالم من القصة الحقيقية لخلق الإنسان، وعلاقته في خلقته وتكوينه بمخلوقات الله عزَّ وجلَّ من الملائكة والشيطان ومستقبله في الأرض... إلخ.

● **وإليك تفسير الآيات التي جاءت في قصة آدم في سورة البقرة:**

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]:

١ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾:

افتتح الله عزَّ وجلَّ الحديث عن قصة آدم عليه السلام بذكر اسم من أسمائه

---

(١) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، ٢/ ٩٠.
(٢) التدبر والبيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مرجع سابق، ١/ ٣٦٨.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٢٥١.

الحسنى، وهو الرب سبحانه وتعالى، ولذلك رأيت أن نعيش مع دلالات هذا الاسم العظيم وإيحاءاته لما له من الأثر في حياتنا ومعرفة أسرار الوجود وقصة الإنسان في هذا الكون، فـ «الرب» من أسماء الله الحسنى التي يُدعَى بها ويُمجَّد بها ويُقدَّس بها، وعامة ما جاء في ذكر هذا الاسم الكريم إنما جاء مضافاً إلى الخلق عموماً وخصوصاً؛ مثل:

- ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.
- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.
- ﴿رب الملائكة﴾.
- ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾، ونحو ذلك.

وورد ذكره في القرآن في أكثر من ٩٠ موضعاً؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]، وقوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦].

وقد ورد كثيراً في أدعية الأنبياء والصالحين قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ [١].

أ. معنى الرَّبّ:

قال ابن الأثير: يُطلَق «الرَّبُّ» في اللغة على المالك والسيد والمدبّر والمُربّي والقَيِّم والمُنعم، ولا يُطلقُ غير مضاف إلا على الله تعالى[٢].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٨٥.
(٢) النهاية لابن الأثير، مرجع سابق، ٢/ ١٧٩.

وقال الراغب: «والربُّ» في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التَّمام... ولا يقال «الربّ» مطلقاً إلا لله المتكفّل بمصلحة الموجودات.

نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨] (١).

وقال ابن كثير: «والربُّ» هو المالك المتصرِّف، ويُطلقُ في اللغة على السيِّد وعلى المُتصرِّف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى(٢).

ب ـ اسم الربِّ من أعظم الممادح التي مَجَّدَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه بها:

ومن ذلك:

ـ امتدح الله عزَّ وجلَّ نفسَه بأنه «رب العالمين»، والعالمون جمع عالَم، وكل ما سوى الله فهو عالَم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والنصوص المعرّفة بأنه رب العالمين كثيرة جدّاً، كما مدح نفسه بأنه ربُّ كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ـ تمجيده سبحانه وتعالى بأنه رب العرش العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ـ كما مدح نفسه بأنه ربُّ السماوات والأرض وما بينهما، قال عز وجل: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٨٤.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/٢٣.

ـ وامتدح الله نفسه تبارك وتعالى بأنه ربنا ورب آبائنا الأولين، قال سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

ـ وقال عن نفسه عزَّ وجلَّ أيضاً ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، و﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، قال عز وجل: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] [١].

ج ـ اسم «الربِّ» من أكثر الأسماء التي يُدعى بها الله عز وجل:

قال السعدي: والرب هو المُربِّي جميعَ عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخصُّ من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كان أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة[٢]. وهذا واضح وجَلِيٌّ فيما ذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وأوليائه الصالحين، حيث صدّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

ـ دعاء الأبوين عليهما السلام بقولهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ـ دعاء نوح عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥].

ـ دعاء موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٨٨.
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن التدبر والبيان، مرجع سابق، ٥/ ٤٨٦.

﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ـ دعاء يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١].

ـ دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ﴾ [آل عمران: ٣٨].

ـ دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ [ص: ٣٥].

ـ دعاء امرأة عمران في قولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥].

ـ دعاء عباد الله الصالحين في قولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٤].

وقولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥].

وكان رسول الله ﷺ يدعو كثيراً باسم الربِّ ويُمجِّده ويُعظِّمه به، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا أدُلُّكَ على سيِّدِ الاستغفارِ: اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إلهَ إلا أنتَ...**».

ـ وكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه يقول: «**اللهمَّ ربَّ السَّماواتِ وربَّ**

الأرضِ وربَّ العرشِ العظيمِ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، فالقَ الحبِّ والنَّوى، منزلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ...».

ـ وكان إذا افتتح صلاته من الليل قال: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ**».

ـ وكان ﷺ يدعو عند الكرب بقوله: «**لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيمِ، لا إله إلا الله ربُّ السماواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ**».

والنصوص الواردة في ذلك كثيرة، وهذا يدل على اختصاص هذا الاسم بمعانٍ عظيمة كريمة يتضمَّنُها هذا الاسم الكريم أو يستلزمها[١].

د ـ الربُّ والإله بينهما اجتماع وافتراق:

أي إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ وبيان ذلك أن يقال: إذا اجتمع «الربّ» و«الإله» في موضع ونصٍّ واحد فإنهما يفترقان في المعنى، حيث يتوجَّه معنى «الرب» إلى المالك المتصرِّف القادر الخالق المحيي المميت المتفرد بخصائص الربوبية.

و«الإله» يتوجَّه إلى المعبود المألوه الذي يجب أن يُوحِّده العباد بأفعالهم.

أما إذا افترقا حيث ذُكر كلٌّ منهما في موضع فإنهما يجتمعان بحيث يدلُّ أحدهما على معناه كما يتضمَّن معنى الآخر.

ـ مثال لحالة الاجتماع قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٣].

فذكر سبحانه هنا «رب الناس، إله الناس»، وهنا يتوجَّه معنى «الربّ» إلى

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٩١.

المالك المتصرِّف المحيي المميت الخالق البارئ المتفرِّد بصفات الربوبية، كما يتوجَّه معنى «الإله» إلى المعبود المألوه المُطاع.

ـ مثال لحالة الافتراق قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى في كثير من الأدعية القرآنية «ربَّنا، ربِّ»، فهنا يتوجه معنى «الإله» إلى معنى الألوهية والعبودية لله عزَّ وجلَّ، مع تضمّنه لمعنى الربوبية، ويتوجه معنى «الرب» إلى معنى الربوبية والملك والتدبير والخلق، مع تضمّنه لمعنى العبودية[1].

هـ ـ من آثار الإيمان باسمه سبحانه «الرب»:

إن حديث المولى عزَّ وجلَّ عن قصة آدم عليه السلام مبتدئاً بذكر اسم «الرب» عزَّ وجلَّ هي دعوة للتأمل في هذا الاسم العظيم وآثاره في خلقه، وفي هذا الإنسان المخلوق الجديد، وما يستلزمه هذا الاسم «الرب» سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات، ويتضمَّنُ تعريفَ الناس غايتَهم التي خُلقوا من أجلها، وتعريفهم ما ينفعهم وما يَضرُّهم، فكونه ربَّ العالمين لا يليق به أن يترك عباده سدًى هملاً لا يُعرِّفُهم بنفسه ولا بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرُّهم فيه.

فهذا هضم للربوبية ونسبة للرب إلى ما لا يليق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ـ الإقرار بربوبية الله عزَّ وجلَّ يقتضي ويستلزم توحيد الله عزَّ وجلَّ وعبادته لا شريك له، إذ إن الخالق لهذا الكون وما فيه، والمتصرف فيه بالإحياء والإماتة والخلق، والرزق، والتدبير، هو المستحق للعبادة وحده، إذ كيف يُعبد مخلوق ضعيف ويُجعل نِدّاً لله تعالى في المحبة والتعظيم والعبادة وهو لم يَخلق ولم

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٩٦.

يَملك لنفسه تدبيراً، فضلاً عن أن يَملكَه لغيره؟ وهذا ما احتجَّ الله عزَّ وجلَّ به على المشركين الذين أقرّوا بربوبيته سبحانه ولكنهم لم يعبدوه وحده، بل أشركوا معه غيره، وقد جاءت هذه الاحتجاجات الكثيرة في القرآن الكريم بأساليب متنوعة منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، فالآيات في هذا كثيرة جداً.

ـ الإيمان بصفة الربوبية لله عزَّ وجلَّ بمعنى الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا، إذ إن من صفات الرب سبحانه كونه قادراً خالقاً بارئاً مُصوِّراً، حيّاً قيُّوماً عليماً سميعاً بصيراً مُحسِناً جواداً كريماً مُعطِياً مانعاً، وقُلْ ذلك في بقية الأسماء والصفات[١].

إن ربوبيته سبحانه إنما تتحقَّق بكونه فعَّالاً مُدبِّراً مُتصرِّفاً في خلقه بعلم وقُدرةٍ وأنَّه يريد ويسمع ويُبصر، وذلك هو حقيقة الألوهية.

إن الرب هو القادر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، الضارُّ، النافع، المقدِّم، المُؤخِّر، الذي يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ويُسعِد من يشاء ويُشقي من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٩٨.

التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحُسنى[١].

ـ لما كان من معاني «الرب» أنه الذي يُربّي عباده وينقلهم من طور إلى طور، ويُنعم عليهم بما يُقيم حياتهم ومعاشهم، وهو الذي أحسن خلقهم وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فإن هذه المعاني من شأنها أن تُورث قلبَ العبد المحبةَ العظمى لربه سبحانه، وحبَّ ما يُحبُّه ومَن يُحبُّه، وبُغضَ ما يُبغضه ومَن يُبغضه، والمسارعةَ في مرضاته، وتعظيمه وإجلاله، وشكره وحمده الحمد اللائق بجلاله وعظمته وسلطانه وإنعامه.

ومن معاني «الرب» أنه المتكفل بأرزاق خلقه، وعنده خزائن السماوات والأرض، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميتُ وهو على كل شيء قدير، فإن هذه الصفات تورث قلبَ العبد العارف بربه سبحانه قوةً في التوكل عليه سبحانه في جلب المنافع ودفع المضارِّ، وفي تصريف جميع أموره؛ فلا يتعلّق إلا بالله تعالى، ولا يرجو إلا هو، ولا يخاف إلا منه سبحانه، إذ كيف يتعلّق بمخلوق ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فضلاً عن أن يَملكَه لغيره؟!

ـ ومن معاني الربوبية اختصاصه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضارِّ، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد ـ بما أودع الله في فطرهم من معرفة ربهم بهذه الصفات ـ يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملمّات، وينفضون أيديهم من كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثّر هذا في دعائه وقوة رجائه ولجوئه وتضرّعه لربه سبحانه، والوثوق بكفايته سبحانه وقدرته على قضاء حوائج عباده، ولذلك رأينا في أدعية أنبيائه سبحانه وتعالى وأوليائه تكرار الدعاء بقولهم «ربنا، ربنا»[٢].

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، ٢/ ٢١٢.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص١٠٠.

● ذكر الأسماء الحسنى التي اقترنت باسم الرب تبارك وتعالى:

ورد اقتران اسم الرب سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأسماء كريمة هي: الرحمن، الرحيم، الغفور، الغفار، العزيز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣].

وقال عز وجل: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وبتأمّل هذه الأسماء المقترنة باسم «الرب» تعالى نجد أن منها صفة الرحمة والمغفرة، وفي هذا تأكيد أن من أخصِّ صفات «الرب» عزَّ وجلَّ الرحمة والرأفة بعباده، وإنعامه عليهم، وإرساله الرسل إليهم، وإنذارهم وتبشيرهم، وهذه من لوازم التربية العامة، وأما التربية الخاصة من الله عزَّ وجلَّ لأوليائه فتكون بتوفيقهم، وحفظهم، ورعايتهم، وتربيتهم، فالرحمة والرأفة والمغفرة واضحة جلية في ذلك، والله أعلم.

وفي الآية: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦]. ورد اسم «العزيز الغفار» وصفة «العزة والغلبة» من موجبات الربوبية والسؤدد[١].

إن اقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، مطابق لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣]، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كلَّ شيء برحمته وربوبيته، مع أن في

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص١٠٣.

كونه ربّاً للعالمين ما يدل على علوِّه على خلقه وكونه فوق كل شيء[١]، كما مر معنا بيانه.

ـ «**الملائكة**»:

الملائكة جمع مَلَك، واختُلف في اشتقاقه؛ فذهب أكثر العلماء إلى أنه من الألوكة وهي الرسالة، وذهب أبو عبيدة إلى أن أصله من لاك إذا أرسل. وقيل: أصله من الملك وهو الأخذ بقوة، وقيل: مخفَّف من «مالك»، وقيل: سُمُّوا بذلك لتولِّيهم تدبير ما أمرهم الله به في السماوات كما يسمَّى من يتولَّى تدبير شؤون الناس في الأرض ملكاً، والقول بأن اشتقاق الاسم من الألوكة ـ وهي الرسالة ـ أقرب وأصوب من جهة اللغة والمعنى، أما المعنى الآخر فهو من صفاتهم عليهم السلام[٢].

والملائكة في الشرع هم أجسام عُلوية قائمة بأنفسها، قادرة بالقدرة الإلهية على التشكّل، ذوو قدرات خارقة لا حصر لها، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، مقرّبون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء[٣].

والذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أن الملائكة خَلقٌ من خَلقِ الله سبحانه وتعالى خلقهم لعبادته كما خلق الجن والإنس، وهم أحياء عقلاء ناطقون.

وعالم الملائكة غير عالم الجن والإنس، وإن كان الجميع خَلقَ الله، لكنه عالم كريم طاهر، اصطفاه الله في الدنيا لقربه ولتنفيذ أوامره الكونية والشرعية،

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٣٥.

(٢) في الملائكة المقربين، محمد عقيل، ص١٥.

(٣) الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم، المرابط بن محمد يسلم الشنقيطي، ص١٠٥.

وجعل الله الملائكة رسله وسفراءه إلى خلقه لإبلاغ وحيه، فأكرمهم الله بهذا، ووصفهم بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

فأبان الله بهذه الآيات حقيقة الملائكة، وأنهم خلق كريم خلقهم الله لعبادته، ورفع مقامهم وأكرمهم، لكنهم مع هذا الإكرام لم يخرجوا عن مقام العبودية ولا يستطيعون، ولو ادَّعى أحدهم ذلك مع علوِّ مقامه لعاقبه الله بالنار[١].

أ ـ منزلة الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد ولا يُقبَل إلا بتحقيقها، والقرآن الكريم مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم والأمر بالإيمان بهم والتحذير من الكفر بهم، وبيان أحوالهم مع الله ومع الناس، وبيان مراتبهم وأعمالهم؛ فتارة يُقرَنُ اسمُه باسمهم ويُجعلُ الإيمانُ به مستلزماً الإيمان بهم، وأن البِرَّ لا يُنال إلا بالإيمان بهم[٢].

ـ قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ـ وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص١٥.
(٢) المرجع نفسه، ص١٦.

ـ وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ـ وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ـ وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

ـ وقال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]. وغير ذلك من الآيات.

ـ وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمانُ أنْ تؤمنَ بالله، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيره وشرِّه**»[١].

والأحاديث في ذكر الملائكة كثيرة، قد ذكرتها في كتابي (الإيمان بالملائكة).

إن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره واجب إجمالاً، لا يَصِحُّ إيمان عبد إلا بذلك[٢].

وكلما ازداد الإنسان علماً بتفاصيل هذه الأمور لزمه من الإيمان بحسب ما بلغه من ذلك، وهو بذلك يزداد إيماناً[٣].

(١) صحيح مسلم، رقم: ٨.
(٢) في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

والإيمان الواجب يُنال بالعلم، فتعلُّم هذه الأمور على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم ومسلمة(١).

والإيمان المجمل بالملائكة يتضمن عدة أمور منها:

- الإقرار بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله، خلقهم لعبادته، وهم رسل الله إلى خلقه بما شاء من وحي وغيره، وأن وجودهم حقيقي، وعدم رؤيتنا لهم لا تدل على عدم وجودهم؛ فقد رأى النبي ﷺ بعضهم بصورته الحقيقية، ورآهم الأنبياء والصالحون والصحابة وهم متشكّلون بصورة البشر(٢).

- إنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله، وإثبات أنهم عباد لله، مأمورون مكلّفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأن الله أكرمهم، ورفع مقامهم عنده، وفضّل بعضهم على بعض، وهم مع هذا لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً من دون الله، وإذا كانوا كذلك فلا يجوز أن يُصرَفَ لهم شيء من أنواع العبادة، فضلاً عن أن يُوصفوا بصفات الربوبية.

- الإيمان بما ورد في حقهم من الكتاب والسنة.

- الإيمان بمن سَمَّى الله لنا منهم، فنقرّ بهذه الأسماء، وأن لله ملائكة؛ منهم

---

(١) في الملائكة المقربين، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) الإيمان بالملائكة، علي الصلابي، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١، ص١٨.

جبريل وميكائيل، فكل من سمى الله لنا واجب علينا الإيمان باسمه، ومن لم يُسَمَّ لنا نؤمن به إجمالاً[١].

فهذا هو الإيمان المجمل بهم عليهم السلام، وهو فرض عين على كل مسلم، ويجب عليهم أن يتعلموا هذا ويعتقدوه[٢].

ـ خلق الملائكة:

قال رسول الله ﷺ: «**خُلقتِ الملائكةُ مِن نورٍ، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلقَ آدمُ ممَّا وُصفَ لكم**»[٣].

وأما متى خُلقوا، فالله تعالى لم يُخبرنا بذلك، ولكننا نعلم من خلال سياق الآيات أن خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر عليه السلام، فقد أخبرنا الله أنه أعلم الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة[٤].

ـ أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان:

للإيمان بالملائكة أثر في حياة المسلم يتمثل بما يأتي:

ـ إن الإيمان بالملائكة يُقوِّي الشعور لدى المسلم بعظمة الله عزَّ وجلَّ، فالملائكة ـ كما يتضح من صفاتهم ووظائفهم في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ـ خلق عظيم؛ عظيم في القدرة، عظيم في السرعة.

وهذه العظمة تعكس عظمة الباري سبحانه وتعالى، فهو الله الواحد الأحد، بديع السماوات والأرض، ولا يعدو الملائكة أن يكونوا جنداً من جنوده لتنفيذ أمره وعبادته سبحانه[٥].

---

(١) في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص٢٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٢١.
(٣) صحيح مسلم، ٤/ ٢٢٩٤.
(٤) الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٨.
(٥) العقيدة الإسلامية، أحمد الجلي، ص١٧٨.

والمقصود أن العلم بهذه المخلوقات العظيمة ـ وهي ملائكة الرحمن عليهم السلام ـ والتدبُّرَ في صفاتهم التي أخبرنا بها في القرآن، وثبتت في السّنّة، يجعل القلب مضطرّاً إلى تعظيم خالقه وهيبته، وخوفه ورجائه، فإن خالق هذه المخلوقات العظيمة ـ ولا شك ـ يستحق أن يعبد وحده سبحانه وتعالى، وأن يُتَّقى بأن يُذكَر فلا يُنسى، ويُطاعَ فلا يُعْصَى[١].

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٤ـ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعٗا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد احتج العلماء بأحوال الملائكة مع الله عزَّ وجلَّ على وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وتعظيمه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وهذه الآية قيل إنها تقطع عروق شجر الشِّرك، وهذه الآية تُبيِّن حالَ الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى، وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يُدعون مع الله لا استقلالاً ولا واسطة، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى ألَّا يُدعَى ولا يُعبَد، ففيه الرد على المشركين جميعاً الذين يدعون مع الله من لا يُداني الملائكة ولا يُساويهم في صفة من صفاتهم[٢].

ـ تحقيق الإيمان: فمن آمن بالملائكة فقد حقَّق ركناً من أركان الإيمان،

---

(١) في الملائكة المقربين، محمد عقيل، مرجع سابق، ص٢٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٠.

ويلزمه أن يأتي ببقية الأركان، والكفر بهم ـ ولا شك ـ كفر بالله يُوجِب زوال بقية الأركان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ـ معرفة الكثير من أسرار الكون والخلق، ما يزيد الإيمان في قلب المؤمن، فيتعرف الإنسان على كثير من أسرار الكون إذا تدبّر الآيات التي ذَكرَ الله فيها الملائكةَ وما وُكّلوا به من أعمال، فينشرح صدره، ويزداد إيمانه، فإذا رأى السحاب عرف أن له ملائكة تسوقه، وهذه الجبال لها ملائكة تتولاها كذلك، والنطفة في الرحم، والميت في قبره ستأتيه، ويوم القيامة سيرى الملائكة، فيحبهم ويزداد خشية وتعظيماً[١].

ـ الحصول على الأمن والطمأنينة؛ فالأمن في الدنيا، والطمأنينة والحياة الطبيعية في الدنيا والآخرة متوقفة على تحقيق الإيمان بالملائكة عليهم السلام.

وهناك أمن آخر وطمأنينة حسية في الدنيا تحصل لمن حقق الإيمان بالملائكة؛ وذلك أن الإنسان إذا عرف أن الله تعالى قد وكّل به ملائكة يحفظونه بأمر الله ويحفظونه من أعدائه، اطمأنت نفسه، وسكن قلبه، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وعلم أنه إن ذكر الله ببعض الأذكار المشروعة؛ كآية الكرسي، وسورة الإخلاص، والمعوذتين، ونحو ذلك أرسل الله تعالى ملائكة يحفظونه من أعدائه، وتوكّل عليه، وابتعد عما لا ينفعه من الذهاب إلى الكهان والسحرة ونحوهم، لأنهم لا يزيدونه إلا خوفاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وأينما كنتَ وأينما توجَّهتَ في بَرٍّ أو بحر، وأرض أو سماء، وليل أو نهار، فإن معك ملائكة لا يفارقونك أبداً، فاحرص على الأذكار المشروعة حتى

---

(١) في الملائكة المقربين، المرجع نفسه، ص٢٣٢.

تحصل على الأمن والطمأنينة، ولذلك أرسل الله الملائكة إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه في الغزو لتثبيتهم، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٢].

ـ الإيمان بالملائكة يعزّز الشعور بمركز الإنسان الكبير في الكون؛ فالملائكة الذين هم أشد منا قوة وأقوى سريرة قد أمروا بالسُّجود لآدم عليه السلام، وسُخّروا لتدبير أمور حياتنا في الدنيا والقيام بشؤونها في الآخرة، وفي هذا تنبيه للإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض لكي يعرف قيمته وقدره، وأن يتصرف بناء على ذلك، فيسلك الصراط المستقيم، ويتجنب طريق الغواية والضلال، وقد قال الشاعر:

قَـدْ رَشَّحـوكَ لأمـرٍ لـو فَطِنـتَ لـه ... فَارْبَأ بنَفْسكَ أنْ تَرعَى مع الهَمَلِ[١]

ـ الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى التشبُّه بهم؛ في الإقدام على الطاعات والابتعاد عن المعاصي، فحينما يعلم الإنسان أن الملائكة يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يحمله ذلك على التشبّه بهم، والسير على نهجهم، فتقوى بذلك روحه المعنوية، ويتدرَّج في مدارج الكمال، وقد نبّه الإمام الغزالي إلى هذا المعنى في بيانه لأسرار العبادات؛ ففي بيانه لأسرار الصوم قال: إن المقصود به الاقتداء بالملائكة في الكفِّ عن الشهوات بحسب الإمكان؛ فإنهم منزّهون عن الشهوات... وكلما

---

(١) الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٥٨.

قمع الإنسان الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين، والتحق بأفق الملائكة.

والملائكة مُقرَّبون من الله عزَّ وجلَّ، والذي يقتدي بهم ويتشبَّه بأخلاقهم يَقرُب من الله عزَّ وجلَّ كقُربهم، فإن الشبيه من الشبيه قريب. وفي بيانه لأسرار الحج يقول: واعلم أنك بالطواف متشبّه بالملائكة الحافّين حول العرش الطائفين حوله[١].

ـ إن الإيمان بالملائكة يدفع الإنسان إلى الاستحياء من الله تعالى، والبعد عن معصيته في السر والعلن، فإذا آمن الإنسان بأن الملائكة تغشاه في مجالسه وتتولى كتابة أعماله، وأنهم يتعقّبونه في صحوه وغفلته، وفي سفره وحضره، فلن يستسهل الإقدام على المعصية أو اقتراف الخطيئة، وقال الشاعر:

ولكلِّ عبد حافظانِ لكلِّ ما ... يقعُ الجزاءُ عليهِ مَخلوقانِ
أُمرا بكَتْبِ كلامِه وفعالِه ... وهما لأمر الله مُؤتمران[٢]

ـ الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم:

حين يتذكر الإنسان ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها، ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الآخرة، ويكفيه منها الحلال الطيب الذي أباحه الله عزَّ وجلَّ.

ـ عمل الحساب للآخرة:

حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين في الجنة، وتعذيبهم للكفار في النار، فيحبّ أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه، ووقاهم عذاب السَّموم[٣].

إن الإيمان بالملائكة له أهميته في حياة الإنسان، ولذلك جاء ذكرها في بداية

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ١/ ٢٦٩.
(٢) الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص١٦٠. نونية القحطاني، ص١٦.
(٣) ركائز الإيمان، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٨٨.

قصة آدم عليه السلام، وأخذت حيِّزاً من الحديث الرباني عنها في كتاب الله عز وجل؛ لترسيخ الإيمان بهم، وتجدد المحبة والمودة والصحبة مع عباد الله الأبرار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يربطنا بهم تحقيق العبودية الخالصة لخالقنا العظيم(١).

إننا نجد الكثير من المسلمين لا يهتمون بتفاصيل الإيمان بالملائكة، وإنما يكتفون بكلمات عامة يطلقونها، وإذا ذهبنا في الاتجاه المعاكس نرى اهتمام الناس بالكتب التي تتحدث عن الشياطين والجن والسحر والعين والحسد... إلخ، ولا يمكننا المقارنة من حيث الكَمِّ بين المؤلفات التي تتحدث عن الملائكة وغيرها من الأمور التي ذكرتها؛ فإن الكتب التي أُفردت للحديث عن الملائكة لدى الكتّاب المعاصرين قليلة جدّاً، على حسب علمي واطلاعي، كما أن حديث العلماء والدعاة والفقهاء وطلاب العلم وأهل الفكر والثقافة في وسائل الإعلام؛ كالفضائيات وغيرها، عن الملائكة نادر من حيث التفصيل والتوضيح والبيان، مع أن لهم صلة قوية بالإنسان قبل مولده، وأثناء حياته، وعند مماته، وفي داره البرزخية، وعند البعث والحياة الآخرة، ولهم في كل المراحل أعمال يقومون بها.

والملائكة المقربون هم أصحاب الدعاء العظيم لأهل الإيمان الذي ذكره الله لنا في كتابه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ـ٩].

(١) الإيمان بالملائكة، الصلابي، مرجع سابق، ص٧.

فهذا الدعاء من الملائكة المقربين لأهل الإيمان من بني الإنسان، الذي تقشعر منه الأبدان، يحتاج لتأمل وتفكر وتدبر.

وعلى المسلمين أن يجدِّدوا علاقتهم الإيمانية بالملائكة، فالكثير منا أصابه ضعف وفتور، وربما النسيان، في علاقته بالملائكة، وهذا من وساوس إبليس وطرقه الخبيثة لكي يجعل الناس يلهثون خلف الشياطين والسحرة... إلخ، ويتركون من جعلهم الله سبباً في حمايتهم من المخلوقات الشريرة وغير المنظورة، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي: وهو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء. ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بَدَنَ الإنسان[١]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق: ٤]، أي: حافظ يحرسها من الآفات[٢].

٣ ـ ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾:

عبّر سبحانه وتعالى عن الأمر المستقبلي باسم الفاعل «جاعل» الدال على الثبوت والاستقرار، ولم يعبّر بالفعل المضارع «سأجعل» الدال على ما سيحدث؛ لأن الأمر ثابت مستقِرٌّ مفروغ منه ولا رادَّ له، لأن ما أراده الله واقع، فبما أنه سبحانه قدّر ذلك وأراده فقد اختار له كلمة تدل على الإنجاز والتحقيق، ولذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ﴾. والمراد بالأرض في الآية الأرض المعروفة التي خلقها الله وهيّأها وجهّزها لحياة الخليفة عليها، بما فيها من مظاهر الحياة المختلفة.

---

(١) صحيح تفسير ابن كثير، العدوي، ٢/ ٢٧.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٦٢٥.

وتدل جملة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ على أن هذا الخليفة ستكون إقامته في الجنة مؤقتة ؛ لأنه لم يُخلق للإقامة فيها في الفترة الأولى من حياته، إنما خُلق ليكون خليفة في الأرض، وليسكن في الأرض وليعمرها ويصلحها.

قال الله هذا القول للملائكة من باب الإعلام والإخبار، أي إنه أخبرهم بما سيفعله سبحانه ليكون عندهم علم وخبر به[١]، وليس للاستئذان من الملائكة، فإنه ليس لأحد من الخلق مع الله شراكة في شيء من شؤونه، فهو سبحانه وتعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

كما أن هذا الإعلام ليس للمشورة؛ لأن الله تعالى منزّه عن الحاجة إلى المشورة، لأنه إنما يطلب المشورة من غيره من قد يخفى عليه وجه الصواب فيما يطلب فيه المشورة، والله عن كل هذا مستغنٍ، لأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]. قد علم ما كان على أي وجه كان وما يكون كيف يكون، وهو بكل شيء عليم، إذن فالمقصود من هذا الإعلام بخلق آدم هو تكريم الله تعالى ملائكته بهذا الإعلام، ثم هو أيضاً تنويه بهذا المخلوق ؛ أي آدم عليه السلام.

ولا يمنع أن تكون مع هذه الحكمة حكم أخرى؛ كإطلاع الملائكة على ما خفي عليهم من حكمة خلق آدم عليه السلام، ليكون منهم السؤال عن وجه الحكمة من خلق مَن شأنه الإفساد في الأرض، ويكون من الله إحاطتهم علماً بحال هذا المخلوق بما لم يكونوا يعلمون[٢].

قال القرطبي: قال أرباب المعاني: خاطب الله الملائكة لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما فيهم من رؤية الحركات، والعبادة، والتسبيح، والتقديس، ثم

(١) سيرة آدم، صلاح الخالدي، ص٤٣.
(٢) قصة آدم، عمر إيمان، ص٦٣.

ردهم إلى قيمتهم فقال عز وجل: ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] [١].

وقال ابن عاشور: قال المفسرون: وقول الله موجَّه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليُشوِّقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجهٍ يُزيل ـ بما علم الله أنه في نفوسهم ـ من سوء الظَّنّ بهذا الجنس... ولتنبيه الملائكة على ما دقّ وخفي من حكمة خلق آدم[٢].

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت تلك الشجرة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض؟ وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى.

ثم قال: ولعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، وتدريباً على تلقّي الغواية، وتذوّق العافية، وتجرّع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين، أي إلى جناب الله عز وجل[٣].

أ ـ معنى خليفة:

في الاستعمال القرآني ترد كلمة «خليفة» بالمفهوم الحياتي البنائي الشامل، فمهمة الإنسان عمارة الأرض، ولهذا خُلق: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

ـ ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، الملائكة ظنوا أنفسهم أهلاً للخلافة بالتسبيح والتقديس، فكشف لهم أن المهمة لا تتمُّ بمجرد هذا؛ هي مهمة البناء، والكدح، والأعباء، مهمة لا يقوم بها إلا من كان مخلوقاً من الأرض، المهمة

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ٢٦٣.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٨٤، ص٦٤.
(٣) في ظلال القرآن، السيد قطب، مرجع سابق، ١/ ٣١.

منوطة بمن أصله الطين والتراب والماء، الخلافة في الأرض هي عبادة آدم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالصلاة والذكر وإصلاح الأرض والضرب فيها وكشف أسرارها؛ أعمال صالحة تتعاضد وتتكامل.

ـ «الخلافة» لا تكون إلا حين يكون هذا الكائن يخلف بعضه بعضاً في عبادة تراكمية اختيارية، تقوم على تلك الأمانة العجيبة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها فحملها الإنسان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ـ الخلافة تقوم على حرية إرادة هذا الكائن وحرية اختياره؛ ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

ـ الخلافة والاستعمار في الأرض تجعل الكشف والبناء والعلم والاختراع لخدمة الإنسانية مهمة ربانية وليست أمراً هامشياً أو ثانوياً.

ـ الإنسان خُلق ليُستخلف، وليس ليكون نسخة أخرى من الملائكة.

ـ والاستخلاف هو عمارة الأرض بحسب نظام الله، والتسبيح والذكر عونٌ ومددٌ لإنجاز المهمة والصبر على تبعاتها وتكاليفها ومشقاتها، والصلة بالله هي للأمل والحب والتسامح والنجاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

ـ ليست الخلافة مهمة سياسية فحسب، بل هي تكليف معرفي وإنساني واسع. الله حاضر لا يغيب، وفي حديث السفر: «**اللهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَرِ والخَليفَةُ في الأهل**»[(١)].

ـ الإنسان ليس خليفة عن الله، بل هو خليفة من الله[(٢)].

ـ إن جمهور المختصِّين ذهبوا إلى أن المراد بالخليفة في الآية المذكورة آدم وذريته، والمستخلِف لهم هو الله عز وجل[(٣)].

---

(١) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، ص٩٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٩٤.
(٣) لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان، ص١٣٢.

ـ ليس المقصود بالخليفة شخصَ آدم فقط، بل المقصود به نوع الإنسان عامة، فالآية جاءت في معرض الإخبار بخلق نوع جديد وليست في معرض البيان لأحوال خاصة بشخص آدم.

ـ هذه الخلافة في الأرض تتطلب تنفيذ مراد الله في إقامة الحياة على الأرض، إذ من معاني الاستخلاف التكليف بتنفيذ الأوامر التي تصب في تعمير الأرض وتَحقُّق عبودية الله عزَّ وجلَّ، والاستخلاف في هذا المقام هو استخلاف تشريف للخليفة[١].

ـ إن غاية حياة الإنسان هي إذن في نطاق عقيدة الخلافة، أن يقوم بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه، بحيث يكون في كل مَنشَطٍ مادي أو معنوي مُتَّجهاً إلى الله تعالى؛ يستجلي مراده ويتحرّاه ويبتغي مرضاته، ويجدّ في الفوز بها، وبهذا المعنى تكون حركة الإنسان على الأرض في كل اتجاهاتها الفردية والجماعية والمادية والمعنوية حركة عبادة لله تعالى[٢].

ب ـ أصل البشرية:

ـ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يؤكد هذا النص القرآني الكريم أن أصل البشرية كلها زوج واحد خلقه ربُّنا تبارك وتعالى خلقاً خاصّاً بـ «الخليفة»؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، وبالبلايين الذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة.

وهذا من معاني لفظ «الخليفة»؛ لأن البشر يخلف بعضهم بعضاً على الأرض، ولأن كل فرد منهم مستخلَف من الله تعالى على الأرض استخلافَ تكريم وتشريف مع الابتلاء والامتحان لكل فرد من بني الإنسان.

---

(١) فقه التحفيز الإسلامي، عبد المجيد النجار، ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٢.

وحقيقة الخلق الخاص للإنسان طمرتها الحضارة المادية المعاصرة تحت ركام فكرة «التطور العضوي»، وهي فكرة أشاعها عدد من شياطين الإنس للتخلُّص من الإيمان بالخلق ومن السُّجود للخالق عزَّ وجلَّ في طاعة وعبودية كاملتين. وقد أغواهم الشيطان بذلك عن طريق السجل الأحفوري الذي يشير إلى قدم الحياة على الأرض (نحو ٣٨٠٠ مليون سنة)، وإلى قصر سلالة الإنسان عليها (نحو أربعين إلى خمسين ألف سنة فقط)، وإلى تدرُّج عمارة أرضنا بموجات متتابعة من صور الحياة، التي بدأت بقلّة من العدد وببساطة من البناء والتركيب، ثم تزايدت عدداً وتعقّدت بناء وتركيباً مع الزمن، على الرغم من عدم تكامل السجل الأحفوري وكثرة الثغرات به.

وهذه الملاحظة العلمية الصحيحة استخدمتها الحضارة المادية المعاصرة في محاولة يائسة لنفي عملية الخلق، والتنكُّر للخالق سبحانه وتعالى، انطلاقاً من ادعاءات ثلاثة:

أولها: الادِّعاء الباطل بعشوائية تخلّق الصورة الباكرة للحياة، وقد أثبت العلم استحالة ذلك.

وثانيها: الادِّعاء بعشوائية التدرُّج في تتابُع الحياة، علماً بأن هذا التتابُع يسير دوماً إلى تكامل في الخلق، والعشوائية تعجز عن تحقيق ذلك التكامل.

وثالثها: الادعاء الباطل بأن الإنسان منبثق عن سلسلة الحياة الحيوانية السابقة على وجوده، وهذا ما لم يستطع أحد إثباته من أدعياء التطور العضوي حتى اليوم؛ وذلك لتميُّز الصفات التشريحية والوراثية الخاصة بالإنسان عن جميع المخلوقات السابقة على وجوده، مع التسليم بوحدة البناء في الخلائق جميعاً، وهي تشهد على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى. وإذا أضفنا إلى ذلك الذكاء الواضح في الإنسان، وقدراته الذهنية الحاضرة، وتمكّنه من الإدراك والشعور والانفعال بدرجات متميزة، ومن التعبير عن انفعالاته ومشاعره

بوضوح، ومن النطق بالكلام المنطقي المرتَّب، بالإضافة إلى قدرته على اكتساب المعارف وتعليمها، وعلى إتقان المهارات وتوريثها، وغير ذلك من القدرات التي اختصَّ بها الله تعالى الإنسان، يتَّضح زَيفُ المحاولات البائسة لربط الإنسان بسلسلة الحيوانات السابقة على وجوده.

ومن أبرز الأدلة على نفي الفكرة الخاطئة التي تنادي بأن الإنسان متسلسل عما قبله من الحيوانات هو حقيقة التسلسل الوراثي الذي ينتهي بنسب البشر جميعاً إلى أب واحد وأم واحدة؛ هما اللذان وصفهما ربنا تبارك وتعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين بقوله العزيز: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأكد ربنا تبارك وتعالى حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفسٍ واحدةٍ فقال عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

ـ كذلك أكد الله الخالق سبحانه وتعالى خلافة البشر بعضهم لبعض وهم من أصل واحد، فقال وقوله الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويؤكد القرآن الكريم أن البشر جميعاً (إلى قيام الساعة) كانوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن الله تعالى قد أسجد الملائكة لأبي البشر، ونحن جميعاً من صلبه، فكأنما أسجدهم لنا جميعاً نحن الخلفاء في الأرض، آدم وجميع نسله، إلى آخر فرد من هذا النسل، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

ومن هنا تتضح ومضة الإعجاز الإنبائي والعلمي في قول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وذلك يدل بالتأكيد على الحقيقة التاريخية لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام، اللذين أرادت الحضارة المادية المعاصرة إنكار وجودهما إنكاراً تاماً، ورَدَّ البشريةِ إلى عدد من الأصول الحيوانية المختلف عليها دون دليل قاطع[١].

ويؤكد القرآن الكريم أن آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعاً، وأول أنبياء الله جميعاً، وأن الله خلقه من أديم الأرض بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه مِن عِلمِه، وأسجد له الملائكة سجود احترام وتوقير، وأدخله هو وزوجه الجنة، ثم استخلفه ونسله في الأرض، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ولفظ «خليفة» في هذا النص القرآني الكريم جاء بالإفراد، ما دفع بعض المفسرين إلى اعتبار الخليفة هو آدم وحده، ولكن لما كانت ذرية آدم جميعها قد خُلقت في صلبه لحظة خلقه، كانت خلافة الأرض لآدم لجميع بنيه من بعده إلى قيام الساعة[٢]، والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى[٣].

وعلم الوراثة يقول عن الفرد منا، الذي يتكون جسده من ألف تريليون خلية في المتوسط: إنه يُردّ إلى خليتين تناسليتين لا تُريان بالعين المجردة؛ إحداهما من الأب والأخرى من الأم، ويرد جسد كل واحد من الآباء والأمهات بالتسلسل الزمني حتى يصل بكل واحد منهم إلى خلية تناسلية من أبينا آدم وأخرى من أمنا حواء، عليهما رضوان الله، ومعنى ذلك أن البشر جميعاً الذين عاشوا وماتوا، والذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والذين سيأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، كانوا في صُلب أبوينا آدم وحواء عليهما السلام لحظة خلقهما، لذلك عبّر النص

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، ١/ ٨١.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٨١.
(٣) قصة آدم، عمر إيمان أبو بكر، مرجع سابق، ص٦٥.

الكريم ـ الذي نحن بصدده ـ عن هذه البلايين التي لا تُعدُّ ولا تُحصى باللفظ المفرد «خليفة».

ولما كان علم الوراثة هو من أحدث المعارف المكتسبة، فإن سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة يُعدُّ واحداً من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله، الذي أكد حقيقة وجود بني آدم جميعاً في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وذلك بوصف استخلاف آدم وذريته في الأرض بالإفراد «خليفة». وزاد القرآن الكريم في تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ج ـ الخلافة ليست تسلُّطاً على الناس:

الخلافة ليست تسلُّطاً على الناس بالأحكام، فلماذا أقضي جزءاً من عمري في ملاحقة الآخرين واتِّهامهم وتصنيفهم؟ ألم يكن الأجدر بي أن أقوم بمهمتي عبر عزل غصن الشوك عن طريقهم؟ وأن أدع أمرهم إلى خالقهم؟

هل الإحساس الزائد بالاحتساب على الناس يُربّي فينا الفضول وشدة الملاحظة؟

هل هو يُنمِّي الحاسة السادسة التي تجعلنا نشمّ ونتخيَّل ما لم تره أعيننا ولم تسمعه آذاننا؟

لمَ نلمح الخطوة الأولى ـ وقد تكون من اللَّمَم- ـ فنتوقَّع أن صاحبها قد أفضى إلى الخطوة العاشرة؟ هَبني رأيت امرأً على معصية، أفما كان سِترُ الله الذي وَسِعَني يَسَعُه؟

كنت أظن الخلافة معنى خاصّاً بآدم، أو بأصحاب المسؤولية الكبرى، ثم

تذكرت قول رسول الله ﷺ: «**كلُّكمْ راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه**»، حتى ذَكَرَ الرَّجلَ والمرأة والخادم.

سألت نفسي: ما الذي سيتغيَّر في شخصيتي وحياتي وتعامُل الأشياء من حولي لو استشعرتُ مفهوم أنني مُستخلَف على هذه المسؤولية مهما صغرت، ومسؤول عنها أحفظتُ أم ضيّعتُ، وأن بذلك نجاتي أو عطبي؟

لقد وصلت(١).

إن مفهوم الخلافة يدخل في السياسة، والاقتصاد، والحياة الاجتماعية، والرياضية، والفنية، والأدبية، والشعرية، وفي كل نواحي الحياة، إذا عاش كل إنسان في أي مجال من مجالات الحياة بالقيم الإنسانية الجميلة، وتقرّب بها إلى الله عزَّ وجلَّ، وتناغم مع الكون في الإصلاح، وحارب الفساد، فكل إنسان بهذا المفهوم هو خليفة في هذه الأرض.

د ـ الغاية والحكمة من خلق الإنسان:

إن الحكمة من خلق الإنسان حدَّدها ووضع معالمها الله سبحانه وتعالى، فالحكمة سابقة على الخلق، وقبل أن يبرز آدم عليه السلام من العدم إلى الوجود بيّن الله تعالى الحكمة من وراء خلقه؛ ألا وهي الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وهذه الآية الكريمة إنما هي إحدى الأجوبة الثلاثة التي ذكرها القرآن الكريم لتحديد الغاية والحكمة من خلق الإنسان، وتلك الآيات هي:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مرجع سابق، ص٩٩.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهذه الدعوة هي حقيقة هذه الأمة التي أكسبتها صفة الخيريَّة على سائر الأمم قبلها. إذن مهمة الإنسان في الحياة لا تنحصر في دائرة الشهوات، وإلا تردّى إلى مرتبة البهائم، وإنما خُلق ليكون خليفة قائماً يَدين لله في نفسه، عابداً لربه، داعياً لطاعته وامتثال أمره.

ومتى قام بهذه المهمة فهو كالشجرة الطيبة التي تُثمر أطيبَ الثمار وأحلاها، وتُؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها، ومن غفل عن غاية وجوده فهو كالشجرة العقيم التي لا ثمر لها، فتكون نهايتها هي القطع، وتصبح حطباً ووقوداً مع الحجارة للنار[١].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

وفي هذا دليل على أن الملائكة كانوا على علم بأن مراد الله من خلق الأرض وأهلها هو الصلاح لا الفساد، والطاعة لا المعصية، ولهذا لم تفهم الملائكة وجه الحكمة من هذا المخلوق الذي من شأنه أن يفسد في الأرض مع ما تقرَّر في أذهانهم من أنه لا شيء أبغض إلى الله من إفساد الأرض وسفك الدماء، فلم يكن لها بدٌّ من استكشاف وجه الحكمة من خلق هذا المخلوق بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾.

مما هو معلوم أن الملائكة لا يسبقون الله بقول ولا يعصون له أمراً، وهم إلى ما يأمرهم مبادرون، وإنما أقدموا على هذا السؤال لأنهم فهموا من إعلام الله إياهم بخلق هذا الخليفة أن يُظهروا ما لديهم من علمٍ تجاه هذا المخلوق، فكان هذا السؤال طلباً للحكمة من خلقه، واستكشافاً لما خفي عنهم، وكان من الله هذا

---

(١) وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، ص١٣.

الجواب: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، فأوقفهم الله على الجانب الآخر لهذا المخلوق الجديد من الصلاح، وأنه يتحقَّق ببعضهم من الخير أضعاف أضعاف ما يحصل من بعضهم من الفساد.

وعليه لم يكن هذا الاستفهام من الملائكة اعتراضاً على الله فيما أراد من خلق هذا المخلوق، كما أنه لم يكن حسداً من الملائكة لآدم عليه السلام، كما يقوله بعض الناس(١). وقال البغوي: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل، بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة(٢).

وبمثل ذلك قال أيضاً ابن كثير، وزاده إيضاحاً فقال: وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء(٣)؟

إن استفهام الملائكة لا يمكن أن يكون إنكارياً، وإنما أرادوا أن يعرفوا الحكمة من استخلاف آدم؛ من باب العلم وزيادة اليقين، إنهم يؤمنون بحكمة الله في أفعاله، وبما أنه أراد استخلاف آدم فهذا هو الصواب، ولكنهم لا يعرفون وجه الصواب، فسألوا الله عن ذلك من باب «الاستفهام». كما أنهم يقولون: أخبرنا يا ربنا عن الحكمة من جعلك آدم خليفة لنعرفها ونزداد بذلك علماً ويقيناً، ولذلك أجابهم الله عن سؤالهم مبيناً لهم حكمته من ذلك الاستخلاف(٤).

---

(١) قصة آدم، عمر إيمان أبو بكر، مرجع سابق، ص٦٨.
(٢) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ١/ ٧٩.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢١٦.
(٤) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٢٠.

١ ـ كيف عرفت الملائكة إفساد الخليفة وسفكه للدماء؟

إن الملائكة لا يعلمون الغيب إلا ما علّمهم الله منه، فلا بد أن يكونوا قد علموا ذلك بوجه من الوجوه، ولا سيما أن الله سبحانه وتعالى قد أقرّهم على ذلك ولم يُنكر عليهم، والدليل على صدقهم في ذلك أن من يعصي الله ويفسد في الأرض من بني آدم أكثر ممن يطيع الله فيها بالصلاح والاستقامة، كما هو مشاهَد، وقد تباينت أقوال أهل العلم في الطريقة التي علمت بها الملائكة أن هذا الخليفة يفسد في الأرض، وهذا ملخَّص أقوالهم:

ـ قال بعضهم: إن الله هو الذي أطلع الملائكة على ذلك، وعليه فإن في الكلام حذفاً؛ وتقديره ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يفعل كيت وكيت.

ـ وقال بعضهم: إن الملائكة اطَّلعت على ذلك من اللوح المحفوظ، إذ فيه كل ما كان وما يكون.

ـ وقال آخرون: إنهم قاسوا هذا الخليفة على الأمة التي تقدَّمت عليه في الأرض من الجنِّ، وقد أفسدوا، فقاسوا أحد الثقلين على الآخر.

ـ وقال بعضهم: إنهم علموا ذلك بما ثبت في علمهم أنهم وحدهم هم المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم.

ولا شك أن بين ما ذكره هؤلاء العلماء من الأقوال ما يُعلم بطلانه ويُقطع بعدم صحته؛ كقولهم إن الملائكة علمت بذلك من اللوح المحفوظ؛ لأن الملائكة لا تعلم بكل ما في اللوح المحفوظ، وإنما تعلم منه ما علّمهم الله.

وكذلك قولهم: إنهم قاسوه على الأمة التي تقدمت على آدم، وهو خطأ؛ إذ لا قياس بمعدوم لا يُعلم حاله على موجود طُرد جدهم الأعلى ـ وهو إبليس ـ من رحمة الله، فكما لا يصح قياس آدم، أحد الأنبياء، بإبليس اللعين، كذلك

لا يصح قياس ذريته من الإنس على ذرية إبليس من الشياطين[١].

وقد رجح الدكتور عمر إيمان أبو بكر ما ذكره ابن كثير عن القرطبي، حيث قال: علموا ذلك بما فهموه من الطبيعة البشرية؛ فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصِّنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ويَرُدُّ عنهم المحارم والمآثم[٢].

وهؤلاء العلماء ذكروا هذا القول ضمن تلك الأقوال، ولم يرجّحوا واحداً منها، وإنما رجّحتُ هذا القول على غيره لدليل أن إبليس استدلَّ بصورة آدم على أنه خلق لا يتمالك عن الوقوع في المعاصي، كما ثبت ذلك من حديث أنس، أن النبي ﷺ قال: «**لمَّا خلقَ الله آدمَ تركَهُ الله ما شاءَ أن يدعَهُ، فجعلَ إبليسُ يَطيفُ به، فلمَّا رآهُ أجوَفَ عرفَ أنَّه خَلقٌ لا يَتَمالَكُ**»[٣]، فإذا كان إبليس، وهو الجاهل، قد أدرك طبيعة آدم من خلال صورة هيكله، وأن ذريته ممن تقع منهم المخالفات، فالملائكة الموكلون على بني آدم في متابعة كل ما يصدر عنهم؛ من ابتداء خلقهم إلى مماتهم، أولى أن يعرفوا حاله من إبليس اللعين[٤].

وقد رجّح ابن عاشور هذا الرأي على غيره بقوله: والأظهر أنهم رأوه بعد نفخ الروح فيه، فعلموا أنه تركيب يستطيع صاحبه أن يخرج عن الجِبِلَّة إلى الاكتساب، وعن الامتثال إلى المعصية... إلى أن قال: فمجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب المراد جعله خليفة في الأرض كافٍ في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما يظهر منها في

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٧٠.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/٢١٦.
(٣) المرجع نفسه، ١/٢١٦.
(٤) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٧١، الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة ظافر كبارة، ص٥٤.

الخارج، لأن مداركهم غاية في السُّموِّ لسلامتها من كدرات المادة[١].

لعل هذا ما توقَّعوه من الخليفة بفراستهم الإيمانية، أو لعلهم سألوا الله عما سيكون من هذا الخليفة في المستقبل في الأرض، فأخبرهم أنه سيكون منه إفساد وسفك للدماء، فسألوه عن حكمة استخلافه مع ما سيفعله من شرور.

لعل هذا، ولعل ذاك، ولعل هناك تفسيراً آخر لا نعلمه، ونُقدِّم هذا من باب النظر والاجتهاد والتأويل والاحتمال لا من باب الجزم واليقين؛ لأننا لا نملك أدلة على الجزم، ونقدم هذا الاحتمال من باب غلبة الظن، والله أعلم.

ولقد كان ما توقَّعته الملائكة من الخليفة صحيحاً، بدليل أن الله لم يُخَطِّئْهم فيه، فلم يقل: لا لن يفسد في الأرض ولن يسفك الدماء، واكتفى بالإحالة على علمه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ثم بيَّن لهم حكمة استخلافه للخليفة رغم الإفساد وسفك الدماء بعد ذلك[٢].

٢ ـ الإفساد وسفك الدماء من لوازم تعمير الأرض:

الذي سيُفسد في الأرض وسيسفك الدماء ليس هو الخليفة الأول آدم أبا البشر، عليه السلام، لأنه نبي صالح مُصلِح، إنما سيحصل ذلك من الكثير من ذريته، وهم الكافرون الظالمون، وإن الإفساد في الأرض وسفك الدماء من لوازم الخلافة في الأرض وضريبة لا بدَّ منها؛ لأن الناس عندما يُستخلفون على الأرض سيختلفون ويتنازعون، وسيتصادمون ويتقاتلون، وستتعارض مصالحهم وتتصادم أهواؤهم، كلٌّ يريد ما يُحقِّق مصلحته وشهوته وهواه.

وعندما يحصل ذلك سيتحقَّق الفساد في الأرض، وتخريب بعض ما فيها في معمعة الصراع، وستُسفك الدماء الكثيرة التي تُراقُ على مذابح إرضاء المصالح والأهواء والشهوات.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١/ ٢١١.

(٢) سيرة آدم عليه السلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص٤٨.

لكن هذه الضريبة لا بدَّ منها، وهذا الشرُّ حتميٌّ لا إيقاف له، ولكنه ليس كل شيء؛ حيث سيكون هناك إعمار للأرض واهتمام بها، واستخراج لكنوزها واستثمار لخيراتها، وهذا خير كثير يصغر بجانبه الشر الجزئي المتمثل في الإفساد وسفك الدماء، ويَقلُّ ويتضاءل ويُنظر له على أنه شرٌّ لا بدَّ منه لتحقيق الخلافة والحصول على الخير الكثير.

لقد شاء الله العليم الحكيم أن يكون عند الخلفاء الجدد اهتمام في تعمير الأرض، وحرصٌ على تملّك ما فيها، وإقبالٌ كبير عليها، وبذلك تنشط الحركة على الأرض وتتزاحم الأقدام وتتشابك المشاريع والمخططات، ويتدافع الناس ويتعاركون، وهذا التدافع والتعارك ضروري لصلاح الأرض[1].

وصدق الله العظيم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٣ ـ المخلوقات على الأرض قبل آدم غير مكلَّفة:

يظهر من الآيات القرآنية الكريمة أن الأرض لم يسكنها أحد من المخلوقين العقلاء قبل آدم عليه السلام، وأن المخلوقات الحية على الأرض كانت الحيوانات والدواب وغيرها، وهذه غير عاقلة وغير مكلفة، وكانت الأرض جاهزة مُهيَّأة لاستقبال الخليفة الذي يستعمرها هو وذريته، فلم يحصل فيها إفساد ولا سفك للدماء، فكيف وقد بيّنّا كيف عرفت الملائكة ذلك؟

ولا نلتفت هنا للأساطير الباطلة التي تزعم أن الأرض كانت مسكونة قبل آدم بصنفين من المخلوقات الحية هما الجنُّ والحنُّ، وأن حروباً ومعارك وقعت بين الجنّ والحنّ، وقتل بعضهم بعضاً، وحصل الإفساد في الأرض وسُفكت الدماء، وأن الله أنزل إبليس، وكان اسمه عزازيل، يقود مجموعة من الملائكة

(١) سيرة آدم عليه السلام، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص٤٩.

لفض الاشتباكات والفصل بين المتقاتلين، وأنه نجح في ذلك وانهزم الجن إلى رؤوس الجبال، وجزائر المحيطات، وأنه أُبيد الحنُّ نهائياً.

لا نلتفت لهذه الأباطيل ولا ندري من أين جاء مروّجوها بها، ولا من الذي ذكرها لهم، كل ما نقوله إننا لا نقبلها؛ لأنه لم يرد في القرآن والسنة الصحيحة دليل عليها[١].

٤ ـ الله يرضى لعباده أن يسألوه:

إن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال، ويكون بالحال، والتوجه إلى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها؛ كالبحث العلمي والاستدلال العقلي، والإلهام الإلهي، وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك.

ومن الفوائد الجليلة؛ إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يُؤتَ من العلم إلا قليلاً[٢].

٥ ـ نصب إمام أو خليفة أو رئيس:

هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام العدل والإنصاف وفض المنازعات بين الناس، قال ابن كثير: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازُعهم، وينتصر من ظالمهم لمظلومهم، ويُقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٤٧.
(٢) تفسير المنار، ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يَتمُّ الواجب إلا به فهو واجب[١].

ومما استنبطه القرطبي وتبعه على ذلك الإمام ابن كثير: نعلم أن الخلافة هي كون الناس يَخلُف بعضُهم بعضاً، والخلافة هي أسّ الإسلام وعموده، والصحابة لم يُجهّزوا رسول الله ﷺ ولا دفنوه حتى أقاموا خليفة[٢]، وكانت طريقة الاختيار شوريّة، حيث تداوَل أهل الحَلِّ والعَقد في سقيفة بني ساعدة مسألةَ اختيار حاكم بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبايعوه بيعة خاصة، ثم رشحوه للناس في اليوم الثاني، وبايعته الأمة في المسجد البيعة العامة[٣].

وقد أفرز ما دار في سقيفة بني ساعدة مجموعة من المبادئ؛ منها أن قيادة الأمة لا تُقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصل في أصول الاختيار وشرعيّة القيادة، وأن الرئاسة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إنسانية أخلاقية وشخصية وإسلامية، وأن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسي السائد بين المسلمين، حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق[٤]، حيث المرجعية في الحوار إلى المرجعية الإسلامية والعقل الراشد والفهم السديد للوصول إلى مصلحة الأمة والشعب والإنسانية.

ـ أول ما قرَّره اجتماع السقيفة هو أن نظام الحكم ودستور الدولة يقرَّر بالشورى الحرة، تطبيقاً لمبدأ الشورى الذي نص عليه القرآن الكريم.

ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وأصل هذا الإجماع هو النصوص

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ١٢٥.

(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مرجع سابق، ١/ ٣٨٠.

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص٦٦ ـ ٦٧.

(٤) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبد الرحمن عبد الواحد شجاع، ص٦٥٦.

القرآنية التي فرضت الشورى، أي إن هذا الإجماع كشف وأكَّد أوَّلَ أصل شرعي لنظام الحكم في الإسلام؛ وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستوري تقرَّر بالإجماع بعد وفاة النبي ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأكيداً وتطبيقاً لنصوص الكتاب والسنة التي أوجبت الشورى(١).

ـ تقرر يوم السقيفة أيضاً أن اختيار رئيس الدولة أو الحكومة الإسلامية وتحديد سلطانه يجب أن يَتمَّ بالشورى، أي البيعة الحرة التي تمنحه تفويضاً ليتولى الولاية بالشروط والقيود التي يتضمَّنها عقد البيعة الاختيارية الحرة ـ الدستور في النظم المعاصرة– ـ وكان هذا ثاني المبادئ الدستورية التي أفرزها الإجماع، وكان قراراً إجماعيّاً كالقرار السابق.

ـ تطبيقاً للمبدأين السابقين قرَّر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية(٢)، ثم إن الترشيح لم يصحَّ نهائياً إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أي موافقة جمهور المسلمين في اليوم التالي بمسجد رسول الله ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التي ذكرها في خطبته المشهورة التي تُبيِّن لنا بعضَ معاني الخلافة في الأرض بالنسبة إلى الحاكم المنتخب من قبل الشعب أو الأمة، والذي جاء فيه: «أما بعد، أيها الناس فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقَوِّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقَّه إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتى آخذَ الحقَّ منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذُّلِّ، ولا تَشيعُ الفاحشة في قوم إلا عمَّهُم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم، قُوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»(٣).

---

(١) قصة الشورى والاستشارة، توفيق الواعي، ص١٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٠.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ٦/ ٣٠٥ـ٣٠٦.

وتُعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإنسانية على إيجازها، وقد قرر الصدّيق فيها مبادئ العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركّز على أن طاعة ولي الأمر مترتّبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله لأهميته في إعزاز القيم الإنسانية التي أمر الله بها عباده.

ثالثاً: التسبيح والحمد والتقديس لله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

١ ـ التسبيح:

أشارت الآية الكريمة إلى التسبيح، وتكرَّر في الكتاب والسنة ذكر هذه الكلمة في مواضع كثيرة بعبارات مختلفة ومناسبات متعددة.

ويُعدُّ التسبيح من الألفاظ الشرعية التي اشتهرت في الشرع أكثر من اشتهارها في اللغة، ولهذا كان له في الشرع مفهوم واسع، حيث استُعمل في معانٍ متعددة، كما سنبيّنه بإذن الله.

أ ـ المعنى الأصلي للتسبيح في الشرع:

ورد عن النبي ﷺ بيان معنى التسبيح في عدة أحاديث، كما ورد في بيان معناه آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ورحمهم، وأقوال وافرة من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين، ومن الأحاديث في بيان معنى التسبيح[1]:

ـ حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «**هو تَنزيهُ الله تباركَ وتَعالى من السُّوءِ**»[2].

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، محمد كندو، ١/٦٨.
(٢) مسند البزار، رقم: ٩٥٠، والأسماء والصفات، البيهقي، رقم: ٥٩.

ـ وحديث إبراهيم بن يزيد التيمي، عن النبي ﷺ قال: «**سبحانَ الله انْكفافُ**[١] **الله عن كلِّ سوءٍ**» [٢].

ـ وحديث موسى بن طلحة، قال: سُئل رسول الله ﷺ عن التسبيح، فقال: «**هو إنزاهُهُ عن السُّوءِ**» [٣].

وهذه الأحاديث تنهض بمجموعها للاحتجاج، وإن كان الأول منها ضعيفاً، فإن الأخيرين قويان؛ إلا أنهما مُرسَلان.

والحديث المُرسَل إذا اعتضدَ بمجيئه من وجه آخر مُسنَدٍ أو مُرسَلٍ كان ذلك دليلاً على صدقه، وقوي الاحتجاج به[٤].

ويشهد لما تضمّنته هذه الأحاديث من تفسير التسبيح في الشرع بتنزيه الله تعالى ما ثبت من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ أنه صلّى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فكان عليه الصلاة والسلام يقرأ مترسّلاً[٥]، فإذا مرَّ بآية فيها تسبيح سَبَّح[٦]، وفي رواية: إذا مرّ بآية فيها تنزيه الله عزَّ وجلَّ سَبَّح[٧].

وجعل تنزيه الله عزَّ وجلَّ في الرواية الثانية مكان التسبيح في الرواية الأولى، فكان كالتفسير له. وأما الآثار الواردة في بيان معنى التسبيح فكثيرة؛ منها ما هو عن ابن عباس، فقد قال: سبحان الله: تنزيه الله[٨].

---

(١) انكفاف الله: تنزيهه وتقديسه.
(٢) أخرجه الطبراني، كتاب الدعاء، ٣/ ١٥٩٢، رقم: ١٧٥٥.
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١٦/ ١٢٦.
(٤) المرجع السابق، ١٣/ ٢٤٧ ـ ٣٥٠.
(٥) مترسلاً: متأنّياً.
(٦) صحيح مسلم، ١/ ٥٢٦، رقم: ٧٧٢.
(٧) صحيح سنن ابن ماجه للألباني، رقم: ١١١٩.
(٨) الطبراني، ك الدعاء، ٣/ ١٥٩٣، رقم: ١٧٥٩.

إن التسبيح لله عزَّ وجلَّ يتضمَّن تنزيه ذاته سبحانه وتعالى من كل نقص وعيب، وتنزيه صفاته من كل سوء وذَمٍّ، ومن مماثلة صفات المخلوقين، وتنزيه أفعاله من العبث والظلم والشرِّ وخلاف الحكمة[١]، والتسبيح هو التنزيه عن النقائص بالاعتقاد والعبادة والقول[٢]، وتفسير التسبيح بأنه تنزيه الله تعالى عن السوء مُجمَعٌ عليه لغةً وشرعاً[٣].

ب ـ تسبيح الملائكة:

ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم أن الملائكة يسبّحون الله تسبيحاً دائماً من غير انقطاع ولا فتور ولا سآمة، ومن هذه المواضع:

ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني بهم الملائكة[٤]، وهذه العنديَّة تعني قربهم من الله تعالى ورفعة منزلتهم على غيرهم من المخلوقات، ثم وصفهم الله تعالى ـ في هذه الآية ـ بثلاثة أوصاف:

أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله تعالى، وأنهم يسبّحونه، وأنهم يسجدون له.

وهذه الأوصاف دالَّة على كمال عبوديتهم لله تعالى، حيث اجتمعت لهم العبادة القلبية والقولية والبدنية[٥]. فعدم الاستكبار عبادة قلبية عنها تنشأ العبادة القولية والبدنية.

والتسبيح هو ذكرهم لله تعالى وتنزيههم إياه عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته[٦]،

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٧٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٢٩/ ١٥١.
(٣) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٧٦.
(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٦/ ١٦٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٣.

وهو عبادة كائنة بالقلب ـ وهي اعتقاد التنزيه ـ وباللسان وهي قول: سبحان الله ونحوه من الذكر، وبالجوارح كالصلاة مثلاً، والسُّجود عبادة بدنية تتضمَّن الخضوع والذُّلَّ لله العلي العظيم.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ إيذان باختصاص سجودهم لله تعالى وحده دون غيره[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠]، فقوله هنا: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة[٢]، كما في الآية السابقة، وقد تضمّنت هذه الآية بيان أن الملائكة زيادة على عدم استكبارهم عن عبادة الله؛ ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يَملُّون[٣]، وبهذا فهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهذا كالبيان لقوله: ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ لأن من يُحبُّ أمراً ولا يتعب منه لا يتركه ولا يَملُّ منه، بل يواظب عليه، والملائكة كذلك؛ يحبّون تسبيح الله تعالى فهم دائبون عليه ليلاً ونهاراً، لا يلحقهم كلال ولا إعياء، ولا يشغلهم التسبيح عن تدبير ما وكل إليهم من أمور الخلق[٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨]، وهذه الآية في معنى الآيتين السابقتين، فقوله: ﴿لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ كقوله: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾[٥].

وجميع هذه الآيات دالة على قوة الملائكة وكمال حياتهم، وشدة الداعي

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان، مرجع سابق، ٤/ ٤٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ١٨٤.
(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١٧/ ٣٦.
(٤) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٧٤.
(٥) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١١/ ١١٣.

القوي منهم إلى تسبيح الله تعالى وملازمته، فلا يلحقهم فيه فتور ولا سآمة، ولا يشغلهم عنه شاغل[١].

ـ في قوله سبحانه وتعالى حكاية عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦]، وفي هذا تمدّح بوقوفهم صفوفاً في السماء لعبادة الله تعالى، وتسبيحهم لله تعالى، وقد أقسم الله بهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، قال الإمام أبو جرير الطبري: فأما الصافات، فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء[٢]، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قال قتادة: هذا قول الملائكة يُثنون بمكانهم من العبادة[٣].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآيتين: أي نصطفّ فنسبّح الرب ونمجّده ونقدّسه وننزّهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه[٤].

ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وهذه الآية ذُكرت بعد ذكر أحداث يوم القيامة وما يقع فيه من القضاء بين العباد، وتوفية كل نفس ما عملت، وإدخال أهل الجنة وأهل النار كلاًّ في المحلّ الذي يستحقه ويليق به.

فقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي في ذلك اليوم العظيم[٥].

﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي مُحدِقين مُحيطين بالعرش[٦].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ٣/ ٢٤٥. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مرجع سابق، ص٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٠/ ٤٦٧.
(٣) المرجع نفسه، ١٠/ ٥٣٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٢٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مرجع سابق، ص٧٣١.
(٦) تفسير البغوي، مرجع سابق، ٧/ ١٣٤.

﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي يمجّدونه، ويعظّمونه، ويقدّسونه، وينزّهونه عن الجور وعن كل ما لا يليق بجلاله(١).

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الخلائق(٢)، ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالعدل(٣).

﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهذا إخبار عن حمد الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين، عقيب قضائه بالحق بين الخلائق، ولهذا حُذف فاعل الحمد في قوله: ﴿ وَقِيلَ ﴾؛ لإفادة العموم والإطلاق، حتى لا يُسمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه ومن جميع مخلوقاته(٤).

قال الحسن البصري: لقد دخلوا النار وإن حمدَه لفي قلوبهم؛ ما وجدوا عليه حجّة ولا سبيلاً(٥).

ـ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

وفي هذه الآية ذكر تعالى صنفين من الملائكة المسبِّحة بحمده؛ وهما الملائكة الذين يحملون العرش، والملائكة الذين يطوفون حول العرش، ثم أخبر عنهم جميعاً بثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنهم «يسبّحون بحمد ربهم»، وهذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٧٥.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٧٥.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١١/ ٢٦، وتفسير البغوي، مرجع سابق، ٧/ ١٣٤.
(٤) الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، ٤/ ١٤٩٦ ـ ١٤٩٧.
(٥) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٧٩.

وتحميده؛ لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له، بل الحمد هو العبادة لله.

الأمر الثاني: أنهم «يؤمنون به»، أي يقرّون بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته(١).

الأمر الثالث: أنهم «يستغفرون للذين آمنوا»، أي يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، وأقرّ بمثل إقرار الملائكة؛ من توحيد الله تعالى والبراءة من كل معبود سواه.

وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة؛ أن الله تعالى قيّض ملائكته المقرّبين الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان من البشر، ويدعون لهم بظهر الغيب، فالمؤمن بإيمانه اكتسب هذا الفضل العظيم(٢). وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ هو بيان لصفة دعائهم للمؤمنين، وكذا الآيتان المذكورتان بعدها.

وتخصيص هذين الصنفين من الملائكة بالذكر في الموضعين السابقين دليل على ما لهما من شأن عظيم؛ إذ اختارهم الله تعالى لحمل عرشه العظيم والطواف حوله، فلا شك في أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم وأقربهم منه سبحانه وتعالى(٣).

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ـ٤١].

وهذا تقريع للمشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ حين يحشرهم الله

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٧٩.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٢٧٩.
(٣) تفسير البغوي، ١/ ١٣٩، تفسير ابن كثير، ٤/ ٧٧.

تعالى جميعاً، ثم يسأل الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يتخذونهم آلهة من دون الله، فيقول تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟، أي أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟[١].

فيُجيب الملائكةُ متبرّئين من عبادة المشركين: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾، افتتحوا جوابهم بالتسبيح لله تعالى، أي تنزيهاً لك أن يكون معك شريك في العبادة، فنحن عبيدك مفتقرون إلى ولايتك فلا نتخذ وَلِيّاً من دونك، ونبرأ إليك من هؤلاء المشركين[٢].

وهذا يعني أن الملائكة لم يأمروهم بذلك ـ وحاشاهم ـ وإنما أمرهم بذلك الشياطين من الجن[٣]، ولهذا قالوا: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[٤].

ج ـ حال الملائكة في تسبيحهم لله:

قد يظن ظانٌّ من وصف الملائكة بأنهم يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم يُلهَمون التسبيحَ كما يُلهَم الناسُ النَّفَس، أن التسبيح يصدر منهم على وجه العادة بلا شعور ولا اهتمام، وهذا الظَّنّ بعيد عن الواقع:

ـ فإن الله تعالى قد وصف حال الملائكة في تسبيحهم لله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، فقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ يعني: وتسبّح الملائكة من خيفته[٥]، ومن هنا للتعليل،

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٥٠.
(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٨٤.
(٣) المرجع نفسه، ١/ ٢٨٤.
(٤) المرجع نفسه، ١/ ٢٨٤.
(٥) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٧/ ٣٦٠. التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٨٥.

ومعنى «خيفته» هيبته وإجلاله ورهبته[١]، وهاء الضمير فيه راجع إلى الله عز وجل[٢]، فدلّت هذه الآية على أن الملائكة يسبّحون الله تعالى خاشعين له خائفين منه.

ـ كما وصفهم سبحانه في آية أخرى بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠].

ـ وبقوله في آية أخرى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن عباس: يخافون الله وليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله شيء[٣].

ـ ومما يُبيِّن أيضاً حالَ الملائكة في تسبيحهم لله تعالى قوله عز وجل: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

والآية تُبيِّن أن السماوات في غاية الخوف من الله تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة، فهم يسبّحون بحمد ربهم، أي ينزّهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً[٤].

ويتبيّن حال الملائكة في تسبيحهم لله تعالى، وأنهم لشدّة خوفهم من الله وهيبتهم وإجلالهم له يسبّحون بحمده على الدوام بلا انقطاع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾، يعني

(١) البحر المحيط، أبو حيان، مرجع سابق، ٥/ ٣٦٦.
(٢) زاد المسير لابن الجوزي، ٤/ ٣١٤.
(٣) المرجع نفسه، ٤/ ٣١٤.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٤/ ٤١٥.

لخصوص الذين آمنوا منهم، كما أوضحه الله تعالى بقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وقوله تعالى في ختام الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أكد فيه أنه هو وحده المختص بغفران الذنوب، وإيجاد الرحمات، وذلك بذكر حرف الاستفتاح «ألا»، وحرف التوكيد «إن» المقتضيين للتوكيد، وضمير الفصل «هو» المقتضي للحصر[١].

وبجميع ما سبق ذكره في هذا المطلب من الآيات والأحاديث والآثار يتجلّى مقام الملائكة في التسبيح، وأنهم في هذه العبادة العظيمة متميزون عن غيرهم من العالمين[٢]. وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفَى الله لملائكتِهِ، أو لعبادِه: سبحانَ الله وبِحَمدِه**»[٣].

وإذا اتضح ما يتعلَّق بتسبيح الملائكة لله تعالى، فينبغي أن تكون للعلم بذلك فوائد عملية بالنسبة للمؤمن؛ بأن يقتدي بالملائكة الكرام فيُكثر من تسبيح الله تعالى بالليل والنهار على قدر طاقته، فإن إخبار الله سبحانه عنهم في الآيات السابقة، ووصفه إياهم فيها بما وَصَفَ، فيه حَثٌّ للمؤمنين وترغيب لهم في أن يقتدوا بهم فيما ذكره عنهم؛ لأنهم إذا كان أولئك ـ وهم معصومون من الذنب والخطأ ـ هذه حالهم في التسبيح والذكر والعبادة، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم؟[٤].

وإذا كان الله عزَّ وجلَّ قد أعطى الملائكة من القدرة وكمال الحياة ما يفوق ما للبشر من ذلك، فإن المؤمن يجتهد في الاقتداء بهم في حدود طاقته البشرية،

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، المرجع نفسه، ٤/ ٤١٥.
(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٨٩.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٧٣١.
(٤) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٩٢.

ولا يُكلِّفُ الله نفْساً إلاَّ وُسعَها، وبالله تعالى التوفيق[١].

٢ ـ الحمد:

إن «الحمد لله» يدل هذا الثناء على وجوب اتصافه تعالى بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له تعالى بطريق البرهان والاستدلال، ولهذا فسّر بعضهم «الحمد» بالإحاطة بأوصاف الكمال. ولما كانت كمالاته سبحانه غير متناهية ولا يحيط بها أحد من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه بنفسه، فقال: «الحمد لله».

وقد ورد في بعض أدعية النبي ﷺ: «**اللهمَّ إني أعوذُ برِضاكَ مِن سَخَطِكَ، وبِمعافاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وأَعوذُ بكَ منكَ، لا أُحْصي ثناءً عليكَ أنتَ كَما أَثْنَيتَ على نَفسِكَ**» [٢].

فما عرف اللهَ حق المعرفة أحد، وما أحاط بكمالاته غيره تعالى، تقدَّست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

واستحقاقه سبحانه للحمد ثابت ودائم قبل إيجاده للخلق وبعده، وسواء حمده العباد أم كفروه وجحدوا فضله، فإن صفات كماله وجماله وجلاله أزليَّة أبديَّة غير حادثة، لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فهو سبحانه خالقٌ قبل أن يَخلقَ الخلقَ، لأنه قادر على الخلق أزلًا، ورازق قبل أن يَرزُقَ الخلقَ، لأنه قادر عليه أزلًا.

والألف واللام في «الحمد» لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**اللهمَّ لكَ الحمدُ كلُّه، ولكَ الملكُ كلُّه، ولكَ الخلْقُ كلُّه، وإليكَ يَرجعُ الأمرُ كلُّه، أسألُكَ مِن الخيرِ كلِّه، وأعوذُ بكَ من الشرِّ كلِّه**» [٣].

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، المرجع نفسه، ١/ ٢٩٢.
(٢) رواه مسلم، ٤٨٦.
(٣) رواه البيهقي في السنن. التفسير الموضوعي، طهماز، ١/ ٣٠.

وأمر الله تعالى عباده أن يُثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله لَيَرضَى عَنِ العَبدِ أنْ يَأكلَ الأَكلَةَ فَيَحمَدَه عَلَيها، أَو يَشرَبَ الشُّربَةَ فَيَحمَدَه عَلَيها**»[١].

قال ابن كثير: «الحمد لله» ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يُثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا الحمد لله، وهو ثناء على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدّية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، وهو نقيض الذَّمِّ، وأعمّ من الشُّكر، والشُّكر الثَّناءُ على المُحسِنِ بما أولاه من المعروف[٢].

وقال الشنقيطي في أضواء البيان: قوله تعالى: «الحمد لله» لم يذكر بحمده هنا ظرفاً مكانياً ولا زمانياً، وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية السماوات والأرض؛ في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٧].

وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية الدنيا والآخرة؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]. وقال في سورة سبأ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١][٣].

وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره؛ بأن حَمِدَ نفسَه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية، وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبَّه إلى هذا كله في كتابه، وحمد نفسه عليه، فتنوَّعَ حمدُه وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرّقها أخرى ليتعرف إلى

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٧٣٤.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٠.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ١/ ٣٣.

عباده ويعرّفهم كيف يحمدونه وكيف يُثنون عليه، وليتحبّب إليهم بذلك ويحبّبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

ـ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٤].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ١ ـ ٢].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

ـ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

ـ وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨].

ـ وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

ـ وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده.

ـ فقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ـ وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤ ـ ٧٥].

ـ وقال: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذّبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لأُلوهيَّته، مُفتَرين عليه.

وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم، وأخذهم ببعض حقِّه عليهم، وأنه غير ظالم، وإنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عُوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية، وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به، ولا إلى التعبير عنه.

ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عزَّ وجلَّ على أكمل الوجوه وأتمّها وأدومها، وجميع ما يُوصف به ويُذكَر به ويُخبَر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح له وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني عليه خلقُه، فله الحمد أولاً وآخراً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ورفيع مجده وعلو جَدِّه[(١)]. فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء.

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص١٣٠ ـ ١٣٣.

والنوع الثاني: حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة بَرِّها وفاجرها، مُؤمِنها وكافرها، من جزيل مواهبه، وسعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسَعة رحمته لهم، وبرّه ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرّين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراد بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصَّتَه وعبادَه إلى دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم من مراتع الآثام، وحبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروح منه، وسمّاهم المسلمين قبل أن يَخلُقَهم، وذَكرَهُم قبل أن يذكروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمه مع غناه، وبغّضهم إليه بالمعاصي، وأفقرهم إليه.

ومع هذا كله اتَّخذ لهم داراً وأعدّ لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثم يسَّر لهم الأسباب التي تُوصلهم إليها وأعانهم عليها، ورَضِيَ منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدّاً، بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يُثيبهم بالحسنة عشراً، وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جَنَوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكّرهم بآلائه وتعرَّف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحساناً لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلاً منه عليهم، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووَصَّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن

أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال، ووَسَّع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرَّفهم الأسباب التي تُدنيهم من رضاه وتُبعدهم عن غضبه، ويُخاطبهم بألطف الخطاب، ويُسمِّيهم بأحسن أسمائهم[(١)].

٣ ـ قرن التسبيح بالتحميد:

لهذه المسألة شأن عظيم يسترعي النظر ويستدعي الانتباه؛ وذلك لأن قَرن التسبيح بالتحميد هو الأكثر وروداً في نصوص الشرع، وجاء في كتاب الله تعالى الأمر بقرن التسبيح بالتحميد في مواضع منها:

ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في سور: [طه: ١٣٠]، [غافر: ٥٥]، [ق: ٣٩]، [الطور: ٤٨]. وهذه أربعة مواضع.

وقال تعالى في موضعين آخرين: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ سور: [الحجر: ٩٨]، [النصر: ٣]. وقال في موضع: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

كما جاء في كتاب الله تعالى الخبر عن قرن التسبيح بالتحميد في مواضع عديدة؛ مثل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥].

ـ وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]. ونحو ذلك من الآيات.

وأما السنة فورد فيها قرن التسبيح بالتحميد في أحاديث كثيرة تفوق الحصر، ومن ذلك:

(١) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ١/ ٩١.

حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أحبَّ الكلامِ إلى الله سبحانَ الله وبِحمْدِهِ**»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «**الطهورُ شَطرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تَملأُ الميزانَ، وسبحان الله والحمدُ لله تَملأانِ ـ أو تَملأُ ـ ما بينَ السماوات والأرضِ**»[(٢)].

فهذا حال التسبيح مع التحميد في الكتاب والسنة، وقد قال ابن تيمية: والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له[(٣)]، وقال أيضاً: فالتسبيح قرين التحميد[(٤)].

وله رحمه الله رسالة لطيفة بعنوان: **(قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات وبيان اقتران التهليل بالتكبير والتسبيح بالتحميد)**[(٥)]. وبيّن في رسالته هذه أن التسبيح والتحميد يجمع النفي والإثبات؛ نفي المعايب وإثبات المحامد، وذلك يتضمَّن التعظيم[(٦)].

وقال: التسبيح يتضمَّن التنزيه المستلزِم للتعظيم، والحمد يتضمَّن إثبات المحامد المتضمّن لنفي نقائضها[(٧)].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]: ولما كان التسبيح يتضمَّن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم

---

(١) صحيح مسلم، رقم: ٢٧٣١.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٢٣.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ١٠/ ٢٥١.
(٤) المرجع نفسه، ٢٤/ ٢٣١.
(٥) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ١٩٥.
(٦) قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ص٣٢.
(٧) المرجع السابق، ص٢٣.

التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن[١].

وعلى كل فإن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، وأدلها على استغراق الثناء عليه سبحانه بكل كمال؛ لأن التسبيح دال على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب والأمثال والشركاء، والتحميد دال على إثبات ما يليق به من المحامد والفضائل وصفات الكمال، فإذا سبّح العبد بحمده جمع له بين الأمرين[٢].

٤ ـ التقديس:

جاء التقديس مقروناً بالتسبيح في قول الله سبحانه حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والتقديس على وزن التفعيل كالتسبيح، وهو كذلك مصدر كالتسبيح، من الفعل: قدّس يُقدِّس تقديساً، وأصل مادته «قدس»، ومعناه «التطهُّر»، وقال ابن القيم: أصل الكلمة من الطهارة والنزاهة، ومنه بيت المقدس[٣]، لأنه مكان يُتطهَّر فيه من الذنوب، ومَن أمَّه لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه، ومنه سُمِّيَ جبريلُ روحَ القدس[٤]؛ لأنه طاهر من كل عيب[٥].

فالتقديس: معناه التطهير، يقال: قدّسه، أي طهّره[٦]، ومعناه في حق الله تعالى: تنزيه الله عزَّ وجلَّ، «ونقدّس لك» ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك[٧].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٢٨.
(٢) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/ ٢٠٧.
(٣) المرجع السابق، ١/ ١١٣.
(٤) المرجع السابق، ١/ ١١٤.
(٥) شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، ٢/ ٦٤ ـ ٦٥.
(٦) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ٦/ ١٨٦.
(٧) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٢٤٨، تفسير البغوي، مرجع سابق، ١/ ٧٩.

وقال ابن عاشور: فمعنى نسبح بحمدك ونقدس لك: نحن نعظمك وننزِّهُك، والأول: بالقول، والثاني: باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العليّة، فلا يُتوهَّم التكرار بين نسبح ونقدّس، وأُوثرت الجملة الاسمية في قوله: «ونحن نسبّح» لإفادة الدلالة على الدوام والثبات أي: نحن الدائمون على التسبيح والتقديس دون هذا المخلوق(١).

وكما قُرن بين التسبيح والتقديس في الآية المتقدم ذكرها جاء في السنة القرن بين اسم الله تعالى «السُّبّوح» واسمه تعالى «القُدّوس»، وذلك فيما روته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبُّوحٌ قُدوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوحِ**» (٢).

وقد تبيَّن بما سبق أن التقديس كالتسبيح وزناً ومعنى، وكذلك القُدوس والسّبوح في الوزن والمعنى، وذهب الحليمي في كلام له إلى أن التقديس هو إثبات المدائح لله تعالى المتضمن نفي المذامّ عنه سبحانه، وأن التسبيح هو نفي المذامّ عن الله سبحانه المتضمن إثبات المدائح له تعالى، فقولنا: هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا: ليس كذا، ظاهره التسبيح، فالتسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن التسبيح، قال: وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الإخلاص فقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

فهذا تسبيح، والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والشَّبيه عنه(٣). ومفاد كلامه هذا أن التقديس إيجاب يتضمَّن سلباً، وأن التسبيح سلب يتضمَّن إيجاباً، وأن صفات الله تعالى المثبتة داخلة في معنى التقديس،

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١/٤٠٦.
(٢) صحيح مسلم، ١/٥٣، رقم: ٤٨٧.
(٣) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، مرجع سابق، ١/١١٩.

وصفات الله المنفية داخلة في معنى التسبيح، وهذا تقرير جيد لمعنى التقديس والتسبيح وما بينهما من المناسبة، والله تعالى أعلم[١].

٥ ـ ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾:

قال الله للملائكة: «إني أعلم» مِن هذا الخليفة «ما لا تعلمون»؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا أعلم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، ويكفي أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل دون خلق هذا الخليفة؛ كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك[٢].

«إني أعلم ما لا تعلمون» فإن كنتم أعملتم القياس وظننتم آدم في ميزان الأقوام المُتخلِّفين المتوحِّشين ناقصي العقول، فإن الله يعلم من فضله وذريته ومزيّته وتكريمه ورحمته ما لا تعلمون.

إنه عبد موصول بالله معرفة وحبّاً وخوفاً ورجاء، وموصول بالأرض إعماراً واكتشافاً وإبداعاً، خُلق ليضيف للأرض قيمة، وللشمس وللقمر وللنجوم والسماوات، فوجوده فيها كشف إعجازها وأظهر تسخيرها وجلّى مقاصدها وحِكمها ومراميها وفتق أسرارها.

عبر قرون متطاولة كان الأنبياء عليهم السلام والأولياء والصديقون والشهداء، وكانت الصلوات والدعوات والخلوات والخشوع والدموع، وكان

---

(١) التسبيح في الكتاب والسنة، كندو، المرجع نفسه، ١/ ١١٩.
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ١/ ٧١.

الابتلاء والصبر والكرب والفرج والضيق والأمل والحزن والسرور والمحاولة والخطأ والصواب والذنب والمتاب والوصل والصَّدّ والعتاب، وكان وكان وكان[١].

عبر قرون متطاولة كان الكشف والتعلم والمغامرة والإبداع والنجاح والفشل والمشكلة والحل، والبحث والتعثُّر والوصول والخدمات والتسهيل والتطور والنظريات المعرفية.

لكل منا أن يقرأ في حراك البشر وجهاً جميلاً طيباً بعدما غلبت لغة التشاؤم والتشاتم والمؤامرة والصراع والقطيعة، حتى نسينا ـ نحن المسلمين ـ أو كدنا، حكمة الباري في خلق الحياة والبشر برّهم وفاجرهم، خاطئهم ومصيبهم، مؤمنهم وكافرهم.

لكل منا أن يستشعر شيئاً من أسرار خلقه تحت ظل هذا الجواب الرباني: ﴿إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بدلاً من اليأس والقنوط وطول المثول أمام مصاعب الحياة ومتاعبها وإخفاقاتها وابتلاءاتها، أو الرغبة في اختصار المسير، وانتظار المصير، واستعجال الرحيل، لنؤمن بحكمة الحياة وجمالها؛ لأنها صادرة من الله الحكيم الجميل الطيِّب الصَّبور. وليكن هذا الإيمان دافعاً للاستمتاع بها وتذوُّق جمالياتها، دافعاً للإضافة الإبداعية علمية أو أدبية، ولو كانت يسيرة؛ فالجود من الموجود، وليكن فعلنا للخير، وإحساننا لشركائنا فيها، وصبرنا عليهم تأويلاً حسناً للجواب الإلهي العظيم.

ولنردِّدْ مع الملائكة فيما أعيانا فهمه وإدراكه، جواب العجز عن معرفة الأسماء: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. ولنقتبس من آدم عليه السلام سرَّ الإلهام والتفوُّق والجرأة في عقله، والتواضع في خلقه

---

(١) علمني أبي، مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، ص١٥٣.

وأصله، فلا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر[١].

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تعلّق الغرض بذكر علمه تعالى بما شذّ عنهم، وقد كان قول الله تعالى هذا إنهاءً للمحاورة وإجمالاً للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يُحِطْ به علمهم، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة، وتأكيد الجملة بـ «إن» لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المتَردِّدين[٢].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]:

هذه الآية تحكي لحظة مهيبة في تاريخ الكون جمعت خالق السماوات والأرض وكل مخلوقات الله عزَّ وجلَّ في حوار مفتوح مع الملأ الأعلى وهم الملائكة المقربون الذين ينفّذون أعلى أوامر رب العالمين[٣].

١ ـ «وعلم آدم الأسماء كلها»:

علّم الله سبحانه وتعالى آدم أسماء الأشياء وألهمه توليد الأسماء وفكرة التسمية ذاتها، وأعطاه القدرة على ابتكار الأسماء المناسبة للأشياء، فلو لم يكن لها أسماء فكيف نعرفها وكيف نحددها للآخرين؟ سنكون مضطرّين لجلبها والإشارة إليها، وكيف لنا أن نجلب البحر أو القمر أو الصحراء أو الأموات؟

ولذا صرنا نُسمِّي كل شيء، حتى الشوارع، والبيوت، والغرف، والقطط، والأشجار، وما لا يحتاج إلى أسماء؛ لأن فكرة التسمية تريحنا من عناء طويل.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٥٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧.
(٣) آذان الأنعام، عماد محمد بابكر، ص٩١.

بعضهم يقول: علّمه أسماء كل شيء[١]، قال ابن كثير: والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، كما قال ابن عباس: حتى الفَسوة والفُسيَّة[٢].

يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية: ثم ساق حديث الشفاعة، ثم قال ـ أي ابن كثير ـ: ووجه إيراده هنا أنَّ المقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «**فَيَأتونَ آدمَ فَيقولونَ: أنتَ أَبو النَّاسِ، خلقَكَ الله بيدِه، وأسجَدَ لكَ ملائكتَه، وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ**»، فدلَّ على أنه علَّمَه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾، يعني المُسمَّيات[٣].

ويرى شيخي وأستاذي سلمان العودة: والأقرب أنه علمه أسماء الأشياء المتاحة المتوفرة عنده، وأهمها:

ـ أسماء الله الحسنى، ومنها معرفته باسم نفسه ومعرفتهم باسم حواء، لأنها خُلقت من حيٍّ، كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

ومعرفة الأسماء ليست مَنشَطاً صوتيّاً لغويّاً فحسب، لا، بل هي منشط إدراكي معرفي، يعني القدرة على معرفة تقوم على أساسها الحضارة، وواضح أن هذا التعريف هو لتأهيل آدم للخلافة في الأرض.

معرفة الأسماء تقتضي معرفة الدلالة واللغة، والقدرة على تخيّل الأشياء وتصوُّرها، وعلى النطق بحروفها وأسمائها[٤]. فقد ميَّزَ الله آدم بالعلم، وأراد

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٦٦.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣) المرجع السابق نفسه، ١/ ١٢٨.
(٤) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٦٧.

منه أن يسعى ويطلب المزيد، ونجح فيما عجزت عنه الملائكة واعتذرت بأنه لا علم لها لأن الله لم يعلّمها.

وإدراك آدم للأشياء التي حوله والمتعلقة بالخلافة في الأرض تفصيلي، وإدراك الملائكة كلّي تعميمي، فهي ميزة آدمية وفضيلة بشرية واصطفاء رباني، ولذا تولَّى آدم مهمّة إخبار الملائكة بأسماء الأشياء، ولذا كانت الموسوعة والمعرفة متَّصلة بحفظ الأسماء وإدراك معانيها، والذين يحفظون أسماء الناس ومعلوماتهم هم الأكثر قرباً منهم وتأثيراً فيهم، ومعظم كلامنا أسماء وروابط بين الأسماء، ولذا كان أول ما نطق به آدم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

ـ و«الحمد» اسم.

ـ و«الله» اسم لذاته سبحانه.

ـ و«الرب» اسم.

ـ و«العالم» أو «العوالم» أو «العالمون» أسماء، وحين نقول: الكلام اسم وفعل وحرف فهذا يحتمل أن الاسم هو الأصل، وأن الأفعال والحروف مشتقة منه، والأفعال صادرة عن أشخاص، والحروف روابط[2].

والأشياء التي نحفظها من التاريخ عبارة عن أسماء كاللغات والمدن، حتى النظريات تحولت إلى أسماء؛ هذه نظرية آينشتاين أو نظرية فيثاغورس، المباني تحولت إلى أسماء، والمعارك والدول والأيام والسنين والكتب والمدارس وأكثر حالات الجدل الدائم مرتبطة بأسماء[3].

وأعظم المعرفة وأنفعها معرفة الله.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٦٧. .
(٢) العودة، المرجع نفسه، ص٦٨.
(٣) العودة، المرجع نفسه، ص٦٩.

«الله» المفردة التي انتظمت المعجم كله .

«الله» الاسم الذي نقوله فتتحول الصحراء إلى حديقة، والعطش إلى ري، والفقر إلى غنى، والهزيمة إلى انتصار، والضيق إلى سعة، واليأس إلى شفقة، والموت إلى حياة .

كيف السبيل إلى معرفته وقربه ومناجاته إلا بمعرفة أسمائه وله من الأسماء ما لا ينحصر ولا ينتهي، وما لا يعرفه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فاللهمَّ لك الحمد، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

ومن أسمائه تسعةٌ وتسعونَ اسماً وردت في الكتاب والسنة، «**مَن أَحصَاها دَخلَ الجنَّةَ**» [١] .

حين يخرّ النبي ﷺ ساجداً يوم القيامة يفتح الله عليه بمحامد وثناءات لم يكن يعلمها من قبل، فيقول الله له: «**ارفَعْ رأسَكَ، وسلْ تُعطَه، وقلْ يُسمعْ، واشفعْ تُشفَّع**» [٢] .

ومن الدعاء المأثور: «**أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هو لكَ سَمَّيتَ به نفسَكَ، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علَّمتَه أحَداً من خلقِكَ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَكَ**» [٣] .

- ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ علّمه حقائق المُسمَّياتِ وما لها من قوانين النفع والضر، فإنه عليه السلام كان في حاجة أن يعرف خواص الكون الذي قُدّر له أن يهبط إليه . . . فآدم عليه السلام تعلّم حقائق الأشياء وسنن الله التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها، وتُنظِّم نفعَها وضرَّها .

وبث الله في آدم عليه السلام من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢٧٦٣ .
(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٩٣ .
(٣) مسند أحمد، رقم: ٤٣١٨ .

ما يكشف به تلك النواميس والسنن، ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض، والتعليم هنا مسند إلى الله تعالى، وحين نعود إلى معاني التعليم التي أسندها الله إلى ذاته مباشرة، أي دون وساطة ملك أو بشر من الرسل، نراها كلها في القرآن الكريم دالة على مواهب الله سبحانه؛ من استعداد فطري للإدراك والفهم والإلهام والمعرفة.

وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عامّاً شاملاً لجميع أفراد النوع الإنساني، كما في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣ ـ ٤]، أي أودع فيه النطق والتعبير عما يجول في نفسه[١].

أ ـ العقل هو الأداة الأساسية في التعليم وفضل العلم:

إن الميزة الأولى عند أبينا آدم عليه السلام الرغبة في التعلم، وتلقّى آدم عليه السلام تعليمه الأساسي في أفضل بيئة «الجنة»، وتمكّن من العيش على الأرض بسلام، وكانت الأرض له مدرسة أخرى، ولم تكن منفى، وتعبير القرآن الكريم عن مزيّة آدم كان بـ «التعليم» وليس بـ «العقل»، والعقل هو الأداة الأساسية في التعليم.

وكان آدم عليه السلام مزوّداً بملكة التفكير والنظر والتحليل والفهم والفقه واللغة، ولم يأتِ لفظ العقل في نصوص الشريعة كمصدر، بل جاء هو ومرادفاته؛ كفعل: «يعقلون، يتفكرون، يفقهون، يعلمون، ينظرون».

ثمة غموض في مفهوم العقل؛ إذ يُطلَق على تلك الأداة، ويُطلَق على ما تُنتِجه من علوم ومعارف وحقائق وظنون وموروثات ثقافية وحضارية وأنماط تفكير، والعلوم التطبيقية هي سرُّ التفوُّق الإنساني وليس النظريات الفلسفية المجردة.

---

(١) آدم عليه السلام، محمد البهي، ص٩٦.

وفُضّل آدم بالعلم، ولذا سجدت له الملائكة، وفُضّل بنو آدم بعضُهم على بعض بالعلم، فـ «**فَضْلُ العالمِ على العابدِ كَفَضلِ القَمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ**».

كان في حيثيّاته حروف أسبقية فطرية يبحث فيها عن حاجاته، والمعرفة أهم حاجاته، كما يبحث المولود الجديد عن الثدي(١). وكان سالماً من العقل الجمعي والموروث العريض الذي كبّل بَنيه فيما بعد؛ فأربك تفاعُلَهم، وعطّل ملكاتهم، وحرفَ فطرتَهم عن مسارها، ووضع القيود والأغلال في أعناقهم فلم يعد أكثرهم يفرّق بين جيِّد ورديءٍ.

تعلّم آدم عليه السلام حروف الحمد على النعم، ومنها نعمة الحياة، فحين عطس قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، معرفة الله بالقلب، والشعور بقربه ولطفه، وحضور معاني صفاته هي الأهم، وهي الركن الأول في الهوية الإنسانية، واستقبل الإلهام الرباني بمعرفة اللغات والأسماء، وأعلن هذا العلم، وهو بهذا يُثبتُ قدرتَه على التعليم وجدارتَه به، وجرأته عليه أمام مَن لا يُحصيهم إلا الله من الملائكة، والعجب أن التعقيب القرآني جاء بلفظ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

فاختيار آدم كان على علم، زكّاه الاختيار، وسؤال الملائكة كان سؤال من لا يعلم لمن يعلم؛ ما تعجبون من جاهل يسأل عالماً؟

تعلّمَ من الألمِ والنَّدمِ، والتجربة والخطأ، فأسرع بالتوبة والتنصّل والاستغفار، وحوّل الفشل والإخفاق إلى نجاح واستعادة للموقع وتقدّم أكثر.

تعلَّمَ وزوجَه الخصفَ، وهو نوع من الصناعة احتاج إليه حين بدت له عورته، وسرعان ما اهتدى لفكرة الأخذ من ورق الشجرة، فالحاجة أمّ

---

(١) علّمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٧٤.

الاختراع، والمعرفة يجب أن تكون مواكِبة للحاجات المتجددة للإنسان، ولو كان الإنسان سبباً في حدوث الحاجات بتجاوزه وظلمه[١].

تعلَّمَ وزوجه طبيعةَ العلاقة بينهما، ونطق أبجدية الحب الأولى بفصاحةٍ لا تردّد فيها، ومضيا مع الفطرة الهادية المهدية صوب الوصال الجسدي والروحي والعاطفي والتكامل والإنجاب: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

تابعوا أمر الحمل بدهشة رائعة وفرحة غامرة، وداخلهم شعور يعز وصفه لرؤية وجه التوأم الأول. ربما سقط جنين فتعلموا منه مراحل نموه، أو كان غير سويّ الخلقة فخافوا على المواليد من بعده، إذ هم يدركون أنهم على الأرض الجارية وفق السنن والنواميس والنظم الإلهية، وليسوا في جنة يكون الحمل فيها والوضع والنمو في لحظة واحدة، ولهذا تضرَّعا إلى الله بالدعاء: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

والأقرب أن مقصود الصلاح هنا أن يكون المولود سليماً معافى صحيحاً من غير علة ولا إعاقة ولا تشويه.

والقصة المروية بأن الشيطان وسوس لآدم وحواء واقترح عليهما تسمية المولود عبد الحارث حتى يسلم من الأذى رواية مضطربة المتن والإسناد[٢]، ولو صحّت لكانت ذنباً أعظم من أكلهما من الشجرة وأولى بالاعتذار[٣] والتوبة وطلب المغفرة والرحمة.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٧٥.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٠/٦٢٢، البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/٢٢٥.

(٣) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٧٦.

فالجزء الثاني في الآية متعلق بكل أبوين أشركا مع الله غيره وليس بآدم وحواء على التعيين، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. ولذا قال الشيخ السعدي: أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام في الجنس[١].

تعلم قابيل من الغراب طريقة الدفن، والغراب طائر فاسق وقابيل فاسق يتعلم من فاسق، فالعلم ليس محصوراً من أحد ويُؤخذ من كل أحد، كما تعلم النبي المعصوم سليمان عليه السلام من الهدهد وتحقَّق من نبئِه وبنى عليه.

والحضارة تراكم إنساني، وأسعد الناس بها من أسهم في بنائها وانفتح على خيرها وتخفّف من شرها.

والأفراد كما الأمم يجب أن يقبسوا من أصلهم الأول ديمومة التعلم والتعليم، وطلب الزيادة من العلم، والتعبّد بالمعرفة حتى الموت[٢] ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وورد في التاريخ أن آدم عليه السلام أول من وضع الخط والكتب[٣]، وفي هذا الدرس بيان لاستعداد الناس للتعلّم والتعليم، وأن ذلك من فطرة الله تعالى للإنسان، وأنه السنّة الدائمة للبشرية حتى تقوم الساعة.

- قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].
- وقال تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].
- وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣].

ثم جاءت الدعوة للبشر للنظر في الكون وفي الأرض، وكانت أول آيات

---

(١) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ص٣١١، بتصرف.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٧٧.
(٣) شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص٤١.

نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وجعل رسول الله ﷺ العلم فرضاً، فقال: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**»[(١)]، والحديث عن ذلك طويل وواسع.

ويقترن بطلب العلم الاختبار بين المتعلمين للتنافس من جهة، وبيان الأفضل والأحسن من جهة أخرى، وتحديد الأجدر بالتفوق من جهة ثالثة، وهو ما تطبّقه البشرية منذ القدم، وتعقد لها الاختبارات اليومية والشهرية والفصلية والسنوية، سيراً على منهج الله وشرعه الأول[(٢)].

ب ـ نشأة اللغة:

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، حيث يؤكد هذا النص القرآني الكريم أن الإنسان بدأ عالماً عابداً ناطقاً متكلّماً بلغة منطقية مفهومة، في الوقت الذي ينادي فيه أغلب علماء الدراسات الإنسية «الأنثروبولوجية» بأن الإنسان الأول لم تكن له القدرة على الكلام، ولم تكن له لغة يتكلم بها مع غيره سوى لغة الإشارة؛ باليد الواحدة أو باليدين، وكذلك يصرّ بعض علماء الدراسات الإنسانية اليوم على أن الإنسان الأول لم تكن له أي عقيدة محدّدة، أو أي معرفة بذاته أو بالكون من حوله، ثم تعلّم اللغة من الطيور ومن غيرها من الحيوانات، وتعرّف على الله بعد ذلك من خوفه من الظواهر الطبيعية وفزعه من آثارها، وانطلاقاً من هذا الفهم الخاطئ كتب مايكل كورباليس، الأستاذ بجامعة برنستون الأمريكية كتاباً بعنوان: **(في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم)**[(٣)].

---

(١) سنن ابن ماجه، ١/ ٨١، رقم ٢٢٤، صحح معناه النووي.

(٢) شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٢.

(٣) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، ١/ ٩٠

وجاء في هذا الكتاب ما ترجمته: وأنا أزعم أن اللغة في معظم هذه الفترة كانت إشارية في الدرجة الأولى، على الرغم من أن الأصوات أخذت تتخلّلها بصورة متزايدة.

ويضيف: وقد يكون إصدار الأصوات قد خدم جزئياً في نشأة اللغة، لكونه إضافة إلى إشارة الوجه والفم واليدين، وجعل الإشارات غير المنظورة لكل من اللسان والتجويف الفموي مسموعة، واللغة بالطبع ـ حتى لغة اليوم ـ نادراً ما تكون صوتية خالصة.

وهذا التضارب في تحقيق قضية غيبية كقضية نشأة اللغة عند الإنسان سببه الانخداع بفكرة التطور العضوي التي فنّدتها الكشوف العلمية أخيراً، ودحضتها دحضاً كاملاً، خاصة في مجالات مثل مجالات علوم الوراثة، وعلم الخلية الحية، وعلم الأحياء الجزئي[(١)].

وجميع ما وُضع من نظريات وفروض لتفسير نشأة اللغة بعيداً عن حقيقة خلق أبينا آدم عليه السلام خلقاً خاصّاً، وتعليم خالقه له الأسماء كلها لحظة خلقه، وعن تهيئة جسد الإنسان تشريحيّاً للنطق بالكلام، هي نظريات وفروض باطلة، ويدحض تلك الفروض والنظريات التقارب الشديد بين جميع لغات أهل الأرض، وشيوع العديد من الألفاظ بينها، خاصة بين اللغات القديمة منها، مع تسليمنا بأن اللغة تنمو وتتطور كما ينمو ويتطور كل كائن حي، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن أكثر من خمسين في المائة من ألفاظ كل من اللغتين السريانية والعبرية هي ألفاظ عربية الأصل، وبالتحليل الدقيق للغات أهل الأرض، التي يقدَّر عددها اليوم بأكثر من خمسة آلاف لغة ولهجة، يمكن ردها إلى أصل واحد هو لغة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وقد كانت هي اللغة العربية، كما جاء في عدد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والآثار الإنسانية التي

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، ١/ ٩٠.

كُشف عنها. ومن أقوال ربنا تبارك وتعالى المؤيدة لهذا الاستنتاج ما يلي:

ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

ـ وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

كذلك فإن خلق الإنسان مُزوَّداً بأجهزة للسمع والنطق، منها الأذنان، واللسان، والتجويف الفموي، والحبال الصوتية المرتبطة بجهاز عصبي غاية في دقة البناء وإحكام الأداء، ينفي بشكل قاطع جميع ادعاءات الدهريين بأن الإنسان بدأ وجوده جاهلاً كافراً، أبكم، ثم تعلم النطق بتقليد أصوات الحيوانات من حوله، كما تعرّف على الله من فَزَعِه من الظواهر الطبيعية، وعلى الرغم من وضوح ذلك فإن كثيراً من الملاحدة والمشركين ـ الذين زادت أعدادهم زيادة مفزعة في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ لا يزالون يتنكرون لخالقهم وينسبون كل شيء إلى الطبيعة، دون أن يتمكنوا من تحديد دقيق لمدلول لفظ «الطبيعة» الذي ابتدعوه للتهرّب من نسبة الخلق إلى الخالق عز وجل(١).

أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بأن الإنسان خُلق عالماً عابداً ناطقاً مفكّراً مزوّداً بكل صفات التكريم التي كرّمه الله بها، مزوّداً كذلك بكل الأدوات اللازمة لتأهيله بالقدرات المطلوبة لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض والقيام بتكاليفها(٢).

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، ١/ ٩٢.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٩٢.

إن اللغة وسيلة لمعرفة أسماء الأشياء، وهكذا نعرف أن الله قد قذف بالإلهام أسماء الأشياء في إدراك آدم عليه السلام، وكان إدراك آدم توفيقياً؛ أي إنه عرف كل اسم لكل مسمّى كما خلقه الله تعالى، ثم نزل إلى الأرض لتتطوَّر هذه المُسمَّيات ويَعملُ العقلُ الإنساني لتطوير وتحديد الأشياء، ما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقّة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق عزَّ وجلَّ.

إن الله تعالى قذف بالإلهام كل الأسماء في قلب ووجدان وإدراك آدم، بدليل أن «المُسمَّيات» قد عُرضت على الملائكة فلم تعرف أسماءها، ولم تتعرف الملائكة على المُسمَّيات، وذلك من طلاقة قدرة الله تعالى عندما ألهم آدم فتعلّم آدم الأسماء[١].

ج ـ من لمحات الإعجاز الغيبي:

إن الإشارة القرآنية إلى تعليم الله عزَّ وجلَّ لأبينا آدم عليه السلام الأسماء كلها، «أي أسماء كل شيء بمسمياته»، تبقى لمحة من لمحات الإعجاز الإنبائي الغيبي التي لو لم يخبرنا بها ربنا تبارك وتعالى ما كان أمام الإنسان من سبيل للوصول إليها، وتضاربت آراء غير المسلمين في تفسير نشأة اللغة عند الإنسان، كما ضربنا مثلاً واحداً على ذلك بكتاب مايكل كورباليس الذي سبقت الإشارة إليه، «وغيره كثير».

فقد خلق الله أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وفي فم كل واحد منهما لسان ينطق به، وجعل لكل منهما حَنجرةً، وعدداً من الأوتار الصوتية، وشفتين، وصفّين من الأسنان، ورئتين، وهذه هي المكونات الأساسية للنطق، التي يحركها المخ والجهاز العصبي، وينظّم حركاتها في أثناء الكلام حتى تخرج الحروف والألفاظ جلية واضحة، والمنطق السوي يحكم بأن الله تعالى لم يزوّد أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بهذا الجهاز المُتقَن للكلام ثم يدعهما أبكمين

---

(١) قصص الأنبياء، محمد متولي شعراوي، ١/ ١٣.

لا يعرفان لغة يتكلمان بها، ولا يجدان إلا الإشارة وسيلة للتفاهم بينهما.

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن اللسان البشري يتألف من سبع عشرة عضلة متشعّبة في مساحته بالكامل «ثماني عضلات منها مزدوجة، وعضلة واحدة مفردة، ويتخلل هذه العضلات ويحيط بها أعداد من الخلايا والأنسجة المتخصصة التي من بينها أنسجة دهنية وليمفاوية، وأعداد من الغدد اللعابية التي تُبقي اللسان رطباً باستمرار، ويغلّف ذلك كله بغشاء مخاطي رقيق، وبناء على هذا التركيب المرن جداً يستطيع الإنسان تحريك لسانه في كل الاتجاهات بمرونة كبيرة كذلك، وترتبط عضلات وأنسجة اللسان بالفك الأسفل بوساطة عظمة ذات رأسين تحكم حركتها ولا تعوقها.

وأما الشفتان اللتان يَستكمل وجه الإنسان بهما جماله وإحساسه وقدرته على النطق، فهما مليئتان بالأوعية الدموية التي تتفرّع بكثافة عالية في الأغشية المخاطية المكوِّنة لهما، ولذلك تبدوان باللون الأحمر، وهناك حزمة متمركزة من العضلات اللافّة حول الشفتين لتمثّل واحدة من مجموع العضلات المعقّدة المعينة على النطق بالكلام، والمحدِّدة لتعبيرات الوجه، وتؤدي الشفتان في الإنسان دوراً مهمّاً في النطق، فعند الكلام تجمع الحبال الصوتية في مكان واحد، وتهتزّ جراء حركة تيار الهواء الخارج عند الزفير، كما يتحرك كل من اللسان والشفتين والأسنان فيتمكَّن الإنسان من النطق بالكلام.

وكذلك صَمّمت القدرة الإلهية المبدعة كلاًّ من الأنف والفم في الإنسان على أن يعطيا جميع المواصفات الخاصة بإطلاق الصوت، وفي الوقت الذي تبدأ فيه الكلمات بالخروج من الفم بسلاسة فإن اللسان يأخذ وضعاً من الاقتراب والابتعاد من سقف الفم بمسافات محددة، وتتقلص الشفتان أو تتوسعان، ويتحرك في هذه العمليات العديد من العضلات بشكل سريع حتى يتحقق النطق عند الإنسان، ولولا هذا البناء المحكم لجهاز النطق ما استطاع الإنسان الكلام على الإطلاق، ومن هنا يمنُّ الله الخالق البارئ المصور على الإنسان بقوله:

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

وهل يمكن لعاقل أن يتصور خلق أجهزة الكلام المعقّدة في الإنسان بغير تقدير الله؟[١]

وهل يمكن أن يقدّر الله سبحانه للإنسان هذا كله ثم لا يعلّمه لغة يعرف بها أسماء الأشياء؟

ومن هنا يأتي هذا النص القرآني: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

معجزة علمية حقيقية، كما يأتي معجزة إنبائية غيبية، تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العليّة في لغة وحيه نفسها ـ اللغة العربية ـ وحفظه دون نقصٍ أو زيادةٍ واحدةٍ على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهّد بهذا الحفظ تعهّداً مطلقاً إلى أن يشاء الله، حتى يبقى القرآن الكريم حجّة الله البالغة على الخلق أجمعين إلى يوم الدين[٢].

د ـ لماذا سُمِّيَ آدمَ؟:

اختلف أهل اللغة في اشتقاقات اسم آدم على أربعة أقوال:

الفريق الأول: سُمِّيَ آدم لأنه خُلق من أدمة الأرض؛ أي وجهها[٣].

الفريق الثاني: قالوا إنه مشتقّ من السُّمرة من لونه، يقال: رجل آدم نحو أسمر، يعني أنه مشتق من الأدمة وهي سمرة اللون[٤].

الفريق الثالث: يُسمَّى بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرّقة[٥].

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، ١/ ٩٥.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٩٥.
(٣) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، ص١٩.
(٤) المرجع نفسه، ص١٩.
(٥) المرجع نفسه، ص١٩.

الفريق الرابع: قالوا سُمِّيَ بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخة فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

ورجّح الكثير من العلماء رأي الفريق الأول؛ أن آدم مشتق من أدمة الأرض، وذلك لما دلّت عليه أحاديث خلق آدم من التراب[١].

ورجّح الدكتور عبد الحليم محمود أحد هذه الأقوال، فقال: أما كلمة آدم فقد تعوّد الناس أن يقولوا في سبب التسمية بها إنه سُمِّيَ بآدم لأن جسده خُلق من أديم الأرض، أي وجهها، أو لأن لونه يميل إلى السمرة، يقال: رجل آدم أي مائل لونه إلى السمرة، وأما الرأي الجميل في التسمية فهو أنه سُمِّيَ بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخ فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ومن ذلك قولهم: الإدام، وهو ما يطيَّب به الطعام.

ولقد استشار رجل الرسول ﷺ في الزواج فقال له: «**لَو نَظَرتَ إلَيها فإنَّه أَحرَى أَن يؤدَمَ بَينَكما**»، يؤلّف ويُطيَّب.

فالتسمية بآدم ـ على هذا الوجه الذي نرتضيه – ـ إنما هي إشارة وتوجيه نحو التحلّي بالكمال المستطاع، وذلك بالخلق وبالعقل وبالفهم والرويّة وبكل حَسَن طَيِّب[٢].

ولم يتناول العلماء السابقون تعريف آدم عليه السلام اصطلاحاً، ولكن وجدناه عند بعض العلماء المحدثين، من هذه التعريفات:

ـ آدم عليه السلام هو أول إنسان خلقه الله، وهو أول الجنس البشري، ومنه ومن زوجه خلق الله بَنيه الذين عمّروا الأرض من بعده، وهو أول اسم ذكره الله

---

(١) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٩.
(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٥١.

فيمن اصطفاهم على العالمين(١)، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

ـ هو أول مخلوق من البشر ظهر على سطح الأرض في هذا الوجود، فهو أبو الناس جميعاً، وإليه ينتمي جميع سكان الأرض من الإنس، وليس قبله مخلوق من النوع الإنساني على الإطلاق(٢).

هـ ـ حرية التعبير عند آدم عليه السلام:

إن أول تعليم علّمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

«الأسماء كلها»: ليقول ما يريد، ويسمّي الأشياء كلها بأسمائها، بينما ترى اليوم أن تسمية الأشياء بأسمائها قد تكون لها تبعات وتَجرُّ إلى مشكلات.

والعلاقة متينة بين خلق الله للإنسان وتعليمه البيان، فقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

فلم يكن أول شيء علّمه الله لآدم هو أداء صلاته، أو كسب قوته، أو ستر عورته، بل أول شيء علّمه إياه بعد خلقه أو مع خلقه هو البيان، والأسماء المحتاج إليها لأجل البيان، وقال تعالى عن بداية خلق الإنسان: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ٩].

ومعلوم أن أكبر وظيفة للسان والشفتين هي وظيفة التعبير والبيان، وعلى العكس من هذا نجد نبي الله إبراهيم عليه السلام يُعرِّض بالأصنام وعجزها وتفاهتها بكونها لا تقدر على النطق، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣].

---

(١) الارتباط الزمني بين الأنبياء، محمد وصفي، ص٥.
(٢) الابتلاء وأثره في حياة المؤمن، عبد الله ميرغني، ص٨٣.

فالذي لا ينطق ولا يعبّر إنما هو تمثال لا إنسان: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

إن وظيفة التعبير والبيان هي من أعظم الخصائص والمواهب الفطرية التي ميّز الله بها الجنس البشري، وجعلها في تكوينه من أول أمره، فهي تشكّل جزءاً من هوية الإنسان وماهيّته، وهذا يدل على الأهمية البالغة التي تكتسبها وظيفة البيان في حياة الإنسان وفي حياة الجماعة البشرية، ولا شك في أن البيان ـ الذي يشكّل جزءاً من فطرة الإنسان وهويّته ـ إنما يتجسّد في التعبير الصادق عما في النفس وما في العقل وما في القلب، ففطرة الإنسان وأصالته تتمثّل في تسميته الأشياء بأسمائها الحقيقية، أي في تعبيره الصادق والمطابق عما في قلبه وضميره.

ومما يؤكد فطريّة هذا السلوك وانحراف مخالفته عن هدي الفطرة هو كون الناس جميعاً يحبّون الإفصاح والصراحة، ويحبّون الإنسان الصريح، ويحبّون من يقول الحقيقة، وليست الصراحة المحبوبة فطريّاً سوى التعبير الصادق السويّ عما في القلب حينما يتطلّبه المقام[١].

وضدّها إما يكون بعدم التعبير عما في النفس أو التعبير بخلاف ما في النفس، ويؤكد العلامة ابن عاشور أن صفة الحرية كلها ـ وضمنها حرية القول ـ هي صفة فطرية وضرورية لكل تقدُّم بشري، حيث قال: إن الحرية خاطر غريزيٌّ في النفوس البشرية، فيها نماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق، فلا يَحِقُّ أن تُسام بقيد إلا قيداً يُدفع به عن صاحبها ضرٌّ ثابت، أو يُجلب به نفع[٢].

---

(١) الحريات من القرآن الكريم، علي الصلابي، ص٧٩.
(٢) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، ص١٦٢.

وإذا ثبت واتَّضح أن خاصيَّة البيان والتعبير هي صفة فطرية خلقية في الإنسان، فمعناه أنها تفوق درجة الحقوق المكتسبة، وترتقي إلى درجة «الحقوق الطبيعية»، أو لنقل إنها ليست فقط حقّاً من حقوق الإنسان، بل هي صفة من صفات الإنسان، وفرق كبير بين أن يُجرّد الإنسان أو يُنتقَصُ من بعض حقوقه، وأن يجرد أو ينتقص من بعض صفاته الذاتية؛ ففي الحالة الثانية يُصاب الإنسان في صميم إنسانيته وليس فقط في حقٍّ من حقوقه.

ولذا يرى ابن عاشور أن موقف تحديد الحرية موقف صعب وحرج ودقيق على المشرّع غير المعصوم، فواجب ولاة الأمور التريّث وعدم التعجّل، لأن ما زاد على ما يقتضيه درء المفاسد وجلب المصالح الحاجية من تحديد الحرية يُعدُّ ظلماً[١].

وقال: اعلم أن الاعتداء على الحرية نوع من أنواع الظلم[٢]؛ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، إن الله عزَّ وجلَّ جعل لآدم القدرة على التعبير عما في النفس من مشاعر وخواطر وأفكار، والرمز بالأسماء للمسمّيات، وإطلاق الأسماء على الأشياء كلها، سواء كانت مخلوقات حيَّة أو جماداتٍ أو أفكاراً ومعانيَ وتصوُّراتٍ. فالآية القرآنية وضَّحت أن الله عزَّ وجلَّ علّم آدم عليه السلام ومكّنه من النطق والرمز بالأسماء لكل المُسمَّيات[٣].

و ـ المراد التربوي من تعليم آدم الأسماء كلها:

في ضوء قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

لقد شرّف الله العليم سبحانه آدم وكرّمه بتعليمه علم الأسماء، الذي عَرَف به عليه السلام جميع موجودات الوجود اسماً ووظيفة، فعلِمُ آدمَ كان موهوباً من الربِّ

---

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، مرجع سابق، ص١٧٧.
(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٢٨٧.
(٣) سفر التكوين في ميزان القرآن من آدم إلى إبراهيم، صلاح الخالدي، ص٥٦.

الأعلى من غير كسب ومشقّة، بينما العلم الذي أُعطي لأبناء آدم فهو مكسوب وحافل بالتعب والعناء، ولكن الله فطر الناس على الاستعداد لكسب هذا العلم لكي يسخّروا أشياء الكون، ويؤدّوا مسؤولياتهم تجاه خلافة الأرض[١].

وبهذا العلم الرباني والهِبة الإلهية يتحقّق العلم بالأسماء معرفة ومفهوماً واستخداماً وإدراكاً من أجل التعبير عن حقيقة الأشياء وكشف أسرارها والاستفادة منها والرقيِّ بوظائفها وتطويرها[٢].

فالأسماء هي المفتاح الحقيقي الذي نفتح به معنى المعرفة، كما أن من عظمة التعليم الرباني في حكمة الله القاضية بجعل علم الأسماء علماً كاملاً غير منقوص لأنه من الله وحده، الذي له الكمال المطلق، ولأن مرادات الله التي ظهرت لنا كانت من خلال كلامه سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

إن هذا العلم الكامل هو الأساس في تهيئةِ آدمَ وإعداده للخلافة في الأرض، ليكون أهلاً للخلافة ومتسلّحاً بالعلم في حياته، إذ إن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود، والتعليم الكامل للأسماء يعني اكتمال الإدراك للوجود، وهذا يعني تعليم الأسماء معرفة ومفهوماً واستخداماً وتفاعلاً حقيقيّاً في الحياة، فأصبحت الأسماء هي الأساس الذي قام عليه علم البشر، فالقيمة بتعليم آدم الأسماء كلَّها تتمثَّل في المغازي التربوية الآتية:

ـ الدرس التربوي الأول تلقاه آدم عليه السلام من الله عزَّ وجلَّ، فإن معرفة الأسماء والعلم بها توقيفية من الله ابتداء لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ثم تكون للأجيال من بعده

(١) الإنسان الصالح، علي خميس الغامدي، ص١٧٨.
(٢) المرجع نفسه، ص١٧٨.

بالاكتساب، حيث يعلّمها الجيل الأول للأجيال اللاحقة بالتربية والتعليم، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

ـ الأسماء تجعل الإنسان مُدرِكاً لحقائق الوجود كما هي، وتتميَّز هذه الحقائق على غيرها، كما أنها تُمكِّن الإنسان من القدرة على التعبير عن مفردات الوجود وحقائقه المتعدِّدة.

ـ معرفة الأسماء تجعلنا قادرين على تحديد قيمة الأشياء إيجاباً أو سلباً، وتساعدنا على تمييز الحسن من القبيح، كما أنها تساعد على إدراك أسماء الأشياء وأسماء الأشخاص وأسماء المعاني ونُعبِّر عنها جميعاً، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ـ تعليم آدم الأسماء هو القاعدة الصلبة والدعامة الحقيقية لفهم العلوم، واكتساب المعرفة، وتطوير الحياة، وتحسين ظروف العيش والبناء، كما أنها أكسبت الإنسان إدراكاً واعياً يجعل العقل هو الأساس، والغريزة تابعة مطيعة له، وأما الحيوان الذي حُرم من هذا العلم المفيد فالغريزة هي التي تُحدِّد حركتَه وسلوكه.

ـ إن تعليم آدم الأسماء هو علم ربانيٌّ موهوب كامل يدلُّ على كمال الله الذي علّم الأسماء، وتعليمها قبس من علم الله، وثمرة ذلك العلم هو القدرة على استيعاب الأسماء كلها.

ـ تعليم آدم يساعد على معرفة الله بأسمائه وصفاته ودعائه بها، ويُعين الفرد على الإيمان والعمل الصالح(١).

---

(١) الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص١٨١.

خامساً: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]:

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ يعني المُسمَّيات، أي عرض تلك الأسماء على الملائكة[١]، أي أطلعهم إطلاعاً إجماليّاً بالإلهام الذي يليق بحالهم على مجموع تلك الأشياء، ولو عُرضت على نفوسهم عرضاً تفصيليّاً لعلموها، ولم يكن علمهم محدوداً، والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز: ﴿ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

والأمر في قوله: «أنبئوني» ليس بأمر تنفيذ؛ إذ لا علم للملائكة بهذه الأسماء المسؤول عنها، ولو طُلب منهم الإجابة بما لا يستطيعونه لكان تكليفاً بما لا يُطاق، وذلك غير واقع في الشرائع؛ لقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وإنما المراد به هو إظهار عجز الملائكة عن علم ما يرون من المُسمَّيات المعروضة عليهم لتَتبيَّن بذلك الحكمةُ الإلهية من خلق آدم عليه السلام[٢].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، للعلماء في هذه الجملة قولان:

أحدهما: أي إن كنتم صادقين فيما اختلج في خواطركم من أني لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم وأكرم عليَّ منه.

والقول الثاني: ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في أنّ بني آدم يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيها، وأنكم الأجدر بالاستخلاف منهم[٣].

ودلالة القرآن تحتمل القولين، ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون بعض الملائكة قال بهذا والبعض الثاني قال بذاك، فيكون اختلاف العلماء في تفسير

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٧٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٨٠.

قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ من باب اختلاف التنوّع، والله أعلم بالصواب[١].

سادساً: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]:

طلب الله من الملائكة أن يخبروه بأسماء المُسمَّيات المعروضة مع أنه يعلم أنهم سيَعجزون لأنه لم يُعلِّمْهم إياها من قبل، ولكنه أراد أن يقدّم لهم الحكمة من الاستخلاف بطريقة عملية[٢]. وكانت إجابة الملائكة اعترافاً بالعجز عن معرفة أسماء المُسمَّيات المعروضة عليهم.

الاستفتاح بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾؛ قبل الجواب إنما هو للتأدب مع الله أن يحيط أحد بالحِكَم الإلهية من وراء خلق مخلوقاته[٣].

وبدؤوا جوابهم بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بالكمال والجلال، ثم اعترفوا بقصور علمهم، وأنهم لا يعلمون الجواب لأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله إياه.

وفي هذا الاعتراف الملائكي دليل على أن علم الملائكة هبة من الله سبحانه، وأنه ليس علماً ذاتيّاً مكتسباً. ما علَّمهم الله إياه يعلمون، وما لم يعلمهم الله لا يعلمونه، فهناك أشياء كثيرة يجهلونها ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وقصور علم الملائكة وجهلهم بأشياء كثيرة لم يعلّمهم الله إياها دليل على أنَّ العلم الكامل الشامل إنما هو لله وحده سبحانه.

وبعدما اعترفوا بقصور علمهم أثنوا على الله بما يستحقه، وجمعوا بين وصفه بالعلم ووصفه بالحكمة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٤].

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٨٢.
(٢) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٦٧.
(٣) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٨٢.
(٤) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٦٧.

١ ـ العليم سبحانه وتعالى:

إن اسم الله العليم ذُكر بوضوح في قصة آدم عليه السلام، وأبونا آدم في علمه أثر من علم الله عزَّ وجلَّ، وكان على يقين بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، ولا بد للإنسان من معرفة اسم الله العليم، وأن يبذل ما في مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته، وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده، وأَولاها بالإيثار، وأحقَّها بالتحقيق.

وقد تحدثنا عن اسم الله عزَّ وجلَّ «الرَّب» وعلاقته بقصة آدم عليه السلام، وأحاول كلما مررتُ باسم من أسماء الله الحسنى في قصة آدم عليه السلام أن أقف معه وأبيّنه للقارئ الكريم.

فعندما نتدبَّر اسم الله العليم نعلم أن العلم كلَّه بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فهو يعلم الأمور المتأخّرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيرَها وصغيرَها وكبيرَها، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منه وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات والمستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى ويعلم ما فوق السماوات العُلا، ويعلم جزئيات الأمور وخفايا الصدور، وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض لعلمه تعالى خفاء ولا نسيان، كقوله في غير موضع: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] [1].

أ ـ معنى اسم العليم ومتعلَّقات علم الله عزَّ وجلَّ في خلقه سبحانه وأمره:

ـ معنى اسم الله العليم: قال ابن جرير الطبري رحمه الله عن قوله تعالى:

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٣٣٥.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون خلقك(١).

وقال السعدي رحمه الله: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء(٢).

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدّاً؛ منها:

ـ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ـ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

*** ذكر بعض متعلقات علم الله عزَّ وجلَّ في خلقه سبحانه وأمره:**

ـ شمول علم الله عزَّ وجلَّ لكل شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقال عز وجل: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ١٧٥.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٢٩٩.

ـ علمه الشامل لكل ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، قال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ـ علمه المحيط واختصاصه بمفاتح الغيب، وبما يحدث من صغير أو كبير في البرّ والبحر، قال الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ـ علمه المحيط بمكنونات القلوب وما تخفيه الصدور، وما توسوس به النفوس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ومن ذلك علمه سبحانه بكل ما يقوله العباد ويعملونه سرّاً وعلانية، في ليل أو نهار، فُرادى أو جماعات، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ـ علمه الشامل بما في الأرحام لكل أنثى، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا

تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ـ علمه سبحانه بكل الأشياء قبل وقوعها، وأن ذلك في كتاب، وله الحكمة البالغة في تقديرها، قال سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

ـ علمه سبحانه بأحوال عباده تَقِيِّهم من فاجرهم، وغَنيِّهم من فقيرهم، وغير ذلك من الفوارق، وذلك قبل أن يخلقهم ويكلّفهم، وأن توفيقه لمن يشاء وخذلانه لمن يشاء إنما يكون عن علمٍ بأحوال عباده، وعن حكمةٍ بالغة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال عن أصحاب محمد ﷺ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ ﴾ [الفتح: ٢٦] (١).

ـ علمه المحيط الدقيق بكل مناجاةٍ بين اثنين فأكثر مهما أسرّوا النجوى، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

وقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

ـ علمه الشامل لما ينزل من الشرائع على رسله، وأنه سبحانه أعلم بما ينزل، وأعلم بما يصلح لعباده: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٣٣٧.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وكثير من آيات الأحكام يختمها الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾، ليخبرنا الله عزَّ وجلَّ أنه إنما يشرع بعلم وحكمةٍ، يقول عز وجل: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] [(١)].

ـ هذا العلم الذي يعلمه الإنسان المحدود من علوم الدين والدنيا إنما هو من تعليم الله تعالى له، واختصاصه له بالعقل، وقابليته التعليم، وإلا فالإنسان كما قال عنه خالقه عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

ـ اختص الله عزَّ وجلَّ نفسَه بعلوم الغيب، قال سبحانه: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وذكر منها خمسة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ـ إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، أي إنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلية التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لم تقع لو فُرض أنها تقع كيف

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٣٣٨.

تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧][١].

ولا شك في أن آدم عليه السلام آمن إيماناً عظيماً باسم الله العليم، وعرّف أبناءه بعظمة الله من خلال أسمائه، وتوارث الأنبياء والمرسلون والمصلحون والصالحون دعوة التوحيد ودعوا الناس إليها.

ب ـ آثار الإيمان باسمه سبحانه «العليم»:

عاش آدم عليه السلام وحواء، وكذلك أبناؤهم من الأنبياء والمرسلين، موحِّدين مستشعرين لعظمة الله وجلاله وجماله وهيبته وخوفه ومحبّته، وإيمانهم بعلم الله المحيط بكل شيء ولّد له ولبنيه الأخيار من بعده الخوف من الله عزَّ وجلَّ، ودفعهم ذلك إلى الاستقامة على أمر الله عزَّ وجلَّ ظاهراً وباطناً، فزكَت أعمالُهُ وأعمال بنيه الصالحين كذلك، بعد نزوله إلى الأرض وبداية مسيرة الحياة الإنسانية، وأثمر إيمانه بشمول علمِ الله لكل شيء في السماوات والأرض وللبواطن والظواهر في قلب آدم عليه السلام تعظيمَ الله تعالى والحياء منه، وطمأنينته إزاء ما يقضيه الله من الأحكام؛ كالمصائب والمكروهات التي لم تحدث إلا بعلم الله تعالى وحكمته، وأنها ليست عبثاً ولعباً.

وأثمر يقينه بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء الرجاءَ والأنسَ بالله، ودفع اليأس والقنوط من القلب، والإيمان باسمه تعالى العليم اقتضى محبّة آدم وحواء عليهما السلام للعلم والحرص عليه، وتطوير ملكاتهم وأدواتهم المعرفية؛ لأن الله سبحانه العليم يحب كل عليم، يسير في طريق التعلُّم والتعليم والمعرفة التي تدل على حقائق الأمور وتُعمِّق الصلة بالله عزَّ وجلَّ وعبادته على هذه الأرض.

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٣٤١.

إننا مطالبون بتعميق الإيمان في نفوسنا وتحقيق التوحيد في قلوبنا والسير على منهج الله في حياتنا، وإن التأمل في قصة آدم عليه السلام وجذور البشرية والوقوف مع أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا، والحرص على حفظها وفهمها والتعبّد بها، تفتح للإنسان الذي يريد أن يتصل بموكب أبيه آدم عليه السلام وبنيه من الأنبياء والمرسلين والمصلحين آفاقاً رحبة وحياة طيبة.

٢ ـ الحكيم:

ذكر الله عزَّ وجلَّ في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة اسم الله الحكيم على لسان الملائكة الكرام، حيث قالوا: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقد دلّت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة؛ أنه سبحانه «حكيم» لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل ما فعل، كما هي ناشئة عن أسبابٍ بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا، وهذا في مواضع لا تكاد تُحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها[١].

واسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه للأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه[٢].

«والحكيم» هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يُشرِّع سُدًى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة

---

(١) شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩٠.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٣١.

لا يشاركه فيها مشارك؛ فيحكم بين عباده في شرعه وفي قدره وجزائه، والحكمة وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها[١].

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحُكْم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تام القدرة، غزير الرحمة، فهذا الذي يضع الأشياء مواضعها ويُنزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجَّهُ إليه سؤالٌ، ولا يَقدَحُ في حكمته مقال[٢].

وورد اسمه سبحانه وتعالى «الحكيم» في القرآن الكريم في واحد وتسعين موضعاً، وفي جميع المواضع يرد هذا الاسم الكريم مقترناً باسم آخر من أسمائه الحسنى، ومن ذلك:

أ ـ اقتران اسمه سبحانه «الحكيم» باسمه عزَّ وجلَّ «العزيز»:

وقد تكرر هذا الاقتران في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، وغير ذلك من الآيات.

وعن سِرِّ اقتران هذين الاسمين الكريمين، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٦٢١.
(٢) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ص٥٠.

كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء، ويأمر وينهى، ويُثيبُ ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر(١).

ب ـ اقتران اسمه سبحانه «الحكيم» باسمه «العليم»:

وورد ذلك في القرآن كثيراً، وبعضها يتقدّم فيها اسم «الحكيم» على «العليم»، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وأكثر مواضع الاقتران يتقدم فيها اسمه «العليم» على «الحكيم»، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ويُلاحَظ أن المقامات التي يتقدم فيها اسم «العليم» على اسم «الحكيم» منوطة بالعلم أولاً ثم بالحكمة، ففي مقام الاعتراف بالعجز وقصور العلم يقابله الإقرارُ والتسليم للعليم، فإذا كان «العليم» هو «الحكيم» فذلك هو العلم البالغ حَدَّ الكمال، فيكون الاعتراف مصحوباً بغاية الرضا والتسليم(٢) ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ـ ومقام الصبر وانتظار الفرج يرتبط باسم الله «العليم» ارتباطاً قويّاً، وذلك أن العبد إذا كان عظيم الإيمان عميق الصِّلة بربه وتأخَّرَ عليه الفرج لم يتزعزع يقينه؛ لأنه معتمدٌ على علم الله عزَّ وجلَّ في اختيار الزمان الأنسب لما يرجوه من الفرج، معوِّل على حكمته في تهيئة الأسباب له ليقع على أحسن ما يكون، كما في قول يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

ـ ومثل ذلك يقال في مقام التواضع والتحدّث بنعمة الله وفضله؛ لأن قوامه

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم، مرجع سابق، ص٨١.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٣٠٣.

أحداث ترجع إلى علم «العليم» وحكمة «الحكيم»، كما في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ـ وأما مقام التشريع وإقرار الحكم، فالأمر فيه راجع إلى العلم الشامل أولاً؛ لأن العلم هو أساس بناء الأحكام، ثم تأتي الحكمة لِتُنزل الحكم على الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].

وتقديم اسم «العليم» على «الحكيم» لأن مبنى الأحكام على إحاطة العلم أولاً، ثم الحكمة في تنزيل العلم على الواقع بما يحقِّقُ الانسجام والتوافق بين الأحكام الشرعية والطبائع البشرية، وذلك ما يميز الشريعة الإسلامية على الدساتير والشرائع الوضعية.

وأما تقدّم اسمه سبحانه «الحكيم» على اسمه عزَّ وجلَّ «العليم» فيلاحَظ في مقامين هما:

ـ مقام التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ـ مقام إجراء المعجزات كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

وذلك لأنَّ مضمون الألوهية في مقام التوحيد قهرٌ وقوةٌ وغلبةٌ، يقابلها من العباد طاعةٌ وعبادةٌ وخضوعٌ، فتقديم الحكمة في هذا المقام ـ والله أعلم ـ لِيُعلم أن ألوهيّته عزَّ وجلَّ السارية على من في السماوات والأرض مسارُها الحكمة[١].

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٣٠٥.

ولا شك في أن آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ انفتح له بابٌ عظيمٌ في معرفة الله والإيمان به من خلال الأسماء الحسنى، فعاش مع اسم الله الحكيم وتجلّياته في حياته، وأثره في نفسه، وشواهده في الكون، والأحكام التي أُنزلت عليه، وحكمة الله في أفعاله وأقداره، فقد كان آدم عليه السلام يُدرِك في أسماء الله عزَّ وجلَّ من العبوديات وما يلازمها من الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، وأثرها في الحياة، وقد سار بنوه من الأنبياء على هديه.

وقد جاء اقتران اسم الله «الحكيم» في القرآن الكريم مع «العزيز» و«العليم» كما بيّنّا، وكذلك مع «الخبير»:

ـ قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١].

ـ وكذلك مع اسمه «العلي»، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

ـ وكذلك اقتران اسمه سبحانه «الحكيم» باسمه «التوّاب»، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٠].

فهذه دعوة للتأمل والتفكّر والعيش مع اسم الله الحكيم، في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

سابعاً: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣]:

١ ـ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾:

وآدم عيه السلام الذي كان بالأمس طيناً لازباً، ها هو اليوم صار أستاذاً

للملائكة يعلّمهم من الأسماء ما جهلوه، يكلّمه ربُّه بلا وساطة، ويجعله أباً للبشرية، وفوق ذلك اختاره نبيّاً ورسولاً إلى أهل الأرض.

قال ابن عاشور: وابتداء خطاب آدم بندائه في قوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾، مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الإلهي؛ للتنويه بشأن آدم، وإظهار اسمه في الملأ الأعلى، حتى ينال بذلك حَسَن السُّمعة مع ما فيه من التكريم عند الأمر[١].

٢ ـ ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾:

وما إن بدأ آدم عليه السلام بتسمية المُسمَّيات بأسمائها؛ هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وقد سمع آدمُ كلامَ ربّه ونفَّذه على الفور، وهذا يُثبت القول لله عزَّ وجلَّ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ؛ لأن آدم سمعه وفهمه فأنبأ الملائكة به، فالله عزَّ وجلَّ يتكلّم بكلام مسموعٍ، كلام مترتّب، بعضُه سابق لبعض، وآدم عليه السلام امتثل وأطاع ولم يتوقف وبادر وأنبأ الملائكة[٢].

وما إن بدأ آدم عليه السلام في تسمية الأشياء حتى استيقنت الملائكة شرف هذا المخلوق، فخضعوا واستسلموا لإرادة الله، لأنهم علموا أن آدم ما عُلّم هذه الأشياء إلا بإرادة الله، فبالعلم نال هذا المخلوق المكانة الرفيعة، وعِلم الأسماء ذو أهمية قصوى في حياة الإنسان؛ كيف لا والإنسان لا يستطيع العيش على هذه الأرض إلا بهذا العلم، وكيف ستكون حال الناس في التخاطب والتفاهم دون الأسماء؟ بالتأكيد ستكون حياتهم جحيماً، ولو كان هناك علم آخر يُظهر شرف آدم أكثر من علم الأسماء لعلّمه الله لآدم، ولو لم يعلّم الله آدم هذه الأسماء لكان آدم أعجزَ من الملائكة في الإخبار عنها[٣].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١/ ٧٩.
(٢) تفسير القرآن الكريم، محمد صالح العثيمين، ١/ ١٢٤.
(٣) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص٤٩.

٣ ـ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أي ما غاب فيهما، وهو نوعان؛ نسبيٌّ وعامٌّ، فأما النسبي فهو ما غاب عن بعض الخلق دون بعض، وأما العام فهو ما غاب عن الخلق عموماً(١).

وعموم علم الله عزَّ وجلَّ يتعلَّق بالمشاهدة والغائب؛ لقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، كما أن السماوات ذات عدد، لقوله: «السماوات»، و«الأرض» جاءت مفردة والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أي في العدد(٢).

٤ ـ ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

«وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ» أي: ما تُظهرون، «وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ» أي: تُخفون، وهذا يدل على أن الملائكة بعد أن أعلمهم الله بخلق آدم عليه السلام قد كان منهم قولان في شأنه:

أحدهما: مُعلَن منطوق به.

والثاني: سِرٌّ ومكتوم.

فأما الذي أعلنوه وأظهروه بألسنتهم في قول عامة أهل التفسير فهو قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. وأما الذي كتموه من القول فاختلف فيه أهل العلم على قولين:

أحدهما: أنه قولهم سرّاً فيما بينهم: إن الله تعالى لا يخلق خلقاً إلا كنّا أعلم منه وأكرم.

أما **الثاني**: أن الذي كتموه هو ما أسرّه إبليس من الكبر والعصيان(٣).

---

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، مرجع سابق، ١/ ١٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ١٢٤.
(٣) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٨٥.

﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ ﴾ أي: ما تُظهرون، ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ أي: تُخفون، والملائكة لها إرادات تُبدى وتُكتم، لقوله: ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾، والله عالم بما في القلوب سواء أُبدي أم أُخفي، والملائكة لها قلوب لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] [١].

فالله يعلم ما يُظهرون وما يُسِرّون، ويعلم من يصلح للخلافة على الأرض ومن يصلح لسكن السماء، فلا تعترضوا على حكمه وتدبيره وإرادته، فإنه عالم الغيب والشهادة.

وفي قصة آدم عليه السلام واستخلافه تركز ذكر العلم في ثلاثة مجالات:

- إثبات العلم الشامل لله عزَّ وجلَّ.

- نفي العلم عن الملائكة إلا ما علّمهم إياه ربُّ العزّة.

- إثبات التعليم لآدم عليه السلام بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم [٢].

ويظهر من خلال الآيات الكريمة في قصة آدم عليه السلام فضل العلم وأهله، وفي الحديث: «**وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أَجنحتَها رضا لطالبِ العلمِ**» [٣]، أي: تخضع وتتواضع، وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدَّبت بذلك الأدب [٤].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، مرجع سابق، ١/ ١٢٤.

(٢) الحوار والاستدلال في القرآن، خالد الياسين، ص٤٩٥.

(٣) مسند أحمد، ١/ ٢٤٠، سنن الترمذي، ٥/ ٥٠٩ ـ ٥١٠، صحيحه ابن حبان، ٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨، رقم: ٣١٩.

(٤) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ١٩٨.

ثامناً: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]:

هذه الآية الكريمة تسجّل إحدى الوقائع الغيبيّة المهمّة في قصة خلق أبينا آدم عليه السلام لم يشهدها أحد من ذريته، وإيرادها في كتاب الله يمثل وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي الغيبي[1].

ومعنى هذه الآية الكريمة يؤكّده ربنا تبارك اسمه في مواضع أخرى في محكم كتابه العزيز:

ـ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ [طه: ١١٦].

١ ـ الأمر بالسُّجود لآدم نقطة محورية في قصة آدم:

بتتبّع الآيات الواردة في قصة آدم نجد أن النقطة المحورية والركيزة الأساسية في قصة آدم عليه السلام هي سجود الملائكة لآدم مقروناً برفض إبليس له، فلا تخلو سورة من السور التي تناولت قصة آدم من ذكر هذه النقطة؛ وَرَدَتْ

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، النجار، مرجع سابق، ١/ ١٠٣.

بسياقات مختلفة كلها تؤدي إلى ذلك المعنى، كما مر معنا في سورة البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وفي طه، وفي سورة ص، وجاء في سورة الحِجر وحدها بلفظ الخبر: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ [ص: ٧٣ ـ ٧٤].

وأوَّل آية تضمَّنت الأمر بالسُّجود لآدم جاءت في سورة البقرة بعد إعلام الله ملائكته بخلقه آدم لقصد الاستخلاف في الأرض، وبعد بيان فضله عليهم بتعليمه من الأسماء ما عجزت الملائكة عن الإنباء به، فبان للملائكة ما خفي عنهم من شأن هذا المخلوق الجديد، وليس الأمر كما ظنّته الملائكة بأن دوره في الأرض ينحصر في سفك الدماء والإفساد في الأرض، ولم يزل الله يرفع شأنه حتى جعل الملائكة تسجد له.

ولتأكيد أهمية هذا المخلوق ومكانته عند الله تعالى جاء الأمر للملائكة بالسُّجود له في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريّته؛ حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسُّجود لآدم(١).

٢ ـ وجه سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

لم يكن القصد من سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة آدم بذلك السُّجود، بإجماع المسلمين، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله طاعةً له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وإظهاراً لفضله، وتنويهاً بمكانته عند الله.

أ ـ حقيقة السُّجود الذي أُمر به الملائكة:

السُّجود في لغة العرب التَّذلُّل والخضوع، وقد يكون معه انحناء. وحقيقته

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٢٧.

في الشرع وضع الجبهة على الأرض، وقد اختلف أهل العلم في نوعية هذا السُّجود، والصحيح الذي عليه الجمهور أنه كان بوضع الجباه على الأرض؛ لأن السُّجود إذا أُطلق انصرف إلى السُّجود المعروف في الشرع، ولو أريد غيره لقُيِّد بما يفيد ذلك[1]. وهذا سجود تكريمٍ لا سجود عبادةٍ، فهو شبيه بقوله تعالى في شأن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد اتّفق علماء الإسلام أن العبادة لا تكون إلا لله، والسُّجود على وجه العبادة لا يكون لملكٍ مقرَّبٍ ولا نبيّ مرسلٍ؛ بل يكون لله وحدَه.

هل كان آدم قِبلة لهم في السُّجود؟

لو كان كذلك لكان الأنسب أن يُقال: اسجدوا إلى آدم، فالسياق استعمل لفظ ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ في جميع المواضع التي وردت فيها القصة.

هل كان آدم إماماً لهم وهم يسجدون وراءه؟

هذا لا يساعد عليه السياق، وهو قول مُتكلَّف.

هل كان السُّجود بمعنى الانحناء؟

يُشكل على هذا قوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، والوقوع ظاهره الخرور إلى الأرض.

وهل السُّجود تعبير عن توكيل الملائكة بشأن آدم والقيام على أمره وأمر ذرّيّته وحياتهم ومماتهم؟

في التنزيل بيان تكليف الملائكة بأمر نفخ الروح، ونزع الروح، وأمور الرحمة، وأمور العذاب، وما شاء الله من أمر كتابة الأعمال والأحوال

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١١٦.

والحسنات والسيئات، وتكليف الملائكة بذلك حق ثابت، ولكن لا يحسن قصر معنى السُّجود عليه، فثمَّ موقف غيبي أُمر الملائكة فيه بالسُّجود لآدم ففعلوا وامتنع إبليس، وهو سجود حقيقي يناسب خلق الملائكة وما جُبلوا عليه مما يعلمه الله ولا نعلمه نحن ولا نستطيع تكييفه(١).

فللسجود أوضاع وهيئات تتفاوت بتفاوت المخلوقات:

- ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].
- ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ١٨].
- ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩].

وفي السُّنّة سجود الشمس تحت العرش لا يُنكر الناسُ من أمرها شيئاً.

قال القرطبي: وقال قوم لم يكن هذا السُّجود المعتاد اليوم بوضع الجبهة على الأرض، ولكنه مُبقًى على أصل اللغة؛ فهو من التَّذلُّل والانقياد، أي: اخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل(٢).

والأقرب أن ما أُمروا به هو فعل زائد عن مجرد الخضوع والإقرار بالفضل، مناسب للمقام ولهم، أُمروا بأدائه إظهاراً لفضل آدم وذريته، وإعلاناً لحقبة جديدة يكون له ولعقبه فيها الخلافة في الأرض.

واللائق بأمور الغيب إمضاؤها على ظاهرها دون إيغالٍ في تصويرها أو تصوّرها، أو تفصيلها أو تأويلها؛ رعايةً لحرمة النصوص، وتقديراً لطبيعة «تعميم» العقل البشري الذي يُبدع في الكشف والابتكار، وينجح في ميدان المادة، ويحقق حين يتحرك فيما وراء الطبيعة، وهو سرّ تفوق آدم وعلوِّ مقامه.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٤٥.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ٢٩٣.

والسُّجود لآدم طاعة للذي خلقه وفضّله، وهو عبادة لله الذي أمر به، مثله مثل الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود(١).

يقول الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود: وهذه القصة التي نمرّ عليها فلا نكاد نُعيرها التفاتاً جديرةٌ بالتأمل والاعتبار، والقضايا التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً هي في الوقت نفسه ذات دلالات عميقة، هي ما يأتي:

ـ لقد صدر أمر إلهي بالسُّجود فاستجابت له طائفة، فنعموا برضوان الله، وشذّ فريق، فطُرد من رحمته سبحانه.

ـ أنه طُرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي.

ـ كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه، وعن تمرّد في فطرته.

ـ لم تُلغِ عبادته كبرياءه، فهي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح؛ لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان.

ـ هذه الكبرياء كما تمثَّلت في مخالفة الأمر الإلهي تمثلت في المحاولة التي أراد هذا المتمرِّد أن يُبرِزَ بها موقفه مستنجداً بمنطقه وعقله، قائلاً: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ومنطق الكبرياء، فسجوده لآدم ليس عبادة له وإنما هو عبادة لله؛ لأنه خضوع لأمر الله وحسب.

ـ والمغزى لما سبق، وهو ما يرشد إليه روح القصة، بل وتعبيرها، أنه عند الأمر الإلهي يجب أن تكون الاستجابة فورية، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه كلمة «إذْ» في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذه الفورية طبعاً هي في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني.

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٤٦.

والقضية التي نختم بها هذه القضايا، أو هذه المفاهيم المستَنتجة من القصة، هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسُّجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا التصريح الصريح بأن طبيعة الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقيّ في مدارج السمو الروحي درجةً فدرجةً حتى تسمو على الملائكة والجن، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسُّجود للإنسان لأن يختلفَ علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والمَلَك؛ فإن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهي إلى حدٍّ «**ما وَسِعَني أَرضي ولا سَمائي، ولكنْ وَسِعَني قلبُ عبدي المُؤمنِ**».

وباب الفيوضات الإلهية مفتوح على مصراعيه، والقرب منه ميسور، وإذا سجد الإنسان لله رفعه الله إليه، وقرّبه منه، وغمره برضوانه[١].

ب ـ الإيمان ليس معرفة وحسب والسُّجود لله طريق السعادة:

إن المبدأ المهم الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه هو: أنَّ الإيمان ليس معرفة وحسب؛ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود، وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم ومحمداً عليهم الصلاة والسلام، إنه يُقرُّ بـ(لا إله إلا الله)، ويعرف (أن محمداً رسول الله)، ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله، ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين. ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله، ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب، وإنما خشوع واستجابة، قول وعمل واعتقاد، إنه سجود، فإذا لم يتأتَّ السُّجود فلا إيمان، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٤٥.

لقد كان سعيد بن جبير رحمه الله يقول: «ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلا على السُّجود». وأما علي بن عبد الله بن عباس، فقد كانوا يسمونه «السجّاد» لكثرة سجوده، وقد كان يكثر من السُّجود ـ كما هو المتبادر إلى الذهن ـ ليكون على النقيض من إبليس(١).

وما من شك في أن السُّجود بمعناه الحقيقي، أي سجود القلب والجوارح لله تعالى، إنما هو استجابة لله سبحانه وتعالى وخضوع له، وبهذا المعنى يقود الإنسان إلى الجنة(٢).

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي فراس ربيع بن كعب الأسلمي، خادم رسول الله ﷺ، ومن أهل الصُّفَّة، رضي الله عنه قال: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال: «**سَلْني**»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «**أو غيرُ ذلك؟**»، فقلت: هو ذاك، قال: «**أَعنِّي على نفسِكَ بكثرةِ السُّجود**»(٣).

السُّجود إذن مما يُعين على ترويض النفس لتتزكّى، وهو بذلك من الوسائل التي تُوصل إلى الجنة، وفي هذا المعنى يروي الإمام مسلم أيضاً، عن أبي عبد الرحمن بن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عليكَ بكَثرَةِ السُّجود؛ فإنَّكَ لَن تسجدَ لله سَجدَةً إلَّا رَفَعكَ بها درجةً، وحَطَّ عنكَ بها خَطيئةً**»(٤).

والسُّجود الذي يريده رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، والذي ورد في هذه الأحاديث، ليس مجرد الحركة المعروفة، وإنما هو مع الحركة المعنى

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٤٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٦.
(٣) رواه مسلم. قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٤٦.
(٤) المرجع السابق، ص٤٦.

العميق في النفس الذي يتمثَّل في جلال الله وعظمته ورحمته وودّه، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال وهذه العظمة، والانقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية؛ أوامرها ونواهيها.

فإذا كان السُّجود تعبيراً عن التطامن والتَّذلُّل لله سبحانه وتعالى، وذلك هو معناه الصحيح، عندما يكون السُّجود عبادة، ويكون خضوعاً له سبحانه، فإنه يكون سبيلاً إلى الجنة، وإلى أكثر من الجنة؛ وهو القرب من الله سبحانه.

ـ يقول الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]، أي اقترب من الله بالسُّجود. ورسول الله ﷺ يقول: «**أقربُ ما يَكونُ العبدُ من ربِّهِ وهو ساجدٌ**» (١).

وهذا المعنى في السُّجود هو الذي حقّقته الملائكة، وهو الذي أباه إبليس، ولم يسجد إبليس بسبب كبريائه، لقد أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقادته كبرياؤه إلى الإصرار على ما فعل، مبرِّراً له، ولو أنه رجع إلى نفسه فندم واستغفر وتاب لقبل الله توبته، ولكنه عاند وأصرّ فطرده الله من رحمته وودّه، وأخرجه من رياض رضوانه ورأفته، حارماً إياه من نعمه.

٣ـ هل كل الملائكة أمروا بالسُّجود؟

علّق الشيخ محمد متولي شعراوي على قول الله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، قال بعض العلماء: إنَّ أَمْرَ الله تعالى بالسُّجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السُّجود الفعلي؛ لأن السُّجود لغير الله منهيٌّ عنه. ولكن السُّجود هنا لا بدَّ أن يؤخذ بمعنى السُّجود؛ لماذا؟

لأن الملائكة لم تسجد لآدم، وإنما يسجدون لأمر الله تعالى بالسُّجود لآدم، تماماً كمسألة القِبلة عندما أمرنا الله تعالى أن نتّجه في الصلاة إلى المسجد

(١) رواه مسلم. قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٤٧.

الأقصى، لم يكن المسلمون يسجدون للمسجد الأقصى، ولكن لأمر الله تعالى في الاتجاه إليه، فلما تغيّر الأمر وأصبحت الكعبة هي القبلة اتَّجه المسلمون إلى الكعبة، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها، ولكن لأمر الله تعالى بالسُّجود في اتجاه الكعبة.

إذن فالسُّجود هنا لأمر الخالق، والعمل بالنية، والنية في سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم، ولكن لطاعة أمر الله، وأمر الله لابدَّ أن يُطاع.

وبعض الناس يسأل: لماذا كان سجود الملائكة لآدم؟

نقول: إن الله تعالى سخّر الكون كلَّه لآدم وذريته، منهم المُدبِّراتُ أمراً الذين يقومون بتنفيذ أوامر الله تعالى بالنسبة للإنسان، ومنهم الحَفَظَة الذين يكتبون كل ما يحدث من البشر، فكأن سجود الملائكة هو سجود أُلفة ومعرفة، والذين سجدوا هم الموكّلون بخدمة الإنسان في الأرض، وأما الملائكة العالون المقرّبون إلى الله فإنهم لم يسجدوا، بدليل قول الله تعالى لإبليس حينما رفض السُّجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، أي من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السُّجود، إذن كان السُّجود لآدم بأمر الله ولأجل أنه أمر الله سبحانه وتعالى(١).

وأما العلامة سلمان العودة فقد قال: كل الملائكة الذين أُمروا بالسُّجود سجدوا أجمعين بلا استثناء: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣].

وهل كان الأمر بالسُّجود مُوجَّهاً لجميع الملائكة أم لبعضهم ممن هم موكّلون بالحياة الآدمية من نفخ وحفظ وقبض؟

ظاهر السياق أن عامة الملائكة أُمروا بالسُّجود فسجدوا له؛ من ملائكة الأرض، وملائكة السماء، وأشراف الملائكة، كجبريل وميكائيل وإسرافيل،

---

(١) قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ١٧.

والأمر فيه مجال واحتمال. والسُّجود طواعية للآمر المتفرّد جلَّ وتعالى، وعبر الرسالات كلها كان السُّجود على الجبهة من أعظم مظاهر الخضوع والدينونة لله عز وجل[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأَ ابن آدمَ السَّجدةَ فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي ويقولُ: يا ويلَه ـ وفي رواية أبي كريب ـ يا ويلي: أُمرَ ابن آدمَ بالسُّجودِ فسجدَ فلَهُ الجنّةُ، وأُمرتُ بالسُّجودِ فأبيتُ فليَ النَّارُ**»[٢].

قال القرطبي: وبكاء إبليس المذكور في الحديث ليس ندماً على معصية ولا رجوعاً عنها؛ وإنما ذلك لفرط حسده وألمه مما أصابه من دخول أحدٍ من ذرية آدم الجنة ونجاته، وذلك نحو ما يعتريه عند الأذان، والإقامة، ويوم عرفة.

والعودة إلى الجنة تمرّ عبر بوابة السُّجود، وبقدر نزول الجبهة يرتفع الشأن، كما مر معنا، ويوم القيامة يُدعى الناس للسجود فيسجد المؤمنون، ويحاول غيرهم فلا يستطيعون، وتأبى ظهورهم أن تنحني لله، وهي التي طالما انحنت لغيره[٣].

لقد اختلف العلماء هل المأمورون بالسُّجود لآدم جميع الملائكة أو بعضهم؟ فقد قال بعض أهل العلم إنهم بعض الملائكة وليسوا كلهم، ثم اختلفوا فيما بينهم في البعض الآخر الذي أُمر بالسُّجود لآدم، فقال بعضهم: هم ملائكة السماء، وقال آخرون: هم ملائكة الأرض، وقال غيرهم غيرَ ذلك[٤].

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٤٦.
(٢) رواه مسلم، ١/ ٨٧.
(٣) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٤٧.
(٤) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١١٧.

قال الرازي: قال الأكثرون: إن جميع الملائكة مأمورون بالسُّجود لآدم، واحتجوا عليه بأن لفظ الملائكة صفة الجمع، وهي تفيد العموم، ولا سيما أن هذه اللفظة وردت مقرونة بأكمل وجوه التأكيد في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] [١].

وقال ابن كثير: وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [ص: ٧٣ ـ ٧٤].

فهذه أربعة أوجه مقوّية للعموم، والله أعلم[٢]، وهي:

ـ تعريف الملائكة بالألف واللام وهي تفيد الاستغراق.

ـ تأكيد ذلك بلفظ «كلهم» وهي من ألفاظ العموم.

ـ التوكيد أيضاً بلفظ «أجمعون» وهي أيضاً من ألفاظ العموم، وتأكيد التأكيد من أقوى صيغ العموم، أي لم يتخلَّفْ عن السُّجود أحد منهم.

ـ والرابع أنه تعالى استثنى إبليس منهم، واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن مَن عدا ذلك الشخص كان داخلاً في الحكم[٣].

٤ ـ فضل آدم عليه السلام على الملائكة وبقية المخلوقات:

لا خلاف بين أهل العلم أن آدم عليه السلام أفضل من الجِنِّ والشياطين، ولم يتبقَّ من المكلَّفين إلا الملائكة، وقد اختُلف في الأنبياء والملائكة أيهما أفضل، فقد استُدِلَّ بسجود الملائكة لآدم على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، ووجه ذلك أن السُّجود هو نهاية التَّذلُّل، ولا يُتصوَّر أن يكون إلا من المفضول إلى الأفضل،

---

(١) التفسير الكبير مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ٢/ ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٢٣.

(٣) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٢/ ٢٢.

مضموماً إلى أدلة أخرى؛ منها أن آدم أعلم من الملائكة والأعلم أفضل، ولقوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

والعالم هو ما سوى الله، وعليه فالملائكة من جملة العالمين، ومنها أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون، والمحفوظ أشرف وأعزّ من الحافظ، إلى غير ذلك من الأدلة التي احتج بها من ذهب إلى تفضيل الأنبياء على الملائكة(١).

وقال ابن تيمية بعد كلام طويل في تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة: وما علمت عن أحد من الصحابة ما يخالف ذلك، وهذا هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو أن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة(٢).

وقال الشوكاني: وقد شُغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلَّق به فائدة؛ وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء، أو الأنبياء على الملائكة(٣).

والراجح أن الأنبياء والأولياء أفضل عند الله من الملائكة؛ لأن إيمان الملائكة فطري، وعبادة الملائكة لله عبادة فطرية، ليس لهم في ذلك إرادة ولا اختيار، ويتوجهون إليه دون سعي وكسب ومجاهدة وتربية، والله فطرهم على ذلك، وهم يؤدّونه دون فتورٍ أو كسلٍ أو مللٍ.

وأما البشر فقد كلّفهم الله بذلك تكليفاً، وأدّى الأنبياء والصالحون أمر الله باختيارهم وكسبهم واجتهادهم وسعيهم، وتغلّبوا على المعوقات والمثبّطات والمغريات، وجاهدوا أنفسهم، وتركوا ما حرّم الله، وارتقوا إلى المنازل العالية

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١٢١.
(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١/ ٣٧٢.
(٣) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ٤/ ٣٣٤.

بفضل الله عليهم الذي وفقهم وأعانهم، وكما أن الإنسان الكافر أحطُّ عند الله من الحيوانات لعدم قيامه بواجبه، كذلك فالإنسان الصالح الذي يستعلي على ضعفه، ويجاهد نفسه أفضل عند الله من الملائكة الذين يؤدون عبادتهم دون جهد أو مجاهدة(١).

تاسعاً: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]:

١ ـ إبليس والجن والشيطان:

لا بد هنا من أن نبيّن الفرق بين هذه التسميات الثلاث: الجن وإبليس والشياطين، لأن كثيراً من الناس يخطئون في التمييز بينها ويخلطون بين معانيها.

الجن هم العالم الخاص المقابل للإنس، الذين خلقهم الله من مارج من نار، وهم قسمان؛ جن مؤمنون وجن قاسطون كافرون.

وأما إبليس فهو من الجنِّ بنص القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠].

وظن بعضهم خطأ أن إبليس من الملائكة؛ لأنه شمله الأمر بالسُّجود لآدم، وهذا ظن باطل وكلام مردود لأنه يتعارض مع صريح القرآن ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾.

ولو كان إبليس من الملائكة لما عصى الله، لأن الله خلق الملائكة مفطورين على الطاعة فطرة، ويستحيل أن تصدر منهم معصية، والله تعالى يقول: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٧٥.

ولو كان من الملائكة لكان مخلوقاً من النور، مع أنه صرّح بأنه مخلوق من نار، التي خُلق منها الجن، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

أما الشيطان، فإنه وصف يُطلَق على موصوف وليس اسماً لشخص أو جنسٍ أو صنفٍ، وهذه الكلمة «شيطان» مشتقة من «شَطَنَ» أي ابتعد، وهذا الوصف يُطلَق على كل كافر عدو للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والشياطين وصف يُطلَق على كل الكفار من عالم الإنس أو من عالم الجن؛ لأن هؤلاء الشياطين ابتعدوا عن رحمة الله بكفرهم.

الخلاصة أن الشياطين أصناف ثلاثة:

الأول: إبليس، أول شيطان، لأنه أول كافر عاصٍ متمرِّد، وهو إمام الشياطين وقائدهم(١).

وهو أبو الشياطين وأصلهم الأول، والشياطين هم المُتمرِّدون من عالم الجنِّ.

والفرق بين اللفظتين «إبليس» و«الشيطان» في الاستعمال أن «إبليس» خاص به لا يُطلَق على غيره، و«الشيطان» يُستعمل لكل عاصٍ من الجِنِّ والإنس(٢).

وإبليس اسم له قبل أن يرفض السُّجود لآدم، وهو اسم علم أعجمي؛ فلا نبحث عن مادة اشتقاقه في اللغة العربية(٣)، وقيل اسم عربي مشتق من

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٢٥.
(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص٥٧.
(٣) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، ١/ ١١٢.

الإبلاس وهو اليأس[١]، وهو مشتق كذلك من الإبعاد والغضب أو التمرُّد والرفض[٢].

وبعد التمرُّد على الله أُطلق عليه وصف يتفق مع التمرُّد، حيث وصفه الله بأنه شيطان، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

و«شيطان» صفة مشتقة، واشتقاقه من «شَطَنَ»، ومعنى الشَّطن الابتعاد.

ووُصف إبليس بذلك لتشيطنه وابتعاده بذلك عن رحمة الله وكرامته واستحقاقه الاحتراق بالنار في جهنم. إذن: اسمه «إبليس» ووصفه «شيطان» [٣].

الثاني: الجن الكفار الذين أغووا أتباعهم من الإنس، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

الثالث: الإنس الكفار، فكل كافر من عالم الإنس شيطان، مهما كان دينه ومهما كان سبب كفره، فبما أنه ليس مسلماً فهو شيطان كافر.

وقد أطلق القرآن على الإنس والجن الكفار شياطين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والجنيُّ المؤمن لا يُسمَّى شيطاناً؛ لأنه مطيع لله، وهو في الآخرة منعّم في الجنة مع الإنسي المؤمن[٤].

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١٢٢.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٥٩.
(٣) القصص القرآني، الخالدي، مرجع سابق، ١/ ١١٢.
(٤) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٢٦.

والخلاصة أن إبليس من الجن، وهو قائد الكافرين من الإنس والجن، والشيطان وصفٌ يُطلَق على كل كافر من الإنس والجن، وأما الجن فليسوا كلهم شياطين؛ بل الكافرون منهم فقط شياطين، والمؤمنون منهم كمؤمني الإنس صالحون[١].

٢ ـ إبليس من الجِنِّ وليس من الملائكة:

قال ابن كثير عند تفسيره قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: خانه أصله، فإنه خُلق من مارجٍ من نار، وأصل خلق الملائكة من نور. إلى أن قال: ونبّه تعالى ههنا على أنه من الجن، أي على أنه خُلق من نار[٢].

والجن: اسم جنس، يُطلَق على ذلك الصنف من المخلوقين، حيث خلقهم الله من النار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ونار السَّموم هي النار الحارّة شديدة الحرارة، ومارجُ النار هو آخر جزء حارّ في لهيب النار، وأول جزء من الدخان الأسود المتصاعد من النار، ومزج هذين الجزأين وخلطهما معاً.

وهذا ما أكده رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلقتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخلقَ آدمُ ممَّا وُصفَ لكم**»[٣].

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي، مرجع سابق، ص٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٨٤.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ٢٩٩٦.

ولأن الجانَّ مخلوقون من «مارج من نار» كانت طبيعتهم نارية خفيّة. وطبيعتهم نارية بسبب ذلك الجزء من لهيب النار الحارّ، وهي خفيّة «مستترة» بسبب ذلك الجزء من الدخان الأسود، ومعلوم أن الدخان الأسود يحجب ما وراءه ويستره.

والجنُّ المخلوقون من مارج النار في مقابل الإنس المخلوقين من الطين هما الصنفان العاقلان المكلفان اللذان يعيشان على وجه الأرض.

والجنُّ لهم عالمهم الخاص وحياتهم الخاصة، ويتحركون معنا على الأرض، وهم يروننا ونحن لا نراهم[1]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وسمِّيَ الجنُّ جنّاً لاجتنانهم، أي: استتارهم، لأن الاجتنان هو الاستتار، وهو مأخوذ من جنَّ الليل إذا أظلم فستر الأشياء بظلامه، وسُمِّيَت الجنَّة لأنها تستر بأشجارها الكثيفة من يدخلها، ونُسمِّي الجنين لاستتاره في بطن أمه[2].

والجن المكلفون مثلنا؛ مأمورون بالإيمان بالله وحده، وعبادته وحده، ومنهم من أسلم واهتدى، ومنهم من تمرّد وكفر، مسلموهم في الجنة مثابون منعّمون، وكافروهم في النار معذّبون.

قال تعالى عن الجن المسلمين والجن الكافرين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، الخالدي، مرجع سابق، ص٣١.

(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص٥٨. لسان العرب لابن منظور، ١٣/ ٩٢.

ولهذا أعلن الجن إيمانهم لما سمعوا القرآن، كما ورد في الآيات الأولى من سورة الجن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

ماذا عن عالم الجن بقسميه؟

عالم الجن بقسميه: الجن المسلمين والجن الكافرين، مثل عالم الإنس بقسميه: الإنس المسلمين والإنس الكافرين[١].

ويُفهم من الآيات التي تحدثت عن قصة آدم أن إبليس كان مع الملائكة لكنه ليس من الملائكة، وأخبرنا الله أن اسمه إبليس، وأنه من الجن[٢]، والأدلة على أن إبليس من الجِنِّ كثيرة، منها:

أ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

إن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأن إبليس كان من الجن، والجن غير الملائكة، فلا يجوز أن يُنسب إلى غير ما نسبه الله إليه[٣].

قال الألوسي: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين، فكأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنيّاً، وهذا ظاهر في أنه ليس من الملائكة[٤].

وقال الشنقيطي: وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ ظاهر أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في أصول مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، الخالدي، مرجع سابق، ص٣١.
(٢) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٧٦.
(٣) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبد الكريم نوفان عبيدات، مرجع سابق، ص٤٧٩.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، محمود شكري الألوسي، ١٥/ ٤٢١ ـ ٤٢٢.

على التعليل؛ أي لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصف فرّق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصى[١].

ب ـ أن إبليس لو كان من الملائكة لما عصى الله عندما توجه إليه بالأمر بالسُّجود لآدم، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ج ـ أن الله أخبر أن إبليس له نسل وذرية، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

فإبليس وذريته يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، كما قال الحسن[٢]: ويأكلون ويشربون، والملائكة لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون، فدل هذا على أن إبليس من الجنِّ وليس من الملائكة[٣].

د ـ أن الله أخبر أنه خلق إبليس من النار ولم يخبر أنه خلق الملائكة من شيء من ذلك، بل ورد في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**خُلقَتِ الملائكةُ مِن نورٍ، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكم**»[٤].

وقد ورد التصريح من القرآن على لسان إبليس بأن الذي دعاه إلى عدم السُّجود لآدم هو أنه من النار وآدم مخلوق من الطين، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فالذي دعا إبليس لعدم السُّجود هو ظنه الفاسد أن النار أشرف من الطين، وأن المخلوق منها أشرف من المخلوق من الطين[٥].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٤/ ١١٩.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٤٢٦.
(٣) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٤٨١.
(٤) صحيح مسلم، ٣/ ٢٢٩٣.
(٥) تفسير روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ١/ ١٢٠.

هـ ـ قوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٩١ ـ ٩٥].

قالوا: دلّت هذه الآيات على أن لإبليس جنوداً، وأنهم جميعاً سوف يُساقون إلى النار، وإبليس على رأسهم، في حين أن الملائكة لا جنود لهم، بل هم أنفسهم جنود الله تعالى.

و ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠].

قالوا: هذه صريحة في الفرق بين الجن والملائكة، لم يكن إبليس من الملائكة، مع ما صرّح به القرآن أنه كان من الجنِّ.

ز ـ إبليس لم يكن رسولاً من الله لعباده أبداً، وكان الملائكة رسلاً لعباده دائماً، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وبما أن إبليس من الجِنِّ وليس من الملائكة، فإن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]؛ إنه استثناء منقطع، كما يقول علماء النحو؛ وهو الذي يكون فيه المستثنى من غير جنس المستثنى منه الذي قبله؛ كأن يقول: أكلت الطعام إلا الماء، فالماء مشروب وليس من جنس الطعام المأكول، وإبليس من الجِنِّ وليس من جنس الملائكة.

٣ ـ الحكمة من خلق إبليس:

إن النظر في قصة إبليس كما جاء في خبر الوحي مُخبِرٌ أن الله سبحانه لم يخلق إبليس ليضلّ الناس، وإنما خُلق إبليس كما خُلق البشر؛ للعبادة، غير أن إبليس

اختار أن يتكبر على أمر الله بالسُّجود لآدم، ورضي لنفسه طريق الضلالة والإضلال. لقد اختار إبليس ـ وهو من الجن ـ أن ينحرف عما خُلق له إلى غير ما خُلق له، عاصياً أمر الله ومتكبراً على طلب السُّجود[١].

كما أن في وجود إبليس على ضلاله حِكَماً جليلة يصعب استقصاؤها، وقد ذكر علماء الإسلام ـ كابن القيم ـ طرفاً منها يدفع القولَ المتوهَّم بأن وجود إبليس شرٌّ محضٌ لا خير معه، ومن ذلك[٢]:

أ ـ أن وجود إبليس يكمل لرسل الله وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة بالله منه، والالتجاء إليه أن يُعيذهم من شَرِّه وكيده، فيترتّب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل دونه، ومعلوم أن الموقوف على الشيء لا يحصل دونه.

ب ـ خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه، وسقوطه من المرتبة التكريمية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتمّ.

ج ـ جعل سبحانه إبليس عبرةً لمن خالف أمره وتكبّر عن طاعته، وأصرّ على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرةً لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصرّ وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه.

د ـ حال إبليس محكٌّ امتحن الله به خلقه ليتبيّن به خبيثهم من طيِّبهم، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، ص١٠٦.

(٢) شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٤٦٩.

فأرسله إلى المكلّفين وفيهم الطيِّب والخبيث، فانضاف الطيِّب إلى الطيِّب، والخبيث إلى الخبيث. واقتضت حكمته البالغة أن خالطهم في دار الامتحان، فإذا صاروا إلى دار القرار يميِّز بينهم، وجعل لهؤلاء داراً على حدة، ولهؤلاء داراً على حدة، حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

هـ ـ ليُظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فهو خالق الأضداد؛ كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحرَّ والبرد، والطيِّبَ والخبيث.

و ـ خلقُ أحد الضدّين من كمال حسن ضِدِّه؛ فإن الضِّدَّ إنما يظهر حُسنه بضِدِّه، فلولا القبيح لم تُعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يُعرف قدر الغنى.

ز ـ من أسمائه سبحانه الخافض الرافع المُعزُّ المُذِلُّ الحكم العدل المُنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلَّقات تظهر فيها أحكامها، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولا بدَّ من ظهور متعلَّقات هذه وهذه.

ح ـ الله سبحانه هو الملك التامُّ الملك، ومن تمام ملكه عموم تصريفه وتنوُّعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل، والإعزاز والإذلال، فلا بدَّ من وجود ما يتعلَّق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلَّق به النوع الآخر[1].

ط ـ إن الله تعالى شاء وقضى أن النعيم والسعادة لا يُوصَل إليهما ولا يُنتهى عندهما إلا على جسر من التعب والمشقة المحفوف بالأشواك والمنغِّصات، ولا تُنال لذّتهما إلا من باب المكاره والصبر والمجاهدة في سبيل الله جلَّ وعلا، ولذا قال ﷺ: «**حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارِهِ وحفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ**»[2]. فوجود

(١) مشكلة الشر ووجود الله، سامي عامري، مرجع سابق، ص١٠٧.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٨٢٢.

عدو الله إبليس وتسليطه على الإنسان وتمكينه من وسائل الغواية والإضلال من أسباب ظهور تلك الإرادة والمشيئة، وهذا من السنن المتَّفق عليها عند العقلاء، حيث إن من أراد بلوغ المقاصد الحسنة، والغايات الجميلة والفضائل الكريمة، فلا بد من مجاهدة نفسه في تحصيلها، والجِدَّ والتعب من أجل تحقيقها، وكل من كان أكثر مجاهدة وأطول مصابرة كان أسعد حالاً وأحسن عاقبة ممن هو دونه، وسائر العقلاء يعدّون ذلك التعب والجهد والمشقّة لتحقيق تلك الغايات من الأمور المحبّبة إلى نفوسهم، بل يجدون في القيام بها من اللَّذة والسعادة ما لا يجدون في غيرها؛ لعلمهم أنها الطريق الموصل إلى تلك الفضائل والكمالات[(١)].

ي ـ إن الاستعاذة بالله تعالى، واللَّوذ به جلَّ وعلا، مما يحبّه تعالى من عباده، ولذا حثَّ نبيه ﷺ أن يستعيذ به من شر الشيطان وحزبه، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

وحثّ نبيه أن يستعيذ به سبحانه عند قراءة القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، فهذه الاستعاذة بالله تعالى عند خلق إبليس، إذ هو سبب ذلك العَوذِ ولازمه.

وقد كان إبراهيم عليه السلام يعوّذ إسماعيل وإسحاق من الشيطان، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يعوّذ الحسن والحسين، ويقول: «**إنَّ**

(١) عداوة الشيطان للإنسان، عبد المنعم الحواس، ص١٥٨.

أباكما كانَ يُعوِّذُ بهما إسماعيل وإسحاقَ، أعوذُ بكلماتِ الله التَّامَّةِ مِن كلِّ شيطانٍ وهامةٍ ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ» (١).

ك ـ تحقيق الحمد المطلق لله تعالى من جميع الوجوه، فهو تعالى محمود على خفضه وعدله ومنعه وإهانته وانتقامه، كما هو محمود جلَّ وعلا على عطائه ورفعه وتفضيله وإحسانه، وقد حمد نفسه تبارك وتعالى على ذلك كله؛ فحمد نفسه على ربوبيته الشاملة للخلائق، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

وحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وحمد نفسه على وحدانيته سبحانه وتعالى في الألوهية والملك، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١].

كما حمد نفسه تعالى في كل زمان ومكان: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠].

وقد وصف نفسه جلَّ ثناؤه بالحمد في كتابه الكريم في آيات كثيرة جداً، ووصفه به ملائكته في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

بل إن خلقه جلَّ وعلا يلهجون بحمده سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وحين يدخل أهل الجنَّة جنةَ ربهم فإنهم يُمجّدونه على هذه النعمة العظيمة:

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢٣٧١.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ فيها ويَشربونَ ولا يَتفلونَ ولا يَبولونَ ولا يَتغوَّطونَ ولا يَتَمَخَّطونَ**، قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: **جُشاءٌ**[١] **ورشحٌ كرشحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ كما يُلهمونَ النَّفَسَ**»[٢].

فبخلق عدو الله إبليس ووجوده في الدنيا يحصل هذا الحمد المطلق من جميع وجوهه، فكل ما كان من لوازم حمده تعالى فله في خلقه ووجوده الحكمة التامة، وله في ذلك الحمد المطلق، إذ كلما كان الفاعل أعظم حكمة كان أعظم استحقاقاً للحمد، والله جلَّ وعلا له الحكمة البالغة في كل شيء، وله الحمد كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه[٣]، والله تعالى أعلم.

٤ ـ ذم الكبر وأن أصله إبليس:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وهنا «أبى»؛ أي: امتنع إبليس من السُّجود لآدم فلم يسجد له.

«واستكبر» يعني بذلك أنه تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السُّجود لآدم، والاستكبار هو سبب الإباء والامتناع والتعليل له والباعث الذي حمل صاحبه على عدم التنفيذ، وبذلك يكون ترتيب خطوات تمرُّد إبليس هكذا: استكبار إبليس هو سبب هلاكه، وهو الذي دفعه إلى الإباء والامتناع، وهذا الإباء قاده إلى الكفر، وبذلك خسر الدنيا والآخرة ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) الجُشاء: هو تنفس المعدة عند الامتلاء.
(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٨٣٥.
(٣) عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص١٦٠.

وعبّر عن كفره بلفظ الماضي ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للإشارة إلى ما علمه الله عنه منذ الأزل، قبل أن يخلقه، أي إن الله كان يعلم ما سيفعله إبليس قبل أن يخلقه، وأنه سيرفض أمره، ويكفر به، ويكون قائد الكافرين، ولما تمرّد إبليس فعلاً وكفر في عالم الواقع تحقّق بذلك ما علمه الله عنه منذ الأزل، فمعنى قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كان إبليس في علم الله من الكافرين[1].

قال الشنقيطي: لم يبيّن هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بيّنه في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٣].

ولا غرابة إذن أن يكون جوهر فساد إبليس الكبر ورفض السُّجود والاعتراض على الله في شريعته وحكمته، وأن يكون الكبر مانعاً من دخول الجنَّة[2]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يَدخلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قَلبِه مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ، قالَ** رجلٌ: إنَّ الرجلَ يحبُّ أنْ يكونَ ثوبُهُ حَسناً ونعلُهُ حسنةً. قال: **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ**»[3]. ومعنى الحديث: مثقال ذرة: زِنة ذرّة.

ـ بَطَرُ الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقّاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتجبّر عند الحق فلا يراه حقّاً، وقيل هو أن يتكبّر عن الحق فلا يقبله.

ـ غَمْطُ الناس: الغَمْطُ الاستهانة والاستحقار، ومع أن الله سبحانه يعلم

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٨٠.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٥٨.
(٣) صحيح مسلم، رقم: ١٤٧. التدبُّر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ١/ ٤٠٥.

السبب الذي دفع إبليس إلى عدم السُّجود فإنه سأله؛ وذلك ليتكلم إبليس ويُظهر ما في نفسه ويعترف بلسانه، ولتكون عقوبته بعد تسجيل اعترافه، وجاء جواب إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦].

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾: جملة كبيرة مليئة بكل معاني الأنانية والتكبّر والانتفاش والاستعلاء، وكانت سرَّ هلاك إبليس وخسارته، ودفعته إلى التمرُّد على الله وعصيانه.

وهذه الجملة نفسها سرُّ هلاك كل مستكبرٍ متعالٍ تَملِكُ عليه أنانيَّتُه حياته، فلا يرى إلا نفسه متكبّرة منتفشة، تُلغي كل ما سواها وتملأ الأماكن والمواضع كلها، ويتصرَّف على هذا الأساس؛ فيُذِلُّ، ويَحقر، ويَزدري، ويَطحن، ويَسحق، ويتطاول على من سواه، ويرفض أن يخضع لله سبحانه.

هذا المرض النفسي الخطير انتقل للمتكبّرين من إبليس، فأصبحوا جنوداً له، قالها أول مرة عن آدم: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فأصابت العدوى كل واحد من هؤلاء المستكبرين المعقّدين، ونادى بأنانية واستعلاء: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[1].

إن الأنانية العمياء والتعاظم وانتفاخ الـ«أنا» نقيض العبودية لله «أنا خيرٌ منه».

كما أن الحسد من شر الأدواء التي تمنع من قبول الحق والانقياد له، لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد لأنهما إثمان عظيمان.

قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر.

كما أن العنصرية البغيضة المقيتة، والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة، من أسباب الفساد العظيم: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وهذا هو الكبر الصُّراح الذي يتعلّل به كثير من بني البشر حين يعتزّون بأجناسهم وأحسابهم

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٨٦.

على غيرهم من البشر، وقد يكون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم(١).

إن عبارة إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعراف: ١٢] فيها عدة أمور يجب على المسلم أن يبتعد عنها:

ـ لو قالها مسلم فمعنى ذلك أنه تكبّر على غيره، والله تعالى أمر أحبَّ الناس إليه بالتواضع، فقال له: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ـ وقال عن المؤمنين: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ـ لو قالها مسلم فمعنى ذلك أنه زكّى نفسه ومَدَحها، والله تعالى يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

ـ لو قالها فمعنى ذلك أنه افتخر بأصله ونسبه كالشيطان حينما قال: ﴿ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

ومعنى مقولته تلك عند الرازي: أنا أشرف منه في الأصل والنسب فكيف أسجد له؟ وكيف أتواضع له؟!(٢)

ـ كما يظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره بمادته التي خُلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه:

الأول: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحَب ويُشتهى.

الثاني: أن الملائكة خلقوا من النور، والشيطان خلق من مارج من نار،

---

(١) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي سعد هادي الشمراني، ص٦٣.
(٢) المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، ١/ ٤١.

وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ، ولا شك أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسُّجود.

وإذا سلّمنا جدلاً أن خيريّة الشيء تابعة لأصله الذي خُلق منه فلا نسلّم أن النار خير من الطين؛ فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالوساطة، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها(١).

ويظهر جهل إبليس وحُمقه حين غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده، والنفخ فيه من روحه، وشرّفه بسجود الملائكة له، وجعله أفضل من الملائكة، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة(٢).

ـ كما أن العناد والضلال يُورِدان المرءَ المواردَ الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى التردِّي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله، وافتخر وتكبّر بأصله، وامتنع عن السُّجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه(٣).

إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات؛ لنعتبر ونكون منها على غاية الحذر. ومعصية الكبر أو ما يُسمَّى جنونَ العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ لأن المتكبر يرى غيره لا شيء، فيَغمِطُ النَّاسَ حقوقهم، ويَردُّ الحق ولو كان مثل الشمس(٤).

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ٨/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٢) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مرجع سابق، ص٦٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٦٤.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص٦٤.

٥ ـ إبليس أول مخلوق أخبرنا الله بكفره :

إن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره، ولم يخبرنا تعالى بكفر أحدٍ قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وما استُند إليه من حديث ابن عباس لا يُحتج به، كما قال ابن كثير، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أن إبليس أول من كفر بالله[1]، فهو إذن من الكافرين الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك. فيكون معنى الآية: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] مبنيّاً على اعتبار أن الخطاب فيها موجَّهٌ إلى أمة محمد ﷺ؛ إذ بين حدوث قصة إبليس وصدور الكفر منه وبين بعثة النبي ﷺ قرونٌ كثيرة كان فيها كثير من الكافرين؛ كفرعون وهامان وقارون ونمرود وغيرهم، فهؤلاء الكافرون بالنسبة إلى زمن النبي ﷺ ماضٍ غابر، وإبليس كذلك، وعليه فإن إبليس من الكافرين الذين وُجدوا فعلاً قبل زمن المخاطبين، والله تعالى أعلم[2].

وأما سبب كفره، فإنه أبى السُّجود واستكبر وعاند وطعن واعتقد أنه محِقٌّ في تمرّده وطغيانه، فكأنه ترك السُّجود لآدم إباءً لأمر الله وحكمته، وقد بيّن الله عزَّ وجلَّ سبب كفر إبليس ورتّب كفره على الإباء والاستكبار، قال تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، فكفر إبليس إنما هو بإبائه واستكباره على طاعة الله وامتثال أمره سبحانه وتعالى[3].

فإبليس رفض امتثال أمر ربه، ورفضُه كان مصحوباً بالتعاظُم والاستكبار والإصرار على الإباء والرفض، فصار قائداً للمخالفين لأوامر الله والمستكبرين عنها، فكل من تكبّر وخالف أمر الله فهو تلميذ لإبليس وتابع له[4].

---

(١) عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٢٢٥.
(٢) الحواس، المرجع السابق، ص٢٢٦.
(٣) عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، ص٢٢٩.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٣٠.

وكان كفر إبليس عناداً، وإنما حمله على كفره حبُّ الرِّياسة، والكبر، والإعجاب بما أُوتي، وقد نصّ الإمام أحمد على معرفة إبليس بالله تعالى، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩].

واستبعد ابن عطية كفر إبليس عناداً، مع بقاء العلم، ولكنه يرى أن ذلك جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء، وقال أبو حيان تعقيباً على رأي ابن عطية: وهذا الذي ذكر جوازه واقع بالفعل؛ فهذا فرعون كان عالماً بوحدانية الله وربوبيته دون غيره، ومع ذلك حمله حبُّ الرِّياسة والإعجاب بما أُوتي من الملك فادّعى الألوهية مع علمه، وأبو جهل كان يتحقّق رسالة النبي ﷺ، ويعلم أن ما جاء به حقٌّ، ومع ذلك أنكر نبوّته وأقام على الكفر، وكذلك الأخنس بن شريق، وأمية بن أبي الصلت، ممن كفر عناداً مع علمهم بصدق الرسل[١].

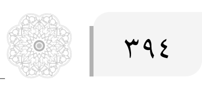
عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]:

هذا النداء جاء بعد خلق آدم عليه السلام ونفخ الروح وتعليمه الأسماء كلها، وبعد إسجاد الملائكة له، فناداه ربه في هذه الآية باسمه لإظهار مزيدٍ من إكرام الله تعالى له، وأمره هو وزوجته بسكن الجنَّة تفضّلاً منه سبحانه وتعالى، وأذِن لهما أن يتمتّعا بكل ما فيها، وأباح لهما أن يأكلا منها ما شاءا غير شجرة واحدة نهاهما عن أكلها والقرب منها؛ ابتلاءً واختباراً وتهيئةً لهما بتحمّل التكاليف الشرعية بمقاومة رغبات النفس.

١ ـ زوجة آدم عليه السلام حواء «أمُّنا العزيزة»:

قال الله لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وهذا معناه أن آدم عرف أن هذه

(١) عداوة الشيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٢٣٢.



المخلوقة الأنثى «حواء» زوجٌ له، ولم يكن في الجنَّة أنثى غيرها، لأنه كان في الجنَّة الملائكة، وهؤلاء لا يُوصفون بذكورة ولا أنوثة، وفيها إبليس وهو من الجنِّ[١].

وفي هذه الآية أدخل الله عزَّ وجلَّ حواء في خطابه لآدم، وقد سُمِّيَت حواء لأنها أمُّ جميع الأحياء من الجنس البشري[٢].

ووضَّح الله لنا أن كل خلق من خلقه إنما خُلِق من زوجين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

أ ـ يقول الشيخ محمد متولي شعراوي: القول بأنَّ حواء كانت ضلعاً من آدم لقول الحق تعالى: ﴿ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، لا نسلِّم به لأنَّ الجعل يعني الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد، وهو الحق المالك لكل الكون.

إن قول الله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل. إلى أن قال: أي خَلَقَ حواء مثلما خلق آدم، وكما أوضح لنا الحق تعالى أنه خلق آدم من طين، فكذلك خلق حواء[٣].

ب ـ قال الدكتور صلاح الخالدي: وقد ذهب بعض العلماء المفسرين إلى أن حواء مخلوقة من نفس آدم، واعتمدوا في ذلك على ظاهر قوله: ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾، أي إن حواء مخلوقة من بعض جسم آدم؛ لأن «مِن» تدل على التبعيض، وهذا المعنى هو ضلع آدم.

ولا نعتبر الآية دالة على هذا؛ لأن الآية تتحدث عن تكريم الله للرجال

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٥.
(٢) المرأة في القصص القرآني، أسماء عبد المنعم العميري، ص٧٣.
(٣) قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ٩.

والنساء جميعاً، ويخبرنا الله أنه خلقنا نحن البشر ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها، والمراد بالنفس الواحدة هنا النفس الإنسانية التي تتمثّل فيها الطبيعة البشرية، هذه النفس المكوّنة من مادة وروح، والمتمثّل فيها الكيان البشري بما فيه من أعضاء وأجهزة، يقوم عليه جسمه المادي بما فيه من مشاعر وأحاسيس وصفات وسمات وغرائز وشهوات وآمال وتطلعات، وما فيه من قلب وروح وتصوُّر وفكر وخيال، هذا الكيان الإنساني كله هو النفس التي خلقها الله.

وخلق الله من هذه النفس الواحدة المتكاملة الرجل، ثم خلق من هذه النفس الواحدة المتكاملة المرأة. وأول نموذج عملي للنفس الواحدة هو آدم أبو البشر عليه السلام، الذي تمَّثلت فيه النفس الواحدة بكامل خصائصها وسماتها.

وثاني نموذج للنفس الواحدة زوجه حواء التي خلقها الله وجعلها زوجاً له، وتمثلت فيها النفس الواحدة بكامل خصائصها وسماتها، مع فروق فردية جعلها الله الحكيم ـ بيولوجيّاً وعاطفيّاً ـ بين الرجل والمرأة ليقوم كل منهما بدوره في الحياة.

وهذا معناه أن الرجل نفس إنسانية سوية بجسمه وروحه وشخصيته، وأن المرأة نفس إنسانية سوية لها جسمها وروحها وشخصيتها، وهي معززة مكرمة كالرجل، وليست أدنى أو أحطّ منزلة منه، وهذا تكريم وتشريف عظيم للمرأة.

ليس المراد بالنفس الواحدة في الآية آدم عليه السلام حتى نقول: إن الله خلق له منه زوجه حواء؛ إنما هي النفس الإنسانية التي خلق الله منها آدم أولاً، ثم خلق منها حواء بعد ذلك، ثم بثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء[١].

واللطيف أن هذه الآية التي تتحدث عن النفس الواحدة التي خلق الله منها

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١٠٨.

الرجل والمرأة في صدر سورة النساء، التي تتحدث كثيراً عن النساء وأحكامهن، وبهذا نرى أن القرآن ـ والإسلام- ـ قد كرّم المرأة تكريماً عظيماً عندما اعتبرها كياناً شريفاً فاضلاً مخلوقاً من النفس الواحدة التي خُلق منها الرجل[1].

ج ـ قال الدكتور سلمان العودة: كيف خُلقت حواء؟ في العهد القديم والروايات الإسرائيلية أنها خلقت من ضِلَع آدم الأيسر، ومسؤولية هذا الحرف ليست على صريح القرآن ولا صحيح السنة، ولكن في القرآن ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ظاهر هذه الآية أن حواء خُلقت من آدم، لكن دون تعيين الموضع، وفي الحديث: «**إنَّ المرأةَ خُلقَت مِن ضِلَع**»[2]، وهذا يحتمل أن تكون خُلقت من ضلع آدم، أو تكون تلك إشارة إلى طبيعة المرأة وفطرتها وروحها وعاطفتها، كما في قوله: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ولذا قال بعده: «**وإنْ ذهبْتَ تُقيمها كَسرتَها، وكسرُها طلاقُها**». وقيل: خُلقت خلقاً مستقلاًّ من الطين كآدم[3].

بعد طول تردّد في المسألة صرت أميل إلى أنها خلقت من ضلع آدم، فهو جارٍ على ظاهر المعنى، وليس فيه تنقيص للأنثى؛ فهي خُلقت من شيء حي متقدم على التراب والطين، وهو العظم اللين في جنب آدم، والذي هو بطبيعته مائل ليكون على استدارة الجنب، وهذا من كمال الخلقة، ولولا اعوجاجه لم يكن ضلعاً.

قال ابن عباس: خُلقت حواء من ضِلَع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم. وكان آدم نائماً يوم خُلقت منه، وكأنها عملية استنساخ، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنها خُلقت من نخاع العظم، فلكل ضلع نُخاع، والإعجاز هنا استنساخ الأنثى من الذكر بعد أن كانت كامنة فيه لتتمحّض رجولته وتستقلّ أنوثتها، وكأن نومه يشبه التخدير

---

(١) الخالدي، المرجع نفسه، ص١٠٩.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٣٣٣١.
(٣) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٧٤.

لإتمام عملية الاستلال، ولله الحكمة البالغة.

وتفصيلات الحقائق الماضية لا يلزم أن تمتلك دليلاً قطعيّاً يُذعِن له الناس جميعاً، والخلاف فيها سائغ، وربما كان دليل الوجدان العاطفي القلبي الروحي لا يقلُّ أهمية عن الدليل العقلي المنطقي.

والحنين المتبادل والاحتواء والحبُّ يوحي بأن الزواج السعيد يمثل حالة عثور الشطر على شطره الآخر، وكما هو استكمال للدين فهو استكمال للشخصية[١].

٢ ـ هل أمنا الحبيبة حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام؟:

لم نجد في أحاديث رسول الله ﷺ أنها مخلوقة من ضلع آدم، بل من ضِلَع، والضِّلَع من معانيها المشقة والتعب والاعوجاج والجور، كما في كتب اللغة:

ـ ضَلِعَ الرُّمحُ ضَلَعاً: اعوجَّ[٢].

ـ والضَّالع: الجائر، وقد ضَلِعَ يضلَعُ: مالَ، ومنه ضَلعُك معَ فلانٍ[٣].

ـ ضَلِعَ عنِ الحق: مالَ وجارَ. وأضلعَ الحِمْلُ: ثقُلَ.

قد عرفنا من خلال آيات القرآن أن حواء خُلقت ـ مثل آدم ـ من النفس الإنسانية الواحدة، لكن أخبرنا رسول الله ﷺ أن المرأة خُلقت من ضِلْع فما المراد بهذا الضِّلْع؟

قال رسول الله ﷺ: «**استوصُوا بالنِّساءِ خَيراً فإنَّ المرأةَ خُلقَت مِن ضِلْع، وإنَّ أعوجَ ما في الضِّلْعِ أعلاه، فَإنْ ذَهَبتَ تقيمُهُ كَسَرتَهُ، وإنْ تَركتَهُ لم يَزَل أعوجَ، فَاستوصوا بالنِّساءِ خَيراً**»[٤].

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٢) المخصص، المرجع السابق، ١/ ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٤٥.

(٤) صحيح البخاري، رقم: ٣٣٣١، وصحيح مسلم، رقم: ١٤٦٨.

وحمل بعض العلماء الضلع المذكور في الحديث على ظاهره، واستصحبوا في ذاكرتهم الإسرائيليات التي تحدَّثت عن خلق حواء من آدم، وقالوا: يصرّح الحديث بأن حواء خُلقت من ضلع، فلماذا تخالفونه ولا تقولون بذلك؟

تخبر الإسرائيليات وأساطير العهد القديم أنه بينما كان آدم نائماً وحده في الجنَّة أخذ الله ضلعاً من أضلاع جانبه الأيسر وخلق من ذلك الضلع حواء في لحظة، وجعلها امرأة حية فيها كل الملامح الأنثوية، وجلست بجانب آدم، فلما استيقظ ورآها قال لها: من أنتِ؟ قالت له: أنا حواء، قال لها: وما معنى ذلك؟ قالت: أنا امرأتك، خلقني الله من ضلعك، وجعلني لك، فتحسَّس آدم أضلاعه فوجدها ناقصة، فحنَّ إلى حواء لأنها جزء منه.

هذه إسرائيليات موجودة في أسفار العهد القديم، وقد نقلها الإخباريون المسلمون، لكن لا يوجد في القرآن والسنة الصحيحة ما يؤيّدها، ولذلك نتوقف نحن فيها؛ لا نصدّقها ولا نكذّبها، ولا نقول بها، والعلم عند الله سبحانه(١).

إن الحديث الصحيح السابق لا يدل دلالة صريحة على أن حواء خُلقت من ضلع آدم، وهو لا يتكلّم عن أمّنا حواء، وإنما يتكلّم عن المرأة عموماً(٢).

والنبي ﷺ استخدم «ضلع» على سبيل المجاز لا على الحقيقة؛ لتأكيد الوصية بالنساء، لما يلقى في المرأة من ضعف، وأنه لا بدَّ من حسن معاملتها والرفق بها؛ لأن معاملة المرأة في ذلك الوقت كانت متعسّفة، حتى إنها كانت تُدفَنُ حيّةً ولا تَرِثُ، والأدهى من ذلك أن المرأة نفسها كانت تُورَث، فجاء كلام النبي ﷺ من باب الحرص على النساء والوصية بهن(٣).

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١١١.
(٢) المرجع نفسه، ص١١١.
(٣) آدم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، ص٢٦١.

والأحاديث التي وردت فيها كلمة (ضلع) لم يرد فيها ضلع آدم، لذا نقول: إن المعنى هنا على سبيل المجاز لا الحقيقة، كالمشقّة والتعب والميل والجور، وما يتناسب مع ذلك.

والدليل على ذلك: هل المرأة خلقت من الزجاج الذي تُصنع منه القوارير؟ بالطبع لا، فإذا استخدم النبي ﷺ هذا اللفظ فهو على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، من مثل قوله ﷺ في صحيح مسلم في باب: «رحمة النبي ﷺ بالنساء»، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وغلامٌ أسودُ يقال له أنجشة يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أنجشةُ رويدَكَ سَوقاً، رِفْقاً بالقوارير»** [1].

فالقوارير مفردها قارورة، والقارورة مصنوعة من الزجاج، والمرأة ليست مخلوقة من الزجاج، ولكن هذا من باب المجاز كناية عن لين المرأة وضعفها، ومن باب التساوي بين آدم وزوجه ما كان لهما في الجنَّة من أوامر ونواهٍ ودلالة تلك الأوامر والنواهي[2].

إن حديث رسول الله ﷺ يقرّب الطبيعة العاطفية الانفعالية عند المرأة إلى أذهاننا. يُصوّر لنا رسول الله ﷺ هذا التصوير البليغ المعبّر، حيث عرض ذلك في صورة ضلع، فمن المعلوم أن الضلع أعوج، وأن أعوج ما في الضلع أعلاه، وأنه يستحيل تقويم الضلع وإزالة اعوجاجه، ومن فعل ذلك فسوف يكسره، وعلى الإنسان أن يتصرف مع الضلع على أساس اعوجاجه، وهكذا خلق الله المرأة عموماً[3].

٣ ـ حكمة التزاوج بين الزوجين:

بعدما خلق الله حواء أخبر آدم أنها «زوج» له، كما أنه هو «زوج» لها، وينطبق

(١) آدم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، مرجع سابق، ص٢٦٢، رواه مسلم.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٢.
(٣) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٢.

هذا على الأزواج من البشر، فالرجل زوج لامرأته، وامرأته أيضاً زوج له، وكل منهما زوج للآخر، وفي هذا دلالة عجيبة على الصلة الوثيقة الدقيقة بين الزوجين، فلا تستقيم الحياة ولا تتحقق الخلافة إلا بهذه الزوجية وما ينتج عنها من اتحاد وتلاحم.

ومعنى هذا أن الرجل بمفرده لا يمكنه تحقيق ذاته، ولا عمارة الأرض ولا ممارسة الحياة، وهناك جزء مهم في كيانه فارغ لا تملؤه إلا المرأةُ زوجُهُ، فهي بزوجيَّتها له تُكمل نقصَه، وتملأ فراغَه، وتحقّق إنسانيته. وقُلْ مثل هذا في المرأة؛ فإنها لا يمكنها بمفردها تحقيق ذاتها، ولا عمارة الأرض وممارسة الحياة، ففي كيانها جزء مهم فارغ لا يملؤه إلا الرجلُ زوجُها، فهو بزوجيَّته لها وزواجه منها يكمل نقصها ويملأ فراغَها، ويُحقِّق إنسانيَّتها، ولا بد من الحياة الزوجية الكاملة لسد النقص وملء الفراغ عند كلٍّ من الرجل والمرأة؛ الحياة الزوجية القائمة على اللقاء النفسي والروحي والقلبي والجسدي بينهما، الذي تنتج عنه الأسرة والأولاد والاتفاق على الهموم والآمال والتطلُّعات المشتركة، وكلما زادت الحياة الزوجية مدةً زاد التوافق والالتقاء والتزاوج متانة[١].

ولهذا كان الرجل زوجاً للمرأة وكانت المرأة زوجاً للرجل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وكم تمزّقت المادية الغربية عندما حاربت هذا التزاوج بين الزوجين، وجعلت علاقة الرجل بالمرأة «مشاعاً» قائماً على مجرد التقاء جسديهما لقاء عابراً لممارسة الجنس و«قضاء الحاجة»[٢].

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٣.
(٢) المرجع نفسه، ص١١٤.

إن مؤسسة الزوجية عريقة عراقة آدم وحواء، ولا بديل عنها شرعاً وفطرةً، ويتحتّم على كل طرف السعي في ترميم العلاقة وحمايتها.

إن الله خلق حواء زوجة لآدم، وخاطبها مع زوجها: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾، وخطاب الله المباشر لها مع زوجها تشريف وتكليف، وترسيم لمسؤوليتها وذمّتها المستقلّة، وأنها ليست تابعةً للأب أو الزوج.

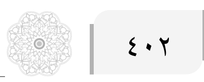
فالقاعدة في أوامر الشرع ونواهيه أن للذكر والأنثى سواء، إلا ما دلَّ دليل على تخصيصه بأحدهما[١]. والخوض في تفضيل أحد الجنسين على الآخر لا لزوم له، بل بعضهم من بعض: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقد أوصى النبي ﷺ الفتى بأمه ثلاثاً، وبأبيه واحدة[٢]، وإن التفضيل الخاص للأم لا ينفي التفضيل العام للأب، والخطاب واحد، والعقاب واحد، والجزاء واحد، والشريعة واحدة، وليس الضعف واللين الذي تتميز به المرأة مدعاة لفضيلة مطلقة للرجل؛ للرجل أخلاق وميادين، وللمرأة مثلها، وإذا كان الرجل يمتاز بالصبر على الشدائد وتبعات الحياة والعمل، فهو لا يطيق صبر المرأة على الحمل والولادة والحضانة.

الرجل الشديد يتبرّم من حمل طفل لدقائق، ويعجز عن مشاهدة آلام المخاض فيمن يحب، ويضيق بصراخ الأطفال عند نومه، فثَمَّ رجال يُضرب المثل بوفائهم لآبائهم وأمهاتهم، وثَمَّ نساء يُضرب بهنَّ المثل في الوفاء لأزواج أحياء أو غيّاب أو أموات[٣].

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص١٧٦.
(٢) العودة، المرجع السابق، ص١٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص١٧٦.



أ ـ حسن وجمال حواء:

الكلام في حق حواء هو نفس ما قيل عن الجمال والإبداع في خلق آدم، ولكننا نستطيع أن نزيد عليه أن الأكيد في شكل ووصف حواء أنها كانت تمثّل أكمل وأبهى صور الجمال الأنثوي، فالجمال والحسن في حقها أوجبُ مما قلناه في وصف بهاء وجمال صورة آدم.

فمنها أخذت كل أنثى منذ بدء الخلق وحتى الآن جزءاً من الجمال والأنوثة والرِّقة، فحواء تمثل أعلى قمّة في الجمال وحسن المرأة، إنها المرأة الأولى، والأنثى الأصل التي خلقها الله في أبدع صورة وفي أحسن تقويم، وهيّأها لأداء وظيفتها في أن تكون مصدراً للسكينة وينبوعاً للرحمة وأصلاً للمودة والأُنس، وأن تكون لزوجها ملاذاً يأوي إليها، وإشباعاً لحرمانه، وإرواء لعطشه، فلا تقصّر في أدائها تقصيراً يدفع بشهواته لأن تنطلق خارج محيطها فيعصي ربَّه ويعاقَب، ولا يرى منها إلا ما يجعل نظره لا يرتفع عنها إلا ليعود إليها بشوقٍ جديدٍ ولهفةٍ لا تنضب.

كما أن شكلها وتكوينها الجسماني والروحي والعاطفي قد تهيّأ لتحمّل مهمّة حمل أطفالها في جوفها، ثم إرضاعهم من لبنها، والحنوّ عليهم بعطفها، وإروائهم من حنانها، ومساعدتهم والأخذ بأيديهم حتى يبلغوا الحلم، لذا فحواء هي الأنثى الأولى، وهي الأنثى الكاملة، والمثال الأتمّ والنموذج الأول لجمال كل امرأة في الوجود[١].

وهي المرأة الأولى في تاريخ الإنسانية التي انبثقت عنها كل نساء الدنيا، ووَرِثْنَ حسنَها وأنوثتَها ودلالها وجمالها ووظيفتَها في السكينة والمودّة والرحمة والأمومة والحنان[٢].

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، ص٦٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٥.

ب ـ حب آدم وحواء:

لقد نادى الله حواء في القرآن منسوبةً إلى آدم، أو مجتمعةً معه بلفظ المثنّى:

ـ ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ـ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

ـ ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

وكانت بداية خلق حواء لغاية محددة ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعاشا في الجنَّة سويّاً، وعصيا ربهما، وأكلا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وهبطا إلى الأرض والتقيا فيها، وعاشا رغد الجنَّة وشظف العيش في الأرض معاً، لم يرَ آدم ولم يدُر بخَلَدِه أن يرى في يقظةٍ أو منامٍ إلا هي، فقد كانت أنيسَه ونيسَه وخلَّه الوفيَّ، ورأى ذريَّتَه وأولاده منها، وسُعِدا وفرحا بوجود أرواح أخرى غيرهما، وطارا من الفرح حين وجدا نسخة وشبيهاً لهما يخرج للحياة من جوف حواء، لذا فقد كانت حواء لصيقةً بآدم، وكانت العلاقة بينهما مزيجاً من الحب، والصداقة، والألفة، والعشرة، والبداية المشتركة، والهدف والمصير الواحد، لم يتكبّر يوماً أحدُهما على الآخَر؛، فلا فوارق اجتماعية أو طبقية بينهما، ولم يتشاجرا لغيرةٍ أو حساسيةٍ مفرطةٍ، فلم يكن هناك منافس ولا ندٌّ ينظر أي منهما إليه، ولم تكن هناك «حماة» لحواء توصيها على ولدها وتُنافسها في حبّها له، وتغار منها حواء لأنّ آدم يُحبُّ صفاتِ أمّه أكثر مما يُحبُّ من حواء، ولم تكن كذلك لآدم «حماة» تذكّره دائماً بأن حواء كانت تستأهل من هو أفضل منه، ولا تذكّره دائماً بأنّ عيشة ابنتها حواء أقل من عيشة غيرها من قريباتها ممن هنَّ أقل منها شكلاً وحسباً.

لقد كان آدم وحواء منفردين في هذه الناحية لا يفترقان ولا يختلفان ولا يتشاجران ويأوي كل منهما للآخر ويأنس بكنفه.

لقد علمت حواء وظيفتها منذ البداية في أن تكون سكناً لآدم ورفيقة له في دربه، ثم لم تلبث أن حملت وولدت وأرضعت حملاً بعد حمل، فانشغلت بهذه المهمّة الجديدة التي ميزتها عن آدم، وأن لآدم مهمة أن يسعى ويكدّ لتوفير المأكل والملبس لحواء ولأبنائه[1].

ج ـ الزواج سنة الله في خلقه:

قد تبين لنا أن الله عزَّ وجلَّ خلق حواء وزوَّجها من آدم عليه السلام، وعاشا معاً في الجنَّة، ثم هبطا معاً إلى الأرض.

ـ قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١].

ـ وقال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥]، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقرَّر القرآن الكريم شِرعة الزواج لآدم عليه السلام لتكون سنّة الله تعالى للبشرية للسكن والمودة وقضاء الشهوة وإنجاب الذرّية حتى تقوم الساعة، وهو ما تكرَّر في القرآن الكريم في شِرعة الأنبياء الآخرين، ثم تأكّد وتكرّر في الشريعة الإسلامية، ليكون هو الوسيلة الشرعية الحصريّة الطاهرة النقية المباركة في لقاء الذكر والأنثى واستمرار النسل حتى تقوم الساعة، ويُسمَّى أيضاً النكاح، قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٢].

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٦٥.

وثبت ذلك في السنّة العمليّة والقوليّة في أحاديث كثيرة؛ منها قول النبي ﷺ: «**يا مَعشَرَ الشَّبابِ مَن استَطاعَ منكمُ الباءَةَ فَليَتَزَوَّجْ، فإنَّه أَغَضُّ للبَصَر وَأَحصَنُ للفَرجِ، ومَن لم يَستَطع فَعَليه بالصَّوم فإنَّه له وِجاءٌ**»[(١)]. وهو المقرَّر في أحكام الأسرة في الزواج، وفي قوانين الأحوال الشخصية اليوم[(٢)].

والزواج سنة من سنن الفطرة؛ لأنه يوافقها ويلائمها، ولأن الرباط الذي جمع بين أبوينا آدم وزوجه حواء هو رباط الزواج، ولقد جاء الإسلام بما يوافق الفطرة السليمة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وهو سنة كونيّة، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]. وكذلك سنة إنسانية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١][(٣)].

٤ ـ الجنَّة:

قال تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

إن المراد بالجنَّة في قوله تعالى ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ الجنَّة دار النعيم التي أعدّها الله للمؤمنين المتَّقين، والراجح أن المشاهد الأولى من قصة آدم وحواء وإبليس كانت في الجنَّة دار النعيم؛ لأنّ غالب استعمال كلمة «الجنَّة» في القرآن بهذا المعنى، ويُراد بها الجنَّة المباركة العظيمة التي خلقها الله قبل آدم وإبليس، وجعلها دار النعيم التي هي مأوًى للمتَّقين الصالحين.

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٢٧٧٩.
(٢) شرعة الله للأنبياء، الزحيلي، مرجع سابق، ص٤٤.
(٣) المرأة في القصص القرآني، العميري، مرجع سابق، ١/١٠٨.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بالجنَّة في قصة آدم: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾، جنَّة على الأرض تتمثَّل في مكانٍ مرتفعٍ على رأس جبل عالٍ، وهذا المكان فيه أشجارٌ وثمارٌ وأنهارٌ وعيونٌ وبيوتٌ وقصورٌ، وهو ممتدٌّ فسيحٌ، سُمِّيَ «الجنَّة» لهذا السبب، ولسنا مع هؤلاء في تأويلهم واجتهادهم؛ لأنَّه لا يتفق مع ظاهر التعبير القرآني عن إسكان آدم وزوجه الجنَّة، وهذا هو الأصل في معنى الجنَّة في القرآن(١).

والذي عليه أهل السنة أن الجنَّة التي أُخرج منها آدم وحواء وقبلهما إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم(٢). وقال ابن بطال: إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أُهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول من خالفهم(٣).

ولهذا القول أدلّة كثيرة أذكر منها طرفاً يحصل به المقصود بإذن الله تعالى؛ ومن تلك الأدلة:

أ ـ إن أل في «الجنَّة» للعهد الخارجي، ولا معهود غيرها، والجنَّة المعهودة المعلومة للمسلمين هي جنة الخلد، فوجب صرف اللفظ إليها عند إطلاقها؛ حملاً للألفاظ الواردة في النصوص على اصطلاح الشرع، قال ابن عاشور: لما كان المقصود منه القصص لنا حُكي بالألفاظ المتعارفة لدينا، فيكون تعريف «الجنَّة» منظوراً فيه إلى مُتعارَفِنا، أي: قلنا له اسكن البقعة التي تسمّونها أنتم اليوم بالجنَّة، والحاصل أن الأظهر أن الجنَّة التي أُسكنها آدم هي الجنَّة المعدودة داراً لجزاء المحسنين(٤).

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٦.
(٢) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١٤٣.
(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/٣٠٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ١/١٣٦، مع تصرّف باختصار.

ب ـ ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]، قال ابن تيميّة: وهذا يُبيّن أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أُهبطوا إلى الأرض، فإنّهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرضٍ أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده، إلى أن قال: ولفظ النزول كلفظ الهبوط؛ فلا يُستعمَلُ «هبط» إلا إذا كان من علوٍّ إلى سفل، وهو يبين أنهم إنما هبطوا إلى الأرض من غيرها[١].

ج ـ قوله تعالى: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣].

ووجه دلالة الآية على أنها جنة الخلد، أنّ جنة الخلد هي التي يُحرَّم فيها التكبّر، بخلاف غيرها من الجنان في الدنيا؛ فإنَّه يكثر فيها المتكبّرون من الملوك وغيرهم في كل بقاع الأرض، كما هو مشاهد، وهو أمر معلوم لدى العقلاء[٢].

د ـ قال ابن تيمية: وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**احتَجَّ آدَمُ وموسَى، فقَال موسى: يا آدَمُ أنتَ أَبو البَشر، خَلقَك الله بيَدِه، وَنَفَخَ فيكَ من روحِه، وَأَسجَدَ لكَ ملائكتَه، فلماذا أَخرَجتَنا منَ الجنَّة إلى المَشَقَّة والنَّكَد؟**»، فلو كان ذلك بستاناً في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوِّض عنه... والله أعلم[٣].

هـ ـ من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَجمَعُ الله تَبارَكَ وتَعالَى النَّاسَ، فَيقومُ المؤمنونَ حتى تُزلَفَ لهمُ الجنَّةُ، فَيَأتونَ آدمَ فيقولون: يا أبانا استَفتحْ لنا الجنَّةَ، فيقولُ: وهلْ أخْرجكُم من الجنَّةِ إلا خطيئةُ أبيْكمْ آدمَ؟ لسْتُ بصاحبِ ذلكَ، اذْهَبوا إلى ابْني إبْراهيمَ خليلِ الله...**»، الحديث[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١/ ٣٧٣
(٢) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص١٤٤.
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١/ ٣٧٣.
(٤) صحيح مسلم، رقم: ٢٨٨.

ووجه الدلالة أن الجنَّة التي طلبوا من آدم أن يستفتحها لهم هي جنة الخلد بالاتفاق، وعليه فإن قول آدم في هذا الحديث: «وهل أخرجكم من الجنَّة إلا خطيئة أبيكم آدم؟»، يعني بذلك الجنَّة التي طُلب منه أن يستفتحها لهم، لا يحتمل هذا الكلام إلا ذلك، فدلّ على أن الجنَّة التي كان آدم سبباً لخروج بنيه منها هي الجنَّة التي قُرِّبت لهم يوم القيامة، قال ابن كثير معلقاً على هذا الحديث: وهذا فيه قوة جيدة في الدلالة على أنها جنة المأوى، وليست تخلو عن نظر[(١)].

ـ وقد وصف الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز خلق الجنَّة بأوصافٍ عظيمةٍ جليلةٍ، كما جاء وصف خلق الجنَّة على لسان رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة مُفصَّلاً تفصيلاً دقيقاً؛ جاء فيه وصف أرضها وتربتها ومائها وأنهارها وأشجارها وطيورها ونسائها وغلمانها، ومساكنها وفرشها، ونعيمها وأُنسها، بما لم يأتِ التفصيل به عن مخلوقٍ آخر، وما ذاك إلا لأنها موعود الله العظيم وجائزته الكبرى لعباده المؤمنين ومُستراحُهم ومَقيلُهم[(٢)].

ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥ـ١٦].

ـ وقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

والجنَّة موجودة الآن كما ثبت ذلك في الآيات والأحاديث الصحيحة، قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ص١٤.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢١٢.

وقال الإمام البخاري : «باب ما جاء في صفة الجنَّة وأنها مخلوقة»، وقال ابن حجر في شرحه : أي موجودة الآن، وقد ذكر المصنّف في الباب أحاديث كثيرة دالّة على ما تَرجَمَ به، فمنها ما يتعلَّق بكونها موجودة الآن، ومنها ما يتعلَّق بصفتها، وأصرَحُ من ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داوُد بإسنادٍ قويّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**لمَّا خَلَقَ الله الجنَّةَ قال لجبريل : اذهبْ فانظرْ إليها**»[١].

وقال رسول الله ﷺ : «**قالَ الله : أَعدَدتُ لعباديَ الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، فاقرؤوا إنْ شئتمْ :** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧]»[٢].

وفي حديث البراء عن النبي ﷺ أنه قال لـمّا مات إبراهيم ـ أي ابن رسول الله ﷺ ـ : «**إنَّ له مُرضِعاً في الجنَّة**»[٣].

وقال ابن القيم بعد أن ذكر كلاماً مطوّلًا في بداية كتابه (**حادي الأرواح**)، عن الإمام أبي الحسن الأشعري : والمقصود حكايته عن جميع أهل السنة والحديث أن الجنَّة والنار مخلوقتان، وقد دل على ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم : ١٣ ـ ١٥]، وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في الصحيحين من حديث أنس في قصة الإسراء، وفي آخره : «**ثم انطلقَ بي جبريلُ حتى انتَهَى إلى سدرةِ المنتَهى، فَغَشيَها ألوانٌ لا أَدري ما هيَ، قال : ثمَّ دخلتُ الجنَّةَ فإذا فيها جَنابذُ اللُّؤلؤِ، وإذا ترابُها المسكُ**»، رواه البخاري في كتاب الإيمان[٤]، والأدلة في ذلك كثيرة مستفيضة[٥].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ٦/٣٦٦.
(٣) المرجع نفسه، ٦/٣٦٨.
(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، ص١٨.
(٥) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢١٥.

وهذا المخلوق العظيم الكريم الذي جعله الله منزلَ كرامةٍ لعباده المؤمنين، ووصفه بأعظم الأوصاف، واختار له أجمل الأسماء وأحسنها؛ لتزداد له النفوس شوقاً، وبه تعلقاً، ومن أجله جدّاً واجتهاداً[١].

يقول ابن القيم رحمه الله: ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومُسمَّاها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، ثم ذكر أسماء الجنَّة فقال ما ملخّصه:

الاسم الأول: الجنَّة، وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

الاسم الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

الاسم الثالث: دار الخلد، وسُمِّيَت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

الاسم الرابع: دار المُقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٥].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل: هي اسم لجنة من الجنات، وإنه اسم لجملة الجنات، وكلها جنات عدن: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢١٦.

الاسم السابع: دار الحَيَوان، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الاسم الثامن: جنات النعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨].

الاسم التاسع: المقام الأمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

الاسم العاشر: مقعد صدق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

فسمَّى جنّته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها[١]، وأما مكان الجنَّة ففوق السماء السابعة وتحت عرش الرحمن، وأما كونها فوق السماء السابعة فدل عليه القرآن: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٤ ـ ١٥]، وسدرة المنتهى فوق السماء السابعة، كما في حديث الإسراء المشهور، وفيه: «**ثم عُرجَ بنا إلى السماءِ السابعةِ: فاستفتحَ جبريلُ فقيلَ: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معكَ؟ قال: محمّدٌ ﷺ، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففُتحَ لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه السلامُ مسنِداً ظهرَه إلى البيت المعمورِ، وإذا هو يدخلُه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهبَ بي إلى سدرةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذانِ الفيلةِ، وإذا ثمرُها كالقِلالِ، قال: فلمّا غشيَها من أمرِ الله ما غشيَ تغيّرتْ، فما أحدٌ منْ خَلقِ الله يستطيعُ أن ينعتَها من حسنِها، فأوحَى الله إليَّ ما أوحَى، ففرضَ عليَّ خمسينَ صلاة**»[٢].

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم، مرجع سابق، ص٧٧ ـ ٨١.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ١٦٢.

فهذا الحديث يدل على أن سدرة المنتهى بعد السماء السابعة، وبما أنَّ الجنَّة عندها إذن فهي فوق السماء السابعة(١).

وأما كون الجنَّة تحت عرش الرحمن، فدلّ على ذلك من السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «**مَن آمنَ بالله وبرسولِه، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقّاً على الله أنْ يدخلَه الجنَّةَ، جاهدَ في سبيلِ الله أو جلسَ في أرضِه التي وُلدَ فيها. قالوا: يا رسولَ الله أفلا نبشِّرُ الناس؟ قال: إنَّ في الجنَّة مئةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سبيلِ الله، ما بينَ الدَّرَجَتين كما بينَ السماءِ والأرضِ. فإذا سألتُم الله فاسألوهُ الفردوسَ، فإنَّه أوسطُ الجنَّة، وأعلى الجنَّةِ**»، **أراهُ قال**: «**وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ، ومنهُ تفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ**»(٢). فأعلى درجات الجنَّة هي الفردوس، كما في الحديث، وفوقها عرش الرحمن، إذن فالجنَّة تحت عرشه سبحانه(٣).

٥ ـ ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]:

أ ـ ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾: أي: كلا منها أكلاً واسعاً من أي مكان فيها دون جهد وتعب، فالرَّغَد: العيش الطَّيِّبُ الهنيءُ الذي لا عَناءَ فيه.

ب ـ ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾: لما أذِن الله لآدم وحواء بالأكل من حيث أرادا في الجنَّة لم يمنعهما إلا من شجرة واحدة معيّنة من أشجار الجنَّة الكثيرة، تُثمرُ ثمراً خاصّاً شهيّاً مرغوباً، وكان آدم وحوّاء يعرفانها، ولذلك لما نهاهما الله عن الاقتراب منها أشار لها باسم الإشارة «هذه» الذي يُشار به للقريب، وهذا يدل على قرب الشجرة منهما قرباً ماديّاً وقرباً علميّاً ومعنويّاً، و«أل» التعريف في

(١) اليوم الآخر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، عبد المحسن بن زبن المطيري، ص٤١٠.
(٢) صحيح البخاري، رقم: ٢٧٩٠.
(٣) الإيمان باليوم الآخر، علي محمد محمد الصلابي، ص١٨١.

«الشجرة» للعهد الذهني؛ لأنها شجرة معروفة عند آدم وحواء[١].

ولم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشجرة المحرّمة، إنما نهاهما عما هو أبلغ؛ وهو الاقتراب منها، حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، والنهي عن الاقتراب من الشجرة أبلغ من مجرد النهي عن الأكل منها؛ لأنه يتضمَّن النهي عن الأكل منها، أما النهي عن الأكل فإنَّه لا يتضمَّن النهي عن الاقتراب. إنهما إذا لم يقتربا من الشجرة فلن يأكلا منها من باب أولى، وهذا معناه أنهما كانا منهيَّين عن شيئين؛ الاقتراب من الشجرة والأكل منها.

وهذا هو المسمَّى في الإسلام بسد الذرائع؛ أي تحريم كل طريق تُوصل إلى الحرام، فعندما حرَّم الإسلام الزِّنى سدَّ الذرائع إليه، وحرَّم كل طريق توصل إليه، فحرَّم النظرة والمصافحة والقُبلة والاختلاط والتبرُّج، وغيرَ ذلك.

ولما نهى الله آدم وحواء عن الاقتراب من الشجرة أخبرهما أنهما إن فعلا ذلك كانا من الظالمين[٢]. وقد يتساءل متسائل: لماذا كلَّفهما الله بالنهي عن الاقتراب من تلك الشجرة؟

ولعل الحكمة من ذلك التكليف هي تقوية إرادة آدم وحواء، وتنمية معاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك وهما في الجنَّة ليُحسنا النظر إليه، ويتمرَّنا على التفاعل معه، لأن الله سيُنزلهما بعد ذلك إلى الأرض، وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وسيكون هذا التكليف لهما في الجنَّة تمهيداً للتكاليف الشرعية لذريّتهما من بعدهما، فما كُلّف الأبوان في الجنَّة هذا التكليف وتدرّبا عليه كذلك تُكلَّف ذريتهما من بعدهما هذا التكليف وتتدرب عليه وتتكيّف معه[٣].

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٧.
(٢) الخالدي، المرجع السابق، ص١١٩.
(٣) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٢٠.

وقد خاض كثير من المفسّرين في تحديد تلك الشجرة، فقال بعضهم: إنها كانت شجرة البُرّ، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وقيل كانت شجرة الحنطة، وقيل كانت سنبلة، وقيل غيرها. وعدم اتفاقهم على واحدة منها دليل على عدم توقيف شيء من ذلك في كتاب أو سنة، ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جلَّ ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنَّة دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا من السنة الصحيحة[١]. رجَّحه ابن كثير بقوله: «وهو الصواب» [٢].

ج ـ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنَّه يعني: فتكونا من المعتدين إلى غير ما أُذن لكما وأُبيح لكما فيه، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة كنتما على منهاج من تعدّى حدودي وعصى أمري واستحلَّ محارمي؛ لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله وليّ المتقين، وأصل الظلم في كلام العرب وضع الشيء في غير موضعه[٣]. وقال غيره: يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما[٤].

٦ ـ تحذير آدم وحواء من عدوهما إبليس:

وبعد أن أذن الله لآدم أن يسكن هو وزوجه في الجنَّة، وأن يأكلا من ثمارها ما شاءا؛ غير شجرة واحدة، توجَّه الله بخطابٍ آخر إلى آدم يحذّره فيه إبليس اللعين وعداوته، وأبلغه كل ما توعَّد به من إضلاله وإغوائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وحذَّره أن يكون إبليس سبباً لإخراجه من الجنَّة، وفي ذلك يقول تعالى، كما في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٥٢١.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٣٥.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٢٣٤.
(٤) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، ١/ ٥١.

فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩].

قال الله لآدم: إن إبليس عدوٌّ لك ولزوجك حواء، فاحذرا منه، وإياكما أن تستجيبا لوساوسه، فإنَّه لا يريد الخير لكما، وإنما يريد إخراجكما من الجنَّة.

وإنك إن خرجت من الجنَّة شقيت وتعبت؛ لأن كلَّ حاجتك في الجنَّة مؤمَّنة ميسَّرة، فأنت فيها لا تجوع، ولا تعرى، ولا تعطش، ولا يؤذيك حر الشمس في الضحى، فإن استجبت لوساوس الشيطان وأُخرجت بسبب ذلك من الجنَّة فإنك ستخسر وتشقى؛ حيث تجوع وتعرى، وتظمأ وتعطش، وتضحى من حر الشمس.

وقد وسوس إبليس لآدم وحواء، وكانا منتبهين له، متذكّرين لعداوته، واستمرّ بالوسوسة مراتٍ ومراتٍ، وهما حذران منه، ولكنهما نسيا في آخر الأمر ووقعا في المحذور.

وقد فصّلت آيات سورة الأعراف في وسوسة إبليس التي أدّت إلى نسيانهما ومخالفتهما[١]، يأتي الحديث عنها لاحقاً بإذن الله تعالى.

٧ ـ من لطائف التعبير القرآني:

وهذه مقارنة بين آيتي إسكان آدم وزوجه الجنَّة:

ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

ـ وقال تعالى في سورة الأعراف في القصة نفسها: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩].

---

(١) القصص القرآني، الخالدي، مرجع سابق، ١/ ١٢٧.

وعند التأمل في هاتين الآيتين نجد بين التعبيرين بعضَ الفروق؛ أهمها ما يأتي:

ـ في الآية الأولى جاءت كلمة ﴿وَقُلْنَا﴾، ولم تأتِ في الآية الثانية.

ـ في الآية الأولى قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ بالواو، وفي الثاني قال تعالى: ﴿فَكُلَا﴾ بالفاء.

ـ في الأولى قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾، وفي الثانية لم ترد منها.

ـ في الأولى جاءت كلمة ﴿رَغَدًا﴾، ولم تأتِ في الثانية.

ـ في الآية الأولى قال تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، وفي الآية الثانية قال تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

والسر اللطيف في هذه الفروق بين التعبيرين هو ـ والله تعالى أعلم ـ أن القصة في سورة البقرة وردت في مقام تكريم آدم عليه السلام؛ إذ فيها إخبار الله الملائكة باستخلاف آدم في الأرض، وفيها إسجاد الملائكة لآدم، وفيها تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها. وليس في سورة البقرة معاتبة الله أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما، بل فيها بشارة بتوبة الله على آدم(١).

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وأما القصة في سورة الأعراف، فجاءت في مقام العتاب والعقاب والمؤاخذة، وليس فيها ذكر الاستخلاف ولا التعليم، وتكريم آدم في الأعراف جاء ثانوياً، بينما التوبيخ جاء فيها صريحاً قارعاً: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

---

(١) من لطائف التعبير القرآني، فؤاد السندي، ص٥٤.

وفي سورة الأعراف جاء اعتراف آدم وزوجه بأنهما ظلما أنفسهما، وفيها أنهما طلبا من الله المغفرة والرحمة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ولم يُذكر في الأعراف أن الله تاب عليهما كما ذُكر في سورة البقرة.

ومن أجل اختلاف المقام بين السورتين «التكريم والعتاب» جاء الاختلاف في التعبير القرآني بين آيتي إسكان آدم وزوجه الجنَّة فيهما[1].

قال الإمام الكرماني: ﴿ٱسْكُنْ﴾ في الآيتين ليس بأمرٍ بالسكون الذي هو ضد الحركة، وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامة، والذي في الأعراف من السّكنى التي معناها اتخاذ الموضع مسكناً[2].

ولمناسبة تكريم آدم عليه السلام في سورة البقرة، فإن الله تعالى نسب القول في آياتها لنفسه جلَّ شأنه، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولمناسبة مقام عتاب آدم عليه السلام في سورة الأعراف جمع الله بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد، قال بإسناد القول إلى الغائب: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٨ ـ ١٩].

وهذا النمط الدقيق في اختيار اللفظة المناسبة مع السياق قد سار عليه التعبير في القرآن كله والتزمه، ففي مقام التعظيم والتكريم والتلطف يسند الله تعالى القول إلى نفسه، وقد وقع في كتابِ اللهِ العزيز أربعاً وعشرين مرة منها:

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

---

(١) من لطائف التعبير القرآني، فؤاد السندي، مرجع سابق، ص٥٢.
(٢) أسرار التكرار في القرآن، محمد بن حمزة الكرماني، ص٢٥.

ـ وقوله تعالى في سورة هود: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود: ٤٠].

ـ وقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ـ وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ [الإسراء: ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فسبحان الله العظيم منزل هذا القرآن الحكيم على قلب نبيه الكريم، بلسان عربي مبين[(١)].

ونعودُ إلى الآيتينِ في سورة البقرة والأعرافِ لنقفَ عندَ الأمرِ بالأكلِ فنجده قد اقترنَ في البقرةِ بالواو قال تعالى: ﴿ وَكُلَا ﴾، وفي الأعراف قد اقترنَ بالفاء قال تعالى: ﴿ فَكُلَا ﴾. والسر اللطيفُ في ذلك والعلمُ عند الله هو: أنهُ لما كان المرادُ بقوله: بـ ﴿ ٱسۡكُنۡ ﴾ في سورة البقرة الإقامة، والإقامة كما قال الكرماني تستدعي زماناً ممتدّاً جاء التعبير فيها، وَكُلا بالواو؛ لأن الواو تفيد مطلق الجمع بين الإقامة في الجنَّة والأكل من ثمارِها من غيرِ تقييدٍ بترتيب وتدل على السعةِ في الاختيارِ وهو المناسبُ لمقامِ التكريم الموجود في سورةِ البقرة، ولو قالَ هنا: ﴿ فَكُلَا ﴾ لوجبَ تأخير الأكلِ إلى الفراغِ من الإقامة.

وأما في سورةِ الأعراف، فجاء التعبيرُ ﴿ فَكُلَا ﴾ بالفاء؛ لأنَّ السُّكنى هنا مراد بها: اتخاذ الجنَّة مسكناً، واتخاذ المسكن لا يستدعي زماناً ممتدّاً، ومن جهةٍ أخرى أيضاً لا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه وإنما يقع عقبه، والفاء تفيدُ التعقيب والترتيب لهذا ناسب مجيئها في آيةِ الأعرافِ فَكُلا، ثمَّ زيادة في تكريمِ آدم عليه السلام في سورةِ البقرة أعادَ فيها ضمير الجنَّة منها

---

(١) من لطائف التعبير القرآني، السندي، مرجع سابق، ص٥٤.

وزادَ فيها كلمة ﴿رَغَدًا﴾ قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]. وفي سورة الأعرافِ لم يُعِدْ ضمير الجنَّة، ولم يذكر كلمة ﴿رَغَدًا﴾. قال تعالى: ﴿فَكُلَا﴾؛ وذلك لأن المقامَ هُنا مقام عتاب لا مقام تكريم، فالمقامان مختلفان، فجاءَ التعبير في كلِّ سورة وفقَ ما يقتضيهِ المقام، فسبحان الله العظيم الحكيم[1].

وأمّا الظرف: حيث شئتما، فكما قالَ الدّكتور فاضل السامرائي في كتابهِ **(التعبير القرآني)**: «في آية سورة البقرة: يحتمل الظرف أن يكونَ للسكن وللأكل جميعاً، والمعنى اسكنا حيثُ شئتما، وكُلا حيث شئتما، لهذا لم يسبق بمن. أما في سورةِ الأعراف، فلا يحتمل الظرف إلاّ أن يكونَ للأكل ولا يصح تعليقه بالسكن، إذ يصح أن يُقال: فكلا من حيثُ شئتما ولا يصحُّ أن يقال: اسكنا من حيث شئتما؛ لذا زيدت «من» في سورة الأعراف: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩]. فسبحان الله العظيم دقَّت حكمته في كل شيء وتناهت روعة كلامهِ في كُل لفظ»[2].

الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]:

١ ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾:

معنى ذلك أوقعهما في الزَّلَّة واستجرَّهما الشيطان حتى زلاّ، والضمير في قوله: (فأزلَّهما) عائد على أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وكانا قد أُسكنا الجنَّة ثمَ طُردا منها، بمعنى أنَّ الشيطانَ بوسوسته إليهما قد أوقعهما في الخطأ الذي كان سبباً في إخراجهما من الجنَّة وتنحيتهما عنها، والتعبير يُوحي بصورةِ

(١) لطائف التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط٤، ٢٠٠٦م، ص٢٩٠.

(٢) السامرائي، المرجع نفسه، ص٢٩١.

الشيطان وهو يجرُّهما بغوايتهِ ويلقي بهما إلى خارج الجنَّة إلقاء بعنف ويدفع بهما إلى خارجها دفعاً عنيفاً فتزلَّ أقدامهما من تحتهما لشدةِ الدفع(١).

وهذه الآية الكريمة جاءت في معرضِ الحديث عن غوايةِ إبليس اللعين لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وأكَّد ربنا تبارك وتعالى تلك الواقعة في كل من سورتي الأعراف وطه. وبيّنَ الله عزَّ وجلَّ وسائل الشيطان في إغواء آدم وزوجهِ بالأساليب المُغرية كافة، فلم يترك سبيلاً إلا وَلَجه ولا باباً إلا طرقه، ولم يكن إغواءُ إبليس لآدم وحواء على مرحلة واحدة، بل سبقَ ذلك مراحل عديدة، وكان دائم التردُّد عليهما، مرة يستفرد بآدم ويوسوس إليه، ومرة يوسوس إليهما معاً، فكان إبليس شديد الإلحاح، وقد استخدمَ طُرُقاً عدّة كالنُّصحِ والإرشاد والقسم باليمين(٢).

أ ـ وسوسة إبليس:

قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. أطلقَ الله تعالى على إبليس صفة الشيطان وليس اسمه، لأنّ اسمه إبليس، وقال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾؛ لأن الوسوسة يُناسبها التعبير بالوصفِ فهي من عملِ الشيطانِ، ولذلكَ عدلَ من اسمِهِ إلى وصفِهِ. والوسوسة إيحاءٌ من الشيطانِ لهما أو حديثٌ متواصل منه معهما، وقد يكون هنا الحديث ظاهراً إلينا، وقد يكونُ شعوراً باطنياً خفيّاً.

وفِعل «وسوس» يوحي باستمرار حديث إبليس معهما وإيحاءاته العلنية

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن، زغلول النجار، مرجع سابق، ص١١٩.
(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر العمصي، مرجع سابق، ص١٠٢.

والخفية، وهذا الاستمرار منه يدلُّ على أنهما لم يستجيبا له من المرة الأولى أو الثانية أو العاشرة.

إنَّ فعلَ «وسوس» يشيرُ إلى أنهما بقيا حذرين منه متذكِّرين عداوتَه وحافظا على الوعي والانتباه مدَّةً، واستجابا لتحذيرِ الله تعالى لهما. كما أنَّ هذا الفعل «وسوس» يشير إلى الجهد الكبير الذي بذلهُ في الوسوسة لهما وخداعهما ومواجهتهما لوسوسته بالانتباه[(١)].

ب ـ التعرِّي غاية الإغواء:

وسوس الشيطان لهما، في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ اللام في «ليبديَ» لام التعليل، والجملة بعدها تُعلِّلُ لوسوسة الشيطان وتُبيِّن غرضَه منها.

إنَّ الهدفَ الأصلي الكبير للشيطانِ هو إخراج آدم وحواء من الجنَّة، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. وهنا ظهر هدف آخر من الوسوسة في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

ولا تعارضَ بين الآيتين، فالهدف الأساسي للشيطان هو إخراجهما من الجنَّة، ومن وسائلهِ في تحقيق هذا الهدف الشيطاني كشف عوراتهما وإبانة سوءاتهما، فإنَّه إذا تمكنَ من ذلك وحقَّقَ هذا الهدف الجزئي بالوسوسة حقَّقَ هدفه الكبير بإخراجهما من الجنَّة.

ـ ومعنى ﴿لِيُبْدِيَ﴾ يُظهِر ويَكشِف. وتعلَّق الإبداء بفعل الوسوسة، على تقدير: وسوس ليُبدي لهما.

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٢٦.

ـ ومعنى ﴿ وُۥرِيَ ﴾ أُخفي وسُتِر. فاللّه عزَّ وجلَّ أخفى وستر عن آدم وحواء سوءاتهما، وأراد الشيطان أن يُظهر لهما تلك السوءات المخفيّة المستورة.

ـ ومعنى ﴿ سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ جمع سوءة، وهي العورة التي يسوء الرجل والمرأة كشفها، ويخجلان من إظهارها، ويحرصان على سترها وتغطيتها[١].

إن إبليس عملَ على خروج آدم وحواء من الجنَّة، وحرمانهما من مزاياها ونعيمها الذي ذكرهُ الله عزَّ وجلَّ في قولِهِ في سورةِ طه: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩]؛ فهيَ موطن خالٍ من الشقاءِ، لا جوعَ فيها ولا عُري ولا ظمأ ولا حرَّ، ومعنى هذا أن البديل فيه شقاء، وأنَّ هذه الأشياء الأربعة هيَ أساسيات الحياة الهنية السّوية[٢].

وتكررت قصة إغواء إبليس لآدم وزوجِهِ في أكثر من موضع، ظهر فيها بوضوح عداوتُه المستحكمة وإصرارُه على تعمُّد الإغواء، غيرَ أنَّ التفصيل الوارد في الآيات السابقة لصور الشقاء الأربع التي تنتظر آدم عليه السلام في حالِ تقبلهِ لإغواءِ إبليس، والذي تضمنه قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩] هذا التفصيل في تعداد صور الشقاء اختصرته الآية التي بعدها والآيات التي في سورة الأعراف أيضاً من هدفِ إبليس من كشفِ عورةِ آدم وحواء[٣]. يقول الله عزَّ وجلَّ في سورة طه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ [طه: ١٢١].

وفي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٢٧.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٨٨.
(٣) الخرعان، المرجع نفسه، ص٢٨٩.

مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ ثمَّ بيّنَ الله عزَّ وجلَّ نتيجة الوسوسة تلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ثمَّ جاءَ التحذير الإلهي لبني آدم مؤكداً خطورة هذه الصورة من صور الشقاء في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إنَّ هذه الآيات الكريمة في قصة آدم الأولى، تؤكد لنا عدداً من المسائل المهمة، وهي أنَّ ستر العورة فطرة مُترسِّخة في النفسِ البشرية، وأصلٌ من أصولِ تكوينها المغروس في حِسِّها منذ بدء الخلق، كما تؤكد أنَّ مسألة التعرِّي هي هدف شيطاني متأصِّل في برنامجهِ التدميري منذ بدء الخلق، وهو كذلك مستمرٌّ إلى قيام الساعة[١].

ج ـ غريزةُ التملُّك وحبِّ الخلود مدخل الشيطان للإنسان:

خاطب إبليس غريزتين في آدم وحواء، وهما: حبُّ التملُّك، وحبُّ الخلود؛ لأنهما غريزتان أساسيتان عميقتانِ في النفس الإنسانية، كل نفس تحبُّ أن تتملك وتزيد ما تتملَّكُه، وكل نفسٍ تحبُّ الخلود، وتعمل له وتسعى إليه، فجاءَ الشيطان إلى آدم وحواء عن طريقِ النُّصح والإرشاد وأنَّه يخاف عليهما من الموت، وأنه يريد لهما أن يكونا مع الملائكة، وأن يكونا من الخالدين الذين لا يصيبهم الموت. واسترسلَ في الوسوسة والحديث عن الخلود لهما والملك الدائم الذي لا ينقضي ولا يفنى. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فاستثار الشيطانُ بذلك كوامن النفس البشرية في حبِّ الخلود والملك الدائم والارتقاء إلى الحالة الملائكية، لأن

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٨٩.

الإنسان بطبيعته يكره الفقر ويكره الموت، ويحب الغنى والخلود[١].

من هذا الباب يَدخل الشيطان إلى نفوسِ بني آدم، لأنه يعلم أنَّ معظم الناس لا يتمالكون أمام الرغبة في التملُّك والرغبة في الخلود، فالرغبة الغريزية في الحصول على أكبر مقدار ممكن من التملُّك تجعل الإنسان مستجيباً لوساوس الشيطان، فيسعى للتملُّك من أي مصدر، سواء كان حلالاً أم حراماً، والرغبة الغريزية في الخلود تجعله يحرص على حياتِهِ ولا يبذلها في سبيل الله، ويتمسك بالدنيا وينسى الآخرة، وكان إبليس كاذباً في تزيينِ التملُّك والخلود لآدم وحواء وهدفهُ هو إسقاطهما. فقد شاء الله الحكيم ألاَّ يجعلَ لبشرٍ الخلود في هذهِ الدنيا، وجعلَ لكل إنسانٍ أجلاً محدَّداً، لا بدَّ من أن يموتَ عندما يستوفيه، والدنيا نفسها زائلة وسيموت آدم وحواء عند حلولِ أجلهما سواء أكلا من الشجرة أم لم يأكلا منها. ولم يجعل الله الحكيم لأحد من المخلوقين مُلكاً لا يَبلى، ومهما ملكَ الإنسان فلا بُدَّ من أن يفنى ويزول ملكه، والمالك الحقيقي لكلّ ما في الكون هوَ اللهُ سبحانه، وماذا تقولُ في مُلكٍ يتركه صاحبهُ خلفه عندما يموت؟[٢].

د ـ أقسم الشيطان لهما بالله كذباً:

قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ لم يسْتجبْ آدم وحواء لإبليس في تبريره لهما الأكل من الشجرة؛ لأنهما مؤمنان باللهِ عزَّ وجلَّ، يعلمان أنَّ الله حكيم في نهيهما عن الأكلِ من الشجرة، وأنَّ مصلحتهما تتحقَّق بالالتزامِ بحكمِ الله وليس بمخالفتِهِ.

وبقيَ آدم وحواء يقظين واعيين حذرين من إبليس ووساوسه، وإبليس

(١) آدم عليه الإسلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٠٢.
(٢) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٣٣.

حريصٌ على إغوائهما، ولم تنفع وساوسه معهما حتى الآن فماذا يفعل؟

لجأ إلى وسيلةٍ شيطانيةٍ ماكرة لا يهتدي لها إلا هو، ولا تخطر إلا على بالِهِ، فلم يبقَ أمامَهُ إلا أن يُقسم لهما باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّهُ صادقٌ ناصحٌ أمين.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]، ومعنى قاسمهما: أقسمَ لهما باليمين وحلَفَ لهما بالله قائلاً: أقسمُ لكما بالله إنني صادق ناصحٌ لكما، وإنني أريدُ الخير لكما، وإنني أدلُّكما على سبيل تحقِّقان به التملُّك والخلود، وإنّ مصلحتكما في الأكلِ من الشجرة.

وهذِهِ أول يمين كاذبة في تاريخ البشرية وكانت في الجنَّة، قبلَ حياة آدم وحواء على الأرض، وهذِهِ اليمين الكاذبة صدرت عن إبليس، فهوَ أول من حلفَ بالله كاذباً[١].

ولم يظن آدم وحواء أنَّ مخلوقاً من مخلوقات الله يقسم بجلالِ اللهِ وعظمتِهِ كاذباً، فاغترا بقولِهِ وافتَتَنا بقسمه، فأكَلا وزَلا بإغوائه وانخدعا بمعسول قولِه[٢]. وقد عقبت الآيات على ذلك بقولِهِ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ومعنى ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أنزلهما. نقول: دليت الدّلو في البئرِ: إذا أنزلته فيه بالحبل، وكان الإنزالُ بالتدريج، وإبليس دلَّى آدم وحواء بيَمينه الكاذبة فأكلا من الشجرة، وبذلك أهبطهما وأنزلهما عن المرتبة العالية التي كانا فيها إلى مرتبةٍ أدنى، حيث أنزلا إلى الأرض. والباءُ في قوله: ﴿بِغُرُورٍۚ﴾ باء السَّببيَّة أي دلاهما وأنزلهما بسبب غروره لهما، والغرور هو: الخداع.

غرَّهما وخدعهما عندما أقسم لهما بالله فانخدعا بيمينه الكاذبة، وأكلا من

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٣٤.
(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٠٤

الشجرة ناسيَين، فهو السبب فيما حصل لهما[١].

هـ ـ ما ترتَّب على تذوُّق الشجرة:

قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وبمجرد تذوُّق آدم وحواء الشجرة بدت وظهرت العورة دون أن يُكرِّرا الأكل، لأنهما بمجرد أن ظهرت العورة عرفا أنهما قد ارتكبا المعصية، لذلك عندما رأى كل واحد منهما عورة الآخر غلبَ عليه الحياء، فأسرعا إلى أوراق الشجر بحركة عفويةٍ وسريعة، وصارَ كل واحد منهما يقطع من الأوراق التي أمامه ويخصفها على بدنهِ ليسترَ بها سوءته، حتى لا يراها الطرف الآخر أو غيره، لقد شعرا بالحياء والخجل من ظهور السوءات وسارعا إلى سترها فوراً[٢]، فلم يرَ كلٌّ من آدم وحواء عورة الآخر قبل المعصية وإنّما ظهرت لكلٍّ منهما بعدها.

ولقد ذهب العلماء في الستر الذي كان يستر سوءاتهما أقوالاً، منها ما رُوي عن وهب بن منبه عن عمرو عن أبيه، قال: كان عليهما نور لا تُرى سوءاتهما، وقيل كان ذلك الستر ظفراً طويلاً، حتى كانت تصل إلى قدميهما، وكانت هي التي تستر ثمَّ زالت بالمعصية[٣]، وغير ذلك من الأقوال.

يقولُ الشيخ محمد متولي الشعراوي: لقد أتعب العلماء أنفسهم في كيف

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٣٦.
(٢) المرجع نفسه، ص١٠٤.
(٣) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٠٤.

كانت عورتا آدم وحواء مستورتين عنهما، فالله سبحانه وتعالى كان يستر عورتَيْ آدم وحواء بما شاء من أنواع الستر، وسواء ستر الله سبحانه وتعالى عورتي آدم وحواء بثوبٍ أو بأظافر أو بنورٍ من عنده، فالمهم أنَّ هذه العورات كانت مستورة عن أعينهما[١]. وأما الورق الذي غطَّى بهِ كل من آدم وحواء عورتهما بعد ما انكشفت، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة، فلم يُحدِّد القرآن نوع الشجرة التي غطَّى بهما آدم وحواء عورتيهما[٢].

و ـ ستر العورة فطرة إنسانية سَوية:

إنَّ آدم وحواء، وهما أصل البشرية، سارعا إلى ستر العورة بمجرد أن علما أنها عورة، وقبلَ أن يأمرهما الله سبحانه بذلك، وهذا المعنى الإنساني الفطري النبيل جعله الله في كل نفسٍ إنسانية، فهي مفطورة على الستر والفضيلة والتعفُّف والحياء وعدم إبداء السوأة وكشف العورة والخجل إذا ظهرت دون قصد منه ومسارعة تغطيتها، هذه هي الفطرة الربانية في كل نفسٍ سوية[٣].

إن الشيطان يريد تعرية الناس لإشاعة الفاحشة والفجور بينهم، والفطرة الربانية الكامنة في أعماق النفس الإنسانية تدعو إلى ستر العورات ومحاربة التعرِّي والفواحش والرذائل.

وإنَّ كشف العورات تصرُّف جاهليٌّ شاذٌّ، يتصادم مع الفطرة السّوية، والعجيب أنّ حزب الشيطان من الشاذِّين والشاذَّات في هذا العصر الجاهلي حريصون على مصادمة الفطرة وتدميرها والقضاء عليها. فهم يستخدمون كل شيء من أجل أن يتعرّى الرجال والنساء في الأماكن العامة والخاصة، لا يكاد يستر عوراتهم حتى المغلّظة منها شيء، وانتشرت النوادي والأفلام

(١) أحمد جابر، المرجع السابق، ص١٠٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٥.
(٣) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٤٣.

والفضائيات التي تُروِّج للعُري في هذا الزمان، وغزت بلاد المسلمين ومجتمعاتهم وبيوتهم، وزيّن شياطين الإنس للناس المنحرفين أنّ التعري هو الأصل، كما أنّ تغطية المرأة لبدنها تخلُّف وانغلاق وعدم استجابة لمتطلبات الحياة المعاصرة، فقتلوا الفطرة السويّة عند المرأة، كما قتلوا عفَّتها وفضيلتها وطُهرها، وصارت تتباهى بفتنتها وانحطاطها وقلَّة حيائها، وشتان بينَ ما يريده الرحمن من ستر السوءات وتغطية العورات وبين ما يريده الشياطين من محاربةِ الفطرة وكشف العورات، وما أجمل وأعظم ما قامَ بهِ أبوانا في الجنَّة، عندما سارعا إلى تغطية العورة بورق الجنَّة بمجرد أن عرفا أنها عورة يسوؤُهما كشفها[1].

ز ـ الله سبحانه يلوم آدم وحواء:

قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢ـ٢٣].

نادى الله الاثنين آدم وحواء ولامهما على أكلهما من الشجرة، وذكّرهما بنَهيه السابق لهما وقال لهما: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، واللطيف في التعبير القرآني أنّه لما نهاهما عن الاقترابِ من الشجرة أشار لهما باسم الإشارة للقريب «هذه» في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، أما بعدما أكلا من الشجرة، فقد أشارَ لهما باسم الإشارة للبعيد ﴿تِلۡكُمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ فالشجرة قبل الأكل منها كانت قريبة إلى مشاعر النفس وأحاسيسها وإلى عالم الشعور، تودُّها النفس، لأن كل ممنوع مرغوب كما يُقال، أما بعد الأكل منها، وما ترتب على ذلك الأكل من المخالفة وبُدُوِّ السوءات والشعور

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٤٩.

بالذنب، فإنّ هذا جعل الشجرة بعيدة عن المشاعر والأحاسيس، فأشار إليهما بالإشارة للبعيد (تلكما). وذكّرهما الله في ندائه وعتابه بسابق تحذيره لهما من إبليس وعداوته: ﴿ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٞ مُّبِينٞ ﴾ (١).

ح ـ آدم وحواء متساويان في المسؤولية:

إنّ النص القرآني واضح بما لا يدع مجالاً لأي شك أن الوسوسة التي كانت من إبليس كانت للاثنين آدم وحواء، وأن المعصية وقعت منهما بالتساوي، ولا يوجد أي نص قرآني يُشير من قريب أو بعيد إلى أن حواء هي التي أغوت آدم، أو إن إبليس أغوى حواء بمفردها أو قبل غواية آدم، يمكن القول:

ـ الاثنان نُهيا عن الاقتراب أو الأكل من الشجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾.

ـ الاثنان حُذِّرا بصورة واضحة من عداوة الشيطان، ومن عواقب سماع كلامه واتباع إغوائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ ﴾ [طه: ١١٧].

ـ الاثنان أزلهما الشيطان في قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا ﴾.

ـ الاثنان وسوس لهما الشيطان في قوله تعالى: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

ـ الاثنان أقسم لهما الشيطان، في قوله تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١].

ـ الاثنان أغواهما الشيطان وغَرَسَ أقدامهما في الخطيئة في قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٤٩.

ـ الاثنان ذاقا الشجرة المحرمة عليهما معاً في التوقيت نفسه، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف ٢٢].

ـ الاثنان ظلما أنفسهما، في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

ـ الاثنان تابا إلى الله وسألاه العفو والمغفرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

هناك من الآيات ما أشارت إلى تحمل آدم السبب في المعصية دون ذكر لحواء، فالعهدُ كان لآدم والنسيانُ كان منه، وقلة العزيمة أيضًا كانت منه دون حواء، وإن كان الغالب أنَّ المقصود ههُنا الاثنان، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

إنّ الخطاب والتحذير بسوءِ عاقبة الأكل من الشجرة كان موجهاً إلى آدم في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. وفي قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وفي قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

فلا ينبغي بعد الآن أن يخرجَ علينا كاتب أو مؤلف مسلسلات أو سيناريو أفلام، ويُجري حواراً على لسانِ أحد أبطالِهِ أو بطلاتِهِ، يُكذب ما جاءَ في كتاب الله، ويتَّبع الأساطير والكتب المحرَّفة التي نُسبت زوراً إلى الله عزَّ وجلَّ، وذُكرَ فيها زوراً وبهتاناً وعن سوءِ نية وقصد أنَّ حواء أخرجت آدم من الجنَّة، وأنها سبب غوايته أو أنها هي التي طلبت منه أو سوّلت له أو أغرته أن يأكل من الشجرة.

فيا منظمات حقوق الإنسان...

ويا جمعيات الدفاع عن المرأة . . .

ويا أيُّها المتاجرون والمتاجرات بحقوق المرأة في كلِّ منتدى . . .

ويا كل أصحاب الحضارات والثقافات . . .

ويا مؤسسات الفكر واليونسكو ويا أصحاب نوادي مناصرة النساء . . .

هذا كتاب الله تعالى ينطق بالحق، يُبرِّئ المرأة الأصل وسيدة الكون الأولى، والأنثى الكاملة حواء من تهمة أُلصقت بها على مرِّ العصور، جهلاً أو عن سوء قصد ونية سيئة، ألا وهي تهمة غواية آدم وإخراجه من الجنَّة وجرجرة البشرية إلى هوانِ الأرض وحرمانها من رغدِ الجنَّة ونعيمها .

هذه آيات الله واضحةٌ جلية لا لَبسَ فيها ولا غموض، تُعلِّم البشرية أنَّ حواء لم يكن لها دور في غواية آدم أو إقناعه بالأكلِ من الشجرة، وأنّ حواء مساوية لأبي البشر، ولكن قد تكون أقل من آدم في تحمُّلها لمسؤولية الأكل من الشجرة، واتباع الشيطان ومخالفة الرحمن ونسيان أمره[1] .

إنَّ الآيات القرآنية حريصة على تحميل المسؤولية لكل من آدم وحواء، وعدم تبرئة واحد منهما : هما أخطأا وهما تابا واستغفرا، وتاب الله على كلٍّ منهما ولم يعاقب واحداً منهما[2] .

إنَّ هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه في قول الله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. إنه ليسَ عقاباً محضاً، إنما هو سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، وله الحكمة في ذلك، والإنسان مسؤول عن أعماله الإرادية الاختيارية والظروف والبيئة وسائر المؤثرات لها اعتبار في تعظيم المسؤولية، ولا تُلغي التبعة الدنيوية

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٤٨ .

القانونية ولا الأخروية المترتِّبة على تصرفاته[١] .

ط ـ هل أكل آدم عليه السلام من الشجرة ناسياً؟

يرى بعض أهل العلم ذلك مُحتجّاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥]، وهذا القول عندي ضعيف لوجوه :

ـ أن الله سبحانه قال : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١]، والناسي لا يكون عاصياً .

ـ أن النسيان يُطلَق على الترك أحياناً قال تعالى في شأن الكفار : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

ـ وقال تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٦] .

ـ إن آدم وحواء عليهما السلام قالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]، والناسي لا يكون ظالماً لنفسه .

ـ إن الناسي لا يُؤاخذ ولا يُعاقب، فالنسيان شيء لا يتحكَّم فيه الشخص، والذي يظهر أنَّ آدم عليه السلام طمع في جنة الخلد فلذلكَ أكل من الشجرة، كما أفادت بعض الآيات منها :

ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] .

ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٢]، والله أعلم .

ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان : والراجح في تحليل أكل آدم وزوجته من الشجرة الممنوعة اجتماع عدّة أمور، منها في نفس آدم ومنها فيما قاله إبليس، وبيان ذلك ما يلي :

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢١٨ .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] [١].

المعنى: ولقد عهدنا إلى آدم ألاَّ يقرب من الشجرة، فنسيَ العهد، أي هذا الأمر، ولم نجد له عزماً أي تصميماً في حفظِ العهد الذي هو أمره بعدم الاقتراب من الشجرة، ولو كان له تصميم على حفظ العهد لما أزلَّه الشيطان، ولما استطاع أن يَغرَّه[٢].

وقال الإمام الرازي في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وفي نسيان آدم قولان:

أولهما: ما هو نقيض الذكر، وإنما هو عوقب على ترك التحفُّظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان.

ثانيهما: أن المراد بالنسيان الترك، وأنه ترك ما عُهد إليه من الاحتراز من الشجرة والأكل من ثمارها، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له عزماً على التحفُّظ والاحتراز عن الغفلة[٣].

الثاني عشر: قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]:

١ ـ ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]:

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنَّة وإهباطه منها عقوبة له، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبتَهُ، وإنما إهباطه وسكناه في الأرض قدر أراده الله لحكمة أزلية وهي نشر نسله فيها ليُكلِّفَهم ويُرتِّب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الآخرة، وكانت تلك الأكلة سبباً في إهباطه من الجنَّة، ولله أن يفعل ما يشاء، وفي قوله

---

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مرجع سابق، ١/ ٦٧.
(٢) تفسير القاسمي، ١١/ ١٩٧. وانظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ١/ ٢٠.
(٣) عبد الكريم زيدان، المرجع السابق، ١/ ٢١.

تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة، ودليل على الحكمة الأزلية التي أرادها الله تعالى، وهي استخلاف آدم عليه السلام وذريته في الأرض.

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف: ٢٤].

وهذه سنة ربانية مطردة دائمة حتى قيام الساعة، أجملتها جملة موجزة في القرآن وهي جملة: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، والعداوة موجودة بين الجن والإنس، الجن الذين يمثلهم أبوهم إبليس، والإنس الذين يمثلهم أبوهم آدم عليه السلام، وكم من الخلافات والعداوات بين المؤمنين من الجِنِّ والإنس من جهة والكافرين من الجِنِّ والإنس من جهةٍ أخرى، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يشير إلى العداوات التي تقع في عالم الجنِّ، وإلى العداوات التي تقع بين الإنس أيضاً.

وإذا كنا لا نعرف تفاصيل عن عالم الجن، وما يسوده من عداوات وخلافات فإننا نعرف الكثير من صور العداوة التي تقع في عالم الإنس، والتي تدخل ضمنَ هذه الجملة المجملة: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

كم من الخلافات والعداوات تقع بين الأفراد القريبين من الإنس كالزوج مع زوجه، والأب مع ابنه، والأخ مع أخيه، والقريب مع قريبه، والصديق مع صديقه، وكم من الخلافات والعداوات تقع بين أفراد الأسرة الواحدة والعائلة الواحدة والقبيلة الواحدة والمدينة الواحدة والوظيفة الواحدة والمهنة الواحدة والدولة الواحدة.

وكم من الخلافات والعداوات تقع بين الأمم والشعوب والدول، وتؤدي إلى الحروب والقتال وسفك الدماء، وتقع تلك العداوات والخلافات لأسباب عديدة كالخلاف على المال أو الجاه أو الأرض أو المنصب أو العمل أو غير ذلك.

ولا تنتهي العداوة بين مختلف الأطراف إلا عند قيام الساعة، فالخلاف والنزاع والحرب والعداوة كل هذا مُستمرٌّ على الأرض، منذ هبوط آدم وإبليس على الأرض، وهذا يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١).

٢ ـ ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾؛ أي لكم في الأرض موضع قرار يلائمكم ويناسبكم، وقد جعلها الله سبحانه وتعالى ملائمة لحياتكم ومسخَّرة ومذلّلة لمعيشتكم عليها فهي موضع استقرار(٢)، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ أي لكم فيها متاع، بما خلقَ الله لكم فيها من أرزاق(٣)، والمتاع: ما يُستمتَع به من أكل ولبس وحياة وحديث وأُنس وغير ذلك.

﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى أن تحين آجالكم التي تنتهي بها حياتكم. وهكذا بيَّن الله تعالى للإنسان الأول، السمات الكبرى لحياتهِ على الأرض عندما أهبطه إليها، فالصراع فيما بينهم وبين الشيطان أبرز هذه السمات، وهو من أهم أسباب الابتلاء والاختبار في حياة الإنسان على هذه الأرض(٤).

الثالث عشر: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]:

١ ـ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾:

إنها كلمات قليلة سهلة واضحة مباشرة، والتلقِّي يوحي بالانتظار والترقب من غير تطويل ولا إبطاء ولا شروط. إنها توبة ناجزة قاطعة، ولذا استخدم حرف

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٦٩ ـ ١٧٠.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ٣٦٣.
(٣) التفسير الموضوعي، طهماز، مرجع سابق، ١/ ٩٠.
(٤) طهماز، مرجع سابق، ١/ ٩٠.

الفاء وهو للتعقيب السريع. وجميل أن يكون التحذير قبل الخطأ قويّاً، والعتاب بعده لطيفاً، خاصة لمن استوعب الدّرس، ويا لها من رحمة أنَّ السيئات التي تؤلمنا ذكراها نجدها في موازيننا حسنات يوم البعث.

وحين تطلب الناس منك الصفح فعليك أن تسرع بالاستجابة وتغالب نفسك وتنسى المظلمة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وأنت ذو الخطأ الذي يحتاج أن يغفر الله له وأن يغفر له الناس.

الكلمات كانت أقوالاً صادقة من سويداء القلب معجونة بدمع العين السخين، ولا أحب إلى الله من دمعة تائب[١]، ولذا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف ٢٣].

ويلاحظ في هذا الاعتراف أنهما لم يحاولا أن يُبرِّرا ما فعلا، ولم يُلقيا المسؤولية على الشيطان، فلم يقولا يا ربَّنا إنَّ الشيطان هو السبب، فهو الذي وسوس لنا، وهو الذي أقسم لنا اليمين، وأننا كنا حذرين منه لكننا لما أقسم اليمين صدّقناه لأننا لم نتوقع أن يحلفَ كاذباً فهو السبب، لم يفعلا ذلك كما يفعله كثير من العصاة والمذنبين من ذريتهما.

واليوم، عندما يقع أحدهم في ذنب يبرر ذنبه بعدة تبريرات، ويُحمِّل غيره مسؤولية إغوائه، ويجعل نفسه ضحيّة، والمؤمن يقتدي بأبويه آدم وحواء عليهما السلام، فيعترف بذنبه وضعفه وخطئهِ، ويسارع بالتوبة والاستغفار، ويطلب من الله المغفرة والرحمة، وقد أخبرنا الله تعالى عن توبة آدم وحواء عليهما السلام، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة ٣٧].

---

(١) علمني أبي مع آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٢٦.

والإشارة إلى التوبة في سورة البقرة مجملة، وهي مفصّلة في سورة الأعراف، وحتى نعرف الكلمات التي تَلقاها آدم عليه السلام لا بُدَّ من أن نستحضرَ آيات سورة الأعراف، وهذا من باب تفسير القرآن بالقرآن، فما أُجمِلَ في موضع فُصِّلَ في موضعٍ آخر، وما أُبهِمَ في موضع بُيِّنَ في موضعٍ آخر[١].

ولا تزال كلمات الأبوين المنكسرة المتوجعة تذكِّرنا بالطريق الآمن إلى الله كلّما عاصرنا الذنب، ومنهما نتعلّم ألاَّ نيئس ولا نستسلم للخطأ، ولو تكرر أو أصبح إدماناً يُلِحُّ علينا، فالذي قدَّر الذنب شرع التوبة وسهَّل أسبابها ويسَّر طريقها فجعله موصولاً به دون وساطة، وكان اعتذارهما معلناً كما الخطأ. وتكرّرت القصة في القرآن الكريم لتؤكد حصول الذنب وانكشاف العورة، وحالة الركض بحثاً عن ورق شجرة يواريهما، لنتعلم ألا أحد بمعزلٍ عن احتمال الخطأ، وأن الصدق ليس ادّعاء الطهورية والتظاهر بالصفاء، بلِ الاعتذار والنَّدم والتكفير عن الذنب بما يناسبه، والخوف من الله لا من الناس، مع إدراك أن المجاهرة بالذنب ذنبٌ آخر واستخفاف وإفساد للبيئة[٢]. كما أن قصة الإنسانية الأولى وأبويها تُعلِّمنا أنَّ الخطيئة ليست حالاً دائمة بل لحظةً عابرة يفيقُ منها القلب وهو أرقّ وأصفى.

وتعلّمنا أنّ التوبة تحتاج إلى مناجاة وندمٍ واعتراف بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وبأنَّ الدموع الحقيقية هي زيتُ سراجها، وتعلّمنا أنَّ الهبوط إلى الأرضِ ليس عقاباً، وكيفَ يعاقبهم وقد سامحهم، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الله أهبط آدم إلى الأرض قبلَ أن يخلقه، وعنى بذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، فهو مخلوق للأرض ليعمرها[٣].

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٥٠.
(٢) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٢٧.
(٣) المرجع السابق، ص٢٢٨.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي قَبِلَ توبتَه، وتابَ العبد: رجع إلى طاعة ربه، وأصل التوبة: الرجوع[١].

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تناولت في حديثي أسماء الله الحسنى التي ذُكرت في قصة آدم عليه السلام، وبيَّنتُ معناها وثمارها وهي: الرب والعليم والحكيم، وفي هذه الآية الكريمة التي تضمَّنت توبة آدم عليه السلام جاءَ ذكر اسم الله التواب والرحيم.

أ ـ التّواب:

ورد اسمه سبحانه «التّواب» في إحدى عشرة آية من القرآن الكريم، منها تسع آيات اقترنَ فيها باسمه الرحيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وجاء في آية واحدة مقترناً باسمه الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]، وجاءَ مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

ـ معنى التواب في حق الله عزَّ وجل:

قال الطبري (رحمه الله) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وإن الله جلَّ ثناؤه هو التوّاب على من تاب إليه من عباده المذنبين، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه، وتوبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه[٢].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/٣٦٦.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٥٨١.

ويقول الشيخ السعدي : فهو التائب على التائبين أولاً ، بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه ، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قبولاً لهم وعفواً عن خطاياهم(١) ، ووصف الله سبحانه نفسه بالتّواب لكثرةِ من يتوب إليه(٢) .

من آثار الإيمان باسمه سبحانه «التّواب» :

محبة الله عزَّ وجلَّ والأنس به ، لأنه سبحانه الرحيم بعباده ، ومن رحمته ولطفه بآدم وحواء وبنيهم من بعدهم أن وَفَّق من شاء من عباده إلى التوبة والرجوع إليه ، فاستحضار اسم التوَّاب يملأ قلب الإنسان راحة وأُنساً ومحبّةً لخالقه ومولاه عزَّ وجلَّ . وإن إفراد الله عزَّ وجلَّ بالتوبة ، وطلب المغفرة والعفو منه ، من العبادات كالصلاة والاستغاثة والاستعانة والاستغفار ، ولا يجوز صرفها إلا إليه وحده سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

فالتوبة لا تكون إلا إلى الله عزَّ وجلَّ وحده دون سواه ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] (٣) .

ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه «التّواب» :

الحياء من الله عزَّ وجلَّ البرّ الرحيم التّواب الغفور الذي يفرح بتوبة عبده ، وهذا الحياء إذا تمكّن من القلب أثمر تعظيماً لله عزَّ وجلَّ وحياء منه ومبادرة إلى طاعته وترك معاصيه قدر الجهد والاستطاعة(٤) .

---

(١) تفسير السعدي ، مرجع سابق ، ٥/ ٣٠٠ .
(٢) ولله الأسماء الحسنى ، الجليل ، مرجع سابق ، ص٥٨٢
(٣) المرجع السابق ، ص٥٨٣ .
(٤) الجليل ، المرجع نفسه ، ص٥٨٤ .

إنَّ أبوينا آدم وحواء عليهما السلام علّما ذريتهما أهمية المبادرة إلى التوبة النصوح عند الوقوع في الخطأ أو المعصية مهما كان عظيماً، وعدم اليأس من رحمة الله تعالى، والاستمرار في رجائه سبحانه، لأنه التواب الرحيم الغفور الودود، ولا بُدَّ أن تكون التوبة صادقة حتى يقبلها الله عزَّ وجلَّ وينتفع بها العبد.

والتوبة في الشرع: ترك الذنب لِقُبحه، والندم على اقترافه، والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكن أن يُتدارَك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربعة فقد اكتملت شرائط التوبة(١).

وأضاف أهل العلم شرطاً خامساً، وهو أنه إذا كان الذنب ناشئاً عن الاعتداء على حقوق العباد في نفسٍ أو مالٍ أو عرض بأن يتحلَّل من أصحاب الحقوق ويعيد حقوقهم إليهم، وإن كان في كتم الحق وإضلال الناس فلا بُدَّ من التوبة من ذلك من بيان الحق المكتوم وردّ الناس إلى الحق بعد تلبيسه عليهم(٢).

إن الإنسان الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ في حاجة إلى التوبة في جميع مراحل عمره وأنها لا تفارقه ولا غنى له عنها(٣). وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: ومَنزلُ التوبة أوَّلُ المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يُفارقه العبد السالك، ولايزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية طريق العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أنَّ حاجته إليها في البداية كذلك. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

---

(١) المفردات، الأصفهاني، مرجع سابق، ص٧٦.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٥٨٤.
(٣) المرجع نفسه، ص٥٨٥.

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثمَّ علَّق الفلاح بالتوبة تعليق المُسبَّب بسببه، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جَعَلنا الله منهم[(١)].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنَّه قال: «**يا أيُّها النَّاسُ توبوا إلى الله فوالله إنِّي لأتوبُ إليه في اليوم أكثَرَ مِن سَبعينَ مرَّةً**»[(٢)]. وكان أصحابه يعدّون له في المجلس الواحد قبلَ أن يقوم: «**ربِّ اغفرْ لي وتبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الغفورُ مائةَ مرَّةٍ**»[(٣)]. وما صلّى صلاة قط بعد إذ أنزل عليه قول تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها إلا قال فيها: «**سبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحَمدِكَ اللهمَّ اغفرْ لي**»[(٤)]. وصحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**لن يُنجِيَ أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ**»[(٥)]. فصلوات الله وسلامه أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها[(٦)].

والتوبة لا يستغني عنها أحد حتى الأنبياء صلوات الله عليهم، لأنها ليست نقصاً، بل هي من الكمال الذي يُحبُّه الله ويرضاه ويأمر به، وقد سُئِل شيخ

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣٠٧، كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، الجزء ١٩ ص٢١٦، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم الحديث، ٢٧٠٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٧٩٤، أبواب صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع، ص٤٢٣، وفي: مسلم، ٤٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٤٦٣كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الرسالة العالمية، ط١، ٢٠١٣م.

(٦) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٥٨٦.

الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد، والنبي معصوم من الكبائر والصغائر؟

فأجاب رحمه الله تعالى: الحمد لله، الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون من الإصرار على الذنوب كبارها وصغارها، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبةِ يرفع درجاتهم ويُعظم حسناتهم، فإن الله يُحبُّ التوابين ويُحبُّ المتطهِّرين، وليست التوبة نقصاً، بل من أفضل الكمالات، وهي واجبة على جميع الخلق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢ـ٧٣]. فغايةُ كل مؤمن هي التوبة، ثمَّ التوبة على درجات كما يُقال: حسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين[١].

ـ اقترَان اسمه سبحانه ﴿ ٱلتَّوَّابُ﴾ باسمه ﴿ ٱلرَّحِيمُ﴾ :

جاء هذا الاقتران في تسع آيات من القرآن الكريم، سبق ذكر بعضها آنفاً، ومنها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ومناسبة هذا الاقتران والله أعلم هو: أن توبة الله عزَّ وجلَّ على من يشاء من عباده بتوفيقهم إليها، ثم قبولها منهم، هو من آثار رحمة الله تعالى وبرِّه وإحسانه، وكذلك كونه سبحانه لا يعاقب من تاب إليه ولا يرُدُّ من تاب إليه بصدق.

قال الطبري رحمه الله تعالى: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]: فالله هو الوهاب لعبادِهِ الإنابةَ إلى طاعته، الموفِّق من أحبَّ توفيقَه منهم لما يُرضيه عنهم، الرَّحيم بهم أن يعاقبهم بعدَ التوبة، أو يخذل

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، المرجع السابق، ص٥٨٦.

من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه[١].

ب ـ الرحيم:

عادة عندما يتحدث العلماء عن أسماء الله الحسنى يتحدثون عن الرحمن الرحيم معاً، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الرقة والتعطف. وإن كان اسم الرحمن أشدُّ مبالغة من اسم الرحيم؛ لأن بناء «فَعلان» أشد مبالغة من «فَعيل»، وبناء «فعلان»: للسَّعة والشُّمول. وقد اتفق أهل العلم على أن اسم الرحمن عربي لفظه، وفي الحديث القدسي: «**أنا الرَّحمنُ، خَلَقتُ الرَّحِمَ وَشَقَقتُ لها اسْماً منِ اسْمي**»[٢]، فقد دلَّ هذا الحديث على الاشتقاق، وكانت العرب تعرف هذا الاسم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وجاء في أشعارهم قول الشاعر:

وعجلتم علينا إذ عجلنا عليكم ... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[٣]

ـ الفرق بين الاسمين:

فرَّق بعض أهل العلم بين هذين الاسمين الكريمين، فذكروا الفروق التالية:

أولًا: اسم الرحمن: هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، وأما اسم الرحيم: فهو ذو الرحمة للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ولكن يُشكل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى:

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، المرجع السابق، ص٥٨٧.
(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني، ص٥٢٠.
(٣) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد محمود النجدي، المجلد الأول، القسم الأول، ١/ ٧٥ـ٧٦.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [الإسراء: ٦٦].

ثانياً: إنَّ اسم الرحمن عائد على الرحمة الذاتية، والرحيم دالٌّ على الرحمة الفعلية، يقول ابن القيم رحمه الله: إن الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دالٌّ على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالٌّ على أنّ الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته، ولذلك رحم آدم عليه السلام وحواء، وإذا أردت فَهمَ هذا فتَأمَّلْ قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١١٧]. ولم يجئ قط رحمنٌ بهم، فعُلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، والرحيم هو الرحيم برحمته[١].

ولذلك يقرن الله سبحانه وتعالى في كتابه استواءه على العرش بهذا الاسم كثيراً كقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]. إن الله تعالى استوى على العرش باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، وقد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فسبحانه استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**لمَّا قضَى اللهُ الخَلقَ كَتَبَ في كتابٍ، فهو عندَهُ موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رَحمَتي تَغلبُ غَضَبي**»[٣]. فتأمَّلِ اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه على العرش، وطابِقْ بين ذلك وبين قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى

---

(١) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ١/ ٢٤.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٢١.
(٣) البخاري، رقم ٧٤٠٤، باب التوحيد، كتاب الاعتصام بالكتاب، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.

ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، يفتح لك باباً عظيماً في معرفة الرَّبِّ تبارك وتعالى[١].

ثالثاً: اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من الأسماء التي لا يجوز للمخلوق أن يتسمَّى بها، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فعادَلَ به الاسمَ الذي لا يشركه فيه غيره وهو «الله» جلَّ جلالُه، وأما الرحيم، فإنَّه تعالى وصف به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. قال ابن كثير: والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يُسمَّى به غيرُه ومنها مالا يُسمَّى به غيره كاسم: الله، الرحمن، الخالق، الرازق، ونحو ذلك، ولهذا بدأ باسم الله الموصوف بالرحمن لأنه أخصُّ وأعرف من الرحيم، ولأن التسمية أولاً تكون بأشرف الأسماء، ولهذا ابتدأ بالأخصِّ فالأخص[٢].

ـ رحمة الله لعباده نوعان:

الأولى: رحمة عامة: وهي لجميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وإمدادهم بالنعم والعطايا وتصحيح أبدانهم وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم ومساكنهم ولباسهم ونومهم وحركاتهم وسكناتهم، وغير ذلك من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى[٣]. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

الثانية: رحمة خاصة: وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله عزَّ وجلَّ في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم، وتثبيتهم عليه،

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٢١.
(٢) تفسير ابن كثير، المرجع السابق، ١/ ٢١.
(٣) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٢٨.

ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين، ويرزقهم الحياة الطَّيِّبة، ويبارك لهم فيما أعطاهم، ويُمدُّهم بالصبر واليقين عند المصائب، ويغفر لهم ذنوبهم ويكفرها بالمصائب، ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام عليهم بدخولهم الجنَّة ونجاتهم من عذابه ونقمته، وهذه الرحمة هي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] [١].

ـ من آثار الإيمان باسمه سبحانه الرحمن الرحيم:

محبة الله عزَّ وجلَّ المحبة العظيمة، وذلك حينما يُفكِّر العبد وينظر في آثار رحمة الله عزَّ وجلَّ في الآفاق وفي الأنفس والتي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وهذا يثمر تجديد المحبة لله عزَّ وجلَّ والعبودية الصادقة له سبحانه وتعالى، وتقديم محبته عزَّ وجلَّ على النفس والأهل والمال والناس جميعاً، والمسارعة إلى مرضاته، والدعوة إلى توحيده، والجهاد في سبيله، وفعل كل ما يُحِبُّه ويرضاه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فهذه عبودية الرجاء التي تُفضي إلى التعلُّق برحمة الله تعالى وعدم اليأس من رحمته سبحانه وتعالى.

وإن الله عزَّ وجلَّ قد وسعت رحمته كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً، والرجاء والنظر إلى رحمة الله الواسعة وآثارها يثمر الأمل في النفوس، ويمسح عليها الرَّوح وحسن الظَّنّ بالله تعالى، وانتظار الفرج بعد الشدة ومغفرة الذنوب[٢]. قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، المرجع السابق، ص١٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٠.

ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقد حضَّ الله عزَّ وجلَّ عباده على التخلُّق بصفة الرحمن، ومدح بها أشرف رسله، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه ﷺ أنه «نبي الرحمة»[١]، ومدح الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وخُصَّ أبو بكر رضي الله عنه بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل، حيث قال فيه رسول الله ﷺ: «**أرحَمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ**»[٢]. وكما بيَّن النبي الكريم ﷺ أن الرحمة تنال عباده الرحماء فقال: «**إنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرُّحماءَ**»[٣].

وأعظم رحمة بالناس هدايتهم إلى التوحيد، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم عزَّ وجلَّ، ثم الرحمة بهم في أنفسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم ودفع الظلم عنهم، وتفريج كروبهم والإحسان إليهم وتعزيتهم في مصابهم وقضاء حوائجهم، وأولى الناس بهذه الرحمة الوالدان والأقربون.

ـ التعرض لرحمة الله تعالى بفعل أسبابها:

ومن أعظم ما تُستجلَبُ به رحمة الله تعالى فعلُ ما يُرضيه ويأمر به، واجتناب ما يسخطه وينهى عنه، باتباع ما جاء به النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِى

---

(١) مسلم، ٢٣٥٥.
(٢) صحيح الترمذي صححه الألباني ٢٩٨١
(٣) البخاري، كتاب التوحيد، الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء ١١٠]، ج٢٤. وانظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دار الرسالة العالمية، ٢٠١٣م.

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ومما تُستجلب به رحمة الله تعالى الرحمةُ بالخلق والإحسان إليهم، وتدبُّر القرآن والإنصات إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وكذلك الاستغفار، قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

وقد أرشدنا الله عزَّ وجلَّ إلى سؤاله سبحانه وتعالى الرحمة لأنفسنا وأقاربنا، وقد أثنى سبحانه على أنبيائه بذلك وذكرَهم للتأسِّي بهم[١]. قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّـٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقال عزَّ وجلَّ عن موسى عليه السلام ودعائه لنفسه ولأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّـٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّـٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨][٢].

ـ ذكر أسماء الله الحسنى التي جاءت في القرآن مقترنة باسمه سبحانه «الرحيم»:

جاء اسم الله «الرحيم» في القرآن الكريم مقترناً بعدد من الأسماء الحسنى:

ـ اقترانه باسمه الرحمن: وجاء في ستة مواضع منها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقد مرَّ معنا هذان الاسمان

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٤٤.
(٢) الجليل، المرجع نفسه، ص١٤٥.

الكريمان وأصل اشتقاقهما والفرق بينهما، ودلالات الجمع بينهما.

يقول ابن القيّم رحمه الله: أما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى، وهو أنَّ الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرَّحيم دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دالٌّ على أنّ الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته[١].

وبذلك يُفهم أنَّ الجمع بين الرحمن والرحيم يدل على كمال رحمته سبحانه وتعالى وشمولها من جهة، وخصوصها من جهة أخرى كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ـ اقترانه باسمه الغفور:

وهذا كثير في القرآن الكريم بلغ (٧٥) موضعاً تارة بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وتارة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وتارة بقوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾، وتارة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتارة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وتارة بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وتارة بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتارة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وتارة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولا تخفى على المتأمِّل المناسبة بين هذين الاسمين وبين الآية التي خُتمت بها، واقتران هذين الاسمين الجليلين في مواطن كثيرة من القرآن يدلُّ على أن مغفرة الله عزَّ وجلَّ لعبده، مع استحقاقه العقوبة بمقتضى عدله، ما هو إلا أثر من آثار رحمة الله تعالى، وهذا من مقتضى رحمته التي كتبها على نفسه، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذ العبد على ذنبه، كما يجزيه على عمله الصالح.

فجمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الاسمين الكريمين، لأن بالمغفرة تسقط

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٤٦.

عقوبة الذنوب، ويستر الله عزَّ وجلَّ ذنوب عباده ويقيهم آثامها، كما يقي المِغْفَر الرأسَ من السهام، وهذا مقتضى رحمته سبحانه(١). كما أنَّ في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر، والفضل العميم، فإنَّه سبحانه الغفور يقتضي تجاوزه عن الزلات والعثرات، فإذا قُرن الغفور بالرحيم الذي ظهرت آثار رحمته فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب، والرحمة تحلية بالفضل والثواب(٢).

ـ اقتران اسمه «الرحيم» باسمه سبحانه «الرؤوف»:

وجاء هذا الاقتران في ثماني آيات من القرآن الكريم منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وهذا الاقتران يدل على أعلى درجات الرحمة والرأفة، وهي من موجبات الرحمة وآثارها(٣)، وأقرب الخلق إلى الله تعالى أعظمهم رأفة ورحمة، كما أنَّ أبعدهم منه من اتَّصفَ بضِدِّ صفاته(٤).

ـ اقتران اسمه «الرحيم» باسمه «التواب»:

وجاء هذا الاقتران في تسعة مواضع:

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]. وسر الاقتران

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٤٨.
(٢) الجليل، مرجع سابق، ص١٤٨.
(٣) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٤٩.
(٤) كتاب الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص٥٥٧.

بين هذين الاسمين الكريمين واضح، ذلك أنّ من آثار رحمة الله تعالى توفيقَه لعباده إلى التوبة ثم قبولها منهم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. وتوفيق الله سبحانه العبد للتوبة ثم قبولها منه يترتب عليه حسن العاقبة والنجاة من عذاب الله تعالى، وتلك رحمة خاصة، بل إنه سبحانه من عظيم رحمته بعبده أنَّه يفرح بتوبته فرحاً عظيماً[١]، والله سبحانه وتعالى يُحِبُّ التوابين.

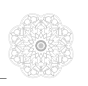
ـ اقتران اسمه سبحانه «الرحيم» باسمه «العزيز»:

جاء هذا الاقتران في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم منها تسع مواضع في سورة الشعراء، وذلك بالتعقيب على قصة كل نبي مع قومه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨ ـ ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]. ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦].

واقتران هذين الاسمين واضح لمن تأمله، حسب السياق القرآني، في الآية التي يختمها بهذين الاسمين الجليلين، ففي سورة الشعراء لما كانت الآية بمنزلة التعقيب على قصة كل نبي مع قومه ناسب ختمها بهذين الاسمين الكريمين، وذلك أن ما حصل للمكذبين من عذاب وهلاك إنما هو مقتضى عزته سبحانه وقوته وغلبته، وهو موجب اسمه سبحانه وتعالى «العزيز»، وما حصل من إنجاء للرسل وأتباعهم إنما هو مقتضى رحمته ولطفه، وهو موجب اسمه سبحانه «الرحيم».

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٥٠.



وبالجملة فإن اقتران هذين الاسمين الكريمين يدل على الكمال والعدل والحمد والعزة والرحمة، وذلك ببيان أنه سبحانه مع كونه عزيزاً قويّاً غالباً قاهراً لكل شيء فلا ينفي أن يكون رحيما برّاً محسناً، ولا يعني كونه سبحانه رحيماً بعباده ألا يكون قويّاً غالباً.

فرحمته سبحانه وتعالى ناشئة عن قدرة وقوة وعزة، لا عن ضعف وعجز. واجتماع الوصفين يدل على صفة كمال ثالثة وهي: جريان عزته سبحانه وتعالى على سنن الرحمة التي تستلزم إفاضة الخير والإحسان(١).

ـ اقتران اسمه الرحيم باسمه سبحانه «البر»:

وجاء هذا الاقتران مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى عن أهل الجنَّة: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٨].

والبَرُّ: هو المحسن الرفيق المُتفضِّل، وهذه الصفات هي من موجبات رحمته الخاصة لعباده المؤمنين، فبرُّ الله عزَّ وجلَّ بعباده، الذي هو عبارة عن توالي إحسانه وإنعامه، أثرٌ من آثار رحمته الواسعة التي غمرت الوجود، وتقلَّب فيها كل موجود. وعن طريق تلك المنن الجزيلة، وذلك الإحسان العميم، عرف العباد أن ربهم رحيم، فاقتران البرُّ بالرحيم لعلَّه من اقتران المُسبِّب بالسَّبب(٢).

وتقديم البرّ على الرحيم أبلغ في المدح، والثناء بالترقي من الأخصّ إلى الأعم، ومن المُسبِّب إلى السَّبب(٣).

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٥١.
(٢) مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام في القرآن، نجلاء الكردي، ص٦٢٤.
(٣) نجلاء الكردي، المرجع السابق، ص٦٢٤.

ـ اقتران اسمه «الرحمن» باسمه سبحانه «الرب»:

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]. من آثار اسم الرَّبّ سبحانه أنه رحيم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣]. وإن صفة الرحمة من آثار ربوبيته سبحانه، فالرب على الحقيقة لا يمكن إلا أن يكون رحيماً، وأنَّ المؤمنين لم يدخلوا الجنَّة ويتلقوا السلام من ربهم سبحانه إلا برحمته عزَّ وجلَّ، والتي هي من موجبات ربوبيته تبارك وتعالى.

ـ اقتران اسمه سبحانه وتعالى «الرحيم» باسمه عزَّ وجلَّ «الودود»:

وجاء هذا الاقتران مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠].

ولا يخفى وجه الارتباط بين هذين الاسمين الجليلين لأن معنى «الودود» هو الذي يُحِبُّ عباده التوابين المنيبين، وهذا من موجبات رحمته.

وقد اختار شعيب عليه السلام هذين الاسمين الكريمين وهو يدعو قومه إلى الاستغفار والتوبة، وذلك ليطمعهم في توبة الله عزَّ وجلَّ عليهم، وأنها مقتضى رحمته سبحانه وتعالى ومحبته عزَّ وجلَّ للمنيبين إليه[١].

يقول السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ أي: لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له ويتقبَّل توبته ويُحبُّه، ومعنى الودود من أسمائه تعالى أنه يُحِبُّ عباده المؤمنين ويُحبُّونه، فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى مفعول[٢].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٥٢.
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ١٢/ ٤٤٧.

وما ألطف اقتران اسمه «الودود» بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل يغفر لمن أساء إليه ولا يُحبُّه، وكذلك قد يرحم من لا يُحبُّ، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويُحبُّه مع ذلك، فإنَّه يُحِبُّ التوابين، وإذا تاب عبده أحبه ولو كان منه ما كان[١].

٣ ـ الحكمة من معصية آدم وتوبته:

إنَّ الله تعالى درّب آدم عليه السلام قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف في الأرض تدريباً يؤهله لمسؤولية الاستخلاف، وكان التدريب في مكان يكفل الحياة والراحة والأمن، وما كان الله ليزجَّ بآدم في ذلك الكون الواسع دون أن يدرِّبه أولاً على مهمته.

حيث أوضح الله تعالى له الأوامر وأجلى له النواهي، وحذره من الشيطان، ولم يكتف الخالق الرحيم بذلك بل قدم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة، وأعلمنا الحق كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم عليه السلام. إذ عصى الشيطان فلم يسجد لآدم، وأراد أن يستأثر بآدم ليوقعه هو وأبناءه في الخطيئة، ولقد نبه الله تعالى آدم لعداوة إبليس، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقاده إلى الخطأ، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومعنى ذلك أن الله تعالى خلق التوبة، وأنه يقبلها، لذلك فلا وجود لوساطة بين الله وبين البشر، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم؛ فخطأ آدم تمَّ تصويبه، أما الخطيئة التي يرتكبها أيُّ كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها، وما فعله آدم ليس خطيئة إنما هو خطأ، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدس بين الناس وإثارة الوقيعة بينهم فالعقاب عليها إما في الدنيا

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص١٥٣.

وإما في الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ويجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم على أنه ارتكب خطيئةً، ولكنه ارتكب خطأ، من باب الغفلة والسهو. إن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله عزَّ وجلَّ كذنب إبليس، ذلك أن آدم وحواء اعترفوا بخطئهم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وهنا نرى كيف استغفر آدم ربه؟ لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار، لذلك تاب الله عليه[١].

إنَّ آدم عليه السلام أقرَّ بطاعة مطلقة للخالق الأكرم في التشريع، وطاعة آدم في اختيار وانكسار واعتذار ورغبة في أن يقبل الله توبته، لماذا؟

محبة منه لله الخالق، فلو نظرنا في هذا الموقف، وهو موقف طلب آدم التوبة لوجدناه مبدأ نورانياً في حياة الجماعة. وإن طلب آدم للتوبة وقبول الله لتوبته، إنما هو وضع أساس مهم لمسيرة الإنسان. كما أن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً، فيُقبِل على الله بانكسار، ولا يتمادى في معصيته.

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحاً لتاه كل صاحب ذنب ولفَسدت الدنيا، ولكن يجب ألاَّ تُقبِل على طاعة الله بغرور واستكبار، ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذي قد يقع فيه البعض فيقول بغرور: ـ حاشا لله ـ وماذا لله عندي؟

إن له العبادة، وهأنذا أعبده. إن الله تعالى لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته، إن الله يُحِبُّ أن يُقبل الإنسان على عبادته وهو محب لله الذي فرض هذه العبادة، ذلك أن العبادة ليست شكلاً تؤديه دون مضمون.

---

(١) قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ٢٤.

إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام لله تعالى شكلاً ومضموناً، فهناك حكمة من خلق الإنسان، وله خاصية الاختيار، وليس مقهوراً على العمل الصالح، فالحكمة هي أن الله تعالى أراد الإنسان حرّاً في اختيار الطاعة أو العصيان حتى يُقبِل الإنسان وهو طائع بحب، أو يعصي باختياره فينال عقابه(١).

إن التوبة تستدعي أن يُنيب الإنسان إلى ربه ويرجع، وأن يُسلم الإنسان بكل جوارحه لله عزَّ وجلَّ، وأن يسرع بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة الدنيا أو في الآخرة، ولا بُدَّ أن يتبع التائب أفضل ما نزل من الخالق إلى المخلوقين وهو القرآن الكريم، ونحن نعرف في قصة آدم عليه السلام أنه تاب إلى الله، وأنَّ الخالق هو التواب الرحيم، وكأن الله تعالى في حديثه عن آدم يقول لنا: إنني توّاب لم أقبل توبة آدم وحده ولكنني أقبل توبة أي عبد منكم يا أبناء آدم. ولنا أن نعرف أن حديث الله عن نفسه أنه توّاب يتضمَّن التوجيه المباشر لكل عاص أن يسرع بالتوبة إليه وإلى تلقي رحمته، وهو يغفر الذنوب جميعاً لمن يُسلِم قلبه وجوارحه إليه.

إن الخالق يستر على عباده رحمة بهم وترغيباً لهم في التوبة إليه، ولكن عندما يزيد الأمر عن الحدِّ فإن الله يأخذ العبد بذاك الذنب الذي ارتكبه، لذلك فالمؤمن الواعي هو من يسمع قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «والله إنِّي لا آمَنُ مكرَ الله». إن صاحب هذا القول هو الصديق الذي أسلم وجهه لله فور دعوة الرسول ﷺ له، وصدّقه يوم أن كذّبه الناس، هذا الصديق لا تغفل عينه عن مراقبة نفسه خشية أن يرتكب معصية فيعاقبه الله تعالى عليها، لهذا فكل منا عليه أن يعرف أن الله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وأنَّه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(٢).

(١) قصص القرآن، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ٢٤.
(٢) قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ٢٦.

إن آدم عليه السلام لم يكن مخلوقاً ليعيش في الجنَّة، وإنما خُلق للعيش في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ومهمة آدم الأساسية في الأرض هي المقام في طاعة الله عزَّ وجلَّ والحكم بالعدل بين خلقه، والمدَّة التي قضاها في المكان الذي أُطلق عليه الجنَّة كانت تدريباً له على مهمته في الأرض، فلا نقول: إنه طُرد من الجنَّة بسبب المعصية، لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثمَّ نُبوَّة، أما الجنَّة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة في الأرض(١).

٤ ـ بين معصية آدم وإبليس:

ربَّ سائل يسأل ويقول: إنَّ إبليس عصى فعوقب باللعنة والطرد من الجنَّة، وجعله الله خالداً في النار، وآدم عصى ربه فتاب عليه، وتلقى منه كلمات فاجتباه واصطفاه، فما الفرق بين هاتين المعصيتين؟ لقد أجاب العلماء على ذلك من خلال عدة وجوه:

الوجه الأول: أن معصية إبليس كانت عن إصرار وتعمُّد، فعندما سألَ اللهُ إبليسَ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] أجاب إبليس مصرّاً على المعصية: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]. فمن أجل إصراره على المعصية لعنه الله وطرده: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥].

وهذا بخلاف معصية آدم، فإن آدم عصى الله لكنه لم يعصه عن عناد وصلف وغرور، بل كانت معصيته عن سهو وغفلة ونسيان ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

---

(١) قصص الأنبياء، الشعراوي، المرجع السابق، ١/ ٢٧.

الوجه الثاني: أن إبليس لم يبادر إلى الاستغفار والتوبة بعدما علم بمعصيته لأمر الله، بل تمادى في غَيِّهِ رافضاً أوامر الله بالسُّجود لآدم، في حين أن آدم وحواء سارعا إلى طلب المغفرة والرحمة، وتضرعا إلى الله بكل كيانهما أن يغفر لهما خطيئتهما التي ارتكباها[١].

الوجه الثالث: أن إبليس زاد في معصيته وتوعَّد أن يستغوي الإنسان ويُضِلَّه، وأنه سيقف له في كل طريق ويُمنِّيه الأمانيَ الكاذبة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وأما آدم وحواء فقد زادا في استغفار ربهما.

فالفرق واضح بين معصية آدم ومعصية إبليس، لذلك كان مصير إبليس الطرد واللعنة والخلود في النار، وأما آدم عليه السلام فقد تاب الله عليه وغفر له واجتباه واصطفاه[٢]؛ لأنه ندم وشعر بالذنب، واعترف بالظلم والخطأ، والتجأ إلى التوبة والاستغفار[٣]، ومعه أُمنا حواء، ولم يبق للعصيان أثر بعد توبة آدم وزوجه، فقد تم قبولهما وتمَّ اصطفاؤهما، وقد ترتقي النفس وتسمو بعد المعصية إلى درجة أعلى منها قبل المعصية، بسبب التوبة والتضرع والاستغفار والإقبال على ما يُرضي الله عزَّ وجلَّ.

وبهذه التوبة وحسن التعامل مع التوّاب الرحيم الغفار تفوَّق الإنسان على الشيطان، وتغلَّبت نوازع الخير في داخله على وسوسة الشيطان، وتحقق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

---

(١) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٠٩.
(٢) أحمد جابر، المرجع السابق، ص١٠٩.
(٣) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٥٩.

وكانت التوبة لآدم وزوجه على حد سواء، فقد خاطبهما الله تعالى من قبل بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ثم خصَّ آدم بالحديث عن المعصية وقبول التوبة فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]. فالحكمة من ذلك ما ذكره العلماء من أن المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر، ولذلك لم تُذكر. وقال الحسن: إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليهما إذ أمرهما سواء[١]. وقال بعضهم: إن المرأة حرمة مستورة، فأراد الله الستر عليها، ولذلك لم يذكرها في المعصية بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. ولم يذكرها في التوبة، ستراً لها وصوناً لحرمتها وكرامتها[٢].

إن القرآن الكريم سجَّل لنا أول معصيتين وقعتا في الوجود، فإبليس عصى ربه أولاً، فأول معصية كانت من الجان، وثاني معصية كانت من الإنسان، والراجح أن إبليس هو أبو الجن. كما أن آدم هو أبو الإنس، فبدأ الجن تاريخهم بمعصية صدرت من أبيهم إبليس، وبدأ الإنس تاريخهم أيضاً بمعصية صدرت من أبيهم آدم، ومعلوم أنَّ الإنس والجن مكلفون، وجعل الله عندهم قدرة على الطاعة، كما جعل الله لهم قدرة على المعصية[٣]. فمعاصي الجن والإنس المؤمنين كمعصية آدم، تكون عن غفلة وضعف، وينتج عنهما الندم والاعتراف بالخطأ، ثمَّ التوبة والاستغفار، ويزداد بعدها المؤمن قرباً من الله وذكراً وعبادة له. وأما معاصي الجن والإنس الكافرين فإنها كمعصية إبليس، تكون عن تعمُّد وإصرار ويزداد بعدها الكافر كفراً وبُعداً عنه[٤].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ١٧٧. وانظر: الشوكاني، فتح القدير، ١/ ٦٩.
(٢) آدم بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٠٨.
(٣) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٥٨.
(٤) الخالدي، المرجع نفسه، ص١٦٠.

٥ ـ عقيدة النصارى في خطيئة آدم عليه السلام :

تقوم هذه العقيدة ـ كما تقول المسيحية ـ على أن الجنس البشري قد وُصم بوصمة المعصية، بإبعاده من الجنَّة، فأصبح على ذلك مستحِقّاً للعنة الله، محكوماً عليه بالهلاك الأبدي في الجحيم[١].

ويقولون بجانب ذلك: إن رحمة الله شاءت تخليص هذا العالم، والتجاوز عن ذلك بالذنب الفطري المورث له، فوجب تقديم الترضية اللازمة لله، ويقولون: إنه لما كان المحكوم عليه بالموت يجب تنفيذ الحكم عليه، أو تقديم غيره أو تطوع سواه بدلاً عنه، فقد سمح الله بتضحية ابنه على الصليب كفارة عن الناس، لأن خطيئة آدم ظلَّت عالقة في ذريته حتى جاء يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية، فهو ابن الله وابن مريم فصُلب جسمه البشري ليمحو الخطيئة عن أبناء آدم، وبالرغم من ذلك فإنهم يدَّعون أنه لا ينجو سوى من آمن بهذه الدعوى واتخذها له عقيدة[٢]. وعليه فإن الفداء عند النصارى: هو الخلاص من الموت الناتج عن الخطيئة التي دخلت إلى البشرية بآدم[٣].

ويعتقد النصارى أن المسيح مات مصلوباً فداءً للخليقة، وذلك أنَّ الله لشدة حبه للبشر، فإنَّه أرسلَ وحيده ليخلص العالم من الخطيئة التي ارتكبها آدم حينما أكل من الشجرة المحرمة، وأنَّ عيسى قد صُلب عن رضًا تام، فتغلب بذلك على الخطيئة، وأنَه دفن بعد صلبه، وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلِّباً على الموت، ثم ارتفع إلى السماء، ومن لا يؤمن بقضية الصليب لا يُعدُّ نصرانيّاً، لذلك أدمجوا قضية الصليب في دستور إيمانهم الذي يجمع كل عقائدهم،

---

(١) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، ص٥٣٦.
(٢) المسيح والتثليث، محمد وصفي، ص١٤٨
(٣) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص٥٣٧

وعلى هذا فالله كما يزعم النصارى نزل من السماء وتجسد في الروح القدس ومريم العذراء، وصُلب بإراقته دمه ليرفع عن البشر وزر خطيئة آدم[١].

وعقيدة الصلب هذه باطلة من أولها إلى آخرها، لأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله لم يُصلَب بل رفعه الله إليه، والمسيح عليه السلام لم ينسب إلى نفسه الخلاص، وكذلك لم ينسب الحواريون إلى عيسى الخلاص، وإنما الذي نَسب إلى عيسى أنه مُخلِّص هو بولس، الذي كان من ألد أعداء المسيحية، ثم انقلب فجأة ودون مقدمات إلى المسيحية وأصبح عقلها المفكر وراعيها المدبر، وكان أول إعلان له أن المسيح ابن الله، ونسب إلى المسيح أنه الإله المتجسد الذي نزل ليُصلب ويُخلِّص البشرية على غرار الآلهة المُخلِّصين الوثنيين.

ولقد انتشرت عقيدة بولس في الخلاص بسبب الأسلوب الذي استخدمه لنشر دعوته والطريقة التي سار عليها، إذ رأى أن يخرج بالمسيحية من دائرتها الضيقة في بيت المقدس إلى الميدان الواسع في البيئات غير اليهودية، ولكي تناسب دعوته هذا المجتمع الجديد أجرى بعض التعديلات للعقائد التي لا يرضى عنها المجتمع الجديد.

إن عقيدة الخلاص المسيحية، التي هي من وضع بولس، قائمة على أسس باطلة، وهي أن آدم عليه السلام أخطأ وأنَّ هذه الخطيئة انتقلت بالوراثة إلى كل أبنائه، والطريق الوحيد للخلاص منها هو ما زعموه من أن الله نزل وتجَسد في صورة بشرية، ليُصلب ويتغلَّب على الموت فيقوم، وبذلك ينال الناس الخلاص[٢].

---

(١) بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، ص٧٢

(٢) الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، أحمد علي عجيبة، ص١٥٥.

إننا ننزِّه المسيح عليه السلام عما جاء في كتب النصارى من الصلب والإهانات التي تعرَّض لها، وما ذلك التنزيه إلا لأن المسيح عليه السلام واحد من رسل الله المصطفَين الأخيار، الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته إلى خلقه، فكيف يُهان هذه الإهانة وقد جعله الله مباركاً، كما أخبر المسيح عن نفسه في قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١].

إنَّ النصارى استندوا في قولهم بالصلب على الأناجيل، وقد بيَّنتُ في كتابي **(المسيح عيسى ابن مريم)** أنها مُحرَّفة ومُبدَّلة ومُتناقضة، وذلك بالدليل والبرهان، وأنها لم تُنقل عن طريق التواتر، فهي أخبار آحاد مقطوعة الصلة بالمسيح، لانقطاع سندها فكل ما جاء فيها من أخبار مشكوك فيه، ولا يرقى أبداً إلى درجة الصدق واليقين. وقد أجمعت الفِرق النصرانية «المثلّثة» على أن المسيح صُلب تكفيراً عن خطيئة آدم التي ارتكبها وتوارثها أبناؤه من بعده، ومن أجل أن تُمحى الخطيئة لا بدَّ أن يتجسد الإله ويُقتل، وأن يدخل نار جهنم ويعذب نفسه عذاباً أليماً، ثم يصير الإله ملعوناً بذلك الصليب، كل ذلك فعله الإله في زعم النصارى ليمحو خطيئة آدم، فهل يُعقل هذا في حق الله سبحانه وتعالى؟[1].

ولا شكَّ في أن هذا الاعتقاد به جهلٌ بالغ وفاضح، تُنكره العقول السليمة والفطرة المستقيمة، والعلوم الراسخة التي مصدرها هدايات السماء من الوحي المعصوم الذي من عند الله عزَّ وجلَّ، ومن الردود التي ذكرها العلماء في هذا الباب:

أ ـ ليس عند الله خطيئة موروثة:

ليس عند الله خطيئة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن نبي، بل يؤمن

---

(١) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص٥٤٥.

المسلم أن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسب عليه، والإنسان يُولَد مُبرَّأً من كل خطيئة ومن كل ذنب، وإنما يولد على الفطرة السوية مُهيَّأً لقبول الحق، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق، فالإنسان يولد نظيفاً لا يحمل شيئاً من أوزار من سبقه، وإذا كان الإنسان لا يحمل وزر غيره، فإن غيره لا يحمل وزره، وإنما كل إنسان مسؤول عن عمله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وإن الشرائع السماوية اتفقت على هذا المبدأ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤١].

وإن القرآن الكريم ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو مع ذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية[١]. قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

ب ـ إذا كان آدم عليه السلام قد أخطأ، فما ذنب ذريته ليتوارثوا خطيئته من بعده؟:

هذا مبدأ قد نهت عنه كل الشرائع السماوية، وهل من العدل أن يُضارَّ البشر جميعاً بسبب خطيئة ارتكبها آدم؟، وكيف رضي الله أن يخلد موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين في النار بسبب خطيئة آدم؟

ثم ما بال المسيح يتحمل وزر آدم، ويلقى ذلك العذاب الذي استغاث منه استغاثة شديدة. ويا ليته المسيح فحسب، بل الإله في زعم النصارى، فالخطيئة لم تقتصر على النوع الإنساني بل تعدته إلى الإله فذاق مرارة العذاب ألواناً[٢].

---

(١) الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، أحمد علي عجيبة، مرجع سابق، ص٧٥٧.
(٢) مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي، مرجع سابق، ص٥٤٧.

إنَّ أكل آدم من الشجرة لا يُعدُّ خطيئة يترتب عليها العذاب، ذلك أن آدم عليه السلام كان نبياً والأنبياء معصومون من الخطأ، وما وقع منه من الأكل من الشجرة إنما هو من قبيل النسيان والضعف لا الإصرار والعناد، والله سبحانه أكرم من أن يُؤاخِذَ عبداً على ذنب فعله ناسياً.

هذا إلى جانب أن آدم تاب، والتوبة تغسل الحوبة وتغفر الذنب، والله سبحانه وتعالى قَبِلَ توبته فهو سبحانه وتعالى التّواب الرحيم، كل ذلك ينفي الذنب عن آدم وينفي وراثته حيث إنه لا يوجد ذنب، كما إن إهباط آدم إلى الأرض ليس عقوبة كما يتوهم النصارى، بل تكريماً وتشريفاً، حيث يباشر مهمة استخلافه في الأرض كما وعد الله من قبل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

والله تعالى ما نزل بآدم إلى الأرض لِيُنقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليُكمّله، وقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فما قال في الجنَّة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة وليس نزول إهانة، فإنَّه كان يعبد الله في الجنَّة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحقَّ أن يكون خليفة[1].

ويدل على ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى أن إهباط آدم إلى الأرض كان بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٢ ـ ١٢٣]. وهذا يدل على أن إهباط آدم إلى الأرض كان تكريماً وتشريفاً، إذ إن التوبة تمحو الذنوب، فلا بدَّ أن يكون لإهباط آدم معنى آخر غير العقوبة على الذنب، وأقرب المعاني إلى الاجتباء هو التكريم والتشريف، هذا

(١) الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، عجيبة، مرجع سابق، ص١٥٦.

إلى جانب أن نزول آدم إلى الأرض ليكون خليفة في الأرض وليحصل على معيشة بالكدِّ والتعب والمشقة، ولاشكَّ في أن الثواب مع المشقة والتعب أكبر، وكذلك ثوابه على الأرض، وهذا يدلُّ على إن إهباط آدم إلى الأرض ليحصل على ثواب عظيم ولحكمة بالغة أرادها الله في خلقه، وتعمير ملكه[١].

إن طريق الخلاص من عذاب الله والوصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى ثم دخول جناته الواسعة يحتاج إلى توبة صادقة، فعلى العبد أن يتوب عن كل إثم ويمتنع عن كل عمل يبعده عن الله عزَّ وجلَّ وعليه أن يخلص النية في هذه التوبة، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وفي قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾؛ جاء في تفسير الآية أن السيئات الماضية تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار يوم القيامة، وإن وجده مكتوباً عليه فإنَّه لا يضره، وينقلب حسنة في صحيفته[٢].

إن طريق الجنَّة كما رسمه الله تعالى في القرآن الكريم يكون عبر الإيمان الصحيح بالله عزَّ وجلَّ، والتمسُّك بأركان الإيمان الستة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والاستمرار على العمل الصالح

(١) المسيح عيسى ابن مريم، علي محمد الصلابي، ص٣٩١.
(٢) إزهاق الباطل الرد على شبهات القمص زكريا بطرس، صلاح أبو السعود، دار الطيبة للطباعة الجيزة، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٨٥.

من صلاة وزكاة وحج وصيام وصدقة واستغفار وجهد وثناء على الله عزَّ وجلَّ، حتى تكون الموازين ثقيلة برحمة الله تعالى وتوفيقه، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧].

والعمل الصالح الذي يثقل موازين العبد يوم القيامة هو كل طاعة أمر الله بها سبحانه وتعالى، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] [(١)].

الرابع عشر: قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]:

١ ـ الهبوط:

شاء الله أن تنتهي أحداث قصة آدم بعدما تاب وأناب، وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه، وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء وعدوّه إبليس، وقد جاء ذكر الهبوط في آيات عديدة: قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

الهبوط: الأمر الإلهي بالنزول إلى الأرض، وقد أخبرت الآيات في سورة البقرة أن إبليس بوسوسته أزلَّ آدم وحواء إزلالاً فأخرجهما مما كانا فيه، من نعيم الجنَّة وخيراتهما. والإزلال: هو الإسقاط، تقول: زلَّت قدم فلان أثناء السير:

---

(١) أبو السعود، المرجع نفسه، ص٢٨٦.

أي انحرفت قدمه فسقط . وتقول زلَّت به قدمه أي : سقط . وتقول : أزللت فلاناً ، أي دفعته وأسقطته فزّل وسقط .

فإبليس أزلَّ كُلاًّ من آدم وحواء أي : أسقطهما ، وذلك عندما أكلا من الشجرة ، وبذلك أخرجهما مما كانا فيه من نعيم الجنَّة . والله الحكيم قَدّر بقدرته أن يكون هبوط آدم إلى الأرض بعد أكله من الشجرة ، ولذلك أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ، وقال لهم : اهبطوا منها جميعاً ، وعندما ننظر في الأمر بالهبوط من الجنَّة إلى الأرض فإننا نجد فعل الأمر على حالتين :

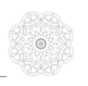
الأولى : كان فيهما مسنداً إلى ضمير المثنى وذلك في سورة طه في قول الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣] .

الثانية : كان فيهما مسنداً إلى واو الجماعة ، وذلك في سورة البقرة وسورة الأعراف ، في قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ .

ويبدو أن الأمر في سورة طه كان موجهاً إلى آدم وإبليس : اهبطوا منها جميعاً على أن آدم هو أبو الإنس وإبليس أبو الجنّ ، فلما أهبطهما الله على الأرض انتشرَ من آدم الإنس كما انتشر من إبليس الجن ، والله أعلم .

والأمر في سورة البقرة وسورة الأعراف كان موجَّهاً إلى الثلاثة الذين عرفناهم من القصة : آدم وزوجه حواء وإبليس ، اهبطوا بعضكم لبعض عدو . وهكذا انتهت أحداث قصة آدم في الجنَّة ، وبدأت أحداث القسم الثاني من قصته وهو المتعلق بحياته على الأرض .

القسم الأول الذي جرت أحداثه ومشاهده في الجنَّة هو المتعلق بمراحل خلقه : من تراب ثم من طين ، ثم من طينٍ لازب ، ثم حمأ مسنون ، ثم من صلصال كالفخار ، ونفخ الروح فيه ، وسجود الملائكة له ، وتفوقه في الامتحان على الملائكة ، وخلق زوجه حواء له ، و استمتاعهما بالأكل حيث شاءا من ثمار



الجنَّة، عدا شجرة واحدة نُهيا عن الاقتراب منها، ووسوسة الشيطان لهما وحلفه اليمين لهما بصدقه في نصحهما، ونسيانهما وأكلهما من الشجرة، وبدوِّ سوءاتهما لهما بعد الأكل مباشرة وشعورهما بالحياء، وتغطيتهما السوءات بورقِ الجنَّة ولوم الله لهما، ثم الأمر لهما بالهبوط من الجنَّة.

ويبدأ القسم الثاني من قصة آدم من لحظة هبوط الثلاثة إلى الأرض[1]، وقد تحدث القرطبي عن الهبوط في سورة البقرة، فقال: قلنا اهبطوا. كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده، كما تقول لرجل: قُم قُم. وقيل: كرّر الأمر لما علَّقَ بكل أمر منهما حُكماً غير حكم الآخر، فعَلَّق بالأوّل: العداوة، وعلَّق بالثاني: إثبات الهدى. وقيل: الهبوط الأول من الجنَّة إلى السماء، والثاني: من السماء إلى الأرض، وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنَّة في السماء السابعة كما دلّ عليها حديث الإسراء[2].

٢ ـ أين هبط آدم وما هي حكمة الهبوط؟:

أ ـ أين هبط آدم؟:

أما المكان الذي هبط إليه آدم وحواء من الأرض فقد نُقلت روايات عن تحديده، فقيل إنه هبط في الهند، وقيل إنه هبط في مكان بين مكة والطائف[3].

هل هبط على قمة إفرست من جبال الهملايا؟ والتي هي من أعلى القمم في العالم، أم بالشام؟ أم بالحجاز؟ أم بالصفا عند المسجد الحرام؟ وهل نزلت حواء معه أم في مكان آخر؟ هل هو جدة؟ وهل التقيا بعرفات أم بالمزدلفة؟ كل

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٦٦.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ٣٦٨.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق.

ذلك مما لا يقين فيه ولا حجة في ترجيح قول على قول، ولم يثبت حديث صحيح يُحدِّد مكان هبوط الأبوين[١].

قال ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهما، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم ودنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسوله ﷺ في أحاديثه[٢].

وأما خروجهما من الجنَّة، فكان يوم الجمعة كما في حديث رسول الله ﷺ: «**خَيرُ يَومٍ طَلعَتْ عَلَيه الشَّمسُ يومُ الجمعَةِ، فيه خُلقَ آدمُ وفيه أُدخلَ الجنَّةَ، وفيه أُخرجَ منها**»[٣]. وخروج آدم من الجنَّة خير كما يوحي به سياق الحديث، والحياة نعمة والعمر عطاء، وكيفما تحبُّ الحياةَ تكون لك، ويوم الجمعة الذي خرج فيه آدم إلى الأرض هو يوم عيد المسلمين[٤].

ونظراً لوجود الأحاديث الصحيحة التي تُبيِّن أن خلق آدم كان يوم الجمعة، ودخوله الجنَّة كان يوم الجمعة، وخروجه منها كان يوم الجمعة، فقد دلَّت بعض الأحاديث الصحيحة والآثار الواردة عن السلف على أن آدم خُلقَ في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فإن كان خروجه في اليوم نفسه الذي خُلق فيه، يترجَّح القول: إن آدم مكث ساعة من يوم الجمعة، وهي تعادل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر من سنيِّ الدنيا[٥]، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٥٤.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٣٠١. وانظر: تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٧.
(٣) رواه مسلم كتاب الجمعة، فضل يوم الجمعة، رقم الحديث ٨٥٤.
(٤) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٥٤.
(٥) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، مرجع سابق، ص١٦٣.

ومعلوم أن آخر ساعة من نهار يوم من أيام الآخرة التي يعدل اليوم الواحد منها ألف سنة من سني الدنيا، إنما هي ساعة بعدَ مُضي إحدى عشرة ساعة، وذلك ساعة من اثنتي عشرة ساعة، وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر من أيام الدنيا[١].

وهذا ما رجَّحه الطبري في تاريخه، وجاء في الكامل لابن الأثير: إن الله أهبط آدم قبل غروب الشمس من ذلك اليوم الذي خُلق فيه وهو يوم الجمعة مع زوجته حواء من السماء. وقد أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس: أن آدم أُسكِن الجنَّة وأُخرجَ منها في آخر ساعة، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد[٢].

أما إن كان خروج آدم في يوم جمعةٍ آخرَ غير الجمعة التي خُلق فيها، فتكون المدة التي مكثَ آدم في الجنَّة حينئذ في علم الله، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بها ونتوقف عن تعيينها لأنه ضرب من الخيال وضرب من المحال[٣].

ب ـ ما الحكمة من الهبوط؟:

إن قضاء الله عزَّ وجلَّ وقدره وتدبيره حِكَمٌ كلها، إذ لا يليق به العبث ولا الظلم فهو العدل الحكيم الخبير، وقد تحدث ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**) عن الحكمة من نزول آدم إلى الأرض، فقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة، وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل، ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك، وإهباط آدم وإخراجه من الجنَّة، كان كماله نفسه ليعود إليها على أحسن أحواله، وهو سبحانه خلقه ليستعمره وذريته في الأرض، ويجعلهم

(١) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد جابر، المرجع نفسه، ص١٦١.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٣.
(٣) المرجع نفسه، ص١٦٣.

خلفاء يخلف بعضهم بعضاً، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنَّة دار ابتلاءٍ وتكليف، فأخرج الأبوين من الدار التي خُلقا فيها ليتزوَّدا منها إلى الدار التي خُلقا لها، فإذا ذاق البشر تعب دار التكليف ونَصبَها وأذاها عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها.

ومن الحِكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم عليه السَّلام رُسلاً وأنبياء وشهداء يُحِبُّهم ويُحبُّونه، وينزل عليهم كتبه، ويعهد عليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محبته ومرضاته على شهواتهم.

وكذلك من الحِكم اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمَّياتها ومتعلَّقاتها، كالغفورِ الرحيم التَّواب، العفو، المنتقم، الخافض الرافع، المُعزُّ المُذِلُّ، المُحيي، المميت، الوارث، ولابد من ظهور أثر هذه الأسماء، ووجود ما يتعلَّق به، فاقتضت حكمته أن أَنزلَ الأبوين من الجنَّة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما.

وأيضاً فإنهم أُنزلوا إلى دارٍ يكون إيمانهم فيها تامّاً، فإنَّ الإيمان قول وعمل وجهاد فيه صبر واحتمال، وهذا كله يكون في دار الامتحان لا في جنةِ النَّعيم، وأيضاً فإنَّه سبحانه سبق حُكمُه وحِكمتُه بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلمَ بذلك ملائكته، فهو سبحانه قدَّر أن يكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقهِ، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة.

وأيضاً فإنَّه سبحانه وتعالى أرادَ أن يُظهر للملائكة ما خفيَ عليهم من شأن من كانوا يعظِّمونه ويجلونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبرِ والحسدِ والشر، فالخير والشر كامنان في نفوسٍ لا يعلمونها، فلا بُدَّ من إخراج الخير والشرِّ لكي تُعلَم حكمة أحكم الحاكمين في معاملة النفوس بما يليق بها[١].

---

(١) شفاء العليل، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ٢/ ٦٦١ ـ ٦٦٥.

٣ ـ آدم مهيأ لعمارة الأرض :

هيأ الله آدم للأرض قبلَ أن يهبط إليها، فإنَّه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد كوكب الأرض تقتضي معرفة أحواله وماضيه، وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل، والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها، فقد هيأ الله سبحانه وتعالى لآدم ذلك كله. وكان أول ذلك ومبدؤه تعليمَه أسماء الأشياء الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

ويدخل من ضمن المقصود بذلك أسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأفعال كالقيام والقعود والحركة والسكون وغير ذلك بداية وكان ذلك إشارة واضحة إلى أن آدم هو المنوط به عمارة الأرض والإقامة فيها. جاء في تفسير ابن كثير: عن أبي موسى قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنَّة إلى الأرض علَّمه صنعة كل شيء، وزوَّده من ثمار الجنَّة، فثماركم هذه من ثمار الجنَّة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير(١).

إن آدم عليه السَّلام هو أصل البشرية الذي بثَّ الله منه الناس، فتكاثرت ذريته وانتشرت في الأرض كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]. وذرأ منهما ـ أي من آدم وحواء ـ رجالاً كثيراً ونساء، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وألسنتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. وهذا يؤكد حقيقة الوجود البشري على الأرض بخلاف ما تفتريه النظريات الغربية الإلحادية التي تنفي هذه البداية، وتنطلق من مادية الكون، ومبدأ المصادفة الساقط عمليّاً وواقعيّاً، والمتناقض مع العقل والفطرة، ولا سيما

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٣٠٣.

نظرية داروين التي تفترض تسلسل الخلق بطريقة تعسفية متناقضة[١].

إن الذين يقولون إن الخلق تمَّ مصادفة، ويَتمُّ بالمصادفة، هم جاهلون بحقيقة العلم، وفي جوهر الإيمان، أيُّ مصادفة تلك التي تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم في وقت لا يعلمه إلا الله وحده؟

ومن ثم يأتيها الإخصاب من حيوان منوي خلقه الله تعالى ضمن ملايين الحيوانات المنوية في الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلي للرجل، ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة؛ فالمضغة وكساء العظم لحماً، ثم إنشاء الإنسان، ليولد ليكون من الميلاد ذكراً أو أنثى، ومن ثم شعوباً وقبائل، لذلك لا يمكن أن تكون مصادفة، لأن الصدف لا نظام لها. وبالنسبة لخلق الإنسان، فله نظام حكيم وضعه خالق قادر قدَّر لكل خَلْق زماناً ومكاناً وهدفاً. إنه يخلق على هدى وعلى قدر، إن الإحصاء المادي هو دليل إيمان بالله تعالى، إن التعداد السكاني يزداد، ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض في القرنِ السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا، ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بدَّ أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، هذا من أمر خلق آدم وحواء[٢].

٤ ـ الأرض منزلنا الكبير:

الأرض كل الأرض لبني الإنسان ولذرية آدم عليه السَّلام، انتقلوا فيها ومشوا في مناكبها وضربوا فيها طولاً وعرضاً حيث شاؤوا، ولكنا نرى الإنسان ينحرف عن هدايات الله عزَّ وجلَّ، يظلم ويفسد ويضع الحدود قديماً وحديثاً.

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق ص٣٠٤.

(٢) قصص الأنبياء، الشعراوي، مرجع سابق، ١/ ١٠.

لماذا أقمنا نحن البشر السور الحديدي الذي حرم مئات الملايين في الاتحاد السوفييتي سابقاً مثلاً من الضرب في الأرض وقيَّد حريتهم؟

لماذا سكتنا عن الجدار العازل الذي قسم الأسرة الفلسطينية الواحدة، وحرم على أفرادها أن يرى بعضهم بعضاً وأن يعيشوا بسلام؟

لماذا صنعنا التعقيدات في السفر والتنقل والترحال؟ ولماذا عوَّقنا اتصال البشر بعضهم ببعض، إلا ما كان تنظيماً تقتضيه المصلحة الظاهرة والضرورة القاهرة!؟

الأرض ليست لنا وحدنا:

لنا شركاء فيها ذوو أرواح تتحرك وتحسُّ مثلنا، وتحيا وتموت، وتشملهم معنا بعض الأحكام والتشريعات الربانية، حين هبط آدم كانت الطيور والحيوانات والديناصورات، والله أعلم، قد سبقته إلى الأرض، وقد عرفها وعرف أسماءها وتعامل معها وفق توجيه الله له، وعرف تحريم إيذائها أو التحريش بينها أو استهدافها لغير حاجة، ومن بعده عاتب الله أحد أنبيائه على قتل نملة بوحي من السماء[١]، وجعل في شريعة خاتم الرسل أن المرء قد يدخل الجنَّة في كلبٍ سقاه، أو يدخل النار في هرٍّ حبسه[٢].

كيف يمكن تغيير مشاعري الجامدة نحو الأرض التي أسكنها؟ وإني أحب بيتي وسكني الخاص، وكيف لي ألَّا أحب أرضي!؟ ورسول الله يقول: **أُحُدٌ جبلٌ نُحبُّه ويحبُّنا**[٣]، هو شعور دفءٍ وحميميّة حتى مع الصخر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، الرقم ٣٣١٩، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، رواه أبو هريرة.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٢٤٢، كتاب السَّلام، باب تحريم قتل الهرة.

(٣) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٦٢.

كان عمر رضي الله عنه يُقَبّل الحجر الأسود، ويخاطبه فيقول: إني أعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبّلك ما قبَّلتُك[١].

كيف نضفي شيئاً من الروح والوجدان على أرضنا ومنزلنا الكبير، ونُحقِّق العبودية الشاملة لله عزَّ وجلَّ فيها قبل الرحيل منها؟

أينما كنت تذكَّرْ أنك في مملكتك، وأنَّ من حولك يمتُّون إليك بسبب ونسب، فبادِرْ بالوصل والابتسامة، والكلمة الطَّيِّبة والعمل الطوعي، والإحسان ولو بالقليل، كما فعل موسى عليه السَّلام حين ورَدَ ماء مدين، ولا تحجُب عنهم هدًى دَلَّكَ الله عليه، وخيراً أرشدك الله إليه، فوالله لأن يهدي بك الله أحداً لهو خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً[٢].

حياتنا في منزلنا الكبير ـ الأرض ـ فيها الحرث والبناء والإعمار والصنيعة والتناسل والمعرفة، منحنا الله عزَّ وجلَّ أعماراً يتذكَّر فيها من تذكّر، وجعلَ للفرد أجلاً وللأمة والدولة أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، فنحن البشر أساس الحضارة والتشييد، والحضارة تقوم لتنفعنا وتعطينا وتُسهِّل عيشنا لا لتقتلنا وتُفنينا.

غرس الله في فطرتنا حب منزلنا الكبير الأرض وحب الحياة، ورزقنا القدرة على التعلم وكسب المعرفة ومقاساة التجربة وتحصيل الخبرة. وطلب الله من الإنسان الإعمار والبناء على سبيل الوجوب، كبناء المساجد والمرافق الضرورية وما لا يتحقق للإنسان العيش والخصوصية والستر إلا به، أو على سبيل الاستحباب فيما يسهل على الناس تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية من الأبنية والطرقات والجسور وسواها، أو على الإباحة ككل بناء لا نصَّ على تحريمه أو لا إسرافَ فيه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث ١٢٧٠ كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف.

(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٦٣.

طلب منا الله عزَّ وجلَّ الإعمار المادي الذي يكفل حق الطريق حسّاً ومعنًى، وحقَّ الخصوصية ألاَّ تُنتهَك، وحقَّ الصحة، كما بنى رسول الله ﷺ خيمة بجوار المسجد لتمريض سعد بن معاذ[١]. وقد بيَّنت الشريعة الحقوق المتعددة، ومنها:

ـ **حق الجزية**: «**حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه**».

ـ **حق الأمن**: «**من أصبح آمناً في سِربه، معافًى في جسده، عنده طعام يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها**».

ـ **حق الجوار**: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه**».

ـ **حق الجمال**: حتى يحاكي الإنسان في الأرض صورة الجمال الذي رآه آدم في الجنَّة وحكاه الوحي من الخضرة والماء والغُرَف وغيرها.

ـ **حق العلم**: بما هو أجمل وأكمل وأوسع وأعظم، والعلم موهبة زوَّد الله بها آدم عليه السَّلام، لذا خاطبه الشَّيطان وأغراه بالخلود والملك العريض.

ـ **حق العدل بين الناس**: فالأرض وُضعت للأنام، وتسلُّطُ الجبارين المتكبرين على مواقعها الجميلة، وتركهم الضعفاء للعشوائيات والبلدان الفقيرة والنامية، مع نهب ثرواتها وتركها فريسة للمرض والجوع والجهل، هو مما نهى عنه الله وأنكره عليهم، فقال تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

المؤمن مُتنقِّل بين فضل الله في الضرب في الأرض وبين رحمته في التعبُّد

(١) كتاب الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيره، صحيح البخاري، رقم ٤٦٣.

والخشوع، وهو يقول في دعائه: ﴿ يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. وهو مُؤتمَن على هذا الكوكب البَهيِّ حفاظاً على سلامته وأمنه، وعلى جماله وزينته، وعلى نظافته وطيبه، ولم لا وهو صادر عن الرَّبّ الكريم[١]؟!

٥ ـ أقدم الوصايا في تاريخ البشرية:

إن أهم إيحاءات قصة آدم عليه السَّلام هي القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي الرباني، الذي يرسمه الله للإنسان حتى يسير على هداه في رحلة الأرض، والذي يتضح في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

هذه كانت وصية الله تعالى لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنَّة وأهبطهما إلى الأرض. وقد جاء في سورة طه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

لقد أُعلنت الخصومة في الملأ الأعلى بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله، وشاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رُسلَه بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم[٢]. وقد قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٦٨.
(٢) قصص الرحمن في ظلال القرآن، أحمد فائز الحمصي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١/٥٧٩.

كانت هذه وصية الله لأبوي البشر حين أهبطهما إلى الأرض، فهي من أقدم الوصايا، لذلك كانت خليقة بأن تكون سنّةً كونية لا يتخلّف مدلولها عن أحد من خلقه في أي حال من الأحوال، والقرآن الكريم مليء بالسنن الكونية[1] التي لا تتبدَّل ولا تتحوَّل، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. فهذه السنن ماضية، فمن اتبع هدى الله وآمن برسله وكتبه واهتدى بهم وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، فقد اهتدى وأفلح، قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

لقد ترتب على اتباع هذه السنة أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن والضلال والشقاء.

بالنسبة لنفي الخوف والحزن فإن الفرق بينهما: أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف. فنفاهما عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة، الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب[2].

إن الهُدى بالأنبياء والرسل وما يبلغونه عن الله ويُبيِّنونه للناس يجعل اتباعهم سعادة ومخالفتهم شقاء، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

---

(١) الحمصي، المرجع السابق، ١/ ٥٧٩.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ١/ ٧٦ ـ ٧٧.

٦ ـ الصراع بين الحق والباطل:

إن الناس في موقفهم من هدى الله فريقان:

ـ **الفريق الأول**: المؤمنون الصالحون، الذين اتبعوا هدى الله، وصدّقوا رسله، واستقاموا على طاعة الله، فهؤلاء سعداء في الدنيا لا يَضلُّ أحدهم ولا يشقى، وهم في أمان الله لايخافون ولا يحزنون، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

ـ **الفريق الثاني**: الكافرون المكذبون بآيات الله الذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا هداه، وحاربوا رسله واتبعوا الشَّيطان، هؤلاء خاسرون هالكون، وفي الآخرة مُعذَّبون بالنار، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]؛ فالذين يقودون المؤمنين المهتدين هم الأنبياء والرسل، ثم أتباع الرسل من العلماء والدعاة، بينما يقود الكافرين المكذبين إبليس وأعوانه من مردة شياطين الإنس والجن.

إن هذا الأمر يؤكد حقيقة مطردة، وهي الصراع بين الحق والباطل، والمواجهة بين الخير والشر، هذا الصراع الذي بدأ منذ المشاهد الأولى من قصة آدم في الجنَّة، عندما رفض إبليس السُّجود لآدم، ثم زيَّن له الأكل من الشجرة، وقد كان آدم أبو البشر يُمثِّل جانب الحق، وكان إبليس يُمثِّل جانب الباطل.

وسيبقى الصراع بين الحق والباطل قويّاً محتدّاً مستمرّاً حتى قيام الساعة، وسيبقى الناس منقسمين في هذا الصراع إلى قسمين: أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

وأصحاب الحق هم حزب الله الذين قال الله عنهم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأصحاب الباطل هم حزب الشَّيطان الذين قال الله عنهم: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

والسعيد المُوفَّق هو الذي يأخذ هدى الله ويتبعه، وينحاز إلى الحق ويكون من حزب الله المفلحين، والخاسر الهالك هو الذي يرفض هدى الله ويكفر بالحق، وينحاز إلى حزب الشَّيطان الخاسرين[١].

٧ـ النار:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

خلقَ اللهُ النار وأوصدَ أبوابها على العاصين الزائغين الضَّالِّين، فمن أطاع دخل الجنَّة برحمة الله، ومن عصى فمأواه النار بعدل الله، فكلٌّ كاسبٌ ثمرة كسبِه، ولكلِّ عامل جزاءُ عمله، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ـ٨].

أ ـ النار موجودة الآن:

النار موجودة الآن كما تدل على ذلك الآيات والأحاديث والآثار عن

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٧٤

الصحابة رضوان الله عليهم، وقد عقد البخاري في صحيحه باباً تحت عنوان «باب صفة النار وأنّها مخلوقة» وأورد في ذلك جمعاً من الآيات والأحاديث[١].

ومما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٥ ـ ٦]، فهي غير خامدة أعدّها الله للعصاة[٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، «أُعدَّت»؛ رُصدَت وحُصِّلت للكافرين بالله ورسوله. وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على أن النار موجودة، وذلك لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ أي: أُرصدت وهُيِّئت، والأحاديث في ذلك كثيرة منها قول الرسول الكريم ﷺ: «**هذا حَجَرٌ أُلقي به في شَفيرِ جَهنَّمَ منذُ سَبعينَ سنةً، الآنَ وصلَ إلى قَعرِها**» وهو عند مسلم. وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة المعنى[٣].

ب ـ مكانها:

ورد أن جهنم في الأرض السابعة كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «الجنَّةُ في السَّماءِ السَّابعةِ، ويجعلُها اللهُ حيثُ يشاءُ يومَ القيامةِ، وجهنَّمُ في الأرضِ السَّابعةِ». أخرجه أبو نعيم. وخَرَّجَ ابن منده عن مجاهد، قال: قلت لابن عباس: «أين الجنَّة؟ قال: فوق سبع سماوات. قلت: أين النار؟ قال: تحت سبعة أبحر مطبقة»[٤].

واستدل بعض العلماء على وجود النار الآن بما أخبر به الله تعالى عن الكافرين أنهم يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً، يعني في عالم البرزخ، قال

(١) الفتح، ٦/ ٣٧٩. وانظر: قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢٧.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٢٠/ ١٨٥.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢٨.
(٤) المرجع السابق، ص٢٢٩.

تعالى في قوم فرعون في سورة غافر: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

وأخبر الله سبحانه أنه لا تُفتَّح لهم أبواب السماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠ ـ ٤١]، وهذا دالٌّ على أنَّ النار في الأرض[1]. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، وفي حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ في صفة قبض روح الكافر أنه قال: **حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيَسْتَفتِحون فلا يُفتَح له، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]. قال: **يقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السفلى قال: فتُطرَح روحُه طرحاً**[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في صفة قبض روح الكافر أنه قال: «**فتخرجُ كأنتَنِ ريح جِيفةٍ، فيَنطلقون بها إلى باب الأرض، فيقولون: ما أنتنَ هذهِ الرِّيحَ، كلَّما أتوا على أرضٍ قالوا ذلك، حتى يأتوا بها إلى أرواح الكُفار**»[3].

فهذه الأدلة وأمثالها تدل على أن النار في الأرض أو في الأسفل وليست في السماء، بخلاف الجنَّة التي ثبت أنها في السماء، وأن سقفها عرش الرحمن[4].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، المرجع السابق نفسه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وغيره. قصة الخلق، الخرعان، ص٢٢٩.

(٣) أخرجه ابن حيان والحاكم وغيرهما، التخويف من النار لابن رجب ص٤٥ ـ ٤٦

(٤) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢٩.

ج ـ النار دركات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] والدرك والدرج بمعنى واحد، لكن الأول سُمي بذلك باعتبار النزول، والثاني باعتبار الصعود(١). ودرجات الجنَّة تذهب علوّاً ودركات النار تذهب سفولاً(٢).

د ـ أبواب النار:

إن للنار سبعة أبواب، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، وهي أبواب عذاب بحسب الذنوب والمعاصي، كما أن أبواب الجنَّة بحسب الأعمال الصالحة(٣).

وقد كتب الله لكل باب منها زمرة من أتباع إبليس يدخلونها لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله.

وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جرير: سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية(٤).

كما أن جهنم لها قعرٌ ودركٌ أسفل، فالدرك بيَّنته الآية التي تحدَّثَت عن المنافقين، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]. والقعر ذُكر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: كنا عند النبي ﷺ يوماً فسمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: **أتدرون ما هذا؟**

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (درك).

(٢) التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان، ١٩٨٨م، ص٥٠.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٥/٥٥١ ـ ٥٥٢.

فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حجرٌ أُرسِلَ في جَهَنَّمَ منذُ سبعينَ خريفاً، فالآنَ انتهى إلى قَعرِها**»[١].

هـ ـ أقسام جهنم:

مما ورد في خلق جهنم وعذابها أنها قسمان ونوعان من العذاب، قسم ونوع من النار الموقدة بحرّها ولهيبها وشررها ودخانها، وقسم ونوع هو الزمهرير الشديد البرد، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]. وقال ابن كثير: أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حرّه، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذي لايستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص: ٥٨]، أي وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها[٢].

و ـ النار محكمة الإغلاق:

وإمعاناً في شدة عذاب النار نعوذ بالله منها فقد جعلها الله سبحانه مغلقة محكمة الإغلاق، مؤصدة مطبقة قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ [البلد: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة: ٨].

قال مجاهد: هي بلغة قريش: أوصد الباب: أغلقه[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ السرادق: كل ما أحاط بشيء[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. وانظر: قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٣١.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤١.
(٣) التخويف من النار، ابن رجب، مرجع سابق، ص٦٠
(٤) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٣٣.

ز ـ صفات النار:

النار كأنها حي من الأحياء، فوصفها الله عزَّ وجلَّ بأنها تَطَّلع على الأفئدة، قال تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧]. وقيل معنى تطَّلع على الأفئدة أي: تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب[١]. وذكر القرطبي في تفسيره: وتأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خُلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم[٢]. ووَصَف النار بأنها كما قال الله تعالى: ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [المعارج: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٢].

فوصفها بهذا فلا يبعد أن تُوصَف بالعلم، أي تعلم مايستحقه كل واحد من العذاب، فتُعذِّبه بقدر ذلك، وقد وصف الله عزَّ وجلَّ النار بأوصاف عظيمة مهولة رهيبة تنخلع لها القلوب وترتعد لتصورها الأبدان، ووصفها الله بأنها أشد حرّاً من نار الدنيا بقوله سبحانه عن حرِّ الصيف الذي تثاقل المنافقون أن يخرجوا فيه مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد في غزوة تبوك، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

ووصفها بأنها نارٌ حامية بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١]، وبأنها تتلظَّى في قوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤]. أي: تلتهب وتتوقَّد وبأنها ذات لهب في قوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ٣]. أي: ذات لهب وشرر وإحراق شديد[٣]. قال رسول الله ﷺ: «**ناركم جزءٌ من سبعينَ جُزءاً من نار جهنَّمَ**». قيل: يا رسول الله، إن كانت

(١) الخرعان، المرجع السابق، ص٢٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٥.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٣٥.

لكافية، قال: «**فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهنّ مثل حرّها**»[(١)]. وقد وصفها الله بالنار الكبرى في قوله: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]؛ أي العظمى وهي السفلى من أطباق النار، وعن الحسن: الكبرى: نار جهنم، والصغرى: نار الدنيا[(٢)].

ح ـ وقود النار:

أما وقود النار فليس حطباً وفحماً، وإنما وقودها الناس والحجارة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

والمراد بالحجارة هنا: حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حرّاً إذا حَمِيَت، أجارنا الله منها.

وعن عبد الله بن مسعود قال: هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يُعدُّها للكافرين وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وذلك أن النار إذا أُضرمت بحجارة الكبريت كان حرُّها أشد وسعيرها أقوى، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين، وقيل المراد بها: حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تُعبد من دون الله عز وجل.

ط ـ الشرر يبعث على الهول:

أما شرر النار فليس كشرر نار الدنيا، بل هو من الكبر والضخامة ما يبعث

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣١١٨، كتاب بدء الخلق.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٢٠/٢١.

الهول والرعب في النفوس، تأمَّلْ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣]. وقد قال ابن كثير: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر، وقال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس: يعني أصول الشجر. كأنه جمالات صفر: أي كالإبل السود، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: جمالات صفر: يعني حبال السفن أو قطع النحاس[١].

فسبحان الله كم احتوى هذا الوصف من الهول لأقل شيء من النار في العادة حجماً وحرارة، فالشرر أقل ما في النار من حيث الحجم وأقله حرارة، حيث حرارته كلسع الحشرات الصغيرة، ومع ذلك فهو في نار جهنم مثل الحصون، وفي السواد مثل الإبل السود، نسأل الله السَّلامة والعافية.

وأما دخانه فلهيب مُحرق وسواد خانق، وصفه الله سبحانه وتعالى بأسوأ الأوصاف وأكثرها كآبة قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣ ـ ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣١].

فهذا الظل هو ظل الدخان، يبدو كالظل لكنه عذاب مُحرِق كريه، وقال ابن عباس: ظل من دخان. وعن مجاهد: ظل من دخان جهنم وهو السموم، لابارد المدخل، ولاكريم المنظر، وقال أيضاً: الظل ذو الثلاث شعب هو: دخان جهنم: اللهب الأخضر والأسود والأصفر الذي يعلو النار إذا أُوقدت[٢].

ي ـ ملائكة النار:

اختار الله للنار ملائكة غلاظاً في الهيئة، شداداً في القوة، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤٦٠.
(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص٢٣٧.

فمصير الذين كفروا وكذبوا بآيات الله أن يصبحوا من أصحاب النار، وقد فَصَّل الله عزَّ وجلَّ حديثه عن النار في كتابه العزيز، وما ذكرته عن النار ما هو إلا قليل من كثير ممَّا جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

٨ ـ ما علاقة القدر بآدم عليه السَّلام؟:

هذه القصة تكشف عن ذلك: فقد سأل موسى ربه: «يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسَهُ من الجنَّة، فأراه الله آدم، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال له آدم: نعم، قال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وعلَّمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسَكَ من الجنَّة؟

فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبيُّ بني إسرائيل الذي كلَّمَك الله من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم. قال: أفما وجدت أن ذلك كان في كتاب قبل أن أُخلق؟ قال: نعم، قال: فبم تلومني في شيء سبق من الله تعالى فيه القضاء قبلي؟ قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى**»[١].

كانت حجة آدم عليه السَّلام أغلب وأقوى، ولعل قوة الحجة التي قالها آدم مبنية على:

أ ـ أن الكلام كان في أمر قد مضى وانقضى: فلا سبيل إلى ردِّه، فهي مصيبة وقعت، وليس أمام العبد إلا أن يرضى ويسلم، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

ب ـ أنه ذنب قد تاب منه آدم وأناب وقَبِلَ الله توبته: فلا سبيل إلى معاتبته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم، ٣٤٠٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى. ومعنى حجَّه: غلبه في الحُجَّة.

وتوبيخه، وهو بعد التوبة خير منه قبل الذنب، قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ صبرَ فكان خيراً له**». وهذا يكون في المصائب ويكون في الذنوب لمن تاب منها[١].

ج ـ أن الخروج من الجنَّة وقع لآدم وحواء فحسب، وأما موسى وسائر ذرية آدم فلم يكونوا في الجنَّة أصلاً.

د ـ أن هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خَلْقه، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وليس عقاباً محضاً، إنما هو سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، وله الحكمة في ذلك.

الإنسان مسؤول عن أعماله الإرادية الاختيارية، والظروف والبيئة والجينات وسائر المؤثرات لها اعتبار في تعاظم المسؤولية، ولا تلغى التبعية الدنيوية القانونية ولا الأخروية المترتبة على تصرفاته[٢].

٩ ـ نبوة آدم عليه السَّلام ورسالته:

إن المستعرض للآيات التي وردت في قصة آدم عليه السَّلام يجد فيها أن الله نادى آدم غير مرة، وكلَّمه بلا وساطة، وعلَّمه كل الأسماء ـ وهو في الجنَّة ـ ونهاه عن أكل تلك الشجرة وحذَّره من إبليس وعداوته له، وبعد اقتراف الخطيئة بادر بالتوبة بإيحاء من الله، فنادى هو وزوجه ربهما طالبين منه المغفرة والصفح، وهذا وحده كاف في إثبات نبوته عليه السَّلام وهو في الجنَّة، كان نبياً يعمل فيها بتوجيهات الله ثم بعد إخراجه من الجنَّة اختاره الله رسولاً يُبلِّغ الرسالة إلى ذريته.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢١٨.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٧.

ومن الأدلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]. والاصطفاء هو: الاختيار والاجتباء، وهو في اصطلاح القرآن الكريم: النبوة والرسالة.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]. وقد أجمعوا على أنَّ المراد بهذا الاصطفاء هو: النبوة، فالاصطفاء دليل على نبوة آدم عليه السَّلام، فهو أبو الأنبياء، كما أنه أبو البشر.

٣ ـ ومن الأدلة على نبوة آدم عليه السَّلام قوله تعالى في سورة طه: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢]. فالاجتباء هنا: هو اختياره نبياً ورسولاً، وليس معناه اجتباء بالتوبة كما قاله بعض المفسرين، لأن الله تعالى قد غاير بين التوبة والاجتباء هنا بعطف أحدهما على الآخر، والعطف يقتضي المغايرة، والمعنى أن آدم أدركته رحمة الله بعد أن عصاه، فاصطفاه للرسالة فقبل الله توبته وهداه إلى الصراط المستقيم.

٤ ـ من الأدلة على نبوة آدم عليه السَّلام أن النبي ﷺ لما عُرِج به إلى السموات العلا مرَّ على كل سماء، وفي كل سماء على نبي من الأنبياء، فكان من بين الممرور بهم آدم في السماء الدنيا، ولم يمر في تلك الرحلة على غير الأنبياء، فدلَّ ذلك على أن آدم عليه السَّلام من هؤلاء الأنبياء، بل ومن طليعتهم عليهم السَّلام حيث ابتدأت به الزيارة قبل غيره من الأنبياء لكونه أبا البشر وأول الأنبياء[١].

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٩١.

٥ ـ من الأدلة كذلك على نبوة آدم عليه السَّلام، أن الناس يوم القيامة في المحشر يستشفعون بالأنبياء إلى الله فيأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً عليه الصلاة والسَّلام، والقاسم المشترك بين هؤلاء المُستشفَع بهم هو كونهم جميعاً من الأنبياء[١].

٦ ـ من الأدلة على نبوة آدم عليه السَّلام قصة القرابين التي قدَّمها ولداه، كما ثبت في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧]. وفي هذا دليل على أنه كان عندهما شرع من الله تعالى أخذاه عن أبيهما آدم، مؤدَّاه أن قبول القربان من أحد الخصمين دليل على أحقيته في القضية.

فكون آدم نبياً بالإجماع فثابت بلا مرية، ومنقول بلا خلاف، وفوق ذلك هو من الخمسة والعشرين المذكورين في كتاب الله تعالى، وممن قصَّ الله علينا أخبارهم، وقد اتفقت طوائف المسلمين على عدِّ آدم عليه السَّلام من الأنبياء والمرسلين، فهذه كتبهم في العقيدة المعنية في هذا الموضوع طافحة بذكر ذلك، نقل خَلَفُهم عن سلفهم، ولاحِقُهم عن سابقهم في كل العصور وفي كل الأمصار، وقد دلَّ على ذلك كتاب الله بصريح العبارات، والسنة النبوية بوضوح الدلالات[٢].

٩ ـ آدم نبي عليه السَّلام ورسول بالعقل:

إن الله تعالى قد خلق الإنس والجن لعبادته، وهي الغاية من خلقهم، وآدم عليه السَّلام ليس هو من البشر فحسب، بل هو أبو البشر كما تقدم، إذن، فلابد أن يكون مُحقِّقاً لتلك الغاية التي من أجلها خُلق في نفسه أولاً، ثم في ذريته ثانياً، ومعلوم أنه ليس باستطاعته أن يعبد الله دون إذن منه في نوعية تلك العبادة

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٩٢.
(٢) المرجع السابق، ص٩٤.

وكيفيتها، إذ لا يصح من عبد أن يعبد الله كيفما شاء وعلى حسب هواه، بل لا بدَّ أن يعبد الله بما شرع، والشرع لا يُتلقَّى إلا من الله، فتَعيَّن أن يكون آدم نبيّاً، وتقرَّر تكريمه بالعقل الذي هو مناط التكليف، فكان به قادراً على تلقي التوجيهات من ربه، حتى لايبقى لحظة من عمره غير عارف بربه وبما يريده منه.

ولهذا جَرَتْ سُنة الله في المكلفين أن يُرسِل إليهم الرسل تباعاً واحداً تلو الآخر، حتى لا يخلو زمان من داعٍ لله وقائم بالحجة لئلا تنقطع صلتهم بخالقهم، فيتخبَّطوا في الحياة تخبط العشواء فلا يهتدون سبيلاً في هذه الدنيا، ولا يسلمون من عذاب الآخرة[١]. وخُتمت الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ «خاتم النبيين» وهي باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كان آدم عليه السَّلام يعلّم ذريته، وهم ليسوا مشركين إلا أن البشر يفتقرون إلى الوحي فيما يتعلَّق بعبادتهم وأحكامهم وأمور غيبهم، ومن هنا قامت الضرورة التامة للنبوة والوحي.

النبأ: هو الخبر إن كان خطاباً مباشراً من الله، كما في حالة موسى، أو بوساطة الملك جبريل عليه السَّلام الذي سمِّي رسول الملائكة، أو إلهاماً ربانياً لمن يختارهم الله. فهم النخبة المصطفاة الذين يأتيهم خبر السماء وتعاليم الله، ولذا سمُّوا أنبياء، فإن اقترن هذا بتكليفهم بالبلاغ وإنزال شريعة أو كتاب، وإقامة حجة، والإتيان بمعجزة، فهي الرسالة، فكل رسول هو نبي وليس كل نبي رسولاً.

والقول في الفوارق بين النبي والرسول أوسع من هذا، ولكن القرآن يدلُّ على أنهما ليسا بمترادفين كما ادّعى بعضهم، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن

---

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٩٢.

رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]. والنبوة تعضيد للعقل ورسم لمساره الصحيح وتحفيز لحركته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وليس تخديراً أو عزلة عن الحياة والعمل وخلافة الأرض. والنبي الأول هو أول من وضع لبِناتِ الكشوف في الحرث والصنائع، والانتفاع من تسخير السموات والأرض وكشف أسرارها.

النبوة طمأنينة للقلب، وسكينة للروح، وترشيد لسلامة الطريق، وحسن العاقبة، ويقين الإيمان، وصحة المعتقد ليعلم الإنسان أنَّه ليس مُتوحِّداً ولا معزولاً، ولا مستوحشاً على هذه الأرض، وأنه موصول الحبل بالدار الآخرة، مطمئِنُّ القلب إلى طريق النجاة فيها إن أراده[١].

النبوة كشف لعالم الغيب، وإخبار عن الله تعالى وملائكته، وعن الآخرة والحساب والثواب والعقاب بما هو حق مطابق. والنبوة تشريع مفصل يضبط علاقات الناس وزوجاتهم ومعاملاتهم ويجعلهم أقرب للرشد والصواب.

النُّبوة ضرورة للعدل الرباني بتقديم البلاغ وإنذار الآخرة، بل ورحمة للبشر.

وأن يكون الرجل الأول نبياً فهو ترسيخ لأصالة الخير في الإنسان وفي الأرض وعمقه واتساعه. ولذا لم تقم حضارة ولم تتكون أمة إلا والدين حاديها وملهمها[٢]. حتى أعتى النظريات المادية اتَّكأت على موروث ديني ولم تستطع إنكار دور الدين في حياة البشر، وشعوب العالم تشهد هبَّات متكررة في العودة إلى التديُّن هروباً من الضياع والكآبة والعدمية والقلق، واستجابة للفطرة المطمورة المنتفضة[٣].

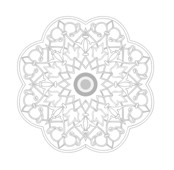
---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٤٤.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٤٤.
(٣) العودة، المرجع السابق، ص٢٤٥.

وأما كون آدم رسول الله بالعقل، فلأن آدم عليه السَّلام لم يكن له بدّ من أن يكون لديه من شرع الله مايتعرف به على تنظيم علاقته مع زوجه، ويتمكن به من تصريف شؤون أولاده في السلم والحرب والزواج والانفصال، ليعلم من خلاله ما يحلُّ له مما يُحرم عليه من الأطعمة والأشربة وسائر ما وضع الله له في الأرض، وتلك مهمة لا يضطلع بها إلا رسول قد أكرمه الله بالرسالة وكلفه بالبلاغ عنها، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] (١).

❊ ❊ ❊

(١) العودة، المرجع نفسه، ص٩٥.



المبحث الثاني

قصة آدم عليه السَّلام في سورة الأعراف

إن سورة الأعراف سورة مكية، وقد تضمنت سنة الله الكونية في الأمم المخالفة، وتذكيراً للناس بآيات الله في الكون وخلقه، وخلق الإنسان وضعفه، وبداية عداوة الشَّيطان للإنسان، وذُكر فيها جملة من حجج المعاندين من الأمم السابقة، مع التحذير من سلوك طريقهم، ومن عاقبة الكافرين في النار، كما ذُكرت الجنة وعاقبة المؤمنين في الآخرة[١].

وقد مهّد الله عزَّ وجلَّ قبل الحديث عن الأمم السابقة، وقبل الدخول في قصة البشرية تفصيلاً، بالحديث عن تمكين الله عزَّ وجلَّ للجنس البشري في الأرض، ومن هنا تبدأ الرحلة الكبرى في مسيرة البشرية، ثم الشروع في قصة آدم عليه السَّلام وعداوة إبليس له، وجاءت تفاصيل مثيرة وحقائق خطيرة لا توجد إلا في كتاب الله عزَّ وجلَّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، ٣/ ١٢٨١.

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٠ ـ ٣٤].

أولاً: بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]؛ حيث بدأت الآيات الكريمة بالحديث عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض، قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً.

إن الله خالق الأرض وخالق الناس وهو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الأرض، وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس، وتعينه بما فيها من أسباب الرزق والمعايش.

هو الذي جعلها مقرّاً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبُعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها على محورها، وسرعة دورانها إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس البشري عليها، وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورُقيِّها معاً، وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات الأرض، قادراً على تطويعها واستخدامها بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف على بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته.

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك، لما استطاع هذا المخلوق أن يقهر الطبيعة، كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً، ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة.

إن التصورات الجاهلية الإغريقية والرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية، وهي التي تصور الكون عدواً للإنسان، وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته، وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى ـ بجهده وحده ـ وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية وكل تسخير لها ـ قهراً للطبيعة ـ في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني.

إنها تصورات سخيفة، فوق أنها تصورات خبيثة، لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان، عدوة له وتتربص به وتعاكس اتجاهه، وليس وراءها إدارة مُدبِّرة كما يزعمون، لما نشأ هذا الإنسان أصلاً، ولما استطاع المضي في الحياة على فَرَض أنه وُجد، وكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه؟ وهي بزعمهم التي تتصرف بنفسها ولا سلطان وراء سلطانها؟[1].

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق، وإن الله هو الذي خلق الكون، وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان، وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرُّف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته.

وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة.

وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوة حكيمة مُدبِّرة، يعيش مطمئن القلب، مشروح النفس، ثابت الخطو، ينهض بأمور عمارة الأرض في اطمئنان الواثق بأنه مُعان على الخلافة، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سرٍّ من أسرار الوجود، وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافة الأرض، وتُيسِّر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع.

إن هذا التصور لا يكفُّه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه، على العكس، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة، إنه يتحرك في كون صديق لايبخل عليه بأسراره، ولا يمنع عنه مدده وعونه، وليس في مواجهة كون

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٣.

عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه[١]. بل هذا الكون وهذه الأرض مسخرة بأمر الله عزَّ وجلَّ للإنسان.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢٢]، ومن الآيات التي تدل على تسخير الكون للإنسان قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [طه: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤].

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض، وهو ابن هذا الكون، أنشأه الله في هذه الأرض ومَكَّنه فيها، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش، ويَسَّر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها، وخلق نواميس موافقة لوجود هذا الإنسان تساعده على التعرف إليها على بصيرة وتُيسِّر له حياته[٢].

إن الله يُريد من الإنسان أن يدرس حياته دائماً بما تشمل عليه من إمكانات القوة ومواطن النعمة، فيربطها بالله المصدر لكل قوة ونعمة، ليدفعه ذلك إلى الشعور بالمسؤولية أمامه فيما يستخدم فيه القوة أو يستعمل فيه النعمة، وذلك هو مفهوم الشكر العملي. المفهوم الذي يريد الله من الإنسان أن يجعله الطابع العام لحركة حياته، والسّمة البارزة لشخصيته، وذلك بأن يحوّل كل ما أعطاه الله إلى السبيل الذي يتحرّك فيه أمر الله ونهيه، لأنه لا يملك ذلك كله، فلا حرية له في أن يتصرف فيه تبعاً لمزاجه وهواه، بل يعتبر ذلك منه تمرُّداً على الله وخلاف ما تقتضيه حالة الشكر له، ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي الدائم لارتباط الوجود الإنساني في عناصره وخصائصه بالله، والابتعاد عن الانغلاق الفكري والروحي داخل الذات الذي يوحي إليه بالإمكانات الذاتية التي يستمدُّها من وجوده بعيداً عن الله[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٣.
(٢) المرجع نفسه، ٣/ ١٢٦٣.
(٣) تفسير من وحي القرآن، محمد حسنين فضل الله، ٧/ ٣٠.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ فيما أودعه من عناصر القوّة في الإنسان وما سخرّه له من مخلوقاته.

وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾؛ فيما تأكلون وتشربون وتلبسون وتستمعون، لتشكروا الله على ذلك وتنطلقوا به في طريق طاعته.

وقال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ تلك هي النتيجة الطبيعية للغفلة عن معنى الحياة المسؤولة في صلتها بالله، لأن قضية الشكر هي قضية وعي وانفتاح وإيمان، لتعرف أن الله لم يخلقك عبثاً، ولم يخلق الحياة دون هدف، ولم يترك الإنسان دون نظام[١].

والشكر: هو صرف العبد كل ما أنعم الله به عليه إلى ما خُلق لأجله[٢]، من نِعَم ظاهرة وباطنة في النفس والمال، فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق بكل جارحة على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه وأدى واجب شكرها[٣].

ويعتبر الشكر من أجلّ الأخلاق السلوكية الإيمانية التي على المؤمن أن يتحلَّى بها في كل أحواله؛ لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها.

ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية آمراً به، وحثاً عليه، وثناء على أهله ووعداً لهم بحسن جزائه، ونهياً عن ضده مما يدلُّ على أمر هذا الخلق عظيم الشأن[٤]. ومن الأوامر القرآنية للتحلي به قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ

---

(١) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٣٠.
(٢) المرجع السابق، ٧/ ٣٠.
(٣) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز الحداد، ١/ ١٨٥.
(٤) المرجع السابق، ١/ ١٨٦.

وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

فإن كانت عبادتكم خالصة له سبحانه حقّاً فعليكم أن تشكروا نعمه، فإن العبادة تستلزم الشكر، بل هو من ضروب العبادة وأنواعها[١]. ويأتي الحديث مفصَّلاً عن هذا الخلق في محله بإذن الله.

لقد أعطانا الله عزَّ وجلَّ أدوات التمكين، وسخر لنا كونه وأرضه وجعل لنا فيها المعايش التي تستحق شكره ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلناً، قولاً واعتقاداً وعملاً.

ثانياً: خلق الإنسان وتصويره:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾:

بدأ الله خلق الإنسان من طين، ثمَّ صوره حتى تكامل خلقه إنساناً سويّاً يملك الصورة الجميلة والجسم المعتدل والأجهزة الدقيقة التي تتحرك في نظام محكم متوازن، فتُحرّك فيه العقل والإرادة اللذين يستطيع بهما أن يحمل مسؤولية نفسه ومسؤولية الكون من حوله[٢].

وفيما يلي مراحل خلق الإنسان كما عرضها القرآن الكريم:

أ ـ المرحلة الأولى: التراب:

البداية قبضة من تراب الأرض، حيث ذُكر ذلك في مواضع عديدة في القرآن

(١) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ٢/ ٢٤٩.
(٢) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٣٣.

الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، والخطاب في الآية لبني آدم وهم مخلوقون عن طريق الزواج والتناسل، ولكن ينطبق عليهم ما ينطبق على أبيهم آدم عليه السَّلام، وبما أن أباهم مخلوق من تراب فهم أيضاً مخلوقون من تراب[١].

وشاء الله الحكيم أن يكون تراب الأرض مختلفاً متفاوتاً في لونه وطبيعته، لتتوافق بقاع الأرض وتتناسق وتتكامل في إنتاج مختلف أنواع الزروع والثمار، فهناك تراب أحمر، وهناك تراب أسود، وهناك تراب أبيض، وهناك تراب رمادي، وهناك تراب سهل، وهناك تراب حَزْن صعب، وهناك تراب لَيِّن، وهناك تراب قاس صلب. ولما أراد الله خلق الإنسان الخليفة أخذ قبضة من تراب الأرض، تَمثَّل فيها مختلف ألوان التراب وخصائصه[٢].

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله خَلقَ آدمَ من قَبضةٍ، فَقَبَضَها من جَميع الأرضِ، فَجاءَ بَنو آدمَ على قدرِ الأرضِ، فَجاءَ منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وبَينَ ذَلكَ، والسَّهلُ والحَزْنُ والخَبيثُ والطَّيبُ وبَينَ ذلكَ**»[٣].

يُخبرنا رسول الله ﷺ عن أسباب اختلاف ألوان الناس واختلاف طبائعهم وسجاياهم، وإن السبب في ذلك هو اختلاف ألوان التراب الذي خُلقَ منه أبوهم آدم، فقبضة التراب التي خُلق منها آدم ضمَّت مختلف ألوان التراب الأحمر والأبيض والأسود وغيرها. وتحولت ألوان التراب المختلفة إلى جينات وراثية، تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأعطى الله الحكيم سكان كل إقليم في الأرض لونهم

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٣.
(٢) الخالدي، المرجع نفسه، ص٣٠.
(٣) سنن أبي داود، رقم ٤٦٩٣، كتاب السنة، باب في القدر.

الخاص بهم، وأعطى كل إنسان لونه الذي اختاره له بحكمته سبحانه، فهناك أقاليمُ ألوان سكانها سوداء، وهناك أقاليم ألوان سكانها بيضاء وأخرى حمراء، وأخرى بَنِّيَّة وهكذا.

إن الله الحكيم هو الذي اختار لكل إنسان لونه، ولا إرادة لأي إنسان في اختيار لونه، وجعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم آية في عظمته ووحدانيته وقدرته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وطالما أن لون الإنسان لا إراديٌّ في حياته، فلا يصلح أن يكون أساساً في التفاضُل بين بني البشر، لأنه لا يجوز أن يتفاضل أناس بشيء لا دخل لهم فيه ولا قدرة لهم على اختياره، إنما يتفاوتون في جانب يقوم على اختيارهم وجهدهم وسعيهم وهو الإيمان والعمل الصالح والتقوى[1]. وكم ضَلَّت أمم جعلت أساس التفاضل اللون، ففضَّلت لون أفرادها واحتقرت ألوان آخرين، ومارست ضدَّهم التمييز العنصري بأبشع صوره.

لقد فضَّلت النازية في ألمانيا الجنس الآريّ على سواه، لأن اللون الأحمر هو الذي يلوّن أفراده، وفضّل الأمريكان الجنس الأنجلوسكوني على غيره واحتقروا السود في بلادهم لا لذنب وإنما لأن لونهم أسود. وكما كان الناس مختلفين في ألوانهم بسبب اختلاف ألوان التراب، كذلك كانوا مختلفين في طبائعهم وشخصياتهم بسبب اختلاف طبيعة تراب الأرض، وطبائع النفوس متفاوتة فهناك نفوس سهلة لينة هاشّة باشّة، تألف وتُؤلَف، دائمة الابتسامة والحيوية، ترتاح إليها وتسعد معها وتأنس بالتعامل معها، وهناك نفوس بائسة تعيسة، عابسة جامدة كأنها قدّت من صخر، تنفر منها وتكره لقاءها والتعامل معها. فسبحان الله الحكيم الخبير في خلقه للتربة متفاوتة في ألوانها وطبيعتها، وفي خلقه للناس متفاوتين

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣١.

مختلفين في ألوانهم وطبائعهم، وهذا من أوضح الآيات على وحدانية الله[(١)].

لقد أجرى العلماء تحليلاً دقيقاً لمكونات الأرض، فوجدوا فيها أكثر من مائة عنصر من عناصر الطبيعة المعروفة حتى الآن، كما أجروا تحليلاً لجسم الإنسان نفسه، فوجدوه مكوّناً من حوالي ثلاثة وعشرين عنصراً هي خلاصة عناصر الأرض أو العناصر المهمة فيها، وصدق الله العظيم الذي قال في قرآنه المعجز: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ أي من خلاصة الأرض، وهذه هي الحقيقة بعينها، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] [(٢)].

ب ـ المرحلة الثانية: الماء:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]. ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

إن هذه الآيات تدل على أن آدم خُلِق من ماء، كما أن كل شيء حي وكل دابة تدب على الأرض خُلقت من ماء، وآية سورة الفرقان تدل على أن البشر تحديداً قد خُلقوا من الماء، ثم تُبيِّن الآيات بعد ذلك أن الخلق التالي لخلق آدم وحواء أي ذريتهما قد خُلق من ماء مهين، وهو ماء الرجل. والحقيقة الثابتة أن كل الدواب

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٢.
(٢) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٢٩.

بما فيها الإنسان قد خُلقت من الماء، فالماء يكوِّنُ أكثر من ٧٠٪ من جسم الإنسان. إذن خُلق آدم من تراب ومُزج بالماء حتى أصبح طيناً، وقد جاء في وصف الطين الذي خُلق منه آدم، والمراحل التي مر بها هذا الطين ليخرج منه أهم مخلوق في الكون عُرضت عرضاً تفصيلياً في القرآن الكريم[١] كما سنرى بإذن الله.

ج ـ المرحلة الثالثة: الطين:

أخبر الله تعالى أنه خلق آدم من طين، وهذه مرحلة مزج التراب بالماء حتى صار طيناً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

والطين الذي خلق منه آدم وُصف في القرآن بثلاث صفات، ويمكن اعتبارها مراحل تحول التراب والطين إلى جسد من لحم ودم وعظام وأعضاء، وهذه الصفات هي:

ـ الطين اللازب.

ـ الحمأ المسنون.

ـ الصلصال[٢].

يقول شيخي الأستاذ الدكتور سلمان العودة (حفظه الله): أجد مراحل الطين في ذاتي حين تمر بي تحولات الفرح والحزن والسعادة والشقاء والسكون

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، محمد عبد الباقي، مرجع سابق، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

والثورة واليقين والشك، أتذكر الطين اللازب، والصلصال، والحمأ المسنون، بل أتذكر الماء الذي عُجن به الطين، وماءُ الأرض فيه الحلو العذب الفرات، وفيه الملح الأجاج، وفيه المر. وإن مراحل الطين تمر بِي جميعها. وأنواع الماء:

أجد الحمأ المسنون في مسامِ الجسد، فأحتاج لمعالجته لأشعر بنشوة النظافة ونفثة العطر. وأجده في مسام الروح فأحتاج للتهليل والتسبيح والذكر والاستغفار، لأمحو لحظة غفلة أو شرود واستجابة للنفس الأمارة[١].

الطين خصب قابل للإنبات، تكون فيه الورود والأزهار والأشجار النافعة، وتكون الأشواك والأشجار السامة المخدرة، وقد تتجاوز هذه وتلك، ونحن فينا التقوى والفجور، وفينا المؤمن والكفور.

وكون الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان من طين الأرض، فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها والضرب فيها. وإن العمل والكدَّ والكدح وعرق الجبين ليس عيباً، إنه سِرُّ التميُّز والإبداع.

والطين يمنح المرونة والتّشكل والتكيُّف مع الظروف والمتغيرات المناخية والاجتماعية، بخلاف ما لو كان الخلق من القش أو من الصخر، الصخر قاس لا يلين، والقش متفرق لا يلتئم[٢]. وإن الطين يمنح التنوع، الأحمر والأسود وما بين ذلك، والطيب والخبيث ومابين ذلك، واختلاف الطبائع والميول يثري الحياة ويوسعها. والطين يجمع بين الليونة والقوة، والطين يوحي بالنهاية، قال تعالى: ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

والنجاح دائماً ممنوح لأولئك الذين يبدؤون العمل وعيونهم على النهاية:

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص١٤.
(٢) العودة، المرجع السابق، ص١٥.

كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. يبقى التراب أصلنا ولو وضعنا قباب الذهب فوق شواهد قبورنا، وأصررنا على تجاوز البساطة حتى بعد موتنا(١).

د ـ المرحلة الرابعة: الطين اللازب:

وكلمة «لازب» ذُكرت مرة واحدة في القرآن الكريم كله في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، واللازب: هو الثابت شديد الثبوت المتماسك الثخين. والطين اللازب ناتج عن الطين الرّخو، حيث زادوا خلط الطين بعضه ببعض، فأصبح لازباً غليظاً كثيفاً تمهيداً لتجميده وتيبيسه(٢).

أي: أنا خلقناهم من طين لاصق، وإنما وصفه جلَّ ثناؤه باللزوب، لأنه تراب مخلوط بماء، والتراب إذا خُلط بماء صار طيناً لازباً، أي: لاصقاً، ومن المعاني التي أضافتها كلمة «لازب»، أن من خصائص هذا الطين الذي خُلق منه آدم أنه لزج، يلصق باليد، وأنه طين ثابت، فاللازب: الثابت، وأيضاً أنه خالص، فاللازب الخالص، وربما أن مرحلة الطين اللازب هذه هي التي تمَّ فيها تشكيل جسم آدم وتخليق أعضائه وشكله الخارجي من رأس ووجه ورقبة وأطراف وأيدٍ وأرجل، إذ أن الطين اللازب اللزج هو الذي يصلح للتشكيل والتكوين، وقد يكون تشكيل الجسد جاء بعد المرحلة الثالثة وهي: الحمأ المسنون.

تُركت كتلة الطين اللازب بعد تشكيلها، فاسودّ لونها فأصبحت حمأ، وتغيَّرت رائحته بمرور السنين فأصبح الطين مسنوناً.

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص١٥.
(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٥.

هـ ـ المرحلة الخامسة : الحمأ المسنون :

أخبر الله عزَّ وجلَّ في كتابه أنه خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣]، فكلمة «حمأ» وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم، وفي كل المواضع أتت مسبوقة بالصلصال ووصفته بأنه حمأ مسنون[١].

وهذا ـ معاذ الله ـ أن يكون لتحقير الإنسان ولكنه بيان أصله المتواضع ليتواضع، فقد أودع الله فيه من المواهب ما إنْ لم يضبطه بضابط الإيمان والتواضع، فإنَّه سيستكبر، ومقتله وعلله كلها في هذا التكبر. فشاء الحكيم أن يكون خلقه من هذا الأصل المتواضع جدّاً من الطين الأسود المتعفِّن الذي تحول إلى صلصال، فجمع ضَعة الأصل وضعفه معاً.

كل ذلك ليتواضع، وليس ليُحقَر ولا لِيُهان ولا لِيُنتقص من قدره، ولو كان هذا فلماذا أسجد له ملائكته؟ أليحقره ويُهوِّن من شأنه؟ بالطبع لا[٢].

قال ابن عاشور : المقصود من ذكر هذه الأشياء الدلالة على عجيب صنع الله تعالى، إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعاً هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة، وفيه إشارة إلى أن ماهية الحياة تتقوَّم من الترابية والرطوبة والتعفن. وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف «قد» لزيادة التحقيق، تنبيهاً على أهمية هذا الخلق، وأنه بهذه الصفة[٣].

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٣٦.
(٢) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص١٩٠.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩٠.

قال السعدي: من صلصال من حمأ مسنون: أي من طين قد يبس بعدما حُمِّر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكوثه[١].

وهذه مرحلة تالية بعد مرحلة الطين اللازب، حيث تُرك الطين اللازب الغليظ إلى أن جفَّ ويبس، فتحوَّل إلى طين أسود متغير، ولما ازداد جفافه صار جافّاً يابساً صلصالاً، فإذا نُقر عليه نقرة خرج منه صوت، وبعد وصول جفافه ويبوسته غايتها شُبِّه في ذلك بالفخار[٢].

ووصفُ الطين الذي سيُخلق منه آدم بالحمأ المسنون يُستفاد منه معان كثيرة منها:

ـ أن لون الطين كان أسود.

ـ أن تشكيل وتخليق جسد آدم تم في مرحلة الطين اللازب.

ـ أفادت بعض معاني كلمة «مسنون» أن جسد آدم في هذه المرحلة كان حادَّ المعالم مسنوناً بلا زوائد ولا ترهلات.

ـ أن هذا التشكيل والنحت لجسم آدم قد تُرك فترة من الزمن لا يعلمها إلا الله قبل أن تأتي المرحلة التالية وهي الصلصال.

و ـ المرحلة السادسة: الصلصال:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، والصلصال: هو الطين اليابس الذي يُسمع له صوت إذا ضُرب، وهو يشبه الفخار الذي تُصنع منه الجرار والأواني التي تتميّز بحفظ الماء وتبريده وتعبئته. فبوساطتها يتسلل الهواء لأعماق الماء ويمنحه معنًى جديداً ومذاقاً حيّاً أيَّ حياة.

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، المرجع نفسه، ص١٩١.
(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٦.

فجسد الآدمي وعاء أو منجم صغير، مكون من ثلاثة وعشرين عنصراً موجوداً في الأرض، وقد عبَّر الرسول ﷺ عن مرحلة ما قبل الروح حين قال: «**إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه السَّلام لمُنجدل في طينته**»[١]. وهذا التمثال الآدمي المنجدل على الأرض تشكل من:

ـ تراب.

ـ عُجِن بالماء، فصار طيناً.

ـ ثم تُرك ما شاء الله حتى أصبح طيناً لازباً ملتصقاً بعضه ببعضه.

ـ ثم تُرك ما شاء الله حتى أصبح حمأ مسنوناً منتناً أسود، وربما بدأت تظهر عليه بعض ملامح التكوين الإنساني.

ـ ثم تُرك ما شاء الله حتى صار صلصالاً كالفخار، قد تكون أربع مراحل أو خمساً أو ثلاثاً، وهي مراحل بحث وتردُّد تُشبه مراحل الجنين في بطن أمه، وكل مرحلة أربعون يوماً كأيام الجنين أيضاً، ولعلها من أيام الله فيكون ثمَّ تفاعل كيميائي استغرق من السنين الطوال ما الله به أعلم، حتى تتخمر هذه القبضة الطينية ويتشكل الحمض النووي ثمَّ الخلايا الحيّة[٢].

إن الآيات التي تحدثت عن أبينا آدم عليه السَّلام قبل نفخ الروح فيه لا تعارُض فيها، وإنما أخبرت كل آية عن مرحلة من المراحل التي مرَّ بها خلقه، فأخبرت آية عن مرحلة خلقه من تراب، وأخبرت آية أخرى عن المرحلة الثانية من تراب وماء، مرحلة الطين، وأخبرت ثالثة عن مرحلة خلقه من طين لازب، وأخبرت آية رابعة عن مرحلة خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأخبرت آية خامسة عن مرحلة خلقه من صلصال كالفخار.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧١٥٠. وانظر: ابن أبي عاصم، رقم ٤٠٩.
(٢) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢١.

فلا بدَّ من جمع الآيات المتفرقة التي تتحدث عن هذه المراحل، والنظر فيها مجتمعة، لنحسن فهمها واستخراج دلالاتها، ولا يعلم إلا الله وحده الفترة الزمنية لكل مرحلة، وهل هي حقبة أو مدة؟

كما لا يعلم إلا الله وحده مظاهر التطور على هذا الطين اللازب والحمأ المسنون والصلصال كالفخار وعوامل التفاعل فيه، وكان الله ينقله من مرحلة إلى أخرى، فهو الذي خلقه وأوجده من العدم ونقله بين هذه المراحل[١].

٢ ـ مرحلة تصوير آدم عليه السَّلام وتسويته:

بعدما مَرَّ آدم عليه السَّلام بالمراحل المذكورة وهي: خَلْقه من تراب، ثم تحويل التراب إلى طين، ثم تحويل الطين إلى طين لازب، ثم تحويل اللازب إلى صلصال من حمأ مسنون، ثم تحويل ذلك الصلصال إلى صلصال كالفخار تمثالاً مجسماً وجسداً دون روح، هذه المرحلة هي مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

الخطاب في الآية لبني آدم، والحديث فيه عن خلق وتصوير أبيهم آدم عليه السَّلام، وقد عطف مرحلة التصوير على مرحلة الخلق بحرف العطف «ثم» الذي يدلُّ على التراخي الزمني بين المرحلتين، والتصوير المذكور في الآية تصوير مادي مجسم. فلما خلق الله تعالى آدم من الطين اللازب وصار كصلصال من حمأ مسنون كالفخار، صوّره الله بأن جعل له أجهزة الجسم البشريّ المعروفة الظاهرة والباطنة تمهيداً لنفخ الروح فيه، وجعل الله لهذا التمثال اليدين والرجلين والرأس، بما فيه: العينين والأذنين والفم والأنف، وجعل له الجذع والظهر والبطن، وجعل فيه القلب والرئتين والمعدة والأمعاء والأوردة والأعصاب وغير ذلك.

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق.

لكنها أجهزة جامدة ليس فيها حياة، وهذا التصوير المجسم بتسويته في آية أخرى قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، والتسوية هنا بمعنى: التصوير أو تقوم على إنشاء مختلف أجهزة الجسم وتجهيزها وتهيئتها للعمل بعد نفخ الروح فيها[١].

وما جرى لآدم من تصوير قبل نفخ الروح فيه يجري لكل واحد من ذريته حتى قيام الساعة، والفرق بين التصويرين أن تصوير آدم كان خارجيّاً ظاهراً، فجاءت صورته المادية تمثالاً مجسَّماً كبيراً. أما تصوير ذريته فإنَّه يكون بداخل الرحم وتكون الصورة مصغرة جدّاً، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

١ ـ آدم تمثال مُلقًى في الجنَّة:

كان خلق آدم وتصويره في الجنَّة التي خلقها الله قبل تصويره، وبقي تمثال آدم مُلقًى في الجنَّة فترة زمنية لا يعلمها إلا الله.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن الخلقة الأولى التي كانت البداية في تركيب جسد آدم المصوّر، والتي يبدأ منها تركيب أجسام بَنيه في الأرحام[٢]. قال رسول الله ﷺ: «**كل بني آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خُلق، ومنه يُركَّب**»[٣]. وفي لفظ آخر للحديث: «**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة**»[٤].

وعجب الذنب: هو آخر فقرات العمود الظهري، من عمود الظهر، وهو

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٩.
(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٣٩.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٩٥٥، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب مابين النفختين.
(٤) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٤٠.

أصغر تلك الفقرات، ومعروف باسم: العُصعص. ولقد كانت بداية خلق آدم من عجب الذنب، ثم تمت تسويته وأُكمل تصويره بعد ذلك، لأن الحديث يقول: «منه خُلق».

هذا عام يشمل كل إنسان، آدم وبنيه، عندما يموت الإنسان ويوضع في قبره يبلى كل شيء فيه ويصير تراباً إلا تلك الفقرة الصغيرة في أسفل العصعص، فإن الله شاء ألا تبلى ليُركِّب الخلق منها يوم القيامة، عندما يشاء ربنا بعث الناس من جديد[١].

وعندما تتأمل الإنسان حينما يموت، فأول نقص لبُنيته أن تخرج منه الروح، وكانت آخر شيء في بنائه، ثم يتصلب الجسد ويتجمد كما كان في مرحلة الصلصالية، ثم يتعفن وتتبخر رائحته كما كان في مرحلة الحمأ المسنون، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب. إذن، صدق الله تعالى في المشهد حين بيّن لنا الموت، فبذلك صدَّقْنا ما قاله في الحياة.

وقد تبدو هذه الحقائق لبعض القراء بديهية ومنطقية، ولا تحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل، ولكنها في الحقيقة في غاية الأهمية، حين تُعرَض على غير المسلمين، وخاصة الشعوب التي تعيش في جهالة من أهل الغرب والشرق، وكذلك العلمانيين واللادينيِّين، وتلك أمور هامة جدّاً حينما نجادل من يحاول أن يتبع بعض النظريات التي تحاول أن تثبت أن الإنسان متحول عن بعض الأجناس كالقرود والشمبانزي، ويطلقون على بعض فصائل القرود: إنسان الغاب، وإنه للعجب العجاب أن يبلغ بنا التفكير ذلك الحال!

لذا ينبغي أن تكون هذه الحقائق عن مراحل خلق الإنسان وطريقة خلق آدم،

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، المرجع السابق، ص٤٠.

والمادة التي خُلق منها واضحة جلية، وأن تكون القاعدة الصلبة التي ينطلق منها المؤمن الواعي المتفتح عندما تُعرَض عليه أفكار أخرى مخالفة لصريح القرآن[١].

ب ـ إبليس يُفكر في تمثال آدم:

كان إبليس في الجنَّة، وكان يرى مراحل خلق آدم تراباً وطيناً وصلصالاً من حمأ مسنون. وها هو يراه الآن تمثالاً مجسَّماً ممدَّداً في الجنَّة، فتعجَّب منه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لما صوّر الله آدمَ في الجنَّةِ تَرَكه ما شاء أن يتركه، فجعل إبليسُ يطوفُ به، وينظرُ إليه، فلما رآه أجوفَ عرفَ أنه خلقٌ لا يَتمالَك**»[٢].

كان دوران إبليس حول الجسد الآدمي تفحُّصاً خرج منه بملاحظة أنه يشتمل على جوف ويحتاج إلى طعام وشراب، فهو بذلك غير متماسك ولا قادر على التحكم في نفسه وضبطها[٣]، فهو لا يملك نفسه عند الغضب لأنه أجوف، ولا يملك نفسه عند الفتنة، ولا يملك نفسه عند الشهوة والإغواء لأنه أجوف، ولا يملك نفسه عند زخارف الدنيا لأنه أجوف.

فإبليس عرف نقطة ضعف هذا التمثال، وقد احتفظ بهذا الاكتشاف الخطير لنفسه ليحسن الاستفادة منه في المستقبل، ليغوي الذي لا يتمالك نفسه عند الشهوة، ولا يتمالك نفسه عند ملذات الدنيا، والذي لايتمالك عند المحنة والشدة[٤].

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٤١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٦٦١.
(٣) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٢.
(٤) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٤٢.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

ج ـ اكتمال جسد آدم عليه السَّلام:

كان آدم جسداً مُلقًى على الأرض تمرُّ به الملائكة وإبليس يحاولون استكشافه، تحول التمثال الطيني بنفخ الروح فيه إلى عظم ولحم وأوردة وخلايا، ثمّ تحوّل بعد ذلك لإنسان حي، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، وحين تُنزع الأرواح تبقى الأجساد كما كانت من دون حياة، فماذا فقدت إذن؟ فقدت روح الحياة، وهي الطاقة الخصبة التي بها قوام الجسد، وكأن الجسد بيت والروح تيار كهربائي يضيء جوانبه.

الجسد: هو الجانب المادي في الإنسان وهو توأم الروح وحاملها، والاهتمام بالجسد نظافة وجمالاً وصحة من الفطرة. كان آدم عليه السَّلام كبيراً طويلاً جميلاً قويّاً متناسقاً طويل الشعر.

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه: إن الله عزَّ وجلَّ خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنَّة، فأخذت شعرَه شجرةٌ فنازعها، فنادى الرحمن: يا آدم مني تَفِرُّ؟ فلما سمع كلام الرحمن، قال: يارب؛ لا ولكن استحياء[(١)].

كان منتصب القامة، وليس ذلك لشي من الحيوانات، والانتصاب: هو

(١) أخرجه ابن سعد ١/ ٣١. وانظر: البيهقي في البعث والنشور، رقم الحديث ١٧٥، واختلف في رفعه ووقفه.

الشموخ والشمم، ولذا شبهه بالنخلة، والنخلة هي الشجرة الطَّيِّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، يواجه الريح بصدره، ويحمل الأعباء على كتفه، ولا يحني رأسه لغير خالقه، وبهذا فسّر ابن عباس رضي الله عنه معنى الكبد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] (١).

ـ وجهه كان مركز الحياة والجمال: فيه العينان والفم والأنف والأذن وهو مجمع الحواس، ولذا جاء في الحديث: «**إذا قاتَلَ أحدُكم أخاهُ فليجتنبِ الوجهَ، فإنَّ الله َخلقَ آدمَ على صُورتِه**».

ـ جمال يوسف الصديق عليه السَّلام الذي أُعطي شطر الحسن، كان حسنه نصف حسن آدم عليه السَّلام، حسب قول المفسرين(٢).

ـ وفي الحديث: «**عشر من الفطرة: قصُّ الشارب، وإعفاء اللحية، والسّواك، واستنشاق الماء، وقصّ الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**. وقد قال أحد الرواة: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وانتقاص الماء: يعني الاستنجاء» (٣). وهي تعود إلى فطرة آدم عليه السَّلام، والعناية بها من كمال الإنسانية، وما يحدث من تعمّد إطالة الأظافر والشعر الداخلي مخالفة لسنن الفطرة: هو نقص الاتباع وطروء الضعف. ويدخل في الفطرة: التّطيُّب والتطهر الذي يزيل درن الجسد ويُحسِّن مزاجه.

ـ الإسلام دين الفطرة، ومقاصده ملائمة للعناصر الأساسية المكونة للإنسان. مادة خلق الجسد التراب والماء وهما طاهران، وتظل صلة الإنسان بهما قائمة باعتبارها ضرورة حياتية وشرعية.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٦.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٦١، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة.

ـ إن الانتساب لآدم المخلوق من جملة طين الأرض مدعاة للإيمان بالمساواة ورفض العنصرية ضد لون أو جنس.

ـ المبالغة في التجمُّل والإغراء والتعرِّي لدى الأنثى، أو استعراض العضلات والقوة لدى الذكر، هو من الجَور على الجسد والروح معاً، وأسوأ ما يكون حين يتحول الإنسان الكريم إلى أداة لتسويق السلع والتربُّح.

ـ الشعور بالقبح، وطول النظر إلى الذات، مرض نفسي يحمل على المبالغة في التجمل المتكلَّف، والوحي ينصُّ على جمال الخلقة وحسنها. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

ـ الجسد جزء منك ولكنه ليس ملكاً لك، وهو رفيق له حق الطريق، «**فإنَّ لجسدِكَ عليكَ حقّاً**».

ـ العناية والتنظيف والتغذية الجيدة والرياضة والنوم والراحة بعض حقِّ جسدك عليك.

ـ تعذيب الجسد حرام، وهو أمانة قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ عن تَعذيبِ هذا نفسَهُ لَغنيٌّ**»[(١)]. سواء كان على سبيل التعبُّد والزهد أو الرياضة.

ـ امتهان الجسد وتلطيخه أو ترك استعمال الماء والمنظفات هو جور آخر على الجسد، سواء كان تعبُّداً أم تذليلاً للنفوس.

ـ الحمية الشاقَّة تحت ذريعة طلب الرشاقة إذا جاوزت قدر الطاقة فهي تصرُّف في الجسد بغير ما أمر الله به.

ـ الحواس: السمع، والبصر، والشم، الذوق، اللمس، أدوات محايدة تجري فيها الأحكام الخمسة:

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٢٩.

ـ يَحرم الاستماع للفجور والفحش.

ـ ويُكره الاستماع لما قد يضرُّ من فضول القول الذي لا فائدة منه.

ـ ويُباح سماع الأشياء العادية.

ـ ويجب الإنصات لسماع القرآن والفاتحة في الصلاة وخطبة الجمعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ـ القلب مَلِكُ الأعضاء وسيِّدُها، والمضغةُ التي إن صلحت صلح الجسد وإن فسدت فسد الجسد.

ـ المضغة العادية تضخُّ الدم وسلامتها سرُّ العافية، والمضغة المعنوية سر الحياة، وطمأنينتها بالإيمان سبب الصلاح، وسلامتها من التحاقد والتحاسد سبب النجاح والفلاح.

ـ يبدأ الإنسان ضعيفاً ويقوى ويشتد، ثم يضعف ثم يموت وتفارقه الروح، سنة الله في بني آدم، فالحضور الأقوى للروح، وهي الأكثر ديمومة من الجسد. ولذلك فلا تسخر من ضعيف أو مريض أو معاق أو شيخ(١)، فهذا خلق الله عزَّ وجلَّ، وربما تكون أنت الضعيف أو المريض أو المعاق في المستقبل، الأمور بيد الله من قبل ومن بعد.

٣ ـ الروح التي نفخها الله في آدم عليه السَّلام:

شاء الله العليم الحكيم الخالق المُصوِّر أن يجعل هذا التمثال المجسم حيّاً، فأخبر الملائكة بذلك، وطالبهم أن ينتظروا إحياءه، فإذا رأوا أن الله نفخ فيه من روحه فعليهم أن يسجدوا له، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]،

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٣٠.

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] .

لقد نفخ الله في هذا التمثال المجسم من روحه ، فدَّبت فيه الحياة وصار إنساناً حيّاً متحركاً[١] . أي بث الله فيه الروح : التي هي سر الحياة والتي لايعلم شأنها إلا من خلقها فهي من عالم الغيب، وهي الجزء المهم في هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخة الروح سبب الحياة وسر الحياة، وكم من أمر لايعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به ، فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً أفلا يؤمن بها البشر ؟؟

وكيف لا ، وجُلُّ حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها ، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن يؤمنوا بها وينتفعوا بها ، ولايقول أحد منهم : أقنعني بالكهرباء وأنها موجودة ![٢] .

ومعنى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ : أي أفضتُ عليه ماهية حياته، وهو الروح الذي هو من أمري[٣] . وتكريم هذا الإنسان يفوق الوصف فقوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر : ٢٩] ؛ منتهى التكريم لهذا المخلوق الوافد الجديد .

وكرامة الإنسان بنفخة الروح لا من قبضة الطين ، فسَمَت قبضة الطين بنفخ الروح، والدين هو روح الروح وحياتها ، فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين : بالروح وروح الروح ، فتأمل[٤] .

أ ـ ﴿ مِن رُّوحِي﴾ : بيانية وليست تبعيضية :

حرف الجر «من» في قوله من روحي للبيان وليس للتبعيض، ولا يمكن أن

(١) سيرةآدم ، الخالدي ، مرجع سابق ، ص٥٠ .
(٢) تفسير سورة الحجر ، أحمد نوفل ، مرجع سابق ، ص٢٠٣ .
(٣) أحمد نوفل ، المرجع السابق ، ص٢٠٥ .
(٤) تفسير سورة الحجر ، أحمد نوفل ، مرجع سابق ، ص٢٠٦ .

تكون «من» تبعيضية، لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة.

وهو الخالق لكل شيء وكل ما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم عليه السَّلام مخلوقة، وهو الذي خلقها سبحانه، وهذا معناه أن هذه الروح المخلوقة ليست جزءاً من ذات الله سبحانه، وهذا معنى قولنا يستحيل في العقيدة أن تكون «من» تبعيضية، لأنها لو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم قطعة من روح الله، وجزءاً وقسماً من روح الله اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم، فالذي في آدم جزء من الله. وهل ذات الله سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعَّض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟

إن هذا مرفوض عقلاً، ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية[1]. ولذا نقول: إنَّ «من» في قول الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ بيانية، وهي تبين أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي أنه هو الذي خلقها، ونفخها في آدم. ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِن رُّوحِى﴾ وهذه إضافة تكريم لتلك الروح، هي كإضافة ناقة صالح عليه السَّلام في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكإضافة البيت المحرم الكعبة إلى الله في قول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

---

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٥١.

وقد أخطأ النصارى في نظرتهم إلى الروح التي نفخها الله في فرج مريم عليها السَّلام، فخلق منها عيسى عليه السَّلام، حيث اعتبروا هذه الروح جزءاً من روح الله أي أن حرف «من» في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] تبعيضية، وذلك بأن أعطى الله تعالى جبريل عليه السَّلام قطعة من روحه منفصلة عنه، وأمره أن ينفخها في مريم، فكان منها عيسى عليه السَّلام. أي: الروح التي في عيسى عليه السَّلام جزء من روح الله، ولهذا اعتبره النصارى ابناً لله.

إن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، خلقها الله وهي من عنده، والروح التي خلق الله منها عيسى عليه السَّلام في رحم أمه مخلوقة من عند الله، وحرف الجر «من» في الموضعين للبيان، وليس للتبعيض، وهذه الروح التي أحيا الله بها آدم أبا البشر، هي الروح التي يخلق الله بها ذريته في بطون أمهاتهم، ولا يعلم ماهيتها إلا الذي خلقها، استأثر بالعلم بها، وحجب هذا العلم عن خلقه[١].

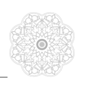
ب ـ ماهية الروح وجوهرها:

أفضل من كتب عن الروح ابن القيم في كتابه (الرُّوح)، والروح عنده: جسم نوراني عُلوي خفيف حي متحرك يسري في الأعضاء سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم[٢].

واليوم بمقدورك أن تقول: تسري الروح في الجسد سريان الكهرباء في الموصلات أو الإنترنت في الأجهزة.

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٥٢.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٤٩.



ويظل النص المحكَّم إليه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ قُل الروح من أمر ربي: هذا هو الجواب في شأن الروح وماهيتها ومادتها وكل ما يتصل بها، هذا كله من أمر الله أي شأنه عائد إلى الله، وهذا من اختصاص الله لا أحد سواه يعلم ما يتعلَّق بها كليّاً أو جزئيّاً. وإذا كنا نجهل الكهرباء فكيف نعرف الروح؟

وما الضير أن تكون بعض المعلومات محجوبة مؤقتاً أو مؤبداً؟ وهل كنا ندرك ونحن أطفال ما معنى التفجير الذري؟ وما هو الطرد المركزي؟ وما الفرق بين القنبلة الذرية والنيوترونية والهيدروجينية؟

فهذا، ومثله محجوب مؤقتاً حتى تُحصِّل قدراً من المعرفة يمكنك البناء عليه لتفهم. وشيء من المعلومات محجوب طيلة الحياة، فنحن لا نرى الملائكة ولا نرى أشياء كثيرة لكن في لحظة الموت نرى ما لم نكن نراه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٩ ـ ٢٢].

والروح سبب الحياة ولا يعلم حقيقتها إلا الله عزَّ وجلَّ، والإيمان يجعلك في انسجام مع الكون، وأما الكفر فانطماس وانغلاق على الحواس[1].

فالروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس، وهو موضوع كتاب ابن القيم، وبحث الغزالي في (**الإحياء**) وفي (**معارج القدس في مدارج النفس**).

ومع تقدم العلوم الطبيعية والمادية ظلت الدراسات المتعلقة بالنفس والروح

---

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، ص٤١٤ ـ ٤١٥.

بعيدة عن تحقيق تقدم ملموس، أو اختراق علمي يناسب ما تحقَّق في سائر العلوم[١].

إن الروح التي نُفخت في آدم هي روح سرت في الطين سريان الماء في الورد، فحولته خلقاً آخر، وهي التي بها يحيا الإنسان ويصبح قلبه وعقله وجسده وسائر مضامينه في وضعية الجاهزية والقدرة على أداء المهمات الموكولة إليه أيّاً كانت، إذا لم يكن ثمة عائق آخر[٢].

والروح طاقة روحانية تشرف وتنتعش بالإيمان والمناجاة والقرآن والصلاة فتمنح السعادة والرضا والإنجاز وتُضعِف الغفلة، والروح هي النافذة المفتوحة للإنسان ليُحلق ويسمو ويتجاوز جدران الواقع الضيق أو الألم والقيد أو الإعاقة أو الظلم، فحين يعجز الجسد يلوذ الإنسان بروحه فيشرق قلبه وينتقل إلى آفاق أسمى وأعلى[٣].

والأرواح مجاميع، وفي الحديث: «**الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ فما تعارفَ منها ائتلَفَ، وما تَناكرَ منها اختلفَ**»[٤]. ومن الممكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى تلاقي الأرواح في عالم الذّر قبل وصولها إلى الأجساد، على أن الأرواح خُلقت قبل خلق الأجساد. وربما كان إشارة إلى التشاكل في الخير والشر، وفي الطبع وفي المزاج وفي نمط التفكير والاهتمام، والحديث يُلهم أن الروح تشكل شخصية الفرد وتميزه عن غيره، وتضع جزءاً من هويته الخاصة به، وكذلك نفعل بالمجموع بالفريق وبالطائفة وبالشعب وبالأمة.

---

(١) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٥٠.
(٢) العودة، المرجع السابق، ص٥٠.
(٣) العودة، المرجع نفسه، ص٥١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والروح مُحدَثة بعد أن لم تكن، وباقية لا تفنى، والموت هو مفارقة الروح للبدن، ونحن حين نتخيل الموت انتقالاً للروح وتخلّياً عابراً عن الجسد نشعر بطمأنينة وتصالُح مع منعطف ينقلنا إلى الضفة الأخرى. حضرت الوفاة أعرابياً فلم يكترث وقال: إنما أنتقل من سلطان الله إلى سلطانه[١].

قد تتشكل الروح في عالم الغيب بصورة ما، كما في الصحيح أن أرواح الشهداء في الجنَّة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فقال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فأُخبرنا أن **أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل مُعلَّقة بالعرش، تسرح من الجنَّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: ربنا أي شيء نشتهي، ونحن نسرح في الجنَّة حيث شئنا؟**[٢]

الإنسان روح أولاً ثم جسد، والعناية بتحرير الروح وتساميها وعافيتها وإشراقها هو المقصد الأول للرسالات بالتوحيد والعبودية، والمقصد الأول للخلق والاستخلاف، وهو لايتعارض مع حقوق الجسد والمادة[٣].

ج- نفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها:

وردت كلمة الروح في القرآن الكريم بمعان كثيرة منها الوحي، ومنها الدلالة على سيدنا جبريل، ومنها الدلالة على القرآن الكريم وغيرها، ولكن بالنسبة لآدم فقد جاء النص القرآني مشيراً إلى أن الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه تعالى بكيفية

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة من حديث عبد الله بن مسعود رقم الحديث ١٨٨٧.

(٣) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٥٧.

لا ندريها، ولن نستطيع بلوغ معناها ولا كنهها، فيقول الله سبحانه عن بدء الخليقة مخاطباً الملائكة الذين طلب منهم السُّجود لآدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فكان توقيف السُّجود معلق على عملية نفخ الروح في هذا الجسد المخلوق من طين، **ويستفاد من هذا النص الآتي**:

ـ أن نفخ الروح هو الذي ترتب عليه سريان الحياة في الجسد المسوى من أديم الأرض.

ـ أن نفخ الروح كان في المرحلة النهائية بعد تسوية البدن واكتمال الجسد.

ـ أن هذه الروح من الله سبحانه، وأنها سرٌّ من أسراره لا يعلم حقيقتها أحد مطلقاً.

ـ أن استحقاق السُّجود والتكريم والرفعة لهذا المخلوق جاء بعد نفخ الروح، وقد تكون هذه الروح هي التي ارتفعت بهذا الجسد من الوصف بأنه طين وتراب وحمأ مسنون إلى أن يكون مخلوقاً مميزاً يستحق سجود الملائكة.

ـ أن اكتساب مهارات التعليم والمعرفة جاء بعد نفخ الروح في الجسد المُسوَّى من تراب الأرض.

ـ لا مجال مطلقاً للقول: بأن الإنسان متطور أو متحول من جنس آخر أو من فصيلة أخرى، كما ادعى داروين ومن سار على دربه، كما أن ما ذكره الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (**أبي آدم**) من أن الإنسان تطور من جنس آخر أطلق هو عليه لفظ البشر غير صحيح أيضاً.

ـ السياق واضح تمام الوضوح، فالله خلق آدم من تراب ومن طين فسواه، فعدله فأحسن تصويره، ثم نفخ فيه الروح فصار آدم أول مخلوق لجنس البشر وتوالت ذريته من بعده[١].

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٤٤.

د ـ استحالة معرفة حقيقة الروح :

هل يستطيع أحد أن يصف لنا الصدق : ما لونه؟ وما طعمه؟ وما ماهيته؟ وما حجمه؟ وما وزنه؟

إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن الصدق شيء لا لون له ولا طعم ولا وزن ، ولا حجم له ، ولا هيئة ، ولا تركيب . ومع ذلك فلا أحد يستطيع أن يُنكر أن للصدق قوة فاعلة لها أثرها في الحياة .

ولست أعني أثرها الاجتماعي حين يتخذها الناس دستوراً لأقوالهم وأعمالهم ، إنما أعني أثرها الخاص في نفس صاحبها باعتبارها قوة دافعة تجتاز السدود ، وتهدر كل اعتبار يعترض سبيلها ، أو يتعارض مع غاياتها وأهدافها ، فكم رأينا الصدق يَهدر اعتبار الصداقة والقرابة ، ويتخطى بصاحبه كل المواقع والعوائق المعنوية ليقول الحق ضد مصلحة صديقه أو ضد مصلحة ولده ، وكم رأيناه يجتاز بصاحبه كل اعتبار للمصلحة الخاصة ، ليقول الحق على نفسه ، وهو غير آسف على ما يفوته من نفع ولا وَجَلٍ مما يلحقه من أذى[(١)] .

وهذا يناقض المذهب المادي الذي يقول: تصرفات المرء لا تتأثر إلا بالعوامل المادية القائمة على ما ينبغي لنفسه من نفع اقتصادي دون دخل لأي اعتبار روحي يناقض مصلحته الخاصة . فالصدق إذا قوة كاملة في النفس لها أثرها الواقعي ، وهو مثلٌ نضربه للعوامل الروحية التي لها آثارها الملموسة في الحياة دون أن تُرى بالعين ، أو تلمس باليد أو تدرك بحاسة من الحواس ، فإذا تقرر هذا سهل علينا أن ندرك شعاعاً من أشعة معنى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] . ولا أقول إن الروح كالصدق ، أو أن الصدق كالروح ، إنما أقول : إنهما يلتقيان في أنه لكل منهما وجوده الواقعي الذي لا يُنكر ، دون أن يكون له مادة يتألف منها كيانه . وقد

---

(١) آدم عليه السَّلام ، البهي الخولي ، ص٤٠ .

نفخ الله سبحانه فينا سرّاً من روحه، فكان الصدق والأمانة والشجاعة ونحوها ثمرة من ثماره.

ومحاولة الكشف عن حقيقة الروح ضرب من المستحيل ما دامت حواسنا العادية هي سبيلنا الوحيد لما تحصل عليه عقولنا من علم ومعرفة، فقد استأثر الله تعالى بعلمه وحجب تلك الحواس. إذ ليس لنا من سبيل أو مصدر حق للحديث عنه إلا ما جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ وما صح عن رسول الله ﷺ، فإنا سنُعوِّل عليهما وحدهما في الحديث عن تلك الهبة الربانيَّة الجليلة وأثرها في حياة الإنسان وصلته بالكون الذي يحيا فيه ببدنه وفكره[١].

هـ ـ بيان الدلائل على خلق الأرواح:

أجمع الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبَّرة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم أفضل القرون على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة[٣]. ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

---

(١) آدم عليه السَّلام، البهي الخولي، مرجع سابق، ص٤٠.
(٢) الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٢٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٤.

لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] (١).

ومن الدلائل على خلق الله تعالى للأرواح:

ـ **قوله تعالى:** ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢]:

فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صفاته، فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال بعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته، داخل في مسمى اسمه ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة، كما لم تدخل ذاته فيها، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق. ومعلوم قطعاً أن الروح ليست من الله ولا صفة من صفاته، وإنما هي مصنوع من مصنوعاته، فوقع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس.

ـ قوله تعالى لزكريا عليه السَّلام: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩]؛ وهذا الخطاب لروحه وبدنه وليس لبدنه فقط، فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل، إنما الذي يَفهم ويَعقل ويُخاطَب الروحُ.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١]: وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور.

ـ الله سبحانه ربُّنا وربُّ آبائنا الأولين ورب كل شيء، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا، فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك، وكل مربوب مملوك فهو مخلوق.

---

(١) الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٢٤.

أول سورة في القرآن، وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه منها:

ـ أحدها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. والأرواح من جملة العالم فهو ربُّها.

ـ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالأرواح عابدة مستعينة، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعان بها.

ـ أنها فقيرة إلى هداية ربها فاطرها، و تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

ـ أن منها أرواح منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها وضالة شقية، وهذا شأن المملوك والمربوب لا شأن القديم غير المخلوق.

ـ تدلُّ النصوص على أن الإنسان عبد بجملته، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع، كما أنه تبع لها في الأحكام والعبودية، وهي التي تحركه وتستعمله.

ـ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان شيئاً مذكوراً، فإنَّه هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل:

ياخادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمته فأنت بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ[1]

ـ النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء: كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا: يا رسول الله جئناك لنتفقَّه في الدين، ونسألك عن أوّل هذا الأمر فقال: **كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُه، وكان عرشُه على الماء، وكتبَ في الذِّكر كلَّ شيءٍ**[2].

(١) الروح، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢٢٧.

(٢) ابن القيم، المرجع السابق، ص٢٢٨.

فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودُها وجودَه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه من الوجوه[(١)].

ـ النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد، تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه، فإذا كان المَلَكُ الذي ينفخ الروح في جسد ابن آدم مخلوقاً، فكيف تكون الروح الحادثة بنفخته قديمة؟

وهؤلاء المغالطون يظنون أن الملك يُرسِل الجنين بروح قديمة أزلية بنفخها فيه، كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه، وهذا ضلال وخطأ وإنما يرسل الله سبحانه الملك فينفخ فيه نفخة تُحدِثُ له الروح، وحدوثها له كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه، والغذاء سبب نموه، فمادة الروح من نفخة الملك، ومادة الجسم من صب الماء في الرحم، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية، فمن الناس مَن تَغلِبُ عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه[(٢)].

ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره عن النبي ﷺ: «**الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ فما تعارفَ منها ائتلفَ وما تناكَرَ منها اختلفَ**». والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة.

ـ أن الروح تُوصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي

(١) الروح، ابن القيم، ص٢٢٨.
(٢) الروح، ابن القيم، المرجع نفسه، ص٢٢٨.

مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، والأنفس ههُنا هي الأرواح قطعاً، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه قال: «سرنا مع رسول الله ﷺ في سفر ذات ليلة، فقلنا: يا رسول الله: لو عرَّستَ بنا، فقال: إني أخاف أن تناموا، فمن يُوقظنا للصلاة، فقال: يا رسول الله لو عرَّستَ بنا؟ فقال: **إني أخاف أن تناموا، فمن يوقظنا للصلاة؟** فقال بلال: أنا يا رسول الله، فعرَّسَ بالقوم فاضطجعوا، واستند بلال إلى راحلته، فغلبته عيناه، فاستيقظ رسول الله ﷺ، وقد طلع جانب الشمس، فقال يا بلال: **أين ما قلتَ لنا؟** فقال: والذي بعثك بالحق ما أُلقيت عليَّ نومة مثلُها، فقال رسول الله ﷺ: **إن الله قبضَ أرواحَكُم حينَ شاءَ ورَدَّها حينَ شاءَ**»[(١)].

فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها، وهي التي يتوفاها ملك الموت، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه، وهي التي يجلس ملكٌ عند رأس صاحبها ويُخرجها من بدنه كرهاً، ويُكفِّنُها بكفن من الجنَّة أو النار، ويصعد بها إلى السماء فتصلي عليها الملائكة أو تلعنُها، ويقف بها بين يدي ربها فيقضي فيها أمره، ثم تُعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه، فيُسأل ويُمتحَنُ، ويُعاقب ويُنعَّمُ، وهي التي تُجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنَّة، وهي التي تُعرض على النار غدوّاً وعشيّاً، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصي، وهي الأمارة بالسوء، وهي اللوامة، وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره.

وهي التي تُعذّب وتنعّم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل، وتصح وتسقم، وتلذ وتتألم، وتخاف وتحزن، وما ذاك إلا سمات مخلوق مُبدَع، وصفات مُنشأ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب الأذان بعد ذهاب الوقت، رقم الحديث: ٥٩٥. انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

مُختَرَع وأحكام مربوب مدبَّر مصرَّف بمشيئة خالقه وفاطره وبارئه(١) .

وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه : «**اللهمَّ أنتَ خلقتَ نَفسي وأنتَ تَتوفَّاها ، لكَ مماتُها ومَحياها ، فإنْ أمسكتَها فارحمْها وإنْ أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصَّالحين**»(٢) . وهو تعالى بارئ النفس كما هو بارئ الأجساد قال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] .

قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس ، وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ولو قيل : يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه(٣) .

قال تعالى : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥] . وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغَناء التام لله وحده لايشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى ذلك بقوله : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧] ، أي فلولا أن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازَين بأعمالكم تَردُّونَ الأرواحَ إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع ، أوَلا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مَجزيَّة بعملها(٤) .

---

(١) الروح ، ابن القيم ، المرجع السابق ، ص٢٢٩

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، ٢٧١٢ ، باب الذكر والدعاء من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) الروح ، ابن القيم ، مرجع سابق ، ص٢٢٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص٢٣٠ .

و ـ بيان معنى الروح في القرآن على عدة أوجه: والروح في القرآن على عدة أوجه منها:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] وسُمِّي الوحيُ روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الثالث: جبريل عليه السَّلام كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأُجيبوا أنها من أمر الله، وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

الخامس: المسيح ابن مريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن الكريم إلا بالنفس:

ـ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧].

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

ـ وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ـ وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨].

ـ وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وأما في السنة، فجاءت بلفظ النفس والروح[١]. وتحدث ابن القيم في مباحث متعلقة بالنفس والروح، وهل هما شيء واحد أم شيئان متغايران؟، وذكر وجهَ تسميةِ الروح والنفس والفرق بينهما، وذكرَ خلاف العلماء في هذه المسائل، ثم قال: أما الروح التي تُتوفَّى وتُقبض فهي روح واحدة وهي النفس.

وأما ما يؤيد الله به أولياءَه من الروح، فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]. وكذلك الروح التي يُلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن، فإنها تُسمَّى أيضاً أرواحاً، فيُقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشامُّ، فهذه الأرواح قوى مُودعةٌ في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى، ويُطلَقُ الروح على أخصُّ من هذا كله، وهو قوة المعرفة بالله عزَّ وجلَّ والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يُؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس: فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة

(١) ابن القيم، المرجع السابق، ص٢٣٦.

والإنابة روح، وللتوكل والصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيّاً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيّاً بهيميّاً، والله المستعان(١).

٤ ـ أول قول لآدم عليه السَّلام وأوّل فعل له:

حين نفخ اللهُ الروحَ في آدم صار خلقاً آخر، يختلف عن الحال التي كان عليها، إذ كان جماداً من الجمادات، ثم صار إنساناً يعقل وينطق، بل ويتلقى الأوامر والتوجيهات من رب العالمين، وهكذا حال ذريته بتحول الجنين في بطن أمه من حال إلى حال، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوّة بلحم، وهو في تلك الأطوار جثة لا روح فيها إلى أن يُنفخ فيه الروح، فيصير بذلك خلقاً يختلف عن الأول وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ يعني نفخ الروح فيه(٢)، فصار بذلك خلقاً آخر ذا عقل وسمع وبصر وحركة، قال رسول الله ﷺ: «**لمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ، ونفخَ فيه الروحَ عطسَ، فقال: الحمدُ لله، فحَمِدَ اللهَ بإذنِه، فقالَ له ربُّه: يَرحَمُكَ اللهُ يا آدمُ**»(٣).

وبدأت حياة أبينا آدم بعطسة، بدءٌ عجيب مثير، يتناسب مع الواحد من أبنائه، حيث يبدأ حياته عند ولادته بصرخة، وسبحان الله الحكيم. وأمر مقصود أن يلهم الله آدم حمده عندما عطس، وبذلك كانت أول كلمة نطق بها آدم ذكراً لله سبحانه، أي افتتح تاريخ البشرية بأول كلمة نطق بها آدم عليه السَّلام، فكانت

---

(١) ابن القيم، المرجع السابق، ص٣١٧.
(٢) قصة آدم عليه السَّلام، أبو بكر، ص٣٨.
(٣) أخرجه الترمذي في صحيحه، رقم ٨٤٧٨. وانظر: ابن خزيمة في التوحيد، ١/ ١٦٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذكراً وحمداً منه لله رب العالمين، وهذه بداية إيمانية مقصودة أرادها الله الحكيم سبحانه.

وأخبرنا رسول الله ﷺ أن نفخ الروح في آدم كان في يوم الجمعة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**خيرُ يومٍ طلعتْ فيه الشمس يومُ الجمعةِ، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه أُدخلَ الجنَّةَ، وفيه أُخرجَ منها**»[(١)]، وهذا الحديث يدلُّ على فضل يوم الجمعة، باعتباره أفضل أيام الأسبوع، وهو خير يوم طلعت فيه الشمس[(٢)].

أول ما لفظ آدم الحمد، الحمد على الروح وعلى الحياة، وعلى التكريم وعلى الإنسانية وعلى المعرفة والتعليم. وليس مصادفة أن تكون الرحمة أول خطاب من الله لآدم يرحمك الله، وقوله سبحانه يرحمك الله ليس دعاء كما قد يَتوهَّم البعضُ، هو خبرٌ وحكم وقرار، واسم «الرحمن الرحيم» أكثر الأسماء الحسنى تردُّداً في نصوص الشريعة بعد اسم الله، وهما مكرران في سورة الفاتحة، ومن أكثر الأسماء تردداً على ألسنة الخلق، فكلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» وتحية «السَّلام عليكم ورحمة الله» عبارتان واسعتا الاستخدام كثيراً في الحياة الإسلامية[(٣)].

والشعور بالرحمة الإلهية يُولّد الحب، والحب أعظم ما عبد الله به، وحين تحب فسوف تخاف، تخاف من الفقد والبعد والحرمان، وحين تحب فسوف تستحي، وحيث تحب فسوف تُسرع بالرجوع كلما نأى بك الطريق[(٤)]. فآدم رحمة من الله، وهو مرحوم منه، وحياته تخلَّلتها رحمة الله سبحانه وتعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٨٥٤، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٥٩.
(٣) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٣٥.
(٤) العودة، المرجع السابق، ص٢٣٦.

﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ ومنها آدم وبنوه. ولما صار آدم مخلوقاً جديداً في هذه المنظومة كان بحاجة إلى التواصل مع من حوله من الملائكة والجن وغيرهم من المخلوقات الأخرى، فكان لا بدَّ من تعليم أدوات التواصل مع الآخرين قبل أي شيء آخر(١).

روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خَلقَ اللهُ آدمَ وطولُه ستونَ ذراعاً، ثم قال: اذهبْ فسَلِّمْ على أولئكَ من الملائكةِ فاستَمِعْ ما يُحيُّونَكَ، فإنها تحيَّتُكَ وتحيَّةُ ذُرِّيتكَ فقال: السَّلام عليكُم، فقالوا: السَّلام عليكَ ورحمةُ اللهِ، فزادُوهُ ورحمةُ الله، فكلُّ مَن يَدخل الجنَّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يزلِ الخَلقُ يَنقُصُ حتَّى الآنَ**»(٢). فهذا الحديث يدلُّ على أمور مهمة منها:

ـ أهمية السَّلام، باعتباره الوسيلة الوحيدة للتواصل بين المخلوقات المكلَّفة، ولهذا اقترنت مشروعيته بخلق آدم إيذاناً من الله تعالى ببداية تكليف آدم عليه السَّلام بالأخذ بهذه التشريعات تحقيقاً للعبودية التي من أجلها خُلق آدم عليه السَّلام.

ـ أن السَّلام هو التحية الوحيدة المشروعة للتواصل بين بني آدم من زمن أبينا آدم إلى قيام الساعة، وفي جميع الأديان، وذلك في دليل قوله تعالى لآدم عليه السَّلام في الحديث الشريف: فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك، وهو كذلك تحية أهل الجنَّة في الجنَّة.

أفكيف بعد هذا بأمة خصها الله بأعظم كتاب أُنزل إلى الأرض أن تُقلِّد غيرها من الأمم الكافرة في أخصِّ خصوصياتها السَّلام الذي هو اسم من أسماء الله،

---

(١) قصةآدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٣٨

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث ٦٢٢٧ كتاب الاستئذان، باب بدء السَّلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وشعارها الذي يُميِّزها عن غيرها من أمم الأرض.

ولم تعرف الأمة الإسلامية تحية غير تحية الإسلام حتى سقطت معظم البلدان تحت قبضة الاحتلال الصليبي، فتحوَّل السَّلام في نظر المهزومين نفسيّاً رمزاً للتخلُّف والرجعية، واستمر الوضع على هذا إلى أن انتشرت هذه الصحوة المباركة في ربوع البلدان الإسلامية؛ فأعادت بحمد الله إلى الإسلام مكانته وأحيته من جديد امتثالاً لقول نبينا ﷺ: «**أفشوا السَّلام بينكم**»[(١)].

ـ إن آدم عليه السَّلام كغيره من الأنبياء أعطاه الله القدرة على رؤية الملائكة لأن الله لم يقل له: اذهب إلى أولئك الملائكة، إلا وهو يراهم ويشاهدهم وهم على صورتهم الأصلية.

ـ إن زيادة الملائكة على لفظ آدم في السَّلام بلفظ «ورحمة الله» دليل على أن هذا السَّلام كان معروفاً لدى الملائكة قبل آدم عليه السَّلام ومعمول به فيما بينهم.

والسَّلام الكامل: «السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وهو مبذول لكل أحد بدءاً وردّاً، ومثله البر والإقساط والإحسان لمن لم يتورَّط في حرب أو عدوان[(٢)].

٥ ـ بشرية صورة آدم وطوله وجماله:

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمعْ ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال السَّلام عليكم فقالوا: وعليكم السَّلام ورحمة الله، فزادوه «ورحمة الله»، فكل من يدخل الجنَّة على صورة آدم في**

(١) قصة آدم، أبو بكر، مرجع سابق، ص٣٩.
(٢) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٢٣٨.

طوله، ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق بعده ينقص حتى الآن» [(١)].

أ ـ معنى حديث خلق الله آدم على صورته:

إن هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ يُقدِّم لنا معلومات في غاية الأهمية، فيما يتعلَّق بأبينا آدم عليه السَّلام، وبقصة بدء الخلق، إن الهاء في «على صورته» تعود إلى آدم عليه السَّلام وهو أقرب مذكور قبلها «خلق الله آدم على صورته». والمراد بصورته صورته التي أهبطها الله عليها إلى الأرض وعاشها على الأرض ورآها أولاده، وهي صورته البشرية وجسمه الآدمي بأعضائه وأجهزته، وهي أعضاء وأجهزة جسم كل منا، أي أن آدم عليه السَّلام خلق في الجنَّة وعاش فيها مدة من الزمان، وكان في الجنَّة على الصورة والجسم والأعضاء والأجهزة نفسها التي رآها أولاده [(٢)].

إن الصورة التي رآها عليه أولاده على الأرض، والتي خلق الله عليها ذريته جميعاً من البشر، هي الصورة نفسها التي خلقها الله عليها في الجنَّة، وهي الصورة البشرية المعروفة، ومما يؤكد معنى هذا الحديث تأكيد القرآن على بشرية آدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨]. والآدمي هو كل إنسان من الناس، وآدم عليه السَّلام هو أبو البشر وأولهم، والبشر مشتق من البشرة وهو ظاهر جسم الإنسان [(٣)].

ب ـ طول آدم ستون ذراعاً:

يخبرنا هذا الحديث الصحيح أن آدم عليه السَّلام كان أطول منا قامة، فالله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم، ٣٣٢٦، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٦١.

(٣) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٦٢.

جعل طوله ستين ذراعاً، وهو ما يزيد على أربعين متراً، وهذا ارتفاع شاهق، إن قامات الناس أقل من مترين وشذّ من يزيد طوله على مترين عدة سنتمترات، إن آدم عليه السَّلام كان أطول منا بحوالي ثلاثين ضعفاً وهذا أمر عجيب، لكنه ليس مستحيلاً لأن الله تعالى أراد ذلك. والأساس هو صحة الحديث، وبما أن الحديث في الصحيحين فهو صحيح، ويجب علينا الأخذ به ولا يجوز إنكاره.

وإن اللطيف هو مَنْ يُعيد للمؤمنين طول أبيهم آدم عليه السَّلام في الجنَّة، فكل واحد منهم يدخل الجنَّة وطوله ستون ذراعاً، فليس في الجنَّة طويل أو قصير لأنهم جميعاً على مقاس واحد لئلا يقع بينهم تحاسُد أو تباغُض أو غَيرةٌ، والجنَّة منزهة عن هذه النقائص، فقد قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فكل من يدخل الجنَّة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن**»[١]. وقد أخبر الرسول ﷺ في الحديث السابق أنه ما زال الخلق يتناقص عن آدم بعد ذلك، وما زال أبناء آدم عليه السَّلام يقصرون وطولهم يتناقص حتى صار متوسط طول البشر في زماننا حوالي مائة وسبعين سنتمتراً.

إن هذا الحديث الصحيح يُقرر عكس نظرية داروين في النشوء والارتقاء[٢]، والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً بإذن الله. فالحديث يُقرر أن الله هو الذي خلق آدم، وأنه خلقه بشراً سويّاً من أول لحظة في حياته التي عاشها في الجنَّة، وأنه كان طوله ستين ذراعاً، وأن أولاده مازالوا يتناقصون طولًا وعمراً[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم عليه السَّلام وذريته، رقم الحديث ٣١٤٨.
(٢) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص٦٣.
(٣) الخالدي، المرجع السابق، ص٦٤.

ج ـ جمال آدم وحسن صورته وإتقان خلقه:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤]، ونستطيع أن ندرك من الآيات الكريمة عن خلق الإنسان وتصويره، أنَّ آدم كان في صورته وشكله وكماله في أجل صورة من صور الجمال والكمال والوجاهة والحسن والبهاء، قال تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨]، فآدم عليه السَّلام:

ـ هو من صُنع يدي الله، وكلنا من خلق الله عزَّ وجلَّ، ولكن آدم تميَّز عنا بأنه الصنعة المباشرة التي عملت فيه يد الله. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

ـ هو المُتمتِّع الأول بنفخة روح الله فيه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢].

ـ هو الذي قال الله عنه أنه خلقه في أحسن تقويم.

ـ هذا أحد ذرية آدم قد أُعطي نصف الحسن الموجود وجمال الطلعة وكمال الخلق، ففي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيَ يوسفُ عليه السَّلام شطرَ الحُسْنِ**» (١).

وقد حكى القرآن أيضاً عن جمال يوسف أن النسوة التي جمعتهن امرأة العزيز

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٤٩. وانظر: الحديث في مسند الإمام أحمد.

ليرين يوسف قُلنَ عنه: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. إذن، فآدم عليه السَّلام كان من الحسن والجمال والكمال والشكل والصورة ما يفوق ابنه يوسف، فجينيات وموروثات صفاته كانت بالطبع منقولة من الأب والأصل آدم.

ومن ذرية آدم كذلك مَن وُصف بأكمل الصفات والميزات فوُصف بأنه على خلق عظيم، وبأنه النور وبأنه السراج المنير، وبأنه رؤوف رحيم، وبأنه خير ولد آدم، وأنه أول شافع، وأول مُشفَّع، وأول من يطرق حَلَقَ باب الجنَّة فتُفتح له، وهو نبينا محمد ﷺ بكل جماله الحسي والمعنوي، وصفاته الكريمة، ومناقبه العظيمة، فرع من آدم عليه السَّلام وذرية من نسله، إذن فكل جمال وكمال يُوصف به النبي ﷺ لأبيه آدم منه حظ ونصيب.

فالمخلوق الأول آدم عليه السَّلام من المؤكد أنه كان مخلوقاً تام الحسن والجمال مكتمل الصفات لا عيب فيه ولا تَشوه ولا أمراض ولا عوارض أخرى تكتنفه، كما ستُسلَّط بعد ذلك على ذُرِّيته فتنقص من جمالهم وكمال أوصافهم.

وآدم عليه السَّلام كان جماله كما وصفه رسول الله ﷺ كالقمر ليلة البدر جمالاً وإشراقاً وبهاءً ونوراً، فقد قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تدخل الجنَّة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على ضوء أشدِّ كوكبٍ دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يتمخَّطون ولا يتفُلون، أمشاطهم الذهب ورشحُهم المسك، ومجامرهم الألوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقُهم على خُلُق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً**»(١).

---

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، مرجع سابق، ص٥٠. الحديث في سنن ابن ماجه، رقم ٣٥١٣.

إن عناية الله بأمرِ آدم عليه السَّلام، تشير بأن له شأناً عظيماً عند الله جل في علاه، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وإذا كان هذا الشرح بديهيّاً للمسلم الذي يتلو كلام ربه، فإنَّه من الأهمية بمكان لغير المسلم، ولمجادلة المكذِّبين والمدَّعين الذين يدَّعون نظريات شتى عن خلق الإنسان، ففي هذه الآية بيانٌ ورَدٌّ على كل من ادَّعى أن الإنسان متطور من حيوان أدنى منه مرتبة، وأنه مر بمراحل من الخلق أدنى من المستوى الذي هو عليه الآن.

فالآية نص صريح قاطع أن بداية خلق الإنسان وإيجاده من العدم كانت ابتداء في غاية الدقة وروعة الصنعة، وأنه خُلق خلقاً أوليّاً في أحسن صورة وأتم خلقة، فصيغة التفضيل أحسن تثبت أن الإنسان الأول آدم خُلق في أفضل صورة ممكنة. وكلمة «تقويم» يندرج تحتها معاني لا حصر لها في اكتمال خلقة الإنسان عضويّاً ونفسيّاً وفكريّاً[١]. وتفتح المجال واسعاً للباحثين الجادِّين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

٦ ـ زوجة آدم عليه السَّلام وأبوته:

أ ـ زوجة آدم عليه السَّلام وأمنا حواء:

تحدثنا عن أمنا العزيزة حواء في تفسير سورة البقرة بشكل مفصل، وذكرنا أقوال العلماء في خَلق الله عزَّ وجلَّ لأمنا حواء، ومِلت إلى رأي الشيخ محمد

(١) آدم وحواء أسرار وحقائق، عبد الباقي، المرجع نفسه، ص٥١.

متولي الشعراوي والدكتور صلاح الخالدي، وقد ذكر الدكتور الحاج محمد وصفي أن القصة توحي بأن الله خلق زوج آدم من العناصر والمكونات نفسها التي خلق الله منها آدم عليه السَّلام، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦].

فزوج آدم خُلقت من العناصر نفسها التي خلق منها آدم، وأن نفسها نفس إنسانية، فهي من الجنس البشري، وليست من جنس الملائكة أو الجن أو الحيوانات. فالله خلق زوج آدم من نوع آدم نفسه، كما خلق لنا من أنفسنا أزواجاً، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وليس معنى هذا أن الله خلق من ضلوعنا أزواجاً، ومثل ما تقدم في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أي: من الجنس البشري من بني آدم وليس من جنس الملائكة[١]، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥].

وأما الحديث الذي جاء فيه: «**استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تُقيمه كسرتَه، وإن تركته لم يزل أعوجَ،**

---

(١) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والمرسلين، محمد وصفي، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٢٤.

فاستوصوا بالنساء خيراً»[١]، فإنما يدلُّ على معنى مجازي وهو أن المرأة قد خُلقت أنثى لها صفاتها الخلقية والعقلية والنفسية الخاصة بأنوثتها، والتي قد يعتبرها البعض شذوذاً فيها أو انحرافاً، إذا حاول مقارنتها بالصفات المميزة للرجولة، فإذا حاول أن يقيم ما يتوهَّمه فيها من اعوجاج فقدَها، وفقد ما يحتاج إليه من عاطفة ورقة وضعف وغير ذلك من مميزات المرأة الطبيعية، فهي كالضلع الذي وضعه الله على صورة خاصة في القفص الصدري، فإذا حاول المرء أن يقيم ضلعه أفقده وظيفته، وكان هذا وبالاً عليه فقد خلقه الله ملائماً للقوام الجسماني وللوظائف العضوية الفسيولوجية في البدن[٢].

ب ـ أبوة آدم عليه السَّلام:

آدم وحواء كانا بلا أب ولا أم، بل هما أبوا البشرية جمعاء، وإن أبوهما الطين والتراب والأرض، ولو وَضع آدمُ شجرته التاريخية، لكانت:

- الماء/ التُّراب.
- الطين.
- الطين اللازب.
- الحمأ المسنون.
- الصلصال.
- نفخ الروح.

لم ينظر آدم إلى الوراء ليبحث عن شجرة نسبه، نظر إلى الأمام ليضع امتداده العظيم بزواجه وإنجابه، وأفلح في بناء أسرته العريقة الواسعة الباسقة، بمقدورنا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث ٣١١٦، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء.
(٢) الارتباط الزمني والعقائدي، الوصفي، مرجع سابق، ص٢٥.

أن نصنع الشيء ذاته. انظر أمامك واصنع نفسك وشجرتك بنفسك، تزوَّجْ أنجِبْ فهذه أسرتك وهذا نسبك، واضرب في الأرض لن تُسأل عن غيرك، ولن يُسأل عنك غيرُك.

كنِ ابن من شِئتَ واكتسِبْ أدباً ... يُغنيكَ مَحمودُه عَنِ النَّسبِ

إنَّ الفتى مَن يقولُ هاأنذا ... ليس الفتى مَن يقولُ كانَ أبي

آدم هو الأب وليس له أب، لم يكن قلقاً أو مكتئباً لأنه بلا أب، ولا حزيناً لأنه الرجل رقم واحد في أسرته، هكذا أنت فكن. لم تعرف والديك ولم ترهم لسبب ما، وفاة، وضع غامض، خلاف عائلي عميق أنت ضحيته، حروب، حالات لجوء، سرقة، اختطاف، اتِّجار بالبشر، الأسباب متنوعة والمؤدى واحد أنك أعزل لا تنتمي لأسرة معروفة، أجدادك القدماء معروفون وهم بلا أبوين، ولذا سلموا من فساد الطباع الذي كثيراً ما ينتقل بالجينات من الآباء إلى الأبناء، وسلموا من سوء التربية وتأثير البشرية المحيطة.

ـ الأبوّةُ أحياناً تُقيّدُ الفكر، وتجعل الابن على مسار والديه طوعاً أو كرهاً، وتُحجِّم فُرَصَ الاختيار الحرّ الرشيد، ومثله كما قال الله تعالى على لسان أمثاله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢].

ـ آدم بكل مرجعية طبيعية تمكَّن من الانفكاك عن سلطة الآباء والأجداد والبيئة السابقة غير الرشيدة. وقصة آدم ليست تشريعاً كلها ولكنها أساس لفهم الواقع والإنسان والملكات والمواهب والإبداع والفطرة.

ـ القرآن يخاطبنا بـ «يا بني آدم» تذكيراً بالأصل، وتحقيقاً للمساواة الأولية، فهل نستشعر أننا أبناء آدم حقّاً؟ وهل نعي معنى كوننا أبناء نبي؟ كان أبونا في منتهى الجمال جسداً وروحاً.

بالنتيجة نفسها جدتك حواء كانت بلا أب ولا أم، تخيَّلي عندما تعرض لها مشكلة أو يطرأ سؤال أو هَمٌّ أو ألم لمن كانت تشكو وتنوح؟

تلك الوردة الأولى النابتة في الطين ومن الطين، تنفتح للحياة والحب والأمل، وتحمل وتنجب وتنفث عطرها الجميل، كانت تعرف ربها السميع الرحيم القدير العليم الحكيم، وتعرف زوجها الحنون وتنشغل بحياتها وذريتها وتدبير معيشتها[(١)].

ـ نوح عليه السَّلام كان أباً ثانياً للبشرية لأن الطوفان عمَّ الأرض، وقد ذكر تعالى قصة ابنه الذي غرق. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦]. تأكيداً على مبدأ مسؤولية الإنسان عن ذاته وانفكاك الابن عن أبيه والأب عن ابنه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الانفطار: ١٩].

ـ عيسى عليه السَّلام بلا أب، وقد ملأ الدنيا ذكراً وحبّاً وسلاماً، وقصة آدم عليه السَّلام مرجع في تفسير ما أشكل في شأن عيسى، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فأراد الله أن ينفي كون عيسى إلهاً أو ابناً للإله تعالى الله.

ـ فَضّل الله عيسى بالنبوة والرسالة، ورفعه إليه في السماوت العُلا، وكان آية للعالمين، وقلّما يرد ذكره في القرآن إلا مقروناً باسم والدته قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦][(٢)].

ـ إن لم يكن لديك أب فلكَ ربٌّ، وكم من مربّ أو مربية قاموا مقام الوالد، ورب أخٍ لك لم تلده أمك.

(١) علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٣٨.
(٢) علمني أبي، العودة، المرجع السابق، ص٣٩.

إن يُكْـدِ مُطَّـرَفُ الإخـاءِ فـإنَّنـا نغـدُو ونَسـري فـي إخـاءٍ تـالِـد
أو يختلـفْ مـاءُ الـوِصـالِ فمـاؤُنـا عـذبٌ تحـدَّرَ مِـن غَمـامٍ واحـدِ
أو يَفتـرِقْ نَسَـبٌ يُـؤلِّـفْ بَيننـا أدبٌ أقمنـاهُ مُقـامَ الـوالِـدِ(١)

ج ـ ذرية آدم عليه السَّلام :

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق آدم من تراب إلى أن أصبح إنساناً كاملاً، يتناسل ويتكاثر بالتزاوج، يحمل شيئاً من السر الإلهي في الخلق وهي الروح، وذلك دليل على قدرته تعالى التي يجب على الإنسان أن يستشعرها في حياته، فيشكر الله على نعمه الكثيرة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤]. فهو القادر سبحانه على أن يهب الذكور لمن يشاء من خلقه، ويهب الإناث لمن شاء منهم، ويهب الذكور والإناث لمن شاء، ويجعل من يشاء عقيماً(٢).

قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، فهي قدرة الله وعلمه بعلل الأشياء، يعلم الله تعالى لماذا وهب هؤلاء ذكوراً، وأولئك إناثاً، وغيرهم ذكوراً وإناثاً، كما يعلم أن ما يناسب غيرهم من الناس ألا ينجبوا إناثاً ولا ذكوراً، وهي قدرته التي تنفذ ما سبق في علمه(٣).

أتقن الله تعالى خلق آدم عليه السَّلام من تراب ثم جعل ذريته من تكاثر وتزاوج، فما أعظم حكمة الله تعالى في ذلك، وجعل الله في الإنسان السمع

---

(١) العودة، المرجع نفسه، ص٥٠. والشعر قاله أبو تمام وهو يصف عمق العلاقة الأدبية مع علي بن الجهم.
(٢) التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، شركة دار البيروني، ط١، ٢٠١٧م، ص١٩٤.
(٣) داود، المرجع نفسه، ص١٩٤.

والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. تسمع وترى وتعقل، فالسمع أقواها وأحدّها، ثم البصر، وما ينقله السمع ينقله البصر من مفردات، فيذهبان به إلى الفؤاد ليحلل ما سُمعَ وما رُئي، ثم يُصدر الأوامر بحسب ذلك، فعلى الإنسان أن يبادر إلى شكر الله بالقيام بالعمل الصالح، وتجنُّب العمل الفاسد، ويجب علينا شكر الله على خلقنا وإيجادنا[١].

٧ ـ مرحلة خلق الإنسان في الرحم:

ذكر الله في القرآن الكريم المرحلة الأولى من خلق الإنسان الأول عليه السَّلام، وكان ذكره لهذه المرحلة بما يناسبها من حجم وأهمية، ولما جاء الحديث عن مرحلة الرحم، بيَّنت الآيات القرآنية هذه المرحلة بكل خطواتها بكل دقة وعلمية وبألفاظ بسيطة سهلة، سهلة التناول والفهم، حيث يقول الطبيب الفرنسي بوكاي في هذا المقام: «إنَّ القرآن الكريم يُعدِّد مراحل الخلق بدقة وتحديد دون أن تكون في قراءتها أي مقولة مشوبة بالخطأ، إنه يعبر عن ذلك بعبارات بسيطة، يسهل على فهم الإنسان إدراكها، وتتفق تماماً مع ما سيكتشف بعد ذلك بكثير، وإن مقولات القرآن عن التناسل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات السنين»[٢].

لذا نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه المرحلة فجعلها في أربع خطوات أساسية، وهي خطوة النطفة، وخطوة القرار، وخطوة العلقة، وأخيراً خطوة المضغة والعظام والكسي باللحم والإنشاء خلقاً آخر، فالخطوة الأولى والثانية

---

(١) التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، المرجع السابق، ص١٩٥.
(٢) العلم بين التوراة والإنجيل والقرآن، موريس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، بتصرف.

والثالثة ذكرت بالقرآن منفردة كما ذكرت من غيرها من الخطوات، وأما الخطوة الرابعة التي ضمت تغيرات معينة فقد ذُكرت مجموعة في القرآن الكريم، حيث جعلها القرآن الكريم خطوة واحدة وفيما يلي نتناول الخطوات تباعاً[١]:

أ ـ الخطوة الأولى: النطفة:

وهي من أكثر الخطوات ذِكراً ووصفاً في القرآن الكريم، ومجمل ما وصفها القرآن الكريم خمس صفات:

نطفة، تُمنى، أمشاج، محل تكوينها في الصلب والترائب، محلّ التخزين مُستقَرّ ومُستودَع[٢].

والنطفة: الماء الصافي قليلاً كان أو كثيراً، فمن القليل نطفة الإنسان[٣]، والنطفة التي خُلق منها الإنسان ليست قاصرة على نوع واحد، بل هي ثلاثة أنواع كل نوع يُسمَّى نطفة وإن اختلفت إطلاقاته.

فالنوع الأول: النطفة المذكّرة: هي الحيوانات المنوية الموجودة في المنيِّ، والتي تُفرزها الخصية.

النوع الثاني: النطفة المؤنثة: هي البيضة التي يفرزها المبيض مرة في الشهر.

النوع الثالث: النطفة الأمشاج[٤]: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة أي «البويضة الملقحة»[٥].

فهذه الأنواع الثلاثة للنطفة تشير إلى أن الله يخلق الجنين من نطفة الرجل

---

(١) التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص١٩٧.
(٢) داود، المرجع نفسه، ص١٩٧.
(٣) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء صالح البحر، ص١٢٠.
(٤) رجاء الصالح، المرجع السابق، ص١٢٠.
(٥) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، ص١٠٧.

ونطفة المرأة، كما قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٩] [١].

ـ تعدد إطلاقات بداية خلق الإنسان:

تذكر آيات خلق الإنسان أن أولى مراحل خلق الإنسان النطفة كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٣]، ومرة أخرى يذكر سبحانه الماء الدافق في قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٦].

وبعد معرفة هذه الإطلاقات يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو لماذا اختلفت إطلاقات بداية خلق الإنسان؟

أقول والله أعلم بالصواب: إن تعدد الإطلاقات على بداية خلق الإنسان فيه إشارة معجزة إلى بيان أصل كل جزء خلق الله منه الإنسان[٢]. فقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: ٨]، فهنا يذكر أنه خلق الإنسانَ من سلالة، والسلالة: هي خلاصةٌ سُلّت من بين الكد[٣]، وقيل: وسلالة الشيء ما استُلَّ منه، والنطفة سلالة الإنسان[٤].

فالسلالة هي جزء من الماء البشري، ثم حدَّد سبحانه هذا الجزء وبينه لنا فسماه النطفة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧]. ولم يدرك البشر هذه الحقيقة المعجزة في خلق الإنسان إلا بعد مضي وقت طويل تطورت فيه العلوم الطبيعية، وأدرك الأطباء هذه الحقيقة[٥].

ويقول الدكتور محمد البار: إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة والمني،

---

(١) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢١.
(٢) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢١.
(٣) الكليات، ص٥١٩. وانظر: تنوع خطاب القرآن، ص١٢٢.
(٤) مختار الصحاح، الرازي، مرجع سابق، ص٣١٠.
(٥) تنوع الخطاب القرآني في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٣٢.

فجعل النطفة جزءاً من المني، ونحن نعلم الآن أن جزءاً يسيراً جداً من المني هو الذي يخلق الله منه الولد، فالدفقة الواحدة من المني تحمل مائتي مليون حيوان منوي، والذي يلقح البويضة هو حيوان منوي واحد فقط[(١)]. ولقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري يقول: سُئل رسول الله ﷺ عن العزل! فقال: «**ما مِن كُلِّ الماءِ يكونُ الولدُ، وإذا أرادَ اللهُ خلقَ شيءٍ لم يَمنَعْهُ شَيءٌ**»[(٢)].

وكما بيَّن سبحانه أن من النطفة التي هي جزء من أجزاء الماء البشري يخلق الزوجين الذكر والأنثى، فقد خصَّص سبحانه أيَّ النطف التي تُحدِّد جنس الكائن الإنساني فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦].

ويقول الدكتور محمد البار في الإشارة العلمية التي احتوتها الآية: ولم تكتف الآية الكريمة بذلك، بل إنها قالت إن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التي تُمنى، حيث يقول سبحانه في الآية الكريمة نفسها فجعل منه أي المنيِّ، الزوجين الذكر والأنثى، كما يقول في الآية الكريمة في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦].

إذن، الذكورة والأنوثة في الجنين يحدِّدها الحيوان المنوي الذي تختاره القدرة الإلهية المبدعة، فإذا أراد الله إيجاد ولد ذكر لقح البويضة حيوان منوي يحمل شارة الذكور، وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة هو الذي يلقح بويضة المرأة[(٣)]. ووصفه سبحانه بأنه ماء مهين

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب النكاح باب حكم العزل، رقم الحديث ١٤٣٨.

(٣) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص١١١.

كما قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴾ [السجدة: ٨]، مهين: حقير[١]، وهو ليس حقيراً في ذاته، ولكن لعدم إدراك الإنسان لهذا الماء وما يحتويه فهو يُريقه دون إدراك لعجيب ما خلق الله فيه من أصل الكائن البشري[٢].

يقول الدكتور محمد البار: وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه ماء مهين، لأنه يُراق ويُسفح ويُهان ولا يُكرم ولا يَنتبه له أحد[٣]. وذكر سبحانه أنه خلق الإنسان من ماء دافق كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٦]. وقد وصفه سبحانه بأنه ماء دافق، والدافق السائل بسرعة[٤]، والدَّفق: الصَّبُّ، دفقَ الماءَ يدفَقُه، ويدفُقه: فهو ماء دافق أي مَدفوق[٥].

إذن فالآية تشير إلى أن هذا الماء له حرية الحركة والتدفق، ولكن ماهو سبب تدفُّقه؟ يقول د. محمد البار في سبب تدفق هذا الماء: وسبب تدفُّقه تقلُّصاتٌ في جدار الحويصلة المنوية مع تقلُّصات القناة القاذفة للمني، وتقلُّصات عضلات العجان[٦]. فكلمة دافق: كلمة موجزة معجزة لما تحمله من تعبيرات ومعان تُرشد العاقل إلى عظمة مَن تكلَّم بهذا الكلام المعجز. وبعد هذه الآية ذكر لنا سبحانه أماكن تدفُّق هذا الماء فقال تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٦ ـ ٧].

الصلب والترائب: قبل أن نعرض لكيفية تدفق الماء البشري من بين الصلب والترائب نُعرِّف كلاًّ من الصلب والترائب:

---

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، مرجع سابق، ص٦٣٨.
(٢) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢٣.
(٣) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص١١٢.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار القلم ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، ط٤، ص٣١٦.
(٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ٢/ ٦٠٤.
(٦) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، مرجع سابق، ص١١٢.

ـ الصلب:

يقول الراغب الأصفهاني في معنى الصلب، الصُّلب: الشديد، وباعتبار الصلابة والشدة سُمِّيَ الظهر صُلْباً[١]، وجاء في معناه: الصلب عظم من لدن الكاهل إلى العجب[٢].

ـ الترائب:

الترائب هي ضلوع الصدر، الواحدة تَريبة[٣]. يقول الفيروز آبادي في معنى الترائب: الترائب: ضلوع الصدر أو ما ولي الترقوتين منهما أو ما بين الثديين والترقوتين أو أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته، أو اليدان، والرجلان، والعينان، أو موضع القلادة[٤].

ومن معانيها الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين وهي موضع القلادة واحدتها تريبة[٥]. فهذه المعاني اللغوية لكل من الصلب والترائب الواردة في الآية.

ولكن مع اختلاف المكانين اللذين يخرج من بينهما هذا الماء، لماذا قال سبحانه ماء ولم يقل ماءَين؟ يقول النسفي: وقوله: من ماء دافق ولم يقل من ماءَين لامتزاجها بالرحم واتحادها فيما ابتُدئ في خلقه[٦]، ومما يلفت أنظارنا أن الآية قال فيها سبحانه: يخرج من بين الصلب والترائب، ولم يقل من الصلب والترائب. أي من بين صلب كل واحد منهما من الرجل والمرأة وترائب كلٍّ منهما. وإنما قال من بين الصلب والترائب على اعتبار أن الرجل والمرأة يصيران

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، مرجع سابق، ص٤٨٩.
(٢) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ص١٣٥.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، مرجع سابق، ص١٦٥.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، مرجع سابق، ٢/ ٢٩٧.
(٥) المعجم الوسيط، ١/ ٨٦. انظر: مختار الصحاح، ص٧٦.
(٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، ٣/ ٦٧٧.

كالشيء الواحد، فكأن الصلب والترائب لشخص واحد[١].

ويذكر الرازي الإعجاز القرآني في تخصيص هذين العضوين بالذكر، فيقول: ولا شك في أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المنيِّ هو الدماغ، وللدماغ خليفة وهو النخاع وهو في القلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهي التريبة، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر[٢].

ويَذكر الدكتور محمد علي البار تفصيلاً علمياً في سبب تخصيص هذين العضوين للذكر مما يكشف الإعجاز العلمي في القرآن فيقول: تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب، ونحن قلنا إن هذا الماء المنيِّ إنما يتكون من الخصية وملحقاتها، كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة، فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الأعضاء التناسلية بين صلب الجنين وترائبه. والصلب: هو العمود الفقري، والترائب: هي الأضلاع، وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط أي بين الصلب والترائب، ثم تنزل الخصية تدريجيّاً حتى تنزل إلى كيس الصفن خارج الجسم في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولا ينزل أسفل من ذلك.

ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب تبقى من حيث أصلها أي من بين الصلب والترائب، فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر، الأورطي البطني من بين الصلب والترائب، كما أن وريد الخصية يصب في المنطقة نفسها، يصب في الوريد الأيسر من الوريد العلوي الأيسر، بينما يصب وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السفلي، وكذلك

---

(١) روح المعاني، الآلوسي، مرجع سابق، ٣٠/ ٩٧ بتصرف.
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٣١/ ١١٨.

أوردة المبيض وشرياناتها تصب في المنطقة نفسها أي بين الصلب والترائب، كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة من بين الصلب والترائب، فهل يبقى بعد هذا شك في أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءَها وأعصابها من بين الصلب والترائب؟

فالحيوانات المنوية لدى الرجل والبويضة لدى المرأة إنما تستقي مواد تكوينها من بين الصلب والترائب، كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب، والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول يخرج من بين الصلب والترائب، ولم تقل من الصلب والترائب، فكلمة بين ليست بلاغية فحسب، وإنما تعطي الدقة العلمية المتناهية[١].

وبعد معرفة حقيقة تدفق ذلك الماء، ومعرفة مكان أصل تدفقه أنه من بين الصلب والترائب، وليس من الصلب والترائب، يتبين لنا الإعجاز اللغوي والعلمي الذي احتوته تلك الآية العظيمة[٢].

ـ مكان نشأة النطف:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]. ولقد تعددت أقوال المفسرين في معنى المستقر والمستودع، فيقول الطبري في تفسيره: وإلهكم، أيها المجادلون بالله الذي ﴿أَنشَأَكُم﴾ يعني: الذي ابتدأ خلقكم من غير شيء، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، يعني من آدم، وأما قوله ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، فإن أهل التأويل مختلفون فقال بعضهم معنى ذلك: وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم مستقرٌّ في الرحم، ومنكم مُستودَعٌ في القبر، حتى يبعثه الله لنشر القيامة. وقال آخرون: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا[٣].

---

(١) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢٧.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٧.
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٥/ ٢٨١.

ثم يذكر قوله: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله جل ثناؤه عمَّ بقوله ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ كل خلقه الذي أنشأهُ من نفسٍ واحدة، مستقراً ومستودعاً، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى.

ولا شك في أن من بني آدم من هو مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر ومستودع على ظهر الأرض، فكلٌّ مستقَرٍّ أو مُستودَعٍ ومعنًى من هذه المعاني داخلٌ في عموم قوله فمستقر ومستودع ومراد به، إلى أن يأتي خبر يجب التسليم له بأنه معنيٌّ به معنى دون معنى، وخاص دون عام[١].

يقول الرازي: كثر اختلاف المفسرين في تفسير هذين اللفظين على أقوال[٢]: وأولى هذه الأقوال المنقول عن ابن عباس في أكثر الروايات[٣]، أن المستقر هو الأرحام والمستودع هو الأصلاب، ومما يدلُّ على قوة هذا القول: أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً، والجنين يبقى في رحم الأم زماناً طويلاً، ولما كان المكث في الرحم أكثر مما في صلب الأب كان حمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى[٤]. والطِّبُّ الحديث يؤكد ما قاله ابن عباس في أن المستقر: هو الرحم، والمستودع: هو الصلب.

يقول الدكتور داود سليمان السعدي: ويأتي الطب الحديث ويعطينا تفسيراً دقيقاً لتلك الكلمتين اللتين عبرتا عن الجهاز التناسلي للإنسان تعبيراً قرآنياً سامياً في بلاغته المعجزة، فالمستقر الرحم. والمستودع الخصيتان والمبيضان،

---

(١) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٢٩.
(٣) تفسير الرازي، مرجع سابق، ١٢/ ٨٤.
(٤) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٢٩.

فالأنطاف الذكرية تُستودع في الخصيتين والأنطاف الأنثوية في المبيضين، ومن المستودع المُخزَّن تخرج نطفتا الذكر والأنثى وتلتقيان، ثم تتَّحدان مكونتين النطفة الأمشاج، وهي البويضة المخصبة التي تجد لها في الرحم مقرّاً مكيناً به يحفظها ويمدُّها بأسباب الحياة والنمو حتى تستوي إنساناً كاملاً[١].

- الأمشاج:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

يقول الطبري: إن الله تعالى خلق ذرية آدم عليه السَّلام من نطفة من ماء الرجل وماء المرأة، وهذه النطفة ممشوجة أي مخلوطة من عدة أخلاط وذلك للابتلاء والاختبار[٢]. ومن المعلوم طبياً أن النطفة أو الحيوان المنوي يتشكل ويكتسب صفات ومزايا معينة في عدة مراحل أثناء خروجه، ينتقل فيها من مرحلة إلى أخرى حتى يخرج من مبدئه إلى منتهاه عند الرجل مُمشَّجاً، فالنطفة تحتوي على عدة أخلاط مختلطة بعضها مع بعض مكونة بذلك صفاته الفسيولوجية، وكذلك إن النطفة تحمل التركيب الجيني الوراثي للجنين من والده، فالصفات الوراثية تكون ممشوجة في هذه النطفة أيضاً مكونة بذلك الشفرة الوراثية من الأب وكذلك يكون المَشْجُ أيضاً بين ماء الزوج وماء الزوجة، ويتم نقل شبه الجنين من والديه وهو مازال نطفة.

إذن فالنطفة ليست مجرد شيء واحد بل هي مشكلة من عدة أمشاج، فذلك هو المزيج من الصفات الذاتية للنطفة والصفات الوراثية من الأب والأم، كل ذلك يكون ممزوجاً ممشوجاً تماماً كما وصفه القرآن الكريم فسبحان الله الحق الخالق[٣].

---

(١) أسرار خلق الإنسان، السعدي، مرجع سابق، ص١١١.
(٢) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٠٢.
(٣) داود، المرجع السابق، ص٢٠٣.

وقد سئل النبي ﷺ عن احتلام المرأة فقال: «**تغتسلُ إذا أبصرَتِ الماءَ**، فقيلَ له: أترى المرأةُ ذلكَ؟ فقال عليه السَّلام: **وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك، إذا علا ماءُ المرأةِ ماءَ الرَّجلِ أشبَهَ الولدُ أخوالَه، وإذا علا ماءُ الرَّجلِ ماءَها أشبَهَ الولدُ أعمامَه**»(١).

ب ـ الخطوة الثانية: القرار المكين: الرحم:

بعد إلقاء النطف بالأرحام، أي بعد خروج النطف من المستودع إلى المستقر، وهو ما أشرنا إليه سابقاً، هنا تأتي الخطوة الثانية: خطوة القرار المكين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

فيا لروعة الوصف القرآني، فالرحم قرار والرحم مكين والرحم من الرحمة والرحم مجموع ومحاط بعظام حوض المرأة الذي يحميه، ففيه كل ما يجعله مهيّأً للاستقرار والثبوت وكل ما يجعله أهلاً للتمكين والظفر، وعليه يكون الرحم بالنسبة للجنين هو المكان الذي جمع بين الثبات والاستقرار وبين الظفر وبين التمكين مما وجد فيه(٢).

والآيات الكريمة أشارت إلى أن أصل الخلق من الماء المهين النطفة التي تُودَع في القرار المكين الرحم، وتسمية الرحم بالقرار المكين الذي يستقر به الجنين إلى قدر معلوم حدده الله عزَّ وجلَّ، وتسميتُه ذات دلالة، وقد وَفَّر له

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها. داود، التربية الجنسية، مرجع سابق، ص٢٠٣.
(٢) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٠٩.

وسائل الراحة والاستقرار والعناية الربانية التي تفوق التصور، وتبرز هذه الوسائل مع دقتها في الأمور الآتية:

ـ الحوض وشكله:

يتكون من مجموعة من العظام يتصل ببعضها ببعض اتصالاً دقيقاً، فتكون مثل الصندوق الخشبي، ونظراً لاختلاف وظيفة حوض المرأة عن وظيفة حوض الرجل في قضية المحافظة على وضع الرحم المتنامي الذي يبلغ آلاف المرات في نهاية الحمل عن حجمه قبل الحمل، حيث لا تتجاوز سعة الرحم قبل الحمل لأكثر من (٥ , ٢)ملم عند الأنثى البالغة، أما نهاية الحمل فيتسع لسعة آلاف المليمترات، لذا كان تجويف الحوض عند الأنثى أوسع وأقصر، وعظام الحوض أرقّ وأقل خشونة وأبسط تضاريساً، كل ذلك ليكون حصناً ودرعاً للرحم الذي يحمل هذه الدرة الثمينة، التي تتجلى في تكوينها عظمة الخالق، وتكوين عظام الحوض يتناسب تماماً مع وظيفتها التي تتفرَّد بها دون غيرها من عظام الهيكل، وهكذا يحفظ الحوض العظمي الرحم بداخله بحيث لايصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة، بل لو أُصيبت المرأة بحادث أو سقطت من شاهق وتكسرت عظامها فتجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسه سوء، والحوض على متانته له مفاصل أربعة يمكن من خلالها أن يتحرك حتى يزداد اتساعاً وخاصة عند الحمل والولادة، بينما حوض الرجل لايكاد يتزحزح[١].

ـ العضلات والأربطة:

تكاد العضلات تحيط بالرحم من جميع جوانبه لتحفظ توازنه وبقاءَه معلقاً في منتصف الحوض ومنها العضلات التي تمسكه من الأعلى، ومنها ما تشده إلى الأسفل، ومنها ما تجره يمنة ويسرة، ومنها ما تشده إلى عظام الحوض،

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص٢٢٩.

وإلى جهات أخرى من الأحشاء تُعرف بالصفاقات الحشوية والصفاقات الجدارية.

وهذه الأربطة تتفاوت جميعاً في حفظ الرحم في موضعه الطبيعي، وفي الوقت نفسه تسمح له بالحركة الحقيقية، والنمو الهائل بفترة الحمل، وكأنما الرحم جسر معلقة تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة، بل إنه أعظم من ذلك بكثير إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه، كما أن وجود وفرة من الأحشاء الطرية اللينة وامتلاء الحوض بها كل ذلك يُهيِّئ فراشاً وثيراً للرحم عند امتلائه بالجنين وتعاظمه خلال الأشهر الأخيرة من الحمل[١].

ـ **هرمون الحمل «البروجسترون»**:

ويؤثر هذا العمل على تقلصات عضلات الرحم فيجعلها متّئدة وقورة، بدلاً من تلك الحركة النزقة الطائشة التي يُسبِّبها هرمون الأنوثة الأستروجين، ولهرمون الحمل تأثير مهمٌّ في استقرار الرحم في فترة الحمل، حتى لا يقذف الجنين وخاصة في أشهره الأولى، وهكذا تتضافر العوامل لجعل الرحم القرار المكين، وهل هناك وصفٌ أعظم من هذا الوصف، وتحديدٌ أدقُّ للوظيفة من التحديد الرباني لطبيعة تكوين الرحم ومهمته؟، إنه وصف الخالق لمخلوقه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إنها العناية الربانية بهذا المخلوق المُعزَّز المُكرَّم، إنه الله عزَّ وجلَّ الذي قدر وأحكم، وإنه الإعجاز الباهر الذي جاء به على لسان النبي الأمي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣].

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، مرجع سابق، ص٢٣٠.

ـ الظلمات الثلاث:

يقول الطب الحديث عن الظلمات إنها ثلاثة أغشية تحيط بالجنين داخل الرحم، وهي:

الأول: غشاء السلى أو الأمنيون: ويحيط بالجنين مباشرة، وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق مقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة، وبه سائل يزداد مع نمو الجنين، والجنين يلعب وسط هذا السائل ويتقلب يمنة ويسرة ويتشقلب رأساً على عقب، ويمسك بالحبل السري وهو في أمان تام وللسائل الأمنيوني فوائد جمة من أهمها:

ـ تغذية الجنين حيث يحتوي السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح يمتصها الجنين، ما يساعد على تغذيته ونموه.

ـ حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات الخفيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم.

ـ يُوفِّر للجنين حرارةً ثابتة تقريباً فهو مكيف جيداً؛ بحيث لاتزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود ضئيلة جداً.

ـ يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيوني من الالتصاق بالجنين، وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل المهمة في حدوث التشوهات الخلقية، فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية.

الثاني: غشاء الكوريون أو الغشاء المشيم:

هو الغشاء الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين، وبوجود الزغابات الكثيرة في هذا الغشاء ينتقل الغذاء والأكسجين بوساطتها من الأم إلى الجنين، كما ينتقل غاز ثاني أكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم، ويبدأ تكوُّن هذا الغشاء عند تكوُّن النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي،

وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو مثل ثمرة التوت، وتُسمَّى التوتة، وتتكون من طبقات، فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين وأما الطبقة الخارجية فيتكون منها هذا الغشاء المشيمي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج: ٥].

فهذه المضغة غير المُخلَّقة تقوم بمهمة مضخ كامل لتهيئة الغذاء المبسَّط المناسب للجنين، وإبعاد الفضلات التي يطرحها إلى الدورة الدموية للأم، حيث تفرزها بوساطة الكلى عن طريق البول.

الثالث: الغشاء الساقط:

وهو الغشاء الثالث الذي يحيط بالجنين من جميع جوانبه وهو مكوّن من الغشاء المخاطي المبطِّن للرحم، وسُمِّي الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم النفاس، فسبحان من خلق فسوّى وقدر فهدى جلَّ جلالُه وعظمت حكمته(١).

ج ـ الخطوة الثالثة: العلقة:

قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

والعلقة: وهي مِن عَلِقَ الشَّيءَ إذا نَشِبَ

(١) مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص٢٣٢.

فيه[(١)]، وتشير إلى انغراس البيضة المخصبة في الغشاء المخاطي للرحم[(٢)]، ثم تكون قطعة من الدم الجامد[(٣)].

وقد عبَّر القرآن الكريم في هذه المرحلة بالعلق لأمور منها:

إنك أيها الإنسان عليك أن تتعلق بما يأتيك من علو من عند الله عزَّ وجلَّ وإلا فإنك تكون قد قطعت صلتك بخالقك الكريم الذي أوجدك في يوم من الأيام من علقة في رحم أمك، وكذلك أيها الإنسان مهما كبرت وقويت ونموت وغذيت فإنك بحاجة ماسة إلى أن تتعلق بمن كبَّرك وقوَّاك ونمَّاك وغذَّاك، فتطيع أوامره وتجتنب نواهيه حتى تفوز برضاه وتنجو من عذابه، وأنت أيها الإنسان عليك أن تُعلِّق قلبك ومشاعرك وأحاسيسك بربك، الذي يَسَّر لك الرحم تتعلق فيها وتُرحَم بوجودها وبتعلقك فيها، وإن لم تفعل فقد حكمتَ على نفسه بأنك ساقط من رحمة الله والعياذ بالله[(٤)].

د ـ الخطوة الرابعة: المضغة والعظام واللحم:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وإن المضغة في لسان العرب من مَضَغَ أي: لاكَ، والمضغة من اللحم مقدار ما يُلقيه الإنسان في فيه، كاللُّقمة التي تُمضَغ من الطعام، فانظر إلى مقدار المضغة وشكلها وامتزاجها مما سبق تكوينه، أي من ماء الرجل

(١) لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ١٠/ ٢٦١.
(٢) موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص٢٠٥.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي، مرجع سابق.
(٤) التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص٢١٠.

والمرأة، ومما اكتسبه بعد تعلقه بالرحم، وكأن العملية تتم في هذه الخطوة بعد خلط وتقليب ودمج وتشكيل مما جاء من الأب والأم لينتج عن ذلك كائن جديد يحمل صفات الكائنين الأبوين، نصفه من الأب ونصفه من الأم، فيأخذ نصف الكروموسومات من الأب ومثلها من الأم، تأتي هذه الخطوة متعاقبة بسرعة، فانتقال العلقة إلى المضغة ومنها إلى العظام وصولاً إلى الكسي باللحم، قد عبَّر القرآن عنه بحرف العطف الفاء الذي يفيد الترتيب مع التعقب، لكنه لما عبر عن فترة الانتقال إلى الإنشاء خلقاً آخر فقد استعمل حرف العطف «ثم» والذي يفيد الترتيب مع التراخي، فالكسي باللحم يستمر فترة أطول نسبياً مما قبلها من حالات، فيا لروعةِ التعبير القرآني ودقته في وصفه العلمي لهذه الخطوة![١].

والمضغة تمر بمرحلتين هما:

الأولى: المضغة المُخلَّقة.

الثانية: المضغة الغير مُخلَّقة.

والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً[٢]، ومُخلَّقة مستبينة الخلق ظاهرة التصوير[٣].

إن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان على غير مثال ثابت، لكنه حينما تحدث عن النطفة قال ﴿جَعَلْنَا﴾، وذلك أنه تغير شيء موجود إلى شي آخر، ثم ذكر الله مراحل الخلق بقوله ﴿خَلَقْنَا﴾، ليدل على أن الله تعالى في كل مرحلة وخُطوة يوجد خلقاً جديداً على غير المثال السابق، فهو تعبير بالخلق دون الجعل.

---

(١) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) أصل الإنسان بين الإسلام والفكر المادي، صالح الفريج، ص١٩.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩.

فالنطفة تُحوَّل عن صفاتها إلى صفات العلقة، ونقطة الدم المتعلقة تتحوَّل إلى قطعة لحم كأنها بمقدار اللقمة الممضوغة، وهذه المضغة تُخلَق شيئاً آخر بصفات أخرى وهي العظام، ثم كسي العظام باللحم، ثم عبر بعد ذلك بالإنشاء لا بالجعل ولا بالخلق، وذلك أنه جعل إنشاء الروح له وتمام خلقه في معنى الإنشاء[١].

ومرحلة العظام واللحم تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع، وفي الأسبوع السادس تتكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية، ويسبق الطرف السفلي ببضعة أيام، وأول علامة على وجود عضلات الأطراف تظهر في هذا الأسبوع. ومعنى هذا أن العظام تسبق العضلات، ثم تكسو العضلاتُ العظامَ، فصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، ويمر تخلّق الجنين في رحم أمه في ظلمة بل ظلمات قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

فذلك خلق الله لكم أيها الناس خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وهي:

- ظلمة البطن.
- ظلمة الرحم.
- ظلمة المشيمة.

والذي فعل ذلك كله هو ربكم الذي له الملك، وسلطانه ظاهر في ملكه، فلا ينبغي أن يكون هناك معبود غيره تعالى ولا تصلح العبادة إلا له سبحانه، فكيف تذهبون عن عبادة ربكم إلى عبادة من لا يملك لكم ضرّاً لا نفعاً؟[٢].

---

(١) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢١٤.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢١٤.

إن الآيات السابقة في سورة الزمر تدعو للتفكر، فالنطفة خلق جديد تام كامل لا عيب فيه ولا نقص، والعلقة خلق جديد آخر تام يختلف بصفاته عمَّا قبله وعمَّا بعده، وهكذا تُخلق المضغة جديداً، وتصييرها إلى خلق العظام خلق جديد آخر، ثم كسيها باللحم خلق جديد وإنشاؤها خلق جديد، كل ذلك من خلق الله تعالى للجنين خلقاً من بعد خلق، ألا يستحق هذا الرَّبّ الخالق المبدع منا الشكر والعبادة، فقد أثبت علم الأجنة التشريحي أن خلايا العظم غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظم هي التي تتكون أولاً في الجنين ولا تُشاهَد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد خلايا العظم وتمام الهيكلة العظمي للجنين، وهذا ما وصفه القرآن وصفاً واضحاً ودقيقاً[1].

هـ ـ الخطوة الخامسة: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾:

وهو التصوير والتسوية والتعديل، ثم نفخ الروح لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦] ويقول عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

وأما التسوية، فهي تتم مع التصوير وقبله وبعده، فهي تشمل جميع الأعضاء، إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير، إذ كل يوم وكل ساعة تشهد جديداً، هذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل ثم تتكون الغرف المتتالية: الأذين العام والبطين العام، وبصلة القلب والجيب الوريدي، ثم الأذينان الأيمنان، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر، ومن بصلة القلب تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

---

(١) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢١٦.

إن عملية التسوية والتعديل عملية مستمرة في بناء جسم الإنسان منذُ أن كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً هرماً، ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين، ولا يمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس لجميع الأعضاء، والتي تُوضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع والثامن، ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة، التي تكون فيها الجينات أشد ماتكون قابليَّةً للتغيير، لذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الجينات تكون في أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة[١].

وقد شرحَتْ بعض الأحاديث النبوية جوانب في هذه المرحلة، فقد جاء في صحيح مسلم، قال ﷺ: «**إذا مرَّ بالنطفة اثنتانِ وأربعونَ ليلةً بعثَ الله إليها مَلَكاً، فصوَّرَها، وخَلَقَ سمعَها وبصرَها، وجِلدَها ولَحمَها وعِظامَها، ثم قال يا ربِّ: أذكرٌ أم أنثى؟، فيقضي ربُّك ما شاءَ، ويَكتبُه المَلَكُ**»[٢].

ففي الحديث يقرر الرسول ﷺ عدة حقائق من حقائق علم الأجنة وهي:

ـ يخلق الإنسان من النطفة المنوية من ماء الرجل وبيضة المرأة كما سبق بيانه، وقد أشار إلى ذلك الحديث النبوي: «إذا مر بالنطفة» أي أن الإنسان يُخلَق من النطفة لا من دم الحيض، كما كان شائعاً بين الأطباء إلى القرن السابع عشر.

ـ حدد الحديث ليلة معينة من عمر الجنين يدخل بعدها الملك، إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً.

ـ «فصوَّرها» أي أن الصورة الآدمية للجنين تبدأ بالظهور بعد الليلة الثانية والأربعين.

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص٣٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم الحديث ٢٦٤٦.

ـ «**وخلق سمعها**» وكذلك يبدأ ظهور الأذن وجهاز السمع .

ـ «**وجلدها**» ويخلق الملك الجلد بعد الليلة الثانية والأربعين .

ـ «**ولحمها**» ويخلق الملك اللحم العضلات بعد الليلة نفسها .

ـ «**وعظمها**» ويخلق الملك العظام الهيكل العظمي بعد الليلة نفسها .

ـ ثم قال : يارب : أذكر أم أنثى؟ أي أن الملك يبدأ بتشكيل الأعضاء التناسلية الخارجية في الذكر والأنثى ، وذلك بعد الليلة الثانية والأربعين أيضاً .

يمر الجنين بأطوار قبل الليلة الثانية والأربعين ، وهو ليس في صورة آدمية ، ولا توجد فيه الأعضاء والأجهزة التي ذكرَ الحديث خلقَها بعد الليلة الثانية والأربعين .

ويقول الطب الحديث : في نهاية الأسبوع السادس تكون النطفة بلغت أوج نشاطها في تكوين هذه الأعضاء ، وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع حتى الأسبوع الثامن . والمبيض والخصية لا يمكن التعرف عليها إلا في الأسبوع السابع والثامن ، حيث يمكن التعرف على الغدة التناسلية أهي خصية أم مبيض؟ وفي رواية أخرى عند مسلم : «**إنَّ النطفةَ إذا استقرَّت في الرَّحمِ أربعينَ ليلةً ثم يتشور عليها الملكُ فيقولُ : يا ربِّ أذكرٌ أم أنثى؟ وفي روايةَ : بضعاً وأربعين ليلة . وفي رواية : لخمس وأربعين**» [(١)] .

وهكذا ترى من مجموعة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن قمة تكوين الأعضاء ، وتحديد الذكورة والأنوثة على مستوى الغدد التناسلية ، إنما يكون في الأربعين .

وفي هذه الفترة يستطيل الحمل من (٥) مليميترات إلى (٢٣) ميليمتراً ، وتظهر عليه علامات خارجية واضحة ، وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة ، ومما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم الحديث ٢٦٤٥ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي .

تقدم يبدو أن التقسيم القرآني لمراحل نمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة، ولا يركز بعض علماء علم الأجنة على مرحلة العلقة، كما يركز عليها التقسيم القرآني، وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل.

أما نفخ الروح فهو لا يزال في طي الغيب الذي لا يعمله إلا الله[١]، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ووردت أحاديث عن المصطفى ﷺ يُخبر فيها عن مراحل خلق الإنسان ومابينها من مدة زمنية:

جاء في صحيح البخاري عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه أربعينَ يوماً نُطفةً، ثم يكون علقةً، مثل ذلك، ثم يكون مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يبعثُ الله مَلكاً فيُؤمَرُ بأربعِ كلماتٍ: بكَتْبِ رزقه وأجله وشقي أم سعيد، ثم يَنفُخُ فيه الروح، فوالله إن أحدكم أو الرجل ليعملُ بعمل أهل النار وحتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنَّة فيدخلها، وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[٢]. فسبحان الله عزَّ وجلَّ القائل في كتابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مسلم، مرجع سابق، ص٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٣٢٠٨، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.

خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

إن الإنسان حين يتأمل هذه التفاصيل ويعلم علم اليقين أن أطوار خلق الإنسان لا تتجاوز قيد أنملة، لا يملك إذا كان سليم العقل ومتجرِّداً في طلب الحقِّ إلا أن يُسلِّم بأن هذا العلم ليس إلا من عند الله تبارك وتعالى. وهنا يقول أحد مفكري الغرب: إنني مقتنع تماماً بأنه لا يمكن لأحد أن يفهم حق الفهم معنى آيات معينة في القرآن الكريم تتحدث عن الإنسان إلا إذا كان على علم بالمعلومات الخاصة بهذا الموضوع، والتي اكتُشفت بالعقود الأخيرة، فإذا قارن المرء بين ما ذكره القرآن الكريم وبين اكتشافات علم الوراثة فسوف يتضح له المعنى الحقيقي لهذه الآيات وضوحاً كاملاً، وغني عن القول إن الآيات كانت مفهومة للإنسان على مر العصور، ولكن المفسرين لم يتمكنوا إلا منذُ عهد قريب من كشف معناها الظاهر(١).

ويقول موريس بوكاي: أما القرآن فيحتوي حقّاً على آيات بينات بالمنطق البشري، إذا وضعنا في اعتبارنا مستوى المعارف التي كانت سائدة في وقت نزول القرآن(٢).

ـ **نعمة الحواس والاتصال بالعالم الخارجي**: يمتن الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الحواس، التي من خلالها يستطيع الإنسان الاتصال بالعالم الخارجي، ويبدأ اتصال الجنين بالعالم الخارجي عن طريق حاسة السمع التي تبدأ عملها قبل بقية الحواس، لذا قُدِّم ذكرها في كثير من الآيات على سائر الحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، يقول

(١) أصل الإنسان، موريس بوكاي، مرجع سابق، ص٢٢٤.
(٢) بوكاي، المرجع السابق، ص٢٢٤.

أبو السعود في معنى الآية: فقوله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آيات الله وتمتثلوا ما فيها من الأوامر والنواهي، وتتَّعظوا بمواعظها. ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات الكونية الشاهدة على وجود الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية الكونية، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة.

ويقول في منافع الحواس: وجعل لكم هذه الأشياء آلات تحصِّلون بها العلم والمعرفة وتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء، وتدركونها بأفئدتكم، وتنتبهون لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرار الإحساس، فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية[١].

ويَذكر الدكتور محمد البار تحليلاً علميّاً في سرِّ تقديم السمع على سائر الحواس فيقول: في كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله السمع على البصر، ولا تكاد تجد آية قدَّم فيها البصر على السمع، ذلك لأن السمع أعظم النعم من البصر ذاته، لأن المولود يتعلم بحاسة السمع أضعاف أضعاف ما يتعلمه بوساطة البصر، فالأصم منذُ الولادة لايستطيع أن يتعلم اللغة، بل اللغات بكل يسر، ونستطيع أن نعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدي نعمة البصر، ولكن من العسير أن تجد مثلهم من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع، وخاصة إذا كان فقد السمع منذُ الولادة أو الطفولة المبكرة، ووحّد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار وذلك لأن هناك مركزين للأبصار في مؤخرة الدماغ، بينما نجد أن مركزي السمع في الدماغ مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحيث يمكن اعتبارهما مركزاً واحداً[٢].

هذا عن سر تقديم السمع على بقية الحواس، أما عن بداية عملها، فيقول

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، مرجع سابق، ٥/ ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، البار، مرجع سابق، ص٣١٥ ـ ٣١٦.

الدكتور البار: إن الجنين يستطيع سماع الأصوات منذُ الشهر الرابع، بل إن الجنين يسمع صوت أمه وقرقرة أمعائها رغم أنه محاط بالأغشية وبكيس السلى، بل لقد أصبح من الثابت أن الجنين يسمع الأصوات والضوضاء الخارجية ويتعود عليها(١). ويقول الرازي: في سبب ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، وذلك لأن شكر الله تعالى هو أن يصرف تلك النعم إلى مرضاته، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته البتة(٢).

ـ الإنسان بعد ولادته:

ولا يقف الإنسان في مراحل تكوينه عند هذا الحد بل يمر بمراحل أخرى ترافقه طيلة حياته، تبدأ بخروجه طفلاً وتنتهي بشيخوخته، ومن الناس من لا يستكمل هذه المراحل لدنو أجله. ومن الآيات التي ذكرت أطوار الإنسان بعد خروجه إلى الدنيا قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، ينبه تعالى على تنقُّل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، البار، مرجع سابق، ص٣٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، ٣٠/ ٦٥.

حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً، ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل[١] ثم يشيخ[٢] ثم يهرم[٣]، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة[٤]، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الروم: ٥٤]؛ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، وهو العليم القدير[٥].

ويقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، يقول تعالى ذكره، آمراً نبيه محمداً ﷺ بتنبيه مشركي قومه على حججه عليهم في وحدانيته: قل يا محمد لقومك: أُمرتُ أن أُسلم لربِّ العالمين الذي صفته هذه الصفات، وهي أنه خلق أباكم آدم من تراب ثم خلقكم:

- ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ بعد أن كنتم نطفة، ثم يخرجكم طفلاً من بطون أمهاتكم صغاراً.

- ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ فتتكامل قواكم ويتناهى شبابكم وتمام خلقكم شيوخاً.

---

(١) الكهل: من جاوز الثلاثين وقيل من جاوز الأربعين.
(٢) الشيخ: يُقال لمن طعن في الستين من العُمر.
(٣) الهرم: أقصى الكِبر.
(٤) اللمة: الشعر المجاوز شحمة الأذن.
(٥) تنوع خطاب القرآن الكريم، رجاء الصالح، مرجع سابق، ١١/ ٧٦.

ـ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾، قبل أن يبلغ الشيخوخة.

ـ ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ يقول: ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم وأجلاً محدوداً لا تتجاوزونه، ولا تتقدمون قبله و﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يقول: كي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك وتتدبروا آياته، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره فعل ذلك[(١)].

هذه مراحل خلق الإنسان منذُ بدايته من تراب وحتى ينتهي إلى حيث بدأ لا يعلم شيئاً، تتخللها نِعَمُ الله الكثيرة، التي من أعظمها نعمة الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى. ولكن هناك فئة من بني آدم تقف موقف النكران والجحود وعدم الاعتراف بخالقها، وترفض التوجه إليه بالطاعة، فهذه الفئة الكافرة خاطبها الله في كثير من الآيات مبيناً لهم حقارة نشأتهم أمام عظيم مخلوقاته[(٢)]، قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢].

وقد تضمنت الآيات من التعجب من حال الإنسان الذي رفض الاعتراف بخالقه، وبما جاء به نبي الهدى من الحق[(٣)]:

ـ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مسّاً ولا أدل على سخطٍ ولا أبعد شوطاً في المذمة من تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر مَتنِه، ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى، وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها وما هو غارق في رأسه من الكفران وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر.

---

(١) جامع البيان، الطبري، مرجع سابق، ١١/ ٧٦.
(٢) تنوع خطاب القرآن في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٥٠.
(٣) المرجع نفسه، البحر، ص١٥٠.

ـ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ من أي شيء حقير مهين خلقه، ثم بين ذلك الشيء بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ فهيأه لما يصلح له ويختص به، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه، أو السبيل الذي يسلكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. أي بين له سبيل الخير والشر، فأقبره: فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض تأكله الحيوانات.

ـ ﴿أَنشَرَهُ﴾ أنشأه النشأة الأخرى(١).

ـ ويقول الطاهر بن عاشور فيما احتوت عليه جملة «ما أكفره» من معان كثيرة في عبارة موجزة وافية مما يثبت أن القرآن هو كلام الله المعجز الذي أيَّد به رسوله ﷺ: وجملة «ما أكفره» تعليل لإنشاء الدعاء عليه، دعاء التحقير والتهديد، وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان، ومعنى شدة الكفر: أن كفره شديد كمّاً وكيفاً؛ لأنه كفر بوحدانية الله، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه ﷺ، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يُقلِعُ عنه مع تكرار التذكير والإنذار والتهديد.

وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز وأرفع الجزالة، بأسلوب غليظ دالٍّ على السخط، بالغ حد المذمة، جامع للملامة، ولم يسمع مثلها قبلها، فهي من جوامع الكلم القرآنية(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، في هذه الآيات ينبه سبحانه المنكرين لوحدانيته وقدرته على الخلق والإيجاد أن الله أكرمهم بكثير من النعم،

---

(١) تفسير الزمخشري، مرجع سابق، ٤/ ٢١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص١٢١.

ومن نعمه عليهم أنه خلقهم في أتمِّ خِلقة، وأحسن صورة، وأكرمهم بنعمة العقل، فأي أمرٍ بعد هذا يجعلهم يصرون على الكفر والعناد إلا الكبر، وحب اتباع الهوى المُضِلّ.

ومع ذلك التذكير والبيان لعظمة خلق الله تعالى، إلا أن الإنسان الكافر مستمر في عناده حتى بلوغه المستوى العقلي الذي لا يصلح للمحاورة والخطاب يقول تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧ـ٣٨].

إن من جمال التعبير القرآني في هاتين الآيتين مخاطبته للإنسان وتذكيره بأصل خلقته. كما يذكر لنا الرازي سبب ذلك، فيقول: سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم، فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها، ولكن لا يغفل هو مع نفسه متى ما يكون وأين ما يكون.

والآيات التي في سورة الكهف مجمل تفسيرها كالآتي: أكفرت بالذي خلق آدم عليه السَّلام من تراب، ثم أنشأك من نطفة الرجل والمرأة، ثم سواك رجلاً سويّاً ذكراً أو أنثى، فإن ذلك قادر على خلقك يوم القيامة.

ـ في سورة الحج: مراحل خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

إن كنتم أيها الناس في شك من قدرة الله تعالى على بعثكم من القبور للحساب، فإن في ابتداء خلق الإنسان لكم دليلاً، حيث خُلق من تراب ثم من نطفة، ثم تفرقت النطفة حالاً بعد حال في الأرحام، فإن في ذلك دليلاً على قدرته تعالى على إعادة خلقكم بعد الممات، والتحلل كما خلقكم أول مرة، وتكون

النطفة مُخلَّقة، إذا كان فيها خلقاً سويّاً، وتكون غير مُخلَّقة إذا كان ما في الأرحام غير سوي مما تدفعه الأرحام وتلقيه سقطاً قبل أن يكون خلقاً، فقد ثبت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث ملكاً فقال: يا رب مُخلَّقة أم غير مُخلَّقة؟ فإن قال غير مُخلَّقة مجّتها الأرحام، وإن قال مُخلَّقة، قال: يا رب فما صفة هذه النطفة أذكر أم أنثى؟ وما رِزقها؟ وما أَجلها؟ أَشقي أم سعيد؟ قال: فينطلق الملك فينسخها، فما تزال معه حتى يأتي على آخر صفاتها» [(١)].

كل ذلك بيّنه الله تعالى لإظهار قدرته على الخلق، ومن كتب الله تعالى له بقاء في الرحم وحياة إلى أمد فإنَّه يعيشه حتى يأتي وقت الولادة فلا تسقطه المرأة من رحمها، فإذا بلغ وقت الخروج أذن الله له بالخروج طفلاً، ثم تبلغوا كمال عقولكم وقواكم أيها البشر بعمركم، فمنكم من يموت قبل أَشُدِّه ومنكم من يُنسَأ في أجله فيهرم، فَيُردُّ بعد بلوغه وشبابه إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم كان يعلمه شيئاً[(٢)].

صرّحت الآية الكريمة بمرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ والشباب، ثم مرحلة الكهولة لمن كتب الله تعالى له البقاء في الحياة الدنيا، فبيَّنت أنه ليس كل من طال عمره فهو محمود فعله، فقد يطول عمر من يصل إلى أرذل العمر فينسى كثيراً وتصيبه الأمراض والعلل كالخرف والزهايمر، وأنه ليس كل من وصل إلى الشيخوخة فإنَّه يُصاب بهذا المرض المُنسي[(٣)].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

---

(١) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٢٢.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج١٧. وانظر: التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٢٢.
(٣) التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٢٢.

وفي آية غافر وفي آية الحج التي ذكرناها إشارة وفكرة على الإنسان أن يتنبه إليها وهي أن الإنسان يولد طفلاً غير متمتع بكثير من الصفات، منها أن الطفل يولد بلا إحساس بالجنس ولا أسنان ولانطق ولا حركة إرادية ولا اتزان وغيرها الكثير، ثم يبدأ ينمو عنده كل ما لم يولد معه، لكنه مهيأ من العلي القدير أن يستقبل ما لم يولد به، ويكون ذلك في مراحل متعاقبة متلاحقة في حياته، فالنطق مثلاً يكتمل عندما يصل الطفل السادسة من عمره تقريباً، والحركة باتزان تكون بعد الثالثة تقريباً، وأما الإحساس بالجنس فيأتي في مراحل أخرى حينما يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ والمراهقة، وأن ما ادعاه مهووسو البشر من أصحاب النظريات البشرية، من أن الطفل يتعامل مع أمه من منطلق جنسي، هو كلام باطل عار عن الصحة.

إذن، الآيتان تشيران إلى تنقل الفرد الإنسان من مرحلة الطفولة إلى البلوغ إلى الشباب والأشد ثم الكهولة، ثم تأتي آية سورة الروم لترسم رسماً جديداً لحياة الإنسان وتخط له الخطوط الرئيسية في الحياة الدنيا بوصف دقيق وبلاغة جديدة وإعجاز واضح للعيان[١]، حيث يقول الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فالله تعالى هو الذي خلقكم من ضعف أول مرة وهو النطفة، ثم الماء المهين فالجنين، ثم جعل لكم قوة على التعرف بعد أن خلقكم من ضعف، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر عما كنتم عليه أقوياء في شبابكم، وأحدث لكم الشيبة، فالله تعالى هو الذي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وهرم وشيب لأنه العليم بتدبير خلقه القدير على ما يشاء[٢].

---

(١) التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص٢٢٤.
(٢) تفسير الطبري، ج٢١. وانظر: التربية الجنسية، داود، مرجع سابق، ص٢٢٤.

ـ **زواج آدم عليه السَّلام:**

تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السَّلام في ثلاثة مواضع، وفي ثلاث سور، وهي:

في سورة البقرة؛ بيَّنت أن حواء خُلقت لتحقيق هدف السكن والطمأنينة. وفي سورة طه؛ عُرضت قصة آدم عليه السَّلام وحواء في الجنَّة ومعصيتهما لله تعالى وكشف السوآت. وفي سورة الأعراف؛ بيَّنت نزول آدم عليه السَّلام وحواء على الأرض وأول جماع جنسي بينهما[1]، ليكون سبباً في ذُرية آدم عليه السَّلام وانتشارها في الأرض، قال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

أيها الناس: إن الله تعالى خلقكم من نفس واحدة، وهي نفس آدم عليه السَّلام، وجعل منها زوجها حواء ليأوي إليها، لقضاء الحاجة واللذة، فلما تغشاها وتدثَّرها لقضاء حاجته حملت منه حملاً خفيفاً، وكذلك هو حال حمل المرأة من زوجها، فإن ماء الرجل حملٌ خفيف عليها، ومرَّت به أي استمرت به قياماً وقعوداً حتى أتمت الحمل، فلما أصبح ثقيلاً بعد أن كان خفيفاً ودنت ولادتها هناك دعا آدم عليه السَّلام وحواء ربَّهما أن يكون الحمل من الصالحين، أي أن يكون صالحاً في الخلق وصالحاً في الدين وصالحاً في العقل والتدبير[2].

ونلاحظ أدب الحديث عن الجنس، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي بالبشرية، كما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الأدب والترفع والحس فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً، بل يشير إلى ذلك بعبارة

(١) التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص٢٣٧.
(٢) داود، المرجع نفسه، ص٢٤٣.

بسيطة في لفظها، وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها، فالإنسان إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته في أي حال من أحواله وفي وقته وزمانه عليه أن يلتزم الأدب الجم وهو يصف آمراً أو ناهياً أو مسترشداً. فقد عبَّر القرآن الكريم عن الجماع وكنَّى عنه بألفاظ عدة غاية في الأدب والترفع(١).

وبداية الحمل ثم الولادة انطلاقة للبشرية على هذه المعمورة، لكي يتحقق مقصد الخلاَّق العليم من خلق الإنسان وعمارة الأرض وتحقيق العبادة للخالق العظيم، وتمضي سنة الابتلاء والاختبار بين الناس، فمن أطاع الله أو عصاه فإلى الله المصير وإليه ترجع الأمور سبحانه وتعالى.

لقد عاش آدم مئات السنين على الأرض وشاهد الأولاد والأحفاد ومن بعدهم، وخلَّد الله آدم بذريته فهو معروف في معظم الثقافات والأديان ولدى كل الشعوب(٢) والبشر، وتجمعهم الإخوة الإنسانية القائمة على النسب الواحد لآدم وحواء، وأخوة الإيمان أخصُّ وأعظم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، فنحن إخوة في انتمائنا إلى ملة الإسلام، ونحن مع باقي شعوب الأرض إخوة في التوحيد لله والعبودية له والإيمان برسله(٣).

٨ ـ الخالق المصور سبحانه وتعالى من أسماء الله الحسنى:

إن الله عزَّ وجلَّ خلق آدم عليه السَّلام وبنيه وصوّرهم في أحسن صورة، فآدم وبنوه من أثر اسم الله الخالق والمصور، ولذلك أردنا أن نتعرف على هذين الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى.

---

(١) التربية الجنسية في الإسلام، داود، المرجع نفسه، ص٢٤٤.
(٢) علمني أبي، العودة، مرجع سابق، ص٤٣.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص٤٣.

أ ـ الخالق الخلّاق:

ورد اسمه سبحانه الخالق في القرآن الكريم (٨) مرات بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢] وغيرها من الآيات، كما ورد اسمه سبحانه الخالق بصيغة التفضيل مرتين، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات ١٢٥]، ومرة بصيغة الجمع كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩].

أما اسمه سبحانه وتعالى «الخلاق»، فورد ذكره في القرآن الكريم مرتين، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، اسم مبالغة من الخالق.

وأما معناهما في حق الله عزَّ وجلَّ:

قال الخطابي: الخالق: هو المبدع للخلق المخترع له على غير مثال سابق، قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

والخلّاق: من أفعال المبالغة من الخالق تدل على كثرة خلق الله تعالى وإيجاده، فكم يحصل في اللحظة الواحدة من بلايين المخلوقات التي هي أثر من آثار اسمه سبحانه الخلّاق قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦].

وإن اسمه سبحانه الخالق والخلّاق ممّا أقرت به جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم، ولظهور ذلك وكون العلم بديهي فطري، احتجّ الله به على من أشرك به في عبادته، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]، في غير موضع في كتابه[١].

فعُلم أن كونه سبحانه خالقاً مِن أظهر شيء عند العقول وهو أصل كل حقيقة، فجميع الحقائق تنتهي إلى خلقه وإيجاده، فهو الذي خلق وهو الذي علم، كما قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] [٢].

وعند التأمل والتدبُّر والتفكُّر في مخلوقات الله العجيبة ابتداء بالإنسان، ثم الكواكب والنجوم، وفي هذا الكون وجماله وعظمته، ترى العجب العجاب من إبداع الخالق العظيم. تأمل معي هذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

ـ ما بين (٥٠٠ ـ ٦٠٠) مليون حيوان منوي تمر عبر المهبل، وكل واحد من هذه الحيوانات قادر على أن يكون إنساناً بإذن الله عزَّ وجلَّ، لكن الله سبحانه وتعالى بقدرته وحكمته يختار واحداً من هذه الملايين يقوم بتلقيح البويضة ليكون هذا الإنسان السوي المختار، الناطق العاقل، المتصرف بشؤونه بإذن ربه، هكذا خلقنا فلنتواضع لعظمة الله عزَّ وجلَّ وكبريائه، ولنتذكر البداية التي كنا منها، لنُدرك الفرق الهائل بين هذه النطفة وهذا الإنسان السوي القوي المتين، إن ذلك يوجب على الإنسان أن ينطلق بتسبيح الله عزَّ وجلَّ وذكره وشكره.

ـ في جسد الإنسان أكثر من مئة تريليون خلية، وما في داخل كل خلية من هذه الخلايا أجهزة وأعمال ونواة وبرامج وخرائط ومعلومات، كلها تُسبّح ربها عزَّ وجلَّ، وتؤدي دورها على أفضل وأحسن ما يكون في كل خلية واحدة، وفي

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٤٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٣٤.

جسدك نحو ما يزيد عن ثلاثين مليار حرف من الحمض الوراثي النووي الذي هو ذو حروف أربعة (والله أعلم)؛ وهو عبارة عن مادة وراثية موجودة في نواة البويضة، ومسؤولة عن جميع وظائف الجسم الحيوية المختلفة. وإن هذه الأعداد الهائلة من الحروف الحمضية النووية، وهذه الكميات الهائلة من الذرات والخلايا الموجودة في جسدك كلها ناطقة ومعترفة بعظمة الله سبحانه وتعالى وأنه هو الخالق الخلّاق[1].

- ارفع رأسك إلى الأعلى وانظر إلى السماء فوق رأسك ثمّة مليارات المجرات، والمجرة عبارة عن تجمع من النجوم المختلفة الواسعة الكثيرة الهائلة التي منها ما يزال في مرحلة الطفولة، ومنها الشاب الذي في مرحلة المراهقة، ومنها مثله الشيخ الكهل، ومنها مثل الهرم الذي رد إلى أرذل العمر، وهو يعيش أيامه الأخيرة، كلها تسبح لله في الفضاء وبينها من التباعد ما لا يحيط به إلا الله عزَّ وجلَّ، حتى لو افترضنا أن مركبة تسير بسرعة الضوء التي هي (١٨٦) ألف ميل بالثانية، لاحتاجت لعدة آلاف من السنوات حتى تجتاز مجرة واحدة من هذه المجرات، فما بالك بما وراءها وما فوقها!؟

ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

إن هذه المجرات التي نتحدث عنها، تضم المجرة منها ما بين مائة بليون إلى ألف بليون نجم، ومايزال العِلم يكتشف كل يوم جديداً في عالم الفضاء، مع ألوف وسائل الكشف التي لا تزال قاصرة عن إدراك ما وراء ذلك كله.

إن الطبيعة كتاب مفتوح يسبح بحمد الله جلَّ جلالُه. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ

(١) مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان العودة، مرجع سابق، ص٨٢.

كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج: ١٨].

إن روعة هذا الكون وجماله وعظمته هي قبسة يَسيرة من إبداع الخالق العظيم، وإن الإنسان عندما يحاول أن يُطبق ما يُسمَّى بفكرة المصادفة بالخلق يقع في مغالطة فاحشة[١].

إن الإنسان الملحد إنسان يائس؛ أُغلقت أمامه الأبواب والسدود يتخبط على غير هَدي ويَسير دون غاية، ويعيش في ظلمة حالكة لا يعرف بداية أتى منها ولا نهاية يصير إليها ولا غاية يتجه إليها، أما المؤمن فهو يشعر بطمأنينة، وهو يتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى فيرى عظمة الله في خلقه وحكمته البالغة في تدبيره قال سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

إن التأمل في خلق الله عزَّ وجلَّ وملكوته يقود إلى رسوخ الإيمان به سبحانه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]، فتأمَّل وسبّح وتعبّد لمن خلقك وذرأك وإليه المصير[٢].

إن الخالق سبحانه وتعالى هو المالك المتصرف المدبر، والأمر لا يقف عند مجرد الاعتراف فقط، فلقد قرأت كلاماً لنيوز ويك وهو عالم أمريكي من علماء

---

(١) مع الله، العودة، مرجع سابق، ص٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص٨٥.

الفلك، بعد سبعين سنة قضاها بالمختبر وعبر الأجهزة والتلسكوبات والمكبرات يقول: الآن اعترفت بالله وأيقنت أنه لا بدَّ أن يكون وراء هذا الكون قوة خارجة عن المادة. بعد سبعين سنة آمن بوجود هذا الإله، فمتى يصل إلى العبودية له؟ ومتى سوف يؤدي حقه؟ ومتى سوف يذكره؟ ومتى سوف يشكره؟

إن هذه المعاني تقود العبد إلى الله تبارك وتعالى ليمتثل في محراب الإيمان به والتضرع إليه والتوكل عليه والانصياع لأمره والوقوف عند حدوده، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالذي له الخلق هو الذي له الأمر أي: له الشرع، وهو الذي من حقه أن يأمر فيطاع وينهى فيطاع، ويحدَّ الحدود، ويسنَّ السنن، والخلق يستجيبون له ويطيعون، لأنهم يعرفون أنه ما خلقهم إلا لهذا[١].

إن الإلحاد فكرة جاهلة تستعصي على الفهم خاصة في عصر المعرفة والتخطيط والكشوفات الهائلة، قد يكون الإلحاد قراراً سياسيّاً كما في عصر الشيوعية، أو أزمة نفسية عند أقوام لم تسعفهم ظروفهم وعقولهم بالوصول إلى الاستقرار والطمأنينة، أو مغالطة ذهنية صادرة عن اللامبالاة، وهو ما بيَّنه القرآن بقول الخالق البديع سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، أو وسوسة عابرة تخطر في بال إنسان ثم تمضي في غير قرار، أما أن يكون الإلحاد حكماً عقليّاً فلا[٢].

إن إيماننا العظيم بخالقنا الكريم وباسمه الخلاق واسمه الخالق له آثار في حياتنا منها:

---

(١) مع الله، العودة، المرجع نفسه، ص٨٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

ـ الإيمان باسمه سبحانه الخالق: يستلزم الإيمان بوحدانيته سبحانه وألوهيته وإفراده وحده بالعبادة، وهذا ما احتج به الله عزَّ وجلَّ على المشركين الذين يقرون بأنه الخالق الرازق وحده، ثم هم يعبدون غيره مما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت. قال سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ـ الإيمان باسمه الخالق يورث المحبة الكاملة له عزَّ وجلَّ: لأنه سبحانه الذي خلقنا وأنعم علينا بنعمه ونعمة الإيجاد بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً، ثم أمدنا سبحانه بما خلقه في هذا الكون من نعم وبما سخَّره لنا من مخلوقاته وبما خلق في قلوب الأمهات والآباء من الرحمة والرعاية، وبما أمدنا به من السمع والبصر والأفئدة وغير ذلك من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، فحري أن نخصَّ من خلقنا وأوجدنا وأفاض علينا نعمه، بغاية الحب والتَّذلُّل، وهذان هما قطبا التعبد لله عز وجل.

ـ الإيمان باسمه الخالق يدلُّ على صفاته سبحانه وتعالى الأخرى: كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والحكمة، إذ لا يمكن أن يكون خالقاً غير قادر ولا مريد ولا عالم بما خلق، أو أنه أوجد الخلق بلا حكمة ولا علة[١]. فالمخلوقات بأسرها شواهد صفات الرَّبّ جلَّ جلالُه ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها وتنادي عليها وتدل وتخبر بلسان النطق والحال.

فلَست ترى شيئاً أدلَّ على شي من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونُعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلاً وحسّاً وفطرة ونظراً واعتباراً[٢].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٤٣٥.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ٣/ ٣٥٥ـ٣٥٦.

ـ الإقرار بألوهية الخالق عزَّ وجلَّ وتقدُّمه على كل شيء: قرر ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله إنه سبحانه متقدم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق، كائن بعد أن لم يكن(١)، وهذا قول الرسل جميعاً وأتباعهم(٢).

ـ الإيمان باسمه الخالق يستلزم الإيمان بحكمته سبحانه وتعالى من هذا الخلق، وأنه قائم على الحق سبحانه منزَّه عن العبث واللهو، وأنه لا بدَّ من يوم يُبعث فيه الخلقُ ويُحاسبون قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٨].

ـ الإيمان باسمه الخالق يستلزم قبول شرعه والحكم به والتحاكم إليه، وعدم الرضا بغيره بديلاً، لأنه الشرع الصادر عن الخالق الحكيم العليم بخلقه ونوازعهم ومصالحهم، فكان أحسن الشرع وأكمله وأصلحه قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ـ الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لم يزل خالقاً كيف شاء ومتى شاء ولا يزال لقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) شفاء العليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٠٨.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص٤٣٨.

وصفة الخالق أزليّة غير حادثة إذ لم يتّصف بها بعد أن أوجد الخلق، وذلك من كماله، ولا يجوز أن يكون فاقداً لهذا الكمال أو معطلاً عنه في وقت من الأوقات قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

ـ الإيمان بأنه الخالق لكل شيء يقتضي الإقرار بعلم الخالق سبحانه بجزئيات خلقه كلها، صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها. ومن أحسن الأدلة على إثبات علمه سبحانه بالجزئيات كلها قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

ـ تعظيم الله عزَّ وجلَّ وتكبيره وإجلاله عند معاينة مخلوقاته العظيمة في الآفاق والأنفس، لأن عظمة هذه المخلوقات ودقتها و انتظامها يدلُّ على عظمة الخالق وإتقانه لما خلق قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣ـ٤].

وعظمة الله عزَّ وجلَّ، تستلزم عبادته وحده لا شريك له، وتعظيم أوامره ونواهيه، وتعظيم حرماته وشعائره.

ـ الإيمان بِعُلوِّه سبحانه على خلقه، ومباينته لهم:

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: إن صفاته لا تَحِلُّ في شيء من المخلوقات، كما أن مخلوقاته لا تَحِلُّ فيه. فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته، فلا اتحاداً ولا حلولاً ولا ممازجة، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[١].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.

ـ اقتران اسمه سبحانه «الخلاق» باسمه سبحانه «العليم»:

ورد هذا الاقتران مرتين في كتابه عزَّ وجلَّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]. وفي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

إن اسم «الخلّاق» مبالغة في الخلق، وهو خاص بالله عزَّ وجلَّ: كثير الخلق، حيث إن مخلوقاته لا يُحصيها إلا هو، وهو ما زال يخلق ما شاء كيف شاء ومتى شاء سبحانه وبحمده. وعن المعنى الزائد المستفاد من اقتران هذين الاسمين الجليلين «الخلاق العليم»، هو ـ والله أعلم ـ أن خلقه سبحانه للأشياء والأحياء إنما هو عن علم منه سبحانه بما يخلق، كيف يخلقه، ومتى يخلقه، ويعلم الحكمة من خلقه؛ أي أنه سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً وسدى، بل خلقه عن علم ورحمة وإرادة. واجتماع صفة العلم والخلق فيهما صفة كمال أخرى.

وللشيخ الطاهر بن عاشور، في **(التحرير والتنوير)**، توجيهٌ للمناسبة بين هذين الاسمين الكريمين بربطه سياق الآية السابقة للآية المذكورة في سورة الحجر[١]. إذ يقول رحمه الله تعالى: وجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم، يعلمها ربك. فمصلحة النبي ﷺ في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم. فالله الخلاق لكم ولهم ولنفسك ولأنفسهم العليم بمصلحة كل منكم[٢].

ب ـ المصوّر (سبحانه وتعالى):

ورد اسمه «المصوّر» في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى:

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٣٥٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٧/ ٧٨.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحشر: ٢٤].

وجاء بصيغة الفعل عدة مرات، من ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

والمعنى أنه سبحانه واضع الصور وخالقها ومبدعها على غير مثال سابق، بل بمقتضى حكمته ورحمته وعلمه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [الأعراف: ١١].

ـ قال ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]: أي: الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨]، ولهذا قال: «المصوّر» أي: الذي يُنفّذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها[١].

ـ وقال الخطابي: «المصوّر» هو الذي أنشأ خلقه على صورة مختلفة ليتعارفوا بها، فقال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن: ٣][٢].

ـ الفرق بين أسمائه سبحانه «الخالق والبارئ والمصوّر»، ووجه اقتران هذه الأسماء:

يقول صاحب (**أضواء البيان**) رحمه الله تعالى: فـ«الخالق»؛ هو المُقدِّر قبل الإيجاد و«البارئ» الموجد من العدم على مقتضى الخلق والتقدير، وليس كل من قدَّرَ شيئاً أوجده إلا الله، و «المصوّر» المشكّل لكل موجود على الصورة التي أوجده عليها، ولم يفرد كل فرد على صورة تختص به إلا الله سبحانه وتعالى كما

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٣٤٤.
(٢) شأن الدعاء، حمد أبو سليمان، ص٥١.

هو موجود في خلق الله للإنسان والحيوان والنبات كلّ في صورة تخصه[١].

وهذه الفروق تُعرف عند اجتماع هذه الأسماء، أما عند افتراقها فإن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى يشمل معناه ومعاني الاسمين الآخرين.

ويتحدث الإمام ابن القيم (رحمه الله) عن بعض الأسرار في اقتران هذه الأسماء الحُسنى، فيقول: إن البارئ المصوّر تفسير لمعنى اسم الخالق.

والخلق من أعظم الأدلة على عظمة الله وعُلوِّ هيبته؛ فإن انبثاق الحياة والحركة والحسِّ في الموات هو آية ربانيته وقدرته، وهو من الإعجاز بحيث لا يجحدها إلا مكابر، فضلاً عن التصوير الذي هو تخصيص كل مخلوق بصورة تميزه عمَّا عداه[٢].

ـ ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه «المصوّر»؛ ما ذكر من الآثار في اسمه سبحانه «الخالق» يصلح أن يذكر هنا، ويضاف إلى ذلك.

ـ قد امتن علينا بأنه صوَّرنا، فأحسن صورنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وتصويرنا الذي امتن الله علينا به يتمُّ على وجهين:

الأول: تصوير أبينا آدم عليه السَّلام، فقد خلقه الله تبارك وتعالى بيده وصوَّره، ثم نفخ فيه الروح، وأسجد له الملائكة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

والتصوير الثاني لبني آدم وهو الذي تم في الأرحام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

---

(١) أضواء البيان، محمد الشنقيطي، مرجع سابق، ٨/ ١٢٤.

(٢) مع الله، سلمان العودة، مرجع سابق، ص٩٠.

ـ تصوير الله وخلقه إعجاز . . . وأيُّ إعجاز ! ؟

فلو نظرت إلى نوع واحد من أنواع المخلوقات وهو الإنسان فضلاً عن الجان والملائكة وأنواع الحيوان وغيرها، لوجدت كل إنسان يمتاز بصورة لا يشابهه فيها غيره، فعلى الأرض اليوم ما يزيد على خمسة مليارات من البشر، كل واحد منهم تغاير صورته صورة غيره في الملامح والسمات، وفي الألوان والهيئات، وكم من البشر ولدوا فوق هذه الأرض فيما مضى، وكم سيخلق من البشر فيما سيأتي إلى يوم الدين، كل إنسان له صورته التي خلقه الله عليها، وعند التدقيق في الخلق والتكوين تتضح الفوارق أكثر وأكثر، فهي تختلف في نعمة الباري المبدع المصور، فتبارك الله رب العالمين[١] .

٩ ـ مصرع النظرية الداروينية :

بعد معرفة مراحل خلق أبي البشر آدم عليه السَّلام، ومراحل خلق ذريته، يتضح لكل عاقل متبصر في تلك المراحل أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وتبطل كل دعوى في أن الخلق وُجد مصادفة أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون، وما فيه من مخلوقات، أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت مع مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكونها وتطورها أخرجت لنا الإنسان. فهذه النظرية تُسمَّى بنظرية التطور والارتقاء التي جاء بها داروين، وهذه النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي جاء بها علم التشريح الذي بيَّن فروقاً خَلْقية بين الكائنات الحية، وهذا يُثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية[٢] .

ويقول دعاة النظرية الداروينية : إن أصل المخلوقات حيوان صغير، نشأ من الماء ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغيرات في تكوينه ما أدى إلى نشوء

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٤٤٧ .
(٢) تنوع الخطاب الكريم في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٥٢ .

صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموعة من الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية حوَّلت ذلك المخلوق البدائي إلى مخلوق أرقى. واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

ولو كان ما قاله صحيحاً لوُجدت كائنات أخرى غير التي نرى الآن، ولو بعد مضي سنين، ولو أُخذ بنظريته لكان ارتباط المرأة بالرجل غير ضروري، ولكن قوله هذا غير صحيح وباطل، فهو مجرد نظرية كشفَ العلمُ بطلانها وفساد ما قامت عليه[١]، وإليك الأدلة على مصرع النظرية الداروينية:

أ ـ الأدلة من القرآن الكريم والسنة:

إن قصة آدم في القرآن الكريم تقرر أن الله خلق آدم من طين، ونفخ فيه من روحه. وهذه الآيات قطعية الدلالة، فلا مجال لتأويلها من أجل نظرية فرضية مشكوك فيها[٢]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ أي على أحسن صورة وأبهى آية كما هو الآن. فالله يخبرنا أن بداية الإنسان كان على أحسن صورة وليس كما يدعي داروين، ويقول رب العزة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالله كَرَّم آدم بأن خلقه بشراً سوياً من طين، وكَرَّمه بنفخ الروح، وبسجود الملائكة، وبإسكانه الجنَّة، وليس إكرامه بتطوره من حيوانات تطورت من نوع إلى نوع حتى وصلت إلى الإنسان، فالآيات ذات دلالة دامغة على بطلان هذه النظرية.

---

(١) تنوع الخطاب الكريم في العهد المكي، رجاء الصالح، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٢) آدم عليه السَّلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مرجع سابق، ص٣٥.

وقد تولى الله عزَّ وجلَّ عرض قصة آدم عليه السَّلام في القرآن الكريم، وبيّن لنا في قصته أنه هو الإنسان الأول الذي بَثَّ الله منه هذه السلالة من البشر على وجه الأرض، كما حدد لنا الله في كتابه كيفية خلق أبينا آدم بشكل صريح واضح لا يحتمل التأويل، فلا مجال لإيراد تكهنات وتخيلات وفرضيات حول كيفية بدء وجود الإنسان على هذه الأرض، ولا مجال لفرضيات داروين وغيره بعد أن ورد إلينا يقين لا شبهة فيه عن الذي خلقَ وصوَّرَ وهو بكل شيء عليم. ونحن نعلم أن كل اعتقاد يخالف ما تضمنه القرآن الكريم بشكل قاطع هو اعتقاد مخالف للحقيقة[١].

وجاءت السنة النبوية مؤكدة لما جاء في القرآن الكريم؛ إذ إن آدم عندما خلقه الله، خلقه على صورته، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **خلق الله آدم على صورته**[٢]. فقد خُلق آدم على صورته ذاتها التي استمر عليها وعُرف بها، أي أنه لم ينشأ متنقلاً من شكلٍ إلى آخر خلال تاريخه كله أو من فصيلة لأخرى، بل إن آدم كما هو على صورته منذُ خلقه الله عز وجل[٣].

ب ـ الأدلة من العلم على بطلان نظرية داروين علميّاً وعقليّاً:

ألف عشرات العلماء مئات الكتب والتقارير والنشرات حول بطلان نظرية داروين علمياً وعقلياً، وقد توصلوا بجهودهم العلمية إلى نسف النظرية من أساسها، وتقويض أركانها ودعائمها، مستندين في ذلك إلى العلم الحديث كعلم الوراثة والبيولوجيا وغيرهما، مستخلصين عشرات الأدلة على بطلانها، وقد اخترنا بعضها على سبيل التدليل:

---

(١) آدم عليه السَّلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مرجع سابق، ص٣٥.
(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، ٤/ ٢١٨٣.
(٣) آدم عليه السَّلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص٣٥.

ـ أشار بعض العلماء إلى أن داروين نفسه في كتابه (**أصل الأنواع**) أقر بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة ومعقدة في نظريته، منها على سبيل المثال: أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تُشبه هياكل حيوانات مماثلة لا تزال موجودة في عصرنا.

ـ أثبت العلم الحديث أن لكل نوع من الأحياء خارطة وراثية ثابتة لا تتغير مهما تطاول الزمن، وبذلك يحافظ كل صنف على استقلاليته وخصائصه، فلا ينشأ من تكاثره مع صنفه أو صنف مغاير له في خارطة المورثات صنف جديد، فلا تلد القرود إنساناً ولا يلد الإنسان قرداً أبداً.

فعلم الوراثة الحديث قد هدم كل أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمله من خصائص بوساطة الكروموسومات[1]. ولا نجد بين أجناس الكروموسومات وعددها توافقاً، فمثلاً في الإنسان (٤٦) وفي القرود (٤٨) وفي الغنم (٥٤) وفي الحصان (٦٦) وفي الكلب (٧٨)، ولهذا فقد أعلن القرار العلمي بطلان النظرية الداروينية.

ـ إن المكتشفات التي عثر عليها الجيولوجيون تنقض نظرية داروين من أساسها، فقد زعم داروين أن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسان يُعثر عليها في الطبقات السفلى من الأرض دائماً، بينما أثبتت الحفريات عكس ذلك، فقد وجدت من الهياكل والصور الحية المستخرجة من باطن الأرض

---

(١) الكروموسومات: الصبغيات، وهي كلمة مشتقة من اللغة الإغريقية تعني الجسم الملون، وتمثل الكروموسومات أو الصبغيات جسيمات متناهية الصغر منفردة ورقيقة يصعب رؤيتها مجهرياً في أغلب أوقات حياة الخلية، وتُعنى الكروموسات بنقل صفات الآباء للأبناء، وتحدد صفاتهم المختلفة مثل: الطول ولون العينين والشعر وغيره، للمزيد انظر الفيديو: https:\\bit.ly\3bpK8PW.

أحياء أعقد تركيباً وأرقى مما فوقها من الأحياء(١).

ـ زعم داروين أن الإنسان متسلسل من سلالات حيوانية، وأنه أخذ صورته الإنسانية منذُ مليون سنة، ولكن علم المستحاثات هنا لا يثبت ذلك الزعم، إذ لم يعثر على السلاسل المزعومة التي تسلسل منها الإنسان، فهناك حلقات كثيرة مفقودة بين الإنسان والغوريلا أو الشمبانزي التي يُتوهَّم أن أصل الإنسان منها. فالحكم بانحدار الإنسان من القرود تعسف لا تحتمله نتائج البحث العلمي، علاوة على وجود اختلافات بين الإنسان والقرد في المظهر والشكل والقامة والملامح والاستعدادات الروحية والعقلية والعاطفية واللغوية(٢).

ـ عثر بعض العلماء في السنوات الأخيرة في البحار القريبة من جزر القمر على سمكة كانوا يعتقدون انقراضها منذُ عدة ملايين من السنين، كل ذلك يؤكد بطلان هذه النظرية(٣).

وإذا كانت نظرية التطور صحيحة، فلماذا لم تتطور القرود وتتمدن، ونحن نعيش في عصر التمدن والتطور(٤).

ثالثاً: سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

(١) الإنسان بين الأمل والأجل، عبد الحميد طهماز، ص٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٥٧.
(٤) آدم عليه السَّلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص٣٧.

أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٨].

وبعد الحديث عن الخلق والتصوير لبني الإنسان كان الحديث عن سجود الملائكة لآدم عليه السَّلام، والذي كان الغرض منه تنفيذ أمر الله، وذلك طاعة له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وإظهاراً لفضله، وتنويهاً على مكانته عند الله. وقد مرّ معنا الحديث مفصلاً في الآيات التي جاءت في سورة البقرة، ولم يكن إبليس من المنفذين لأمر الله عزَّ وجلَّ استكباراً وحسداً لآدم.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]:

أي: ما منعك من السُّجود؟ وما حملك على ألاَّ تسجد عندما توجه إليك أمري وإلى الملائكة بالسُّجود لآدم؟

ولم يخاطب الله عزَّ وجلَّ إبليس في هذا الحوار باسمه إهانة له واحتقاراً، واكتفى بضمير المخاطب، وأما في سورة الحجر فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

وفي سورة ص، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، فقد خاطبه باسمه تلطفاً به[١]، وأصرّ إبليس على عناده وتشبَّث بتكبره وصلفه، ولم يُراجعْ نفسه أمام ربه، مما يدلُّ على استحكام الكفر والاعتراض على الله عزَّ وجلَّ وعدم الاستجابة لأوامره النافذة، بل يرى من العبث والظلم أن يسجد مخلوق أعلى رتبة لمخلوق أدنى منه في الرتبة والمنزلة والخلق[٢].

(١) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان، مرجع سابق، ص١٠.
(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٣/ ٩٩٨ ـ ٩٩٩.

ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

إن إبليس عارض أمر ربه بشبهته التي ركَّبها من مقدمتين، هما:

المقدمة الأولى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فهذه مقدمة صغرى، وأما الكبرى فهي محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول: واستند في ذلك بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

المقدمة الثانية: معلومة من المقدمة الأولى، أي: ومن خلق من نار أفضل ممن خلق من طين.

هاتان المقدمتان اللتان ادّعاهما إبليس، ليستا هما الأصل في امتناعه عن السُّجود، وإنما ذكرهما تعنُّتاً وعناداً، إذ الأصل في امتناعه عن السُّجود لآدم عليه السَّلام هو الكبر والكفر والإباء المجرد، فالله تبارك وتعالى أخبر في كتابه الكريم أن إبليس لم يسجد مع قدرته على السُّجود بقوله ﴿أَبَىٰ﴾ فالإباء هو الامتناع مع القدرة والاختيار، ولا يُقال لمن لم يكن قادراً على الفعل: إنه أبى، كما أخبر سبحانه وتعالى أن هذا الإباء والاستكبار من إبليس، نتيجة للكفر المتأصِّل في نفسه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ـ يقول أبو عبد الله الشبلي: اعلم أن هذه الشبهة التي ذكرها إبليس، إنما ذكرها على سبيل التعنّت، وإلا فامتناعه من السُّجود لآدم إنما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد[(١)]، وهذه الشبهة التي رتَّب عليها إبليس تلك المقدمتين، واستخلص منهما نتيجته الفاسدة، هي شبهة باطلة لعدة وجوه، هي فيما يأتي:

أ ـ إن شبهة إبليس قامت على القياس مع وجود النصّ:

وكل قياس مع وجود النص إبليسي باطل، وقد أكد العلماء هذا الوجه في ردِّ

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان، محمد بدر الدين الشبلي، مرجع سابق، ص ١٥٣.

شبهة إبليس وشنعوا عليه قياسه الفاسد، قال ابن الجوزي: «قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حيث قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار»[١].

ـ يقول الشهرستاني: اعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها، وهي النار، على المادة التي خلق منها آدم عليه السَّلام، وهي الطين[٢].

ـ يقول ابن القيم عن قياس إبليس: إنه قياس في مقابلة النصّ، والقياس إذا صادَم النص وقابله كان قياساً باطلاً، ويُسمَّى قياساً إبليسيّاً، فإنَّه يتضمَّن معارضة الحق بالباطل، وتقديمه عليه، ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته[٣].

ويعتبر هذا القياس الإبليسي هو أول قياس وقع، قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس، وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالقياس[٤].

وهذا من الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه، وكل ما يورد من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذمّ القياس فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم[٥].

وأما القياس الصحيح المعتمد على الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، مرجع سابق، ٣/ ١٧٤.
(٢) المِلل والنحَل، أبو الفتح محمد الشهرستاني، ١/ ١٥ ـ ١٦.
(٣) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ٣/ ١٠٠٢.
(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٣١.
(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٥٥.

نبيه ﷺ وإجماع الأمة فهو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم، وبذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ وعن جماعة الصحابة والتابعين.

ومما أثر عنهم أن أبا بكر رضي الله عنه قال حين بايعوه بالخلافة: أقيلوني بيعتي. فقال علي: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، أرضيك رسول الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا؟ فقاس الإمامة على الصلاة، وقاس الصدّيق الزكاة على الصلاة، وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصرّح علي بالقياس في شارب الخمر بمحضر من الصحابة وقال: إنه إذا سكر هَذَى، وإذا هَذَى افترى، فحدّه حدّ القاذف.

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتاباً فيه: الفَهم الفَهم فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والأشباه، ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى[1].

وحينما قال أبو عبيدة لعمر ـ رضي الله عنهما ـ في حديث طاعون عمواس حين رجع عمر من سفره من الشام: تفرُّ من قدر الله؟ فقال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم قال له الفاروق: «أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر اللَّه، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟!»، فقاسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار.

وحسبُك فإن الآثار وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة، وهي تدلُّ على أن القياس أصل من أصول الدين وعصمة من عِصم المسلمين، يرجع إليها المجتهدون ويفزع إليه العلماء العاملون فيستنبطون به الأحكام[2].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٥٤.
(٢) المرجع نفسه، ٧/ ١٥٤.

ب ـ إن تفضيل إبليس أصل خلقه على أصل خلق آدم عليه السَّلام واستناده في زعمه هذا على قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ غير صحيح للاعتبارات الآتية:

ـ أن التراب منفعته أكثر من النار، فالتراب إذا وُضع فيه القُوتُ أنتج أضعافاً كثيرة وهذا من بركته، إذ وصف الله الأرض بالبركة، والتراب هو مادة الأرض وعنصرها، قال تعالى في بركة الأرض العامة: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠].

وأخبر عن الأرض أنها تهتزُّ وتَربو بالماء، ثم تُخرج الزروع والثمار اليانعة، قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وهذه الأرض هي مصدر رزق الإنسان ومنبت قوته ومعاشه، يقول جلّ شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. وإلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي جاءت في وصف الأرض بالفضل والبركة والمنفعة للعباد.

وأما النار، فلم يخبر الله تعالى أنه جعلها مباركة كما أخبر عن الأرض، ولم تُذكر النار في القرآن الكريم إلا في معرض العقوبة والتخويف، وجاءت في موضع واحد بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٣]. فالنار بالنسبة إلى الأرض كنسبة الخادم إلى المخدوم، إذا استغنت عنها أبعدتها وإذا احتاجت إليها استدعتها، وهي مُذهِبة لبركة ما يطوله لهبها، فلا يرجع إلا هشيماً تنسفه الرياح[1].

---

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان وعلاجها، عبد المنعم الحوّاس، ص١١٨.

ـ إن النار طبعها الخفة والطيش والحِدَّة، وأما التراب ففيه الثبات والرزانة، ولما في الأرض من السكينة و الاستقرار، استطاع الإنسان أن يستفيد من خيـراتهـا وكنوزها المكنونة فيها، إذ جعلها الله مذللة للإنسان، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

ولقد أكد العلماء على هذا الفرق البَيّن بين التراب والنار، فيقول ابن جرير: فجهل عدو الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع علوّاً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث، بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السُّجود لآدم والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن جوهر الطين: الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت، وذلك الذي في جوهره من ذلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من الخطيئة وسؤال ربه العفو عنه والمغفرة[١].

ويقول ابن كثير: فأخطأ ـ أي إبليس ـ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين، أيضاً فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبّت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الطيش والإحراق والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة[٢].

ـ أن التراب لا يستغني عنه الإنسان والحيوان، ولا عمَّا يتكون فيه ومنه، فهو ضروري لهما، أما النار فيستغني عنها الحيوان. وقدِّرت المنفعة العظيمة للتراب

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٢٠٤.

في الاستفادة منه في الحرث والزرع والثمار، حيث ورد في سياق تعداد نعم الله عزَّ وجلَّ على عباده في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

وذكر الله تعالى نعمة الماء ثم ذكر جلّ وعلا نعمة الاستفادة من النار:

ـ التراب لا يفتقر إلى حامل يحمله فهو قائم بذلك، في حين أن النار لا تقوم بنفسها، فهي مفتقرة إلى محل تقوم به ويحملها، بل إن هذا المحل لا يكون غالباً إلا من التراب أو فيه، فأين الأكمل والأفضل، القائم بنفسه المستغني عن غيره، أم الذي لا يقوم إلا في المحل بغيره ويتوقف حصوله على وجود محله؟

ـ أن الله عزَّ وجلَّ أودع في الأرض منافع كثيرة، ففيها المعادن والأنهار والثمار والعيون والأقوات، وأضاف الحيوانات والجنان وغيرها، أما النار فإنَّه لا يوجد فيها شيء من ذلك أصلاً، فمن أراد الوقوف على الفرق بين التراب والنار، فلينظر إلى البساتين الخضرة والثمار اليانعة والروائح الطَّيِّبة الزكية والمياه العذبة... إلخ، ثم ليشاهد النار وحرَّها ولهبها، فإنَّه يتبيّن له فضل التراب على النار.

ـ التراب إذا خُلط بالماء صار طيناً، وبهذا الطين الذي احتقره إبليس شُيّدت المساكن وأقيمت المدائن ورُفعت المآذن التي يُذكر فيها اسم الله تعالى وعُمّرت بيوت الله للعبادة، أما النار فأي شيء عمّرته ورفعته غير لهبها، فهي مع ما فيها من المنفعة مخربة للبلاد والعباد.

ـ الطين مركب من أصلين أساسيين للحياة على الأرض، وهما:

الماء الذي جعله الله سبباً رئيساً لحياة الإنسان والحيوان والنبات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والتراب الذي جعله الله خزانة للمنافع ومستودعاً لها ومحضناً للبذر ومنبتاً للزرع والثمار وسبباً لحصول القوت. أما النار، فلا يوجد فيها هذان العنصران أو أحدهما.

ـ لو سُلّم بطريقة الفرض الباطل أن النار خير من الطين، فلا يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من النار خيراً من المخلوق من الطين، فالله تعالى قادر على أن يخلق من المادة الأدنى من هو خير من المخلوق من المادة الأفضل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وهو من كمال قدرته تعالى، يقول ابن عطية: «وقول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قياس أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين، قاس أن ما خُلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خلق من المفضول، ولم يدرِ أن الفضائل تخصيصات من الله تعالى يسمُ بها من يشاء» (١).

ويقول ابن تيمية رحمه الله: إنه وإن كانت النار خيراً من الطين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل، فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله، وهذا التراب تُخلق منه الحيوانات والمعادن والنبات مما هو خير منه، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله على أصله حُجَّة فاسدة احتجّ بها إبليس، وهي حُجَّة الذين يفخرون بأنسابهم.

ـ الله تبارك وتعالى شرّف طينة آدم عليه السَّلام التي خُلق منها وفضّلها بأمرين:

* أن الله تعالى شرّفها بأن خلقها بيديه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

* أن الله جلّ وعلا شرّفها بنفخ الروح المقدَّسة فيها كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

---

(١) تفسير ابن عطية، مرجع سابق، ١٢/ ٤٨٩.

فهذان الأمران من أعظم الأسباب الموجبة لتفضيل الطين على النار[١].

وبهذا يتبين سقوط هذه الشُّبهة الإبليسية التي قامت على الكبر والعناد والمعارضة لأمر الله تبارك وتعالى، فصار إبليس بها إماماً لذوي الآراء الفاسدة والشُّبهات الباطلة والأهواء المائلة. يقول ابن القيم: وظنَّ أن هذه الشبهة تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شُبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطّلوها، رأيتها من جنس شبهته[٢].

ويعلق الدكتور عبد الحميد محمود طهماز على قوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: فإبليس يرى أن الفضل والتقدم يرجع إلى الأصل، فهو إذن مصدر النظريات التي استحدثها بعض الناس القائلة بتفوُّق بعض الأعراق البشرية والأجناس على غيرها، والتي تسببت في كثير من الحروب والنكبات لأبناء آدم، وآخرها الحربان العالميتان الأولى والثانية في النصف الأول للقرن الميلادي العشرين[٣].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]:

إن علمه بالله لم ينفعه، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه، وكذلك كل من يتلقى أمر الله ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه، وحاكمية في قضية قضى الله فيها من قبل، يرد بها قضاء الله في هذه القضية، إن الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد، فإبليس لم ينقصه العلم، ولم يكن

---

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص١٢١.
(٢) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ١/ ٣٧١.
(٣) التفسير الموضوعي، محمد الكومي ومحمد قاسم، مرجع سابق، ٣/ ٢٤.

ينقصه الاعتقاد، لقد طُرد من الجنَّة وطُرد من رحمة الله وحقَّت عليه اللعنة وكُتب عليه الصغار[١].

وقال الشنقيطي: بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾، والصغار أشد الذل والهوان، وقوله تعالى: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، ونحو ذلك من الآيات، ويُفهَم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرّح بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

وقد بيّن الباري تبارك وتعالى في مواضع أخرى كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر، أعاذنا الله والمسلمين منه، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله والاهتداء بها كما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

ومن ذلك أن صاحبه لا يُحِبُّه الله تعالى كما في قوله جلّ شأنه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. ومن ذلك أن موسى عليه السَّلام استعاذ من المتصف بالكِبر، ولا يُستعاذ إلا مما هو شرٌّ، كما في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] إلى غير ذلك من نتائجه السيئة وعواقبه الوخيمة[٢].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٢/ ١٠ ـ ١١.

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قلبِه مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ**»[١].

ويُفهم من مفهوم المخالفة في الآية الكريمة أن المتواضع لله جلّ وعلا يرفعه الله، وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عند موضع آخر كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: «**إنه أُوحي إليّ أن تَواضَعوا حتّى لا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ ولا يَبغي أحدٌ على أحدٍ**»[٢]. وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهَه ... على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه ... إلى صفحات الجو وهو وضيعُ

٣ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٥]:

أ ـ إبليس يُريد الخلود:

خرج إبليس صاغراً ذليلاً بحكم الله العادل، ثم عاد إلى ربه يطلب منه أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة[٣]، وهذه أيضاً جهلة أخرى من جهالته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأله النظرة إلى قيام الساعة وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق، ولو أُعطي ما سأل من النظرة كان قد

(١) رواه مسلم، رقم ١٤٩.
(٢) صحيح مسلم، ٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٩. وفي: سنن أبي داود، رقم ٤٨٩٥.
(٣) آدم عليه السَّلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مرجع سابق، ص٦٩.

أعطي الخلود، وبقاء لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث[1].

وجاء إنظار إبليس في القرآن الكريم على النحو الآتي:

ـ في سورة الأعراف قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ـ١٥].

ـ وفي سورة الحجر قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ـ٣٨].

ـ وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

ـ وفي سورة ص قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨٠ـ٨١].

ومن خلال الآيات السابقة، نجد أن إبليس قد طلب من ربه أن ينظره إلى يوم الدين، فكانت أقواله على النحو الآتي:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ومن خلال ما سبق نجد أن قوله: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لفظ واحد تكرر ثلاث مرات لفظاً ومعنى، أما الصورة الرابعة فجاءت على صورة مشابهة في المعنى، مختلفة في اللفظ، وهذا التصوير الرباني لموقف إبليس يكشف لنا مدى اللهفة والحرص على أن يتحقق لإبليس ما طلب من الله، فقد ضاع منه كل شيء وهذا هو الأمل الأخير الذي تعلق به إبليس، فإن أجيب له ما أراد تنفست نفسه

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٥/ ١٣٢.

الصعداء ليبث حقده وسمومه على آدم وذريته من بعده[١] .

كان طلب إبليس من الله عزَّ وجلَّ دليلاً على خبثه ومكره وخِداعه، فهو يريد أن يكون مخلداً في هذا الوجود، ولا يموت كما يموت باقي المخلوقين، والمعنى أن يبقى حيّاً إلى يوم البعث وأن يشهد موت الناس وأن يشهد نفخة الصعق التي يُصعَق كل الأحياء عند حدوثها ويموتون، وأن يشهد موت الملائكة جميعاً وأن يبقى حيّاً يتفرج على جميع المخلوقين الموتى، وأن يبقى حيّاً يشهد نفخة البعث ويرى الموتى وهم يُبعثون أحياء، وهذا معناه ألاَّ يموت، بل يكون مخلداً، وأن الله العليم يعلم معنى طلبه : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ويعلم هدفه من ذلك الطلب .

ولكن هذا يتعارض مع سنة الله في المخلوقين من الإنس والجن والملائكة وغيرهم، والتي تقرر أنهم لا بدَّ من أن يموتوا كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] [٢]. وإذا كان جميع الجن والإنس والملائكة سيموتون فإن إبليس لا بدَّ أن يموت ثم يُبعث للحساب؛ ولذلك ردّ الله على طلبه قائلاً : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر : ٣٧-٣٨]، أنظره الله وأمهله وأطال عمره وأخّر موته وقبض روحه ليس إلى يوم يبعثون، ولكن ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾، وهو اليوم الذي حدّد الله فيه موت إبليس، وهو معلوم محدد مقدر لا يتقدم ولا يتأخر، وهذا سيكون قبيل قيام الساعة أي أن إبليس لا بدَّ أن يموت قبيل قيام الساعة[٣] .

والمشهور أن يوم النفخة الأولى هو يوم الوقت المعلوم، وفي سورة ص والحجر تم التقييد لطلب إبليس بيوم الوقت المعلوم[٤]، كما أن جواب الله

(١) آدم بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مرجع سابق، ص٧٠.
(٢) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٩٠ .
(٣) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٩٠ .
(٤) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ٨/ ٤٦٣ .

لإبليس إخبار عن أمر تحقق قد قضاه الله وقدَّره من قبل سؤاله، وليس إجابة لطلب إبليس، لأنه أهون على الله من أن يجيب له طلباً، وهذه هي النكتة في العدول على أن يكون الجواب: أنظرتك أو أجبت لك، مما يدلُّ على تكرمه باستجابة طلبه، ولكنه أعلمه أن ما سأله أمر حاصل فسؤاله تحصيل حاصل[(١)]، ولكن إلى ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾، وهذا ابتلاء للإنسان واختبار لحركة عقله وإرادته في الطاعة الإرادية القائمة على وقوفه أمام خياري الخير والشر[(٢)].

ب ـ سماع قول الظالم:

وفي هذه الآية وما قبلها عدل الله سبحانه وتعالى بسماع قول الظالم وطلبه قبل عقابه، وهو أعلم سبحانه بظلمه وعناده وسوء قصده، وذلك أن الله لا يُنزل عقوبة بظالم حتى يُقيم الحجة عليه، ليقطع عذره عند نفسه قبل غيره، ومن ذلك:

أن يقيم الحجج المادية على العباد في الآخرة بالبينات عليهم، وهو أعلم بهم، بالكتابة عليهم، وإشهاد الملائكة، وإشهاد جوارحهم عليهم ليقطع بذلك أعذارهم، وهذا من كمال عدله، فجعله سبحانه على نفسه ولم يجعله عليه أحد.

وفي هذه الآية: أنه وجب على السلطان والقاضي أن يسمع قول الظالم والجاني ولو قامت البيّنات عليه من غير إقراره، لأن من مقاصد الحكم إقامة العدل في الظالم عند نفسه حتى لا تسوِّل له نفسه وشيطانه أنه ظلم وبغي عليه ولم يسمع قوله، أو يدعي أحد من أهله وذويه أن له حجة لم تسمع، فيقع ذلك في بعض النفوس الجاهلة، فإن وقع فهو ظلم تسبَّب فيه السلطان بتقصيره بعدم

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٨/ ٤٦.
(٢) تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، ٧/ ٤١.

سماع قول الظالم وإزالة شبهته وعناده عند نفسه ولو لم يقرّ بذلك عند غيره. وهذا إذا كان من سماع الظالم المعاند، فإنَّه من حق المظلوم وصاحب الحق أولى وأوجب.

وإذا كانت خصومة بين اثنين أو جماعة وجب على القاضي السماع منهما جميعاً في مجلس واحد، حتى يستوفي الردود بينهما، ولا يجوز له أن يسمع من كل واحد في مجلس، حتى لا يقول في خصمه شيئاً وهو غائب وعنده حجة تدفعه، وقد قال النبي ﷺ: «**يا عليُّ إذا جلسَ إليكَ الخَصْمانِ فلا تقضِ بينهما حتى تسمعَ من الآخَرِ كما سمعتَ من الأوَّلِ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلك تبيَّن لك القضاءُ**»[١]. وعن عبد الله بن الزبير قال: قضى رسول الله ﷺ أن الخصمين يقعدان بين يدي الحكم[٢].

ومن مقاصد الشرع في سماع أطراف الخصومة ولو تبيّن الظالم منهما:

إقناع الباغي ببغيه، وقطع حجته عند نفسه حتى تنزل العقوبة بتسليم لا بعناد، فتجد نفسه مدخلاً لاتهام الشريعة وأهلها، فيتحوّل من الذّنب والظلم إلى الكفر، ومن مقاصدها:

أن تُسَدَّ أبواب اتهام الشرعية وأهلها من المنافقين، أو من أهل الجهل من قرابة الظالم بأن الظالم لم يُنصَف وقد ظُلم وبُغي عليه، لأن لديه حجة لم تُسمع منه[٣].

ج ـ إبليس من أطول المخلوقات عمراً:

ردَّ الله تعالى على طلب إبليس قائلاً: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾؛ أنظره الله وأمهله وأطال عمره وأخّر موته وقبض روحه ليس إلى يوم

---

(١) أخرجه أحمد، ١/ ١١١. وانظر: سنن أبي داود، رقم ٣٥٨٢.
(٢) سنن أبي داود، رقم ٣٥٨٨. وانظر: مسند أحمد، ٤/ ٤.
(٣) التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ٣/ ١٢٨٨.

يبعثون لكن إلى ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾؛ وهو اليوم الذي حدّد الله فيه موت إبليس، وهو يوم معلوم محدّد مقدّر لا يتقدم ولا يتأخر.

وقد تبيَّن من دراسة للآيات الكريمة أن إبليس من أطول المخلوقات عمراً، فقد خلقه الله قبل آدم عليه السَّلام لفترة لا يعلم مقدارها إلا الله، وشهد أحداث قصة آدم في الجنَّة، وهبط مع آدم إلى الأرض، وعاش حياة البشر على الأرض منذُ ساعاتها الأولى، وبقي حيّاً يشهد مرور آلاف وملايين السنين، ويرى تعاقب الأجيال من البشر، ويمارس دوره في الإغواء والإفساد وبعد ذلك سيموت قبيل قيام الساعة.

إن معنى هذا أن يعيش إبليس فترات زمنية لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ، فهو من أطول المخلوقات عمراً، لكنّه بعد ذلك سيموت، لأن كل مخلوق سيموت[1].

٤ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]:

بعد أن يئس إبليس من كل خير، وأيقن باللعن والرجم، وضمن أن يعيش إلى قبيل قيام الساعة، قطع على نفسه عهداً أمام الله بالإصرار على الشر والتصميم المطلق على الغواية، وبذلك تكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى شرّاً ليس عارضاً ولا وقتيّاً، إنما هو الشر الأصل العامد القاصد العنيد، ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية في مشاهد شاخصة حية.

وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث ـ وقد حصل على قضاء البقاء الطويل ـ أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به بسبب معصيته وتكبره وحسده لآدم

(١) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٩١.

وامتناعه عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، بات يغوي ذلك المخلوق الذي كرمه الله والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده، ويجسم هذا الإغواء الذي حكاه القرآن عنه[١].

ـ ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾؛ أي: إنه سيقعد لهم على صراط الله المستقيم.

والإغواء إيقاع الغي في القلب، وهنا نجد أن إبليس يعترف بسلطان الله تعالى الكامل على العقول والنفوس، وأن الغفلة التي سترت مداركه وأضلَّت تفكيره هي بإرادة الله تعالى وبعمل منه[٢]، وقال ابن جرير الطبري في قوله تعالى: «﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾: فبما أضللتني. وكان بعضهم يتأول قوله: ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ بما أهلكتني من قولهم: غوي الفصيل يغوي غوًى، وذلك إذا فقد اللبن فمات»[٣]، وقال القرطبي في تفسيره: ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، الإغواء: إيقاع الغي في القلب أي فيما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار[٤].

ـ ﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ إن المعنى ـ والله أعلم ـ لأقعدن للعباد على طريق الحق والاستقامة والإسلام أصرفهم عنها وأزهدهم فيها وفي سلوكها، وأصدهم عنها وأزين لهم الباطل حتى يهلكوا كما هلكت، ويضلوا كما ضللت، ويخيبوا كما خبت[٥].

وقد ورد في السنة النبوية من النصوص في بيان صفة عداوة إبليس، فعن ابن الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ**

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٧.
(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، ٥/ ٢٧٩٦.
(٣) جامع البيان، الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٤) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٥٥.
(٥) التسهيل لتأويل التنزيل (سورة الأعراف)، العدوي، ص٥٢.

بأطْرُقِه[١]**، فقعدَ له بطريقِ الإسلام فقال له:** أتُسلم وتذرُ دينَك ودينَ آبائِك وآباءِ أبيك؟ قال: **فعصاهُ فأسلمَ ثم قعدَ له بطريقِ الهجرةِ فقال:** أتُهاجرُ وتذرُ أرضَك وسماءَك؟ وإنَّما مثلُ المهاجِرِ كمثلِ الفرسِ في الطِّوَلِ[٢]، **قال: فعصاهُ فهاجرَ، قال: ثم قعدَ له بطريقِ الجهادِ فقال:** هو جهدُ النفسِ والمالِ، فتقاتلُ فتُقتَلُ، فتُنكحُ المرأةُ ويُقسَمُ المالُ، قال: **فعصاهُ فجاهدَ**. فقال رسول الله ﷺ: **فمَن فعلَ ذلك منهم فماتَ، كان حقّاً على الله أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو قُتلَ كان حقّاً على الله أن يُدخِلَه الجنَّةَ، وإن غَرِقَ كان حقّاً على الله أن يُدخِلَه الجنَّةَ أو وقصته دابّةٌ كان حقّاً على الله أن يُدخِله الجنَّةَ»** [٣].

في هذا الحديث من الفوائد: أن الشَّيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمُّ بالخير ويدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه. وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن شيطاناً تفلَّتَ عليّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صَلاتي**» [٤]، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله كان اعتراض الشَّيطان له أكثر، فالشَّيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير[٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشَّيطان قال: وعزَّتِكَ يا ربِّ، لا أبرحُ حتى أُغويَ عبادَك ما دامتْ أرواحُهم في أجسادِهِم، قال الربُّ: وعزَّتي وجلالي لا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفروني**» [٦].

---

(١) بأطرقه: جمع طريق.
(٢) الطِّول: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب.
(٣) مسند أحمد، ٣/ ٤٨٣، الوقص: كسر العنق.
(٤) صحيح البخاري، رقم ٣٤٢٣.
(٥) إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.
(٦) شرح السنة، البغوي، مرجع سابق، رقم ١٢٩٣، ٥/ ٧٦.

- ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ .

في قوله تعالى : ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ ، فللعلماء فيه أقوال :

أحدها : أن قوله : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ يعني به : أُشكِّكُهم فيما هم مُقبِلون عليه من أمر البعث والجزاء والثواب والعقاب فلأشككنهم في ذلك، وأوسوس إليهم بأن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار .

والثاني : يعني به الدنيا ، أُحبِّبُهم فيها وأُرغِّبُهم في طلبها .

وفي قوله : ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ : أشككهم في الأخبار التي نقلت لهم عن سلفهم من الأمم الماضية التي أهلكتها أو أكرمتها ، ولأحملَنَّهم على تكذيب تلك الأخبار ، و**الثاني** : يعني الآخرة ، أُشكِّكهم فيها وأصرفهم عن العمل لها .

وأما قوله : ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ ، ففيه أيضاً أقوال :

وأحدها : ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ يعني : من قبل الحق أُلبِّسه عليهم وأُزهِّدهم فيه وأُنفِّرهم عنه .

والثاني : ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ يعني : من قبل الحسنات أحملهم على تركها وأشغلهم عنها .

والثالث : ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ أي من ناحية دينهم ألبس عليهم أمر دينهم .

وأما عن ﴿ شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ :

أحدها : من قبل الباطل أُزيِّنه لهم وأُحبِّبهم فيه وأُرغِّبهم في عمله وسلوكه .

والثاني : ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ يعني المعاصي أُزيِّنها لهم(١) .

قال الطبري : وأَولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : معناه : ثم

---

(١) التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة الأعراف ، العدوي ، مرجع سابق ، ص٥٤ .

لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل فأصدّهم عن الحق وأزين لهم الباطل، وذلك عقيب قوله:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله دين الحق فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، ومن الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدّهم عنه وذلك: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من الوجه الذي نهاهم الله عنه فيزينه لهم ويدعوهم إليه وذلك: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [١]، وقيل: لم يقل من فوقهم، لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم[٢].

وقال ابن القيم: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنَّه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيّ سبيل سلكها من هذه وجد الشَّيطان رصداً له، فإن سلكها في طاعة وَجَدَه عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويُبطِّئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له خادماً ومعيناً وممنِّياً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك[٣].

وقد وردت الاستعاذة من الشَّيطان وتسلطه من الجهات المذكورة وغيرها، ففي الحديث: **اللهمَّ احفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتالَ من تحتي**[٤]، وقد بين الرسول ﷺ الاستعاذة من الشَّيطان على الإنسان من جهاته كلها[٥].

ـ ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: موحّدين طائعين مظهرين الشكر[٦] لفضلك

---

(١) تفسير الطبري، ٨/ ١٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ٨/ ١٣٧.
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٦٦.
(٤) سنن أبي داود، رقم ٥٠٧٣، وأخرجه الحاكم وصححه.
(٥) التدبُّر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ١١/ ٧٥.
(٦) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٥٧.

وإحسانك ومنقادين لأمرك، وقول إبليس هنا جاء على سبيل الظَّنّ والتوقُّع، فهو لا يعلم الغيب ولكنه علم نقاط الضعف البشري التي يمكنه التسلط على الإنسان بوساطتها، فيُحَسِّن له الضلال ويُبعده عن الصراط المستقيم(١).

قال ابن عطية: وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أخبر أن سعايته تفعل ذلك؛ ظنّاً منه وتوهماً في خلقه آدم، حين رأى خلقته من أشياء مختلفة فعلم أنه ستكون لهم شيم تقتضي طاعته كالغل والحسد والشهوات ونحو ذلك، وما ظنه إبليس صدّقه الله عزَّ وجلَّ ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] (٢).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨]:

ـ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾

إن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكر، خاطبه الله تعالى بما يدلُّ على الزجر والإهانة فقال تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي من الجنَّة أو من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ أي محقوراً، والذأم الاحتقار، والمذؤوم المذموم بأبلغ الذَّم(٣)، وليس في القرآن غيره.

﴿مَذْءُومًا﴾، لم تُذكر هذه الكلمة إلا في هذا الموضع، فهو ذم شديد خاص باللعين(٤). وقال الشنقيطي: بيَّن في هذه الآية الكريمة أنه قال لإبليس: اخرج منها في حال كونك مذؤوماً مدحوراً. والمذؤوم: المعيب أو الممقوت، والمدحور: المبعد عن الرحمة المطرود(٥)، وذَمُّ إبليس بما اتَّصف به من

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٢٧.
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ٢/ ٣٨١.
(٣) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٥/ ٢١٦.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٢٧.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٢/ ١٢، ١١.

الرذائل، وطرده لتنزيه عالم القدس عن مخالطته(١).

ـ ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وهذا قسم من الله جلّ ثناؤه، أقسم أن من اتبع من بني آدم عدوَّ الله إبليس وأطاعه وصدق ظنه عليه أن يملأ من جميعهم، يعني من كفرة بني آدم أتباع إبليس ومن إبليس وذريته جهنم(٢)، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤ ـ ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤ ـ ٩٥] إلى غير ذلك من الآيات(٣).

والمتأمل لهذه الآيات يجد معظمها ذكرت كلمة: ﴿تَبِعَ﴾؛ مما يدلُّ على أن الموالين للشيطان والسائرين وراءه لهم إرادة وكسب واختيار في اتباعهم للشيطان وإعراضهم عن الصراط المستقيم طريق الهادي الرحيم، ولهذا فهم مسؤولون عن اختيارهم وكسبهم كما يتضح من كلمة ﴿تَبِعَ﴾(٤).

رابعاً: قصة آدم في الجنَّة وخروجه منها:

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٩/ ٥١.
(٢) تفسير الطبري، المرجع سابق، ٨/ ١٣٩.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٢/ ١١ ـ ١٢.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ١/ ٢٨.

لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٥].

* وفي تفسير الآيات:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]:

أ ـ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

وفي توجيه الخطاب لآدم عليه السَّلام بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده هو زيادة إهانة، لأن إعطاء النعم لمرضيّ عنه في حضرة من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب، وإظهار للتفاوت بين مستحقي الإنعام، ومستحق العقوبة(١).

ـ ومعنى ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ إنما هو أمر تقرير، أي: ابق في الجنَّة، وفي هذا تكريم لآدم وزوجه بمسمع من إبليس، مقمعة لإبليس، لأنه كان مستقراً في الجنَّة من قبل، فالقمع ظاهر إذ طرده الله، وأسكن الذي تَكبَّر هو عن السُّجود إليه في المكان المشرف الذي كان له قبل تكبُّره، وإن لم يكن إبليس ساكناً في الجنَّة قبل، فإكرام الذي احتقره ورَفعُه عليه قمعٌ له، فقد دل هذا الكلام في هذه السورة على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة البقرة، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع، وهذا من بدائع إعجاز القرآن(٢).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٩/٥٣.
(٢) المرجع نفسه، ٩/٥٣ ـ ٥٤.

والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ، والإتيان بالضمير المنفصل ﴿أَنتَ﴾ بعد الأمر لقصد زيادة التنكيل بإبليس، لأن ذكر ضميره في مقام العطف يعني أن غيره ليس مثله.

ولفظة ﴿ٱسْكُنْ﴾؛ وردت مرتين في الخطاب القرآني بمعنى السكن والسكينة، وتُستخرج من الجذر الأصلي الذي من أجله اكتسبت كلمة «مسكن» معنى السكينة. إنه التصالح مع النفس ومع الآخرين، إنه التصالح الذي يَلُمُّ أطراف الجميع ويجمعهم تحت خيمة أسرة واحدة، تستهدف مجتمعاً جديداً متصالحاً مع نفسه دون صراع ينهشه من الداخل(١).

ـ ﴿وَزَوْجُكَ﴾: في هذه الفترة، وبعد حصول آدم على المنزلة الراقية وسجود الملائكة له أذن الله سبحانه وتعالى بوجود مخلوق جديد في هذا الكون، وسيكون نظيراً لآدم ومشابهاً له في الخلق ويكون في النهاية شريكاً في جميع المراحل التي سوف يمر بها وهذا الشريك هو زوجة آدم أو امرأته، وتدعى حواء.

وكما ذكرنا سابقاً في سورة البقرة، فبعد أن خلق الله آدم وعلمه ذلك العلم السامي الغزير، وأدخله في اختبار لعلمه وعقله مع الملائكة كما رأينا، وكي لا يبقى وحيداً فلا بُد من نظير يكمله ويستقر إليه، فخلق الله سبحانه وتعالى له حواء من جنسه وطينته نفسها(٢).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

---

(١) الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، أحمد العمري، ص٩١.
(٢) تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، ص١٥٠.

خُلقت حواء من النوع والمنشأ والطينة نفسها التي خلق منها آدم، فأخذت الصفات نفسها التي اكتسبها آدم، وتذكر بعض الأقوال بأن حواء خُلقت من ضلع آدم وسُمِّيت بهذا الاسم: «حواء»، وذلك لأنها خُلقت من حيٍّ، وذكرتُ خلاف العلماء في هذه القضية، ومن أراد التوسع فليرجع إليها في سورة البقرة.

إن الذي يمكن الجزم به هو أن الله خلق له زوجاً من جنسه فصارا زوجين اثنين. والسُّنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ فهي سنة جارية، وهي قاعدة أصيلة في كل خلق الله، وإذا سرنا مع هذه السُّنة، فإن لنا أن نُرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم، وأنه تم على الطريقة نفسها التي خُلق بها آدم عليه السَّلام[1].

إن آدم عليه السَّلام هو الذَّكَر، ويقابله من الطرف الآخر حواء وهي الأنثى، أي تحقّقَ طرفا المعادلة والثنائية المطلوبة، وهما سيكونان سبباً لأشياء أخرى كما سيمر معنا في مجريات قصة آدم عليه السَّلام، فحواء صورة مشابهة لآدم في كثير من الصفات، ولكن تختلف عنه في بعضها، وذلك بسبب ميلها إلى عاطفتها أكثر من عقلها، وذلك لمهمة ستتولاها فيما بعد، ولكنها بالنسبة لآدم شقيقة روحه ونظيرته في الخلق ونصفه الآخر الذي يكمله وأُنسه الذي من جنسه، وملاذه الوحيد بعد الله سبحانه وتعالى[2]، فبدأت الحياة الإنسانية بهذه الثنائية المباركة التي خلق الله منها بني الإنسان وفق حكمته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالى.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٨.
(٢) تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص١٥١.

ـ ﴿ ٱلۡجَنَّةَ ﴾؛ المراد بها دار النعيم التي أعدّها الله للمؤمنين المتقين، والراجح أن المشاهد الأولى من قصة آدم وإبليس كانت في الجنَّة دار النعيم، لأن غالب استعمال كلمة: ﴿ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ في القرآن بهذا المعنى، ويُراد بها الجنَّة المباركة العظيمة التي خلقها الله قبل آدم وإبليس، وجَعلها دار النعيم التي هي مأوى المتقين الصالحين.

وذهب البعض إلى أن المراد بالجنَّة في قصة آدم: ﴿ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، بأنها جنة على الأرض تتمثل في مكان مرتفع على رأس جبل عالٍ، وهذا المكان فيه أشجار وثمار وأنهار وعيون وبيوت وقصور، وهو ممتد فسيح، سُمِّيَ ﴿ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ لهذا السبب، ولسنا مع هؤلاء في تأويلهم واجتهادهم، لأنه لا يتفق مع ظاهر التعبير القرآني عن إسكان آدم وزوجه الجنَّة، وهذا هو الأصل في معنى الجنَّة في القرآن[1].

والذي عليه أهل السنة أن الجنَّة التي أُخرج منها آدم وحواء وقبلهما إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم[2]، وقال ابن بطال: إن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أُهبط منها آدم عليه السَّلام، فلا معنى لقول من خالفهم[3]، ولهذا أقوال كثيرة ذكرت منها طرفاً يحصل منه المقصود بإذن الله في قصة آدم عليه السَّلام في سورة البقرة.

ب ـ ﴿ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾:

بدأت حياة آدم وزوجته الجديدة، وهم في قمة السعادة، وفي عز الشباب، وهما بكامل الحرية بأن يأكلوا من جميع ثمار الجنَّة إلا شجرة واحدة ممنوع الأكل منها وهذه ليست مشكلة، فلديهم متسع كبير من نعيم الجنات وأعداد

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١١٦.
(٢) قصة آدم، عمر أبوبكر، مرجع سابق، ص١٤٣.
(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١/ ٣٠٣.

لا يمكن حصرها، يتمتعان بالأكل من ثمارها المتنوعة ويشربان من شراب الجنَّة ومائها العذب، وغرق آدم وزوجته في لذة نعيم الجنَّة ونسيا أنهما في مرحلة اختبار في هذه الجنَّة، وأن هناك شجرة وحيدة ممنوع الأكل من ثمارها، وأن هناك عدوّاً يتربص لهم بالسوء، وينتظر الفرصة المناسبة ليوقعهما في المكيدة ليفسد عليهما هذا النعيم(١).

وأصبح آدم وزوجته بين اختيارين إما أن يُطيعا أمر الله ويأكلا من ثمار الجنَّة ويكون غذاؤهما منها، ويعيشا فيها بشكل دائم وهذا هو الاختيار الجيد، وإما أن يُخالفا أمر الله، ويأكلا من ثمار الشجرة الممنوعة، وبسببها يعاقبان ويُهبَطان إلى الأرض، ويكون غذاؤهما الدائم منها، وهذا هو الاختيار السيِّئ.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نمط المعيشة التي سينعم فيها آدم وزوجته في الجنَّة، حيث قال: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧ـ١١٩].

وإذا دققنا في معاني هذه الآيات الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى بَيَّن لآدم بكل وضوح أسلوب معيشته في الجنَّة في حال التزم بأوامر الله تعالى، أما إذا اتبع آدم خطوات الشَّيطان، فسوف يعيش في نمط معاكس تماماً لنمط معيشته في الجنَّة، وهو نمط شقاء العيش خارج الجنَّة. ومن ثم كانا أمام اختيار بين أسلوبين من المعيشة وهما:

* سعادة العيش في الجنَّة.

* شقاء العيش خارج الجنَّة.

---

(١) تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص١٦٠.

وسنوضح ذلك فيما يلي:

ـ سعادة العيش في الجنَّة:

في حال التزمتَ يا آدم بأوامر الله تعالى، فإنك ستعيش في قمة السعادة في هذه الجنَّة، حيث تستمتع بالأكل من جميع ثمارها بكامل المتعة، وتتلذَّذ بذلك الأكل من دون أن تجوع أو تعطش، وأيضاً تعيش دون عورة تسوؤك لكيلا تحتاج إلى أن تتعرى لقضاء حاجتك الطبيعية، وأيضاً: أنت في ظل شجر الجنَّة الدائم حيث لا يوجد شمس تعاني من لهيب أشعتها.

ـ شقاء العيش خارج الجنَّة:

هنا الخطاب الإلهي لأبينا آدم أنه حال اتبعت خطوات عدوِّك إبليس فسوف تخرج من الجنَّة، وتعيش بشقاء، حيث تتحول إلى نمط عيش معاكس تماماً لنمط العيش في الجنَّة، حيث سيتعرض جسدك إلى أذى شديد، وتتعرض من جراء ذلك إلى الجوع والعطش، وسوف تبدو لديك سوآت تجعلك تحتاج إلى أن تتعرى لقضاء حاجتك الطبيعية، مما يسبب لك الإحراج والخجل، ولكي تحصل على لقمة العيش سوف تعمل وتتعب وتشقى، وتتعرض لأشعة الشمس الحارقة.

وهذا هو آدم عندما وقع في المعصية، فخرج من الجنَّة وحُرم من نعيمها، ونزل إلى الأرض وشقائها كما هو معلوم[١].

ـ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: عندما أذن الله لآدم وحواء بالأكل من حيث أرادا في الجنَّة لم يمنعهما إلا من شجرة واحدة معيّنة من أشجار الجنَّة الكثيرة، تُثمر ثمراً خاصّاً شهيّاً مرغوباً، وكان آدم وحواء يعرفانها، ولذلك لما نهاهما الله عن الاقتراب منها أشار لها باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ الذي يُشار به للقريب، وهذا يدلُّ

---

(١) تفاحة آدم وشجرة الختام، بشير محمد، مرجع سابق، ص١٧٢.

على قرب الشجرة منهما قرباً ماديّاً وقرباً معنوياً. وأل التعريف في ﴿ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ للعهد الذهني لأنها شجرة معروفة عند آدم وحواء.

ولم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشجرة المحرّمة إنما نهاهما عما هو أبلغ، وهو الاقتراب منها، حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾؛ والنهي عن الاقتراب من الشجرة أبلغ من مجرد النهي عن الأكل منها، لأنه يتضمَّن النهي عن الأكل منها، أما النهي عن الأكل فإنَّه لا يتضمَّن النهي عن الاقتراب منها، حيث إنهما إذا لم يقتربا من الشجرة فلن يأكلا منها من باب أولى وهذا معناه أنهما كانا منهيّين عن شيئين، الاقتراب من الشجرة والأكل منها.

وهذا هو المسمّى في الإسلام بسد الذرائع، أي تحريم كل طريق توصل إلى الحرام، فعندما حرّم الإسلام الزنى سدَّ الذرائع إليه، وحرّم كل طريق توصل إليه، فحرّم النظرة والمصافحة والقُبلة والاختلاط والتبرج وغير ذلك.

ولما نهى الله آدم وحواء عن الاقتراب من الشجرة أخبرهما أنهما إن فعلا ذلك كانا من الظالمين، وقد يتساءل البعض: لماذا كلّفهما الله بالنهي عن الاقتراب من تلك الشجرة؟

لعل الحكمة من ذلك التكليف هي تقوية إرادة آدم وحواء، وتنمية معاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك وهما في الجنَّة ليُحسنا النظر إليه، ويتمرّنا على التفاعل معه، لأن الله سيُنزلهما بعد ذلك إلى الأرض وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وسيكون هذا التكليف لهما في الجنَّة تمهيداً للتكاليف الشرعية لذريتهما من بعدهما، فما كُلِّف الأبوان في الجنَّة وتدرَّبا عليه، سوف تُكلَّف به ذرِّيتُهما من بعدهما وتتدرَّب عليه[1].

---

(١) سيرة آدم عليه السَّلام، الخالدي، مرجع سابق، ص١٢٠.

وقد خاض كثير من المفسرين في تحديد تلك الشجرة، فقال بعضهم: إنها كانت شجرة البُرّ، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وقيل: كانت شجرة الحنطة، وقيل: كانت سنبلة وغير ذلك. وإن عدم اتفاقهم على واحدة منها دليل على عدم توقيف شيء من ذلك في كتاب أو سنة، ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنَّة دون سائر أشجارها، فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن، ولا في السُّنة الصحيحة[١]، رجّحه ابن كثير بقوله: وهو الصواب[٢].

ـ ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ يعني: فتكونا من المعتدين إلى غير ما أُذِن لكما فيه وأبيح، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة، كنتما على منهاج من تعدَّى حُدودي، وَعصى أمري، واستحلَّ محارمي، لأن الظالمين بعضُهم أولياء بعض، والله وليّ المتقين، وأصل (الظلم) في كلام العرب وضعُ الشيء في غير موضعه[٣]. وقال غيره: يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما[٤].

٢ ـ قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠]:

أ ـ ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾:

أي: ألقى إليهما الوسوسة وهي الصوت الخفي المتكرر.

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٥٢١.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٣٥.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١/ ٢٣٤.
(٤) قصص الأنبياء، العدوي، مرجع سابق، ١/ ٥١.

إن هدف إبليس الأول من الوسوسة أن يزيل عنهما حرمة أهل الجنَّة وكرامتها وسعادتها، فيتلطَّخا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها[١]، أي استزلّهما بالوسوسة والإغراء اللذين لهما أعظم التأثير في القلوب، حيث غزاهما بدغدغة العواطف وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب[٢]، قائلاً لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

ولا خلاف بين أهل العلم أن إبليس اللعين هو الذي تولى إغواء آدم حتى أكل من تلك الشجرة التي نُهي عنها، ولكنهم اختلفوا في الكيفية التي تمكن إبليس من تحقيق ذلك[٣].

فهناك من العلماء من قال: إن إبليس كلم آدم وحواء مشافهة وأغواهما بالوسواس حتى أكلا من تلك الشجرة، وكل ذلك وهو على باب الجنَّة من الخارج، وليس بداخلها، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، والمقاسمة ظاهرها المشافهة[٤].

وهناك قول آخر من أقوال العلماء: أن إبليس لم يدخل على آدم في الجنَّة بعد أن خرج منها مذؤوماً مدحوراً ملعوناً، وإنما أغواه إبليس بشيطانه وسلطانه ووساوسه بدليل قول النبي ﷺ: **إن الشَّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**[٥].

وهناك أقوالٌ أخرى في المسألة ضربنا عنها صفحاً لأنها باطلة، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيده، وأبي العالية ووهب بن منبه وغيرهم،

---

(١) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ٨/ ٩٩.
(٢) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مرجع سابق، ص٧١.
(٣) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥٥.
(٤) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥٦.
(٥) صحيح البخاري، رقم ١٨٩٨.

ههُنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس، وكيف جرى دخول إبليس إلى الجنَّة ووسوسته[١].

ومثل هذا الرأي يُكتفى بذكره عند الرد عليه، فكل من عقل عن الله يدرك بطلان مثل هذه الآراء، إذ يستحيل أن يتمكن إبليس من الاحتيال على الله في الدخول إلى الجنَّة، وقد أخرجه الله من الجنَّة بقوله: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٣٤]. وهذه الأقوال قد نُسبت إلى بعض الصحابة، ولكن لو صح النقل عنهم فرضاً فقد يكون مما أُخذ عن بني إسرائيل[٢].

ب ـ ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾:

أي: ليُظهر لهما ما سُتر عنهما من عوراتهما، فعورة الإنسان سوأته، وإظهارها وكشفها يُسيء إليه، ويُنزله عن مرتبة كرامته التي ميَّزه الله تعالى بها عن الحيوانات، والتي رفعه إليها عندما أمر الملائكة بالسُّجود له سجود التكريم والاحترام، كما ذكرنا سابقاً[٣].

فاللام في قوله تعالى ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾؛ لام التعليل، وهذا يدلُّ على أن تعرية آدم وحواء من ثيابهما كانت أمنية لإبليس اللعين قبل حدوث ذلك معهما[٤]، ليُزيل عن آدم وزوجه الحرمة والكرامة، بإظهار عوراتهما وكشف سوآتهما، وكانا لا يريانها تكريماً لهما، وما يفعله كثير من الناس في العصر الحاضر من تعمّد كشف العورات، وإظهار السوآت، انتكاس عن كرامة الإنسان وحرمته، وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزالقها[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٢٣٦.
(٢) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥٧.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣٠/ ٣٠.
(٤) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٦٣.
(٥) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٠.

ج ـ ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ :

بذلك داعب رغائب الإنسان الكامنة، بأنه يجب أن يكون خالداً لا يموت، أو معمَّراً أجلاً طويلاً كالخلود، ويجب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد، وفي قراءة ﴿ مَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام وهذه القراءة يعضدها النص الآخر في سورة طه: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد، وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يُقال: إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل، وعلى قراءة ﴿ مَلَكَيْنِ ﴾ بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد، كالملائكة مع الخلود، لكن القراءة الأولى ـ وإن لم تكن هي المشهورة ـ أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر، ومع اتجاه الكيد الشَّيطاني وفق شهوات الإنسان الأصليّة(١).

ومعنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حواء وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما، فغطاه بستره الذي ستره عليهما.

وقيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾. ويقول ـ جلّ ثناؤه ـ: وقال الشَّيطان لآدم وزوجته حوّاء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها إلا لئلا تكونا ملكين.. أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ في الجنَّة، الماكثين فيها أبداً، فلا تموتا(٢).

قال ابن القيم: ومن هنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٩.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٤٠.

وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنَّه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بالنفس على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أن يصلوا إلى أغراضهم الفاسدة أن يدخلوا على الناس من الباب الذي يُحبُّونه ويهوونه، فإنَّه باب لا يخذل في حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود، فشام عدو الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين وقال: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها: «ملِكين» بكسر اللام، ويقول: لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرف فيهما الرغبة أن يكونا ملِكين فآتاهما من جهة الملك، ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. وأما على القراءة المشهورة، فيقال: كيف أطمع عدوُّ الله آدمَ عليه السَّلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم عليه السَّلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة، من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه الله عزَّ وجلَّ عنه؟[1].

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السَّلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرّهما وخدعهما، بأن مسمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة،

(١) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ١١/ ٨٦.

وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه بشرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرَّبّ تنزيهاً، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطَّيِّبة، فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنَّة ولا تموتا فتكونا مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السَّلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنَّة وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر لما فرغ الله سبحانه من تقديره فأخذتهما سِنة الغفلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

واستيقظـــوا وأراد الله غفلتـــهـــم ينفـــذ القدر المحتـــوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يَعترِض عليه قوله: ﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، فيقال: الماكر المخادع لا بدَّ أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدلُّ على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدو الله والاعتذار عنه، وإنما يُعتذَر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين، إنما ردّد الأمر بين أمرين: **أحدهما**: ممتنع، والآخر: ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن؛ جزم له به ولم يردّده فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢]، فلم يدخل أداة الشك ههُنا كما أدخلها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، فتأمله![(١)].

ونلاحظ الشعارات التي رفعها إبليس في خطته، لم يقل: إن الممنوع مرغوب، ولم يقل شيئاً مباشراً قط، لكنه رفع شعارات في غاية الجاذبية

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٧٩ ـ ١٨١.

والبراءة، بل إنه أقسم لهما أنه لهما ناصح، وأنه يبذل جهده من أجلهما، فلنلاحظ شعاراته:

﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾.

﴿تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾.

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

كلها براقة وجذابة، لكن كلها مزيفة وخداعة[(١)].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]:

أ ـ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾:

وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بمعنى: تحالفوا بالله.

ب ـ وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾:

أي لممَّن ينصح لكما ويُخلص في مشورته ويصدقكما القول بأنكما إن أكلتما من الشجرة كنتما ملكين، أو كنتما من الخالدين[(٢)].

وتدل صيغة: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ على أنه كرَّر القسم أكثر من مرة، وأنهما كانا في أول الأمر لا يثقان به ولا ينصاعان لوسوسته، وأنه حصلت بينهما مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد[(٣)].

وقال ابن القيم: تضمن هذا الخبر أنواعاً من التأكيد:

أحدها: تأكيده بالقسم.

---

(١) الفردوس المستعار، العمري، مرجع سابق، ص٩٩.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٤١.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٢.

الثاني: تأكيده بإنَّ.

الثالث: تقديم المعمول على العامل، إيذاناً بالاختصاص: أي نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها عائدة إليكما لا إليّ.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد، أي: النصح صفتي وسجيتي، ليس أمراً عارضاً لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحاً من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كُثُر، وأنا واحد منهم.

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاؤوه: ﴿ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١]، فأكّدوا خبرهم بالشهادة وبـ﴿ إِنَّ ﴾ وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ ﴾ [التوبة: ٥٦] [١].

وقال: لم يكن آدم يَظن أن أحداً يُقسم بالله كاذباً يمين غموس، يتجرأ فيها على الله هذه الجرأة، فغرّه عدو الله بهذا التأكيد والمبالغة، فصدَّقه آدم بأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنَّة، ورأى أن الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة النهي أثناء ذلك، إما باعتذار وإما بتوبة وإما بغير ذلك، كما تجد هذا التأويل قائماً في نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شك فيه إذا أقدم على المعصية[٢].

وقال ابن عاشور: وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاثة مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردُّد في

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٨١.
(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٣٧٥.

صدقه، وإنما شكّا في نصحه، لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفاً لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادته بهما للخير علماً حاصلاً بالفطرة(١).

ونسي آدم وزوجه ـ تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدِّر ـ أنه عدوُّهما الذي لا يمكن أن يدلهما على خير، وأن الله أمرهما أمراً عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفا، وأنه لا يكون شيء إلا بقدر من الله، فإذا كان لم يُقدِّر لهما الخلود والملك الذي لا يبلى فلن ينالاه(٢).

واستطاع إبليس اللعين أن يتمكن من التأثير في آدم وحواء مستخدماً في ذلك كل ما يملك من أدوات التغرير بهما، وأقنعهما بأن تلك هي نصائح يقدمها إليهما بدافع الحرص على الخير لهما، مؤكداً ذلك بالقسم(٣).

٤ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢]:

أ ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾:

ـ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أي أنزلهما عمّا كانا من عزِّ الطاعة وشرفها ومنعتها، ونبّه سبحانه بهذا اللفظ على أن الشَّيطان أهبطهما من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل(٤).

ـ ﴿بِغُرُورٍۚ﴾: وهما متلبّسان بخداعه ومكره، فما زال يزين لهما المعصية حتى أثار شهوتهما إلى المحظور، فغلب عليهما، وأنساهما نهي الله تعالى

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٨/ ٦٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٩.
(٣) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٤٩.
(٤) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ٢/ ٥٣٤.

وتحريمه الأكل من الشجرة، فما أقدما على المعصية تصديقاً للشيطان، وإنما أكلا منها بسبب ضعفهما أمام الشهوة التي أثارها الخبيث فيهما[١].

قال الآلوسي رحمه الله: وذهب كثير من المحققين إلى أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظنّاً، وإنما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة، كما نجد من أنفسنا أن نُقدِم على الفعل إذا زيّن لنا الغير ما نشتهيه، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾: جعلهما يتدليان نحو القاع، نحو القعر، نحو أسفل سافلين، بينما هما يتصوران أنهما يركبان سلم الرقي والتطور، وقادهما إلى تلك الشجرة المحرمة، خطوة خطوة، ووصلا إلى تلك الشجرة عبر خطوات الشَّيطان.

ويُذكِّرنا ذلك، لو أردنا التذكُّر، بكل سقوط حدث في هذا العالم الذي استغرق سقوطه تاريخاً إثر تاريخ، حتى على الصعيد الشخصي ستجد بصمات هذه الخطوات واضحة جلية.

سنجد هذا الهمس دائماً: فأنت حر، خلقك الله بهذه النوازع، والزمن تغيَّر وكانوا يتزوجون وقتها مبكراً، لقد خلقنا الله لنستمتع بهذه الدنيا، أنت أهم شخص في الحياة، فلا تهتم بما يقول الآخرون، ليس هناك من ضرر في هذا، لن يضر هذا أحداً، والله لن يحاسبنا إلا على ما يضر الناس، الناس تطوروا الآن والقيم تغيرت. هل ستظل بهذه العقلية؟

وإنما هي خطوة فخطوة من خطوات الشَّيطان في داخلنا إلى أن نصل إلى تلك الشجرة المحرمة التي نسقط بعدها: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾؟[٣]

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ٨/ ١٠٠.
(٣) الفردوس المستعار، أحمد العمري، مرجع سابق، ص١٠٠.

ب ـ ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ :

ـ ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ : وذلك يدلُّ على أنهما تناولا اليسير بقصد معرفة طعمه، ولولا أنه تعالى ذكر في آية أخرى أنهما أكلا منها لكان ما في هذه الآية لا يدلُّ على الأكل، لأن الذائق قد يكون ذائقاً من دون أكل(١) .

ـ ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ : نزع عنهما لباس الجنَّة ولا سيما أهل الجنَّة، ورأى كل منهما عورة الآخر، وفوجئا بما طرأ عليهما من تغيُّر وتبدُّل، وأدركا فوراً جنايتهما، وغلب عليهما الحياء من الله تعالى، وأخذا يبحثان عن شيء يستر سوآتهما، فلم يجدا غير ورق شجر الجنَّة(٢) .

ج ـ ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ :

أي: شرعا يجمعان ورق الجنَّة ورقة فوق ورقة لكي يسترا به عورتيهما(٣) .

وما من معصية تُرتكَب إلا ولها تبعاتها في الدنيا أو في الآخرة إن لم يتب منها صاحبها توبة نصوحاً، فها هو آدم وهو ممن اختاره الله أن يكون خليفة في الأرض لما أكل من تلك الشجرة حلَّت عليه بسببها تلك العقوبات التي جاء في مقدمتها تعريته من ثيابه التي كان يستر بها عورته، فضاقت عليه الجنَّة بما رحبت حينما ظهرت عورته وعورة زوجه للعيان فشرعا يسترانها بما أمكن لهما من ورق الشجر، وخاطبهما ربهما وهما على تلك الحالة الحرجة(٤) . وهذه الآيات الكريمة جميعها تُبطل نظرية الإنسان الحجري العاري من الثياب.

إن كثيراً من المؤرخين الغربيين يروّجون لنظرية الإنسان الحجري،

---

(١) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٥/ ٢٢٠ .
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٣ .
(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٣٣ .
(٤) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥١ .

ويعنون بذلك أن الإنسان في بداية أمره كان يعيش بالأدوات الحجرية، أي أنه كان بدائياً في كل شيء ومن مقتضى ذلك أن الإنسان كان يمشي عرياناً كما ولدته أمه، ولم يكن على جسده لباس يستر به عورته، بل كان يفترش الأرض ويلتحف السماء.

وهذا كله كذب وافتراء على البشرية في تاريخها، وتنكُّرٌ لنعم الله التي أنعم بها على بني آدم، من ستر عوراتهم، ولم يكن الإنسان في تاريخه يوماً فاقداً ما يستر به عورته، قد أوجد الله لآدم وحواء وهما في الجنَّة من اللباس ما يستران به سوآتهما، واستمرت تلك النعمة من ستر العورة من ذلك الوقت، وتلك نعمة تكفلها الله لبني آدم إلى قيام الساعة(١).

وقد يحدث العري عند أمة من الأمم باختيارٍ منهم مع توفر اللباس لديهم أو معرفة الوسائل التي توصلهم إليه، فيمشون عراة تماشياً مع أعرافهم وتقاليدهم، كما تعيش بعض القبائل في أدغال أفريقيا، وهم لا يزالون عراة أو شبه عراة، ويرون أخذ اللباس عيباً ومخالفاً لعاداتهم وتقاليدهم. وقد يكون العُري عند بعضهم راجعاً إلى انحراف عقدي كحال بعض قبائل العرب(٢).

قال ابن كثير: كانت العرب ـ ما عدا قريش ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش ـ وهم الحُمس ـ يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيّ ثوباً طاف به، ومن معه ثوب جديد طاف به ثم يُلقيه فلا يتملَّكُه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عُريان.

وكان هذا شيئاً ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، وكانوا يعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرعه، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال:

---

(١) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥٢.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٥٢.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقد يكون سبب العري راجعاً لانحلال أخلاقي كحال الغرب في العصور المتأخرة، فإنهم مع تقدمهم المادي وتمكنهم من وسائل الإنتاج يتجردون من ثيابهم شيئاً فشيئاً، حتى إن نساءهم لا يكدن في هذا العصر يسترن إلا العورة المغلظة، بل لديهم أماكن خُصِّصت للعراة منهم، يمشي الرجال مع النساء جنباً إلى جنب دون حياء ولا خجل(١).

إن العري مُنافٍ للفطرة الإنسانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً(٢).

وعلى كل حال فلم تفقد البشرية عبر تاريخها ما تستر به عورتها، وإن اختلفت نوعية اللباس من جيل إلى جيل، فقد يكون لباس بعضهم في فترة من الفترات جلود البهائم والسباع، وقد يصنع آخرون لباسهم من جذوع الأشجار وجريدة النخل. والدليل على ما قلنا أنَّ الرسالات السماوية لم تنقطع عن أهل الأرض يوماً منذُ الخليقة الأولى، والأنبياء هم قادة البشر عبر التاريخ، وإن وجد كثير ممن يعارضونهم، لكن كانت العاقبة لهم دوماً، وهذا يدلُّ على رُقي البشرية، إذ كانت تتلقى التوجيهات من الله في جميع مناحي الحياة، وفي ذلك ما يدحض تلك المزاعم التي تُنزِل الإنسان إلى مستوى البهائم(٣).

إن من الفطرة الاستتار والتزين باللباس، ولو بين الزوجين، وإبداء السوأتين والعورات بين الزوجين بلا حاجة ولا مقصد مأذون به غير أنه مكروه، لأنّه يسقط

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٤٠٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ٢٠٨.
(٣) قصة آدم، أبوبكر، مرجع سابق، ص١٥٤.

هيبة الحياء في النفس، وتزهد أحدهما في الآخر، وتتشوف إلى غيره من الحرام. وقد فطر الله آدم وحواء على الستر، فسترا عوراتهما بورق الشجر مع أنه لا يراهما أحد من البشر غيرهما، فليس لهم ذرية عند ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فجعل رؤية بعضهما لبعض بلا حاجة من مقاصد الشَّيطان، ولو كانت مباحة في الأصل، ولكنّ الأصل الستر واللباس، وأمّا الكشف فعارض.

وقد جعل الله الأصل في بني آدم الستر باللباس، فتستتر المرأة وتتزين ولو كانت لا يراها أحد، والرجل يُستحبُّ له أن يستر بدنه ولو كان وحده في فلاة لا يراه فيها أحدٌ. فذلك استتار تحبه النفس، وهي مفطورة عليه، حتى لو كان الإنسان في بيته مغلق الأبواب، لا يُستحَبُّ له أن يبقى عريان، لأن ذلك مخالف للفطرة، ولو كان الإنسان أعمى البصر لا يرى عورة نفسه ولا يراه أحد لأحبَّ أن يستتر، لحرارة الفطرة في نفسه التي يجدها[(١)].

وقد شرع الله الاستتار باللباس، لجملة من الأسباب:

ـ حياءً من الله، فالله يُحِبُّ أن يُستحيا منه وذلك من تعظيمه وإجلاله، والله لا تُستر عنه عين، ولا تُستَر عنه عورة فلا يراها، وإنما مجرد فعل اللباس والاستتار به هو من الحياء الذي يُحبُّه الله تعالى. وقد قال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أَحَقُّ أن يُستَحيا منه مِن الناسِ**»[(٢)].

وكان بعض خيار السلف يستترون فيغطُّون رؤوسهم وهم في الخلاء حياءً من الله، كما صحَّ عن أبي بكر الصديق قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين، استحيوا من الله، فو الذي نفسي بيده، إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مُغطِّياً رأسي، استحياء من ربي[(٣)]. وكان طاوس يأمر ابنه بذلك.

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ٣/ ١٢٩٠.
(٢) سنن أبو داود، رقم ٤٠١٧، وانظر: سنن الترمذي، رقم ٢٧٩٤.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة، رقم ١١٢٧.

ـ حياء من الملائكة، فإن الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم، كما جاء في الحديث، وما يتأذى منه بنو آدم بُدُوُّ السوأة، وذلك من مقاصد قيام الفطرة في آدم وحواء وذريتهما وحبهما للاستتار في الجنَّة، وليس فيها من البشر غيرهما، وقد دلَّ الدليل على أن الملائكة مجبولة على الحياء كبني آدم، كما قال ﷺ: «**ألا تَستَحِي مِن رَجلٍ تَستَحِي منه الملائكةُ**»[١]، يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ـ الاستتار عن الناس والحياء منهم، فإن هذا من أعظم مقاصد اللباس وغير ذلك من الأسباب[٢].

د ـ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: وهنا جاءهما النداء من الله مذكّراً ومؤنِّباً: كيف خالفتما هذا النهي وعصيتماني؟ ما حجتكما في ذلك؟ هل هي وسوسة الشَّيطان؟ وكيف لم تنتبها إلى وسوسته[٣]. ألم أنهكما عن الشجرة؟ فهنا عتابان وتوبيخان من الله:

الأول على فعل المعصية، و**الثاني** على الاغترار بوسوسة الشَّيطان[٤].

وقد تأخر نداء الرَّبّ إياهما إلى أن بدت لهما سوآتهما، وتحيّلا لستر عوراتهما ليكون للتوبيخ وقع مكين في نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة الله وأن الشَّرَّ في عصيانه[٥]، وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وإغفال النصيحة، أما كيف كان النداء؟ وكيف سمعاه؟ فهو كما خاطبهما أول مرة، وكما خاطب الملائكة، وكما

---

(١) أخرجه مسلم، رقم ٢٤٠١.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ١٢٩٣.
(٣) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٥٠.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٨/ ٦٥.

خاطب إبليس، كلها غيب لا ندري عنه إلا أنه وقع وأن الله يفعل ما يشاء(١).

وتمثلت لآدم وحواء الجريمة في مستوى الكارثة، فكيف نسيا تحذير الله لهما؟ وكيف أقبلا على المعصية وغفلا عن عداوة الشَّيطان لهما؟ وكيف خالفا أمر الله الذي خلقهما وأنعم عليهما؟

وبدأا يعيشان الندم كأعمق ما يكون من حيث الحسرة والمرارة والذُّعر، ولكنهما لم يستسلما لهذه المشاعر السلبية طويلاً، ولم يسقطا في وهدة اليأس، فلهما من الله أكثر من أمل، لأنه الرَّبّ الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم، فرجعا إليه وعادا إلى كنف رحمته يتطلعان إلى مغفرته ورضوانه في موقف الاعتراف الخاشع: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ (٢).

٥ ـ **قال تعالى**: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]:

وفي هذه الآية يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد، إنه ينسى ويُخطئ، إن فيه ضعفاً يدخل منه الشَّيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً، ولكنه يدرك خطأه ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة، ويثوب ويتوب إلى الله، إنها خصيصة الإنسان التي توصله إلى ربه وتفتح له الأبواب إليه وإلا كان من الخاسرين، وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى وعرفها هو وذاقها، واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة لمزاولة اختصاصه في الخلافة وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٦٩.
(٢) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٥١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٧٠.

والآية غنية بمفاهيم عديدة:

ـ مفهوم الربوبية، ومفهوم الظلم، ومفهوم النفس، ومفهوم المغفرة، ومفهوم الرحمة، ومفهوم الخسران.

أ ـ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾:

افتتح آدم وحواء عليهما السَّلام دعاءهما الخاشع باسم الله «الرب» ﴿رَبَّنَا﴾ الرب هو المربي لجميع عباده بالتدبير و الإنعام، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كان دعاء الأبوين الكريمين بهذا الاسم العظيم «ربنا»، يا ربنا، فقد اتَّجهوا معترفين بذنوبهم مقرّين بخطئهم، وقد أحسوا بأن مغبة العصيان وقعت، فنادوا ربهم «ربنا» وهنا حرف النداء محذوف وهو نداء ضراعة وخشية(١).

إن من أخصِّ صفات الرَّبّ عزَّ وجلَّ الرحمة والرأفة بعباده وإنعامه عليهم، وقد وَسِعَ الله عزَّ وجلَّ كل شيء برحمته وربوبيته، فمفتاح المغفرة والرحمة الدعاء إلى الله ورسوله بأسمائه الحسنى، وهنا نتعلم من الأبوين اسم الرَّبّ في مناجاة الله والانكسار بين يديه، وطلب المغفرة والرحمة منه.

ونرى أن آدم وحواء عليهما السَّلام في ضراعة وخشية وانكسار بين يدي الله عزَّ وجلَّ، أي: يا ربنا ظلمنا أنفسنا. وظلمهما لأنفسهما كان بادياً لعيانهما عندما ذاقا الشجرة فبدت لهما سوآتهما، وأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنَّة، وظلما أنفسهما بعصيان الله وذلك ظلم مبين، وظلما أنفسهما باغترارهما بالشَّيطان، وقد قال لهما ربهما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ واضح العدوان(٢).

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٥/ ٢٨٠٠.
(٢) المرجع السابق نفسه، ٥/ ٢٨٠٠.

ب ـ ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ :

ـ ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ : إن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه، ﴿ وَتَرْحَمْنَا﴾ بتعطفك علينا وتركك أخذنا به، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يعني: لنكونن من الهالكين.

وقال السمرقندي: في الآية دليل على أن الله تعالى يُعذِّب عباده إذا أصرُّوا على الذنوب، ويتجاوز عنهم إذا تابوا. ولأن إبليس لم يتب وسأل النظرة، فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه، فقبل توبته.

ونـقـل ابـن جـريـر بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية: قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه(١)، وقد تم شرح الآيـة الكـريمـة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ بيان معرفتهم العميقة بمن يغفر الذنوب، وهو سبحانه الغفور لعباده، فقد دخل آدم وحواء عليهما السَّلام إلى عالم الأنس والمغفرة بهذا الدعاء مُلتَمِسين الغفران والتجاوز من الغفور سبحانه وتعالى، فالأبوان يعلمانا بأن ربنا غفور وغفّار، وأن الإنسان في حاجة إلى مغفرته في جميع أدوار حياته. وأمام معرفة الأبوين للغفور الغفار والعفوّ سبحانه وتعالى، وأن من صفاته أنه يغفر الذنوب، بدأت جدران اليأس وجبال الهموم وكآبة المعاصي تتصدع وتزول وتتلاشى، وتنطلق أرواحهما من سجون المعاصي إلى آفاق التوبة، هل هناك أجمل من طلب المغفرة بعد الوقوع في الذنوب والمعاصي من الله؟ بالله قل: أستغفر الله، لا تقلها فقط، تأمل فيها: أستغفر الله، إن قلتها من قلبك تتناثر جميع الوساوس والهواجس والمخاوف!(٢).

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٤٤.
(٢) لأنك الله، علي بن جابر الفيفي، ص١٥٦.

فطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، الذي من أسمائه الحسنى (الغفور)، أصل أصيل لبني الإنسان منذُ بداية البشر، ودعاء أبويهما لله عزَّ وجلَّ وطلب المغفرة منه سبحانه. فالغفور والعفو سبحانه وتعالى: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وُعدنا بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] [(١)].

فالغفور سبحانه: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب[(٢)].

واسمع لربك يا بن آدم الذي يعلم كل ذنب سيقترفه عباده من لدن آدم وحتى قيام الساعة، يعلم تفاصيل تلك الذنوب وخطواتها وشناعة أمرها فيقول تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾؛ طلبا الرحمة من الله الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، وهنا تظهر عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله ومغفرته وعدم اليأس من رحمته التي وسعت كل شيء، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً.

ومما تُستجلَب به رحمة الله الاستغفار، ولذلك قدم الأبوان الاستغفار والإقرار بالذنوب، ثم طلبا من الله الرحمة التي فيها التوبة والرضا من الله عز وجل.

والمتأمل في دعاء الأبوين يُلاحظ حضور اسم الرَّبّ في دعائهما مع الانكسار والخشوع وطلب المغفرة من الغفور والرحمة من الرحيم سبحانه وتعالى، فجمع

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٥٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٦٩.

الأبوان بين طلب الرحمة والمغفرة من الغفور الرحيم، وجمع الله سبحانه بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأن المغفرة تسقط عقوبة الذنوب، ويستر الله عزَّ وجلَّ ذنوب عباده ويقيهم آثامها، كما يقي المِغفَر الرأسَ من السهام، وهذا مقتضى رحمته سبحانه، كما أن في الجمع بين هذين الاسمين الكريمين إشارة إلى الكرم الغامر والفضل العميم، فإن كونه سبحانه (الغفور) يقتضي تجاوزه عن الزلات والعثرات، فإذا قُرن (الغفور) بـ(الرحيم) الذي ظهرت آثار رحمته، فهو الفضل الذي ليس وراءه فضل، فالمغفرة تخلية عن الذنوب والرحمة، وتحلية بالفضل والثواب[١].

ـ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: أي الهالكين، فلا غنى للإنسان عن رحمة الله وعفوه وفضله، ومن دونها يكون مصيره الخسران والهلاك[٢].

إن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى آدم كلمات تعرّف من خلالها على كيفية الخروج من هذه المعصية، وتبيَّن طريقة التوبة من تلك المعصية. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي أن آدم عليه السَّلام تلقَّفَ وتلقَّى من الله كلمات أُلهمها، وعمل بها، وردِدها هو وحواء، وتلك الكلمات ما تمّ شرحه آنفاً: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وتلك الكلمات تلقاها آدم إما بطريق الوحي، وهو الأظهر، أو الإلهام، ويكفينا أن آدم عليه السَّلام قد قال بها، فكانت سبباً في قبول توبته، وقد قبل الله توبته ومحا ذنوبه، وهذه منّة أخرى من الله على آدم، لأنه لو شاء الله لما رضي عنه، ولكنه لما علم من آدم صدق التوجُّه إليه والإقبال عليه للخروج من تبعات

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص١٤٨.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٣.

ذلك الذنب قبل توبته، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

ولما أظهر آدم عبوديته لله وافتقاره إليه رفع الله مكانته، فكانت حاله بعد التوبة أحسن منها حالاً.

٦ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]:

انتهت بهذه النتيجة التجربة، وما فيها من دروس وعبر، وأمر الله تعالى الإنسان بالهبوط إلى الأرض التي خُلق منها ابتداءً ليستخلفه سبحانه فيها:

أ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟﴾:

والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وكرَّر أمرَ الهبوط في حقِّه ليبين أنه قرين الإنسان، وأنه ابتُلي به في جميع أحواله، أو الخطاب لآدم وحواء وخوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كله(١). وقد هبطوا جميعاً إلى الأرض، آدم وزوجه، وإبليس وقبيله، هبطوا ليُصارع بعضهم بعضاً، وليعادي بعضهم بعضاً، وتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحصة للشر، والأخرى فيها الاستعداد للخير والشر، ليتم الابتلاء ويجري قدر الله بما شاء(٢).

ب ـ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾:

فبين الإنسان والشَّيطان عداوة وصراع منذُ وجوده، وبين الناس أنفسهم صراعٌ وعداوةٌ أيضاً: صراع هو السبب الرئيس الأول لحركة تاريخ البشرية بتقدير الله تعالى، ولولا هذا الصراع لكانت حياة الإنسان في الأرض ساكنة هامدة، لا حسَّ فيها ولا حركة.

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٤. وانظر: تفسير النسفي، ١/ ١٠٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٣/ ١٢٧٠.

إن جميع أحداث التاريخ البشري نابعة من هذا الصراع القائم على الأرض بين الخير والشر، فهو محركها وباعث نشاطها.

إن تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب، عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المالية ووسائل الإنتاج، كما زعم إنجلز وماركس في نظرياتهم الاقتصادية، يؤدِّي في النهاية بزعمهم إلى الحتمية التاريخية، وانتصار طبقة العمال (البروليتارية). لقد أظهر الواقع أن هذه الحتمية التاريخية وهم وسراب، وقد انهارت الشيوعية في أكبر معاقلها، وتراجعت عن الكثير من مبادئها، وأعلنت فشلها وإفلاسها وانحسارها الكبير.

إنّ الصراع الذي يُحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، الخير والحق والهدى المتمثلة في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بوساطة الأنبياء والمرسلين، والشرُّ والباطل والضلال المتمثلة بالشَّيطان وأوليائه من الجنِّ والإنس كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ـ٣٩] (١).

ج ـ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

ـ ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾: أي موضع استقرار لحياتكم ومعاشكم(٢).

وقال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسر أبو العالي وقال: وهي كقوله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس واللفظ يَعمُّها فهي

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ٣/ ٣٥.

كقوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦] (١).

ـ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: وانتفاع بما فيها من خيرات خُلقت من أجلكم كما مرّ معنا في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] (٢).

واستقرار الإنسان في الأرض غير دائم، فهو مؤقّت بوقت محدود لا يزيد ولا ينقص، قدّره الخالق الحكيم ولهذا قال:

ـ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي إلى الوقت الذي قدّره سبحانه(٣)، وهو بحسب الجملة إلى قيام الساعة، وبحسب محلِّ فرد إلى بلوغ الأجل والموت، والحين في كلام العرب الوقت غير المعين(٤). وللأرض اتصال كبير بالإنسان، فمنها خلق، وفيها يعيش ويموت وهي مركز صراعاته، ونشاطاته الحضارية وسائر ممارساته كما قدّره سبحانه(٥).

٧ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]:

قال ابن كثير: وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وفي قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

يُخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نُشورهم في يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويُجازي كُلاً بعمله(٦).

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، مرجع سابق، ٣/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٥.
(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٣٦.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، مرجع سابق، ٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٥) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٦.
(٦) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٦.

وهذا حكم الله وقدره، ولا خيار للإنسان فيه ولا حرية، فالأرض هي أمه ووطنه، يستطيع الإنسان أن يرتاد النجوم، ويطوف بمركباته في الفضاء الواسع الرحيب، ولكنّه لن يجد مستقرّاً في غير الأرض، ولن يجد مكاناً فيه جميع أسباب حياته ومعاشه بين ملايين الكواكب والأجرام غير الأرض، كما قال تعالى: ﴿ ۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وها هو الفضاء أمامكم، قرَّبت بعضَه لكم المناظيرُ الضخمة في المراصد العلمية والمركبات الصاروخية، ابحثوا فيه عن وطن آخر للإنسان، وطوفوا بين أجرامه ومجراته ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، واحجزوا منه ما تشاؤون، وتقاسموا كما تريدون، فلن تستطيعوا الاستقرار في غير الأرض[١].

خامساً: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصة آدم عليه السَّلام وما فيها من تقرير وتحذير:

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٦.

ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦ ـ ٣٦].

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشري على الأرض وسماته الكبرى، جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة يا بني آدم.

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصيغة واضحة، فالعهد قريب بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشَّيطان له ومكره وإغوائه، مما أدى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية وتجريده من ثياب أهل الجنَّة، وظهور سوأته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكون له مستقرّاً ومتاعاً إلى حين، فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده، وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كل زمان ومكان(١).

١ ـ قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]:

هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة، مشهد العري وتكشُّف السوآت والخصف من ورق الجنَّة، لقد كان هذا ثمرة للخطيئة، والخطيئة كانت في معصية أمر الله وتناول المحظور الذي نهى الله عنه، وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس) والتي تعج بها التصورات الفنية الغريبة المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات (فرويد)

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٩.

المسمومة. . . لم تكن هي الأكل من (شجرة المعرفة) كما تقول أساطير العهد القديم، ولا غيرة الله سبحانه وتعالى من الإنسان وخوفه ـ تعالى عن وصفهم علواً كبيراً ـ من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة، كما تزعم تلك الأساطير، ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوروبي دائماً حول مستنقع الوحل الجنسي لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودي[(١)].

وفي مواجهة مشهد العُري الذي أعقب الخطيئة، ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر، وقد علمهم ويسّر لهم وشرع لهم كذلك اللباس الذي يستر العورات المكشوفة، ثم يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالاً بدل قبح العُري وشناعته، ولذلك يقول: ﴿أَنزَلْنَا﴾ أي: شرعنا لكم في التنزيل، واللباس قد يُطلَق على ما يواري السوأة، وهو اللباس الداخلي، والرياش قد يُطلَق على ما يُستر به الجسم كله ويُتجمَّل به وهو ظاهر الثياب، كما قد يطلق الرياش على الرغد والنعمة والمال، وهي كلها معانٍ متداخلة ومتلازمة[(٢)].

أ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾:

هذا تمهيد لبيان أن ما كان يفعله بعض العرب من الطواف عرايا، هو خروج عن الفطرة، وهو خروج عن الحياء الإنساني الذي جعل آدم وحواء يخصفان عليها من ورق الجنَّة.

والنداء لبني آدم جميعاً، لأنه مجاوبة للفطرة الإنسانية التي جعلت أبوي البشر يخصفان عليهما من ورق الجنَّة، ولذا كان النداء إلى آدم أولاً، وفيه إشارة إلى تلك الفطرة السليمة، وإلى ذلك الحياء الفطري الذي هو سِمة الإنسانية

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٣٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٧٨.

الرفيعة لا إلى تلك الإنسانية المسيخة، التي تظهر في العري الفاحش الذي يُقِرُّه بعضُ الذين تبلَّدت مشاعرهم وأحاسيسهم.

ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾:

وذلك بإنزال المطر الذي ينبت منه النبات، وتأكل منه الأنعام، ويحيا به كل شيء حي في هذه الأرض، ثم يكون من النبات القطن والكتان، ويكون من الأنعام الأصواف والأوبار والأشعار، مما يُتَّخذ لباساً تُستر به العورة، وقد بيّنا أن السوأة ما يسوء الإنسانَ النظرُ إليه، ولا تقرّه الفطرة السليمة[١]. وثمة هناك ارتباط بين ستر العورة وكرامة الإنسان، وأنّ كشفها تجريد للإنسان عن كرامته، فمن فضل الله على الإنسان الذي حُرم من ثياب الجنَّة وأهبط إلى الأرض أن أنعم عليه وهو في الأرض بنعمة اللباس الذي يحفظ له عورته، ويحفظ له كرامته ومروءته[٢].

ـ ﴿ وَرِيشٗاۖ ﴾ أي: وأنزلنا عليكم ريشاً. والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته، فاستُعير للإنسان للدلالة على لباسه وزينته.

والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوآتكم، ولباساً لزينتكم، لأن التزيُّن غرض صحيح، بشرط أن تناسب الزينة حال المتزين. فللرجال زينة تناسب رجولتهم، وللنساء زينة تناسب أنوثتهن، وبشرط آخر أيضاً: وهو عدم الغلو والإسراف، كما سيأتي معنا[٣].

وأطلق الريش على لباس الزينة، على أنه من قبيل التشبيه بريش الطير الذي يتزين به وتصيبه الحسرة إن خلع منه[٤].

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٥/ ٢٨٠٥.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤٠.
(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٤٠.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٥/ ٢٨٠٥.

ب ـ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ :

انتقلت الآيات من الحديث عن لباس الأجساد إلى الحديث عن لباس الضمائر والقلوب: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ الذي يستر عورات النفس وخصالها المذمومة. فالعورات تُستَر بلباسين: حسّي: وهو الثياب التي تستر سوآت البدن، ومعنويّ: وهو التقوى التي تستر سوآت القلوب وآفات النفوس من الكبر والعجب والحسد وحب الظهور... إلخ، ولا علاج لكل هذه الآفات إلا بتقوى الله ومراقبته[١]. وتقوى الله هي خشيته فيما أمر به ونهى عنه خوفاً من سخطه وغضبه وعقابه.

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ﴾ ؛ أي: ذلك اللباس الذي هو التقوى خير من لبس الثياب[٢].

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التُّقى ... تقلَّب عرياناً وإن كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا[٣]

ولو تجمل الإنسان بأحسن الملابس، وهو لا يتقي الله تعالى، كان كلُّه سوآت. ولو كان متقياً، وليس له إلا خُريقة تواري عورته، كان في غاية الجمال والستر والكمال، فالمهم جمال الباطن، والأفضل أن يجمع الإنسان بين جمال الباطن والظاهر، ولعل النبي ﷺ نبّه إلى أهمية جمال الباطن في قوله الكريم: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلحَت صَلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدَت فَسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**»[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤١.
(٢) المرجع نفسه، ٣/ ٤١.
(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٦٤.
(٤) البخاري، رقم ٥٢، وفي: مسلم، رقم ١٥٩٩.

فمن اتقى الله أي: جعل بينه وبين غضب الله وسخطه وقاية بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وكان مؤمناً بالله خائفاً منه، مراقباً له ظهرت آثار الخيرية عليه، فحسن سمته وسلوكه، واستقامت أخلاقه، ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونورها، وكل إناء بالذي فيه ينضح[1].

ومن تقوى الله عزَّ وجلَّ ستر العورة، وتشمل التقوى مناحي الحياة، وتدخل في شِعب الإيمان، من إزالة الأذى في الطريق وستر العورات إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

والإنسان المؤمن تقيٌّ في طعامه وشرابه ولباسه، فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا حلالاً، وتقي في شهوته ولهوه ولعبه، فلا يأخذ بالحرام من ذلك، وتقي في علاقاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية والعلمية والفكرية... إلخ.

وهناك تلازم بين شرع الله للباس لستر العورات والزينة وبين التقوى، كلاهما لباس:

هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذلك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري، فالعري من اللباس وكشف السوأة، هو عري من الحياء والتقوى.

إن ستر الجسد من الحياء، فهو ليس مجرد اصطلاح عُرفي بيئي، كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق خطط إبليس وأعوانه وأتباعه، وستر الجسد أيضاً فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر، ومكَّنهم من تنفيذها بما سخَّر لهم في الأرض من مقدَّرات وأرزاق.

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤١.

والله يذكّر بني آدم بنعمته عليهم، وفي تشريع اللباس والستر صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى مستوى البهائم، وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل نعمةٌ عظيمة أنعمها الله[١].

ج ـ ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ :

ـ ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ أي «لباس التقوى»؛ فإن التقوى ستر لعيوب النفس، ووقاية لها من غضب الله، وهي زينة القلوب ونورها المشرق، ولذلك قال فيها: ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ في ذاته، وخير من زينة الناس، فإن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[٢].

ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ والإشارة بذلك إلى نعمة الله تعالى في إنزال المطر التي يكون منها الزرع والحرث والنسل، ثم يكون منها للناس الرياش.

لقد حكم الله سبحانه وتعالى أنَّ من آيات الله إنزال المطر، الذي منه الحياة، والذي أنشأ الله به جنات معروشات وغير معروشات، فهذا كله من آيات الله تعالى ونعمه التي توجب الشكر، وهي مع ذلك دالة على وحدانيته[٣].

ـ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾: الضميران يعودان إلى المشركين الذين كفروا بالله، والذين يكفرون بنعمة الله، ويطوفون بالبيت عراة، وقد أنزل الله عليهم لباساً يواري سوآتهم، وريشاً يتزينون به، فلعلهم يتذكرون فينخلعوا عن هذه العادات انخلاعاً[٤].

ولعلهم يتذكرون أن الزينة الإنسانية هي زينة الستر بينما الزينة الحيوانية هي

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ٣/ ١٢٧٩.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٠٦.
(٣) المرجع نفسه، ٦/ ٢٨٠٦.
(٤) المرجع نفسه، ٦/ ٢٨٠٧.

زينة العري، فيتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها، وذلك بالتزام شرعه سبحانه وتعالى.

وقال الزمخشري: وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب بدوّ السوآت وخصف الورق عليها إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى[١].

٢ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]:

وبعد بيان أهمية اللباس وستر العورة، وعلاقته بزينة الإنسان وكرامته، جاء النداء الثاني لبني آدم يحذرهم من مكر الشَّيطان وكيده وفتنته[٢].

أ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾:

ـ ﴿ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ﴾؛ الفتنة الابتلاء والامتحان: ومعنى الآية الكريمة يا بني آدم لا يخدعنكم الشَّيطان، فيبدي سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختياره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء، عند اختياره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما، فأخرجهما بمكره وخداعه من الجنَّة، ونزع عنهما ما كان يسترهما من اللباس، ليريهما سوآتهما بكشف عورتهما وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة[٣].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، مرجع سابق، ٢/ ٧٤.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤١.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٥١ ـ ١٥٣.

ففي هذا النداء تحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة، أن يستسلموا للشيطان، فيما يتخذونه من مناهج وشرائع وتقاليد؛ فيسلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنَّة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما. فالعري والتكشف الذي يزاولونه، والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً، هو عمل من أعمال الفتنة الشَّيطانية وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه. وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم، وأن ينتصر في هذه المعركة وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف[١].

ونلاحظ في صيغة المضارع ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ أنها تدل على استمرار الشَّيطان وإصراره على تعرية الإنسان وإظهار عورته، فهدف الشَّيطان إظهار سوأة الإنسان وعورته لأبناء جنسه، فيكون ذلك سبباً لإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش والزنى، وهذا ما تسعى إليه دُور الأزياء ومصممو الملابس، إنهم يستهدفون أول كلِّ شيء إظهار المفاتن، وإبراز العورات، بشكل يثير الغرائز ويفجر الشهوات، حتى أصبح الناس في كثير من الحالات لا يستطيعون التمييز بين الكاسيات والعاريات، تماماً كما جاء في الحديث الشريف: **«صِنفانِ مِن أهلِ النارِ لم أرَهما بعدُ: رجالٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مميلاتٌ على رؤوسهنَّ كأسنمةِ البختِ المائلةِ، لا يدخلنَ الجنَّةَ ولا يجدنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها ليوجدُ من مسيرةِ كذا وكذا»** [٢].

وقد أصبح لهذا الدور شأن كبير في المجتمعات الإسلامية، فاحتلت معظم المجلات والصحف مواقع الصدارة فيها، مع أن هدفها الأساس هو إظهار

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٧٩.

(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤٢.

العورات وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، واستنزاف أموالهم[١].

ب ـ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

ومعنى قبيله: أي جماعته وجنده وأعوانه، يعني جل ثناؤه بذلك: أن الشَّيطان يراكم هو، والهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدة على الشَّيطان، وقبيله يعني: وصنفه وجنسه الذي هو منه واحد، جمعه: قُبُل، وهم الجن.

ـ وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾: من حيث لا ترون أنتم أيها الناس الشَّيطان وقبيله.

قال صِدِّيق حسن خان: قد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشَّيطان غير ممكنة، وليس في الآية ما يدلُّ على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنَّا لا نراه أبداً. وإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً، قال مالك بن دينار: إن عدواً يراكم ولا ترونه، كأن في الكلام حذفاً تقديره جدير بأن يُحذَر ويُتَّقى، والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة، وتكون الآية مخصوصة بها، فيكونون مرئيين في بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض[٢].

ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وإنها لحقيقة أن الشَّيطان ولي الذين لا يؤمنون، كما أن الله هو ولي المؤمنين، وهي حقيقة رهيبة ولها نتائجها الخطيرة، وهي تُذكَر هكذا مطلقة ثم يُواجَه بها المشركون كحالة واقعة، فترى كيف تكون ولاية الشَّيطان،

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، المرجع السابق، ٣/ ٤٣.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان القنوجي، ٤/ ٣٢٦.

وكيف تفعل في تصورات الناس وحياتهم[١]. والآية التي بعدها تبين ذلك وهي:

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]:

اعلم أن في الناس مَن حمل الفحشاء على ما كانوا يحرمون من البحيرة والسائبة وغيرهما، وفيهم مَن حملها على أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، والأَولى أن نحكم بالتعميم، والفاحشة عبارة عن كل معصية كبيرة فتدخل فيها جميع الكبائر[٢].

وقال الراغب: الفُحش والفحشاء: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال[٣].

والفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين: طوافهم بالبيت عراة، وقال الحسن البصري: هي الشرك والكفر، واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم وبأن الله أمرهم بها[٤].

أ ـ ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾:

فالقوم أدمنوا على الفواحش وألفوها، فإذا ما نُهوا عنها احتجُّوا لها بأمرين: تقليد الآباء والافتراء على الله تعالى.

كان العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت الحرام في ثيابهم التي لبسوها، يتأوَّلون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش، وهم الحُمُس، يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف به، ومن معه ثوب جديد طاف به، ثم يُلقيه فلا يتملَّكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف عُريانَ.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٨٠.
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٥/ ٢٢٥.
(٣) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مرجع سابق، ١١/ ١٢٢.
(٤) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٦٦.

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة في الليل؛ لأن الليل يستر، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، وهم يعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر الله وشرعه، فرد الله عليهم[١].

ب ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

أمر الله تعالى نبيه بأن يواجههم بافترائهم على الله تعالى ببيان أنه يستحيل على الله ما يفترون، لأن الله تعالى له الكمال المطلق، ومن له الكمال المطلق لا يأمر بالفحشاء، لأنه لا يصدر عنه إلا ما هو كمال في ذاته لا يتنافى مع عقل عاقل، ويرضاه ذو الذوق السليم.

قال تعالى: ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ولم يقل «ما أمر بذلك» أو ما أمر بالفحشاء، بل قال نافياً الأمر بالفعل المضارع «لا يأمر بالفحشاء» فلا يمكن أن يأمر بذلك لا في الماضي ولا في المستقبل، وليس شأنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكان النفي بالمضارع، لأنه نفي لشأن الله، ثم قال تعالى، كما أمر نبيه أن يستنكر قولهم: «أتقولون على الله ما لا تعلمون»؟، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، أي لتوبيخهم على ما وقع منهم، لأنهم فعلاً افتروا على الله افتراء، فقالوا ما لا يعلمون صِدقَه، ولم يصل إليهم عن الله تعالى أمر فيه أو حكم.

وإن ذلك، فوق أنه توبيخ لهم واستنكار لفعلهم، فيه توجيه لهم لئلا يتكلموا إلا بعلم، وأن الشَّيطان لينفذ إلى ما يحكمون به أوهامهم وأهواءهم.

وتقديم قوله تعالى «على الله» لبيان وجه الاستنكار الشديد، وهو أنهم يقولون على الله جلَّ جلالُه، فكان قولهم هذا أشد الافتراء، ثم بين سبحانه فكان أن نفى أنه يأمر بالفحشاء[٢].

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤٤.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٢.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]:

ذكر الله سبحانه في الآية السابقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، وهنا يُبيِّن ما يأمر به سبحانه.

أ ـ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾:

إن السياق يقتضي أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر في ذاته مستقيم تقرّه العقول ولا يُنكره الذوق السليم. فالعدل يشمل العدل في الحكم والعدل في الأقوال والأفعال والاعتدال في كل ما يُختار من الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان ولا إلى الاعتداء. ولذلك قال بعض المفسرين: إنه يشمل كل ما أمر الله به، فما أمر إلا بما هو عدل، وما نهى إلا عما هو ظلم.

وقال أبو مسلم في تفسيره: إنه الطاعات كلها، والتعبير بالماضي في «أمر» فيه تكذيب لافترائهم، وأنه لم يأمر به الله سبحانه، فالله سبحانه وتعالى ما أمر بالفحشاء بل أمر بالقسط، وما به تستقيم الأمور في العقول، ولقد صرّح سبحانه بما يجب للمساجد من تعظيم، لا أن يطّوفوا عراة بالمسجد الأعظم الذي كرمه الله تعالى، وتُشدُّ إليه الرحال[(١)]. وقد قال تعالى:

ب ـ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

أي: وجِّهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال آخرون: بل عنى بذلك: واجعلوا سجودكم لله خالصاً دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وقال الربيع: وهو أن القوم أُمروا أن يتوجَّهوا بصلاتهم إلى ربهم لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصاً لا مكاءً ولا تصدية[(٢)].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٣.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٥٥ ـ ١٥٦.

والقصد هنا التوجُّه إلى الله تعالى حيثما كان العبد مستقيماً على أمره في أداء الصلوات. فهي تؤدَّى في أي مكان، فالأرض في الإسلام كلها مسجد، قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ من قبلي: كان كل نبي يُبعثُ إلى قومه خاصّةً، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحِلَّت لي الغنائمُ، ولم تُحَلّ لأحدٍ من قَبلي، وجُعِلت لي الأرضُ طيِّبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيث كان، ونُصرتُ بالرعب بين يَدَي مسيرةِ شهرٍ، وأُعطيتُ الشفاعةَ**»[(١)].

وإذا كانت الأرض كلها مسجداً، فالمساجد الخاصة لها مكانة عظيمة عند الله وعند المسلمين، ولذلك يجب الاهتمام بها، وإعطاؤها حقها في الاحترام والإجلال، فلا يصح أن يكون فيها عري أو ما يكون رذيلة في ذاته، أو يبعث على الرذيلة، وأن يكون الاحتشام هو الزي الأكمل، وإقامة الذات لله تعالى أن تكون خالصة له سبحانه ومستشعرة خشيته وجلاله. وقرن هنا بالمسجد لكرامة المسجد كما ذكرنا ولأنه رمز الصلاة، فإقامة الوجه في الصلاة، بأن تكون مقومة فيها باستحضار عظمة الله سبحانه في قراءتها، وأدعيتها وكل حركاتها، لا يعمر القلب فيها غير الله تعالى[(٢)].

ج ـ ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾:

قرن سبحانه وتعالى الأمر بإقامة الوجوه لله بالأمر بالدعاء، وهو الأمر بالعبادة لأن العبادة دعاء، والدعاء في ذاته اتجاه إلى الله بضراعة وخشوع وخضوع. وقد أمر الله تعالى بمعاملة الناس بالقسط بينهم، ثم أمر مِن بعدُ بإقامة الوجه لله تعالى، بالانصراف إليه بذواتنا، بأن نجعل كل مشاعرنا وخلجات قلوبنا لله تعالى، بحيث لا نحب إلا لله، ولا نبغض إلا لله، وأن نكون ربانيين في أنفسنا

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٨٧٨.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٤.

وعقولنا وقلوبنا، ثم أمرنا من بعد أن نعبده وحده وقد خلصت قلوبنا له، ولذا قال: ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ والدين هنا الطاعة وكل العبادات، مخلصين له كل هذا، بحيث لا نشرك في عبادته أحداً، فلا نعبد أحداً سواه، ولا نُرائي في عبادته، فالرياء في العبادة هو الشرك الخفي، ولذا ورد أن النبي ﷺ قال: «**من صَلَّى يُرائي فقد أشركَ، ومن صامَ يُرائي فقد أشركَ، ومن تصدَّقَ يُرائي فقد أشركَ**» [١].

إن الإخلاص لله تعالى هو: أن يجرد العبد أقواله وأفعاله من كل شائبة من شوائب الشرك، وأن يتوجه لله وحده بالعبادة[٢].

وقد قرن ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الأوامر بالتحذير من عصيانه، والتذكير بالبعث وأنه وراء البعث القيامة والحساب، والثواب أو العقاب، ولذا قال:

د ـ ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾:

في هذا النص دعوة إلى الإيمان بالبعث، وتذكير به، وهذا التذكير يحمل في نفسه دليله، و«الكاف» دالة على التشبيه، والمعنى بهذا البدء بالخلق والتكون تعودون: أي يُعيدكم كما بدأكم، ففي الآية ذكر للبعث ودعوة إلى الإيمان به، والدليل عليه بقياس الإعادة على الإنشاء، وأنه أهون عليه، والله على كل شيء قدير، وأنه يكون لمن عبده الجزاء، فمن اهتدى فله الثواب، ومن ضلَّ نزل به العقاب[٣].

ومما يساعد الإنسان على الإخلاص لله تعالى، ويجعله مخلصاً له وحده في عبادته، أن يتذكر مسؤوليته يوم القيامة أمام ربه عزَّ وجلَّ: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ أي: كما أنشأكم من العدم يُعيدكم يوم القيامة إلى حُكمه وأمره سبحانه،

---

(١) أبو زهرة، المرجع نفسه، ٦/ ٢٨١٤.
(٢) الإخلاص في القرآن، حمد محمد الوهيبي، ص٢٢.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٤.

ويَبعثكم فريقين، كما كنتم في الدنيا، فمن مات على الإيمان يُبعث مع المؤمنين، ومن مات على الكفر يُبعث مع الكافرين[(١)].

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **يُبعث كل عبد على ما مات عليه**[(٢)].

وقال الشيخ الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، أي كما خلقكم أولاً، ولم تكونوا شيئاً، فإنَّه يعيدكم مرة أخرى، ويبعثكم من قبوركم أحياء بعد أن مُتُّمْ وصِرتم عِظاماً رميماً، والآيات الدالة على هذا الوجه كثيرة جداً. وورد في:

ـ وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]:

ـ وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

ـ وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

ـ وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات[(٣)].

٥ ـ قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]:

أ ـ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ﴾؛ ففريقاً هدى كحال «تعودون» في

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤٥.

(٢) رواه مسلم، رقم ٢٨٧٨.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٢/ ٢٩٧.

الآية ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾، أي يعودون فريقاً هداه الله تعالى، وفريقاً حقت أي ثبتت عليه الضلالة، والفريق الذي هداه الله قد اتَّخذ الطريق المستقيم سبيلاً، ولم يتخذ طريقاً معوجّاً. والفريق الذي ثبتت وتقررت عليه الضلالة هو الذي اتَّخذ الشياطين أولياء يَودُّهم ويُحِبُّهم؛ لأنه اتَّجه إلى المعاصي، وجعل قلبه موطناً للشيطان يسكنه ويغويه ليُحقق قسمه لله بقوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

لقد بَيَّن النبي الكريم ﷺ في أحاديث عدة أن الناس يُولدون على الفِطرة، والفطرة التي فطر الله الناس عليها مستقيمة دائماً، لا تخرج عن سنن الحق بمقتضى العهد الفطري الذي أخذه على بني آدم من ظهورهم وذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا، وإن الشياطين هي التي تحولهم من الفطرة إلى الضلالة، ولقد قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه**»[(١)].

وروى مسلم في حديث قدسي عن النبي ﷺ: «**إني خَلقتُ عبادي حنفاءَ وإنهم أَتَتهمُ الشياطينُ فاجتالتْهم عن دينهم**»[(٢)].

فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وهم يدركون بفطرهم أن لهذا الكون خالقاً، وأنه وحده الذي انفرد بالخلق والتكوين، وقد أقروا بذلك في الميثاق الذي أُخذ عليهم وبمقتضى الفطرة كما ذكرنا.

وإن من يسلك طريق السعادة يتجنب الاستجابة للشيطان، ويستيقظ لفتنته، فلا يمكِّنُها من أن تسيطر عليه. وإذا مَكَّن الشيطانَ من أن يصل إلى فكره ونفسه وإرادته فقد اتَّخذه من دون الله وليّاً، وقد روي في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**فأمَّا مَن كان من أهلِ السعادةِ فسيُيسَّرُ لعمل أهل السعادةِ، وأمَّا**

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٥.
(٢) أبو زهرة، المرجع نفسه، ٦/ ٢٨١٦.

مَن كان مِن أهلِ الشقاوةِ فسييسَّر لعملِ أهلِ الشقاوةِ» [١].

ب ـ ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾:

إن الفريق الذي حق عليه الضلالة إنما ضلوا عن سبيل الله، وجاروا عن قصد المحجة باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله وظهراء، وهم يظنون أنهم على الحق والصواب.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي أنهم فتحوا قلوبهم وسخَّروا عقولهم وإراداتهم للشيطان، فكان لهم وليّاً من دون الله، ومعنى ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تعالى أي من غير طاعة الله، ولقد قال تعالى في آية سابقة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وفي هذه الآية يُقرر الله تعالى أن أهل الضلال اتَّخذوا الشياطين أولياء، فالولاية تثبت من الجانبين: الشياطين أرادوها للإغواء وأهل الضلالة أرادوها ليتمتعوا بالأعراض الزائلة، فكان منهم ضلال فكري، ولذا قال:

ـ ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾: الضمير يعود على فريق الضلالة الذين حقت عليهم، ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ معناه يظنون متوهمين أنهم مهتدون، أي أنهم بسبب عملهم الإيجابي في اتخاذهم الشَّيطان أولياء من دون الله تعالى انقلبت أفهامهم، وأُركس إدراكهم، فزُيِّن لهم سوء أعمالهم فحسبوه حسناً، فظنوا بأوهامهم أنهم مهتدون. وهذا شر أنواع الضلال بأن يَسير المرء في طريق الباطل، وهو يحسب أنه على الحق والهداية، وإن هؤلاء في حسبانهم الغواية حقاً محاسبون على ذلك، لأن الله بيّن الحق فأعرضوا وعاندوا واستكبروا، حتى فسدت مداركهم وضلَّت أفهامهم، فحسبوا الباطل حقّاً، والضلالة هداية، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٢].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ١٣٦٢. انظر: مسلم، رقم ٢٦٤٧.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٧.

بيّن الشيخ الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾، بأن الكفار اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وما تلك الموالاة إلا طاعتهم لهم فيما يخالف ما شرعه الله تعالى، ومع ذلك يظنون أنهم على هدى، وبيّن في موضع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملاً، والعياذ بالله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ فهذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا ينفعه ظنه أنه على هدى، لأن الأدلة التي جاءت بها الرسل لم تترك في الحق لبساً ولا شبهة، ولكن الكافر لشدة تعصبه للكفر لا يكاد يفكر في الأدلة التي هي كالشمس في رابعة النهار لجاجاً في الباطل وعناداً، فلذلك كان غير معذور والعلم عند الله[١].

فالهداية بفضل الله ومَنّه، والضلالة بخذلانه للعبد إذ تولى ـ بجهله وظلمه وعناده وكِبره ـ الشَّيطان، وتسبّب لنفسه بالضلال[٢].

٦ ـ قال تعالى: ﴿۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]:

هذا النداء الثالث الذي يُريد الله أن يوجه به الإنسان إلى منهجه ليمارس من خلاله حياته، وما يحتاجه جسده من طعام وشراب ولباس وزينة، ليقف بين ذلك كله في نقطة التوازن، فلا يتعقّد من حاجات الحياة الطبيعية فيعتبرها قذراً وخباثة وحراماً من موقع الفكرة التي ترفض ماديات الحياة جملة وتفصيلاً، وتدعو إلى السموِّ نحو روحيَّاتها، ولا ينجذب على هذه الحاجات، فيعتبرها قيمة وطموحاً وهدفاً، بل يقف بين هذا وذاك، فيراها حاجة طبيعية يحفظ بها جسده ويصون بها حياته، في نطاق الحدود التي فرضها الله

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٢/ ٢٨١٧.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤١.

ورسمها لعباده، فيميز بين ما يفسد الحياة من حوله فيتركه، وبين ما يصلحها أو لا يسيء إليها فيفعله، وذلك هو خط هذه الآيات في النداء الرباني الثالث لبني آدم[١].

أ ـ ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: فالله عزَّ وجلَّ ابتدأ بإحلال ما كان العرب يحرمونه من ستر أنفسهم في الحج عند الطواف بالبيت الحرام، فقد كان بعض العرب يطوفون عُراة، كما بيَّنا في ذكر معاني الآيات السابقة، وإن الله قد أنعم علينا باللباس الذي يُواري سوءاتنا والريش من الثياب الذي نتزين به لنبدو في أقوم صورة لا تبغضها الأنظار، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ**»[٢].

ولذا قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾؛ فالنداء لبني آدم يَشمل الناس أجمعين. وقد جُعل الخطاب فيه لبني آدم، تذكيراً لهم بحال أبيهم آدم ومكر إبليس به وبزوجه حتى انكشفت سوآتهما، التي قد ذكرها الله قريباً من هذه الآية، وأن فعل كفّار قريش من تسويل الشَّيطان ومن جنس ما فعله بأبيهم، وفعلهم أعظم لأن آدم لم يكشف سوأته بنفسه، وإنما عوقب بكشفها، وقريش فعلت ذلك تديُّناً وتعبُّداً، وفي حرم الله، وأمام الناظرين[٣].

وفي الخطاب بـ «يا بني آدم» تذكير بأن الستر واللباس فِطرة آدمية تشترك فيها جميع البشرية، لا تحتاج إلى دليل من الوحي يُثبتها، ولو رجعوا إلى فطرتهم بعقول صحيحة لوجدوا ذلك وبان لهم تعدّيهم.

وقول الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: المراد به: المسجد الحرام ويدخل في حكمه كل مسجد، للاشتراك في العِلة.

---

(١) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٨٢.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/٢٨١٧. وانظر: مسلم، كتاب الإيمان، رقم ١٣١.
(٣) المرجع نفسه، ٦/ ١٢٩٩.

وقوله: ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أي: موضع تتعبدون الله فيه ويكون المراد به القصد، كلما قصدتم المسجد فخذوا زينتكم في كل مرة، فجعل الموضع الواحد في كل مرة مسجداً، ويؤيد هذا قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

أي: عند كل مرة تتعبدون الله فيها للصلاة والدعاء، ولو كان الموضع واحداً، ويدخل في معنى الآية أخذ الزينة لغرضين:

الأول: لموضع العبادة، سواء كان بغرض العبادة أو لغيرها وللعبادة آكد، وذلك أن مواضع العبادة محترمة معظمة فيُستحَبُّ التزين لها وعدم دخولها مع كشف العورة أو رائحة نتنة، تعظيماً لها وللملائكة وللمصلين والمعتكفين والذاكرين.

الثاني: لعبادة الصلاة؛ فيستحب أخذ الزينة لها ولو لم يكن ذلك في موضع عبادة وهو المسجد، فالمقصد من الزينة العبادة، لأن دُورَ العبادة لم تُتَّخذ إلا لأجل العبادة، وإنما عُظِّمت المساجد لأجل العبادة فيها، ولو لم يكن فيها عبادة لم تكن معظّمة، فمن أراد الصلاة استُحب له أخذ الزينة لها، والاستتار ولو كان المصلي في بيته ولا يراه أحد[1].

وفي الآية: دليل على أن الأصل في اللباس: الحِلُّ، فسمى الله اللباس بالزينة، ولم يَستثنِ منه شيئاً. وإذا ورد النص بإطلاق الحل على عين، دلَّ أن الأصل فيها الحلُّ، وأن الاستثناء فيها قليل، وقد صرحت الآية بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ودلت على أن ستر العورة زينة للإنسان، بل هي أعظم زينة له، فمهما استعمل

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٠٠.

الإنسان من وسائل الزينة، فإنَّه يبدو قبيحاً إذا كان مكشوف العورة بادي السَوأة[(١)].

وفي الآية دليل على وجوب ستر العورة للصلاة، فإذا وجب الستر في موضع العبادة فإن سترها للعبادة من باب أولى، وسبب نزول الآية دالٌّ على ذلك، وبهذه الآية استدل بعض السلف كمجاهد قال: الزينة ما وارى سوأتك ولو عباءة[(٢)].

إن ستر العورة باللباس السابغ الطَّيِّب هو زينة في ذاته، والعُري فيه ظهور للعورات، والعورات سوآت يسوء النظر إليها. وقد حَسّن النبي ﷺ التجمل عند دخول المساجد، وكان يتجمل في ثيابه ولا يتبذل فيها وخصوصاً في المسجد، وعند استقبال الوفود[(٣)]، وفي الأعياد ويوم الجمعة... وغير ذلك.

ب ـ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

قال ابن كثير: قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [(٤)].

وقد جمع الله في هذه الآية أمورًا كثيرة نافعة في الدين والبدن والحال والمآل، فالأمر بالأكل والشرب يدلُّ على الوجوب، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة، والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم، وفيها صحة البدن، إذ ينبغي تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه، ويقيم صحته وقوته، وأن يمتثل للأمر بالاقتصاد في الغذاء والتدبير الحسن، لأنه لما أمرَ بالأكل والشرب نهى عن السرف، وخصوصاً في

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٤٧.
(٢) المرجع السابق، ٣/ ١٣٠٢.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٨.
(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٤٠٦.

الأطعمة والأشربة، لأن السرف يضر بالدين والعقل والبدن والمال. وأما الضرر الديني: فكل من أتى أمراً مما نهى الله عنه ورسوله، فقد انجرح دينه، وعليه أن يُداوي هذا الجرح بالتوبة والرجوع.

وأما ضرره العَقلي: فإن العقل يَدعو صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي يَنبغي، ويُوجب له أن يُدبر حياته ومعاشه، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدلُّ على عقل صاحبه، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الإسراف الضار فلا ريب أن ذلك لنقص عقله، فإنَّه يُستدل على نقص العقل بسوء التدبير.

وأما ضرره البدني: فإن من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات آذى بدنه واعتراه أمراض خطرة، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الإسراف في الغذاء، ثم إنه يضرّ أيضاً من وجه آخر، فإنه عوَّد بدنه شيئاً اعتاده، فإذا عوّده كثرة الأكل، أو أكل الأطعمة المتنوعة، فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته.

وأما ضرره المالي: فظاهر، فإن الإسراف يستدعي كثرة النفقات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] [١].

إن الإسراف هو: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر، ويقال تارة اعتباراً بالقدر، وتارة بالكيفية، ولهذا قال سفيان: ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً[٢].

وقد بَغَّضَ اللهُ سبحانه وتعالى الإسراف للناس ببيان أنه سبحانه لا يُحِبُّه ولا يرضاه لعباده، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وقد أكد سبحانه

---

(١) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ١١/ ١٤٨.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ١١/ ١٤٦.

وتعالى بغضه للإسراف بنفي المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين[١].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ إنها قاعدة عامة تتجاوز معاني الآية الواضحة إلى غيرها من التصرفات المالية والعملية التي تُعرّض الإنسان للإسراف، وتضعه وجهاً لوجه أمام التزامه بالاعتدال من أجل الحصول على رضا الله، بينما يكون الإسراف سبباً لفقدانه لمحبة الله سبحانه وتعالى[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ نهاية التهديد، لأن كل من لا يُحِبُّه الله تعالى يبقى محروماً من الثواب، لأن معنى محبة الله تعالى للعبد إيصاله الثواب إليه، فعدم هذه المحبة عبارة عن عدم حصول الثواب، ومتى لم يحصل الثواب، فقد حصل العقاب، لانعقاد الإجماع على أنه ليس في الوجود مكلف لا يثاب ولا يعاقب[٣].

٧ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]:

لا يكتفي السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التي أخرجها الله لعباده وتحريم الطَّيِّبات من الرزق، فمن المستنكَر أن يُحرِّم أحدٌ برأيه ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطَّيِّبات، فتحريم شيء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله[٤].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨١٩.
(٢) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٨٤.
(٣) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٥/ ٢٣٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٨٢.

أ ـ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ :

أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يستنكر ما كان من الذين حرَّموا زينة اللباس افتراءً على الله كما كان يفعل المشركون، أو تزهُّداً كما فعل جهلة المتعبدين فقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الاستفهام إنكاري لنفي الواقع لا لنفي الوقوع؛ لأنه وقع من المشركين، وإنكار الواقع توبيخ لهم على ما وقع، وقد وقع في هذا بعض العرب، فطافوا عراة في المسجد الحرام كما ذكرنا. وقد كان الأمر في الآية السابقة بأخذ الزينة في المساجد الحرام وعند كل مسجد، وفي هذه الآية يستنكر تحريم الزينة في المساجد وغيرها، وهي آمرة باتخاذ الزينة كأمر إباحة.

وكان النبي ﷺ يتجمل في ثيابه، وإن كان يرقعها أحياناً، وكان يحثُّ أصحابه على أن يتخذوا أحسن الثياب حتى إذا أوشكت على البلى تصدقوا بها، وكان السلف من الصحابة والتابعين يعتنون بثيابهم، وإذا كان قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه في مدة خلافته كان يلبس أحياناً ثوباً تُعدُّ رقعاته، فما ذلك لتحريم التجمل على نفسه، بل لمعنى في الحكم الآمر نفسه، فهو يقول: لا أكون أمير المؤمنين إن لم أعش كأضعف المؤمنين[١].

ـ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾؛ يُراد بهم جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، فالعبودية تكون طوعاً وكرهاً، فالكافر عبد لله ولو كره، لا يخرج عن سلطانه عليه، والمؤمن عبد لله طائعاً وكارهاً، فيَشترك مع الخلق بخضوعه لسلطان الله، ويزيد بخضوعه لأوامره الشرعية، وبهذا اختُصّ بالرضا واستحقه، والله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن، لأن هذا مقتضى ربوبيّته، فالخالق متكفل بالخلق والثواب على طاعته، والعقاب

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٠.

على عصيانه يكون في الآخرة، وإن عجّل الله بعضه في الدنيا(١).

وتبين الآية أن الله سبحان وتعالى مكَّن عباده من إخراجها ونسجها وأنشأ لهم مصدر وجودها، فهو سبحانه وتعالى الذي أنزل المطر من السماء فكان النبات، وعاش بالنبات الحيوان، وكان من النبات القطن والكتان، وكان من الحيوان الصوف والوبر والشعر، وكان من كل ذلك اللباس والرياش، وما خلق ذلك عبثاً، بل وفق ما سنّه سبحانه وتعالى، ولا يليق بمؤمن أن يردّ إنعام الله(٢).

والإنسان في طبعه يُحِبُّ أن يُرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يُلام عليه، ولهذا يُسرِّح شعره وينظر في المرآة ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى الداخل وظهارته الحسنة إلى الخارج، وليس من هذا ما يُكرَه ولا يُذَمّ(٣). وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «**لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قَلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ**، فقال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يُحِبُّ أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً، قال: **إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ. الكِبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ**»(٤)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة(٥).

ـ قوله تعالى ﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾: وكما استنكر القرآن الكريم تحريم الزينة استنكر أيضاً تحريم الطَّيِّبات، والطيبات هي الأطعمة التي تُستلذُّ وتُستطابُ ما دامت لا تضرُّ الأجسام، وهي ضد الخبائث كما قال تعالى: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ** . . .﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أي يُحِلُّ لهم الطعام الطَّيِّب الهنيء المريء الذي تُقبل عليه النفس وتهنأ به و لا يعقبه ضرر: من لحم طري، وسمك شهي وغير ذلك مما يستطيبه الإنسان ولا يتمُّ الطعام الطَّيِّب ويكمل

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٠٩.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٠.
(٣) التدبُّر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ١١/ ١٥٥.
(٤) صحيح مسلم، رقم ١٤٧.
(٥) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٧/ ١٧٧.

إلا إذا كان طيباً في طريقة كسبه الحلال، أما ما كان من حرام فالنار أولى به[١].

فالطيب من الطعام له خاصتان، أولاهما: أن يكون مستطاباً في ذاته مريئاً في عاقبته، والثانية: أن يكون من كسب حلال، وإنه من المقررات العلمية أن يكون من غير إسراف كما ذكر الله تعالى في الآية السابقة، ويجب أن يعالج العاقل نفسه، حتى لا تندفع إلى الإسراف، ولذلك يحسن ألا يأكل كل ما يشتهي ولو كان حلالاً، بل يفطم النفس في بعض الأحيان أو كلها لأمرين:

أولهما: أن ذلك تقوية للإرادة فلا يكون عبداً لبطنه، فلا يقع في الإسراف المنهي عنه.

ثانيهما: أن التمكن من أكل الحلال أمر لا يدوم، فقد يُصاب بالحرمان فيستعد له قبل الابتلاء به فيكون قادراً على الصبر[٢].

ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه امتنع من طعام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب، ولكنه كان يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة[٣].

إن الآية الكريمة: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾، تنفتح على المزيد من التخطيط للشكل الحضاري والتطور الإنساني في الحياة المدنية التي تضع في حساباتها تطوير الواقع المدني للإنسان والحاجات الحيوية الحسيّة له، من دون أيّة عقدة دينية في هذا الجانب. فيمكن للقائمين على شؤون الإسلام والمسلمين أن يعملوا في خطة تصاعدية للسير بالواقع الإسلامي في حركة التطور في جميع الأوضاع المتحركة في الحاجات العامة[٤].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢١.
(٢) المرجع السابق نفسه، ٦/ ٢٨٢١.
(٣) التدبُّر والبيان، المغراوي، مرجع سابق، ١١/ ١٥٦.
(٤) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٨٧.

ب ـ قوله تعالى: ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾:

أي أنها مباحة في الحياة الدنيا للذين يستمتعون بحلالها من غير إسراف ولا تقتير، وقوله ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى أن هذه المُتَع يشترك فيها في الدنيا المؤمنون وغير المؤمنين. أما يوم القيامة وفي الآخرة فتكون خالصة للمؤمنين؛ لأنها تكون جزاءً وفاقاً لما قدموا في الدنيا، ويحتمل أن المعنى أنها تكون في الدنيا صادرة عن نفوس طيبة مؤمنة وتكون خالصة لله تعالى، وخالصة من كل إثم. أما غير المؤمنين فإن تناولهم لهذه الطَّيِّبات قد يكون فيه إثم مبطئ عن الخير، فحبطت أعمالهم، والاحتمالات جائزةٌ جميعها، فيكون المعنى خالصة يوم القيامة لهم، وخالصة من الآثام في الدنيا[١].

ج ـ قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾:

أي: كما بيَّنت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وميّزت بين ذلك لكم أيها الناس، كذلك أبين لكم وجهَ الحقِّ وأحكام الحلال والحرام، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يُبيَّن لهم، ويفقهون ما يُميَّز لهم[٢]. وفي الآية إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك جهلاً فاستحقوا العلم، وفي الآية لين خطاب معهم إذ يُخاطب الجاهل باللِّين بخلاف المعاند[٣].

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: كهذا البيان الذي بينه تبارك وتعالى في هذا الشأن، ويُفصل فيه، أي يبين الآيات الكونية والقرآنية لقوم من شأنهم أن يعلموا، فلا تغطي غواشي الأوهام والأهواء قلوبهم، فيدركون الحق ويعلمونه بنور بصائرهم ومن شأنهم أن يعلموا[٤]. وإن الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٢.
(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٦٦.
(٣) التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، مرجع سابق، ٣/ ١٣٠٩.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٢.

حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان.

٨ ـ **قال تعالى**: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]:

أمر الله تعالى النبي ﷺ بقوله ﴿ قُلْ ﴾ لأنه مبين شريعة القرآن أو المبلغ عنها، فبين لهم قَصْرَ التحريم على الفواحش والإثم والبغي والشرك والكذب على الله.

ـ ﴿ إِنَّمَا ﴾؛ للقصر، أي أن التحريم مقصور على هذه المحرمات كلها، وأهل الشرك ما كانوا يتحرجون عنها، بل ارتكبوها كلها.

ـ ﴿ حَرَّمَ رَبِّيَ ﴾؛ للإشارة إلى أن المحرّم هو رب الوجود ورب الإنسان الذي يعلم الفطرة، وفي ذلك إشارة إلى أن الذي حرم هذا إنما حرَّمه مُتَّسقاً مع الفطرة التي فطر الناس عليها، وهو رب كل شيء.

ـ ﴿ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾؛ هي الأمور التي تفحش وتزيد على الفطرة، وهي تشمل كل المعاصي، وخصوصاً كبائر الذنوب، فتشمل كل الموبقات المفسدة للنفوس والجماعات، وبذلك كل ما يجيء من إثم وبغي يدخل في عمومها، ويكون ذكر الإثم والبغي تخصيصاً بعد تعميم، فيكون العطف عليها من عطف الخاص على العام.

وقد تقول: إذا اجتمعتا خصص كل واحد بمعنى، فخصص الفواحش بالمعاصي الصارخة التي تُفسد النفس والمجتمع كالزنى والخمر والربا وغير ذلك، وبعضهم خصصها بالزنى وما يتصل به من قذف للمحصنات وغير ذلك، والفواحش على معناها العام والخاص يحرم ما ظهر منها وما بطن، وما يُسرُّ منها وما يُعلَن، وجريمتها جريمتان: جريمة الفعل وجريمة الإعلان، وما بطن ما استتر كاتخاذ الأخدان ويشمل ما بطن فسق القلوب، وذلك بالعزم على فعل ما هو شر في ذاته، ولكن يحول دون تنفيذه أمر فوق إرادته فهذا يكون معصية، ولا يدخل في ضمن حديث النفس الذي تجاوزه الله عن أمة محمد، لأنه حدث

ونوى واعتزم التنفيذ ولكن حيل بينه وبين جريمته بغير إرادته وعلى رغمه.

ـ ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾؛ ذنب لا يتجاوز أذاه فاعله فهو يُبطِّئه عن فعل الخير، وآثامه على نفسه كشرب الخمر، وتناول الآفات التي تضر نفسه، ولا تتعدى إلى غيره، وإن كانت التفرقة بينهما في بعض المجتمعات عسيرة[١].

ـ ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ فلا يكون البغي إلا بغير الحق، وهو تنبيه إلى ما يتضمَّنه البغي فهو يتضمَّن إثم التعدي، ومجاوزة الحق، فهو تصريح بما هو قبيح في ذاته. ومن البغي أكل أموال الناس بالباطل في الربا، والرشوة والسحت، ومن البغي أكل مال اليتيم، ومن البغي النميمة والغيبة. وأشد البغي الحكم بغير ما أنزل الله، والحكم بين الناس بالباطل. ومن أفحش البغي ظلم الحكام للرعية والغلظة عليها وإرهاقها وإيذاؤها في حرياتها، ولقد قال ﷺ: «**اللهمَّ مَن وَليَ مِن أمرِ أمَّتي شَيئاً، فَشقَّ عَليهم فاشققْ عليه، وَمَن وَليَ مِن أمرِ أمَّتي شيئاً فَرفقَ بهم فارفقْ به**»[٢].

ـ ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ هذا أشد المحرمات، وهو محرم بأمر الله، ومحرم ببديهة العقول، حتى لقد قال العلماء: إن وحدانية الله تعالى أمر تصل إليه العقول بالبديهة أو النظر القريب.

ـ ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي تجعلوا شيئاً شريكاً لله تعالى في العبادة، أو شخصاً لم ينزل الله به سلطاناً، ويقول العلماء: إن السلطان هنا الحجة و الدليل.

وأرى ما رأوا، ولكن في التعبير عن الحجة بـ «سُلْطَانًا» إشارة إلى معنى أن هذه الأوثان وما شابهها لا قدرة لها، فهي لا تنفع ولا تضر، ومهما يكن فإنهم يعبدونها بالأوهام المسلطة من غير حجة أو دليل، ومن غير أن يعرفوا بالعيان أن لها قدرةً في الأفعال أو التوجيه في الكون، إنما هي الأوهام

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٣.
(٢) صحيح مسلم، رقم ١٨٢٨.

التي تُصوِّرها صالحة للعبادة مع الله تعالى وشريكاً له(١).

ـ ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ :

ومن أنواع المحرمات الافتراء، بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون أن الله حكم به وقاله أو شرعه كتحريم بعض الأحكام، وتحريم لبس اللباس في الطواف، ويقولون إنه من عند الله وما هو من عند الله(٢).

وهذه الآية تبين أن الله سبحانه وتعالى حرّم الافتراء عليه سبحانه، وذلك بأن يصفوه بصفات لا تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى، أو: حَرَّم أن تنسبوا إليه سبحانه تحريم أشياء لا علم لكم بتحريمها(٣). تلك أهم المحرمات القطعية في دين الله تعالى، فكيف كذبوا على الله تعالى عندما استحلوا الفواحش كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] (٤).

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذا قد حرمه الله ونهى العباد عن تعاطيه لما فيه من المفاسد الخاصة والعامة، ولما فيه من الظلم والجرأة على الله والاستطالة على عباد الله وتغيير دين الله وشرعه(٥).

وقفة مع النداءات السابقة:

ظهر لي من خلال النداءات الإلهية السابقة لبني آدم أسباب كثيرة تؤدي إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات، منها:

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٣.
(٢) أبو زهرة، المرجع نفسه، ٦/ ٢٨٢٤.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٥٠.
(٤) المرجع السابق نفسه، ٣/ ٥٠.
(٥) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤٣.

ـ اختلال التوازن في سلوك الفرد والجماعات بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية.

ـ الانهماك في اتباع الشهوات، وإرواء الغرائز الجسدية، والإسراف في المطاعم والمشارب والزخارف والزينة وشيوع الزنى والعُري، وكشف العورات استجابة لوساوس الشَّيطان، كل ذلك سيؤدي إلى انحلال الأخلاق وانهيار المجتمعات.

ـ كما أن الغلو في العبادات والمتطلبات الروحية، والانصراف الكامل إليها وإهمال متطلبات الحياة الدنيوية، يؤدي أيضاً إلى تعطيل طاقات الإنسان عن عمارة الأرض، واستثمارها وتحقيق معنى استخلافه فيها، بما يفرضه على نفسه من رهبانية وعزلة، فيتوقف النمو، وتتآكل الحضارة وتضعف، ثم تنهار(١).

ومع ذلك فإن مسيرة الحياة الإنسانية على الأرض غير خاضعة لوتيرة واحدة، وغير ملتزمة بطريقة معينة، بل نراها في اضطراب دائم، وتذبذب مستمر، والخط البياني للمسيرة البشرية يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى ويسرع ويتباطأ، وذلك بسبب ارتباط حركة التاريخ البشري بالصراع القائم بين الخير والشر، بين الرسالات الإلهية والشرائع السماوية، وبين الشَّيطان وأتباعه وأنصاره.

ومن خلال هذا الصراع الذي قدّره العليم الحكيم تشكّل تاريخ الوجود البشري على الأرض، وأخذ الإنسان يمارس حريته واختياره، يعلو أو يهبط، يعمّر أو يخرّب، يستقيم أو ينحرف.

ومن وراء كل ذلك نواميس علوية وسنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير، لأنها بمشيئته سبحانه وحكمته وعلمه، وقد ذكرها سبحانه في آيات كثيرة منها:

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٥١.

ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ـ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

إن هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وإن كان مرتبطاً بأسباب تتصل بحرية الإنسان واختياره، فإنَّه لن يخرج عن النواميس الإلهية الثابتة التي جعلها الله تعالى متحكِّمة في تاريخ البشرية(١).

إن من سار في طريق الفواحش والإثم والبغي والشرك والافتراء على الله وقع في شباك إبليس وانحرف عن الصراط المستقيم، وتعرّض لغضب الله وسخطه، وهذا ما يريده الشَّيطان الرجيم.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]:

لما بين سبحانه وتعالى الحلال والحرام وأحوال التكليف، بيّن أن لكل أحد أجلاً مُعيَّناً لا يتقدم ولا يتأخر، وإذا جاء ذلك الأجل مات لا محالة، والغرض منه التخويف ليتشدد المرء في القيام بالتكاليف كما ينبغي(٢).

ومن خلال سياق قصة آدم عليه السَّلام في سورة الأعراف وعلاقتها بهذه الآية يتضح أن الله أخرج بني آدم من العدم على هذه الأرض وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تتقدم أمة من الأمم على وقته المسمّى ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها(٣).

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، المرجع السابق، ٣/ ٥١.
(٢) تفسير الرازي، مرجع سابق، ٥/ ٢٣٤.
(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤٣

والسياق القرآني يعقب على قصة آدم عليه السَّلام بإيقاع قوي مؤثر، إنه يعقب بتنبيه بني آدم إلى أن بقاءهم في هذه الأرض محدد مرسوم، وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.

إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة، يُوقِّع لها السياق على أوتار القلوب الغافلة، غير الذاكرة ولا الشاكرة لتستيقظ فلا يَغرُّها امتداد الحياة.

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي يقطع الحياة، وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها[(١)]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي ما قدّره الله سبحانه في سابق علمه ومشيئته من أجل في التمكن والظهور والارتفاع في سُلّم العمران والتحضر، وأجل أيضاً للتراجع والانهيار والهلاك، فالتاريخ دول، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ودوام الحال من المحال، وكل شيء في هذه الدنيا مصيره إلى الزوال والانتهاء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر لهم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: مدة من الزمان قليلة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فالآجال المقدرة في علم الله ومشيئته لا يستطيع فرد أو أمّة أن يغيرها، عجزت همم الرجال عن خرق أسوار الأقدار[(٢)].

يقول العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

هذا بيان نهاية كل إنسان في هذه الحياة، فهو يعيش إلى أجل محدود قد عينه الله تعالى له، لا يتأخر ولا يتقدم، وأجل الإنسان هو نهاية حياته.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٨٥.

(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٥٢.

ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ ولم يقل لكل إنسان أجل، مع أن لكل إنسان أجلاً فعلاً، فلماذا اختار جلَّ جلالُه ذكر أجل الأمة، دون الآحاد بآحادها؟ **أولًا**: لأنه إذا كان للأمة بآحادها وجماعتها أجل فأولى أن يكون للآحاد آجالها، **وثانياً**: لأن الجماعة هي التي يجمعها عصر وعادات وتقاليد، ويكون فيها توجيه إلى الخير أو إلى الشرّ فهي جيل له أحواله وعليه تبعاته، فالله سبحانه أخبرنا أن لكل جيل من الأجيال أجله الذي ينتهي عنده، ويذهب بأثقاله ويجيء من بعده جيل آخر له شأنه.

ـ وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة أقل من الزمان، والسين والتاء في «يَسْتَأْخِرُونَ» للطلب، والمعنى لا يتأخرون، والتغيير بالسين والتاء هنا إشارة إلى أنه لا يتأخر، ولو طلبوا تأخيره، بما يقتضيه حب الحياة بالنسبة للعصاة فإنهم يتمنون الحياة، ولا يتمنون الموت أبداً[١].

ـ ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يُقدّم ولو طلبوا تقديمه، كأولئك المؤمنين الذين يستعجلون لقاء ربهم لا طلباً للموت، ولكن رغبة في الحياة الآخرة ولقاء ربهم، طمعاً في ثوابه أو رغبة في رضوانه.

والمعنى لكل أجل كتاب، والموت بأي سبب من الأسباب هو نهاية الأجل الذي لا يتأخر ولا يتقدم، فالموت بمرض أو بقتل أو حرق أو غرق، أو استشهاد في سبيل كلمة حق لأجل الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقدم قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ على ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لأن الرغبة في التأخير كثيرة، بخلاف الرغبة في التقديم، والله يتولى الأنفس وهو بكل شيء عليم[٢].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٦.

(٢) المرجع السابق، ٦/ ٢٨٢٦.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥ ـ ٣٦]:

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه، وهذا هو شرطه في خلافتهم في أرضه سبحانه وتعالى التي خلقها وقدّر فيها أقواتها، واستخلف فيها هذا الجنس ومَكَّنه فيها، ليؤدي دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد، وإلا فإن عمله في الدنيا مردود لا يقبله الله ولا يُمضيه، أو هو في الآخرة وزر ينتهي بصاحبه إلى جهنم.

وهذا هو النداء الرابع الحاسم في دعوة الناس إلى اتباع الرسل الذين يبعثهم الله ليقصُّوا عليهم آياته بما تدل عليه، من عظمة الإبداع في خلقه، لتقودهم إلى التأمل بها والتفكير فيها، وبما تُذكِّرهم به من نعم الله التي تتصل بوجودهم، وبامتداده بالمستوى الذي يجعل منها رحلة طيبة رائعة في مسيرة الكون وبما تخطط لهم من المنهج الفكري والعملي الذي يقودهم إلى الخط السليم في التفكير والصراط المستقيم في العمل، وبما توجِّههم إليه من أساليب وأهداف في نطاق الحياة كلها، كموقع ينطلق فيه الإنسان إلى الآخرة عبر مسيرته المسؤولة في الدنيا.

وعلى ضوء هذا فإن هؤلاء الرسل جاؤوا ليقصُّوا علينا هذه الآيات الإلهية من أجل وعي إيماني منفتح، وعمل صالح ينطلق في أجواء التقوى والإيمان، وتلك هي قصة الرسالات مع الناس في حركة البداية والنهاية[(١)].

أ ـ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]:

وهنا خاطب الله تعالى بني آدم، وفي ذكر آدم عليه السَّلام تنبيه وتذكير بما

---

(١) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مرجع سابق، ٧/ ٩٤.

كان من إبليس لآدم عليه السَّلام وعمله على إغوائه وإغواء ذريته من بعده وقوله: ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾؛ فيه «إن» الشرطية و«ما» المؤكدة لمعنى الشرطية، وهذا تأكيد من الله تعالى بأنه سيُرسل رسلاً مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

ـ وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

ولذا أكد الشرط مع «ما» بالنون، ومؤدى الآيات أن الله تعالى مرسل الرسل لا محالة، ولكن ذلك ليس بواجب على الله تعالى، ولا يجب عليه شيء، ومن الذي يوجب عليه شيئاً، فهو عزَّ وجلَّ كما قال في حق ذاته: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فالكمال كله لله تعالى.

ـ و﴿ رُسُلٌ ﴾: جمع رسول، وقد أشار سبحانه إلى عملهم وهو التبليغ عن الله تعالى[١].

ـ ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾: أي يَعرِضون عليكم أحكامي وشريعتي، ويخبرونكم بها ويبينونها لكم بالتتابع، فالتعبير «يَقُصُّونَ» يفيد معنى التتابع، فالرسل يتبع بعضهم بعضاً دون اختلاف بينهم في أصول رسالاتهم وشرائعهم[٢].

ـ ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: فمن آمن منكم بما جاء به رسلي وصدق، واتقى الله فخافه بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه على لسان رسوله[٣]، وأصلح أعماله الظاهرة والباطنة:

ـ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: من الشر الذي يخافه غيرهم[٤].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٧.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٣/ ٥٢.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤٣.

ـ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه[١].

ـ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: حين ينالون الفوز والنعيم في الآخرة، فلا يحزنون على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها وشهواتهم التي تجنبوها؛ طاعة لله عز وجل.

ـ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام والسعادة والفلاح الأبدي[٢].

ب ـ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾:

وهنا جاء ذكر الذين يعصون الرسل، ويكفرون بما جاؤوا في مقابل الذين اهتدوا بهديهم، وهو هدى الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى وصفين لهما، هما اللذين أدَّيا بهم إلى عذاب الله تعالى وهما:

الوصف الأول: أنهم كذبوا بآيات الله تعالى، فكذبوا آيات التكليف ولم يؤمنوا بصدقها عن الله تعالى مع قيام الأدلة على صدقها، والبراهين الدالة على أن الرسل يتكلمون صدقاً عن الله، فهم يُكذِّبون الرسل فيكفرون بمن أرسلهم، ويكذبون بما تدل عليه الآيات الكونية من خلق السموات والأرض، وما يكون منها من زروع وثمار وحياة كاملة، وما في السماء من نجوم وبروج إلى آخر ما في الكون من دلالات على أن خالقها واحد أحد.

الوصف الثاني: أنهم استكبروا عن آيات الله فحسبوا أن اتباع الرسل يُنافي عزَّتَهم، وينقص من كبريائهم، فأخذتهم العزة الواهمة بالإثم الحقيقي، وهنا نجد أن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ ﴾؛ فعبر هنا عن التجاوز، وذلك للإشارة إلى المجاوزة للحقِّ، أي أن استكبارهم تجاوز بهم عن فهم الآيات

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٨/ ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤٣.

وإدراكها، لتَضمُّن «وَاسْتَكْبَرُوا» لمعنى التجاوز، فكان التعدي بـ «عَنْ» والسياق هذا مؤداه: استكبروا متجاوزين عنها تاركين لها[١].

وإن الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبراً وعناداً، ولمن جاء بها أن يكون إماماً متبوعاً للمستكبرين، لأنهم يرون أنفسهم فوقه، أو أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يُروا الناس ويوهموهم بذلك، فرؤساء قريش المستكبرون، منهم من كان يرى الضعة والمهانة في أن يكون مرؤوساً للنبي ﷺ نفسه، لأنهم أكثر منه مالاً وأعز نفراً، أو أكبر سنّاً، فيرون أنهم أحق بالرياسة، وكان من هؤلاء بعض عشيرته من بني هاشم.

ومنهم من كان يستكبر أن يتبع رجلاً من بني هاشم كأبي جهل وأبي سفيان، وآخرين مات بعضهم على الكفر ودان بعضهم بالإسلام بعد ظهوره، ولم يكن في غير قريش من العرب من يستكبر أن يتبع رجلاً منهم إلا لعدم اتباعهم هم له، كما أن أحبار اليهود استكبروا عن اتباعه لأنه عربي وهم يرون أن النبوة يجب حصرها فيهم، كما جاءت الآيات في سورة «البقرة»، وكذلك أمراء المجوس ورؤساء دينهم، إذ كانوا يحتقرون العرب كافة إلا مَن هدى الله من الفريقين.

ولا تزال بعض الشعوب يأبى الاهتداء بالإسلام استكباراً عن اتباع أهله، بل نرى بعض غلاة العصبية المرتدين عن الإسلام من الترك كذلك، حتى نقلت صحف الأخبار عن بعضهم أنه قال: إن قومه يستنكفون أن يتسفلوا لاتباع الخلفاء الراشدين، بل قالوا ما هو أكبر من ذلك إثماً.

والمعنى: أن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا، واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسداً على الرياسة وتفضيلاً لأنفسهم عليه، أو لقومهم على قومه؛ فأولئك أصحاب النار الذين يخلدون فيها، لا كالذين يعذبون فيها زمناً معيناً على ذنوب اقترفوها ثم يخرجون.

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٢٨.

وجملة القول في هذه الآية أن جميع الرسل قد بَلَّغوا أممهم أن اتباعهم فيه اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي، وفيه إصلاح أعمالهم بالطاعات، وما يترتب عليه الأمن من الخوف من كل ما يتوقع، والحزن على كل ما يقع، إما مطلقاً، وإما بالنسبة إلى غير المؤمنين المتقين. وإن تكذيب ما جاؤوا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار. وهذا فضلاً عما بيَّنته آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا، وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا، لأن الآية الأولى تدل عليه، ولأنه لا يظهر للناس في كل وقت[١].

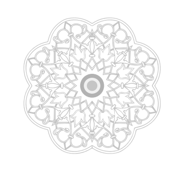
وقال السعدي رحمه الله: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ ﴾، أي: لا آمنت بها قلوبهم ولا انقادت لها جوارحهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾؛ إنهم استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، فأهينوا بالعذاب الدائم الملازم[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ٨/ ٤١٠ ـ ٤١١.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٥٤٣.



المبحث الثالث

قصة آدم عليه السّلام في سورة الحجر

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٢٦-٤٩].

تحدّث العلماء عن الربط والمناسبة بين قصة بدء الخلق بعد الكلام عن الإحياء والإماتة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ فهناك علاقة قوية بينها وبين الآيات التي سبقتها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].

حيث يتكلم الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن ذاته العلية بنون التعظيم، ولعل هذه الآية من أندر الآيات في القرآن الكريم، إذ كل كلمة فيها نون التعظيم، وهذه الصيغة من التعبير، أعني الكلام بنون التعظيم، هي وفق أساليب العرب في بيانهم، وبيَّنت الآية الكريمة في وضوح أن الله هو المحيي والمميت، ووارث الكون وما عليه وما فيه.

وهذا الخطاب القرآني الكريم يتماشى مع العقل، وينسجم مع الفطرة، ويُقرّه المنطق، فالاعتقاد بالإله الحي الباقي الوارث ضرورة لا بدَّ من الصيرورة إليها، فأنت ترى الكل يفنى، ولا بد من باق يرث هذا الكون ويكون المصير إليه، وهذا الدين متماشٍ تماماً مع العقل، إنما الخارج عن المنطق والعقل والفطرة: الإلحاد والجحود والإنكار والكفر[١].

- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾: مَن تقدم منكم ولادةً وموتاً. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَن تأخَّر ولادة وموتاً، أو مَن خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر في ذلك، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدلُّ عليها يدلُّ عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد[٢].

ومن دروس الآية:

- علم الله مطلق.

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص١٧٨.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، ٥/ ٧٣.

ـ الأولون والآخرون في علم الله سواء .

ـ البعث يحتاج أولاً إلى علم ثم قدرة[١] .

ـ في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر : ٢٥]، فقد أضاف الرَّبّ سبحانه وتعالى النبي ﷺ إلى الضمير العائد عليه في قوله: ﴿رَبَّكَ﴾ ، وذلك تلطفاً به وتكريماً له ، وتنويهاً بشأنه[٢] .

ـ ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾ : يبعثهم ويجمعهم للحساب والجزاء .

ـ ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ : هذا هو ختام الآية ، فناسب أن تختم الآية المتحدثة عن الحشر بالحكمة والعلم .

فالذي أوجد الناس في الدنيا أوجدهم لحكمة ، والذي يبعثهم بعد موتهم ليجازيهم على ما كان منهم يبعثهم لحكمة ، فكل أفعاله صادرة عن الحكمة والعلم فهو ختام مناسب تماماً للآية[٣] .

ـ و«الحَكِيم» هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، وهو الذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة : ٥٠]، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، وهو الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك فيحكم بين عباده، وفي شرعه وفي قدره وجزائه ، والحكمة : وضع الأشياء في مواضعها ، وتنزيلها منازلها[٤] .

ـ و«العَلِيم» : هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان،

---

(١) تفسير سورة الحجر ، نوفل ، مرجع سابق ، ص١٨١ .
(٢) نوفل ، المرجع السابق ، ص١٨١ ـ ١٨٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ص١٨٢ .
(٤) تفسير السعدي نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى ، مرجع سابق ، ص٢٨٣ .

وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١].

والنصوص كثيرة في ذكر إحاطة علم الله، وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدّاً لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وإنه لا يغفل ولا ينسى سبحانه[٢].

وإن من الدروس المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]:

ـ الرَّبّ الرحيم الخالق هو الرَّبّ الرحيم الذي يبعثهم للجزاء والحساب.

ـ الإيمان بالبعث هو ضابط للحياة وإيقاعها وحركتها، وضابط للقيم والأخلاق، ودون الاعتقاد في الآخرة يصبح الناس وحوشاً ضارية.

ـ الحكمة والعلم أساس الحساب والبعث والجزاء[٣].

إن العودة إلى قصة بدء الخليقة مناسب تماماً لمعرفة الحكمة من الخلق: ألم تختم الآية السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؟

فهو يُعيدك إلى بدء الخليقة لتفهم حكمته وعلمه من خلق هذا المخلوق المكرم «الإنسان»، وجَعْلِ الملائكة تسجد إكراماً له واعترافاً بقدره وفضله، والشَّيطان الذي أبى السُّجود هو عدو هذا الإنسان، وهو الذي أضله وأدخله النار وسوء المصير وسوء القرار والخسارة والبوار، فكانت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وما بعدها مناسب تماماً للسياق، وموضحة

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مرجع سابق، ص٣٣٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٣٣.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٨٣.

لقصة وجود هذا الإنسان الذي يتكلم السياق عن خلقه وإحيائه وإماتته وبعثه ونشوره وحشره[١] .

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر : ٢٦]:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ :

إن الواو للعطف أو الاستئناف واللام للقسم، وقد للتحقيق .

ـ ﴿خَلَقْنَا﴾ ؛ أوجدنا من العدم، وأنشأنا على غير مثال سابق .

ـ ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ؛ هذا المخلوق المتفرد المكرم الذي يبدو ضئيلاً قصير العمر محدود القدرة، لكنه أعظم الموجودات ما استقام على نهج الله، وأهونها وأدناها إذا خرج عن مساره، فيتحطم وتضيع منه الكرامة ويفقد المنزلة، ويسقط عنه رداء الشرف والعزة والكرامة والمكانة .

والإنسان إما مشتق من الأنس أو النسيان، وكثيراً ما تكلم الله عزَّ وجلَّ عن الإنسان بصفته هذه، أي مخاطَباً بإنسانيته التي هي أكرم ما فيه ليستجيب، والأنسنة «الأنس» ما أحوجنا إلى استعادتها بعد أن توحش الإنسان وأصبح ضارياً كالمفترسات يقتل بلا سبب، ويروع العباد بلا داعٍ، ويتأله ويستكبر ويستعلي ويفجر ويجرم ويرتكب الموبقات والكبائر والدواهي بحق نفسه وبحق أخيه الإنسان وبحق الموجودات وبحق الوجود، بل بحق موجد الوجود سبحانه، إذ يشرك معه هواه أو ما شاء هواه من آلهة مزعومة، أو يجحده كل الجحد وينظر لذلك ويُفلسِفُه ويمنطقه ويخترع له المذاهب ويكتب فيه الكتب والمدونات، ويجعل له مدارس فكرية وفلسفية ومذاهب اجتماعية واقتصادية[٢] .

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٨١ .

(٢) المرجع السابق، ص١٨٨ .

ففي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: تأكيد لحقيقة إيمانية بديهية فطرية عقلية منطقية لا مجال لإنكارها إلا من جاهل عنيد معاند مكابر مستغل غليظ. هذه حقيقة الحقائق وأمها، فهذا الكون كله مخلوق للخالق العظيم، وهذا الإنسان أكرم مخلوق، وهو أيضاً مخلوق لهذا الخالق العظيم، وإلا فمن أوجد الوجود؟ ومن أوجد هذا الإنسان وأبدع وأودع فيه هذه المواهب الفائقة العظيمة من عقل وخيال وتصور وإرادة؟

لا بد من التسليم بهذا، وإلا فإنَّه التيه والضلال، والحيرة والتخبط وفساد القيم، والحصاد مر، حصاد الأشواك والشقاء الذي ترزح تحت وطأته البشرية المعذبة بما اخترعت من مذاهب.

وأعتقد أن إحلال نظرية التطور محل عقيدة الخلق أخطر ما مُني به العقل البشري والمجتمع الإنساني، فيراد له أن يعتقد نفسه كمادة تطورت ولا حكمة من وراء خلقه وإبداعه، وأي هوان أشدُّ من هذا الهوان، وأي شقاء أعظم من هذا الشقاء؟

الاعتقاد بعقيدة الخلق هو الكرامة الإنسانية، فأنت موجود لغاية جليلة وحكمة عظمى، فلا تقبل التنازل عنها، وإياك أن تقبل نظرية مخلوق فاسد ذي أغراض شيطانية وترفض عقيدة الحق الصادرة من عند الخالق العظيم، وبالتالي: أيُّ شيطان هذا الذي يقود خطا البشرية نحو الهاوية ويصرفها عن ربها!؟[1]

٢ ـ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾:

تفردت سورة الحجر بهذا الوصف للصلصال، بأنه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وقد تكررت هذه الجملة ثلاث مرات في سياق السورة. وحاشا لله أن يكون تحقيراً

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٨٩.

للإنسان، ولكنه لبيان أصله المتواضع ليتواضع، فقد أودع الله فيه من المواهب ما إن لم يضبطه بضابط الإيمان والتواضع فإنَّه سيستكبر، ومقتله وأمراضه وعلله كلها في هذا التكبر، فشاء الحكيم أن يكون خلقه من هذا الأصل المتواضع جدّاً، من الطين الأسود المتعفن، الذي تحول إلى صلصال، فجمع ضعف الأصل وضعفه معاً.

أقول: كل ذلك ليتواضع لا ليحقر ولا ليُهان ولا ليُنتقص من قدره، ولو كان هذا فلماذا أَسجدَ له ملائكته؟ أذلك ليحتقره ويهون من شأنه؟ بالطبع لا[١].

قال ابن عاشور: المقصود من ذكر هذه الأشياء الدلالة على عجيب صنع الله تعالى، إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعاً هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحيـاة، وفيه إشارة إلى أن ماهية الحياة تتقوم من الترابية والرطوبة والتعفن.

وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف «قد» لزيادة التحقيق تنبيهاً على أهمية هذا الخلق وأنه بهذه الصفة. فقد قال السعدي: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾؛ أي من طين يبس بعدما خُمّر حتى صار له صلصلة وصوت كصوت الفخار. وأما الحمأ المسنون فهو الطين المتغير لونه ورائحته بسبب طول مدة مكثه[٢].

وهنا الآية: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: بيان أطوار خلق آدم أبي البشر، ابتدأ الله خلقه من تراب مفرَّق الأجزاء، ثم بلَّه بالماء وتركه حتى اسودّ وتغيرت رائحته، ثم صور فيه تمثال إنسان أجوف، فجف ويبس حتى إذا نُقِر سُمعت له صلصلة، فغيَّره طوراً بعد طور، حتى نفخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين[٣].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩١.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٩١.
(٣) المرجع نفسه، ص١٩١.

ـ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾: طين يابس غير مطبوخ «مشوي بالنار» له صلصلة وصوت إذا نقر، كما هو صوت الحديد، فإذا طبخ الفخار بالنار فهو الفخار، «حَمَإٍ»: طين أسود متغير، «مَسْنُونٍ» مُصوَّر، من سنَّ الشيء صوّره، وعلى هذه الأطوار تخرَّج الآيات في أطواره الطينية، كآية: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، وآية: ﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وهذه الآية[١].

قال الزمخشري: الصلصال: الطين اليابس الذي يُصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخّار، والحمأ: الطين الأسود المتغير.

والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه، وقيل: المصبوب أي: أُفرغ في صورة إنسان كما تفرَّغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها.

وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، أي خلقه من صلصال كائن من حمأ، وحق مسنون بمعنى مصور أن يكون صفة لصلصال، كأنه أُفرغ الحمأ، فصُوِّر منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نُقر صَلصل، ثم غيره إلى جوهر آخر، والجان للجن كآدم للناس[٢].

وقد تحدث العلماء عن الفرق بين الصلصال والفخار، فقالوا: إن الطين اليابس هو صلصال ما لم تمسه نار، فإذا مسته النار يصبح فخاراً[٣].

وقال الراغب الأصفهاني: أصل الصلصال تردُّد الصوت من الشيء اليابس، وسُمِّي الطين الجاف صلصالاً[٤].

وظاهر من هذا التقرير اللغوي أن آنية الصلصال أقل تماسكاً من آنية الفخار

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩١.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، مرجع سابق، ٣/٥٧٦.
(٣) آدم عليه السَّلام، البهي الخولي، ص٢٣.
(٤) البهي الخولي، المرجع السابق، ص٢٣.

التي أنضجتها النار، فهي يابسة قليلة التماسك، وتُحدِث الصوت أي تصلصل إذا نُقر عليها مثلاً.

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾؛ هي ليست فخاراً، إنما هي «كَالْفَخَّارِ»[١].

لقد أضافت قصة آدم عليه السَّلام في سورة الحجر عنصراً جديداً مهمّاً، لا بدَّ للإنسان أن يكون على علم به، وهو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وذلك لأن لعنصري الصلصال والحمأ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دوراً لا يمكن إغفاله، فالصلصال لا يتماسك كثيراً، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت، فهو هش لأنه الطين الذي حرقته الشمس لا يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوته، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيراً مكروهاً، والمسنون المصور، وهاتان خاصيتان لعدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وحدوث الفساد والتغيير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنَّه حين ذلك يكون قويّاً بعيداً عن أن يطرأ عليه فساد[٢].

ويرى الدكتور البهي الخولي: أن سواد الحمأ يقابله في تلك البشرية غموض المرء، أي عدم وضوحه وصراحته وجنوحه إلى التخفِّي بالدسائس والخديعة ونصب المكائد والغيلة والغدر، وكل فعلة سوداء يُدير لها الخطط في خفية الظلام، لا تحت أسماع الناس وأبصارهم، ومنها الرشوة والتزوير والاختلاس، والمساومة لتيسير منفعة باطلة أو السكوت عن تواطؤ مريب[٣].

---

(١) آدم عليه السَّلام، البهي الخولي، المرجع نفسه، ص٢٤.
(٢) قصص القرآن، فضل عباس، ص١١٣.
(٣) آدم عليه السَّلام، البهي الخولي، مرجع سابق، ص٢٤.

وقال: ونتن الحمأ: يقابله أمران:

ـ **الأول**: ما يصدر عن المرء من أفعال دنيئة تدعو إلى الاشمئزاز وانقباض النفس، كابتذال الكرامة والتضعضع لذوي الجاه زلفى إليهم وميلاً إلى رضاهم، والتجسس والوشاية والنفاق، وإهدار العرض والاتِّجار بالضمير والمقدسات في أسواق الرأي والقلم وميادين التحلل.

ـ **الثاني**: مقومات الضمير نفسه التي تصدر عنها الأفعال السابقة، أي المقصود بها «الحالة النفسية» التي تقابل حالة الطين إذا أنتن، إذ يغدو بها المرء خبيث النفس دنساً، ولو تسنى لنا أن نبصر المعنويات أو نشمها لأبصرنا وشممنا ما هو أشد كراهة من الجيف، ورحم الله أبا العتاهية إذ يقول:

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين جنبيه فضوح[1]

وقد تلقى أحد هؤلاء وأنت تعرفه، فإذا مجرد الفراسة تكشف لك منه خسة خنزير، فتُحِسُّ كأنك تحذره وتنقبض منه، فإن للنفوس سمات باطنة تبدو على ظاهر الوجه، أو في تعبير العين أو نحوه[2].

تلك إشارة إلى ما يقابل خصائص الحمأ المسنون في بشرية الإنسان، وهو أمر جِبِلِّي في كل نفس آدمية، فإذا تفاوت الناس في درجة ظهوره بحسب ما لهم من مجاهدات التزكية والتطهير، فلا بد من غفلة أو فترة ينزع فيها الطبع إلى خصائصه على نحو ما يقوله أحدهم:

ولا بد من أن ينزع المرء مرة إلى الحمأ المسنون ضربة لازب[3]

---

(١) الفضوح: المفتضح.
(٢) آدم عليه السَّلام، الخولي، ص٢٥.
(٣) اللازب: اللازم.

وما يقابل صفات الصلصال في الإنسان، فقد قدمنا أن صفات الصلصال هي قلة التماسك، والصلصلة وقلة التماسك تبدو في تهالك الحِسِّيِّين الماديين على مطالبهم الغريزية وأغراضهم، أو عجزهم عن الجهود التي يتطور بها الإنسان من طينة الحمأ إلى القيمة العلوية التي سجدت له بها الملائكة، وهي جهود تتمثل في الصبر عن شهوات النفس، والثبات على المشقة في تحقيق المثل العليا مع ما يقتضيه ذلك من مكارم البذل وصنع المعروف والاهتمام بمواساة الناس، وفك ضوائقهم وإبطال الباطل ومكايدة الهواجر، وما يخفي الليل، تصفية للنفس وسموّاً إلى الله.

إن قلة التماسك تبدو في تثاقل الحِسِّيين الماديين أو نكوصهم عما ذكرنا من تكاليف الصعود إلى القمة، وتهالكهم في مطالب الغرائز، وشهوات الدنيا، حسبهم من ذلك أن تكون لهم صلصلة أو شنشنة باطلة عن فضائل النفس، شأن الذين يقولون ما لا يفعلون، ويحبون أن يحمدوا بما ليس فيهم.

وما أعجب ما تذكر اللغة في صلصلة الفخار إذ يقول الراغب الأصفهاني: إنه سُمِّيَ بذلك لصوته كأنما تَصوَّر بصورة من يكثر التفاخر.

وحسبك بأناس أن يُهَدَّ كاهلهم بحمل المكارم، فلا يكون حظهم إلا منفعة الأدعياء الذين لا يقيمون لله سنة في قول أو عمل.

إن بشرية الإنسان في بُعدها الطيني سلبية من حيث قدرتها على إبداع الفضائل أو الإمداد بها، ولا سبيل للإنسان إلى الفضائل إلا بما منحه الله له في جانبه الروحي، وقد منحنا الله هذا الفضل فنفخ فينا من روحه، فكان للإنسان ـ إلى بشريته ـ عنصر علوي يتضمَّن الاستجابة لإيداع أكرم المثل، وأشرف الفضائل[١].

---

(١) آدم عليه السَّلام، الخولي، مرجع سابق، ص٢٦.

ومن الدروس المستفادة من الآية :

ـ الإنسان أنفس موجودات الوجود، وأصله من أهون موجودات الوجود وهو : الطين المتأسن .

ـ لو أراد الله تحقير الإنسان ما أسجد له الملائكة .

ـ شرف الإنسان بالدين وإن كان أصله من الطين[١] .

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾:

الجان للجن كآدم للناس، أي خلقنا أبا الجن من قبل آدم[٢]، أو خلقنا جنس الجن من قبل الإنسان، وقال ابن جرير : القصد بالجان هنا إبليس أبا الجن، أي إبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم[٣]، وبعضهم قال: الجان : أي الجن الذي من إبليس[٤] .

وهذه الآية تُبيِّن أن الجانَّ خُلق قبل الإنسان، وجاءت بعد ما ذكر الله خلق الإنسان لا لأسبقيته ولكن لأحقيته في التقديم لكرامته، «إن استقام بطبيعة الحال»، عطف عليه خلق الجان، وإن كان أسبق في الزمان على نهج سورة الرَّحْمَنِ إذ قال الله تعالى هناك : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ فالآيتان في نسق موضوعي ونسق سياقي ونسق قرآني .

ـ أما النسق الموضوعي، فالكلام في السورة عن قدرة الله والتي منها الخلق، الذي منه خلق الإنسان والجان .

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩٢ .
(٢) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، ٧/ ٢٥٧٨ .
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٤/ ٣٠ .
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٨/ ٤٠٨٥ .

ـ وأما النسق السياقي، فبعد الحديث عن الإحياء والإماتة جاء الحديث عن الحشر، فناسب تفصيل بدء الخلق هذا الذي سيُحشر ويُحاسب، وكيف انصرف عن نهج العبودية بوسوسة الشَّيطان، وهكذا السياق في سورة الحجر.

ـ وأما النسق القرآني، فكما رأينا نموذجه في سورة الرَّحْمَنِ.

أضف إلى ذلك نون العظمة التي يتردد صداها في الآيات، والتي لا تكاد تغيب عن آية: وفي السابقة «خلقنا» وهنا «خلقناه» فالأنساق متعددة.

والجان، ورد هذا اللفظ في القرآن هنا لأول مرة، والفرق بين الجان والجن في المؤدى النهائي واحد[(١)]، والقبلية في خلق الجان قبل الإنسان، لا يعلم قدرها ولا عمرها إلا الله الخالق، فقد تقدر بملايين السنين وقد تقدر دون ذلك، وما لم يعلمنا الله إياه فلا سبيل لمعرفته، و «قيل وقال» لا تُغني ولا تسمن[(٢)].

١ ـ الجن في الاصطلاح:

ورد لفظ الجن في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وسُمِّيت باسمهم سورة هي سورة الجن، وورد في السنة المطهرة كذلك ذكر الجن في مواضع متعددة، وكل ذلك إنما يدلُّ على أهمية هذا المخلوق، إذ أنه يشاطر الإنس في التكليف، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وعلى هذا، فما هو هذا المخلوق؟

يُستخلص من التعريفات المتعددة للجن: بأنهم نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يُرَون على طبيعتهم ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم القدرة على

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩٤.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩٤.

التشكل، يأكلون ويشربون ويتناكحون، ولهم ذرية، وهم محاسبون على أعمالهم في الآخرة[١].

٢ ـ أصل المادة التي خُلق منها الجن:

صرح القرآن الكريم والسنة النبوية بذكر المادة التي خُلق منها الجن، فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، في مقابل الحديث عن خلق الإنسان من طين، وفي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن إباء إبليس للسجود لآدم عليه السَّلام، كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وأما في السنة النبوية، فقد ورد في صحيح مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلقتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلقَ آدمُ ممَّا وُصفَ لكم**» [٢].

وهكذا نلاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد حددا ماهية المادة التي خُلق منها الجن، فقد عبر القرآن عنها مرة بنار السموم ومرّة بأنها من مارج من نار، فما هي هذه المادة وطبيعتها؟

قال الطبري في تفسير المارج: هو ما اختلط بعضه ببعض من بين أحمر وأصفر وأخضر، من قولهم: مَرِج أمر القوم: إذا اختلط، ومن قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**كيفَ بكَ إذا كنتَ في حُثالةٍ من الناسِ قد مَرِجَت عهودُهم وأماناتُهم**» [٣]. الحديث، وذلك هو لهب النار ولسانه[٤].

---

(١) العقائد الإسلامية، السيد سابق، ص١٣٣.
(٢) مسلم، كتاب الزهد والرقاق، ٤/ ٢٩٤.
(٣) أحمد، ٢/ ١٦٢. وانظر: سنن أبي داود، ٤/ ٥١٣.
(٤) تفسير الطبري نقلاً عن عالم الجن في القرآن، مرجع سابق، ص١٤.

ومما يؤيد هذا القول ما ورد عن ابن عباس في تفسير المارج قال: المارج: اللهب، وقال: خلق الله الجان من خالص النار، وعنه أيضاً: من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار، فيختلط بعضه ببعض: أحمر وأصفر وأخضر. وقال الليث: المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وقال المبرد: المارج: النار المُرسَلة التي لا تُمنع(١).

وفي واقع الأمر أن هذه الروايات كلها متقاربة المعنى وتؤدي معنى واحداً، فخالص النار أو ما كان في طرفها، إذا التهبت واختلطت، تُعطي ألواناً من الحمرة والصفرة والاخضرار، وهو الذي خُلق منه الجن.

وأما بالنسبة للسَّموم في الآية الأخرى، فقد قال ابن عباس في تفسير ذلك: السموم الريح الحارة التي تقتل، وعنه: أنها نار لا دخان فيها، وقال ابن مسعود: نار السموم التي خُلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم(٢).

وقال الإمام النسفي: من نار السموم: من نار الحر الشديد النافذ في المسام(٣). وهذا التفسير لنار السموم لا يخالف تفسير المارج ـ كما تقدم ـ إذ أن الشعلة الزرقاء الملتهبة التي تكون في طرف النار، تمتاز بقوة الحرارة ولها خاصية النفاذ من كل المسام(٤).

وهذا التفسير لنار السموم هو الذي عليه أكثر العلماء وهو الموافق لظاهر القرآن، وقوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]،

---

(١) تفسير الطبري نقلاً عن عالم الجن في القرآن، المرجع نفسه، ص١٤.
(٢) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبد الكريم نوفان عبيدات، ص١٤.
(٣) تفسير النسفي، مرجع سابق، ٢/ ٢٧٢.
(٤) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص١٥.

ولا يُنافي قوله تعالى في الآيات الأخرى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، ذلك أن النار جنس عام، والمارج والسموم نوع منها، أو أوصاف لها(١).

وإذا تساءل أناس: وكيف يُعقَل خَلقُ الجن من نار؟

فالجواب: أن الله قادر على إيجاد العقل والحياة في الجسم الحار كما أوجدها في الإنسان المخلوق من الطين، على أن الجن لم يبق على صورة النار، بل استحال بقدرة الله إلى نوع آخرَ قابلٍ للحياة كما هو الشأن في الإنسان(٢).

٣ ـ إثبات تكليف الجن:

تصف كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الجن مكلفون بالتكاليف الشرعية، وأنهم مأمورون بفعل الطاعات والقيام بالعبادات، وأنهم منهيّون عن ارتكاب المعاصي والمحرمات، وأنهم مختارون لهذا الأمر والنهي، وهذا ما عليه جمهور أهل الإسلام، وهم بهذا كالبشر الذين كلفهم الله بالتكاليف الشرعية أمراً ونهياً(٣).

ـ قال الإمام القرطبي: إن سورة الرحمن والأحقاف والجن دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون، معاقبون كالإنس سواء بسواء، مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك(٤).

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، المرجع السابق، ص١٦.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٦.
(٣) عبيدات، عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، ص١٧٥. وانظر: فتح الباري، ٦/ ٣٤٤.
(٤) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ١٦٩.

ـ وقال الفخر الرازي : وأطبق المحققون على أن الجن مُكلَّفون[١] .

وقد وردت آيات كثيرة تدل على تكليف الجن وهي على أنواع مختلفة منها :

أ ـ ما جاء في التصريح في الحكمة من خلق الجن والإنس :

وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧] .

فالآية صريحة في أن الله قد خلق الجن والإنس للعبادة ، على هذا وردت أقوال العلماء[٢] .

قال ابن عباس : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ؛ أي لِيُقِرُّوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً ، وهذا اختيار ابن جرير الطبري[٣] .

ب ـ ما ورد عن صرف الجن إلى الرسول واستماعهم للقرآن منه :

ـ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٢٩ ـ ٣١] .

فقد أخبر القرآن الكريم أن الله قد صرف الجن إلى الرسول عليه الصلاة والسَّلام لاستماع القرآن منه ، وفي هذا دلالة على استماعهم للقرآن منه عليه السَّلام وإنصاتهم لسماعه ، قال ابن القيم : وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ، الآية تدل على تكليف الجن من عدة وجوه :

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة ، عبيدات ، مرجع سابق ، ص١٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٧٧ .

(٣) تفسير الطبري ، مرجع سابق ، ٨/٢٧ . وانظر : عالم الجن ، عبيدات ، المرجع نفسه ، ص١٧٧ .

ـ **أحدها**: أن الله تعالى صرفهم إلى رسوله ليستمعوا للقرآن، وليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

ـ **الثاني**: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدلُّ على أنهم عالمون بموسى والكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدلُّ على تمكُّنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف يستلزم العلم والقدرة.

ـ **الثالث**: أنهم قالوا لقومهم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ والآية صريحة في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، و تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر[(١)].

وقال الآلوسي في قوله تعالى ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: هذا ونحوه يدلُّ على أن الجن مكلَّفون[(٢)]، وقال ابن كثير: «وفي هذا دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن، ولهذا قال: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾»[(٣)].

ـ وقوله تعالى في سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص٤٢١.
(٢) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ٢٦/ ٣٢.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ٣/ ٣٢٧.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١ ـ ١٥].

وقد جاءت هذه الآيات إخباراً للرسول عليه الصلاة والسَّلام باستماع نفر من الجِنِّ وهو يقرأ القرآن بأصحابه، وذلك بعد أن مُنع الجن من استراق أخبار السماء، فعرفوا أن هذا المنع ما حصل إلا لشيء قد حدث في الأرض، فجابوا الأرض فكان النفر الذين أخذوا نحو تهامة في بلاد الحجاز قد مروا على رسول الله عليه الصلاة والسَّلام وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هو الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم منذرين، فأنزل الله تعالى إلى نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

وقد دلت هذه الآيات على إيمانهم بالقرآن، وأخذهم عهداً على أنفسهم ألا يشركوا بالله وذلك في قوله تعالى:

ـ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

ـ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ﴾ [الجن: ١٣].

ففي إيمانهم بالقرآن، ومُسارعتهم إلى سماعه، ووصفهم له بأنه يهدي إلى الرشد، وعدم إشراكهم بالله، دلالة على أنهم مكلفون، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، أي لما قام

رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقرأ القرآن اجتمع الجن عليه متلبّدين متراكمين، حرصاً على ما جاء به من الهدى[١].

فقد كانوا حريصين متأملين عند سماعهم للقرآن، وفي هذا دلالة على كمال عقولهم، وهو يقتضي التكليف، وقد تقدم أن الجن مخلوقات عاقلة مريدة مختارة عندها القدرة على التمييز بين الحق والباطل[٢].

ج ـ ما يتضمَّن التصريح بإرسال الرسل إليهم:

قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ففي هذه الآية خطاب للجن والإنس يوم القيامة، وهذا الخطاب فيه تقرير من الله في أنه قد بعث رسلاً إلى الجن والإنس، حيث يسألهم وهو أعلم بهم: هل بلّغتهم الرسل رسالاته؟[٣]

وبذلك يزول العذر وتنقطع الحجة لأي واحد من الجِنِّ والإنس إذ بعث الله رسلاً يُوضِّحون ويأمرون بعبادة الله وينهون عن معصيته، ولا شك في أن أمر الرسل ونهيهم للجن والإنس هو محض التكليف[٤].

قال ابن القيم: هذه الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، لكن دعوة أولئك الرسل كانت مقصورة على بعض الإنس والجن، أما رسالة نبينا محمد ﷺ فهي عامة لجميع الإنس والجن[٥].

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص١٨٠.
(٢) عبيدات، المرجع نفسه، ص١٨٠.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، مرجع سابق، ١/ ٦١٩.
(٤) عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص١٨١.
(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص٤٢١، بتصرف.

د ـ ما يتضمَّن خطاب الجن والإنس معاً:

في سورة الرحمن، وذلك في قوله تعالى بعد الحديث عن نعمه على عباده: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ حيث ورد هذا الخطاب في واحد وثلاثين موضعاً من سورة الرحمن وفيه خطاب للجن والإنس معاً، وفي هذه المواضع امتنان الله على عباده بهذه النعم التي لا يجحدها إلا كافر[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: **لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً[٢] منكم، كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلكَ الحمد**[٣].

قال ابن القيم: وهذا يدلُّ على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤونة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به[٤].

هـ ـ ما يتضمَّن تحدي الثقلين بالإتيان بمثل القرآن:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهو تحدٍّ للإنس والجن معاً في أن يقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، وتوجُّه الخطاب بالتحدي للإنس والجن من دون الخلائق دليل على أنهم هم المعنيون بأمر هذا القرآن، وما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز المختلفة، وفي هذا دليل على تكليف الجن كالإنس[٥].

---

(١) عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص١٨١.
(٢) أي أحسن رداً.
(٣) سنن الترمذي، ك التفسير، ٩/ ٣٣.
(٤) عبيدات، عالم الجن، مرجع سابق، ص١٨٢.
(٥) المرجع السابق، ص١٨٢.

و ـ ما يتضمَّن بشارة المؤمنين من الجِنِّ بالثواب على أعمالهم، وتحذير الكافرين والعصاة منهم بالعقاب على كفرهم ومعصيتهم في الآخرة:

وقد وردت البشارة بالتحذير في مواضع متعددة من القرآن منها:

ـ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨ ـ ١٩].

فقد أخبر الله في هذه الآيات أن في الجن من حق عليه القول، أي: وجب عليه العذاب، مع أمم قد مضت من قبلهم من الجِنِّ والإنس، وفي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين، وتعلق الأمر والنهي بهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي في الخير والشر يُوَفَّونها ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم. فدل ذلك لا محالة على أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبَّدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر(١).

ـ وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فهذه الآيات تتحدث عن الجن والإنس وموقفهم بعضهم من بعض واستذكارهم لاستمتاعهم بعضهم ببعض في الدنيا: سواء كان بطاعة الإنس للجن فيما يأمرون به من الشهوات، أو التجاء الإنس إلى الجن عند النزول في واد أو قفر موحش لا إنسي به، وتلذذ الجن بهذه الطاعة من قبل الإنس، التي تشعر بسيادة الجن على الإنس(٢). فكان من نتيجة هذا الاستمتاع البعد عن طاعة الله، الذي ترتب عليه الخلود في النار، كما نصت عليه الآية الكريمة في قوله

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص٤٢١ بتصرف.
(٢) عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص١٨٥. التفسير الكبير، مرجع سابق، ١٣/ ١٩١.

تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾، وفيه خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في العذاب، واشتراكهم في العذاب يدلُّ على اشتراكهم في التكليف(١). وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ فيه إنذار لهم بالخوف من عذاب ربهم على لسان الرسل الذين بُعثوا إليهم، إذا هم تنكَّبوا عن الطريق ولم يمتثلوا لهذا الإنذار(٢).

ـ وقوله تعالى في سورة سبأ إخباراً عن سليمان عليه السَّلام: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، ففي هذه الآية تهديد للجن بالعذاب إذا هم خالفوا أمره تعالى في طاعة نبيه سليمان عليه السَّلام فيما يُسخِّرهم للقيام به من الأعمال، وهو يدلُّ على تكليفهم، وإلا لما استحقوا العذاب على هذه المخالفة(٣).

مما تقدم يتبيَّن لنا أن الجن مكلفون بنص القرآن، وأنهم هم والإنس في ذلك سواء، وأنهم سيُحاسبون على هذا التكليف في الآخرة، فإن أحسنوا فلهم الجنَّة، وإن أساؤوا فالنار مثواهم جزاءً عادلاً من الله سبحانه(٤).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]:

نبتدئ بالنسق السياقي ثم نُثَنِّي بالنسق القرآني، فأما النسق السياقي فقد ذكر خلق الإنسان في الآية السادسة والعشرين، فكأن ما هنالك كان إجمالاً، والآن جاء التفصيل منذ كان الإنسان خبراً، أو بشرى يبشر الله بها الكون، أو علماً يعلمه الملائكة.

---

(١) عالم الجن، عبيدات، المرجع السابق، ص١٨٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص١٨٥.
(٣) المرجع السابق نفسه، ص١٨٥.
(٤) المرجع السابق، ص١٨٨.

وأما النسق القرآني، فتأمَّل آيات سورة البقرة فما أشبهها بآيات سورة الحجر، وتلك «الم» وهذه «الر».

ـ اقرأ في البقرة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ـ واقرأ في الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥].

ـ وفي البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ـ وفي الحجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

لكن في البقرة ذكر وظيفته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، وفي الحجر ذكر مادته وطينته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، والوظيفة تُعيَّن قبل المُوظَّف، فسبحان من هذا ترتيب كلماته[1]. والمعنى:

١ ـ ﴿وَإِذْ﴾: الواو للعطف أو للاستئناف، وإذ: ظرف لما مضى من الزمان يفيد استحضار المشهد والتركيز على لقطة معينة منه، فكأنما هو شريط طويل، توقفنا عند لحظة منه أو لقطة معينة منه، فتركز الأنظار عليها.

٢ ـ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾: قال: فعل ماضٍ، كما هو معلوم، لكن كيف قال للملائكة وكيف أبلغهم وكيف أوصل لهم مراده، لا يعلم ذلك كله إلا الله، وليس مطلوباً

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩٧.

منا معرفة كيف يتم ذلك، فنَكلُه إلى من أنزله سبحانه، مع يقيننا به وبحصوله، وأضاف كلمة الرَّبّ إلى ضميره ﷺ، وهو ضمير المخاطب، كما يقول في مثله دوماً للتكريم والتشريف والتلطف أي:

- ربك الذي يتعهدك.
- ربك الذي يربيك.
- ربك الذي يعلمك.
- ربك الذي يحفظك.
- ربك الذي يزكيك.
- ربك الذي يرفع شأنك[1].

٣ ـ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ : لجماعة منهم أم لجميعهم؟

لا يعلم ذلك إلا الله، ولكن ظاهر اللفظ يوحي بالعموم، ويحتمل هذا العموم الظاهري أن يكون مخصوصاً بالملائكة الذين لهم عمل مع هذا المخلوق، سواء كان بتسجيل عمله، أم الإيحاء بالحسنى له، أم بتأييده وتثبيته ونصرته ببَثِّ اليقين في القلب في مواطن البأس والشدة والاشتباك، أم الملائكة التي تستلم أمانة الروح عند نهاية الأجل؟

كل ذلك محتمل وتحديده موكول إلى صاحب العلم المطلق سبحانه وتعالى. والعموم والخصوص حديث يطول، أقصد لفظ الملائكة بين العموم والخصوص فقد عبر الله عنهم في قصة مريم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾؛ فاللفظ عام ولكنه قطعاً مقصود به الخصوص، أي من نزل على

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩٨.

مريم، وقد يكون واحداً أو جماعة صغيرة، والله أعلم. وعِلْمُ ذلك كله إلى العليم الخبير[١].

٤ ـ ﴿ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَـرًا﴾: هذا أمر قد بُثَّ، وهذه كلمات لتعلموا فقط، و«إنَّ» للتوكيد، والياء ضمير المتكلم سبحانه بالإفراد، وهو هنا أليق.

﴿ خَـٰلِقٌۢ﴾: موجد منشئ، والخالق من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه خالق كل شيء، بمعنى موجده بعد العدم وعلى غير مثال سابق.

﴿ بَشَـرًا﴾: مفعول به لاسم الفاعل، والبشر من أسماء النوع الإنساني، ومن أي شيء تم اشتقاقه؟

أمن البشرة أم من البشارة إذ هي التي يعرف بها وهي التي تظهر منه، أم لا من هذا ولا هذا؟ كل ذلك محتمل.

٥ ـ ﴿ مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: حدَّد في هذه الآية كما في السابقة الآية «٢٦» أن مادة خلقه هي الصلصال، والصلصال هو الطين إذ يجف، فيصبح كالفخار له صليل إذ دُق عليه.

وهذا الصلصال ﴿ مِّنْ حَمَإٍ﴾: أي من طين أسود كطين المستنقعات، أو هو منه، وللباري الجليل حكمة في هذا الإيجاد من هذه المواد.

﴿ مَّسْنُونٍ﴾ والذي يظهر لي أن مسنون إما من قولنا مرت عليه سنون، أو من حمأ متأسن أي غير متغير، من طول ما مرت عليه السنون، والله أعلم.

«وقالوا في التفاسير لا في اللغة، مسنون: مصور».

والبشر: مرادف الإنس، أي إني خالق إنساناً، وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم، أو أن الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عبر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى.

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص١٩٨.

وإنما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها[١]. وأما كيف ارتقى هذا الطين من عناصره المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهنا السر الذي يعجز عن تحليله البشر أجمعون.

وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه، وما تزال النظريات تتخبَّط حوله، ولا تملك الآن أن تنكر تفرُّد الإنسان بخصائصه منذُ نشأته، كما لا تملك أن تنبثق الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله[٢].

ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

أ ـ أن يكرر مولانا مادة خلقنا ٣ مرات: ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، لا ليُخجلنا من هذا الأصل، بل لنعتزَّ بالدين الذي رفعنا من الحمأ المسنون إلى أعلى الدرجات في الرفعة، بحيث أسجد لنا الملائكة المقربين والملائكة أجمعين.

ب ـ إعلام الله للملائكة إخبار، لا كما قال بعض نقلة الأخبار أن المولى استشار، فمن يستشير، وعلمه يعتريه نقص وهذا طبع[٣].

رابعاً: قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٩ ـ ٣٠]:

وقصة هذا المخلوق المكرم مستمرة، وهذه مسألة أخرى تتعلق به أو بأمر إلهي آخر بشأنه، فهو يخبر الملائكة أنه بمجرد أن تدبَّ الحياة في هذا المخلوق عليهم أن يقعوا له ساجدين، اعترافاً بقدره وشأنه عند الله[٤].

---

(١) التحرير والتنوير نقلاً عن تفسير سورة الحجر، ابن عاشور، مرجع سابق، ص٢٠٠.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٠.
(٣) المرجع السابق، ص٢٠١.
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، ص٢٠٢.

١ ـ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ : الفاء تفريعية على ما سبق، وإذا: شرط وفعله سويته، ومعنى التسوية الخلق المستوي أو المسوّى، أي: المعتدل المقوَّم المخلوق أتمَّ خلق وأحسن خلق، أي أصبح الجسم يحتوي بين جنباته المكونات الأساسية لاستمرار وجوده في هذه الحياة، فهو يمتلك الأجهزة الحيوية كافة التي تحافظ على حياته مثل أجهزة الهضم والتنفس، والجهاز الدموي والبولي والعصبي وغيرها، والتي تعمل على استمرار حياته وعيشه ووجوده على سطح هذه الأرض، وجميع هذه الأجهزة تعمل بدقة لا متناهية وبنظام عجيب ومعجز، وما يزال العلماء يكتشفون كل يوم معلومات جديدة عن عمل هذه الأجهزة وارتباطها بجميع خلايا الجسم، وما يزال البحث في علوم الطب الحديث مستمرّاً لاكتشاف أسرار هذا الجسد، ومتابعة الأمراض التي تصيبه، ومن ثَمَّ اكتشاف الأدوية المناسبة لعلاجها، وكما ذكرنا بأن هذا الجسد مخلوق من تراب وماء أي «طين» فهو يأخذ خاصية الطين اللينة والضعيفة التي خُلق منها.

فمهما كان الجسم قويّاً فلا يستطيع أن يتحمل أي أذى يتعرض له، لأن الطين لين ولا يستطيع المقاومة، حيث تقوم هذه النباتات بسحب العناصر الأساسية من التربة، وتقوم باستقبالها وطبعاً بوجود الماء، ومن ثم تحويلها إلى مواد بروتينية وسكرية وفيتامينات ومعادن وغيرها على شكل عناصر مفيدة لتصبح في النهاية غذاءً كاملاً متمثلاً بجميع أنواع الحبوب والبقول والخضراوات والفواكه، يتناولها الإنسان والحيوان على حد سواء.

وكذلك يتناول الإنسان لحوم بعض الحيوانات التي تتغذى على النباتات حصراً مثل الأغنام والأبقار والدواجن، أما الحيوانات التي تتغذى على لحومات حيوانات أخرى فهي ضارة جدّاً، ولذلك هي محرّمة مثل ذات الأنياب والمخالب، لتكون اللحوم الحلال هي مرحلة غذائية مركبة وأعلى قيمة بالسعرات الحرارية والفوائد الأخرى.

فمكونات هذا الجسد جميعها مستندة على مكونات الطين، وعناصر تكوينه هي نفسها عناصر تكوين التراب والماء(١).

ولاستمرار حياته وتكاثره جعل الله فيه شهوة البطن لتناول الطعام والشراب وذلك لاستمرار «العيش»، وشهوة الفرج للتزاوج وإنجاب الذرية وذلك لاستمرار «النسل»، وهاتان الشهوتان يشترك معه فيهما الحيوان لأنه أيضاً خُلق من التراب، كما أن الجسم لا يملك أي سلاح يدافع فيه عن نفسه، فلا توجد له مخالب ولا أنياب ولا إبر ولا سموم، فقط جسم تكسوه البشرة الرقيقة اللينة وتؤذيه شوكة صغيرة.

فهذا الجسد الضعيف دائماً يكون عرضة للأمراض وهدفاً سهلاً لجميع أعدائه من أصغر وأحقر المخلوقات مثل الفيروسات والجراثيم، وأعتاها مثل الذئاب والضباع وغيرها، وعلى رأس هؤلاء الأعداء إبليس اللعين.

فالعقل هو الجهاز الوحيد في الجسد الذي يتولى حماية الجسد، وذلك بعد النفخ فيه بالروح والعناية به والدفاع عنه في جميع الأحوال، فهو يوجهه لحماية نفسه من الخطر واتخاذ الأساليب المناسبة للدفاع عن نفسه في جميع الأخطار التي يتعرض لها.

والجسد مطيع للعقل إلا في حالة واحدة فقط وهي غياب هذا العقل، فعند غيابه يصبح الجسد هائماً على وجهه مُتخبِّطاً يقوم بتصرفات عشوائية غير منتظمة، لأنه فقد عقله الذي يُسيِّره ويُرشده فيدعى عند ذلك «مجنون»، فيصبح الإنسان بلا عقل، منبوذاً من المجتمع وبلا أي قيمة، فالجسد بلا عقل مثل السيارة بلا سائق تسير بجميع مكوناتها إلى الهاوية(٢). وإن العقل يقود الجسد بطريقتين:

---

(١) تفاحة آدم، بشير جهد الله، مرجع سابق، ص١٢١.
(٢) المرجع السابق، ص١٢١.

الأولى: يقود العقل البشري الباطن الحركات اللاإرادية عند الإنسان مثل حركات القلب والتنفس والأمعاء، وجميع الحركات الانفعالية التي تحدث بشكل مفاجئ عند حدوث أي خطر يهدد الجسد، وهذه الحركات جميعاً مسيرة وليس للعقل الظاهر للإنسان أي تحكُّم أو إرادة فيها.

ويكون مصدر هذه الحركات معلومات مخزَّنة في العقل الباطن للإنسان منذُ الولادة، وهذه المعلومات أساسية ولا يمكن الاقتراب منها والمساس بها، لأنها تعتبر معلومات مبرمجة مسبقاً وأساسية في العقل البشري، وأي خلل فيها يؤدي إلى الهلاك مثل توقُّف القلب أو التنفس، وتكون على الأغلب متمركزة في المخيخ، وهي تشبه الذاكرة الأساسية الموجودة في الجوال والتي يُطلَق عليها في المصطلح الحديث اسم «معلومات ضبط المصنع».

والثانية: يقود العقل البشري الظاهر الحركات الإرادية عند الإنسان، وهي الحركات التي يتحكم بها العقل كيفما شاء، مثل حركات الأطراف واللسان والعين، أي التحكم بحركات الأرجل والأيدي والكلام وغيرها من الحركات الإرادية، والتي يقوم بها لأداء جميع مهماته والقيام بأعماله في هذه الحياة، ولذلك يكون العقل هو المسؤول مسؤولية كاملة عن أي حركة أو سكون لهذه الأعضاء، لأنه يمتلك كامل الحرية والاختيار في التحكم بحركة هذه الأعضاء، وسيحاسب عليها إن كان بالخير أو بالشر[1]. هذا بعض ما وصل إليه العلم الحديث فيما يتعلَّق بالجسد وقيادة العقل له، وهذا لا شك فيه بعد نفخ الروح بالجسم.

إن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: يشير إلى التسوية؛ أي تعديل ذات الشيء، وقد أُطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها

---

(١) تفاحة آدم، بشير جهد الله، المرجع السابق، ص١٢٢.

بحيث صارت قابلة للنفخ، كما أن التعبير بالتسوية ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ يدلُّ على تعديل الصورة وإتمام الخلق ونفخ الروح، وبإذن الله تعالى صار الإنسان بشراً سويّاً(١).

إن التسوية تعني جعل الشيء صالحاً للمهمة التي تُراد له، وشاء سبحانه أن يُسوِّي الإنسان في صورة تسمح لنفخ الروح فيه، والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم، ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد(٢).

٢ ـ ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ :

نفخت فيه من روحي: لا يعلم هذه الكيفية إلا الله، أي بثثت فيه الروح التي هي سر الحياة، والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها، فهي من عالم الغيب وهي الجزء المهم من هذا الإنسان، وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخة الروح سبب الحياة وسرها، وكم من أمر لا يعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به، فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً، أفلا يؤمن بها البشر؟

وكيف لا وجُلُّ حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن ينتفعوا بها، ولا يقول أحد منهم أقنعني بالكهرباء، وأنها موجودة(٣).

إن كرامة الإنسان بنفخة الروح لا من قبضة الطين، وقبضة الطين إنما سَمَت بنفخة الروح، والدين هو روح الروح وحياتها، فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين:

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٥.
(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٤.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٣.

- بالروح.
- وروح الروح، فتأمل[١].

١ ـ ﴿مِن رُّوحِى﴾: بيانية، وليست تبعيضية:

حرف الجر «من» في قوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ للبيان وليس للتبعيض، ولا يمكن أن تكون «مِنْ» تبعيضية، لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة.

وهو الخالق لكل شيء وما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، هو الذي خلقها سبحانه، وهذا معناه أن هذه الروح المخلوقة ليست «جزءاً» من ذات الله سبحانه، وهذا معنى قولنا: يستحيل في العقيدة أن تكون «مِنْ» تبعيضية، لأنها لو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم قطعة من روح الله وجزءاً وقسماً من روح الله، اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم، فالذي في آدم جزءٌ من الله. وهل «ذات الله» سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعّض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟

إن هذا مرفوض عقلاً ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية[٢]. ولذا نقول: إنَّ «مِنْ» في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ بيانية، وهي تبين أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي هو الذي خلقها والذي نفخها في آدم، ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِن رُّوحِى﴾، وهذه إضافة لتكريم تلك الروح، وهي كإضافة ناقة صالح عليه السَّلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكإضافة البيت المحرّم ـ الكعبة ـ إلى الله في قول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقد أخطأ النصارى في نظرتهم

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٦.
(٢) سيرة آدم، الخالدي، مرجع سابق، ص٥١.

إلى الروح التي نفخها الله في فرج مريم عليها السَّلام، فخلق منها عيسى، حيث اعتبروا هذه الروح جزءاً من روح الله، أي أن حرف «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] تبعيضية، وذلك بأن أعطى الله جبريل «قطعة» من روحه منفصلة عنه، وأمره أن ينفخها في مريم فكان منها عيسى، أي الروح التي في عيسى عليه السَّلام جزء من روح الله، ولهذا اعتبره النصارى ذا طبيعة إلهية.

إن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، خلقها الله وهي من عند الله، والروح التي خلق الله بها عيسى عليه السَّلام في رحم أمه مخلوقة من عند الله، وحرف الجرّ «مِنْ» في الموضعين للبيان وليس للتبعيض، وهذه الروح التي خلق الله بها آدم أبا البشر هي الروح التي يخلق بها ذريته في بطون أمهاتهم، وهذه الروح سرّ غيبي، لا يعلم كيفيتها ولا كنهها ولا ماهيتها إلا الذي خلقها، استأثر بالعلم بها وحجب هذا العلم عن خلقه[١].

وقد تحدثنا بالتفصيل في قصة آدم عليه السَّلام في سورة الأعراف عن ماهية الروح وجوهرها، ونفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها، وعن استحالة معرفة حقيقة الروح، وبيان الدلائل على خلق الأرواح، وغير ذلك، فليرجع إليها.

٢ً ـ ورود كلمة الروح في القرآن الكريم:

وردت كلمة «روح» في القرآن الكريم في عدة آيات، وتعاقبت بمعانٍ مختلفة حسب موقعها من الآيات الآتية:

ـ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

---

(١) الروح، ابن القيم، ص٢٦٨. علمني أبي آدم، العودة، مرجع سابق، ص٤٩.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وردت بمعنى الوحي مطلقاً.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمي ذلك النصر روحاً لأن به يحيا أمرهم(١).

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

وسمَّى الله تعالى عيسى عليه السَّلام: «روحاً منه»، وقد بيَّنا بأنها روح مخلوقاته، و«من» بيانية، وليست تبعيضية.

يتبين من خلال سردنا أن الآيات الكريمة تعرضت للروح كفعل وكقدرة، وليس كماهية. وبعبارة أوضح لم تتعرض لطبيعة الروح، وللمادة المكونة لها، وهل هي عضو من الأعضاء أم تيار نوراني يسكن الجسم، ولعل هذه أعظم ميزة للإسلام إذ حسم في هذا الإشكال الكبير، وذلك بكل بساطة، لأن الروح من عالم الغيب وليست من عالم الخلق، أي أنها ليست خاضعة لمقاييس المادة المحسوسة، فهي تنفلت من قبضة يد الباحث الإنساني المادية، بخلاف عالم الخلق، فهو كل ما يمكن أن يدركه علم البشر، وهو الذي زوده الله تعالى بملكاته وبالأدوات اللازمة لإدراكه(٢).

وتبقى الآية الخامسة والثمانون من سورة الإسراء هي مرجع كل علماء المسلمين، حين يسألون عن الروح وعن ماهيتها وعن طبيعة تكوينها، يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ أي يسألك الكفار يا محمد عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، مرجع سابق، ٨/ ٢٠٠.
(٢) العلاج النفسي وخطورة المنطلق، إدريس الوزاني، ص٢٢٨.

لهم : إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب العالمين[١] .

فوضعت الآية حدّاً لعلماء المسلمين وللمسلمين عموماً بعدم الخوض في ماهية الروح وحقيقتها التكوينية والتوجُّه إلى المجالات التي تتجلى فيها كقدرة وكفعل[٢] .

يقول الدكتور إدريس عبد السَّلام الوزاني : البحث في موضوع الروح ليس من قبيل الترف الفكري أو التحليق الفلسفي ، هذا الموضوع يهمّ الإنسان في أعمق وأخطر جانب يخصه وهو مصيره ، والتفسيرات التي أتينا بها لعلماء مسلمين كلها تدلنا على أن الروح تمثل حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، أي بين مقومات الإيمان والعقيدة وبين الحياة بهذه الحقائق وعلى ضوئها . وبمعنى أبسط فإن مفهوم الروح من منظور إسلامي يتطرق لفعلها وللإحساس بنتائج هذا الفعل ، مختصراً بذلك الطريق على المسلم كي لا يستهلك وقته الثمين والقصير في تحليقات عقيمة تحوم حول ذاته وحول عالم الخلق ، فعالم الأمر كما بينه علماؤنا لا يخضع للتجريب أو القياس[٣] .

٣ً ـ الروح ورفعة الإنسان وأهم المظاهر الروحية له :

إن الروح هي التي رفعت مستوى هذا الإنسان إلى مقام التميُّز على مخلوقات الله الحية على ظهر هذا الكوكب ، حيث خلقه سبحانه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وفضَّله على جميع مخلوقاته تفضيلاً ، وجعل من ذريته الأنبياء والمرسلين والشهداء والصدِّيقين والصالحين ، وجعل من هؤلاء خلفاء في الأرض .

---

(١) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، ٢/ ١٠٩ .
(٢) العلاج النفسي وخطورة المنطلق ، الوزاني ، مرجع سابق ، ص٢٢٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص٢٣٣ .

والروح هي محل الإيمان وقيم الخير والصلاح التي تحدد إنسانية الإنسان عن غيره من المخلوقات، ويعتبر عنصر الروح هو العنصر الذي يوجه الإنسان إلى الله، فيحل الخير في الأرض ابتغاء مرضاة الله، سدّاً لحاجته الروحية التي لا يمكن إشباعها إلا بفعل الطاعات المأمور بها في ميزان الشرع الحنيف، واجتناب المنكرات المنهي عنها في شريعة الله، ليحافظ على خيريته وصلاحه الفطري والمكتسب، فالتسامي الروحي هو من نتائج التوجه لفعل الخير، وينال به الإنسان السعادة في الدنيا والآخرة معاً.

فالطبيعة الإنسانية طبيعة مزدوجة، وتشتمل على العنصر المادي والعنصر الروحي، فالشهوات والغضب لدى الإنسان تدفعه للشر والفساد، والعقل والروح عبارة عن ضوابط وموجهات لكل سلوك يصدر عنه، وهذا بمنزلة التوازن في الطبيعة البشرية والمكون من الجسد والروح دون غيرهما من طبائع المخلوقات الأخرى، كالملائكة في عالم الروح الخالص، والحيوان الشهواني المفرط في الشهوات بحكم غريزته الحيوانية، فالإنسان مخلوق تشده الأشواق الروحية إلى أعلى وتجذبه الشهوات الجسمية إلى أسفل[١]. ولكي يكون الإنسان جامعاً بين معطيات الجسم ومعطيات الروح في الخير والتفاعل الحضاري، فلا بد من العمل للدنيا والآخرة في توازن معتدل يُلبِّي مطالبه الروحية ومطالبه المادية باعتبارها وحدة إنسانية فيها الجسد والروح، والعقل يستطيع أن يحقق هدف التربية الإسلامية المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧][٢].

---

(١) الإنسان الصالح، علي الغامدي، ص٢٤٧.
(٢) الغامدي، المرجع السابق، ص٢٤٧.

إن الروح: هي لطيفة مخلوقة لله لا يعرف كنهها إلا خالقها، تنتشر في جميع أجزاء الجسد فتكسبه الحياة والوعي والشعور بما حوله، لها صورة نورانية، تستمد حياتها من خالقها العظيم سبحانه وتعالى. وأصلها خير فهي تسير بطاعة الله وذكره، وتسعد صاحبها الذي يعمل الخير ويلزمه، ويأمر به وينشر غذاءَها من تعاليم ربها وهدي رسله. ولها صفات تميزها، ففيها مادة الحياة، تتصف بالإدراك والبصيرة والشعور بالارتقاء والحاجة إلى الله، ولها حكم البقاء[1]، قال ابن القيم:

ثمانيةٌ حكمُ البقاءِ يعمُّها — من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي نار وجنة — وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم[2]

ومن أهم مظاهر الحياة الروحية:

٤ً ـ العيش في واحة الأسماء الحسنى وظلالها الوارفة:

إن معرفة أسماء الله ومعرفة صفاته وإحصاءها وترديدها على اللسان ودعاءَه بها يُكسِب الإنسان اتصالاً بالله وذكراً وثناءً عليه سبحانه، كما أن التأمل بعظمة قدرته وأفعاله ومخلوقاته ودقة صنعه وإبداع خلقه ودقة علمه الذي يسري إلى كل جزء من أجزاء الكون، وفي أعماق نفس الإنسان[3]؛ يُعدُّ مظهراً من أهم مظاهر الحياة الروحية، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠].

---

(١) الإنسان الصالح، علي الغامدي، مرجع سابق، ص٢٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص٢٥٠.
(٣) فلسفة الحياة الروحية، مقداد يلجن، ص٤٥ ـ ٤٦.

فإذا علم الإنسان سعة علم الله وأنّ الله يعلم السر وما تخفي الصدور، وأنه يعلم ما كان وما لم يكن، زاد خشية وتقديساً وإجلالاً لله وتسبيحاً بعظمته سبحانه، وإذا علم الإنسان أن لله بصراً يراه، وسمعاً يسمعه، فإنَّ ذلك يُكسِبه مراقبة لله، فلا يُسمِع اللهَ إلا خيراً، ولا يفعل الشر خشية أن يراه خالقه عليه، فإن عاش مع الله فإنّ ضميره يحيا وحياءً منه يزيد، فيدفعه إلى فعل الجميل وترك القبيح، كما أن معرفته لله بأسمائه وصفاته يتحقق بها السير الصحيح إلى الله، ويُوصل إلى الاستقرار الروحي والسَّلامة من الخواء الروحي الذي يورث الشقاء والقلق ويحرم الإنسان من الطمأنينة واليقين الذي يحمي من الشَّكِّ والاضطراب[1].

٥ً ـ التأمل العقلي في مخلوقات الله المبثوثة في الكون الفسيح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وبهذا التأمل تكتسب الروح قرباً من ربها، فيتذكر الإنسان خالقه قائماً وقاعداً وفي كل أحواله، فيلهج لسانه بذكره وشكره بعد أن يعرف هدف التأمل في الكون، وهو الوصول إلى تسبيحه والاعتراف بحكمته في الخلق، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ـ أداء شعائر العبادات: العبادات حق لله على الإنسان يؤديها لخالقه خالصة متبعاً رسول الله في صفتها وكيفية أدائها، وحين يتصل الإنسان بخالقه فإن الروح تسمو وتتزكى ويظهر صفاؤها الفطري، فينعكس ذلك على الإنسان شعوراً بالرضا وسعادة تملأ النفس، وواقعاً في الرغبة في الإكثار من العبادات

---

(١) الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص٢٥٢.

والاستزادة من الخير ليتحقق للروح غذاؤها الكامل، ولحاجة الإنسان المستمرة إلى الطاقة الروحية فقد تنوعت العبادات المأمور بها من الله، فالصلاة عبادة مستمرة طوال الحياة، شعيرة تغذي روح مؤديها، والصوم والزكاة والحج والذكر كلها عبادات. الشعائر يحتاجها الإنسان لتكسبه التوازن الروحي والاستعلاء على الشهوات وتمده بالطاقة الروحية التي تجعله فاعلاً في أداء رسالته في الحياة باقتدار[1].

ـ تبني الخير والمشاركة في فعله: الخير هوية الصالحين وميدانهم الذي يتسابقون فيه ووسيلة لابتهاج الروح وانشراح النفس، والروح تسمو بعمل الفضائل وتجنب الرذائل، وتوجه الإنسان نحو طريق الله ورضاه ومنهجه الذي ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده.

ـ استغفار الله ودعاؤه ودوام ذكره: فالاستغفار هو الذكر الذي يعيد للإنسان توازنه الروحي بعد الزلة والخطيئة، وقد رأينا ذلك في قصة أبينا آدم عليه السَّلام، وقد بين الرسول ﷺ أهمية الاستغفار من الذنوب والمعاصي والخطايا، فقال ﷺ: **من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**[2].

فبالاستغفار يحصل الإنسان على مغفرة الله وعفوه وأمنه، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إن مُلازَمة الاستغفار والدعاء ودوام الذكر من أهم العبادات في تقوية الروح، والطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته وأعظمها وأشدها اتصالاً

---

(١) الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص٢٥٢.
(٢) مسند أحمد، رقم ٢٢٣٤.

بحقائق الوجود، وطاقة الجسم محددة بما تدركه الحواس. أمّا طاقة العقل فهي أكثر طلاقة لكنها محدودة بالزمان والمكان، أما طاقة الروح فلا تعرف الحدود والقيود، وهي وحدها تملك الاتصال بالله عز وجل(١).

وأما عبادة الدعاء، فهي تصل الروح بخالقها وتلبي لديها الحاجة في طلب العلو والالتجاء إلى الله القوي العزيز، وخير الدعاء ما كان بأسماء الله الحسنى، وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في حديثه عن قصة آدم عليه السَّلام مجموعة من أسمائه الحسنى وعلاقتها بالإنسان والكون ومخلوقات الله عزَّ وجلَّ، وكيف تعامل معها آدم عليه السَّلام، كالرب، والعليم، والحكيم، والتواب، والرحيم، سبحانه وتعالى.

إن شفافية الروح وانطلاقها نحو خالقها تجعل من الإنسان عبداً صالحاً متأملاً متفكراً، متدبراً في آيات الله المنظورة وآياته المتلوة في كتابه العزيز، متأثراً بدلالاتها ومعانيها، فتُثمِر في ذلك العبد المتأمل إيماناً وخشية لله عزَّ وجلَّ، فعن جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما قرأ هذا الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كاد قلبي أن يطير(٢).

ومن صور التأثر بآيات الله الكونية بعد القراءة والتأمل والتفكر صورة رسول الله ﷺ عندما فاضت عيناه بالبكاء متأثراً بآيات الله الكونية، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أقام رسول الله ﷺ فتطهّر ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: وكان جالساً فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال:

---

(١) الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص٢٥٣.
(٢) متفق عليه في الصحيحين، البخاري ٤٨٥٤.

يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟! لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١] (١).

إن الانقطاع عن ذكر الله يسبّب للمسلم جفافاً روحيّاً، وذكر الله يروي هذا الجفاف ويتسامى بالروح نحو خالقها ودوام ذكر الله والإكثار منه من الأمور المأمور بها شرعاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]. فالذكر غذاء روحي وزاد يُزكّي الروحَ ويدفع صاحبها إلى السلوك الفاضل، كما أنه يعطي الفرد صحة نفسية نتيجة الإشباع الروحي بذكر الله، فوجهت السنة على لسان صاحبها عليه أفضل الصلاة والسَّلام إلى دعاء زوال الهم والغم والحزن، كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند نزول الكرب: **لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم**(٢).

إن الاهتمام بالتربية الروحية تعني رعاية الروح وتعهدها بالبرامج الأصيلة التي تحافظ على نقائها الفطري، وذلك عن طريق العيش مع كتاب الله قراءة وتدبراً وعملاً بما جاء فيه، والاقتداء بما ثبت عن رسول الله من أعمال وأفعال، والعمل بما أمر به من أوامر واجتناب ما نهى عنه، واتباع ما أقره عليه الصلاة والسَّلام في رضا تامٍّ وتسليم مطلق وانشراح عظيم(٣).

---

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، عبد العزيز المحمد السلمان، ص١٣٩. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، رقم ٦٨.

(٢) صحيح الكلم الطيب، ابن تيمية، تحقيق الألباني رقم١٢٧.

(٣) الإنسان الصالح، الغامدي، مرجع سابق، ص٢٥٦.

إن سمو الروح من أهم الوسائل في الارتقاء بإنسانية الإنسان، والتي تكوّن معيناً وزاداً معنويّاً لأداء رسالته المناطة به في الأرض[١]، وتحقيق أشواقه الروحية في عبادة خالقه العظيم.

إن التوازن في طبيعة الإنسان المادية والروحية وسيلة عليا للارتقاء بإنسانية الإنسان، وتحقيق العبودية في مراتب العطاء الديني والدنيوي، لتكون صلته بالأرض وعمارتها وصلته بالسماء متوازنة، لا يطغى جانب على جانب، ولا ينفصل أحد المزيجين عن الآخر. وإنما التوازن بين خصائص الطين وبين النفحة الربانية في الإنسان[٢].

٣ ـ ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: معناه خروا له ساجدين، سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة، لأن العبادة لله وحده لا شريك له[٣] وفي أمرهم بالوقوع أي: السقوط، دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل، بل السُّجود بالمعنى المتبادر استجابة لأمر الله فهو في الحقيقة عبادة لله[٤]، والآية تبين: أن عملية السُّجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة، وكان سجودهم هو طاعة لله، لا طاعة لآدم[٥].

٤ ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]:

آخر كلمة في الآية السابقة «ساجدين»، وأول كلمة هنا «فسجد»، فالخيط متصل بلا انقطاع، ثم النسق على الأتم، والحمد لله أن جعل الله كلامه نسقاً مفيداً وكتابه عزيزاً مجيداً. والأولى مفتتحة بالفاء، وهذه كذلك.

---

(١) الإنسان الصالح، الغامدي، المرجع السابق، ص٢٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٨.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٨/ ٤٠٨٥.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٤/ ٣٧٥.
(٥) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٥.

المعنى: فسجد: الفاء تفيد التعقيب والمسارعة، لقد صدر الأمر في الآية السابقة وسارع الملائكة للتنفيذ كما في هذه الآية، بالفاء المفيدة للتعقيب. والسُّجود هيئة معلومة لا تعوز إلى بيان، وهي وضع الجبهة على الأرض امتثالاً لأمر الله.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾: والملائكة تحتمل المأمور منهم، والأولى والأمثل أن يكون الأمر للملائكة بأجمعهم، وليس فئة منهم كما يرى العلامة الشعراوي إذ يقول إن «العالين» من الملائكة لم يسجدوا، ويفسر قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي من هؤلاء، ولا دليل عليه، والنص لا يساعد على هذا الفهم.

والأولى من الأقوال أقوى وأدعى للامتثال، فنقف عند المتبادر من النص والذي يساعد عليه التوكيد أجمعون، ولا استثناء فلِمَ نستثني؟

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾. فنفذ الملائكة أمر ربهم بالوقوع ساجدين، ولم يقل فوقع الملائكة ساجدين، لأن معنى «فَسَجَدَ» تنفيذ الأمر كما صدر لا أنهم اختلفوا عن الأمر أو خالفوه معاذ الله، ولفظ الملائكة عام كما أسلفنا فليبق على عمومه كما أطلقه الله. وقوله ﴿ كُلُّهُمْ ﴾. تفيد العموم كذلك[١].

قال السعدي: تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث إنه عُلِّم ما لم يعلم[٢].

قال الشوكاني: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾. أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرِّد:

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٨.
(٢) نوفل، المرجع نفسه، ص٢٠٨.

قوله ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله: ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ توكيد بعد توكيد، ورجّح هذا النيسابوري بالقول: وذلك لأن «أجمع» معرفه فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً[١].

وقد يصدق أن يُقال كلا اللفظين ﴿ كُلُّهُمْ ﴾، ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ يفيد التأكيد، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد، فيقال فيهما توكيد بعد توكيد، وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة.

ـ فلفظ (كل) في صوره المختلفة يدلُّ على الإحاطة والشمول، يُقال: تكلله أي أحاط به الإكليل، والتاج سُمِّيَ بذلك لإحاطته بالرأس، وإكليل الظفر ما أحاط به اللحم.

ـ أما لفظ (أجمع) فيدل على الضم والاجتماع.

ـ ولهذا الفرق بينهما يقول: حضر القوم كلهم، تريد الدلالة على الإحاطة والشمول في الأفراد، أي لم يتخلف واحد منهم.

وتقول حضروا (أجمعون) تريد الدلالة على الاجتماع في الأفعال أي لم يتأخر واحد منهم.

ـ فيكون الأول تأكيداً لمعنى الوحدة في الفاعل، والثاني تأكيداً لمعنى الوحدة في الفعل، ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السُّجود وهيئته، ليدل بالأول على عموم الامتثال ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ وبالثاني ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ على سرعة الاستجابة، وبهذا يكون التأكيد بـ (كل) لإفادة العدد العديد إذا صار فرداً واحداً في امتثال الفعل، ويكون التأكيد بـ (أجمع) لإفادة أن العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل[٢].

---

(١) تفسير فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ١٥٧.

(٢) النور المبين في تدبر آيات القرآن الكريم، زين محمد شحاته، ١/ ٦٧٤.

وقد سئل المبرد عن اجتماع اللفظين في الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال (كلهم) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر، فلما قال (أجمعون) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة[١] في وقت واحد.

ومن الدروس المستفادة في الآية :

ـ هذا السُّجود أدل دلائل التكريم، فكيف يُنكر الإنسان كرامته إذ ينكر عالم الغيب، وما مصلحته في هذا الإنكار؟

ـ من يخدعون الناس بدعوى الإلحاد يخدعونهم عن عزتهم وكرامتهم وإنسانيتهم.

ـ الاختيار بين الإيمان والهدى أو الضلال والشرود يُبنى عليه إما خلود في النعيم لمن اختار الهدى، أو خلود في الجحيم لمن اختار الردى والشرود عن سبيل الهدى.

فيا أيها الإنسان أحسن الاختيار، فسِرّ كرامتك اختيارك، وسِرُّ سعادتك أو شقائك حسن اختيارك أو سوء اختيارك[٢].

٥ ـ ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٣١] :

والمعنى : إلا ابليس : إلا : هل الاستثناء متصل أم منقطع؟

إبليس بالقطع ليس من الملائكة، لأن هناك نصّاً صريحاً يقول فيه الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ . . . ﴾ [الكهف : ٥٠].

---

(١) النور المبين في تدبر آيات القرآن الكريم، زين محمد شحاته، المرجع السابق، ١/ ٦٧٥.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٠٩.

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن: والجن جنس مختار كالأنس، يمكن أن يطيع ويمكن أن يعصي(١). وبناء على هذا فإن الاستثناء منقطع، وهذا الأرجح والأوفق والأصوب. وإن كان المقصود إلا إبليس لم يكن من الساجدين على احتمال عموم الساجدين، فالاستثناء متصل، وإن كنا نفضل الأول لأنه الأولى(٢). وقد خلق الله إبليس مختاراً، شأنه شأن سائر الجن، لأنه منهم: فيستطيع أن يُقبِل على أعمال الخير وأعمال الشر بإرادته الكاملة التامة.

فلو لم يعطه الله الاختيار التام لما استطاع أن يَعصي ربه بعدم السُّجود حين أمره بذلك، ويدل على هذا الأمر دلالة واضحة قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾ لأنه لا يُقال (أبى) إلا إذا قدر على فعل الشيء، لكنه امتنع عنه. ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن الجن قسمان: مؤمنون وكافرون، وتقسيمهم إلى قسمين دليل على أن لهم إرادة واختياراً، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥]. وهنا القاسطون: هم أولئك الجائرون الحائدون عن صراط الحق(٣).

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السَّلام أصل البشر. وكان قبل أن يؤمر بالسُّجود لآدم قد التزم التزاماً رفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة تكريماً له، لأنه كان يجلس مع الأطهار، لكنه ليس مَلاكاً.

وهناك بعض العلماء صنفوه بمستوى أعلى من الملائكة، والبعض الآخر صنَّفه بأنه أقل من الملائكة، لأنه من الجنِّ، ولكن الأمر المتفق عليه بأنه لم يكن

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٦.

(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٣) آدم عليه السَّلام خلقه ومعصيته، إبراهيم النعمة، ص٢٧.

ملاكاً بنص القرآن الكريم، وسواء أكان أعلى أم أدنى، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه وتعالى، لكنه أبى واستكبر وكان من الكافرين، وعرض المولى عزَّ وجلَّ هذه المسألة في القرآن الكريم مرة بـ ﴿أَبَىٰ﴾ ومرة بـ ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ ومرة جمع بين الإباء والاستكبار.

ـ ففي سورة الحجر، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١].

ـ وفي سورة ص، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤].

ـ وأما الجمع بينهما فجاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤][1].

وفي سورة الحجر، نلاحظ أن النص لم يقل أبى أن يسجد أو أبى السُّجود، ولكن قال: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾، ولم يقل كذلك من الساجدين. فالنص فيما أراه يُفيد منه منتهى الكبر، فالانفراد أولاً عن الجماعة والشذوذ عنهم، ثم التوقف عن العمل وهو السُّجود، بل رفضه وإباؤه، ثم رفض الانخراط لا أن يكون «من» وهي المماثلة والتماهي والاندماج، ولكن رفض مجرد أن يكون «مع»، فأفادت الآية كما سلف الدلالة على منتهى التمرُّد والإباء والشذوذ والخروج على الجماعة وعلى الأمر وعلى الآمر، فهو باللغة القانونية قد ارتكب عدة جنايات لا واحدة.

والصياغة القرآنية فتحت الباب لكل هذه الاحتمالات من المعنى، فمجرد الحضور مع الساجدين مرفوض بالنسبة له، وليس السُّجود مع الساجدين.

والنص كل كلمة فيه هادفة بوضوح وجلاء بعِظم جناية هذا المجرم، وعظم

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٧.

كبره وتنفُّخه وتجاوزه قدره، وهذه هي البلاغة، بأن تستخرج من اللغة أقصى طاقتها، ومن الشعور أقصى درجات تفاعله، ومن العقل أقصى درجات وعيه وفهمه واستيعابه[١]. **ومن دروس هذه الآية:**

ـ القَدر العالي لبلاغة القرآن أنه بالألفاظ المعدودة يصور المعاني اللامحدودة، ويبين مشاعر من يتحدث عنه، وفي هذه الآية كان المحور بيان نفسية الشَّيطان وتكبره.

ـ الكِبر أكبر الكبائر (وأبى) امتنع تكبراً.

ـ إباء السُّجود فعل واحد استدرج صاحبه إلى ما لا نهاية له من أفعال الشر وراكم عليه من المؤاخذات ما يورده الهلكة والخلود في العذاب، وهذا يبين خطورة المعصية والذنب والتمادي فيه.

ـ إبليس لا يرفض السُّجود وحسب، ولكن يرفض مجرد أن يكون مع الساجدين.

ـ العجب أن أغلب بني البشر اليوم أتباع لأعدى أعدائهم، ومَن رفض تكريم أبيهم، وهذا من أشد المفارقات[٢].

خامساً: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٣٢ـ٣٣]:

١ ـ ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]:

بيَّن سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السُّجود لآدم الذي أمره ربه جل وعلا به، وبين أيضاً في سورة «الأعراف» و سورة «ص» أنه وبخه لهذا السؤال.

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢١١.
(٢) المرجع السابق، ص٢١٢.

ـ قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

ـ وقال تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وناداه باسمه في سورة الحجر وسورة ص ولم يناده به في سورة الأعراف[١]. ولنلحظ أن في سورة الحجر هنا: أن المتكلم هو الله وهو الذي يعلم أنه خلق إبليس بخاصيّة الاختيار، فله أن يطيع وله أن يعصي، وهو سبحانه هنا يوضح ما علمه أزلاً عن إبليس، وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة[٢].

٢ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]:

في الآية السابقة سؤال موجه من الله لإبليس، وفي هذه الآية جوابه على السؤال وهناك سأل عن إبائه السُّجود: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وهنا يجيب بلا حيدة عن الموضوع مما يعني أنه مصر على خطيئته وذنبه مع الوعي التام عن الموضوع الذي يرفضه، فهو يقول: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾، ويستحضر في الجواب ما مرّ مرتين في السياق وهو قوله تعالى عن المخلوق الجديد أعني الإنسان: ﴿بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ فيقول هنا معللاً مبرراً إباءه للسجود بأنه لا يسجد: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ فهو يردنا بهذا الجواب إلى العنصر والعنصريات، يريد أن عنصره خير من عنصر آدم عليه السَّلام. والخيرية يحددها الله لا الأهواء ولا أحد سواه، ويكفي العنصريين شؤماً أن إبليس إمامهم في تفضيل:

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ٣/ ١٤٥.
(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٨.

ـ لون على لون.

ـ أو عرق على عرق.

ـ أو عنصر على عنصر.

ـ أو جنس على جنس.

وإنه يوم القيامة يدعو الله سبحانه كلَّ أناس بإمامهم. وهي الدعوى التي دمرت أوروبا في الحربين العالميتين الطاحنتين: الحرب العالمية الأولى والثانية التي حصدت الملايين بدعوى النازية، أي القومية الألمانية التي رآها هتلر فوق الجميع، فهي دعوى عنصرية قومية شوفينية ترى نفسها أعلى وأفضل. وهي دعوى إيطاليا الفاشستية. وهي دعوى البيض بالتفوق على السود... إلخ.

باختصار هي دعوى شيطانية مدمرة، ودعوى لاستعباد الخلق بعضهم لبعض، نبغي مقاومتها بكل سبيل[(١)].

إن المتبصر في حوار إبليس ـ عليه لعنة الله ـ مع الحق سبحانه وتعالى، يجد فيه الاعتراض الوقح على حكمة الله في خلقه، والاستبداد القبيح بالرأي، والمكابرة الجائرة للحقائق، والأسلوب الممجوج في العناد والتعنت.

لقد بيَّنت الآيات القرآنية ما أظهره عدو الله إبليس من مخالفة للأمر، وتحكم للهوى، واستكبار على الله سبحانه، واستعلاء على المخلوقات بمادة خلقه من النار. وبهذا يكون إبليس أول من أبى واستكبر، بل إنه أول من زرع بذور الشك والريب، وأثار الفتن والشبه الباطلة، وعلى منواله تسبح أتباعه من الجِنِّ والإنس. إن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس، ومظهرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختيار الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢١٩.

التي خُلق منها وهي النار، على مادة آدم عليه السَّلام وهي الطين[١].

إن إبليس أبٌ روحيٌّ للعنصريين في تفضيل عنصر على عنصر بلا أساس ولا مستند للدعوى نفسها. وقد بين القرآن في مواطن أخرى تفصيلاً لهذا، وذلك اعتقاده أنه متفوّق بما خُصَّ به من حيث المادة التي خُلق منها والعنصر الذي شُكِّل منه، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فأحال ما في هذا الموضع إلى ما في ذاك الموضع، والقرآن يتكامل ويبين بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً[٢].

أ ـ المعنى في قوله ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ **قال**: أي إبليس، لم أكن لأسجد: وهي أشد في النفي والإنكار من قوله لا أسجد. فهذه الصيغة من أشد صيغ النفي. فهي تنفي الأمر من أساسه وأصله وجذوره ومنذ أوائله... أي من أول صدور، بل من قبل صدوره، وهو منطلق في ذلك مما قلنا من تنظير العنصريين لتفضيل عنصر على عنصر وعرق على عرق، وهكذا بلا أساس.

ب ـ ﴿لِبَشَرٍ﴾: هذا القول من إبليس مقابل للقول الإلهي: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ [الحجر: ٢٨]. فهو يرد على كل كلمة بالرفض والتمرُّد.

ج ـ ﴿خَلَقْتَهُۥ﴾: أي أوجدته وأنشأته، فهو يعي كل هذه الحقائق ويتمرد فعلاً لأنه شيطان، فحقَّ أن يكون كذلك أي مطروداً من رحمة الله مبعداً عنها، إذ وعى كل هذا ثم تمادى.

د ـ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: أي من طين أصله من حمأ متأسن ثم جف فأصبح كالفخار، فهو يصلّ ـ بتشديد اللام ـ أي يصدر صوتاً كالصوت الذي نعهده جميعاً إذ ندق على الفخار[٣].

---

(١) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان، مرجع سابق، ص٤٧٠.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢١٩.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٩.

الإنسان في القرآن الكريم غير البشر :

قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ : الإنسان في القرآن الكريم غير البشر ، فباستقراء مواضع ورود كلمة «بشر» في القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الأدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وفيها يلتقي بنو آدم على وجه المماثلة التي هي أمُّ المشابهة .

وبهذه الدلالة ورد لفظ البشر ، كاسم جنس في خمسة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعاً في بشرية الرسل والأنبياء مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر[1] . قال تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٢ ـ ٨] . وغير ذلك من الآيات .

وقالت الدكتورة عائشة بنت الشاطئ : وقد تأتي الآيات في تقرير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعاً ، لكن السياق فيها شاهد على هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصاً . ففي الإسراء من الآية التسعين وحتى الآية الثالثة والتسعين ، ذكر مقترحاً للكافرين ورد فيه كلمة «الرسول» في ختام القول : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ، ومعها آيات الأنبياء

---

(١) القرآن وقضايا الإنسان ، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، ص١٥ ـ ١٧ .

(الرابعة والعشرون) والفرقان (العشرون) والشورى (الحادية والعشرون) [١].

وقد علق الطاهر بن عاشور على قول إبليس: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ فهو برأيه تأييد لإبايته من السُّجود، وأن المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم لا يستأهل السُّجود، وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء الشيء حكم وقعه في الحاسة الوهمية، دون وقعه في الحاسة العقلية، وإعطاء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن. فشتان بين ذكر ذلك في قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وبين مقصد الشَّيطان من حكاية ذلك في تعليل امتناعه من السُّجود للمخلوق منه بإعادة الله الألفاظ التي خاطب بها الملائكة وزاد فقال ما حكي عنه في سورة ص إذ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ولم يحك عنه هنا، وبمجموع ما حكي عنه هنا وهناك كان إبليس مُصرِّحاً بتخطئة الخالق، كافراً بصفاته، فاستحق الطرد من عالم القدس[٢]، وسيأتي بيانه في سورة ص إن شاء الله تعالى.

❊ لقد أظهر إبليس ـ عليه لعنة الله ـ ضروباً من الجهالة وأنواعاً من الفسق والعصيان فإنه:

ـ اعترض على خالقه واحتج عليه بما يؤيد به اعتراضه.

ـ إنه جعل امتثال الأمر موقوفاً على استحسانه وموافقته لهواه، وهذا رفض لطاعة الخالق، وترفع عن مرتبة العبودية.

واستدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباري، إذ إن الملائكة خلقوا من النور وهو خُلق من النار، والنور خير من النار وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

---

(١) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ص١٥ ـ ١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، الجزء الرابع عشر مرجع سابق، ٧/ ٤٦.

إنه قد جَهل ما خص به آدم من استعداده العملي والعلمي أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسُّجود له، فكان بذلك أفضل منهم وهم أفضل من إبليس بصفة الخلقة والطاعة لربهم[١].

وفي قصة آدم وإبليس تنفرد سورة الحجر من بين تلك السور التي قصت قصته بالحديث عنه دون أن تلفظ اسم آدم فيه، وإنما اكتفت بذكره بلفظ إنسان أو بشر: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ واكتفى من السورة بعرض موقف إبليس فحسب، ولعل ذلك مما ينسجم مع تركيز السورة والمعنى في هدفها قدماً دون توسع، إذ تحقق بذكر القصة دور إبليس في إغواء البشر، واحتضان المؤمنين ـ إن جاز التعبير ـ باسم «عبادي» في جنات وعيون.

وأما الغاوون فإن جهنم موعدهم أجمعين، وهي تلخص قصة البشرية من أولها إلى آخرها، وهذا ينسجم مع شمولية السورة لموضوعات الخلق والطاعة والمعصية[٢]. **ومن الدروس المستفادة من الآية:**

ـ العنصريات مردودة جملة وتفصيلاً.

ـ يكفي العنصريات شؤماً أن إبليس منشِئُها وما حصدت من الأرواح.

ـ ميزان التفضيل والتقديم والتأخير يضعه الله تعالى ويحدده: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾.

ـ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ... ﴾.

ـ وقد قال من له الحق المطلق: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ.. ﴾ ولو وزن كل أحد على هواه لاختل ميزان الوجود.

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ٢٢٢.
(٢) النسق القرآني، محمد ديب الباجي، ص٧٢٩.

ـ إبليس متمرِّد عن سبق التصميم والوعي والإرادة فهو أشد جرماً.

ـ المؤلم أن يتخذ البشر عدوَّهم صديقاً، بل يطيعوه بدل طاعة الله.

ـ طاعة الشَّيطان عبادة كما سماها الله تعالى بقوله: ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] [١].

ـ يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: وهكذا أفصح إبليس عما يكنُّه من فهم خاطئ لطبيعة العناصر، فقد توهم أن الطين والصلصال أقل مرتبة من النار التي خلقه الله منها، وامتناع إبليس عن السُّجود إذن امتناع الذي يعطي التمايز، وأن تجاهل الأمر هو إرادة المعنصِر الذي يرتب المراتب بحكمته، وليس على رأي أحد من المخلوقات[٢].

ثم من قال إن النار أفضل من الطين؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال في شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوت المصلحة فيهما، والنار لها جهة استخدام والطين له استخدام مختلف، وأي منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر.

ومن توجيه الله تعالى في فضائل الخلق أن من يَطلي الأشياء بالذهب لا يختلف عنده سبحانه عن الذي يَعجن بالطين ليصنع منه الفخار، فلا يفضل أحدهما على الآخر إلا بإتقان صنعته، وهكذا أفصح إبليس أن الذي زيّن له عدم الامتثال لأمر السُّجود هو قناعته بأن هناك عنصراً أفضل من عنصر، ويأتي الأمر بالعقاب من الحق سبحانه فيقول تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ [٣] [الحجر: ٣٤].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٣.
(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٦٩٩.
(٣) المرجع السابق، ١٢/ ٧٦٩٩.

سادساً: قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥]:

الآية السابقة تضمَّنت ردَّ إبليس الأمر الإلهي وجوابَه على طلب المولى سبحانه بالسُّجود لهذا المخلوق الطيني، وهذه الآية تضمَّنت ردَّ الإله العظيم على ردِّه، وجوابَه له بالطرد والإبعاد، ولا يظلم ربك أحداً من العباد[1].

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]:

ـ ﴿قَالَ﴾: أي الله عزَّ وجلَّ وعبر بضمير الغائب.

ـ ﴿فَٱخْرُجْ﴾: الفاء تفريع على ما قال، وكأنها الجواب على رده، والخروج المغادرة مطروداً مبعداً مدحوراً مذموماً.

ـ ﴿مِنْهَا﴾: الضمير في منها محير: فهل المقصود من السماء؟ أم من الجنَّة؟ أم من الحضرة كما يقولون؟ أم من الرتبة؟ أم من الجوار والقرب والكرامة؟ أم من هذه جميعاً؟ وأظن الأمر شاملاً كل ما ذكر وما لم يذكر.

ـ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾: هذه الفاء الثانية، الأولى عللت الأمر قبلها وهو ما ترتَّب على الإباء والتكبُّر، وهذه عللت ما قبلها وهو الخروج، و«إن» للتوكيد، وكاف الخطاب لإبليس.

ورجيم: مرجوم مع الطرد والإبعاد، والرجم وإرصاد الرجم واحد من واجبات الحج، للتذكير باستحقاق الشَّيطان لذلك.

ومن صور الرجم أن تطارد الشهب كل شيطان يسترق السمع كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧ ـ ١٨]، وكما في سورة الصافات، قال تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٤.

جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات : ٨ ـ ١٠] .

وكما قال تعالى في سورة الملك : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ٥] .

وقد وردت كلمة ﴿رَّجِيمٍ﴾ في القرآن الكريم ست مرات كلها بحق الشَّيطان، ولم تتكرر الكلمة في سورة إلا في سورة الحجر في الآيات السابعة عشرة والثامنة عشرة(١) .

قال الزمخشري : ﴿رَّجِيمٍ﴾ شيطان من الذين يُرجَمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله، لأن مَن يُطرد يُرجم بالحجارة . ومعناه : ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد(٢) .

وقد قال ابن عاشور : ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الفاء دالة على سبب إخراجه، و(إن) مؤذنة بالتعليل : وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس، وهو ما يقتضيه وصفه بالرجيم، متلوث الطوية وخبيث النفس، أي ظهر هذا فيك فقد خبثت نفسك خبثاً لا يُرجى بعده صلاح، فلا تبقى في عالم القدس والنزاهة(٣) . وقال أبو زهرة : ورجيم : معناها مطرود مرجوم بالحجارة(٤) . وقال مخلوف : رجيم مطرود من الرحمة مرجوم بالشهب(٥) .

ومن دروس الآية السابقة :

ـ الإصرار على المعصية والاستكبار عن الطاعة سبب للطرد من رحمة الله .

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٥ .
(٢) نوفل، المرجع نفسه، ص٢٢٥ .
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٧/ ٤٧ .
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٨/ ٤٠٨٧ .
(٥) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٦ .

ـ الشَّيطان مرجوم، ومن عبادات الحج رجم إبليس تذكيراً بما كان منه وتذكيراً بعداوته.

ـ نسيان العداوة لهذا الشَّيطان مدعاة للهلاك وما خطيئة أبينا إلا النسيان ﴿فَنَسِيَ﴾.

ـ أخطر جناية هي جناية المخلوق على نفسه، فما أوقع أحد أحداً في شر أعظم مما أوقع إبليس نفسه فيه[١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]:

ـ إن لعنة الله حلت بإبليس فأقصته عن مظان الرحمة دوماً من غير انقطاع كما سيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى، ومعنى الآية:

ـ ﴿وَإِنَّ﴾: الواو للعطف وإن للتوكيد.

ـ ﴿عَلَيْكَ﴾: حرف جر، وكاف الخطاب تعود للشيطان، وقدَّم خبر إن على اسمها لإفادة الاختصاص.

ـ ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾: الطرد من رحمة الله، وعرّفها إما إفادة للتعريف أو التحديد والتعيين، أو بمعنى اللعنة المحددة المعروفة الخاصة بك أو اللعنة المطلقة التامة.

ـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: فهو مطارد ملاحق باللعنة إلى يوم الدين. فإذا كان ملاحقاً باللعنة إلى يوم الدين والحساب فما شأنه عند يوم الحساب وبعد الحساب؟ وليس المعنى انتهاء اللعنة بيوم الدين، وإنما إذا انتهت هذه اللعنة بدأت لعنة خاصة وأشد وأعنف[٢].

قال النسفي: ضرب يوم الدين حدّاً للعنه، لأنه أبعد غاية يضربها الناس

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٨.

في كلامهم، والمراد به أنك مذموم مدعوّ عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تُعذَّب، فإذا جاء ذلك اليوم عُذِّبت بما ينسى اللعن معه(١).

و﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: هو يوم الحساب(٢)، وقد ورد أكثر من نص شرعي في القرآن الكريم بلعن إبليس، وما ذلك إلا لمكره وخبثه، ومن هذه النصوص القرآنية:

ـ قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١١٨].

ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ـ٣٥].

ـ قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٧ـ٧٨].

ويُؤخذ من هذه النصوص بعض الدلائل المستنبطة من الآيات التي لعنت إبليس، وهي كما يأتي:

ـ ورود أكثر من نصّ يؤكد حلول لعنة الله بإبليس.

ـ أضافت الآية بعض الأوصاف التي ذكرت ضمن سياق الآية التي أخبرت عن لعنه، من ذلك أنه متمرِّد، وأنه أُخرج من الجنَّة مرجوماً.

ـ ذكرت الآية في سورة الحجر حلول اللعنة على إبليس بشكل عام، ثم تكرر الأمر في سورة (ص) بإضافتهما إلى الله تعالى من أجل أن يتحقق اللعن بشكله الجماعي من الله ومن الناس.

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع نفسه، ص٢٢٨.
(٢) موسوعة الصحيح الميسور من التفسير بالمأثور، حكمت ياسين، ٤/ ١٥٧.

ـ أخبر القرآن الكريم بأن هذه اللعنة مُلازمة لإبليس لا تنتزع عنه إلى يوم القيامة، حيث عقابه في جَهَنَّمَ.

ـ إن إبليس من الذوات التي تحقق فيها لعن الله، لذلك يكون تأثيره جليّاً بكل معاني اللعن من حيث الإبعاد والإقصاء والتفريق(١).

ـ إن اللعن هو الطرد من رحمة الله، وقد خُصَّ إبليس بها من لحظة قيلت له إلى ما لا نهاية، فإذا انتهت لعنة ما قبل الحساب بدأت لعنة ما بعد الحساب.

إن جناية إبليس على نفسه ليس لها حدٌّ ولا وصف ولا نظير ولا تصوير ولا تقريب(٢). إن السبب الرئيسي في لعن إبليس هو المعصية التي بدأت منه تجاه رب العالمين من التعالي والتكبر، والتمرُّد على أمر الله، والإصرار على المعصية، وحسده لآدم عليه السَّلام، وغير ذلك من الأسباب التي منعته من التوبة والرجوع إلى الله، فأبعده الله مع السخط عليه(٣).

سابعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٣٨]:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]:

هذا طلب إبليس بعد أن سمع الحكم عليه من الله بالإخراج والطرد والإبعاد واللعن، فطلب كما بيَّنت هذه الآية الإمهال إلى يوم البعث أو يوم الدين ﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي الخلائق(٤).

---

(١) نصوص اللعن في القرآن الكريم، عمر الكبيسي، ص٣٧٢.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٩.
(٣) نصوص اللعن في القرآن الكريم، الكبيسي، مرجع سابق، ص٣٢٨ إلى ٣٨٥ مع التصرف والاختصار.
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٢٩.

وهذا المخلوق بالذات ـ إبليس ـ يشتري الوقت كما يُقال، ويؤخر عقوبته ولا يبادرها بالتوبة، فكأنه حكم على نفسه بالشقاوة المؤبدة، ولو استرجع لدفع عنه العقوبة، لكن ركب مركب العناد واللجاجة والكبر والفجاجة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وليكون هذا الصراع بين معسكر الحق بقيادة الأنبياء والمرسلين وهم من ذرية آدم النبي الكريم عليه السَّلام، ومعسكر الباطل بقيادة وزعامة هذا المتمرِّد المخذول المرذول الشَّيطان[١].

ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾: قال: أي إبليس، رب: هو يعلم أنه الرَّبّ وأنه ربه هو ورب كل شيء، ولكنه أضلَّ نفسه على علم فأضلَّه الله، ولم يستخدم ياء النداء إما للقرب فهو في الحضرة كما نفترض، أو للتقرُّب أي ليُستجاب له، يتلطَّف ويتودَّد وفي الوقت ذاته فإن مضمون كلامه التحدي، وهو أهون وأقل من هذا التحدي، أوليس كل كافر يبارز الله ويعالنه الحرب ويشاقه ويحاده ويعاديه فهو يشكل تحالفاً مع إبليس، أعدى أعداء الله؟

ـ ﴿ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾: ما دُمت حكمت علي بكيت وكيت فأنظرني، فكأنها واقعة جواب في جواب كلام محذوف مقدر ومتفرعة عنه.

والإنظار: إمهال وإرجاء وإعطاء فرصة من الوقت.

ـ ﴿ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾: إلى يوم البعث، لهذا المخلوق وذريته أو للخلائق أجمعين، لكن الذي يهمه الآن من بين الجميع هذا المخلوق الجديد وذريته، إنه يملك معلومات ويبني عليها ويمكر وفقاً لها، وما أسوأ طريق اللجاجة وما أبأس العناد! وأسوأ من كل ذلك سببه وهو شعور الحسد والحقد. ألا فلتتنظف العقول والقلوب من كل هذه البقع السوداء والتشوهات والمشاعر السلبية[٢].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع نفسه، ص٢٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٠.

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفَّ عن إثمه، ولكن لينتقم من آدم وذريته، جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله له بآدم ولا يربطها بعصيانه لله في تبجُّح كبير. **ومن دروس الآية**:

ـ لجأ إبليس إلى أسلوب يطلق عليه الناس بلغة هذا العصر الهروب إلى الأمام.

ـ إبليس كما يُقال هذه الأيام يشتري الوقت ويدفع عذابه الذي تحقق منه بعد خطيئته، ولو كان أعقل لبادر بدفع العذاب بالتوبة.

ـ العاقل يفر إلى الله بعد خطيئته ويعلن توبته، والأحمق من فر من الله إلى عدوه الشَّيطان، فياللتعاسة والحماقة.

ـ العناد واللجاجة من أسوأ الطباع وأرذل الأخلاق.

ـ الحسد والحقد والعنصرية والكبر والعجرفة والغرور كلها أمراض نفسية وعقد تؤدي بصاحبها وتُردي صاحبها، وما أحوج النفوس إلى علاج من هذه الأمراض[١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٧]:

هذا جواب الله عزَّ وجلَّ على طلب إبليس ﴿ فَأَنظِرْنِيٓ ﴾، فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾، أي كما طلب لا عن كرامة ولكن عن استدراج، ثم إن النص القادم سيبين أن الإنظار حاصل لكن لا إلى يوم القيامة، ولكن إلى الوقت المعلوم الذي يحدده الله، فمتى هو ولماذا هذا التعديل؟ فكل ذلك إلى علم الله مردُّه.

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣١.

ـ ﴿ قَالَ﴾ : أي المولى الجليل سبحانه .

ـ ﴿ فَإِنَّكَ ﴾ : كأن الفاء واقعة في جواب الكلام كما وقعت الفاء في الجواب قبلاً ، فكأن المولى يقول له ما دمت طلبت الإنظار فإنك من المُمهَلين المُنظَرين المؤخَّرين المؤجَّلين ، لكن إلى الوقت الذي أُحدِّده وأُعيِّنه لا الذي تريده[١] .

قال السعدي : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ ليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه ، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له ولعباده ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ، ممن ليس كذلك ؛ ولذلك حذرنا منه غاية التحذير ، وشرح لنا ما يريده منا[٢] .

من دروس الآية :

ـ الاستجابة ليست دليل كرامة ، وهذا في حق إبليس .

ـ ربما يكون إبليس قد فرح بإجابته ، ولكنه فرح سيعقبه ندم وألم لا ينتهي .

ـ الاستدراج واحد من سنن الله في أعدائه .

ـ رُبَّ ظاهر له ثوبُ الفرح ولكنه في حقيقته ترح .

ـ ما أشقى وأتعس من يُوظِّف الوقت في معصية الله ، أي في سبب مزيد من شقائه وعذابه[٣] .

٣ ـ قال تعالى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر : ٣٨] :

أجاب الله طلب إبليس لأنه وافق الأقدار ولم يجب في التوقيت ، بل قيل له : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ، ولم يُحدِّد النص القرآني الكريم ما المقصود من هذا التوقيت المعلوم ، وأعتقد أنه ما دام هناك بشر فالمعركة بين الخير والشر والحق

---

(١) تفسير سورة الحجر ، نوفل ، ص٢٣٢ .
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن تفسير سورة الحجر ، مرجع سابق ، ص٢٣٢ .
(٣) تفسير سورة الحجر ، نوفل ، مرجع سابق ، ص٣٣ .

والباطل مستمرة، والصراع على أشده، ومكر إبليس في إضلال الناس مستمر، أما وجود أناس بلا فتنة فلا يُتصوَّر، فليس الوقت المعلوم ـ إذن ـ وفريق من الناس موجود، فطالما هناك بشر فعدوُّ البشر موجود وفتنتهم موجودة أعني بهذا العاتي المتمرِّد[١].

ولعله أراد أن يكون من هؤلاء المقصودين في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾: معناها إلى الوقت الذي علمه الله وحدَّده لا إلى الوقت الذي أردته أنت، لتشتري الوقت وتؤخر عن نفسك العذاب إلى أقصى المستطاع، وهو مُدرِكُك على كل حال[٢]. إن إبليس سيذوق الموت حتماً لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وهكذا لم يُفلت إبليس من الموت[٣].

ولقائل أن يسأل: وكيف كلّمه الله؟

ونقول: لم يكلمه الله تشريفاً أو تكريماً، بل غلَّظ له العقاب كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمن يشاء[٤]. وقد قال مخلوف: الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى[٥]. ونحن لا نستطيع الجزم والقطع إلا بدليل قاطع لا بمجرد الفهم أو روايات المفسرين، والله أعلم بمراده[٦].

وتظهر بعض الحكم في إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم منها:

أ ـ أن الله سبحانه لما جعل إبليس مَحَكاً يُمتحَن به عباده ليميز الطَّيِّب من

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٥.
(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧٠٢.
(٤) المرجع نفسه، ١٢/ ٧٧٠٢.
(٥) صفوة البيان في معاني القران، حسين مخلوف، ص٣٣٧.
(٦) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣٥.

الخبيث، ويميز وليه من عدوه، اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض(١).

قال الزمخشري: فإن قلت: لم أُجيب إلى استنظاره؟ وإنما استنظر ليُفسد عباده ويُغويهم؟ قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خُلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما رُكِّبَ في الأنفس من الشهوات لِيمتحَن بها عباده(٢). ولذلك اقتضت حكمته سبحانه امتحان أولاد آدم من بعد أن امتُحن أبوهم ليميز الله الخبيث من الطَّيِّب، ويظهر فيهم فضله وعدله، ولما كان إبليس قد أصر على معصيته، وخاصم ربه فيما ينبغي التسليم لحكمه كان إمهاله في الدنيا ليزداد إثماً فوق إثمه الذي ارتكبه بعصيان أمر ربه، ليستوجب العقوبة التي يستحقُّها، فيكون رأس أهل الشر في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر، فلا ينزل عذاب بأهل النار إلا بدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمة بالغة(٣).

ب ـ ولو عذب الله أتباع إبليس، دون أن ينزلهم إلى دار التكليف بناء على علمه المسبق فيهم، لاحتجوا على الله لأنه لم يترك لهم مجالاً للاختبار، فهذا هو قد أنزلهم إلى الدنيا وكلفهم بطاعته على لسان رسله فأخفقوا في الامتحان، وتحقق علم الله فيهم، فلا عذر لهم بعد ذلك، وكان تعذيبهم بالنار جزاء عادلاً منه سبحانه الذي لا يظلم أحداً من خلقه.

ومن هنا كان بعث الرسل من عند الله ليقيم الحجة على عباده وليقطع عذرهم في الآخرة، وما كان الله ليعذب أحداً من خلقه دون أن يبعث رسولاً يدله على

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥١٠.
(٢) تفسير الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ٢/ ٦٩.
(٣) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥١٠.

طاعة ربه ومخالفة عدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] [١].

ج ـ ولو أدخل الله عباده المؤمنين الجنَّة، الذين يسبق صلاحهم في علمه الأزلي، لما عرفوا قيمة النعيم دون أن يقاسوا ألم الحرمان والصبر على الشدائد والفتن في الدنيا، فإذا أُنزلوا إلى دار التكليف في الدنيا وعملوا بطاعة الله وجاهدوا في سبيله، ثم أثابهم ربهم على ذلك الجنَّة، فإنهم عند ذلك سيعرفون قيمة النعيم المقيم الذي أعده لهم فيشكرونه على ذلك، فإن الصحة لا تعرف قيمتها إلا بالمرض والمعاناة، فكم لله في ذلك من الحكمة البالغة التي لا تحيط بها العقول، ولا يُنكر ما ظهر منها إلا المكابرون[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨].

وفي الآية دروس منها:

ـ الوقت أعظم رأس مال لمن كان في نهج العبادة لا في نهج الضلال، وحتى هذا أي الضال، فإنَّه يُحِبُّ الوقت لأنه يعلم نهايته غير السعيدة، فهو يستبطئ الزمن لعلمه بالعواقب، ونموذج هذا المنهج إبليس.

ـ أخطر ثروة يُبدِّدها الإنسان هي الوقت.

ـ وأخطر ما يعمل الشَّيطان على هدره عند الإنسان هو الوقت، ولذلك يلعب على هذا العنصر بالوعود والتمنيات.

ـ إجابة الدعاء من قبل المولى عندما دعاه إبليس لأنه وافق تقدير الله بابتلاء البشر بهذا العدو، فمن عصاه وأطاع مولاه فله الجنَّة، ومن أطاعه وعصى مولاه فله النار.

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥١١.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٥١١.

ـ ليست الإجابة في حالته علامة كرامة بل هي استدراج، لذا ينبغي فهم سنن الله وحكمته في هذا الكون(١).

ثامناً: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٠]:

بعد أن اطمأن إبليس أنه لن يُعاجَل بالعقوبة بدأ يكشف مخبوءه الخبيث، وهو منكشف لله غير مستور عنه سبحانه، فهو يعلم السر وأخفى، وإبليس يعلم هذا، لكن حقده أبى أن ينكتم وما استطاع له حبساً، فكشف مخططه لنطلع نحن عليه، أما المُطَّلع العليم الخبير فلا يحتاج إلى من يُطلعه عليه سبحانه(٢).

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾:

(قال): أي إبليس: (رب): ينادي ربه تعالى بلا ياء النداء كما سلف لأنه قريب ولا يعني أنه لا يراه.

ـ ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: الباء للسببية والتعليل، أي بما أنك أو بسبب أنك أضللتني، وأعجب من بعض مفسرينا، وليسوا بالقليلين عدداً ولا قدراً، ممن قال: أصدق كلمة قالها إبليس هذه الكلمة(٣).

يقول الدكتور أحمد نوفل: و والله مع الاحترام لهم فإنها أوقح كلمة قالها إبليس، وهو يريد أن يقول أن الغواية حصلت له من الله لا من عند نفسه، تماماً كقول المشركين في سورة الأنعام، وقد سجلت عليهم وسجلت تكذيبهم وردهم وإليك الآية: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٧.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٣٧.

ـ وكذلك قال اليهود المقولة ذاتها وأبطلها الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

ـ وفي سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

فهل بعد هذا نقول إنها أصدق كلمة، بل هي أفجر كلمة قالها هذا المجرم منذُ فجر الخليقة[١]. وقد قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: والحق سبحانه وتعالى لم يُغْوِه بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع أو يَعصي ويُعاقَب، فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل، فخالف إبليس أمر الله وعصاه[٢].

وهنا يظهر الفرق بين إبليس وبين آدم عليه السَّلام وزوجه، فإبليس نسب معصيته إلى الله، ولعل ذلك من الأسباب التي رافقت معصية إبليس، فدفعته إلى غضب الله ولعنته، وذلك ما تكشفه النصوص القرآنية حيث إن إبليس حينما عصى ربه نسب المعصية إلى الله وبرأ نفسه منها في قوله: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فقد نسب الإغواء والإضلال إلى الله تعالى، بخلاف آدم وزوجه فقد نسبا الخطأ إلى نفسيهما، فقالا: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

لذلك طرد الله إبليس ولعنه، واجتبى آدم وتاب عليه[٣].

٢ ـ ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لأُحسِّنَنَّ لهم كل قبيح ولأجمِّلَنَ لهم كل منفر مستقذر مستهجن من الأخلاق

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣٨.
(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧٠٣.
(٣) نصوص اللعن في القرآن الكريم وأثرها في الأحكام الشرعية، الكبيسي، مرجع سابق، ص٣٨٤.

والأعمال والعقائد والمذاهب والفلسفات والسلوكات والخلافات والقوانين والشرور والطباع والحروب والأطماع والإفساد والفواحش وكل أنواع السوء[١].

ـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : في الدنيا التي هي دار الغرور، أي لأزيننّها في أعينهم، وجعل التزيين في الأرض يفيد انتشاره في جميع ما على الأرض من الذوات وأحوالها[٢]. وما فيها من شهوات كثيرة، وآمال طويلة، تجعلهم ينصرفون عن عبادة الله وطاعته ويغفلون عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء[٣].

إن من أساليب الشَّيطان أن يزين الباطل لبني آدم في الأرض ويحسن لهم كل قبيح ومحرم، فإبليس هو الذي زين الكفر والعصيان للأمم السابقة وحسّن لهم الصدود والإعراض عن دعوة الله على لسان أنبيائه حتى أخذهم الله بجزاء أعمالهم[٤].

قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ٦٣].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ـ٤٣].

ـ ويخبرنا القرآن الكريم أن طغيان قومي هود وصالح عليها السَّلام وتكبرهم عن الاستجابة لدعوة أنبيائهم والاغترار بما عندهم من القوة والعدة، إنما كان بتزيين عدو الله الشَّيطان لهم تلك الأعمال السيئة حتى صدهم عن سبيل الله تعالى،

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٣٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٧/ ٥٠.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٤/ ٣٧٧.
(٤) عداوة الشَّيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، مرجع سابق، ص٣٠٩.

يقول جل وعلا: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] [١].

ـ وحينما عبدت ملكة سبأ وقومها الشمس من دون الله تعالى كانت تلك العبادة والسُّجود بتزيين الشَّيطان لها ولقومها ذلك الفعل، حتى حسّن لهم وأمرهم ببناء قصر عظيم رفيع البناء محكم التشييد وكان فيه ثلاثمائة وستون نافذة من مشرقه ومثلها من مغربه، وقد وضع بناءه على أن تدخله الشمس كل يوم من نافذة وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً.

يقول الحق تعالى مخبراً عن تلك الملكة وقومها حكاية عن هدهد سليمان عليه السَّلام[٢]: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل: ٢٢ـ٢٦].

ـ ولما بزغت شمس الإسلام وظهر نوره، ساء ذلك عدوَّ الله الشَّيطان وكره انتشار الإسلام، فجمع أمره للكيد لهذا الدين وجنده، لما يعلم أن في هذا الدين سعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، فزيّن للناس كراهية هذا الدين وحسّن لهم دين الآباء والأجداد والانتصار له ومحاربة الرسول ﷺ، حتى نسج للمشركين مخطط قتله ﷺ.

فمن ذلك ما زينه لهم يوم بدر لحرب المؤمنين، وإزهاق الحق وإظهار الباطل الذي هم عليه بصورة الحق الذي يستميتون من أجل الدفاع عنه، حتى قال

---

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، مرجع سابق، ص٣٠٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣١٠.

وليُّ الشَّيطان أبو جهل: اللهمَّ أولانا بالحق فانصره[١]، وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

واختلف في كيفية تزيين الشَّيطان الباطل المذكور في الآية، هل كان التزيين بالوسوسة فقط، أم تحول الشَّيطان في صورة إنسان فخاطب المشركين وزين لهم أعمالهم؟

على قولين في المسألة هما فيما يأتي:

ـ قيل: أن الشَّيطان زين للمشركين بوسوسته من غير أن يتحول إلى صورة إنسان، وهذا قول الحسن والأصم، وبه قال أبو السعود والآلوسي[٢].

ـ وقيل: بل ظهر لهم الشَّيطان في صورة إنسان، وهو سراقة بن مالك بن جُعْشُم، وهذا قول ابن عباس والسدي وعروة بين الزبير ومحمد بن كعب وابن جرير والطبري[٣]، والفراء وابن جزي وابن كثير، وهو قول الجمهور[٤].

وهو الظاهر لما رواه ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس تمثل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك، وأخذ يحرض المشركين على القتال[٥]، ولقد أضل عدو الله الشَّيطان بأسلوب تزيين الباطل كثيراً من الناس،

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، ص٣/ ٧٩. وتفسير القرطبي، مرجع سابق، ٨/ ٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ٢/ ٣٦٤. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ١٠/ ١٥.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٠/ ١٨ ـ ٢٠.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٣١٨. عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٣١٢.

(٥) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٣١٢.

فكم حسّن من قبيح وزيّن من فاحش وجمّل من رذيلة وملّح من ذميم، وقنّع عيوناً لترى الفواحش والمنكرات والمحرَّمات في قالب مزخرف وصورة حسنة، وهي تُخفي في حقيقتها السمّ الزُّعاف والدّاء الدّفين، فهو يظهر الباطل في صورة الحق مع إضافة الشهوات كي تندفع إليها النفوس المريضة، لتقع فريسة للشيطان الذي يتربص بها الشر ويقودها إلى هلاكها وخسرانها، فعدو الله يعلم أن السبيل لإيقاع بني آدم في فخ طاعته ومن ثم موافقتهم إياه في جَهَنَّمَ، هو في اقتراف المحرمات والوقوع في الموبقات، وإطلاق العنان للشهوات، لتشبع نهمها بكل طريق[١].

ـ إن الشَّيطان حين يزين الباطل للإنسان، فإنَّه بالمقابل يُظهر الحق في صورة قبيحة ومستهجنة، ليُنفِّر النفوس عنه، فلا تتبعه وتدعو إليه، فالشَّيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بوصف النبي ﷺ بالسّحر والكهانة والجنون والكذب والشعر.

ـ إن الشَّيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه بتسمية الحدود الشرعية قسْوة ووحشية، مع أن إقامتها يحقق العدل ويُعمِّم الأمن، وهو الذي أوحى إليهم بتسمية المرأة المحتشمة بحجابها الشرعي رجعية ومتخلفة، وأوحى إلى أوليائه بتسمية الدين أفيون الشعوب، وشعائر الإسلام قيود فكرية، والإسلام كبت ورجعية... إلى غير ذلك من الأوصاف التي ينعق بها الإعلام الموجّه، لإطفاء نور الإسلام وسحق الهوية الإسلامية، وهو إعلام ينطق على لسان عدو الله الشَّيطان الذي يدعو الناس إلى الكفر بعد الإيمان والضلال بعد الهدى[٢]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

---

(١) عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها، الحواس، ص٣١٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٣١٨.

ـ إن الشَّيطان حين يزين المعصية في نفس الإنسان، فإنَّه لا يدعوه إليها مباشرة، بل يقرّبه منها خطوة خطوة، وشيئاً فشيئاً حتى يقع في الفخ الذي نُصب له، ولذا حذرنا الله تعالى من اتباع خطوات الشَّيطان والاسترسال معها، يقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ . . . ﴾ [النور: ٢١].

فالشَّيطان يتدرج مع الإنسان في إضلاله وغوايته، فيدعوه للمعصية ويزينها في نفسه، ثم يحبب له النظر إليها، فتحسُن في عينيه، ثم يدعوه إلى الاقتراب منها وتحسُّسِها وارتكابها، وهو في ذلك يوسوس له بأن المعصية من اليسر اقترافها، وليس هناك ما يدعو إلى التردد، حين يزيل هيبة المعصية من قلبه، ثم يؤمنه من عقاب فعلها، بأنه لن يُكشَف أمره، ولن يطلع أحد على جريمته، وأنه فعل ينتهي في وقته، وليس له مُطالب ولا جريرة، ويوحي إليه بأنها فرصة نادرة عليه اغتنامها والتلذُّذ بها، فربما لا يُسمحُ له بمثل هذه اللذة الحاصلة والفرصة النادرة.

وهكذا يقود الشَّيطان هذا الإنسان إلى تلك المعصية عن طريق الخطوات الشَّيطانية المتتابعة، حتى يملأ فكره وقلبه ومشاعره بالرغبة في ارتكابها، ويشحذ عزمه وهمته على فعلها، ولا يدعه حتى يراه متلبِّساً بفعلها، وغارقاً في رذائلها، فيُسَرُّ عدوُّ الله الشَّيطان غايةَ السرور، وهو يراه مواقعاً لتلك المعصية، فيبتهج بتطبيق خطته ونجاح مهمته.

إن عدو الله الشَّيطان يسعى باستخدامه أسلوب التدرُّج في الإضلال أن ينقل الإنسان من معصية إلى ما هو أعظم منها، فهو بخبثه يتلطف الإنسان في قيادته من ذنب إلى آخر أكبر جُرماً حتى يصل به إلى هدفه الأكبر، والذي يسعى إليه بكل وسائله

وأساليبه هو إخراج الإنسان من دائرة الإيمان بالله تعالى إلى الكفر والشرك به[١].

ومن الوسائل الشَّيطانية في تزيين الباطل: تسمية الأمور المحرمة بأسماء مُحبَّبة إلى النفوس، فأضل وأغوى بهذه الوسيلة الخبيثة كثيراً من الناس الذين كانوا يبتعدون عن المعاصي والمنكرات ويشمئزون منها، حين كانت الموبقات تُسمَّى بأسمائها الشرعية والعرفية. بيد أن إبليس استطاع بمكره وخبثه أن يُحوِّل تلك النفوس النقية إلى نفوس سيئة عفنة همُّها إشباع شهواتها بأي طريق كان، بعد أن وسوس لها الشَّيطان بأسماء لتلك المُنكَرات تميل إليها وتهواها، وأوحى إليها بأن هذه المحرمات إنما هي في حقيقتها لمصلحتهم ومنفعتهم، وهذا أمرٌ مُلاحظٌ في كثير من الناس الذين يقترفون المعاصي ويغْشَوْن المنكرات، فتجدهم يُخرِّجون لأنفسهم بمخارج إبليسية، من أهمها إخفاء الاسم الحقيقي لتلك الأمور المحرمة، وتقنيعها بأسماء أخرى مغرية، فسموا الزنى حرية شخصية، وسمُّوا الخمر ـ وهي من أهم الخبائث ـ بمشروبات روحية، وسمُّوا سفور المرأة وتبرُّجها خارج بيت الزوجية واختلاطها بالرجال الأجانب حضارة وتقدماً ومدنية، والربا فوائد، والغش والخيانة ذكاء وفطنة و«دبلوماسية»... إلى غير ذلك من المعاصي والمنكرات التي قنَّعها دعاتها بأسماء لامعة، فراجت عند كثير من العوام والجهال، ولاريب في أن هذا من وسوسة الشَّيطان وإيحائه إلى أولوياته من الإنس لإظهار الباطل في صورة الحق[٢].

ـ وإن انتشار الخمر وتنوع أشكاله واختلاف كيفياته هو بتزيين من الشَّيطان لصانعيه ومروّجيه ومتعاطيه، كي يقودهم بعد أن تختلط عقولهم إلى كل بلاء ومعصية. فالخمر هي حبل الشَّيطان الذي يقود به الإنسان إلى ما فيه عطبه وفساده، وهي أم الخبائث ودليلها، ولذا حذرنا الله من عاقبتها بعد أن

---

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٣١٩.
(٢) المرجع السابق، ص٣٢١.

نهانا عن شربها، وبيّن لنا تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١] [١].

ـ بالنسبة للفساد الجنسي الذي بث سمومه في العالم أجمع لم يكن لناره أن توقد ولا للهيبه أن يستعر في النفوس المريضة إلا بتزيين قائد الفساد في الأرض الشَّيطان اللعين[٢]، الذي أعلن الحرب على الأخلاق الحميدة والعفة والستر والحياء، وحث على استخدام نوادي العراة والمجلات والروايات والتقنية الحديثة للإفساد وجعلها حرباً على الأخلاق والمثل العليا باسم الحرية، وهي في الحقيقة دعوة إلى حياة الغاب والنزوات الشهوانية والدمار في الدنيا، وسخط الله في الآخرة.

ولقد بلغ تزيين الشَّيطان الباطل للناس، أن زين لهم عبادته من دون الله تعالى، فقد وُجد قديماً وحديثاً من يعبد الشَّيطان[٣]. ولقد وُجدت معابد للشيطان عبر التاريخ، وفي وقتنا الحاضر في أمريكا وأوروبا، واشتهرت في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وغيرها من هذا العالم العجيب، ولها طقوسها الخاصة ويتعاطون العلوم السّرية للشيطان[٤].

ـ إن الطقوس الشَّيطانية تعتبر الجنس هو الأساس الذي تقوم عليه، وهو أمر ملاحظ في المحافل التي تُقام فيها تلك العبادات، فالرقص والعري والتفسخ والمجون هو شعار عبدة الشَّيطان، ولذا فهم أسوأ الناس خُلقاً وسُلوكاً، تقول مجلة «تايم»: إن متعبدي الشَّيطان هم أكثر الناس انغماساً في

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٣٢٤.
(٢) الحواس، المرجع نفسه، ص٣٢٥.
(٣) الحواس، المرجع نفسه، ص٣٢٨.
(٤) الحواس، المرجع نفسه، ص٣٣٧.

الشر والفسق والفجور السري والعلني[(١)].

إن هذه الفئات من البشر استطاع الشَّيطان أن يُحقِّق فيهم وعدَه ويبرّ قسمه، حيث زين لهم عدو الله تلك العبادة وحسّنها في أعينهم، وأوحى إليهم بأنه الملك المطاع، فعليهم أن يُنفِّذوا أوامره بلا قيد أو شرط، وهو في تزيينه لهم تلك العبادة الإبليسية يُقبّح لهم عبادة الله تعالى، ويوحي لهم الشعور بالألم وعدم الراحة في امتثالها أو الفائدة في فعلها، وهو أسلوب الشَّيطان وخطّته التي ينفذها في خضم حملته الشرسة على بني آدم، إذ حين يزين الكفر والشرك للإنسان، ويحسّن له المنكر والفساد، فإنَّه بالمقابل يجتهد بكل حيله الإبليسية كي يصرفه عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده، وذلك بكراهية طاعة الله وعبادته وحده وتقبيح من يفعل ذلك، والميل الشديد إلى إشباع الشهوات وإطلاق الغرائز والملذات دون ضابط من دين أو خُلق، حتى يبلغ به عدوُّ الله مقصده وينتهي إلى حيث أراد من الوقوع في شراك مصيدته، والسقوط في فخ طاعته.

وما ذلك التشويه لدين الله تعالى، الذي يدعو إليه الشَّيطان بأساليبه الماكرة وأوليائه وجنده، إلا لأن عدو الله يعلم تمام العلم أن من توجّه إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة وتعلق بحبله المتين واستمسك بالعروة الوثقى بدوام ذكره تعالى وفعل ما يقرب إليه جل وعلا فإن كيد الشَّيطان يبطل، ووساوسه تذهب أدراج الرياح، وتزيينه يبوء بالفشل، لذا فإن عدو الله يجتهد كل الاجتهاد كي يصرف قلب الإنسان أولاً عن التعلق بربه، وجوارحه عن التَّذلُّل والخضوع لله تعالى، ومن ثم ينفث سمومه لتجد لها قلباً خاوياً فتتمكن منه وتؤثر فيه، فكل عبادة لغير الله تعالى فهي بتزيين الشَّيطان، وهي في حقيقتها عبادة للشيطان، ولقد قرر الله تعالى هذا الأمر في قوله جل وعلا: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

---

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، المرجع نفسه، ص٣٣٨.

وإن حكم الله تعالى على أولئك الذين صرفوا العبادة لغيره بأنهم صرفوها لعدوهم الشَّيطان[١]، يقول ابن القيم: فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع بالمعبود في حصوله على غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشَّيطان[٢].

ـ وفي الجملة، فإن مجالات الباطل التي زينها الشَّيطان لبني آدم كثيرة جدّاً، فعداوة الشَّيطان للإنسان عداوة شاملة وشرسة، وقَدْرُ تزيين الشَّيطان الباطل للإنسان بقدر اتساع هذه العداوة وشمولها، فعدو الله يزين الباطل للإنسان ويوسوس له بأنه من أنفع الأشياء، ويُنفِّره من الأفعال الحسنة، حتى يظن أنها من أضر الأشياء إليه، فيتمكن منه الباطل ويعمل به دون غيره. فكم سحر الشَّيطان بهذا التزيين من البشر فألقاهم في الأهواء المختلفة والمهالك المتنوعة[٣]، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

٣ـ ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾:

الواو: حرف عطف، واللام واقعة في جواب القسم، والجملة معطوفة على جملة ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾.

والإغواء: من الغواية والغي وهي التضليل عن طريق الإغراء والتزيين والخداع، وضمير الغائب «هم» يراد به آدم وذريته[٤].

(١) عداوة الشَّيطان للإنسان، الحواس، مرجع سابق، ص٣٣٨ـ٣٣٩.
(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤٢.
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٠.

والغي ضد الرشد، والرشد الذي هو ضد الغي: درجة رفيعة من إدراك البصيرة، يهتدي بها المرء إلى حقائق الوجود ويميز قيم المعنويات، فلا يشتبه عليه الحقُّ والباطل، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص بالقيّم النفيس، وهو الذي ذهب موسى عليه السَّلام يطلبه من العبد الصالح: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وأصحاب هذا الرشد يبدون في سائر الناس كالعماليق بين الأقزام، وينظرون إلى سواهم كما ينظر الرجال إلى الأطفال وهم يعبثون، وهؤلاء هم أوصياء الإنسانية التي لم تبلغ رشدها، والقائمون على هدايتها بإذن الله إلى سواء السبيل[١].

وإنك لترى أثر ذلك الرشد في البحث عن الحق والاهتداء إليه في سيرة إبراهيم عليه السَّلام إذ قال الله فيه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فإنه أدرك بتمييزه العالي أن هناك في هذا الكون حقّاً أكبر غير تلك الكائنات الأرضية وغير تلك الكائنات السماوية التي تُسخِّرها النواميس، فليس هو كوكباً آفلاً، ولا قمراً زائلاً، ولا شمساً غاربة، وأن هذا الحق كما وصف الله تعالى ذاته العلية في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

فأول ما أدركه إبراهيم عليه السَّلام هو سقوط قيمة المرئيات وقصور كل شيء منها أن يكون ربّاً له. فقد قرأ على هذه المرئيات نفسها من آثار صفات الخالق سبحانه ما جعله يلتمس ربَّه في سواها.

وإن إدراك هذه الحقائق وتمييز قيمتها هو مقتضى الرشد، فمن أدركها كما

---

(١) آدم عليه السَّلام، الخولي، مرجع سابق، ص٨٤.

يدرك أن الواحد نصف الاثنين فهو الراشد، وإلا فهو القاصر، وإن حمل من إجازات العلم وألقابه ما حمل، وإنك لترى أثر الرشد في ثبات إبراهيم عليه السَّلام إذ عرض على النار فما تغير له رأي، وإنه لثبات لم يتكلف له شجاعة، فإن الحق الذي قُذف في النار من أجله ساطع في بديهته سطوع الشمس، فليس فيه شك لديه، ذلك هو الرشد الذي يحرق كيد الشَّيطان، ويجهد جهده أن يجتالنا عنه، ويطمس نوره في بصائرنا. وعكسه الغي، فإذا كنت قد أدركت الفرق بينهما فقد أدركت الفرق بين النور والظلمة، والحياة والموت، والعقل والحمق، وما يريد لنا الله، وما يريد لنا الشَّيطان.

يريد لنا الشَّيطان هذا الغي الذي نفقد به إدراكنا العالي، وتمييزنا الرفيع، فلا نبصر في الحياة إلا ما حولنا من شخوص المادية الزائلة، ولا نميز إلا قيم بعضها بالنسبة لبعض، ولا نشتغل إلا بتثميرها واستيلادها وتداولها، وتلك هي النكسة البائرة، والصفقة الخاسرة التي لا يود الشَّيطان سواها[١].

إن خطط إبليس مكشوفة، فلماذا لا نتفاداها؟

ـ التزيين والإغواء ركنا الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، فمن يُغوي الناس عن الحق، ويزين لهم الباطل، فليعلم أنه من معسكر إبليس[٢].

هذا وقد استخدم الشَّيطان أساليب عديدة لإغواء بني الإنسان، وهي أساليب تدل على المكر والدهاء وإجادة الأدوار وهذه بعضها:

أ ـ التشكيك: يشمل أموراً منها:

* التشكيك بوجود الخالق: فهو أول أساليب التشكيك التي يسلكها

(١) آدم عليه السَّلام، الخولي، مرجع سابق، ص٨٥.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤١.

الشَّيطان، لأنه إذا توصل لذلك يكون قد استولى على المرء وأحاط به من كل أقطاره، فلا رادع يردعه عن ممارسة أي عمل محرم أو اقتراف أي جريمة، وقد نبه الرسول ﷺ على ذلك بقوله: «**يأتي الشَّيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَن خَلقَ كذا؟ ومَن خَلقَ كذا؟ حتى يقولَ: مَن خَلقَ ربَّك؟ فإذا بَلَغَه فليستعذْ بالله ولْيَنتَهِ**» (١). وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحدِّثُ نفسي بالشيء لأن أخِرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ به، قال: فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أكبر، الله أكبر، اللهُ أكبر، الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوَسوَسة**» (٢).

والشَّيطان مستمر في حملة التشكيك هذه، فقد قال عليه الصلاة والسَّلام: «**لن يدعَ الشَّيطانُ أن يأتيَ أحدَكم فيقول: مَن خَلقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ فيقول: الله، فيقول: مَن خَلقَك؟ فيقول: الله، فيقول: مَن خَلقَ الله؟ فإذا أَحَسَّ أحدُكم بذلِكَ فلْيقلْ: آمنتُ باللهِ ورسولِه**» (٣).

ولكن دعوة الشَّيطان هذه إلى إنكار وجود الله والتشكيك فيه قد وقع فيها بشر كثيرون، فمن متسائل عن هذا السؤال، ومن شاكٍّ أو جاحد مُضلِّل، ومن منساق وراء الكفرة الجاحدين بلا وعي ولا تفكير، وقد كثرت هذه الأوصاف في هذا العصر فنشأت الفرق التي لا تؤمن بوجود خالق لهذا الكون، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وعلى رأسهم الملاحدة، الذين يكفرون بكل دين ويدوسون على كل فضيلة وخلق، ممن نراهم اليوم في شتى أقطار الأرض وفي بلاد المسلمين، وهم الذين يعتبرون الأديان أفيون الشعوب، فلا غرابة أن نجدهم

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٢٩.

(٢) البخاري، بدء الخلق، من باب صفة إبليس وجنوده ٦/ ٣٣٦.

(٣) مسند أحمد، ١/ ٢٣٥. وانظر: عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٠.

يسحقون كل دعوة تتضمَّن الإيمان بوجود الله، وأحقها بالحرب عندهم دعوة الإسلام[١].

* التشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الأصنام:

قد استطاع إبليس وأعوانه تشكيك الناس في عبادة الله حتى استطاع تحويلهم عنها إلى اتخاذ معبودات أخرى مع الله، وذلك كما حصل مع قوم نوح عليه السَّلام، فقال تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣].

قال الطبري: إن هؤلاء نفر من بني آدم فيما ذُكر عن آلهة القوم التي كانوا يعبدونها، فعن محمد بن قيس: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ قال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم[٢].

ومن ثم عرفت البشرية هذا النوع من الشرك بوساطة وسوسة إبليس وإيحاءاته، إذ يعمل جاهداً لتحويل الناس عن دين الله، فانتقل هذا النوع من الشرك إلى العرب قبل الإسلام فعبدوا الأصنام، قال تعالى عن مشركي العرب في ذكرهم للغاية من عبادة الأصنام: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فقد كان مشركو العرب يعترفون بوجود خالق لهذا الكون، ولكن إشراكهم

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣١.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٩/٩٨ـ٩٩.

بالله إنما كان باتخاذهم الأصنام شركاء مع الله، فلم تكن الحاكمية لله في التحليل والتحريم والخضوع[١].

* التشكيك في العقائد الإيمانية، مثل إنكار الملائكة، والجن وبعث الرسل واليوم الآخر وغير ذلك، فقد استطاع إبليس تشكيك كثير من الناس في العقائد الإيمانية، فطعنت فرق في الملائكة والجن وأنكرت وجودهم، وأنكر آخرون اليوم الآخر وطعن فريق بحجة الأنبياء. . . إلخ.

قال ابن القيم: «ومن حيله ومكايده ـ أي إبليس ـ الكلام الباطل والآراء المتهافتة والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان ونحاتة الأفكار، والزبد الذي تقذف به القلوب المظلمة المتحيرة التي تعدل الحق بالباطل والخطأ بالصواب، وقد تقاذفت بهم أمواج الشبهات، ورانت عليهم غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال والشك والتشكيك وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين تُعوِّل عليه ولا معتقد مطابق للحق ترجع إليه، ﴿ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٢] فقد اتَّخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً وقالوا من عند أنفسهم، فقالوا منكراً من القول وزوراً، فهم في شكهم يعمهون، وحيرتهم يترددون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تلته الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل واتبعوا ﴿ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾» [المائدة: ٧٧][٢].

* التشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام:

---

(١) عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٢.

(٢) مختصر إغاثة اللهفان من مكائد الشَّيطان للإمام ابن قيم الجوزية، أحمد بن عثمان المزيد، ص١١٣. وانظر: عبيدات، عالم الجن، مرجع سابق، ص٥٣٣.

والتشكيك أسلوب بارز في حرب الشَّيطان للإنسان يسري على أمور كثيرة، وتتسع مجالاته لتشمل تشكيك المسلم بكل شيء.

فهو يشككه في النية التي مدارها انعقاد القلب بفعل أمر من الأمور، فتجد بعض الناس ممن يوسوس لهم الشَّيطان لا يكتفون في نية صلاة بما ورد في السنة، بل يذهبون إلى التكلم بكلام طويل قبل تأديتهم للصلاة، فمثلاً يقول أحدهم: أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم، نويت أصلي صلاة الظهر فريضة الوقت أداء لله إماماً أو مأموماً أربع ركعات مستقبلاً القبلة، ثم يرفع أعضاءه ويحني جبهته ويقيم عنقه ويصرخ بالتكبير كأنه يكبر على العدو. ولو مكث أحدهم عمر نوح يفتش هل فعل رسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه شيئاً من ذلك لما ظفر به إلا أن يجاهر بالكذب البحت[١].

ـ ومنها التشكيك في الصلاة حيث يأتي الشَّيطان للمصلي فيُلبِّس عليه في الصلاة ويشككه فيها حتى لا يدري كم صلى.

ـ منها التشكيك في الوضوء والطهارة، حيث يوسوس الشَّيطان للإنسان بالإكثار من ذلك في عدد المرات، مما يخرج المسلم عن حد الاعتدال الذي أمر به الإسلام إلى الإسراف الذي هو أحد أعمال الشَّيطان التي يسلكها مع الإنسان[٢].

ـ من هذه الأساليب التي تعتبر خطراً على المجتمع الإسلامي التشكيك في أعراض المسلمين وسوء الظَّنّ بهم، فنجد بعض الناس ممن يروجون للإشاعات التي توحيها إليهم شياطينهم، فتسري في المجتمع سريان النار في الهشيم وتفتك به ما لا يفتكه عدو، ولما يترتب على ذلك من الخطورة فقد نبه القرآن الكريم

---

(١) مختصر إغاثة اللهفان، المزيد، مرجع سابق، ص١٣٠.
(٢) عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٤.

لذلك، وأرسى أسس الثقة بين أبناء المجتمع المسلم بدعوته إلى التَّثبُّت في نقل الأخبار أولاً، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وزيادة في الحذر والحيطة من وساوس الشَّيطان ينبغي على المسلم أن يتجنب مواطن الشبهات، وليبادر المسلم إلى أخيه المسلم ويعلمه بحقيقة الأمر إذا وقع في مثل هذه المواقع، فعن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب[١]، فقام معي ليقلبني ـ وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رِسْلكما**[٢]**، إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: «**وإن الشَّيطان يجري بالإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يُقذف في قلوبكما شراً أو قال شيئاً**»[٣].

وقد ورد أن الشَّيطان يتشكل في صور بعض الناس ويمارس هذه الأمور بنفسه، فعن عبد الله بن مسعود قال: إن الشَّيطان يتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يُحدِّث[٤].

فهذا الأسلوب من قبل الشَّيطان إنما يقوم به ليزعزع الثقة بين المسلمين بحيث يُروِّج للكذب والتشكيك، وبذلك يصبح المجتمع في حيرة إزاء هذه المواقف، فتزول الثقة، وتنعدم الطمأنينة بين كثير من الناس[٥].

---

(١) لأنقلب: أي لأرجع.
(٢) على رسلكما: أي اثبتا ولا تعجلا. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢٢٣.
(٣) البخاري، ك بدء الخلق، ٦/ ٣٣٦. وانظر: صحيح مسلم، ٤/ ١٧١٢.
(٤) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٦.
(٥) المرجع نفسه، ص٥٣٨.

ب ـ تزيين الهوى والمعاصي:

الهوى هو مراعاة رغبة النفس لما تحب مع الميل إلى ذلك بما لا ينبغي، ولذلك غلب على الهوى صفة الذم، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً، جميعها في مجال الذم[(١)]، فمن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

إلى غير ذلك من الآيات.

إن الهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز وكل معصية، وهو أساس البلوى وينبوع الشر، وقلَّ أن يُؤتى الإنسانُ إلا من قبل الهوى، فالجهل سهل علاجه، ولكن الهوى هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق وطويل، واتباع الهوى هو ترك الحرية للنفس تفعل ما تشاء دون الشعور برقابة أحد ودون مراعاة خلق أو فضيلة أو مصلحة لأحد من الناس، لأن عابد هواه قد زين له الشَّيطان فعل كل شيء، وأوحى إليه أن كل تصرف يقوم به إنما هو تصرف سليم، ولهذا نجد الله سبحانه يعتبر اتباع الهوى غاية في الضلال[(٢)].

ـ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وأخبر الله تعالى عن الذي انسلخ عن آياته أن انسلاخه إنما كان بسبب اتباعه لهواه، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[(٣)]، فهو

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٠.
(٢) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٥٣٩.

إنسان استعبده الشَّيطان وركبه لأنه اتبع هواه وانساق مع رغبات نفسه وشهواتها، إذ الشَّيطان لا يأتي للنفس إلا عن طريق الشهوات يؤجج نارها في نفوس الناس ويحسِّنها لهم، ويظهرها بمظهر الكسب العظيم الذي لا ينبغي تفويته[١].

والهوى ما تنساق إليه النفس وتهواه استحساناً له، من اعتقاد أو عمل بدافع من ظن كاذب، ورغبة في منفعة زائلة، وهو مفتاح المعاصي الذي يدخل منه الشَّيطان إلى قلب ابن آدم، فقد أخرج الحكيم الترمذي عن عطاف بن خالد قال: بلغني أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

صاح إبليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا: ما لك يا سيدنا؟ فقال: آية نزلت في كتاب الله، لا يضر بعدها من بني آدم ذنب، قالوا: ما هي؟ فأخبرهم، قالوا: نفتح لهم باب الأهواء، فلا يتوبون ولا يستغفرون، ولا يرون إلا أنهم على الحق، فرضي منهم بذلك[٢].

قال الإمام الغزالي: ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم إن لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولات بالوسوسة، ولذلك قال ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكّل قرينه من الجن**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[٣].

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطِّراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٣٩.
(٢) سنن الدارمي، ١/ ٧٨.
(٣) مسلم، ك صفات المنافقين، ٤/ ٢١٦٧.

والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب من قوت الشَّيطان، وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مُطَّرح أثر الملائكة(١).

وهكذا يركب الشَّيطان الهوى ويسير بصاحبه إلى طريق يصعب الرجوع منها، لأنه كلما أوغل في اتباع الهوى ازداد عشقه وافتتانه به، وتُركَت محاسبة النفس على اتباع الهوى أو تركه في موضوع المحنة والابتلاء(٢).

واتباع الهوى بفعل المعاصي هو الباب الواسع الذي يدخل منه الشَّيطان إلى النفس، لأن المعصية مركب الشَّيطان في الأصل حيث عصى أمر ربه في السُّجود لآدم، وهو الأسلوب نفسه الذي سلكه مع آدم بعد طرده من الجنَّة، فوسوس له حتى أوقعه وزوجه في المعصية وحتى استجابا لهذا الإغراء المزين بالدعوة إلى الملك الخالد والقسم الكاذب(٣).

والتزيين هو تحبيب المعاصي والترغيب فيها، وعلى هذا فإن إبليس اللعين قد توعد بني آدم بتزيين المعاصي لهم وحملهم على فعلها، وقد وصف الله سبحانه واقع الشَّيطان ومدار عمله بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

إن الناظر في تاريخ البشرية الطويل يرى أن الشَّيطان قد بلغ من البشرية مراده، وصدَّقَ فيهم ظنَّه إلا من عصمهم الله وهم فريق المؤمنين، فإن جميع المعاصي التي وقعت في تاريخ البشرية إنما كانت بفعل كيد الشَّيطان وتزيينه ابتداء من أكل آدم وزوجته من الشجرة وقتل قابيل أخاه هابيل، وفوق ذلك تزيين الكفر والشرك وتكذيب الرسل، كما فعل قوم نوح من بعدهم، وظلت تتوالى المعاصي على مدار التاريخ حيث يسعر نارها إبليس وجنوده، وهو يدأب ليل

---

(١) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ص٣/ ٢٨.

(٢) مختصر إغاثة اللهفان، المزيد، مرجع سابق، ص٧٤.

(٣) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٤١.

نهار على ذلك، يغذيه الحقد والكراهية لهذا المخلوق الذي كرمه الله تعالى على كثير ممن خلق، فمن لم ينالوا منه معصية الكفر أغراه بما دونه من المعاصي وهو بريد الكفر(١).

فمن هذه المعاصي التي يحرص الشَّيطان على إغراء بني آدم بها؛ شرب الخمر، والفساد الجنسي من شذوذ وزنى ولواط، والربا، وسفك الدماء بإشعال الحروب الظالمة وغيرها، وأبشع الصور هو سعي إبليس لإيقاع بني آدم في عبادته، تقديساً وخضوعاً وتذللاً له. وقد استطاع إبليس استدراج جماعة من الناس في خضم حملته الشعواء لإغواء البشر وإضلالهم، فاستطاع استدراج مجاميع من بني آدم التي ركنت لأوهامه وأمانيه لها فاستعبدها حتى آلت إلى النهاية المزرية من الانحطاط والانتكاس، وقد صدق قول الله في هؤلاء: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢) [المجادلة: ١٩].

ج ـ التثبيط عن فعل الطاعات:

إن إبليس وجنوده وزيادة على تزيين المعاصي، فإنهم يقومون بتثبيط النفوس عن الطاعة، فعن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «**يعقد الشَّيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة مكانها، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقدُة كلها؛ فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»(٣).

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٤٢.
(٢) عبيدات، المرجع السابق، ص٥٦٠.
(٣) البخاري، ك بدء الخلق، ٦/ ٣٣٥.

والشَّيطان يحاول التدرُّج مع الإنسان في المعاصي، فإن عجز عن تكفيره فإنَّه يحاول إيقاعه في البدع، فإن عجز حاول إيقاعه في كبائر الذنوب، فإن عجز حاول إيقاعه في صغائر الذنوب، فإن عجز حاول إشغاله في المباحات التي لا ثواب عليها ولا عقاب، فيكون قد شغله عما يُثاب عليه من فضائل الأعمال، فإن عجز عن ذلك كله حاول أن يشوش على المؤمن فكره ويعكر عليه صفاءه(١).

قال ابن الجوزي: كم خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول له: لا تعجل وتَمهَّلْ في النظر، فيسوِّفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة، فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر:

تعجل الذنبَ لِما تشتهي ... وتأملُ التوبةَ من قابلِ

وكم من عازم على الجد سوَّفه، وكم من ساع إلى فضيلة ثبَّطه، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه، فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي فقال له: عليك وقت، ولا يزال يحبب الكسل، ويسوّف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمد(٢).

والشَّيطان هو الذي يُلقي في نفس الإنسان أن الإنفاق على المحتاجين يُذهب المال، ويأمره بالإمساك والبخل والحرص عليه، وعدم دفع الزكاة لمستحقيها ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] (٣).

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]:

هذا استثناء من قول إبليس السابق، وتهديده بإغواء الناس أجمعين، فقد

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٤٨.
(٢) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، مرجع سابق، ص٤٠٤.
(٣) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٥٤٩.

استثنى هو عما قال هناك في الآية السابقة، استثنى هؤلاء العباد المخلصين فكأن الآيتين آية واحدة لشدة الارتباط.

- ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء.

- ﴿عِبَادَكَ﴾: مستثنى مما ذكر سابقاً وهم البشر جميعاً.

وأضاف «العباد» إلى كاف الخطاب العائدة إلى الله تعالى الذي كان يخاطبه في الآية السابقة بقوله (رب)، فهو يفهم تماماً أن هؤلاء لا سلطان له ولا لغيره عليهم.

- ﴿مِنْهُمُ﴾: من للتبعيض، والضمير (هم) عائد على العباد، وقدم (منهم) للاهتمام.

- ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: بفتح اللام من أخلص بفعل خارج عن إرادته.

والمخلِصين بكسر اللام هم: من أخلصوا أنفسهم لله، والجمع بينهما هو الأصل والأساس(١).

هذا الشرط الذي قرره إبليس، وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه، لأن سنة الله أن يستخلص لنفسه من يُخلِص له نفسَه وأن يحميه ويرعاه(٢). وقد قال النسفي: استثنى المخلَصين لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه(٣).

وفي مختصر تفسير البغوي: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]؛ أي المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام أي من أخلصتَه بتوحيدك فهديتَه واصطفيتَه(٤).

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٢.
(٢) في ظلال القرآن نقلاً عن تفسير سورة الحجر، سيد قطب، مرجع سابق، ص٢٤٢.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٢.
(٤) مختصر تفسير البغوي، المرجع السابق، ٤/ ٤٩٣.

إن الإخلاص أساس الدين، ولا يقبل الله ديناً ليس خالصاً: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾، ومن أخلص نفسه لله خلَّصه الله من كل الشوائب فصار من المخلَصين أي من قبل الله تعالى، والعبودية لله أرفع مقامات الإنسانية[١].

أ ـ الإخلاص طريق النجاة:

كل عمل لا يبتغي به صاحبه وجه الله يكون هباء، ويُرمى في وجهه يوم الحساب، فالنوافل والخيرات والمبرات والطاعات إذا لم تصاحبها النية الصادقة، والتجرد المطلق لله سبحانه، لا تكون في ميزان صاحبها يوم القيامة، بل تعود عليه بالوبال والحسرات[٢].

فالذي يصوم لينتفع بالحِمية، أو يسافر للراحة أو هرباً من ضرٍّ، أو يروي الحديث ليُعرف بعلو الإسناد، أو يطلب العلم ليُماري به أهل العلم وتعلو مكانته بين العامة، أو يتصدق مباهاة، أو يحج للسمعة، أو يقاتل ليعرف بالشجاعة ويرى مكانه، يحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين[٣].

قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

فالإخلاص شرط القبول لكل اجتهاد، وجميع الأعمال تكون عرضة لضياع الأجر وذهابه، بل ولارتكاب الوزر، إن لم تكن محصَّنة بالإخلاص نقية من كل غرض أو خاطر دنيوي، بل ينبغي أن يقصد بها صاحبها وجه الله دون سواه ملتمساً في عمله رحمة المولى ورضاه.

والمؤمن في سلوكه الرباني تعتريه آفات قد تهوي به إلى مكان سحيق، إذا لم ينتبه لها ويحذر شرها، وأخطر هذه الآفات الرياء وحب الشهرة، فالرياء مرض

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٢) في التزكية والسلوك، عدنان سعد الدين، ص٢٩.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٩.

وبيل تغري به وساوس الشَّيطان وتُلحُّ عليه هواجس النفس، ودواعي الهوى، فيكون ظاهراً حيناً وباطناً أحياناً، وينتهي بصاحبه إلى الشرك الخفي، وهو الرياء الأخطر على مصير المؤمن، لأنه يدغدغ عواطفه، ويحرك مشاعره ويجسد طموحه وميوله، فلا مناص من مواجهته ومحاصرته وقهره والتخلص من شره، بالاستعانة بالله واللجوء إليه والاحتماء به أولاً، ثم بالإخلاص الذي هو مسك القلب، وماء حياته، ومدار الفلاح كله عليه[١].

وبالإخلاص لله تعالى تكون حركة المؤمن وسكونه في سره وعلانيته ولا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا[٢]، وهو سر الإخلاص وجوهره.

وأما حب الشهرة، فإنه مرض فتاك ومطية للشيطان، يسهل عليه امتطاؤها والنفس التي تأمر بالسوء والفحشاء والمعاصي ساعية لها وحريصة عليها، فإذا لم يعتصم المؤمن بربه ويبرأ من أي رغبة أو ميل للشهرة وحب الظهور أمام الخلق بأعمال صالحة يكون من الهالكين، فالنجاة من هذا البلاء ـ حب الشهرة ـ ألاّ يمازج العمل الطَّيِّب ما يشوبه مما تتطلع إليه النفس من التزيُّن في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، أو الهرب من نصحهم، أو طلب تعظيمهم، أو الطمع في أموالهم، أو الرغبة في خدمتهم، أو محبتهم، أو قضائهم لحوائجه، أو غير ذلك من الشوائب[٣] التي يفرزها حب الظهور والشهرة.

ـ قال إبراهيم بن أدهم: ما صدَّقَ اللهُ عبداً أحب الشهرة[٤].

ـ وكان ابن محيريز يقول: اللهمَّ إني أسألك ذكراً خاملاً.

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، سيد حسين العفاني، ١/ ١٠٧.
(٢) في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص٣٠. وانظر: صلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، مرجع سابق، ١/ ١٠٧.
(٣) في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص٣١.
(٤) صلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، مرجع سابق، ١/ ١٠٨.

ـ وقال عبد الله بن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة فما أتيت أحداً من العارفين إلا ونهاني عن الشهرة[١] .

ـ وقال بشر بن الحارث : ما اتقى الله من أحب الشهرة[٢] .

فالإخلاص هو قارب النجاة لكل السائرين والسالكين لطريق الهدى، والتُّقى هو المفتاح لكل أبواب الخير، بل هو السر الرباني الذي استودعه قلوب عباده الذين يُحِبُّهم ويُحبُّونه، وهو طريق الخلاص للمؤمنين من الرياء. وحب الشهرة من الهواجس النفسية والمزالق المنكرة التي يدفع الشَّيطان إليها المؤمنين في وساوسه وتلبيساته وذلك ما حذر منه القرآن الحكيم، والرسول الكريم، والصادقون المخلصون من العارفين[٣] .

ب ـ عناية القرآن الكريم بالحديث عن الإخلاص :

يُعدُّ الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها، لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة، فما كان منها مراداً به وجه الله أثمر الثمرة النافعة، وما تجرد منها عنه أو ما شابه شيء غير الله تعالى كان فاقد الأثر الحميد، لذلك كان لابد أن يتصدر هذا الخلق كل الأخلاق السلوكية الإيمانية الفردية والاجتماعية لما يُقصَد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية[٤] .

ولهذه المكانة التي يتبوؤها هذا الخلق العظيم كانت عناية القرآن الكريم به

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، العفاني، المرجع نفسه، ص١/١٢٨ .
(٢) في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص٣١ .
(٣) المرجع السابق، ص٣٢ .
(٤) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز قاسم الحداد، ١/١٥٨ .

كبيرة أمراً وترغيباً وثناءً على أهله، وتنويهاً وتبياناً لعظيم جزائهم عند الله تعالى في آيات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال مع الاختصار:

ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ـ وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

هذه الآيات وغيرها تأمر المؤمنين بلزوم الإخلاص في عباداتهم: دعاءً أو صلاةً أو زكاةً أو صياماً أو حجّاً أو غيره[١]، ولم يكن المؤمنون من هذه الأمة هم الذين خوطبوا بمثل هذه الخطابات وأُلزموا بهذا الخلق العظيم، بل كل الأمم السابقة قد أُمرت بمثل تلك الأوامر، وأُريد منهم ما أُريد من المسلمين، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وذلك لأن الدين عند جميع الشرائع ولدى جميع الرسل هو الإسلام كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ ونوّه بأهل الإخلاص في كتابه، وكان أولى من ينال ذلك التنويه العظيم أعظم الناس إخلاصاً لله تعالى وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام. ولذلك أشاد الله تعالى بإخلاصهم وأعظم في الثناء عليهم، كما قال

---

(١) أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبد العزيز قاسم الحداد، المرجع السابق، ١/ ١٥٩.

جل ذكره عن موسى عليه السَّلام : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم : ٥١] .

ـ وقال عن يوسف عليه السَّلام : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٤] .

ـ وقال عن نبينا محمد ﷺ : ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البقرة : ١٣٩] .

فتأمَّل مبلغ الثناء الذي تحمله الآيات على هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وذلك لإخلاصهم لله تعالى، حيث اختار الله تعالى هذا الخلق للثناء عليهم به دون بقية الأخلاق الفاضلة الكريمة التي كانوا يتحلَّوْن بها، وهي كثيرة ككثرة الأخلاق الفاضلة نفسها، وهذا يدلُّ على أن هذا الخلق كان أبرز سماتهم، وأخصَّ خصائصهم. وقد دل على ذلك الواقع العملي من رسالاتهم، حيث بذلوا كل ما في وسعهم من طاقة لتبليغ رسالات الله والدعوة إلى الإيمان به وترك الإشراك به دون أن يكون لهم أي قصد شخصي أو نفع مادي، حسي أو معنوي، يحملهم على بذل ذلك الجهد العظيم في الدعوة والبلاغ، وكانوا يقولون لأقوامهم عند دعوتهم إياهم : ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٩] فقد وردت هذه الآية على لسان أكثر الرسل بنصها أو قريب منه، وهي تدل على كمال تجردهم عن الأغراض الشخصية وكمال إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى(١) .

ولما كان المخلصون قد تجردوا من كل شائبة تكدر صفو إخلاصهم، فصفت عباداتهم عن الأغيار، ونياتهم عن التشريك والأخطار، فحققوا مبدأ العبودية الحقة حيث صاروا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون ولا يفعلون ولا يذرون إلا بالله ولله، فكانوا بذلك أهلاً لأن ينالوا كل مكرمة عاجلة أو آجلة،

---

(١) أخلاق النبي في القرآن والسنة، قاسم الحداد، مرجع سابق، ١/ ١٦١ .

وذلك ما منحهم الله تعالى إياه كما تحدثت بذلك آيات كتابه المبين.

ـ إن أول تلك المكرمات وأعظم تلك الهبات الفاضلات هي عصمتهم من الشَّيطان الرجيم الذي آلى على نفسه أن يُغوي بني آدم حتى يُشركهم معه في سخط الله وغضبه ولعنته وناره، فإن إبليس عليه اللعنة عندما يجيء إلى هذا الصنف من الناس لا يجد إليهم سبيلاً، لأن الله عصمهم منه، فيبقون في حفظ الله ورعايته عابدين خاشعين قانتين، كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة من الكتاب العزيز[١].

ـ وأما ثاني تلك المكرمات، فهي النجاة من عذاب الله تعالى، وإسباغ جزيل النعم في الدنيا والآخرة كما دل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٣٨ـ٤٩].

فترى أي نعيم يناله أحد من عباد الله تعالى أكبر من هذا، ولقد سرد الله تعالى تعداداً لبعض أصنافهم تبهيجاً لأنفس السامعين والقارئين وتبياناً لمنزلة أولئك المخلصين، وما أعظم أثره في الأنفس ولا سيما بعد أن ذكر عذاب الكافرين[٢].

وليس النجاء من عذاب الله للمخلصين قاصراً على إنجائهم من عذاب الآخرة، بل ينجون من عذاب الدنيا كذلك، كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فكان إخلاصهم لله في التوحيد والعبادة قد أنجاهم من عذابه الأليم.

---

(١) أخلاق النبي في القرآن والسنة، قاسم الحداد، مرجع نفسه، ١/ ١٦٢.
(٢) قاسم الحداد، المرجع نفسه، ١/ ١٦٣.

ولهذا كانت البشرية عندما ترى أنه قد أحاط بها عذاب الله تلجأ إلى الإخلاص لله تعالى، علّها تدرك رحمة الله بالمخلصين، فتخلصهم مما حل بهم من العذاب كما قضى الله تعالى ذلك على ألسنة أقوام ممن أدركتهم سنة الله تعالى في إهلاك الكافرين الجاحدين في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

فترى أن سنة الله تعالى لم تختلف عمَّن تحلَّى بهذا الخلق العظيم، فهؤلاء الذين كان مصيرهم في خطر لم يجدوا بدّاً من الالتجاء إلى الله تعالى وإخلاص العبودية له، ولم تختلف عنهم سنة الله تعالى في إنجاء المخلصين من العذاب، بل أدركتهم فخلصتهم مما كان قد أحاط بهم: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣].

غير أن أولئك الناجين سرعان ما انقلبوا لما أَمِنوا الخطر، فعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والطغيان، وستحيط بهم سنة الله في الآخرة من العذاب، كما قال تعالى سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣] [١].

إن الإخلاص هو قارب النجاة، وهو المفتاح لكل أبواب الخير، قال الجنيد: إن لله عباداً عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم

(١) أخلاق النبي في القرآن والسنة، قاسم الحداد، مرجع سابق، ١/ ١٦٤.

الإخلاص إلى أبواب البر أجمع[١].

وقال المحاسبي في (رسالة المسترشدين): «وعن الإخلاص يتشعب اليقين والخوف والمحبة والإجلال، والحياء والتعظيم، فالصدق ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام»[٢].

وأما شعب الإخلاص، فلا يُسمَّى المخلص مخلصاً حتى يفرد الله عزَّ وجلَّ من الأشياء والأنداد والصاحبة والأولاد[٣].

وقال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبَل، وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠][٤].

تاسعاً: قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤١ ـ ٤٤]:

وأوضح الحق سبحانه وتعالى أن صراطه المستقيم هو الذي يقود العباد إلى الطاعة، فليس في الأمر تفضُّل من إبليس الذي سبق له أن حدد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشر، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، مرجع سابق، ٤/ ٣٢٤.
(٢) في التزكية والسلوك، سعد الدين، مرجع سابق، ص٣٥.
(٣) سعد الدين، المرجع السابق، ص٣٥.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧٠٦.

أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقد حدد إبليس في هذا القول جهات الغواية التي يأتي منها وترك (الفوق) و (التحت)، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائماً علوّ عزة الربوبية، وذلّ العبودية، لا يدخل الشيطان له أبداً[١].

١ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]:

رد الله على ما قال إبليس وما سجّلته الآية السابقة من استثناء المخلصين من خطة الإغواء[٢].

﴿قَالَ﴾: أي المولى الجليل سبحانه وتعالى.

﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة للقريب.

﴿صِرَٰطٌ﴾: طريق ونهج.

﴿عَلَيَّ﴾: ألزمت به نفسي.

﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: أي لا يميل ولا يحيد ولا يتحول ولا ينحرف ولا يتغير، وهو ما ستذكره الآية الآتية.

والتعبير كله كناية أراد الله أن يوصل بها إلينا عهداً قطعه على نفسه، وجعله قانوناً وناموساً مطرداً لا يتغير، وهو تحصين عباده من سلطان إبليس وهيمنته عليهم وإخراجهم من دائرة سلطانه.

ـ قال النسفي: قال هذا هو طريق مرجعه إليَّ، فأجازي كل امرئ بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ[٣].

ـ قال مخلوف: «قال»: أي الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/٧٧٠٦.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٤.

تخليص المخلصين من أعوانه حقٌّ عليَّ أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾: أي لا عدول عنه[١].

ـ وقال ابن كثير: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرٌّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي قاله مجاهد والحسن وقتادة[٢]. وقيل: إن معناه: عليّ استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية[٣].

وقال الحجازي: في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قضاء قضيته على نفسي محتوم، إنك يا إبليس ليس لك سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانك على الذين لم يخلصوا بالإيمان، ولم يعمر قلوبهم نور الروح ولم يتصل بهم سرّ الله اتصالاً وثيقاً[٤].

ومن دروس هذه الآية:

ـ قانون ثابت لله لا يتغير أن يُخلّص المخلَصين من سلطان الشياطين.

ـ الالتزام الإلهي بشيء هو أمر ألزم الله به نفسه، ولا يُلزِمه ولا يُوجِب عليه أحد.

ـ الطريق إلى الله ومرضاته واحد هو الصراط المستقيم، وسبل الغواية التي تمزق الناس وتفرقهم وتجعلهم تبعاً للأهواء هي طرق مُعوجَّة مُتعرِّجة متعدِّدة

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن، مخلوف، مرجع سابق، ص٣٣٧.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ١٧/ ٤٨٦.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٦.
(٤) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ٢/ ٢٨٣.

مُهلِكة، والعذاب الأليم في آخرها بانتظار سالكيها، والشَّيطان على رأسها وفي بدايتها يزينها للسالكين، ويحسنها للمارين والعابرين من الغاوين[(١)].

٢ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]:

هذا تصريح ألزم الله به نفسه، فقد قال في الآية السابقة: ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾؛ فالذي أوجبه الله على نفسه وألزم به ذاته بيَّنته هذه الآية: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾، وهنا الأمر أوضح من أن يحتاج إلى بحث، فالآيتان في نسق واحد[(٢)].

أ ـ المعنى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾: هذه الآية شقان هذا هو الشق الأول منهما، والثاني ما بقي منها وهو الاستثناء وما بعده.

ـ ﴿ إِنَّ ﴾: للتوكيد أشد التوكيد.

ـ ﴿ عِبَادِى ﴾: أضافهم سبحانه إلى ياء المتكلم وضميره العائد إليه، لانتسابهم له تشريفاً لهم وتكريماً، ولم ينسبهم إليه بنون الجمع لأن الإفراد هنا أنسب، فالشَّيطان يتوعد بأن يكون له نصيب منهم، فناسب أن ينسبهم إليه بالضمير المفرد، والله أعلم.

والعباد هم من اختاروا العبودية لله وارتضوها منهجاً لحياتهم والتزاماً بالطاعة وتنفيذ أوامر المولى الكريم سبحانه، وهذه العبودية هي منتهى كرامة الإنسان ومنتهى شرف الانتماء والانتساب.

والإنسان مُخيَّر بين عبودية مَن يستحق العبادة أو عبودية من لا يستحق، والعاقل من اختار أن يعبد خالقه ورازقه ومن إليه المصير سبحانه. أما الأحمق

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٤٨.
(٢) نوفل، المرجع السابق، ص٢٤٨.

فهو من اختار العبودية لعدوه الشَّيطان أو لأي معبود ليس له من الأمر شيء .

ـ ﴿ لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَـٰنٌ ﴾ ؛ لا قوة لك ولا تأثير لك على عبادي ولا نفوذ ولا هيمنة[١] .

ب ـ ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ ؛ استثنى من هؤلاء من تبع إبليس من الغاوين أي من الضالين . ولاحظ تكرار : ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ و﴿ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ ﴾ ، والآن ﴿ ٱلۡغَاوِينَ﴾ .

ويكرر القرآن أحياناً لفظة ليُرسِّخَها في الذهن وليُقرَّها في الوجدان والوعي .

وهل الاستثناء متصل أم منقطع ؟

هذا يعتمد على تفسيرنا لكلمة ﴿ عِبَادِي ﴾ فإذا قلنا إن عبادي هنا بمعنى من اختار منهج العبودية لله وانضبط به والتزمه ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ولعله الأرجح ، وإن كانت العبودية في كلمة ﴿ عِبَادِي ﴾ ؛ هي ما قهر عليه العباد من العبودية لا ما اختاروه ، كما قال تعالى في نظرائهم : ﴿ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَـٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ ؛ فالعبودية هنا بمعناها العام فكل ما في الكون عباد أو عبيد بمعنى مقهورين على العبودية لا فكاك لهم منها ، وعلى هذا فالاستثناء متصل[٢] .

ـ قال ابن عاشور : إن الله وضع سنة في نفوس البشر أن الشَّيطان لا يُسلَّط إلا على من كان غاوياً ، أي مائلاً للغواية ، مكتسباً لها دون كبح نفسه عن الشر[٣] .

---

(١) تفسير سورة الحجر ، نوفل ، مرجع سابق ، ص٢٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص٢٥٠ .
(٣) المرجع نفسه ، ص٢٥٠ .

ـ قال النسفي : أي هذا حق علي ألاّ يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتِّباعك منهم لغوايته[١] . وقال السعدي : الغاوي : ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به[٢] .

قال دروزة : ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ : الضالين الذين سلكوا سبيل الغواية وانحرفوا عن الحق وطريق الهدى . وفي الآيات تذكير بآدم وموقف الملائكة وإبليس من أمر الله تعالى بالسُّجود له، وتوكيد رباني بأنّ الذين يتبعون إبليس وتزييناته وينحرفون عن طريق الحق والهدى هم الأشرار الغواة الذين فسدت أخلاقهم وحق عليهم بسبب ذلك عذاب جهنم، وبأن إبليس لن يكون له سلطان وتأثير على عباد الله الصالحين المخلصين الذين حسنت نواياهم، وطابت أخلاقهم، فاتبعوا الحق والهدى[٣] .

ج ـ مدى سلطان الشَّيطان على الإنسان :

بعض الناس يتصورون أن للشيطان قدرة يستطيع بها أن يُجبِر الإنسان على ترك الطاعات وفعل المعاصي، ومن ثم فلا ذنب على الإنسان إذا قصر في طاعة الله أو فعل معصية من المعاصي .

وهذا التصور إنما سببه الجهل بالقرآن الذي بيَّن حقيقة الشَّيطان، وبأنه ليس له سلطان بقهر الإنسان على فعل المعصية أو تثبيطه عن القيام بالطاعة، لأنه في هذا التصور يكون مشاركاً لله في القدرة على قهر العباد وجبرهم على ما يشاء، وهذا هو عين الشرك في الربوبية، ولو كان للشيطان مثل هذه السلطة لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، وفي ذلك مناقضة صريحة لما في القرآن الكريم؛ لأن التكليف مبني على قدرة الإنسان في اختيار الخير أو الشر، وانتفاء

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع نفسه، ص٢٥٠ .
(٢) المرجع نفسه، ص٢٥٠ .
(٣) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ٤/ ٤٨ .

الاختيار عند الإنسان ـ على فرض أن الشَّيطان يُجبره على فعل المعاصي وترك الواجبات ـ يستلزم بطلان التكليف من قبل الله للإنسان، وهذا الكلام لا يقول به إلا كافر أو جاهل، لأن بعث الله للرسل على مدار التاريخ إنما جاء لاختبار هذه الإرادة عند الإنسان، فإما أن يستجيب هذا الإنسان لداعي الله، وإما أن يستجيب لداعي الشَّيطان الذي يوسوس للإنسان بالجنَّة أو النار، ولقد نفى القرآن الكريم أن يكون للشيطان سلطان على الكافرين فضلاً عن المؤمنين بقهرهم أو بالحجة لما يدعوهم إليه.

وقد بيَّن القرآن الكريم حدود سلطان الشَّيطان على الكافرين، وأنه مجرد دعوة للكفر والمعاصي، والاستجابة منهم له في ذلك، بقول الله عزَّ وجلَّ في هذا الشأن حاكياً عن الشَّيطان، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وها هو الشَّيطان في الآخرة يُعلن في صَغار وانكسار تَخلِّيه عن أتباعه الذين أطاعوه فيما زين لهم من المعاصي، مما يوضح لهم أنه لم يكن له سلطان يجبر هؤلاء على ما كان سبباً في دخولهم جهنم، قال الإمام الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ أي: وما كان لي تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزيَّنتُه لكم ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ ﴾؛ أي إلا مجرد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان. وقيل: المراد بالسلطان هنا: القهر، أي ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي، وقيل: هذا الاستثناء هو من باب تحية بينهم وضرب وجيع، مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه، كأنه قال: إنما يكون لي

عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء سلطاناً، وليس منه قطعاً[١].

وهذه الأقوال بمجملها تدل على انتفاء السلطان من قبل الشَّيطان على أتباعه في الدنيا، وأن وظيفته كانت منحصرة في الدعوة إلى الغواية والضلال، وهذه الدعوة البراقة معراة عن الحجة والبرهان من جهة وبعيدة عن القهر والسلطان من جهة أخرى، وإذا انتفى الأمران انتفت معهما دواعي الاستجابة لهذه الدعوة من قبل الشَّيطان وبناء على ذلك فلا لوم ولا عتاب[٢]. ولقد قام لهم الشَّيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فأوضح لهم:

ـ أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه، وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد، ولم يفِ لهم بشيء منها.

ـ أنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا يتفق مع عقل عاقل لانعدام الحجة التي لا بدَّ للعاقل منها في قبول قول غيره.

ـ أنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية من أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء.

ـ أنه حملهم مسؤولية ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل، الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل.

ـ بأنه لا نصرة من عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص من هذه المحنة.

ـ بأنه صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه، وأثبتوه له، فتضاعفت

---

(١) تفسير فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ٣/ ١٠٣.

(٢) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٣٩٢.

عليهم الحسرات، وتوالت عليهم المصائب[(١)].

وبهذا يتبين أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على بني آدم، لتكون إرادة الناس حرة في اختيارها طريق الخير أو الشر، ومن ثم فليس له سلطان على الإنس في عقائدهم وتوجيه إرادتهم للأعمال السيئة، فإن ذلك مما لا سبيل إليه.

وإذا كان الشَّيطان قد أعلن بأنه لا سلطان له في إجبار الناس على المعاصي ولا حجة له عليهم فيما يدعوهم إليه، وإنما يتحدد سلطانه في دعوتهم إلى الباطل وتزيينه لهم، حبّاً للفساد، وكيداً الإنسان، لعمق عداوته له منذُ استكبر عن السُّجود لآدم، فمع من تثمر هذه الدعوة إذن بقبولها، ومن هم الذين يرفضونها في مقابل ذلك؟

لقد أجابنا القرآن الكريم على هذا السؤال في كثير من الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٥].

إن هذه الآيات التي سقناها تبيِّن لنا أن دعوة الشَّيطان للضلال والفساد إنما تُثمر مع الذين يُعرِضون عن ذكر الله ويتركون السلاح الذي أمر الله بالتسلح به ضد

---

(١) تفسير فتح القدير، الشوكاني، مرجع سابق، ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤، منقول بتصرف. وانظر: عالم الجن، عبيدات، مرجع سابق، ص٤٩٤.

وساوس الشَّيطان ومراوغاته التي لا تهدأ لجرِّ هذا الإنسان إلى الهاوية، أما المؤمنون، فقد عرفوا السلاح الذي يقاومون به هذا التسلط[١]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وإن الطائف هو الوسوسة أو مبدؤها، وهو إذا مس المؤمنين تذكروا فإذا هم مبصرون، فلا يقعون في فخ طاعته[٢].

وكلما قَوي الإيمان ازداد الشَّيطان بعداً، كما قال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**إيه يابن الخطاب: والذي نفسي بيده ما لَقِيَكَ الشَّيطانُ سالكاً فجّاً قطُّ إلا سلكَ فجّاً غيرَ فجِّكَ**»[٣].

وفي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وفي هذه الآية دروس وعبر منها:

ـ العبودية لله تُحرِّر الإنسان من العبودية لسواه.

ـ لا حر إلا من اختار نهج العبودية لله.

ـ العبودية نوعان: عبودية اختيار وهؤلاء هم العباد، وعبودية اضطرار وهؤلاء هم العبيد.

ـ يكرر الله تعالى في القرآن لفظة ليقررها في الذهن: ﴿ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ ﴾ و﴿ ٱلۡغَاوِينَ﴾.

---

(١) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مرجع سابق، ص٣٩٥.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٣٩٥.
(٣) البخاري، ك فضائل الصحابة، ٧/ ٤١.

ـ الإنسان بين خيارين إما الهدى والرشاد وإما الغيُّ والضلال.

ـ كل الناس في النهاية عابدون، لكن جُلَّ هؤلاء يعبدون الشَّيطان ومن لا يستحق العبادة، وقليل من العباد من يعبدون الله حقّاً وهو الله الحق الجليل العظيم سبحانه، وقد كرر القرآن قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [1].

٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]:

تكلم المولى تعالى في الآية السابقة عن صنفي العباد المهتدي والضّالّ، وهذا الضال هو من يتبع الشَّيطان، وهنا في هذه الآية يبين لمن اختاروا هذا المسير، بأن لهم جهنم وبئس المصير، وأنها موعد مضروب لهم سيلقونه لا محالة.

ـ ﴿ وَإِنَّ﴾: الواو للعطف أو للاستئناف، والتوكيد وظيفة «إن».

ـ ﴿ جَهَنَّمَ﴾: من أسماء النار، أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس[2].

ـ ﴿ لَمَوْعِدُهُمْ﴾: اللام هي المزحلقة لتأكيد المؤكَّد أصلاً، لمزيد من اليقين، والموعد مكاني وزماني، وهنا تأتي الكلمة بالمعنيين.

ـ ﴿ أَجْمَعِينَ﴾: توكيد ذلك.

قال المراغي: أي أن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، وهي مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات، وكفاء ما دنّسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي[3].

ومن دروس هذه الآية:

ـ «الموعد» تأتي للزمان والمكان وهنا اجتمع الاثنان.

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٥١.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن لصحيح السنن، المغراوي، ١٧/ ٤٨٦.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٥٣.

ـ كل من أطاع الشَّيطان واتخذه وليّاً وتبعه فالنار موعده.

ـ الاستهانة والاستهتار والاستخفاف أهلكت الكثيرين من الخلف، ولو أخذوا الأمور بجدية لاستقام حال كثير منهم.

ـ كيف لا يُبالي الإنسان بمصيره هذا، والله إنه لأمر عجب[١].

٤ ـ قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]:

في جَهَنَّمَ يكون موعد الغاوين، ومعهم كبيرهم إبليس الذي أبى واستكبر، وصمّم على غواية البشر. وإن ألوان هذا العذاب ستختلف، ولكل جماعة جريمة يقرنون بها معاً، فمن يشربون الخمر سيكونون معاً، ومن يلعبون الميسر يكونون معاً.

ولكل باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطت بينهم في الدنيا معصية ما، وجمعهم في الدنيا ولاء ما، وتكونت بينهم صداقات في الدنيا، واشتركوا بالمخالطة، ولذلك يشتركون في العقوبة والنكال، وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وفي الجحيم أماكن تُؤويهم، فقسم يذهب إلى اللظى، وآخر إلى الحطمة، وثالث إلى سقر، ورابع إلى السعير، وخامس إلى الهاوية. وكل جزء له قسم معين به: في كل قسم دركات، لأن للجنة درجات، وللنار دركات تنزل إلى أسفل[٢].

ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾: الضمير في لها عائد على جهنم المذكورة في الآية السابقة، ويطلق العرب العدد ويقصدونه أحياناً ولا يقصدونه أحياناً بل يقصدون

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٥٣.
(٢) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧٠٩.

التكثير، ولكنه هنا مقصودٌ قطعاً وتماماً كقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فهذا العدد مقصود، وإنما غير المقصود ما يكون فيه معنى التكثير، ورقم سبعة ليس كذلك، لكن قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾؛ لا يعني بحال أن المرة الواحدة والسبعين تُقبل، ويقبل الاستغفار لهم، ليس كذلك، فالسبعون هنا للتكثير.

وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ فالألف هنا للتكثير، والسياق والعُرف اللغوي يحددان، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ فهنا الألف للعدد وللحقيقة، وليس للمجاز والتكثير.

ـ ﴿أَبْوَٰبٍ﴾: جمع باب ولك أن تتخيل سعة الباب حتى يتسع لمرور هذه الملايين ممن أغواهم الشَّيطان، وأضلَّهم، وخدعهم، واستعبدهم.

إن كل باب له سعته من كثرة الداخلين وبحسبهم وبما يناسبهم، ورواد جهنم مع الأسف كثير، لأن الشَّيطان اجتهد في دعوتهم وقصرنا في دعوتهم، فحاز منهم أكثر مما حاز دعاة الحق والخير. لا لأن دعوته أكثر تأثيراً، بل لأنه هو أكثر إصراراً واستمراراً ومثابرة، ليلاً ونهاراً وأتباعه مثابرون مثله.

ـ ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: وهل المدخل أو الباب له علاقة بالذنب أو نوع الجريمة!؟

إذن تكون الأبواب للتخصص في الجريمة أو المعصية، فمثلاً باب مُخصَّص للمتكبرين، وآخر للظالمين والطغاة، وباب للمفسدين وهكذا. كما في الآثار عن أبواب الجنَّة، مثل باب الريان للصائمين وهكذا.

أم هي أبواب لمجرد تنظيم دخول الداخلين!؟ ولا نقول خروج الخارجين لأن من دخلها من أصحاب المؤبدات لا يخرج منها ويخرج منها عصاة المؤمنين بعد أن يقضوا مدة محكوميتهم، ويتغمدهم الله برحمته فيخرجون

والأصل عدم الخروج أعني للجهنَّميِّين[١].

ولكل باب من السبعة أبواب حصة ونصيب وجزء معين مقسوم محدد منهم، أي من أهل النار، ولم ترد «مقسوم» في القرآن إلا هنا[٢]. وقال الدكتور الزحيلي: أخبر الله سبحانه أن لجهنم سبعة أبواب، قد خصِّص لكل باب جزء مقسوم وعدد معلوم من أتباع إبليس، يدخلونه، لا محيد لهم عنه، وكل واحد يدخل من باب حسب عمله، ويستقرّ في درك بقدر عمله، وفي تفسير الأبواب السبعة، قولان:

ـ **الأول**: بأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض، وتُسمَّى تلك الطبقات بالدركات، والأبواب السبعة كلها في جَهَنَّمَ على خط استواء.

ـ **الثاني**: بأنها سبعة أقسام، ولكل قسم باب، أعلاها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وتكون الأبواب متوالية صعوداً ونزولاً، أو أنّ النار قسم واحد ذو دركات، وأبوابها السبعة مداخل لها، عافانا الله من النار، وتغمدنا برحمته ومنِّه وكرمه[٣].

إن الأرقام في اللغة العربية لها منهج لغوي في استخدامها، فمرة تُستخدم للتكثير ولا يُقصد، العدد، ومرة يقصد والسياق يحدد.

ـ الجنَّة لها أبواب لم يرد عددها في القرآن وورد في السنة أنها ثمانية، وجهنم لها سبعة أبواب كما ورد هنا، ولم يرد في غير هذا الموطن عدد أبوابها.

ـ أفعال الله منضبطة مضبوطة منتظمة منظمة، فأبواب جهنم معلوم لكل باب من يدخله[٤].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٥٦.
(٢) نوفل، المرجع نفسه، ص٢٥٧.
(٣) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ص٣/ ٢٢٢
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٣٥٧.

عاشراً: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٨]:

بيَّنت الآيات مصير المخلَصين الذين لم يتمكَّن الشَّيطان من إغوائهم، اتباعاً للأسلوب القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب[١].

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]:

أنهت الآيات السابقة الحديث عن المتقين وجزائهم في جَهَنَّمَ لتبتدئ آياتنا هذه الحديث عن المتقين وجزائهم في الجنات والعيون، وبضدها تتميز الأشياء.

ـ ﴿إِنَّ﴾: للتوكيد وتستخدم إما لأهمية الموضوع والإشارة إلى شأن القضية، وإما إذا كان الذي أمامك مُتشكِّكاً فيما تقول أو هما معاً، وأعتقد أنها هنا على الوجهين.

ـ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: هم الذي جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، ومن اتقوا ربهم بمعنى خشوه وأطاعوه، والذين اتقوا النار اتقوا غضب الجبار سبحانه.

ـ ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: هم منعمون في الجنَّة بصورة يستغرقون فيها بالنعيم[٢].

قال المراغي: أي الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه يُمتَّعون في الجنات[٣]. وذكرت: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للتعظيم والتقدير.

ـ ﴿وَعُيُونٍ﴾: الماء حياة النبات، وإن كان قانون الجنَّة العلوية غير قانون الجنات الأرضية، إلا أن الماء يجري في الجنات ليزيد الجمال جمالاً لا ليجيء النبات. وذكرت ﴿وَعُيُونٍ﴾: للتكثير والتكبير والتعظيم والتقدير[٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق، ٤/ ٢٨٠.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٥٩.
(٣) نوفل، المرجع السابق، ص٢٥٩.
(٤) نوفل، المرجع نفسه، ص٢٥٩.

إن المتقين: هم الذين اعتصموا بالله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وآمنوا به وتوكلوا عليه وأخلصوا له، فنجوا من وساوس إبليس وزينته وغوايته ومكائده وكيده بتوفيق الله لهم.

وعرفوا أن الله عزَّ وجلَّ له صفات جلال، وصفات كمال وجمال، يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا، ويهَبُ بصفات الجلال البلايا. فهو غفار وهو قهار، وهو عفو وهو منتقم. فجعلوا بينهم وبين صفات الجلال وقاية بطاعته وخشيته، وجعلوا بينهم وبين الجمال والكمال قربى بعبادته، وعرفوا أن الطريق إلى رضاه ورحمته ومغفرته باتباع منهجه، فساروا عليه في حياتهم[١].

ومن دروس هذه الآية:

ـ شتان بين مستغرق في النعيم وبين محترق في السعير والجحيم.

ـ المتقون مُنعَّمون بالجمال كما هم مُنعَّمون بالطعام والشراب.. وراحة البال.

ـ المتقون هم من اتقوا الله فوقاهم النار جزاء اتقائهم إياه[٢].

ـ فصَّل النبي ﷺ بعض أسباب دخول الجنَّة، وهي التقوى وإفشاء السَّلام وصلة الأرحام، وإطعام الطعام، والصلاة والناس نيام[٣]، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلَّم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصَلُّوا والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنَّةَ**

(١) تفسير الشعراوي مع التصرف، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧١٠.
(٢) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٦٠.
(٣) التدبُّر والبيان في تفسير القران بصحيح السنن، المغراوي، مرجع سابق، ١٧/ ٤٩٠.

بِسَلام» [١]، وفي رواية الإمام أحمد زيادة: **وصلوا الأرحام**[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]:

تكلمت الآية السابقة عن دخول المتقين جنات النعيم والعيون، وأكملت هذه الآية ما ابتدأت به سابقتها، فقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾: فعل أمر مفاده الإكرام، وهو في موضع الحال، أي في جنات وعيون، وحال كونهم يُقال لهم (ادخلوها)، وفي هذه الكلمة فعل، وفاعل، ومفعول به.

ـ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: وهذه حال بعد حال، (ادخلوها) حال كون هذا الدخول بسلام، والباء في ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ للمصاحبة.

ـ ﴿ءَامِنِينَ﴾: النجاة من الخوف وهذا كذلك حال، قال السعدي: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: من الموت والنوم والنصب واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض والحزن والهم وسائر المكدرات[٣].

وقال عبد القادر الجرجاني ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: بتسليم وتحية منّا لكم، أو بتسليم بعضكم على بعض، وقيل: بسلامة، قال المراغي: ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات، وأنتم آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها، لا تخافون إخراجاً، ولا فناء ولا زوالاً[٤].

ومن دروس هذه الآية:

ـ السلم والأمن من أهم أوصاف وأحوال أهل الجنَّة.

---

(١) مسند أحمد، ٥/ ٤٥١. وانظر: الترمذي، رقم ٢٤٨٥.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القران، المغراوي، مرجع سابق، ١٧ / ٤٩٠.
(٣) درج الدرر في تفسير الآي والسور، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ٣/ ١٠٥٦.
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٦١.

ـ الترويع أكثر ما واجه المسلمين والمؤمنين من الأذى في الدنيا، والأمن والسلم أول ما يواجهون في الآخرة، وهو نقيض ما كانوا عليه، ومن رَوَّعوهم كانوا هم في الأمن وغداً هم في الفزع الأكبر.

ـ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾: سالمين أو مُسلَّماً عليكم، ولذا وجب إحياء تحية الإسلام.

ـ هذا السَّلام تحية لهم على صبرهم على الأذى وصبرهم على العبادة وصبرهم على الدعوة ومكائد الكائدين، فالآن وقت السَّلام[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]:

في الآيتين السابقتين ذكر نعيمُ أهل الجنَّة، وفي هذه الآية ذُكرت مُتمِّمات النعيم، وهي أن يُنزع ما في الصدور من غِلٍّ.

ـ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ النزع: القلع والإبعاد، واقتلعنا وأبعدنا ما في صدورهم من غل[٢].

وكلمة ﴿وَنَزَعْنَا﴾: تدل على أن تغلغل العمليات الحقودة في النفوس يكون عميقاً، وأن خلعها في اليوم الآخر يكون خلعاً من الجذور، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله، والذي عاداه في الدنيا نظرته إلى مُحسِن له[٣]. وذلك عبر بالصدور دون القلوب، لأن الصدر وعاء القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

ـ ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: من حقد وضِغن وما إليه، فقد طهَّر الله قلوبهم من أن

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع نفسه، ص٢٦١.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٦٢.
(٣) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٢/ ٧٧١٢.

يتحاسدوا على الدرجات في الجنَّة، ونزع منها كل غل، وألقى فيها التوادَّ والتَّحابَّ والتصافي[١].

ـ ﴿ إِخْوَانًا﴾ : حال من المنزوع منهم الغل أي حالة كونهم إخواناً.

ـ ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ : سرر : جمع سرير وهو ما يُجلس عليه، مأخوذ من السرور، لأنه موطئ أهل النعمة، جمعه : أسرّة وسرر[٢].

ـ ﴿ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ : يجلسون متواجهين إكراماً لجميعهم وإتماماً لسرورهم، ودل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر[٣].

ـ قال ابن عطية : ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه ينزع الغل من قلوب أهل الجنَّة ولم يذكر لذلك موطناً، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنَّة، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنَّة. والذي يُقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطن من آخرين، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] [٤].

ـ قال الشنقيطي : بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه نزع ما في صدور أهل الجنَّة من الغل في حال كونهم إخواناً، وبيّن هذا المعنى في الأعراف، وزاد بأنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنَّة، وذلك في قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا

---

(١) تفسير المراغي، نقلاً عن تفسير سورة الحجر، ص٢٦٤.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القران، المغراوي، مرجع سابق، ١٧/ ٤٩٢.
(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٨٦٣.
(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ٣/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وفي قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين من أهل الجنَّة يوم القيامة يكونون على سرر ، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض ، ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع .

ومن صفات السُّرُر في الجنة :

ـ أنها منسوجة بقضبان الذهب ، وهي الموضونة ، فقال تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة : ١٣ ـ ١٦] .

ـ وقيل : الموضونة : المصفوفة ، كقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [الطور : ٢٠] .

ـ ومنها أنها مرفوعة ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية : ١٣] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٤] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن : ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات(١) .

وأهم دروس الآية الكريمة : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] :

ـ لا يتم النعيم إلا بنزع الغل .

ـ الأُخوَّة نعيم عظيم .

ـ الله تعالى يوفر كل الظروف ليتم النعيم ويتم الهناء لأهل الجنَّة ، فلا يكدر

---

(١) أضواء البيان ، الشنقيطي ، مرجع سابق ، ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

نعيمهم شعور سلبي مما عهده الناس في الدنيا من بغضاء وحسد وغل ونوايا سيئة وأحقاد، كل هذا مبرأ منه أهل الجنَّة ليتم نعيمهم.

ـ الأخوة الملتقون على الإيمان في الدنيا يلتقون على النعيم المترتب على الإيمان في الآخرة، فودُّهم موصول.

ـ مودة غير المؤمنين مقطوعة تنقلب الى عداوة يوم القيامة[١]: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٤ ـ قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]:

هذه الآية تواصل الحديث عما سبقها فيه أخواتها الآيات الثلاث السابقة، وهنا تتحدث الآية عن كون أهل الجنَّة لا يلحقهم تعب ولا مشقة.

ـ ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾: هذا هو القسم الأول من الآية. والمس: أدنى الإصابة واللحاق من الأذى، والنصب: التعب والمشقة.

ـ ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾: وليسوا منها بمبعدين ولا مخرجين مطرودين.

وما: بمعنى ليس والباء مزيدة نحوياً في خبر «ما» وهي للتوكيد[٢].

ـ وقال الشنقيطي: قوله ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنَّة لا يمسهم فيها نصب، وهو التعب والإعياء، وقوله: نصب، نكرة في سياق النفي فتعُمُّ كلَّ نصب، فتدل الآية على سلامة أهل الجنَّة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٥]، لأن اللغوب هو التعب والإعياء[٣].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٦٦.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص٢٦٦.
(٣) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مرجع سابق، ١٧/ ٤٩٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فقد بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن أهل الجنَّة لا يخرجون منها، وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ فهم دائمون في نعيمها أبداً بلا انقطاع، وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢ ـ ٣]، وقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات[١].

وقال المراغي: أي وهم خالدون فيها أبداً لا يبرحونها يشعرون بلذة النعيم ودوامه، فهم في خلود بلا زوال وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان[٢].

فالآيات بيَّنت أنه لا يلحق أهل الجنَّة أي نوع من الأذى أو التعب، وأعظم نعيم الجنَّة عدم الإخراج منها، ودوام نعيمها[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: **يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرئ عليها السَّلام من ربِّها ومنِّي، وبشِّرْها ببيت في الجنَّة من قصب، لا صخبَ فيه ولا نصبَ**»[٤]. وإن معنى هذا الحديث:

ـ قصب: بفتح القاف والصاد، والمراد به: لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف.

---

(١) المغراوي، المرجع نفسه، ٢/ ٢٧٩.
(٢) تفسير المراغي نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مرجع سابق، ص٢٦٧.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٦٧.
(٤) مسند أحمد، ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

ـ الصّخب: بفتح الصاد: الصياح والمنازعة برفع الصوت.

ـ النصب: بفتح الصاد والنون: التعب(١).

وقال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين ـ أعني المنازعة والتعب ـ أنه ﷺ دعا إلى الإسلام، فأجابت خديجة طوعاً، فلم تُحوِجْه إلى رفع صوت ولا إلى منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل تعب، وأنها آنسته من كل وحشة، وهوّنت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشَّرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها(٢).

الحادي عشر: قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]:

إن هذه الآية تعقيب على قصة آدم عليه السَّلام وكفر إبليس وجحوده، فقد أعقب القصة وصف جهنم ووصف المتقين وحالهم في الجنَّة، فلمن تاب وأصلح، يقول الله تعالى: ﴿أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولمن اتبع طريق الشَّيطان فيقول تعالى له: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠].

فيكون التعقيب بتحديد المصير خير شاهد ودليل على عدل المولى سبحانه وتعالى، فالتعقيب هنا أبلغ وصف، فختمت به قصة آدم عليه السَّلام، أي كان التعقيب بشرح العدالة الإلهية(٣).

ونلاحظ أن الله سبحانه أعطى أهل الجنَّة من الآيات ضعف ما جعل لأهل النار، لأن مغفرته أعظم ورحمته أوسع لكن عقابه أيضاً شديد.

لقد جاءت هذه الآيات تعقيباً على ما مر في السورة والسياق من صورتي

---

(١) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مرجع سابق، ١٧/ ٤٦٩.
(٢) فتح الباري، المرجع السابق، ٧/ ١٣٨.
(٣) العلامة اللغوية في قصة آدم، هاني صبري آل يونس ورشا طه حامد، ص٧٩.

التنعيم والتعذيب بهذا التعقيب[١]، قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]. وهذه الآيات الكريمة دالة على مقامي الرجاء والخوف[٢].

١ ـ قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩]:

أ ـ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾: نبِّئ: أخبر بهذا النبأ العظيم الذي سيأتي، ولم يرد «نبئ» بهذه الصورة وهذه الصيغة إلا هنا في هذا الموطن، والنبأ ليس مجرد الخبر إنه الخبر الجلل أو ذو الشأن أو الخبر ذو الخطر والقدر والأهمية[٣]. والخطاب هنا لرسول الله ﷺ.

ـ ﴿ عِبَادِيٓ ﴾: تأتي عباد بالمعنى العام وهو كل الخلق من عبيده، فأخبره بهذه الحقيقة لكل الخليقة، أو يُقال إن «عباد» كلمة مصطلح عليها لمن صلح من العباد، واختار العبودية نهجاً وطريقاً وطاعة وحبّاً وخضوعاً وهم المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾، وأرى أن الأرجح الثاني من المعاني ولا أستبعد الأول[٤].

قال الرازي: في الآية لطائف: إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿ عِبَادِيٓ ﴾؛ وهذا تشريف عظيم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١].

ومنها: أنه لما قال ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾ كان معناه: نبئ كل من كان معترفاً

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٧١.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٤/١٥٨.
(٣) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٧١.
(٤) نوفل، المرجع نفسه، ص٢٧١.

بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدلُّ على تغليب جانب الرحمة من الله[١].

ب ـ ﴿ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾: هذا مضمون ما طلب منه عليه الصلاة والسلام أن ينبئ به وقدّم المغفرة لأن التبشير أليق، ولأن رحمته سبقت غضبه.

﴿أَنَا﴾ تأكيد الضمير في ﴿ أَنِّىٓ ﴾ وضمير الإفراد هنا أولى من ضمير الجمع، ولكل مقام مقال.

ـ ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾: عظيم المغفرة.

ـ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾: واسع الرحمة.

قال السعدي في قوله: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾؛ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها لينالوا مغفرته[٢].

ونلاحظ أن الله عزَّ وجلَّ لما ذكر المغفرة والرحمة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة:

أولها: قوله ﴿ أَنِّىٓ ﴾، **وثانيها**: قوله ﴿أَنَا﴾، **وثالثها**: إدخال حرف الألف واللام على قوله ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك[٣]، بل قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾.

---

(١) تفسير الرازي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ١٧/ ٤٩٩.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص١٦٣.
(٣) تفسير الرازي نقلا عن التدبُّر والبيان، مرجع سابق، ١٧/ ٤٩٩.

وإن من دروس الآية السابقة:

ـ البلاغ والتعليم والدعوة وإيصال الحقيقة للناس مهمات عظيمة، قلّ من ينبري لها.

ـ العباد في القرآن تأتي بالمعنيين، العام وتشمل المؤمن والجاحد، والخاص وهي لصفوة العباد.

ـ يتكلم المولى في كتابه عن ذاته العلية بضمير الإفراد أحياناً وبضمير الجمع أحياناً، والأليف ما عُبِّر به في السياق الذي ورد فيه اللفظ أو الضمير.

ـ أكثر ما اقترن اسم «الغفور» باسم «الرحيم» والاسمان الكريمان متكاملان في معاملة العباد، فالغفور يغفر ذنوبهم ويسترها ويمحوها، والرحيم يسعهم برحمته ويلطف بهم ويتفضل عليهم[1].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]:

عند التأمل والوقوف عند هذه الآية من أولها لآخرها، فإنَّه يكتمل النبأ بالمغفرة لمن آمنوا، والعذاب لمن كفروا وكانوا من أهل الغواية. وإننا نلحظ أنه سبحانه لم يُشدِّد في تأكيد العذاب، ذلك أن رحمته سبقت غضبه، كما بيَّن رسول الله ﷺ بأن الله تعالى **خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة**، وقال: . . . **ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحدٌ**[2].

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قول الحق سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ولذلك نرى أن الآيتين قد نبّهتا إلى مقامَي الرجاء والخوف، وعلى المؤمن أن يجمع بينهما،

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٧٥.
(٢) مسلم، ٤/ ٥١٠٩، رقم ٢٧٥٥. وانظر: البخاري، رقم٦٤٦٩.

وألا يؤجّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان، وأن يستغفر من المعاصي، لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطويّة[١]. ولقد تحدث الحق سبحانه عن صفاته الجلالية في الغفران والرحمة والانتقام[٢]، وبيّن مصير الغاوين ومآل المتقين.

قال المراغي: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ أي وأخبرهم بأن عذابي لمن أصر على المعاصي وأقام عليها ولم يتب، هو العذاب الأليم المؤلم الموجع الذي لا يُشبهه عذاب آخر، وفي هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يُقدموا على معصية[٣].

والخلاصة: إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة[٤]، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع منها[٥].

وقد جاءت الآية: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ عقب ما تقدم من الوعد والوعيد في نهاية قصة آدم تقريراً لما ذكر، وتمكيناً له في النفوس. وهذه الآيات تربية على مقامي الخوف والرجاء، وعلى معرفة سنن الله[٦].

ومن دروس الآية:

ـ التوازن في التربية والمشاعر مهم جداً للشخصية الإنسانية.

---

(١) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، ١٣/ ٧٧١٨.
(٢) المرجع نفسه، ١٣/ ٧٧١٨.
(٣) تفسير المراغي نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مرجع سابق، ص٢٧٦.
(٤) تفسير سورة الحجر، نوفل، مرجع سابق، ص٢٧٦.
(٥) تفسير السعدي، مرجع سابق، ص٨٦٤.
(٦) الأساس في التفسير، سعيد حوى، مرجع سابق، ٦/ ٢٨٨٧.

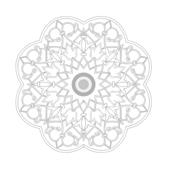
ـ الدين يوقّع على النفس الإنسانية أوتار الرجاء والخوف؛ لأن النفس مجبولة مفطورة هكذا.

ـ وصف العذاب في القرآن بعدة أوصاف تهويلاً لشأنه.

ـ كثر الحديث في سورة الحجر عن أفعال الله، فهذا نسق من أنساق السورة[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مصدر سابق، ص٢٧٧.



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

قصة آدم عليه السلام في سورة الإسراء

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١ ـ ٦٥].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]:

١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾: الواو في ﴿وَإِذْ﴾ إما عطف قصة على قصة، أو أنها واو الاستئناف، و«إذ» ظرف لما مضى، وهو متعلق بمحذوف، تقديره «واذكر إذ».

٢ ـ ﴿قُلْنَا﴾: نون العظمة تعود إلى المولى العظيم سبحانه.

٣ ـ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: لجميع الملائكة كما بيَّنت آيات أخرى في سور أخرى.

٤ ـ ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾: هذا أكثر ما يتكرر في قصة آدم، وهو أدل مشهد على الكرامة، والسُّجود سجود تكريم، كما تقدَّم، طاعة لأمر الخالق الحكيم المعبود وحده سبحانه.

٥ ـ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: الاستثناء منقطع، وإبليس من الجِنِّ كما تبين معنا سابقاً.

٦ ـ ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ : وهو من ضمن الإباء بكل وضوح بالطبع، لقد نظر الشقيّ إلى العنصر والمادة التي يتكون منها المخلوق، وما نظر إلى المآلات والوظيفة، وإن الكرامة ليس لها علاقة بالعنصر، فملك الوجود سبحانه إذا أراد أن ينعم على أهون الموجودات رقّاه وكرّمه، فالأمر له، وليس للشيطان ولا لأحدٍ في الخلق حق الاعتراض على الخالق الحكيم، إذ معنى الاعتراض أن المعترض أوفر حكمة وأعلم من صاحب الأمر والحكم، وهذا عين المستحيل[١].

وفي قوله: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ هذا استفهام إنكار منه، لعنه الله وقبحه، ما أفظع كلمته! وما أشد جراءته ووقاحته، يُنكر على ربه عزَّ وجلَّ خالقه ومُحييه ومميته بهذا الأسلوب الإجرامي الذي ينضح الكبر من كل كلماته والعياذ بالله، وسبحان الله العظيم الحليم يسمع منه هذا الكفر، ويعلم من قلبه ما فيه من سوء الظَّنّ بالله، والعزم على مزيد من الكفر والإباء، وهو سبحانه لا يعاجله بالعقوبة، بل يجيبه إلى ما طلب من النظرة، ما أهون الدنيا على الله، وما أقصرها وما أحقرها إذ مد عمر إبليس إلى نهايتها[٢].

وحسد إبليس لآدم جعله يذكر الطين، ويغفل عن نفخة الله في هذا الطين[٣].

وهذه الآيات التي كانت تنزل على النبي ﷺ في مكة تبين له أن موقف المشركين من دعوته يشبه موقف إبليس وعناده وتكبره، فقد شمله الأمر الإلهي بالسُّجود لآدم، فأبى تكبراً وعناداً، فموقف إبليس أصل في التكبر والعناد وموقف مشركي مكة فرع منه[٤].

والهمزة في قوله: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ : هذه الهمزة للاستفهام الذي يحمل معنى الاعتراض والاستنكار، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخر مثل قوله

---

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٤.
(٢) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١٠٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٢٣٨.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٤/ ٢٠٨.

تعالى: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فالمخلوقية لله متفق عليها، إنما الاختلاف في عنصر المخلوقية، هذا من نار وهذا من طين، لكن من قال لك يا إبليس: إن النار فوق الطين، أو خير منه؟ وهل نستطيع أن نقول: إن العين خير من الأذن مثلاً؟ أم أن لكل منهما مهمة لا تؤديها الأخرى؟

وسبق أن قلنا مثلاً: إنك تفضل الحديد إن كان مستقيماً، أما إن أردت حُساماً فالاعوجاج خير من الاستقامة، أو أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة، ولا يكون جميلاً ولا يكون خيراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين؟

والنار الأصل فيها الخشب الذي تُوقَد به، والخشب من الطين.

إذن: فالطين قبل النار وأفضل منه، فقياس إبليس إذن قياس خاطئ.

ومعنى: ﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾ يعني: خلقته حال كونه من الطين أو خلقته من طين، والخلق من الطين مرحلة من مراحل الخلق، لأن الخلق المباشر له مراحل سبقته كما بيّنّا في الصفحات السابقة.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] سبقته مراحل متعددة، قال عنها الخالق سبحانه مرة: من الماء، ومرة: من التراب، ومرة: من طين. والماء إذا خُلط بالتراب صار طيناً، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين، وتتغير رائحته، فيتحول إلى حمأ مسنون، ويتحول إلى الصلابة فيصير صلصالاً كالفخار، إذن لا وجه للاعتراض على القرآن في قوله عن خلق الإنسان مرة أنه من ماء أو من تراب، أو طين، أو حمأ مسنون، فهذه كلها للمكوّن الواحد[١].

ومن الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

ـ هذا الإنسان أكرم الموجودات والمخلوقات التي أوجدها الله، فقد جعله

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٢.

فوق رتبة الملائكة، وحمّله الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال.

ـ شاء الله أن يجعل أصل هذا الإنسان المكرم من الطين أو الماء المهين لا تحقيراً، معاذ الله، ولكن لئلا يستكبر، إذ الاستكبار أشدُّ الأخطار التي تهدد هذا المخلوق المُكرَّم، لأنه يؤدي إلى سلوك طريق الفجار، وفي الآخرة إلى النار، فأكرم الموجودات أصله من أهون الموجودات.

ـ الكبر أول معصية عُصي بها الله، وقرينه الحسد، وهما وجهان لقضية واحدة، فليُنتبه منهما.

ـ شاء الله أن يكون لهذا الإنسان عدو هو إبليس، وهو عدو خطير، ليشحذ الإنسان طاقاته.

ـ العنصرية أن تفتخر بعنصرك وأصلك، وأول من صنع هذا وسنَّهُ سُنّةً سيئة إبليس الخسيس.

ـ الإله العظيم إذا شاء التكريم لأي مخلوق من مخلوقاته كرّمه كائناً من كان، ولا اعتراض[١].

ثانياً: قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]:

تواصل هذا الآية نقل ما قاله إبليس في اعتراضه على أمر السُّجود لآدم، ففي الآية السابقة بيّن الأصل الطيني لهذا المخلوق، وهنا يواصل شرح دوافع حسده، وأنه تفضيل المخلوق الجديد عليه وتكريمه دونه، وأنه سيستلمه بالكيد والمكر وسوء التدبير[٢].

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٣٥٥.

١ ـ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ :

ـ ﴿ قَالَ ﴾ : أي إبليس مواصلاً كلامه في الآية السابقة : أرأيتك : قال إبليس يسأل الله عزَّ وجلَّ، والاستفهام هنا ليس مقصوداً منه حقيقية الاستفهام وإنما إشارة إليه، أي إلى الإنسان والتهديد بما يضمره نحوه(١).

ـ ﴿ أَرَءَيْتَكَ ﴾ : المعنى : أخبرني وأعلمني لماذا فضَّلتَه علي، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير(٢).

ـ ﴿ هَٰذَا ﴾ : إشارة لا يُقصَد منها ظاهر المقصود بالإشارة، وإنما التحقير والتقزيم والتصغير(٣).

ـ ﴿ ٱلَّذِى ﴾ : اسم موصول يتحدد بصلته.

ـ ﴿ كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ : صلة الموصول وهي الحيثية التي أثارت حفيظة الحاسد الأول في الوجود وهو إبليس، ومعنى كرَّمتَ : فضّلت وقدمت، وجعلته في مقام التقدير والكرامة.

ـ ﴿ عَلَىَّ ﴾ : أي فضّلته عليّ، وجعلته أعلى رتبة مني.

٢ ـ ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ :

نرى السرعة واللهفة على التأخير، وما يدري المنكود أن التأخير يعني مزيداً من الانزلاق نحو الهاوية والحضيض وجهنم.

واللام في «لئن» هي اللام الموطئة للقسم داخلة على إن الشرطية.. والجواب «لأحتنكن» جواب لهما معاً.

«إلى يوم القيامة» : هو يطلب التأخير إلى المدى الأقصى للوجود، وهو إلى

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، ص٣٥٥.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٣.
(٣) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٥.

يوم القيامة، والله أجابه كما في سورة أخرى ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ [ص: ٨١].

٣ ـ ﴿ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾:

والاحتناك: يرد بمعنيين: الأول: الاستئصال، ومنه قوله احتنكَ الجراد الزرع أي: أتى عليه كله واستأصله، والآخر بمعنى القهر على التصرف، مأخوذ من اللجام الذي يوضع في حنك الفرس، ويسمونه «الحنكة»، وبها تستطيع أن توجه الفرس يميناً أو يساراً أو توقفه، فهي أداة التحكم فيه والسيطرة عليه قهراً؛ فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات، وقد يكون قهراً لحركته[١].

وقال الأستاذ جعفر شرف الدين: الاحتناك ههُنا افتعال من الحنك، أي لأقودنّهم إلى المعاصي كما تُقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة عن قائدها، وهي عبارة عن الاستيلاء عليهم والامتلاك لتصرفهم، كما يمتلك الفارس تصرّف فرسه، بثني العنان تارة وبكبح اللجام مرة[٢].

وكأن إبليس يعتبر جنوده وأتباعه من ذرية آدم، من البهائم والدواب، يضع في حنك كل منهم خطافاً ورَسَناً يقوده به، وذاك المسكين يسير خلفه مستسلماً منقاداً ذليلاً كما تسير الدابة خلف صاحبها[٣].

ومعنى ﴿ لَأَحۡتَنِكَنَّ ﴾: أي فلأستولين عليهم، وأحتويهم، وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي أصرِّف أمرهم[٤].

وقيل أيضاً: المراد بذلك، لأضيّقنَّ عليهم مجاري الأنفاس من أحناكهم بإيصال الوسوسة لهم، ومضاعفة الإغواء عليهم[٥].

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٤.
(٢) الموسوعة القرآنية خصائص السور، شرف الدين، مصدر سابق، ٥/ ١٠٨.
(٣) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق، ١/ ١١٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٢٣٨.
(٥) الموسوعة القرآنية، شرف الدين، مصدر سابق، ٥/ ١٠٩.

والتعبير القرآني في غاية الدقة عندما قال: ﴿ لَأَحۡتَنِكَنَّ ﴾ وهي صورة للاستحواذ بأقصى طاقة[١] يسعى إبليس لتنفيذها.

وما أعجب منظر «صريع» الشَّيطان والحبل مربوط بحنكه، والشَّيطان أمامه يقوده إلى عالم الانحراف والمعاصي، ومن الذي يرضى أن يكون كالدابة يُقاد من حنكه؟[٢].

ـ ﴿ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: أبناء هذا المخلوق وسلالته إلا قليلاً ممن اعتصم بإيمانه ودينه[٣].

ـ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دخل لي بهم، وليس لي عليهم سلطان، لقد تذكر قدرة الله، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشَّيطان أن يأخذه، فهذا القليل المستثنى هم المؤمنون المتوكلون المخلصون الذين حقَّقوا العبودية الخالصة لله تعالى[٤].

ومن فوائد الآية:

ـ يعلن الشَّيطان عداوته وخططه، وهو متأكد أو واثق أن هذا لا يغير من الواقع شيئاً، والأصل أن إعلان الخطط يُوقِظ المُستهدَفين.

ـ فوائد قوم عند قوم مصائب، وكرامة قوم عند قوم مثار لهويِّهم في الدرك الأسفل من الحسد والحقد والكيد والجحيم.

ـ اجتهاد الباطل وأهله وتقاعس حملة الحق، فهذا الشَّيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سينجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي من الزمان، ولئن كانت أطول

(١) وقفات مع الإنسان في القرآن، فايز الربيع، مصدر سابق، ص٣٠٨.
(٢) سيرة آدم، الخالدي، ص٩٧.
(٣) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٦.
(٤) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٤.

مدة من دعوات الأنبياء والمرسلين، وممن دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً «نوح عليه السلام»، فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم، وهو درس لنا نحن المؤمنين مَن نحمل الحق.

ـ لقد صدَّق إبليس ظنه، وهذا ليس غريباً، فمن خطّط حصد، ومن جدّ وجد، ولو في مجال الشر والشيطنة[1].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ [الإسراء: ٦٣]:

ذكرت الآية السابقة طلب إبليس، ولم تذكر إجابته صراحة، لكنها ذُكرت ضمناً في هذه الآية في قوله ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾ وأجابه على الإكثار من الأتباع بأنه فليكن؛ فجهنم بانتظاركم مهما كثرتم.

١ ـ ﴿قَالَ﴾: أي المولى العظيم سبحانه جواباً على العدو المجرم لهذا الإنسان وهو إبليس، قال على سبيل التهديد لا الإذن والسماح.

٢ ـ ﴿ٱذۡهَبۡ﴾: امضِ وانصرف لما خُلقَت له[2]، وهو أمر إهانة ويراد به التهديد كما يقولون في المثل: «أعلى ما في خيلك اركبه» [3]، وافعل ما تريد إن استطعت، وفيه معنى: الطرد.

٣ ـ ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾: أي اتبع خطواتك على سبيل الاتباع المنهجي لا مجرد الخطأ، فإن هذا الخطأ في الاتباع لا يكاد يحيد عنه إلا أقل القليل[4]، فالإنسان مزود بالعقل والإرادة، وهو يملك أن يتبعك أو يُعرضَ عنك، ﴿فَمَن تَبِعَكَ

---

(١) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٥٦.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٥.
(٤) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٧.

مِنْهُمْ ﴾ مُغلِّباً جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، مُعرِضاً عن نداء الرحمن إلى نداء الشَّيطان، غافلاً عن آيات الله في الكون، وآيات الله المصاحبة للرسالات[١]، فمآله إلى جهنم.

٤ ـ ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾: أي وافياً صافياً كافياً[٢].

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال: ﴿جَزَآؤُكُمْ ﴾، ولم يقل «جزاؤهم» لأنه معهم وداخل في حكمهم، وهو سبب غوايتهم وضلالهم، وكذلك هو المخاطب في الآية الكريمة[٣]، وأُعيدت في الآية كلمة ﴿جَزَآءً﴾ للتأكيد اهتماماً وفصاحة[٤]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾: أي لا نقصان فيه، لأن أحدهم لم يتبعه من موقع شلل في الإرادة، أو خلل في العقل، أو عجز في القدرة، بل من خلال الإهمال في استنفار العناصر التي أودعها الله في عمق إنسانيته، مما يؤكد له حُرِّيته في الاختيار السليم، فيكون الانحراف ناشئاً عن سوء اختياره، لأنه كان قادراً على أن يواجه الشَّيطان بعقله الذي يُميِّز بين الخير والشر، والضرر والنفع، وبإرادته في التوجُّه للأمور الخيرة بطريقة حاسمة، فكانت الحجة لله عليه وليس له على الله حجة[٥].

ومن دروس الآية:

ـ إبليس يمكر بالبشر من ذرية آدم، والله يمكر به بتجهيز جهنّم له ولأتباعه.

ـ ما أسوأ أن يمكر الإنسان بنفسه، فهذا الشَّيطان يمكر ببني الإنسان، ولكن

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٢٣٩.
(٢) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٧.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٥.
(٤) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص٤٨.
(٥) تفسير من وحي القرآن، محمد حسنين فضل الله، مصدر سابق ٧/ ٣٢.

جزءاً كبيراً من أعوانه هم من بني الإنسان من المفسدين في الأرض، يمكرون بالجنس البشري عن طريق الفساد والجنس والأفلام والإعلام والمخدرات وتدمير إنسانية الإنسان لحساب الشَّيطان. فمتى يفيق البشر على أعدائهم الحقيقيين؟ ومتى يعرفون ما هو الإرهاب الحقيقي؟ وما هو التدمير الشامل الحقيقي؟

ـ لا يغرنك هذه العربدة الإبليسية في الأرض للشيطان وأتباعه، إن جهنم تنتظرهم على أحر من الجمر.

ـ لله حكمة بالغة في وجود الشر والشَّيطان، وفي هذه المعركة الحامية الوطيس، الدائرة بين أتباع المرسلين وأتباع الشياطين[١].

ـ الالتفاف في الضمير عن بني آدم: من ضمير الغائبين في ﴿ مِنۡهُمۡ ﴾ إلى ضمير المخاطبين في ﴿ جَزَآؤُكُمۡ ﴾ إيذانٌ بأن من اتبع إبليس فإنَّه يفقد إنسانيته، ويتحول إلى شيطان مريد مع الشياطين، حتى ولو كان نسبه شريفاً وهو ابن أبيه آدم في النسب، لكنه ليس منه في الأفعال والصفات، وفيه أيضاً أن جهنم موفورة غير منقوصة لهم، فعذابهم والعياذ بالله كامل مُعدٌّ لهم مدّخر موفور، جزاءً على أعمالهم[٢].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤]:

يواصل النص القرآني في هذه الآية مدَّ الحبل لهذا الشَّيطان، فيما ظاهره

(١) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٧.
(٢) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١٠٩.

إرخاء عنان وإخلاء ميدان، وهو في الحقيقة تدمير بنيان، وهذا هو المكر الحقيقي[١].

١ ـ ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾:

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أي: واستخِفَّ واستنفر بدعوتك إلى معصية الله سبحانه وتعالى بكل ما أُوتيت من قوة وإغراء ووسوسة[٢]، ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ من تقدر على استفزازه وخداعه فافعل[٣].

﴿بِصَوۡتِكَ﴾ أي بوسوستك وإيحاءاتك الشَّيطانية، وصوت كل من يعاونك من شياطين الإنس من أصحاب النظريات الباطلة الفاسدة، والأفكار الهدّامة، والمذاهب الضالة الشاردة عن الحق وكل دعاة الشر، وأصوات المجون ونحوها، كل هذا داخل ﴿بِصَوۡتِكَ﴾[٤]، وصوت الشَّيطان هو كل الأصوات والعبارات المحرّمة التي تنتشر في حياة الناس، بهدف التأثير فيهم، ودعوتهم إلى التخلّي عن منهاج الله وارتكاب ما نهى الله عنه، وما أكثر هذه الأصوات الشَّيطانية الصاخبة المجلجلة في هذا الزمان[٥].

وفي قوله ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ ما يدلُّ على مدى ما يبذله إبليس من استفزاز بني آدم، وإزعاجهم إلى المعاصي، وهو يدلُّ على أن أصل فطرة بني آدم عدم التحرك في المعصية حتى يُؤَزّوا إليها أزّاً، ويُدفعوا إليها بالوسوسة دفعاً، فمغبون من كان عنده عون فطري جُبل عليه من ربه سبحانه، الذي فطره على الحنيفية، ثم يقبل تحريك الشَّيطان ودفعه واستفزازه؛ فإنَّه ليس عليه في دفع الوسوسة إلا كف

---

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٨.
(٢) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد الياسين، مصدر سابق، ص٤٨٤.
(٣) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٤٨٤.
(٤) المرجع نفسه، ص٣٥٨.
(٥) القصص القرآني، الخالدي، مصدر سابق ١/ ١١٨.

نفسه عن الشر، وما أيسر ذلك على من يَسَّره الله عليه، ومع ذلك فأكثر الخلق استفزتهم الشياطين واجتالتهم عن دينهم[١].

إن لإبليس أصوات عالية يطلقها ويرفعها ليؤثر بها في جنوده ويستفزهم ويصرعهم ويهلكهم، وهم ينفعلون مع تلك الأصوات الشَّيطانية ويخضعون لتأثيرها واستفزازها، وأصوات الشَّيطان تملأ العالم في هذا الزمان، وتسحر الذين يستمعون لها ويتفاعلون معها[٢].

فكل داعٍ إلى معصية الله هو صوت إبليس، فكل غناء محرم بسبب الكلام الذي يتضمَّنه من الترغيب في الشهوات المحرمة، خاصة فيما يتعلَّق بعشق النساء أو الحث على الجاهلية، كالعصبية المذمومة والترغيب في سفك الدماء والانتقام بالباطل، وأذية الخلق، أو الغيبة والهجاء المحرم، وكذا المبالغة في مدح الكبار والرؤساء ووصفهم بما لا يجوز، أو بسبب تضمن الكفر ـ وهو أشده ـ كالاعتراض على أقدار الله وسبها والعياذ بالله، والاعتراض على الله في حكمته في خلق العالم، وأنه لا يدري لماذا أتى الناس إلى العالم ونحو ذلك من الضلالات. أو ما يتعلَّق بالأداء: كأن تؤديه امرأة بالغة متبرجة كشفت زينتها بل شبه عارية والعياذ بالله ترقص يميناً وشمالاً في حركات مثيرة شيطانية، فلا يشك عاقل مسلم ـ فضلاً عن عالم ـ في تحريم ذلك إجماعاً قطعيّاً، لا خلاف فيه البتة[٣].

ومن صوت الشَّيطان كل متكلم بالمعصية، وداعٍ إلى الكفر أو البدعة المضللة أو الفسوق أو العصيان، وكل مغتاب ونمام وكذّاب ومستهزئ بالهمز واللمز، وكل آمر بالمنكر وناهٍ عن المعروف، وكل منافق يستعمل حجج الله بلسانه لصد عباده عن سبيله، وكل سباب ولعان وقاذف للمحصنات، وكل

---

(١) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١٠٩.
(٢) سيرة آدم، الخالدي، مصدر سابق، ص٩٨.
(٣) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١١٠.

فاحش بذيء طعان في أعراض المسلمين والمسلمات، وكل داع إلى الفجور والفساد[١].

فالصوت الشَّيطاني كل صوت في غير طاعة الله، وقد نُسب إلى الشَّيطان لأمره به ورضاه به[٢].

وصوت إبليس يستفز النفوس ويزعجها ويُهيِّجها، بالنواح عند المصيبة ودَفْعِها إلى الحزن والأسى والسخط بما قضى الله[٣]، فكم من نصيب للشيطان في حياة الناس والعياذ بالله[٤].

٢ ـ ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾:

ـ ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾ الجلبة: الصوت والضجة[٥]، أي وصِحْ عليهم بجلبة وصياح كما يُدعى الجيش للقتال، فأعِدَّ عدّتَك وأجلِبْ من يكونون في جلبة لك، ﴿ بِخَيْلِكَ ﴾ بالذين يناصرونك من خيالة ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ اسم جامع لراجل.

وفي الكلام تشبيه وهو تشبيه حال الشَّيطان في دعوته الغاوية الضالة والمستعد للشر والإغواء بحال جيش من الأشرار يستفز الأنصار والأتباع ويكون جلبة من خيالة وراجلين، فهذه تشبه حال جيش فساد مستعد للإغارة على الخير[٦].

وفي الآيات الكريمة: تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول، فهي المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات

---

(١) قصة آدم، ياسر برهامي، المرجع نفسه، ص١١١.
(٢) بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، ٣/ ٩٠.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٩٠.
(٤) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١١١.
(٥) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٨.
(٦) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٨/ ٤٤١٧.

والخيل والرجل، على طريقة المعارك والمبارزات، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبَّرة، فإذا استُدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال(١). وللشيطان قوات خاصة يستعين بها على أتباعه المخدَّرين، بعض هذه القوات فرسان يركبون الخيل، وبعضها «مشاة» راجلون يمشون على أرجلهم وأقدامهم(٢).

ـ وفي قوله ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾:

ـ بيان لخيل الشَّيطان: وهم كل راكب في معصية الله ممن خرج من بيته مفاخرة ومباهاة وتكبراً على الخلق ومناوأة لأهل الإسلام، وكل من يذهب راكباً إلى أماكن المعاصي والفساد، كأماكن اللهو المحرم من ملاهٍ وحانات خمر وأماكن رقص تُكشف فيه العورات مع الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء وانتهاك الحرمات، وكذلك إلى أماكن الظلم والعدوان وأذية الناس في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وكمن يركب لقطع الطريق على الناس: الحسّي والمعنوي بالصدّ عن سبيل الله(٣).

ـ وأما رَجِلُ الشَّيطان: فكل ماشٍ في معصية الله، كمن يمشون في الطرقات للنظر إلى العورات، ومعاكسة الفتيات، والتقاط الساقطات، وهو يشمل من مشى إلى أماكن المعصية التي ذكرنا أمثلة لها في الركوب(٤).

٣ ـ ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾:

ـ قال الشنقيطي: اعلم أن الله قد بيَّن في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٢٣٩.
(٢) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص٩٩.
(٣) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص١١١.
(٤) المرجع نفسه، ص١١١.

الآية من مشاركة الشَّيطان لهم في الأموال والأولاد.

ـ كقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعة للشيطان، ومشاركة منه لهم في أولادهم، حيث قتلوهم في طاعته، وكذلك تحريم بعض ما رزقهم الله المذكور في الآية طاعة له ومشاركة منه لهم في أموالهم أيضاً.

وكقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وكقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩] إلى غير ذلك من الآيات[١].

ـ وقال السعدي: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفّارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقّها أو وضعها بغير حقّها، أو استعمال المكاسب الرديّة، بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشَّيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يُسمِّ الله في ذلك شارك فيه الشَّيطان[٢].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٣/ ١٧٠.
(٢) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٩٢٩.

وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «**أَمَا لو أنَّ أحدَهم يقولُ حين يأتي أهلَه باسم الله، اللهمَّ جَنِّبْني الشَّيطانَ وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزقتَنا، فإنَّه إنْ يُقدّر بينَهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّه شيطانٌ أبداً**» (١).

وعن جابر بن عبد الله أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا دخلَ الرَّجلُ بيتَه فذكرَ اللهَ عندَ دخولِه وعند طعامِه، قالَ الشَّيطانُ: لا مبيتَ لكم ولا عشاءَ، وإذا دخلَ ولم يذكرِ اللهَ عندَ دخولِه، قالَ الشَّيطانُ: أدركتُم المبيتَ، وإذا لم يذكرِ اللهَ عندَ طعامِه قالَ: أدركتُم العشاءَ**» (٢)، فكلُّ الليل يقضونه في المشاكل والصراعات، وقال محمد متولي الشعراوي: يزين لهم المال الحرام، فيكتسبوا من الحرام وينفقوا في الحرام، ويزين لهم «الأولاد» والمفروض في الأولاد طهارة الأنساب، فدور الشَّيطان أن يفسد على الناس أنسابهم ويزين لهم الزنى، فيأتون بأولاد من الحرام، أو يزين لهم تهويد الأولاد أو تنصيرهم، أو يغريهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره، هذا من مشاركة الشَّيطان في الأولاد(٣).

وقال الدكتور صلاح الخالدي: إن إبليس يشارك أتباعه في أموالهم ويشاركهم في أولادهم، ومشاركة أتباعه في أموالهم عندما يدعوهم إلى جمعها من الحرام، كالربا والسرقة والرشوة والنهب، والمتاجرة بالمخدرات والأعراض، ويدعوهم إلى إنفاقها في الحرام وتضييعها بالتبذير والإسراف.

وما أكثر الأموال العامة والخاصة في هذا الزمان التي يُشارِك فيها الشَّيطانُ أصحابَها، وما أكثر الشركات الشَّيطانية الاقتصادية والتجارية في الغرب

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٤٣٤.
(٢) صحيح مسلم، انظر: تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٩٩.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٨.

والشرق، التي قامت على أساس الشراكة مع الشَّيطان.

وكما يشارك الشَّيطان أتباعه في أموالهم، كذلك يشاركهم في عائلاتهم فيشارك الرجلَ امرأتَه، عندما تكون حياتهم الجنسية والعائلية قائمة على إغضاب الله وإرضاء الشَّيطان، وعندما ينشأ أولادهم في البيت نشأة شيطانية وفق وساوس الشَّيطان وتوجيهاته، فينبتون نباتاً شيطانيّاً، وينمون نموّاً شيطانيّاً، ويكونون في شبابهم وجهودهم وطاقاتهم حصاداً شيطانيّاً[١].

وقال أبو زهرة: ومعنى هذه المشاركة في الأموال أنه يشاركهم في إثمها والعذاب عليها لا أنه يشاركهم فيها بالأخذ، إنه لا يريد منهم إلا الإغواء فهو يُغويهم، ويشاركهم في كل مآثم الإغواء[٢].

والأمر في ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ ﴾ و﴿ وَأَجۡلِبۡ ﴾ و﴿ وَشَارِكۡهُمۡ ﴾ للتهديد لا أمر طاعة، كقوله تعالى: ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ [المرسلات: ٤٦] والمعنى: شاركهم في الإثم، لا في المال[٣].

٤ ـ ﴿ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾:

ـ ﴿ وَعِدۡهُمۡۚ ﴾: ولعل هذا من أخطر أساليب ووسائل ومناهج الشَّيطان[٤]، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشَّيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطَّف إلى تلك النفوس المتحرِّجة، ويزين لها الخطيئة، وهو يُلوِّح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة، وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية المخادعة

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص١٠٠.
(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٨/ ٤٤١٧.
(٣) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص٤٩.
(٤) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٩.

كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة[١].

ـ ﴿ وَعِدْهُمْۚ ﴾: الوعود المزخرفة التي لا حقيقة لها[٢]، ومنّيهم بأمانيك الكاذبة كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] [٣].

ـ ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾: حصر وقصر أن وعود الشَّيطان ليست شيئاً إلا الوهم والغرور والخداع والكذب، وهو قد اعترف بها كما سجلته سورة إبراهيم في خطابه إلى أتباعه في الآخرة عندما قال لهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] [٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾: أي لا يستطيع أن يغرَّ بوعوده إلا صاحب الغرّة، ومنها الغرور: أي يُزيّن لك الباطل في صورة الحق فيقولون: غرَّهُ. وأنت لا تستطيع أبداً أن تصوّر للإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره، وعلى غفلة من عقله، لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠].

ـ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ـ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٢٣٩.
(٢) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٩٢٩.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٨.
(٤) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٥٩.

ـ وينادينا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الطلاق: ١٠].

وهذا كله دليل على أهمية العقل وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً، فما معنى أن يطلب الله منّا ذلك؟ ولماذا يوقظ فينا ملكة التفكير والتدبُّر في كل شيء؟ لا شك في أن الذي يوقظ فيك آلة الفكر والنقد المتميز، ويدعوك إلى النظر والتدبُّر، هو الثقة بحسن بضاعته، ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكر والتدبُّر.

وهكذا الشَّيطان لا يُمنيك ولا يُزيّن لك إلا إذا صادف منك غفلة، إنما لو كنت متيقِّظاً له ومتعصِّباً للعقل، وعارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً، ومن حيله أن يزين الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم: إنها فرصة للمتعة فانتهزها وخذ حظك منها فلن تعيش مرتين، وإياك أن تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء. وهذه وساوس لا يُصدقها إلا من لديه استعداد للعصيان وينتظر الإشارة مجرد الإشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة، فإذا كان يوم القيامة تبرأ إبليس من هؤلاء الحمقى[1].

إذن: في الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس: اذهب، واستفزز، وأجلب، وشاركهم، وعدهم، وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف في وجه الدعوة، أو صدّ الناس عنها، وكأن الحق سبحانه يقول له: افعل ما تريد ودبِّر ما تشاء فلن تُوقف دعوة الله[2].

ولما أخبر الله عما يريد الشَّيطان أن يفعل بالعباد ذكر ما يُعتصمُ به من فتنه، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل عليه[3]، فقال:

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ١٤/ ٨٦٧٠.
(٣) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٩٣٠.

خامساً: قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]:

تكرر مثل هذا النص في القرآن عدة مرّات، وهنا كذلك، فالشَّيطان في الآية السابقة كان يتهدَّد ويتوعَّد، وهنا في الآية طمأنة للمؤمنين من ناحية وإحباط للشياطين من ناحية أخرى، إن المعتصم بالله لن تتمكنوا منه، وإنما تمكُّنُكم من الأجوف الفارغ غير المتدرِّع بدرع الإيمان[١].

١ ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾:

المقصود بعبادي في: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾: عبودية الاختيار وعبودية الاجتباء[٢]، فهؤلاء لهم شرف الانتساب إلى الله تشريفاً وتكريماً، لأنهم قاوموا غرور الشَّيطان وخداعه وإغواءه، فكانوا جديرين بأن يخصهم الله بأنهم عباده، وإن كان الجميع عباداً لأنه خلقهم، فالطائع والعاصي عباد لله، ولكن الاختصاص هنا للطائعين[٣]، الذين اتصلت قلوبهم بالله، واتجهوا إليه بالعبادة، وارتبطوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وأشرقت وأنارت أرواحهم بعبادة الله حق العبادة[٤].

ـ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾: وسلطان: بمعنى تأثير ونفوذ وقوة وإرادة وإملاء[٥]، أي ليس لك عليهم تسلُّط لأنك لا تقدر على إغوائهم أو إغرائهم، فهم محفوظون محروسون من الشَّيطان الرجيم، بكنف الله سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٦١.
(٢) المرجع نفسه ص٣٦١.
(٣) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٨/ ٤٤١٨.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٢٣٩.
(٥) تفسير سورة الإسراء، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٣٦١.

وحمايته، متحصنون بحصن الله عزَّ وجلَّ ونور العلم والإيمان والذكر، والقرآن وطاعة الرحمن(١).

وتحصنوا بالعزيمة والإرادة والعزم القوي والاتِّعاظ بعظات الله تعالى والاهتداء بهدي رسله(٢).

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠].

٢ ـ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: وهذا جوهر الدين وروحه، أي كفى بالله حافظاً ومعيناً ومؤيِّداً ونصيراً وكافلاً ومُجيراً، فتوكلوا على ربكم يحميكم ويحفظكم من وساوس الشَّيطان ونفثه وشبهاته وإغوائه وإغراءاته(٣).

ـ قال الآلوسي في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾؛ يتوكلون عليه جل وعلا ويستمدون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك، فيحميهم سبحانه منه، والخطاب في هذه الجملة قيل للشيطان كما في الجملة السابقة، ففي التعرض لوصف الربوبية المُنبِئة عن المالكية المطلقة، والتصرف الكلي مع الإضافة إلى ضميره، إشعار بكيفية كفايته تعالى لهم وحمايته إياهم منه، أعني سلب قدرته على إغوائه، وقيل للنبي عليه الصلاة والسلام أو للإنسان، كأنه لما بيَّن سبحانه من حال الشَّيطان ما بيَّن صار ذلك لحصول الخوف في القلوب فقال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أيها النبي وأيها الإنسان وكيلاً فهو جلَّ جلالُه يدفع كيد الشَّيطان ويحفظ منه، والقلب يميل إلى عدم كونه خطاباً للشيطان، واستُدل بالآية على أن المعصوم مَن عصمَه الله تعالى، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع

---

(١) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٣/ ٦١.
(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٨/ ٤٤١٨.
(٣) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد الياسين، مصدر سابق، ص٤٨٥.

الضلال وإلا لقيل وكفى بالإنسان وكيلاً لنفسه[١].

ـ وقال محمد متولي الشعراوي: الوكيل هو المؤيِّد وهو الناصر، وتقول: وكلت فلاناً، أي: وَثِقتُ به ليؤدِّيَ لي كلَّ ما أريد، فإن كان من البشر من تثق به، وتأتمنه على مصالحك، فما بالك إن كان وكيلك هو الله عز وجل؟ لا شك في أن كان وكيلك الله فهو كافيك ومؤيدك وناصرك فلا يُحوجك لغيره سبحانه[٢].

ـ من أسماء الله الحسنى الوكيل:

ورد اسم الوكيل في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

واسمه الوكيل يأتي بمعنى الوكيل العام على جميع خلقه، وذلك لأنه خالقهم ومدبر أمرهم والمتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم ومُحييهم ومُميتهم، وذلك كما قال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

يقول الطبري ـ رحمه الله ـ عند هذه الآية: والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته[٣].

ويقول السعدي ـ رحمه الله ـ عند قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

---

(١) روح المعاني، الآلوسي، مصدر سابق، ١٥/ ١٤٥.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٦٧١.
(٣) تفسير الطبري، مصدر سابق، ٧/ ٢٩٩.

فإخباره بأنه على كل شيء وكيل يدلُّ على إحاطة علمه بجميع الأشياء وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء في مواضعها[١].

ويقول في موطن آخر «الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه فيسَّرهم لليُسرى وجنَّبهم العسرى وكفاهم الأمور[٢].

وأما المعنى الخاص «للوكيل»، فهو ما ذكره الشيخ السعدي سابقاً بقوله: الذي تولى أولياءه فيسَّرهم لليُسرى، وجنَّبهم العسرى وكفاهم الأمور[٣].

ـ وهو المراد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

ـ وقوله سبحانه: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهذه الوكالة خاصة بالمؤمنين حيث إن فيها معنى زائداً على المعنى العام الذي سبق ذكره، وهو الرعاية الخاصة بأوليائه وإعانته ونصرته لهم[٤].

والوكيل المطلق هو الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] بيده حياتك ورزقك، ومَن فوقك ومَن تحتك، وبيده أقرب الناس إليك، وأبعد الناس عنك، والذي يُحِبُّك والذي لا يُحِبُّك بيده، دقائق جسمك وأجهزتك بيده، فالله على

---

(١) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥. ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٤٧٧.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٤٧٧.
(٣) المرجع نفسه، ص٤٧٧ نقلاً عن تفسير السعدي.
(٤) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز عبد الجليل، ص٤٧٨.

كل شيء وكيل، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله، وليس من بني البشر مَن هو وكيل لك في كل أمورك، ولكن الله وكيل لك في كل الأمور، ووكيل لك في كل الظروف، وفي كل حياتك[١].

فالله عزَّ وجلَّ هو الوكيل الحق الذي يُغنينا ويُرضينا ويَكفينا، وعندما نتعامل مع هذا الاسم تعاملاً حقيقياً لا نكتفي بمعنى الوكيل وتعريفه، فالقضية أكبر من ذلك، المهم أن نكل إليه أمرنا، ولا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدق بالغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويتولّى الله أمره[٢].

فأحياناً يَكِلُ الإنسان إلى الله أمر أولاده وهو على فراش الموت، أو يكل إلى الله أمر بناته أو صحته، وقد أعجز العلاج وكاد يَيئس، وقد يتألم ويقول: يا رب توكلت عليك وفوّضت أمري إليك، أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم، هذا الحال إذا توكلت على الله حقيقة ـ والله ـ سترى العجب العُجاب، وسوف ترى أنك أقوى الناس.

ولذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتقِ الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك، فالذي يتوكل على الله هو أقوى الناس، والدعاء سلاح المؤمن، وكلنا ضعفاء، ولكنّك قويٌّ بالله وغني بالله وكريم بالله، فأنت كريم بطاعة الله، وغنيٌّ بالاعتماد على الله، وقويٌّ بتوكُّلك على الله، ولذلك ما توكل على الله أحد وخيَّب ظنَّه، وما توكل على الله أحد إلا كفاه وأرضاه وأكرمه[٣].

---

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد النابلسي، مصدر سابق، ٢/ ٩٠٧.
(٢) المرجع نفسه، ٢/ ٩٠٨.
(٣) موسوعة أسماء الله الحسنى، النابلسي، ٢/ ٩٠٩.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾» [(١)].

فالوكيل سبحانه حي لا يموت، عزيز لا يُغلب، رحيم يرعى مصالح عباده ويسوق الخير إليهم بعلم وحكمة، أما مَن سواه فإنَّه يموت ويُغلب، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً فضلاً عن أن يملكه لغيره، وحقيقة التوكل تكون في غاية الاعتماد على الله تعالى مع غاية الثقة في كفايته وقدرته[(٢)].

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «والاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته ـ لحاجته إليه، ولعدم مَن يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

والتوكل: معنى يلتئم من أصلين: من الثقة والاعتماد وهو حقيقة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهذان الأصلان ـ وهما التوكل والعبادة ـ قد ذُكرا في القرآن في عدة مواضع وقُرن بينهما، وهذا أحدهما[(٣)]. وصِدْقُ التوكل على الله تعالى من علامات الإيمان الحق، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] [(٤)].

وتأمل معي قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

---

(١) البخاري رقم: ٤٥٦٣.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٤٧٩.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم، مصدر سابق، ١/ ٧٥.
(٤) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص٤٨٠.

لا يمكن أن يتفلَّت شيءٌ من قبضة الله، فقد تجد إنساناً مُتفلِّتاً ومخيفاً ويثير الرعب بين الناس، ولكنه في قبضة الله، وهذا هو الإيمان الصحيح، ، الوحوش الفتاكة والأشخاص العتاة والشريرون ـ أتباع إبليس ـ هؤلاء كلهم بيد الله عزَّ وجلَّ، لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلون إلا بمشيئته وأمره.

ـ قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

الله جلَّ جلالُه يطلب منا أن نتخذه وكيلاً، فهو رب المشرق والمغرب:

ـ قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] (١).

ومن أسباب التوكل أن تكون على الحق المبين ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] (٢).

وعندما نترجم هذه الحقائق إلى مشاعر وتصرفات وإلى مواقف تتمُّ الاستفادة الحقيقية من دروس أسماء الله الحسنى التي أساسها الطاعة والاستسلام لله عز وجل(٣).

وعندما يعيش الإنسان مع هذا الاسم العظيم ويُحقِّق معاني عبوديته لله عزَّ وجلَّ يتشتت جمع إبليس وتهزم كتائبه الخاصة والعامة بإذن الله، فلا يتأثر بزينته ولا إغوائه وإغرائه، ولا وسوسته، ولا استفزازه ولا جلبته، وسبحان الله عزَّ وجلَّ القائل: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

فتكون مع الله، قريباً منه متوكلاً عليه، فهو على كل شيء وكيل، فسوف ترى أن الله كفاك وأغناك وأرضاك وحفظك من إبليس وجنده برحمته وفضله ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]،

---

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، النابلسي، مصدر سابق، ٢/ ٩١١.
(٢) المرجع نفسه، ٢/ ٩١٢.
(٣) المرجع نفسه، ٢/ ٩١٤.

والتوكل على الله عبادة وتوحيد، ونهى سبحانه عن التوكل على غيره، ولا يصرف التوكل إلا لله عز وجل[1]، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

❊ ❊ ❊

(١) مع الله، سلمان العودة، مصدر سابق، ص٢٠٢.



المبحث الخامس

قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥٠ ـ ٥١].

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]:

قد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها؟

آيات القرآن الكريم مترابطة والدليل أنه: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، فالآيات التي قبلها فيها:

ـ **الحشر**: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ـ **والعرض**: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

ـ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ بعد أن ذكر الله عزَّ وجلَّ الموقف العصيب الذليل

المخيف الذي يقفه العُصاة يوم القيامة، حينما يفتح الكتاب لينطق بكل أعمالهم صغيرها وكبيرها: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ذكر الله عزَّ وجلَّ بني آدم كيف أخذ عليهم العهد ألا يعصوه وألا يستجيبوا للشيطان(١). وذكر الله أصل مسيرة الإنسان منذ قصة أبيه آدم الأولى مع الملائكة وإبليس(٢).

لقد انتقلت الآيات من مشاهد القيامة، حيث يرى الناس أعمالهم وينالون جزاءهم، إما في الجنَّة وإما في النار، إلى مشهد مُوغل في القدم يوم خلق الله أبا هؤلاء البشر وأسجد له ملائكته، فبيَّن الله عزَّ وجلَّ مبدأ العداوة بين إبليس وذريته.

والمتأمل لهذه النقلة تظهر له نكتة بديعة، فما كان من صاحب الجنتين، وما كان من كفار قريش المتكبرين من طلب طرد فقراء المؤمنين، وما كان من كل المجرمين المكذبين مما نتج عنه تلك الوقفة الذليلة يوم عرض الكتب، كل هذا يبدو استجابة لعدو آدم وذريته إبليس، فجاءت الآيات لتوقظ الغافلين عن هذه الحقيقة، ولتُذكِّرهم بأصل العداوة، ولتُبصِّرهم بالولي الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يتولَّوه وهو الله جل وعلا، وتنعى عليهم استبدال هذه الولاية الحقة بولاية أشد الخلق عداوة لهم، وتلك لعمر الله لَخِفَّة عقل وغباوة منقطعة النظير.

ونكتة أخرى، وهي المشابهة بين تكبُّر المشركين وصاحب الجنتين وتكبُّر إبليس، إذ أبى أن يسجد لآدم لما يراه لنفسه من فضل وشرف الأصل وهو النار، ولم يسجد لآدم لأنه من طين، وكذلك أولئك الذين رأوا لأنفسهم فضلاً لشرف

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٤.
(٢) التفسير التوحيدي، حسن الترابي، مصدر سابق، ٢/ ٦١١.

الأصل ولكثرة المال والولد وغير ذلك من المتاع فشابهوه في الفعل، فناسب أن يُذكِّرهم بما حصل في مبدأ الخلق[١].

قال البقاعي: ولما ذكر البعث وختمه بإحسانه بالعدل المثمر لإعطاء كل أحد ما يستحقه، أتبعه ـ بما له من الفضل ـ بابتداء الخلق الذي هو دليله في سياق مُذكِّرٍ بولايته الموجبة للإقبال عليه، وعداوة الشَّيطان الموجبة للإدبار عنه، مُبيِّن لما قبلوا به عدله فيهم وفي عدوهم من الظلم بفعلهم كما فعل من التكبر على آدم عليه السلام بأصله، فتكبروا على فقراء المؤمنين بأصلهم وأموالهم وعشائرهم، فكان فعلُهم فعله سواء، فكان قدوتهم وهو عدوهم[٢].

إن فتنة الشَّيطان للإنسان أعظم الفتن، وبلاء الإنسان به أشد بلاء، لأن الشَّيطان رأس الشر، ومنبع الكفر، وهو أكبر عدوّ للإنسان، ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثر ما حذّرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصّة أبينا آدم مع الشَّيطان في عِدّة سور من القرآن الكريم، وفي سورة الكهف حذّرنا الله منه بعد أن يبين حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأن الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد من أعظم الوسائل التي يتمكن الشَّيطان بها من فتنة الإنسان[٣].

١ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ :

وقد تكرر ذكر هذه القصة في مواضع من الكتاب الكريم، وهي في كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له في مواضع أخرى على اختلاف أساليبها وعباراتها، ولا عجب فهي من العليم الخبير[٤].

---

(١) إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص٤٣٥.
(٢) نظم الدرر، البقاعي، مصدر سابق، ٥/ ١٥٢ بتصرف مع اختصار.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٦٩.
(٤) تفسير المراغي، مصدر سابق، ٥/ ١٦١٩.

قال الطاهر بن عاشور: وهذ القصة تكررت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع ذُكرت فيه عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة ـ مثلاً ـ إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقس على ذلك[١].

وقال الدكتور فضل حسن عباس عن الجديد في قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف:

ـ أن إبليس من الجِنِّ، وهي الآية الأولى التي يُصرَّح فيها بذلك.

ـ أنه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.

ـ أنه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله مع عداوته لهم.

هذه الآية الكريمة، وما فيها من قضايا جديدة، كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكِّي[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾: أي «واذكر يا محمد» لهم به إذ «قلنا» بما لنا من العظمة[٣].

أ ـ ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي لجميع الملائكة، والملائكة خُلقت من النور، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلقَت الملائكةُ مِن نورٍ، وخُلقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكم**»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، ١٥/ ٣٤٠.

(٢) قصص القرآن، فضل حسن عباس، مصدر سابق، ص١١٥. والعهد المكِّي يعني ما نزل من القرآن الكريم في مكة المكرمة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة.

(٣) نظم الدرر، البقاعي، مصدر سابق، ٧/ ٤٧٥.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٤ـ ٢٩٩٦.

وخلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان ومن له ثلاثة، ومن له أربعة، ومن له أكثر، وهم ذوات محسوسة وليسوا أموراً معنوية، ولا قوى خفية، يسكنون السماء، وهم جند من جنود الله، قادرون على التشكل بأشكال جسمانية، حسبما يأذن الله، وهم مقرَّبون من الله، ومكرّمون لا يُوصفون بالذكورة والأنوثة، ولا يتناسلون ولا يأكلون ولا يشربون، طعامهم من التسبيح والتهليل، ولا يَملُّون ولا يتعبون، ويتصفون بالحسن والجمال والحياء والنظام.

ويختلفون عن البشر بأنهم جُبِلوا على الطاعة، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره، يسبحون الله ليلاً ونهاراً، ويطوفون بالبيت المعمور في السماء ويخشون الله تعالى، وهم أصناف كثيرة موكلة بأعمال مختلفة، ولا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، قد حجبهم عنّا، فلا نراهم في صورهم، ولكن كشفهم لبعض عباده كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته الملائكية مرتين[1].

ب ـ ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾:

قال الشنقيطي: قدمنا في سورة البقرة أن قوله تعالى: ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] محتمل لأن يكون أمرهم بذلك قبل وجود آدم أمراً مُعلَّقاً على وجوده، ومُحتمِل لأنه أمرهم بذلك تنجيزاً بعد وجود آدم، وأنه ـ جلّ وعلا ـ بيَّن في سورة «الحجر» وسورة «ص» أن أصل الأمر بالسُّجود متقدم على خلق آدم معلّق عليه.

ـ قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

وقال تعالى في سورة ص: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢].

---

(١) إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص٤٣٦.

ولا يُنافي هذا أنه بعد وجود آدم جدّد لهم الأمر بالسُّجود تنجيزاً، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ مُحتمِل لأن يكونوا سجدوا كلهم أو بعضهم، ولكنه بيَّن في مواضع أخرى أنهم سجدوا كلهم كقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] ونحوها من الآيات[١].

وآدم عليه السلام أبو البشر، خلقه الله من طين بيده تشريفاً، ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته، وخلق معه زوجه، وهو نبي، سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدمُ؟ قال: «**نعم مُعلَّمٌ مُكلَّمٌ**»[٢].

٢ ـ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾:

أما الملائكة، فاستجابوا كلهم لأمر الله عزَّ وجلَّ وسجدوا في الحال بلا تردد، لأن طاعة ربهم جل وعلا من صفاتهم التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠] و[ص: ٧٣].

وأما إبليس فأبى السُّجود، استكباراً وعناداً وحسداً وكفراً.

قال ابن كثير: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾: خانه أصله، فإنَّه خُلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع، وذلك أنه كان قد توسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبَّد وتنسَّك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة[٣].

قال القرطبي: وإبليس وزنه إفعيل، من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة، ولا نظير له، فشُبِّه بالأعجمية، قاله أبو عبيدة. وقيل: أعجمي فلم ينصرف للعجمة والتعريف، قاله الزجاج[٤].

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٣/ ٢٩٠.
(٢) إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص٤٣٦.
(٣) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٥/ ١٦٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرطبي، مصدر سابق، ١/ ٢٩٥ بتصرف واختصار.



وقال ابن عثيمين: قوله هنا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ اختلف العلماء في هذا الاستثناء؟ هل هو استثناء متصل أم هو استثناء منقطع؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل، لأنه الأصل في الاستثناء، أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، واستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ويقول النبي ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[١].

وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه: كيف يكون إبليس من غير الملائكة، ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

والجواب عن هذا؛ نقول: صحّ أن يتوجه إليه الخطاب لأنه كان في عامتهم، أي أنه كان معهم يعمل بعملهم ويتعبد كما يتعبدون، لكن الأغلب عليه الطبع الخبيث، فلما أُمر بالسُّجود رأى أنه فوق مرتبة آدم، فاستنكر أمر الله عزَّ وجلَّ، وبهذا يزول الإشكال[٢].

وقال الرازي: وأصل ما يدلُّ على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب ألاَّ يكون إبليس من الملائكة[٣].

وقد نقلت كثير من كتب التفسير والتاريخ جملة من أقوال العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة، وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا، وأنه كان من أشراف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، إلى آخر تلك الأقوال[٤].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٤.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، مصدر سابق، ص١٦٣. وانظر: التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، ٢٠/ ١٦٨.

(٣) تفسير الرازي، مصدر سابق، ٢١/ ١٣٧.

(٤) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، ٢٠/ ١٦٩.

وقال ابن كثير: وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد قُطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المُبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء، والأبرار النجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دوَّنوا الحديث وحرَّروه وبيَّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل وسيد البشر، عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن يَنسُبَ إليه كذَّابٌ، أو يُحدّث عنه ما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل(١).

وقد سبق الحديث عن الجن في سورة الحجر من قصة آدم عليه السلام ومن أراد التوسع فليراجع كتاب (عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة) للدكتور عبد الكريم نوفان عبيدات، وهي رسالة ماجستير مطبوعة ذكر فيها الكاتب: المراد بالجن وصفاتهم وأصنافهم وطريق العلم بوجودهم، وتكليفهم وعلاقتهم بالإنسان، وإبليس والحكمة من خلقه، والجنس الذي هو منه، وأنه سبب الفساد في الأرض... إلخ.

٣ ـ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾:

قال ابن جرير: فخرج عن أمر ربِّه وعدل عنه ومال(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٦٩.
(٢) تفسير الطبري، مصدر سابق، ١٨/ ٤٢ ـ ٤٣ بتصرف واختصار.

والفسق: الخروج، يُقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها، وفسقت الفأرة: إذا خرجت من جُحرها[١].

﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ أي سيده ومالكه المُحسِن إليه بإبداعه وغير ذلك من اصطناعه في شأن أبيكم، إذ تكبر عليه فطرده ربه من أجلكم، لأنه زاد في الافتخار والتكبر على الضعفاء، فإن من كانت خطيئته في كبر لم يكن صلاحه مرجوّاً، ومن كانت خطيئته في معصية كان صلاحه مرجوّاً[٢].

والفسق أكبر وأصغر، فالأكبر كفر، والأصغر من جنس المعاصي، والمراد هنا هو الأكبر أي الكفر[٣].

٤ ـ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾:

ـ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ والاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ مع التعجب من حال أولئك الذين يُوالون الشَّيطان، ويتابعونه، ويُفتنون به[٤].

أي: أتتخذ الشَّيطان وليّاً لك من دون الله؟ والله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فالتفوق الأكبر في الأرض أن تكون وليّاً لله، وما من مرتبة على وجه الأرض أعظم عند الله من أن تكون وَلِيَّه، قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣][٥].

---

(١) التدبُّر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، ٢٠/ ١٦٦.
(٢) تفسير الدرر، البقاعي، مصدر سابق، ٧/ ٤٧٦.
(٣) إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص٤٣٨.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٧٠.
(٥) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٦.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أي: أيصح منكم يا بني آدم أن تتخذوا عدوّ أبيكم، وعدوّ ربكم، وعدوّكم أيضاً وليّاً توالونه وذريته بالطاعة لهم والاستجابة لما يطلبون منكم من أنواع الكفر والفسق(١).

وقال الشنقيطي: وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية، فادعاء أنه لا ذرية له مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى، وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك، ولكن طريقة وجود نسله هل هي عن تزويج أو غيره، لا دليل عليها من نص صريح، والعلماء مختلفون فيها.. فقد دلت الآية الكريمة على أن له ذرية، أما كيفية ولادة تلك الذرية، فلم يثبت فيها نقل صحيح ومثله لا يُعرف بالرأي(٢).

وقال محمد متولي الشعراوي: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: تدل على تناسل إبليس وأن له أولاداً وأنهم يتزاوجون ويمكن أن نقول: ذريته: كل من كان على طريقته في الضلال والإغواء، ولو كان من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] (٣).

والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد، ففي الآية دليل على أن للشيطان أولاداً، وهذا يؤكد أنه ليس من الملائكة، فالملائكة لا يتوالدون(٤).

وذرية إبليس من الجِنِّ توسوس للإنسان بالشر وبالشهوة وبالمعصية، فكيف تَدَعُون كتاب الله وصراطه المستقيم وتوجيهه الكريم ودستوره العظيم وتتَّجهون إلى وسوسة تُهلك صاحبها إلى الأبد؟(٥)

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، مصدر سابق، ١/ ١٠٠١.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٣/ ٢٩٢.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٩٣٥.
(٤) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٧٠.
(٥) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٦.

كيف تمنحونهم المودة وتعطونهم الثقة وتنتهون لأوضاعهم وتنفّذون خططهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال ما يوحون إليكم من أفكار وآراء ومشاعر: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ لأنهم يضمرون لكم المكر الذي يُؤدِّي بكم إلى خسارة الدنيا والآخرة من وجوه كثيرة[١].

إن إبليس وذريته قد محضوا العداوة محضاً، فإنهم لم يفكّروا ولن يفكّروا بأية مبادرة خير للإنسان كله في كلّ وسوساتهم وتهويلاتهم وتسويلاتهم من خلال الخطة الخبيثة في إضلال بني آدم عن الصراط المستقيم[٢].

وفي الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ الحث على اتخاذ الشَّيطان عدواً والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتَّخذ عدوه الحقيقي وليّاً وترك الوليَّ الحميد[٣].

وقد حذرنا الله تعالى في كتابه العزيز من تولي الشَّيطان وجنده واتباع خطواته[٤]، مثل الآية التي مر تفسيرها، ومن ذلك ما يأتي:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١].

---

(١) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مصدر سابق، ١١/ ٣٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ١١/ ٣٦٩.
(٣) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص٩٦٧.
(٤) التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة الكهف، العدوي، مصدر سابق، ص١٨٤.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، والآيات هنا كثيرة جدّاً[١].

٥ ـ ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾:

أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشَّيطان وذريته الذين لا يأمرونهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته[٢].

قال ابن جرير: يقول عزَّ ذكره: بئس البدل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله وهو لهم عدو، من تركهم اتخاذ الله ولياً باتباعهم أمره ونهيه وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم المتفضل عليهم من الفواضل ما لا يُحصَى بدلاً[٣].

وقال أبو حبان: قوله ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾: لأنهم اعتاضوا عن الحق بالباطل، وجعلوا مكانَ ولايتِهم إبليسَ وذريّتَه، وهذا الظلم نفسه، لأنه وضع الشيء في غير موضعه[٤]، وأي معاملة أكثر سوءاً من معاملة يستبدل فيها الشَّيطان وذريته بالله العزيز الحميد؟

وقد ورد في السنة النبوية نصوص صحيحة تبيِّن بعض وظائفه وأعوانه منها:

أ ـ عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشَّيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يُلَبِّسها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاكَ شيطانٌ يُقال له خِنزَبُ، فإذا أحسستَه فتعوَّذْ بالله منه، واتفُلْ**

---

(١) التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة الكهف، العدوي، المرجع نفسه، ص١٨٤.

(٢) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص٩٦٧.

(٣) تفسير الطبري، مصدر سابق، ١٥/ ٢٦٢.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مصدر سابق، ٦/ ١٢٩.

على يَسارِك ثلاثاً» ، قال : ففعلتُ ذلك فأذهبَه اللهُ عنِّي[١] .

خِنزَب : هو لقب له . والخنزب قطعة لحم منتنة ، ويروى بالكسر والضم[٢] .

ب ـ عن سلمان رضي الله عنه قال : لا تكونن ـ إن استطعت ـ أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها ، فإنها معركة للشيطان ، وبها ينصب رايته[٣] .

ج ـ عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «**إذا أصبح إبليسُ بثَّ جنودَه فيقول : مَن أضلَّ اليومَ مُسلماً ألبستُه التَّاجَ . قال : فيخرجُ هذا فيقول : لم أزل به حتى طلَّقَ امرأتَه . فيقول : أوشكَ أن يتزوَّجَ . ويَجيءُ هذا فيقول : لم أزل به حتى عقَّ والديه ، فيقول : أوشكَ أن يَبرَّهما . ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك ، فيقول : أنت أنت . ويجيء فيقول : لم أُزل به حتى زنى ، فيقول : أنت أنت . ويجيء هذا فيقول : لم أُزل به حتى قتل ، فيقول : أنت أنت ، ويُلبِسُه التَّاجَ**»[٤] .

د ـ وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ما تركته ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، قال : ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرَّقتُ بينَه وبينَ امرأته قال : فيدنيه منه ، ويقول : نِعمَ أنت**» ، قال الأعمش : أراه قال : فيلتزمه[٥] .

وفي قول إبليس : «نِعمَ أنت» : نعم بكسر النون وإسكان العين وهي «نِعْم» الموضوعة للمدح ، فيمدحه لإعجابه بصنعه وبلوغه الغاية التي أرادها[٦] .

---

(١) مسند أحمد : ٤/ ٢١٦ ، مسلم : ٤/ ١٧٢٨ ، ٢٢٠٣ .
(٢) التدبُّر والبيان ، المغراوي ، مصدر سابق ، ٢٠/ ١٧٢ .
(٣) صحيح مسلم : ٤/ ١٩٠٦ ، ٢٤٥١ .
(٤) الحاكم : ٤/ ٣٩٠ صححه ووافقه الذهبي .
(٥) صحيح مسلم : ٤/ ٢١٦٧ .
(٦) التدبُّر والبيان ، المغراوي ، ٢٠/ ١٧٢ .

ومن فوائد الأحاديث السابقة:

اشتملت هذه الأحاديث على بيان بعض وظائف الشَّيطان وأعماله الخبيثة مثل إضلال الناس، والتفريق بينهم، وإيقاعهم فيما يُغضب الله ويُسخِطه، وتضمَّنت بعض الأماكن التي ينصب فيها الشَّيطان ألويته وأعلامه كالأسواق، فهي مقرُّه ومجتمع أعوانه، ومطية إغوائه ومقام نزغه وكيده، كما تضمنت أن له جنوداً وأعواناً وسرايا يبعثهم لإغواء بني آدم، فأكثرهم قرباً منه أكثرهم فتنة وإغواء. كما دل حديث عثمان بن أبي العاص أن من أسماء بعض أعوانه: «خِنزب»، وهذا أصح ما ورد في اسمه[(١)]، وقد بين ابن عطية أنه قد ثبت عنده في صحيح مسلم أن للوسوسة شيطاناً يُقال له: خِنزب[(٢)].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١]:

يُبيِّن الله عزَّ وجلَّ في هذه الآيات أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده ولا شيء سواه، فالشَّيطان ما أسهم في خلق الإنسان حتى يكسب حق عبادة الناس له، وهؤلاء الذين اتَّخذتموهم أولياء من دون الله، وتتحركون بتوجيهاتهم، وبوساوسهم الشَّيطانية؛ هم أعداء لكم، وما كانوا حاضرين يوم خُلقت السماوات والأرض، أي: أن الله عزَّ وجلَّ لم يستعن بهم على خلق السماوات والأرض، بل كانوا غائبين، ونفي الاستعانة بهم في غيابهم أشدّ من نفيها في حضورهم، ومع ذلك اتَّخذتموهم أولياء وتعبدونهم من دون الله، وتستجيبون لوساوسهم، وتأكلون المال الحرام استجابة لهم، وما كانوا شاهدين يوم خلق السماوات والأرض[(٣)].

---

(١) التدبُّر والبيان، المغراوي، ٢٠/ ١٧٣.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٣/ ٥٢٢.
(٣) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٦.

فالإنسان حينما يتنطّع في تفسير بداية البشرية، فيقول: الإنسان الحجري، والإنسان البدائي، وما إلى ذلك، ويُلغي البداية التي شرحها الله في القرآن الكريم، نقول لهذا الإنسان: كيف عرفت بداية الخلق؟

إن عقلك لا يكفي، فالعقل البشري مهمته أو قدرته استدلالية، أي: أنه ينظر إلى الشيء فيحكم من خلال تلك النظرة على صانعه، فالعقل يرى الكون فيرى المكوّن، ويرى النظام فيرى المنظِّم، ويرى الأثر فيرى المؤثِّر، ويرى الخلق فيرى الخالق، وأما أن ينتقل العقل إلى مئات ألوف ملايين السنين، وإلى ملايين السنين قبل أن نُخلَق جميعاً ويقول لك: كان كذا وكذا وجرى كذا وكذا، وحصل كذا وكذا، فالإجابة الحاسمة من قبل الخالق جلَّ وعلا أنه: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾.

فلذلك نحن لا نعرف عن بداية الخليقة إلا ما ذكره الله[١]، وهنا نقطة دقيقة جدّاً: الإيمان نوعان، إيمان تحقيقي، وإيمان تصديقي، فنحن أمام خطين كبيرين من خطوط العقيدة، فيما نيط بعقلك أن يعقله؛ فهذا أنت مكلف أن تعرفه، فإيمانك بوجود الله تحقيق، وإيمانك بأسمائه الحسنى تحقيق، وإيمانك برسالة النبي ﷺ تحقيق، وإيمانك أن معه معجزة تحقيق، وإيمانك بأن هذا الكلام كلام الله تحقيق، وأما ما أخبر عنه فليس لك إلا أن تصدّق الخبر الصادق فيه، كالإيمان بعالَم الأزل وعالَم الأبد وما بعد الموت، والبرزخ، والصراط، والصُّور، ونشر الصحف، والجنَّة، والنار، وربنا عزَّ وجلَّ أشار إلى بداية الخلق والحياة في هذه الآية.

وإيمانك ببداية الخلق تصديق، لأن هذا الشيء يُعجَز عن الوصول إليه، فلا بدَّ من التصديق به، فنحن لا نعرف ما كان في الماضي السحيق، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن لا نعرف ما سيكون في المستقبل

---

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٧.

البعيد، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، فأنت بين تحقيق فيما وُكِلَ إلى عقلك وتصديق لما عجز عنه عقلك.

لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا أخبرنا عن الشيء الذي عجز عقلنا عن إدراكه، ونحن في أمسِّ الحاجة إليه، وهو إخبار الصادق، فإن حكّمت عقلك فيما أخبرك الله به فإيمانك بالله ضعيف، وما أخبرك الله به هو الذي يحكم عقلك، وليس عقلك الذي يحكم فيما أخبرك الله به، وأيّة نظرية تقرؤونها عن أصل العالم، وعن أصل الإنسان، وأن أصله قرد كما يقول داروين، وأن الإنسان نشأ نشأة بدائية متوحّشة، فهذه النظريات لا تزيد على أنها تخمينات ولا تزيد على إلقاء الكلام على عواهنه.

وكلما تقدَّم العلم كُشِف خطأُ ما ذهب إليه العلماء المنحرفون، فالإنسان مخلوق من حيوان منوي واحد من بين ثلاثمئة ألف حيوان، فيلقح بويضة تنقسم في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم، ثم تلتصق بجدار الرحم، ثم يبدأ تكوّن الدماغ والأحشاء والأعضاء، وهذا في تسعة أشهر وعشرة أيام، فيصبح طفلاً كاملاً له دماغ وجمجمة، ومخ، ومخيخ، وبصلة سيسائية، ونخاع شوكي، وقلب وشرايين ورئتان ومعدة وأمعاء وكبد وبنكرياس، وكليتان ومثانة، وأعصاب وعضلات، وعظام، وجلد، وغدد دهنية وغدد صبغية[١].

١ ـ ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ :

ـ قال ابن جرير: يقول عزّ ذكره: ما أشهدت إبليس وذريته ﴿خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما أحضرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، يقول: فكيف اتَّخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق من خلق أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعم عليهم وعلى أسلافهم،

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٢٠٨.

وخالقهم وخالق من يوالونه من دوني منفرداً بذلك من غير معين ولا ظهير[١]؟!

ـ قال ابن عطية: الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة، فتتضمَّن الآية الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء، وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ عائد على ذرية إبليس، فهذه الآية على هذا تتضمَّن تحقيرهم.

والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمُضلِّين، وتندرج هذه الطوائف في معناهم[٢].

ـ قال الشنقيطي: وهذا المعنى الذي أشارت إليه الآية، من أن الخالق هو المعبود وحده، جاء مُبيَّناً في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة:

ـ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

ـ وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

---

(١) تفسير الطبري، مصدر سابق، ١٥/ ٢٦٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، مصدر سابق، ٣/ ٥٢٣.

ـ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٤].

٢ ـ ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾:

أي: مساعدين ومعاونين ومساندين، فما أشهدتهم الخلق.

والعَضُد: أصله ما بين المرفق إلى الكتف، ويستعمل بمعنى المُعين كاليد ونحوها، وهو المراد هنا(١).

والعضد هو القوة التي تُسعفك وتسندك، وهو مأخوذ من عضُد الإنسان، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه، وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قبضاً وبسطاً واتجاهاً، يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل، وكل هذه الحركات لا بدَّ لها من مُنظِّم أو موتور وهو العضد، وفي حركة اليد ودقتها في أداء مهمتها آيات عظمى تدل على دقّة الصّنعة(٢).

فالمراد من نفي إشهادهم ذلك الإشعار بضلالة هؤلاء المُضلِّين الذين يتخذون من دون الله أولياء، فهم لم يشهدوا الخلق، فضلاً عن أن يُستشاروا أو يشاركوا فيه، وما داموا كذلك فلا يستحقون الطاعة والخضوع، لأن الإنسان مفطور على طلب معبود كامل لا يعجزه شيء ولا يحتاج لِمُعين، ويلجأ إليه لتحقيق الأمن، والاستغناء به عمن سواه؛ وهؤلاء ليس أحد منهم كذلك، فليس ذلك إلا لواجب الوجود سبحانه وتعالى، وهذا دليل علة وجوب اتخاذه وليّاً من دون أولئك المُضلِّين(٣).

ـ قال الطاهر بن عاشور: والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتَّخذَ أهل الإضلال أعواناً فأشركهم في تصرّفي في الإنشاء؛ فإن الله مُفيض الهداية وواهب

(١) تفسير المراغي، مصدر سابق، ١٥/ ١٦٠.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٤/ ٨٩٣٦.
(٣) إشراقات سورة الكهف، ناصر العمر، مصدر سابق، ص٤٥٦.

الدراية، فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة؛ أي لا يُعين المُعين على أمثاله ولا يكون إلا قريناً لأشكاله(١).

ـ وقال الشنقيطي: وفي هذه الآية الكريمة التنبيه على أن الضالين المُضلِّين لا تنبغي الاستعانة بهم، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، والمعنى المذكور أُشير له في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، والظهير: المعين، والمُضلُّون الذين يُضِلُّون أتباعهم عن الحق(٢).

ونستفيد من ذلك ضرورة البعد عن المُضلِّين الذين يتحرّكون في الموقع الذي يمنع الناس من السّير في خط الهدى، ويبتعد بهم عن الإيمان بالله وعن خطّ طاعته، فلا ندخلهم في مشاريعنا الثقافية والاجتماعية والسياسية ليكونوا لنا أعواناً في تخطيطها وتنفيذها، لأنهم لن يكونوا في موقع الإخلاص للأهداف الكبيرة التي نسعى إليها، بل يكونون مشكلة لنا في الاستفادة من هذا الموقع للتخريب والإرباك والإضلال.

ولا بد لنا من اختيار الناس الطَّيِّبين المُخلِصين الذين يلتقون معنا بالفكر والخط والهدف في عملية تكامل وتعاضد وانسجام، ويمكن لنا الاستفادة من التاريخ الإسلامي وغيره، حيث قام المنحرفون بوسائلهم الخفيّة بالإضرار بالواقع الفكري والاجتماعي والسياسي وإبعاده عن الخط المستقيم في عملية استغلال مواقع القيادية أو ما يقترب منها للنّفاذ إلى داخل الواقع العام للعبث بمقدّراتنا وأوضاعه العامة والخاصة(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، ١٥/ ٣٤٤.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٣/ ٢٩٥.
(٣) تفسير من وحي القرآن، محمد فضل الله، مصدر سابق، ١١/ ٣٧٠.

٣ ـ بطلان النظرية الداروينية وفسادها:

إن الآية الكريمة التي ذكرناها لَمعجزة في سياقها، تدحض النظريات الخاطئة في أصل نشأة الكون ونشأة الإنسان: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾.

وقد ظهرت نظرية داروين في وقت وَقَرَ في نفوس كثير من الناس في أوروبا أن العلم والدين ضدان لا يلتقيان، نتيجة الصراع الذي قادته الكنيسة وحاولت فرض بعض معتقداتها الفاسدة على عقول الناس.

وقد ألقى داروين نظريته التي تلقاها ممن سبقوه إلى أن وضع أسسها بإصداره كتاب (أصل الأنواع) الذي أصدره في عام (١٨٥٩م)، وحاول فيه أن يوجد تصوراً شاملاً مفسراً نشوء الحياة على الأرض وانتشار الأحياء، وتكاثرها وتنوعها، حتى وصلت إلى ما انتهت إليه اليوم من تنوع أجناسها، وكانت محاولاته هذه قد ساهمت في انتشار نظريته وقبولها عند فئة من الناس فور نشرها، وذلك يعود إلى أسباب عدة منها:

بساطة نظريته مع قدرته على عرضها بأسلوب يشدُّ الانتباه، وقد جاءت في وقت سئم فيه الناس ـ في المحيط الغربي الناهض ـ تعاليم الدين، وأصبحوا يقيسون الإنسان في عقله وتطوره بقدر انسلاخه منه، وقد وقر في نفوسهم أنّ العلم والدين ضِدَّان لا يلتقيان[١].

ولا بدَّ لنا هنا من أن نشير إلى خطأ ما يُسمَّى بنظرية النشوء والارتقاء، أو نظرية داروين، لأنها تصادم الآيات القرآنية الكريمة التي سبقت في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية، والتي بيَّن الله تعالى فيها كيف بدأ خلق الإنسان، وذلك بسبب انتشار هذه النظرية بين كثير من أبناء المسلمين، فهي تدرَّس في كثير

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٤٢٥.

من مدارسهم وجامعاتهم، وتتحدث عنها بشكل مستمر وسائل الإعلام بوساطة الأفلام التلفزيونية التي يسمونها: العلمية، مع أن نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية تُكذِّبها، وكذلك العلم الحديث قد نقضها ولم يعدْ يأبه بها[١].

وتقول هذه النظرية: إن الأحياء يتخلّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن، وإن هناك اختباراً طبيعياً في الأحياء، بحيث لا يبقى إلا الأقوى وصفاته تُورَّث عنه، وقد صنّف أصحاب هذه النظرية المخلوقات الحية، فوجدوا أن أعلاها الإنسان، يليه القرد، وأن أدناها وحيد الخلية، فقالوا تبعاً لهذا: إن الخلق ابتدأ بوحيد الخلية، ثم تطور وارتقى حتى وصل إلى الإنسان[٢].

وأما قولهم: إنّ الأحياء يتخلّق بعضها من بعض، بسبب تأثير البيئة والزمن، فلا دليل لهم عليه، فلو أن مهندساً أنشأ ألف بناية تتميز كل واحدة عن التي قبلها ببعض التفاصيل، ولكنها تشترك كلها بطريقة واحدة في التصميم والإنشاء فهل نقول: إن كل بناية قد اشتُقَّت من التي قبلها وتطورت عنها؟ أم نقول: إن الذي صمَّم وأنشأ الأولى هو نفسه الذي صمم وأنشأ الثانية وطوَّرها حسب الظروف التي حدثت[٣]؟!

ثم إن علم الوراثة الحديث قد هدّم كل أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تُورِّث الفروع المتفرعة عنها كلَّ ما تحمل من خصائص بوساطة الكروموسومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً حتى في عدد الكروموسومات، فعددها مثلاً في الإنسان (٤٦)، وفي القرد (٤٨)، وفي الغنم (٥٤)، وفي الحصان (٦٦)، وفي الكلب (٧٨) [٤].

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٤/ ٣٨١.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٣٨٢.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٤/ ٣٨٢.
(٤) المرجع نفسه، ٤/ ٣٨٢.

ولهذا فقد أعلن القرار العلمي عن بطلان النظرية الداروينية، بل إن داروين نفسه في كتابه (**أصل الأنواع**) أقرّ بوجود ثغرات كثيرة معقدة في نظريته منها: أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تشبه هياكل لحيوانات مماثلة لاتزال موجودة[١].

وكان داروين يعلق أمله الكبير على تعزيز نظريته بالأحافير التي تُكتَشف في المستقبل، ولكن هذا الأمل خاب، إذ دلت الأحافير جميعاً على خلاف ما قال[٢].

وقد بدأ داروين متناقضاً مع نفسه، فهو مع إصراره على الاعتماد على الفلسفة المادية وعدم الاكتراث بجانب الدين، وبدعوة هاجس الفطرة أحياناً إلى الاعتراف بالخالق على رغم ادعائه أن الكائنات تطورت وذلك في قوله: يبدو أن كل الكائنات قد انحدرت من مخلوق بدائي جاء إلى الحياة لأول مرة بوساطة الخالق[٣].

فمهما يكن من مجانبة الحقيقة في دعواه هذه أن الكائنات جميعاً انبثقت من مخلوق بدائي، إلا أنه يعترف أنه مخلوق، من ورائه خالق[٤]. ونجد من المفكرين الأمريكيين من يصرح بأن السواد الأعظم في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها يرفضون هذه النظرية من أساسها ويعارضون تدريسها لأطفالهم، فقد ذكر الفيلسوف الأمريكي الشهير ألفين كارل بلانتينغا أنّ (٨٥٪) من الشعب الأمريكي يؤمنون بالتدين، ويرفضون نظرية داروين ويعدُّونها مصيبة على العالم[٥].

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، المرجع نفسه، ٤/ ٣٨٣.
(٢) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ٢/ ٤٢٩.
(٣) المرجع السابق، ١/ ٤٢٩.
(٤) المرجع السابق نفسه، ١/ ٤٢٩.
(٥) المرجع نفسه، ١/ ٤٣٥.

وأما المفكرون المسلمون الذين عُنوا بنقض هذا الفكر فهم كثيرون، بل أستطيع أن أقول إن كل مسلم راسخ الإيمان ثابت العقيدة لا يقبل ما يناقض إيمانه ويهدم عقيدته من الأوهام، التي ليست إلا نتيجة مكابرة عن الحق والإيمان، والتعامي عن براهين العقل وحجج العلم، وقد انبرى كثير من هؤلاء لنقض هذا الفكر، وتعرية شبهه وإقامة الأدلة على عيوبه وثغراته[١]. وقد استدل العلامة الخليلي في كتابه (**مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان**) بأقوال كثيرة لعلماء من غير المسلمين، لأن ذلك أبلغ في إقناع الذين أسرتهم هذه النظرية، وطرحت بهم في مهاوي الضلال[٢].

وقال: وإنما يلاحظ على ما كتبه المتخصصون في الكيمياء الحيوية والفلك وعلم طبقات الأرض وغيرها من العلوم الكونية أنهم عدلوا عن التعبير بالخلق إلى التعبير بالتصميم الذكي، مع أن حججهم جميعاً تدل على أن هذا الكون خلقه الله تعالى من عدم، وبيده وحده تصريفه، فكل ما فيه شاهد على وجوده تعالى، ولكن بسبب العداوة المستحكمة في نفوس جماهير من الناس للدين، صار كل تعبير يؤيد جانب التدين، ويعزز الإيمان بالله تعالى، منفراً للناس من الإنصات إليه وتقبُّله، فهم ينفرون عن كل ما يشير إلى الإيمان بالله ـ ولو بعد حين ـ ويشمئزون من كل ما يمت بصلة إلى الدين، فلذلك عدل هؤلاء عن التعبير بالخلق إلى التعبير بالتصميم الذكي، مع أن هذا التصميم هو بنفسه دليل على من صمَّمه، وليس هو غير خالق السماوات والأرض الذي يسبح بحمده الوجود، ويشهد بجلاله وعظمته كل مشهود[٣].

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، المرجع نفسه، ١/ ٤٣٥.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٤٣٦.
(٣) المرجع السابق نفسه، ١/ ٤٣٦.

أ ـ ضرورة الكشف عن أوهام ما تعلقت به النظرة الداروينية :

قام العلاّمة الخليلي في كتابه (مصرع الإلحاد) ببيان هذه النظرية ونقضها من أساسها وتبديد الشُّبَه التي تحتويها .

إن من الضرورة لمن أراد أن يضع الحق في نصابه أن ينظر أولاً في الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان مجتمعة غير متفرقة، فقد ذكر الله تعالى خلق الإنسان في العديد من الآيات، وبعضها ذكر آدم عليه السلام باسمه الصريح، وبعضها اقتصر على ذكر الإنسان، كما مرّ معنا في سورة البقرة والأعراف والحجر .

وفي الآيات التي في سورة البقرة، ما لا يخفى من كون الخليفة المشار إليه إنما هو آدم وذريته، وقد عرض استخلافه في الأرض على الملائكة الكرام، فردُّوا بما ردُّوا به مستلهمين مما علمهم الله تعالى عن طبع هذا المخلوق وشأنه . والسياق يدلُّ على أن آدم عليه السلام لم يكن مسبوقاً في هذه الأرض بأحد من جنسه، وإن كانت قبله خلائق قامت بعمارة الأرض فإنها من أجناس أخرى، وقد أراد الله تعالى أن تنقرض تلك الأجناس، ويأتي آدم وذريته ليخلفوهم في عمارة هذه الأرض .

ـ وبيَّن تعالى للملائكة الكرام بأن لآدم وذريته مزايا تؤهلهم للاستخلاف في الأرض، إذ جعلهم الله تعالى مهيئين لتلقي العلم، ومقتدرين على البحث في المعلومات، واستلهام نتائجها من مقدماتها .

ـ وقد ابتلي آدم وزوجه بوسوسة الشَّيطان التي أدت بهما إلى النسيان، حيث عهد الله تعالى إليهما أن يجتنبا الأكل من شجرة معينة من أشجار الجنَّة، وقد فرض الله سبحانه وتعالى أن يكونا دائماً على ذكر من هذه المخافة، ليزدجرا عن كل ما نهاهما الله تعالى عنه، فلذلك أخرجهما من الجنَّة إلى الأرض التي خُلقا لعمارتها وبيّن لهما أنهما لن يُتركا وذريتهما سدى، وإنما

سيتحملون تكاليف تأتيهم من الله تعالى[١] .

ـ وهذا مما يؤذن بأنهما أساس الوجود البشري في الأرض ، إذ البشر جميعاً مكلفون بتكاليف ، لينالوا عاقبة ما يفعلونه من خير أو شر ، وما يكونون عليه من هدى وضلال ، وقد تعاقبت بعدهما إلى محيط الجنس البشري رسالات عدة ، كان كثير منها مختصاً بطوائف من الناس ، كما كان من إرسال نوح إلى قومه ، وإرسال لوط إلى قومه ، وشعيب إلى مدين ، وكانت هذه الرسالات جميعاً مُوطِّئة للرسالة الخاتمة التي تعم جميع العالمين ، وهي التي بُعث بها النبي محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل السلام ، فهي تعم جميع الناس[٢] .

ـ وعليه ، فإن كل ما في القرآن الكريم من خطاب للناس أو امتنان عليهم ، فإنَّه يعم جميعهم ولا يكون خاصاً بفئة منهم ، كأهل مكة أو العرب . ويتبين بهذا أن الخطاب موجه إلى الناس مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ [الأعراف : ١١] .

وهذا ما يدلُّ على أن آدم هو الإنسان الأول ، وقد تعزّز ذلك بذكر خلق الإنسان مطلقاً من الطين ، كما بيَّنت بعض الآيات الكريمة ، ويتبين بهذا قطعاً أن آدم عليه السلام هو البشر الذي خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ، وهو أبو البشر جميعاً ، فإن جنس الإنسان مخلوق من هذا العنصر نفسه ، كما نص عليه تعالى قبل ذلك في قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦] .

لأنهم جميعاً متسلسلون من آدم وراجعون إليه في نسبهم ، كما بيَّنت الآيات الكريمة التي مرت معنا في الأعراف والحجر والإسراء ، لذلك توعَّد إبليس بإغوائهم أجمعين . ولهذا فالكلُّ مطلوبون بأن يحذروا مكائد الشَّيطان ووساوسه

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان ، أحمد الخليلي ، مصدر سابق ، ١/ ٤٨٩ .
(٢) المرجع نفسه ، ١/ ٤٩٠ .

وأن يخالفوه باتباع أمر الله والازدجار عن نهيه[١].

وقد ذكر الله سبحانه قصة آدم في سورة الأعراف ثم أتبعها بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا التحذير من الله سبحانه لا يمكن أن يكون خاصّاً ببعض الناس دون بعض، وإنما هو تحدٍّ لهم جميعاً أن يفتنهم الشَّيطان.

ونحن علينا أن نؤمن بكل ما جاء في القرآن، وألا نشك في حرف منه، فهذه النصوص جميعاً إنما هي أحسن الحديث وأصدقه بخلاف ما في التوراة المحرفة. وما كان في التوراة مما هو موافق لنص القرآن الكريم، فلا شك في ثبوته، لكونه مما أنزله الله على موسى عليه السلام، ولأن القرآن صدقه وهو المهيمن على ما نزل من قبله من كتاب[٢].

ولا يخفى أن كل خطاب لبني آدم في القرآن إنما يقصد به الجنس البشري جميعاً، فإن ما في القرآن من تشريع وعظة وبيان وامتنان يقصد به الناس جميعاً، ولا تختص به طائفة دون غيرها، وكما تبين أن ما يُوجّه من خطاب إلى بني آدم فهو لجميع الجنس البشري، كذلك أيضاً ما يُوجّه من خطاب إلى الناس لا تختص به طائفة من البشر دون أخرى كما في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد حذر الله تعالى في هذه الآية الناس من التعالي بالأنساب والأحساب، وذكَّرهم بأنه خلقهم من ذكر وأنثى، وأنت تدري أنه لا يمكن أن يكون شيء من

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٤٩٢.
(٢) المصدر السابق، ١/ ٤٩٢.

خطاب الآية مخصوصاً به بعض الناس دون بعض، فكلهم مأمورون أن يرعوا حق كل طائفة منهم، وأن يحترموهم ولا يتعالوا عليهم، فهم جميعاً خُلقوا شعوباً وقبائل من أجل أن يتعارفوا، لا من أجل أن يتخالفوا ويتخاصموا، وميزتهم جميعاً إنما هي تقوى الله، فلا يمتاز أحد بعنصر ولا بلون. وإذا كان الخطاب في الآيات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ شاملاً لجميع فئات البشر، باعتبار أن القرآن الكريم هو هدى لهم جميعاً، فهو هدى للناس، وذكر للعالمين، والله المعبود هو ربهم جميعاً[١].

وقد تبين أن ما ذُكر في خلق الإنسان أو البشر من طين كما في سورتي الحجر وص، فالمقصود به آدم عليه السلام، فهو البشر المخلوق من طين، وإذا كان خلقه من طين فإنَّه يستحيل أن يكون مر بسلسلة من التطور تدرج فيها من حيوان إلى غيره، حتى انتهى به الأمر إلى أن يكون إنساناً بالطبيعة البشرية، فإن الله آذن ملائكته بأنه خالقه من طين، ومن صلصال من حمأ مسنون، وأنهم مطالبون بأن يسجدوا له إذا سواه ونفخ فيه من روحه، وعليه فأين تكون هذه الأطوار المزعومة التي تدرَّج فيها حتى وصل إلى طور الإنسانية، مع أن الله سبحانه آذن الملائكة أنه خالق من هذا الطين بشراً، وبمجرد الانتهاء من خلقه وتسويته طالبهم بأن يسجدوا له؟

فهل هذه المطالبة بالسُّجود له كانت في مرحلة الإنسانية أم في مرحلة الحيوانية؟

لا شك في أن كل ذي بصر وبصيرة يدرك أن السُّجود كان تكريماً للإنسان، ولم يكن تكريماً للحيوان، وعليه فإن تكوّنه إنساناً كان بمجرد خلقه من الطين ونفخ الروح فيه، ولم يمر قبل ذلك بطور حيواني، كما زعموا[٢].

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٤٩٥.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٤٩٥.

ب ـ نقض ما بنيت عليه الداروينية من النواميس :

وأما ما ذكروه من النواميس التي قامت عليها نظرية داروين، فقد تعقبها العلامة أحمد الخليلي، وبيّن عوارها وبطلانها وفسادها فقال :

ـ أما ناموس تنازع البقاء: فهو مجرد وهم، إذ أن الله سبحانه الذي خلق الكائنات خلق كل شيء منها بحكمة وقدرها تقديراً، وبها يكون التكامل في هذه الحياة الدنيا، ومهما يَبْدُ من بعضها أنها ضرر محض، وخطر على الحياة، فإن الله أودع في طي هذا الضرر من المنافع ما يبهر العقول لو توصلت إليه، ففي الزواحف السامة من الدواء والعلاج من الأمراض ما فيه نفع العباد، إذ السموم قد تعود بنفع في بعض الأحيان وكذلك الجراثيم، أو ما يعبر عنه بالبكتيريا، فقد جعل الله فيها خزائن للمنافع مع ما فيها من الضرر، ولا يسلم أنّ الكائنات تتنازع البقاء في هذه الحياة، فلكل نصيبه منها بحسب ما قدّر الله تعالى.

ولو كان القوي يذهب بالأضعف من هذه الكائنات لما بقي للعصافير وسائر الطيور وجود على ظهر الأرض، لأن الغلبة للصقور والبزاة[1] في القوة. ومثل ذلك ما بين الأسود والقطط، وأمثالها ونحن نرى أن هذه الأنواع تجتمع في مكان واحد وتتغذى معاً، لكن لا يتحول نوع منها إلى نوع آخر سواء في الترقي أو الانحدار، فلا يتحول الهرّ إلى أسد، ولا يتحول الأسد إلى هرّ، وإنما لكل منها نصيبه ومجاله في الحياة، وهكذا سائر الوحوش، وكذلك ذوات الأظلاف من الحيوانات، فلا يذهب القوي بالضعيف منها، وإلا لكان الجاموس مستأثراً بالحياة دون الغزلان، وكذلك يُقال في ذوات الأخفاف والحوافر.

ومنذ خلق الله الحياة في الأرض تجد أنواعاً من الكائنات تنطوي تحت جنس

---

(١) الباز: الجمع بيزان أو أبواز أو بزاة: ومعروف بالبرني في شمال أفريقيا، وهو طائر جارح طويل الذيل وحاد البصر يعيش في الغابات.

واحد بينها تشابه، فلا يذهب بعض منها ببعض، وإلا لما بقي للحشرات الضعيفة وجود بين هذه الكائنات القوية الضخمة، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون متكاملة في وجودها، كتكامل البشر مع اختلاف مواهبهم الفطرية والكسبية، وتنوع قواهم العقلية والجسمية حتى يوجد واحد بألف، وألف بواحد.

ولو كانت الحياة نزاعاً بين هؤلاء لكان الأَولى بها الأصحاء الأقوياء دون المرضى الضعفاء، ولكن كم يطول عمر الضعيف المريض الذي أدنفه المرض، ويقصر عمر القوي الصحيح، وقد شاهدتُ بنفسي من ذلك ما يثير العجب والدهشة، ولا أزال أذكر قصصاً متعددة تتعلق بذلك، من بينها[١]:

ـ أن رجلاً من المعارف اتصل بي في هزيع من الليل قبل أكثر من ثلاثين عاماً، فأيقظني من نومي وقال لي: بأن شخصاً صالحاً من معارفي يجود بنفسه وهو في حالة احتضار، وأن أولاده أمروه أن يتَّصل بي، فاسترجعت، ولما أصبح الصباح استكشفت الأمر، فإذا الرجل المريض الدنف ـ الذي يراه الكل أنه في حالة احتضار ـ تدب في جسمه الحياة بعد أن كانت ميؤوساً منها، مع أن الرجل اجتمعت عليه أمراض، وقد أُجريت له ثلاث عمليات في الوقت نفسه، وقد جاوز الثمانين من عمره، فما لبث أن عادت إليه الصحة وغادر المستشفى إلى بيته وأهله، فأقبل شهر رمضان المبارك فكان يؤم جماعة المصلين في مسجد الحي الذي يسكنه، في الصلوات ومن بينها صلاة التهجد، فكان يقرأ بهم في تهجُّدهم جزأين من القرآن حتى أتم رمضان وهو بحال الصحة والعافية[٢].

وكان من بين الأصدقاء من كان يتمتع بحيويته وشبابه وهو مفتول العضلات قوي البنية شديد المراس، وقد عُرف أنه قبل شهر رمضان ذلك عدا على قدميه

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٤٩٧.
(٢) المصدر السابق نفسه، ١/ ٤٩٧.

بين الجبال مسافة تكاد تصل (٣٠ كم)، وقد أمضى أيام العيد بين أهله في نعمة ورغد وصحة يهنؤوها، وبُعيد العيد كان في سهر مع خلانه وأراد أن يسقيهم من المشروبات الغازية، ولكن ذكر لهم أنه يحس بعدم ارتياح، فلذلك طلب لنفسه لبناً رائباً، وأوعز إلى من حوله أنه يريد أن يرتاح، ولكنه يحرص على سماع نشرة الأخبار، فأراد منهم أن يوقظوه عندما تحين النشرة، فلما جاؤوا لإيقاظه وجدوه جثة هامدة، بينما ظل ذلك الشيخ ـ الذي كان دنفاً ـ يتمتع بالحياة، فليت شعري، أيهما كان أولى بالحياة لو كانت غرضاً للتنازع فيها؟

ومنذ ما يقرب من أربعين عاماً أتاني أحد المعارف فذكر لي أن أختاً له تدرس بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت اتفقت مع أحد زملائها الطلبة العمانيين هناك أن تكون بينهما رابطة الزوجية، ولكن عكر صفو هذه الرغبة أنها أُصيبت بالمرض الخبيث، وقد قرر الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية أنها لن تعيش إلا عاماً واحداً إن استمر بها العيش، غير أن ذلك الشاب الذي واعدها بالزواج قرر أن يتزوجها ولو لم يكن لها إلا يوم واحد، فلذلك أراد مني أخوها أن أعقد زواجه بها حتى تكون حليلته إذا عاد إليها، فتم عقد الزواج في بيتي[١].

ولم يمض من الوقت إلا زمن يسير حتى بدأت الصحة تزاحم المرض وتجري في أوصالها، فكانت النهاية أن عادت صحيحة كما كانت لا تشكو شيئاً من الأسقام، واقترن بها زوجها، وهما الآن في عيش هانئ، وقد ولدت لهما ذرية، وقبل بضع سنوات ولدت لذريتهما ذرية متسلسلة، والحمد لله.

وكم في هذه الفترة فُقد من الأصدقاء الأقوياء الذين لم يكونوا يشكون سقماً ولا بلوى! وكم من آية يشاهدها ـ الناس ـ في أنفسهم لو كانوا يعقلون[٢]!

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٤٩٨.
(٢) المرجع نفسه، ١/ ٤٩٨.

ـ **ناموس الانتخاب الطبيعي** : بسقوط هذا الوهم يسقط ما ذكروه من الناموس الثاني وهو الانتخاب الطبيعي، فإن الطبيعة محكومة بإرادة الله تعالى الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وليس للطبيعة أي أثر إلا بمشيئة الله سبحانه، الأسباب لا تُفضي إلى مسبباتها إلا بأمر الله وحده، فقد يتهيأ لأمر سبب قوي ولكنه يقف دون أن يفضي إليه، وقد يتحقق لسبب ضعيف لا يُحسب له أي حساب، على أن هذه الفكرة تفتح أبوابها للشر فيما بين الناس، فكل فئة من الناس ترى أنها أولى بالبقاء وانتخاب الطبيعة لها دون غيرها، ولذلك لا تبالي فيما تسفكه من دماء وتزهقه من أرواح وتستحوذ عليه من أموال من أجل أن تبقى هي ويفنى غيرها، وتكون لها السلطة على الغير لأنها أولى بهذا الانتخاب.

وقد تبين أن الشيوعيين بنوا على هذا الفكر ما بنوا من اجتياحهم البشر وإزهاقهم الأرواح وتسلطهم على الأموال، وذلك أن الطبيعة عندهم اختارتهم دون غيرهم، بتمكينهم من رقاب الآخرين، وقد تقدم قليل من كثير فيما سبق من ذكر جرائمهم وعدوانهم على البشر. وهكذا جميع المتغلبين في الأرض، فإنهم من منطلق هذه الفكرة يرون أنهم أحق بالحياة وخيراتها والتسلط فيها دون غيرهم، وهذا ما مكن لما يسمونه الرجل الأبيض من تنفيذ جرائمه نحو البشرية. وقد عبروا عن فلسفتهم هذه بما أسموه الداروينية الاجتماعية، وأن الأفراد والمجتمعات يتنافسون من أجل البقاء، وأن المتفوقين من الأفراد والمجموعات والسلالات هم أولى بالنفوذ والثراء، فحسب الانتخاب الطبيعي لا يبقى إلا الأفراد الأكثر استعداداً وهم يتكيفون مع المجتمعات الجديدة، على حين يفشل الآخرون الذين لا يصلحون للبقاء[١].

وقد بنت العولمة الجديدة نظامها على هذه الفلسفة نفسها، ولم يبال هؤلاء

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٥٠٠.

في سبيل تحقيق رغباتهم بالوطء على القيم الإنسانية، فضاعت بينهم الرحمة وانحسرت عنهم الأخلاق، وأدع المجال في هذا لقلم الطبيب الماهر الأستاذ الدكتور محمد علي البار الذي سلط الضوء على علاقة المذهب الدارويني بالعولمة والرأسمالية والاستعمار[١]، فقد قال ما نصه: ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أن الأفراد الذين يستطيعون البقاء يكدسون الثروات بأيديهم، ولذا فالفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة، واعتمد روبرت سبنسر البريطاني هذه النظرية ونشرها وفلسفها، ولقيت من الرواج ما لقيته نظريات داروين في الطبيعة؛ لأن منهجهما واحد يتجه لتبرير جرائم الرجل الأبيض، والرأسمالية البشعة بوجه خاص.

وظهر مفهوم (العمل هو العمل) ولا أخلاق فيه، ومن ثم لا بدَّ أن يكون القوي هو الأكثر ذكاء وخداعاً وكذباً... وهو في ذلك يحقق الطبيعة، ولا لوم عليه ولا تثريب، وإنما يقع اللوم والتثريب على المغفلين والسذج والفقراء الذين يمتص دماءَهم. ثم ظهرت العولمة وهي تعمل لمزيد من سيطرة الأغنياء على الفقراء حتى يزداد الأغنياء غنى على قوة ويزداد الفقراء فقراً وضعفاً، وإذا ثاروا أو تألموا فيكفي أن نقول لهم أن هذه هي قوى السوق، أو قوى الطبيعة، وأن البقاء للأصلح والطبيعة تفعل فعلها، فهناك انتخاب طبيعي قد قرره دارون منذُ قرن ونصف من الزمان، وما علينا إلا الطاعة لعوامل الطبيعة وعوامل السوق وهي التي تقرر من يبقى ومن يذهب، وكذلك من يعيش ومن يموت؟

والذكي المخادع الكاذب، الذي يستخدم الوسائل القذرة كافة للحصول على الثروة والقوة، هو الأحق بالحياة وهو صاحب الفضل، لأن ذلك ما قررته الطبيعة على لسان داروين، ومن قبله مالثوس أستاذ داروين المؤثر فيه وفي

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، المرجع نفسه، ١/ ٥٠٠.

أفكاره رغم أنهما لم يلتقيا، فبينهما نصف قرن من الزمان تقريباً، وأما مالثوس هذا فهو قسيس إنجليزي.

الغريب حقّاً أن كلاًّ من داروين ومالثوس قد درس اللاهوت، أما داروين فقد تركه غير آسف عليه، وأما مالثوس فاستمر فيه مع دراسة الاقتصاد والسكان.

ولد توماس روبرت مالثوس عام (١٧٦٦م) في منطقة سري ببريطانيا، ودرس اللاهوت في جامعة كمبريدج، وعمل أستاذاً في كلية شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وكانت تُعدُّ رجالاتها في هذه الكلية الخاصة، والتي كان مالثوس من أبرز أساتذتها، والتي بقي فيها من عام (١٨٠٥م) حتى وفاته عام ١٨٣٤م، عندما كان داروين يجوب البحار في سفينة الأبحاث «بيجل».

وفي عام (١٧٩٨م) نشر مالثوس مقالته عن مبادئ علم السكان، التي جعلها بعد ذلك في كتاب، وكان مالثوس يرى أن السكان يزدادون على هيئة متواليات حسابية «١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤».

وعليه فإن البشرية ستواجه حسب وجهة نظره ندرة في الطعام، ولذا لا بدَّ من إيجاد عوائق لهذا النمو المطرد في السكان، والعوائق الإيجابية هي الحروب والمجاعات والأوبئة... وهذه يمكن استخدامها لمواجهة الإنسان البدائي، «وهو ما فعلته أوروبا والرجل الأبيض بالنسبة لأفريقيا وآسيا والهنود الحمر في الأمريكيتين».

أما الرجل الأبيض المتحضر، فينبغي أن يستخدم العوائق الوقائية وهي الرهبنة، وتأخير سنّ الزواج، والامتناع الطوعي عن مباشرة الزوجة فترة من الزمن، وكلها كان يحبذها حسب ثقافته الكنسية، أما وسائل منع الحمل فكانت تعتبر لديه لا أخلاقية.

ومن آراء مالثوس أن فقر الفقراء ليس إلا نتيجة لكسلهم، وأن غنى الأغنياء ليس إلا نتيجة عملهم وكدهم واجتهادهم، ولذا ينبغي أن نحد بصورة جليّة عدد

السكان من الفقراء، وأن البقاء من ثم ليس إلا للأصلح، وهم في نظره الأغنياء والأقوياء.

وأوضحت هذه النظرية الاستعمارية الرأسمالية (القذرة) مدى أخلاقيات رجل الكنيسة الذي سار في ركاب الرأسمالية الجشعة، وكانت أفكار مالثوس هي الدافع الحقيقي لشارلز داروين الذي اعترف بتأثير مالثوس فيه تأثيراً عميقاً، حيث أوضح مالثوس أن جميع الكائنات الحية تنزع إلى التكاثر بسرعة كبيرة، ولكن القليل من نسلها هو الذي يُكتب له البقاء والنماء والوصول إلى سن النضج، وأوضح بجلاء أن حبوب اللقاح أو بويضات الحشرات والزواحف والأسماك والطيور من الكثرة بحيث لا يُمكن أن تترك لغيرها أي مجال للبقاء لو نمت كل واحدة منها، ولهذا لا بدَّ أن تعتريها عوامل الفناء من كل حدب وصوب حتى تُبقي مجال البقاء للأصلح.

وأخذ دارون هذه الفكرة «البقاء للأصلح» واعتمدها اعتماداً كاملاً في نظريته، حتى وجد أن هناك صراعاً على البقاء بين الكائنات المختلفة، ثم هناك صراع شديد على البقاء بين الكائنات المختلفة، ثم هناك صراع شديد على البقاء بين كل نوع من الأنواع مع أفراد نوعه، وخاصة إذا كانت هناك ظروف بيئية قاسية مثل الجفاف أو الثلوج أو الكوارث.

وعدّد داروين الأمثلة لهذا الصراع، وانتهى إلى القول بأن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وظروف البيئة الخارجية، وهكذا التقت أفكار مالثوس مع آراء داروين لتدعم النظام الرأسمالي الجشع البشع، وتوجِد له الفلسفة النظرية التي تدعمه باسم العلم والطبيعة ونظريات البقاء للأصلح.

والأصلح عندهم دون ريب هو الرجل الأوروبي الأبيض الذي استعمر العالم وأخذ خيراته واستغلها لنفسه، ثم في داخل أوروبا ذاتها هناك التفاوت بين

العمال الفقراء الأغبياء والأغنياء، الأثرياء الأذكياء أصحاب رأس المال، الذي ينبغي أن تمهّد لهم الطرق أو على الأقل أن تبرر جميع سلوكياتهم المنافقة لكل الدوافع الإنسانية والخيرة التي تُنادي بها الأديان، على اعتبار أن هذا السلوك الإجرامي ليس إلا ما أفرزته الطبيعة ذاتها، وعلينا أن نسمع ونطيع لهذه الطبيعة بقوانينها القاسية، والتي فيها خير الأجناس كلها في نهاية المطاف، لأنها تُزيح الأضعف وتُبقي الأقوى والأصلح.

كما استخدم الرأسماليون نظريات مالثوس وداروين لدعم اتجاههم وفلسفاتهم، وكذلك استخدم كارل ماركس آراء داروين في الصراع والبقاء للأصلح في نظرياته حول الصراع الطبقي، وجعلت الماركسية داروين من أكابر مؤيديها، وكانت روسيا البلشفية تدعم بكل قوتها آراء داروين وتقيم له المتاحف الكبرى، وقد بُنيت علوم الطبيعة والبيولوجيا في الاتحاد السوفيتي على آراء داروين وتم تطويرها على يد أوبارين الروسي، والواقع أن نظرية التطور أخرجت من سياقها العلمي لتحقيق أغراض أخرى لا علاقة لها بالعلم، وهذه هي المأساة في نظرية التطور[١].

هذه هي بعض ثمار هذه النظرية الفاشلة الباطلة التي يلتفُّ حولها المبطلون، ويسعى كل منهم إلى أن يستغلها استغلالاً يقضي بنجاحه فيما يمارسه من ظلم ويرتكبه من عدوان ضد الوجود الإنساني في الأرض وضد القيم الإنسانية وعلاقة البشر بعضهم ببعض، والحقيقة أن هذه النظرية ليست من العلم في شيء وإنما خدعت الناس ببريق دعاياتها الفاجرة، وإلا فإن شواهد العلم تجتثها من أساسها[٢].

---

(١) خلق آدم ونظرية التطور، محمد البار، مصدر سابق، ص٢٣ ـ ٢٦. مقال نشر على شبكة المعلومات مصرع الإلحاد ١/ ٥٠٣.

(٢) مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٥٠٤.

إن الدّاروينية لا تبقي شيئاً من حقوق الإنسان لأي أحد طفلاً كان أو كبيراً، فهي تسلب الإنسان أهم خصائصه الفطرية وهي الرحمة والشفقة والحنان وتحوله إلى سبع كاسر لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً(١)، إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من النازية والفاشية إلى الستالينية والماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية والتقنية العرقية، وأن هناك أجناساً أفضل من أجناس(٢).

وقد حدث استئصال طبقة كاملة من الناس، وتفريغ قارتين كاملتين من البشر، أعني تفريغ الأمريكيتين من الهنود الحمر، وما كان ذلك ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني. وقد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي، ونتيجة لذلك تقلص عدد الهنود الحمر من (١٠) مليون إلى (٢٠٠) ألف نسمة خلال سنوات قليلة، ولذلك يقول سمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية: يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية(٣).

وغير ذلك من التضحيات بالملايين حدثت لبني البشر، فقد اعتبروها غاية في حد ذاتها من أجل المكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر(٤). يقول ريتشارد فيكارت لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية في قلب ميزان الأخلاق رأساً على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم أن أبشع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة قضية أخلاقية مشكورة(٥).

---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، المرجع السابق، ١/ ٥٠٥.
(٢) الخليلي، المرجع السابق، ١/ ٥٠٨.
(٣) الخليلي، المرجع السابق، ١/ ٥١٠.
(٤) الخليلي، المرجع نفسه، ١/ ٥١٠.
(٥) إما الإيمان وإما الفوضى، هيثم طلعت، مصدر سابق، ص٣٥٦ إلى ٣٥٨، مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٥١٠.

كان داروين أول من صور الإنسان على أنه حيوان ضارباً الصفح عما به من ملكات قادرة ومواهب فذة ترتفع به عن كل أنواع الكائنات الأخرى، وستظل حاجزاً تفصل بينه وبينها إلى يوم القيامة(١).

وإذا تبين بطلان الناموسين المذكورين أدركت أن ناموس المطابقة وهو التطور بسبب الأغذية وناموس الوراثة، لا يختلفان عن الناموسين المذكورين من قبل، فكل ذلك وهم ليس عليه من دليل، فكم من دواجن الحيوانات تطعم ما يطعمه الناس من أنواع الطعام الراقي، الذي يُعدُّ بعناية فائقة، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من طباعها، ولا يُحوِّل نسلها إلى جنس غير جنسها، فالكلب يبقى كلباً والهرّ يبقى هرّاً، وهكذا سائر الحيوانات. واقتضت حكمة الله تعالى أن تتنوع مخلوقاته ويتميز بعضها عن بعض، ما جعل الله فيها من الخصائص الخلقيّة، وفي هذا التنوع تكامل بين مخلوقات الله تعالى، فإن لكل منها دورة في هذه الحياة، ولا فرق بين صغارها وكبارها حتى صغار النمل وما هو أدق منها: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وبقاؤها على ما هي عليه عبر هذه القرون من غير أن تنقرض، دليل بيِّن أن قضية تنازع البقاء وهم لم يُبْنَ على شيء من العلم، والدليل على أن هناك من الأجناس التي تلاشت وانقرضت ما هو أقوى بكثير مما ظل باقياً إلى الآن، فكم بين الديناصور وبين الحشرات التي تعيش بيننا من فارق القوة، وقد أثبتت نتائج الأحافير وعلم الفيزياء والكيمياء الحيوية فشل هذه النظرية وبطلانها(٢).

ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب **مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان**. وسبحان الله القائل في كتابه العزيز: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

---

(١) مصرع الإلحاد، الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٥١٤.
(٢) الخليلي، المرجع السابق، ١/ ٥٢١.

هذه حقائق وليست أوهاماً يُثبتها الواقع ويُؤيِّدها العقل والمنطق، ويؤكدها الشرع، ولكن ماذا يُصنع بمن لا يلتفت إلى واقع ولا عقل ولا منطق ولا يلوي على شرع، وإنما يتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] (١).

وكما قيل: الهوى يُعمي ويُصمُّ، وإلا فأي أثر يشاهد من هذه الكائنات ـ التي لا يحصيها العدّ ولا يحيط بها الحد ـ ينطق بأنها صنع عليم خبير، سميع بصير، واسع قدير؟ وأي حجة أبلغ من العقل وأثقل في السمع من هذه الألسنة الناطقة من كل هذه البرمجيات التي لا تخلو منها ذرة في الكون، وهي شاهدة على الصنع المتقن ممن لا يُعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؟(٢)

ـ إن أفضل ما يعطي التصور الحقيقي والعلم اليقيني عن نشأة الإنسان وبداية خلقه وعلاقته بالكون والمخلوقات والخالق العظيم (الله عز وجل) هو القرآن الكريم، وما ثبت من صحيح الأحاديث عن النبي ﷺ.

ـ إن أفضل السبل للإلمام بقصة آدم عليه السلام هو سلوك طريق القرآن والسُّنة الصحيحة الثابتة، وتفسير الآيات تفسيراً منهجيّاً صحيحاً، وجميع الآيات والروايات الواردة في هذا الباب، ودراستها دراسة تفصيلية تحليلية موسعة قبل تكوين رأي مُعيَّن عنها.

ـ إن مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب إلى نفخ الروح فيه ذكرها الله وفي أكثر من موضع، وبيَّنها النبي ﷺ، وليست من المتشابهات ولا مما يستأثر العلم التجريبي بتفسيره.

ـ الآيات والروايات الواردة حول آدم في الشرع غنية جدّاً وشاملة وواضحة،

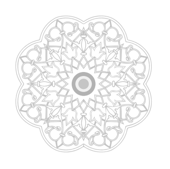
---

(١) مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان، أحمد الخليلي، مصدر سابق، ١/ ٥٥٦.
(٢) المرجع السابق، ١/ ٥٥٦.

ولا لبس فيها إلا من كان اللبس في فهمه هو، ولا تعارض بينها وبين ما ثبت من يقينيات العلم التجريبي والتفكير المنطقي، ومن خلالها فقط نستطيع الوصول إلى لب قصة آدم عليه السلام[١] .

* * *

(١) آدم بين التطور والتطور الموجه والوحي، إبراهيم الشحات، مصدر سابق، ص٥٥٦ .



المبحث السادس

قصة آدم عليه السلام في سورة طه

قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٤ ـ ١٢٧].

أولاً: قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]:

هذه الآية تتحدث عن اسم الله «الملك» واسم الله «الحق»، وطريقة تلقِّي القرآن الكريم وعدم الاستعجال في أخذه وحفظه، والاستماع إلى جبريل عليه السلام وإرشاد الرسول ﷺ بالدعاء لطلب العلم من الرَّبّ سبحانه وتعالى، وهذه

الآية من لطائفها وإشاراتها ما يتعلَّق بقصة آدم عليه السلام، التي جاءت في سورة طه، والتي تبدأ بالآية التي بعدها، فالملك هو المشرع لخلقه، وتشريعه حق وقصصه في وجه حق، ومنها قصة بداية الإنسان الممثلة في آدم عليه السلام، ومن وحي الله تعالى لنبيه عليه السلام قصص الأنبياء والمرسلين، ومنها قصة آدم عليه السلام، ودعاء النبي ﷺ بزيادة العلم، جاءت الآيات التي بعدها لتبين نوعاً من أنواع العلوم التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحي الرباني، ودعاء الله عزَّ وجلَّ لمعرفة حقائق الكون والحياة وتاريخ الإنسانية وسنن الله في خلقه، وغيرها من أنواع العلوم النافعة لبني الإنسان وعلى رأسهم سيدهم محمد ﷺ.

١ ـ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾:

أ ـ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾: جل الله وعظم وارتفع وتنزه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين، وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم وتنزه عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وفيه تنبيه إلى ما يلزم خلقَه من تعظيمه وتمجيده[(١)].

﴿فَتَعَـٰلَى﴾: علا قدره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يُوصَل إليه، وأمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمر ممقوت، أما تعالي الحق سبحانه فمن كماله ومن مصلحة الكون كله، لأن أي متعال أو جبار من البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندَكُّ جبروته وتعاليه، وأي ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد، فيطمئن ويعيش آمناً[(٢)].

ـ﴿فَتَعَـٰلَى﴾: من ألفاظ التنزيه، أي تعالى الله علوّاً كبيراً عن أن يخلقنا عبثاً، وأن يهضم حقوقنا وأن يظلمنا وألا يرحمنا، تعالى عن كل نقيصة سبحانه[(٣)]،

---

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٢٩١.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤٠٦.
(٣) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٣٧٠.

فالله عزَّ وجلَّ ارتفع وتقدس عن كل نقص أو آفة[١].

ـ ﴿ٱللَّهُ﴾: هذا الاسم الجليل، تعلقت به جميع العوالم لذاتها وأنواعها، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فجميع العباد يقولون: يا الله دعاءً أو سؤالاً، نداء أو ذكراً أو مناجاة[٢].

ـ ﴿ٱللَّهُ﴾: هو اسم دالٌّ على ذات الله تعالى رب العالمين، الإله المعبود حقّاً، المتصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى ولا تُحدُّ ولا تنقص، والمتنزه عن جميع ما لا يليق بألوهيته وكماله، ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه[٣].

ـ ﴿ٱللَّهُ﴾: هو دالٌّ على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب[٤].

ـ ﴿ٱللَّهُ﴾: هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية: الظاهرة والباطنة، على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأنّ أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات[٥].

إنّ معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال[٦].

---

(١) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص١٠٤٦.
(٢) المسيح عيسى ابن مريم، الصلابي، مصدر سابق، ص٤٣٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٤٣٦.
(٤) تفسير الفاتحة، ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، ص٤٧.
(٥) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي، مصدر سابق، ص٧٩.
(٦) إغاثة اللهفان من مصائد الشَّيطان، ابن القيم، مصدر سابق، ٢/٢٠٨.

ب ـ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ : ورد في القرآن الكريم (٥ مرات) منها :

ـ قوله تعالى : ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] .

ـ قوله تعالى : ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس : ٢] .

ـ قوله تعالى : ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه : ١١٤] .

ـ قوله تعالى : ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجمعة : ١] .

والملك الذي لا مَلِكَ فوقه ولا شيء دونه[١] .

ومن أسماء الله الحسنى (الملك)، ومعناه الحقيقي ثابت له ـ سبحانه ـ بكل وجه، وهذه الصفات تستلزم سائر صفات الكمال، إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به، وكيف يُوصف بالملك من لا يأمر ولا ينهى ولا يُثيب ولا يُعاقب ولا يعطي ولا يمنع ولا يُعزُّ ولا يُذِلُّ ولا يُهين ولا يُكرم ولا يُعطي ولا يُنعم ولا ينتقم ولا يخفض ولا يرفع ولا يُرسل الرسل إلى أقطار مملكته، ولا يتقدّم إلى عبيده بأوامره ونواهيه؟ فأي ملك في الحقيقة لمن عدم ذلك؟

وبهذا يتبين أن المعطلين لأسمائه وصفاته جعلوا مماليكه أكمل منه، ويأنف أحدهم أن يُقال في أمره وملكه ما يقوله هو في ربّه .

فصفة ملكه الحق مستلزمة لوجود ما لا يتمُّ التصرف إلا به، والكل منه ـ سبحانه ـ فلم يتوقف كمال ملكه على غيره، فإن كلّ ما سواه مُستند إليه متوقف في وجوده على مشيئته وخلقه[٢] .

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٣٥٨، تفسير الطبري، مصدر سابق، ٢٨/ ٣٦ .

(٢) شفاء العليل، ابن القيم، مصدر سابق، ٢/ ٦٠٩ ـ ٦١٠ .

وهذه المعاني التي تضمّنها اسم الجلالة (الملك) هي ما تتم به حقيقة الملك كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى في موطن آخر حيث يقول: إن حقيقة الملك:

إنما تتم بالعطاء والمنع.

والإكرام والإهانة.

والإثابة والعقوبة.

والغضب والرضا.

والتولية والعزل.

وإعزاز من يليق به العزُّ وإذلال من يليق به الذل.

ـ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

يغفر ذنباً ويُفرِّج كرباً ويكشف غمّاً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفكُّ عانياً ويُغني فقيراً ويجبر كسيراً ويشفي مريضاً ويُقيل عثرة ويستر عورة، ويُعِزُّ ذليلاً ويُذِلُّ عزيزاً ويُعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين ويسوق المقادير التي قدّرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرِّف في الممالك كلها وحده، تصرُّف ملك قادر قاهر، عادل رحيم، تامّ الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرّفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان، والحكمة

والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك[١].

وصفة الملك الحقيقي لله عزَّ وجلَّ تقتضي الحكمة في خلق الخلق وعدم تركهم سدى، كما تقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب وأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم[٢]. وهذا ما بيَّنته الآيات الكريمة التي جاءت بعدها، وفصَّلت قصة آدم عليه السلام وعداوة الشَّيطان له، وأهمية تتبع هدى الله، وخطورة مخالفته، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى، لأن من لوازم الملك لله تعالى الحكم والتشريع، فكان لازماً على العباد قبول حكم الله وشرعه ورفض ما سواه والإعراض عن التحاكم لغيره، فالحكم لله وحده[٣].

والملك: الذي المُلكُ وصفه، والخَلقُ كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم[٤].

ج ـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾: ورد هذا الاسم الكريم في عشر آيات من القرآن الكريم منها:

ـ قول الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

ـ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

والحق: هو المتحقق كونه ووجوده، وكل شيء صح وجوده وكونه فهو

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مصدر سابق، ص٢٢٨، ٢٢٩.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٣٦٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٦٥.
(٤) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص٣٦٥.

حق، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢] معناه والله أعلم: الكائنة حقّاً لا شك في كونها ولا مدفع لوقوعها، ويُقال: الجنَّة حق، والنار حق، والساعة حق. يراد أن هذه الأشياء كائنة لا محالة[١].

ومن المُتحقِّق وجوده بإخبار الله لنا قصة آدم مع عدو الله إبليس، وسيأتي الحديث عنها بعد هذه الآية، وهي من قصص الحق التي ذكرها الله في كتابه العزيز.

وقال ابن الأثير ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: هو الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته والحق ضد الباطل[٢].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً، فقوله حق وفعله حق، ولقاؤه حق ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيءٍ ينسب إليه فهو حق.

ـ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

ـ قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١][٣].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: فكما أن ذاته (الحق): فقوله الحق ووعده الحق وأمره الحق وأفعاله كلها حق وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر

(١) شأن الدعاء، الخطابي، مصدر سابق، ص٦٧ باختصار.
(٢) النهاية لابن الأثير، مصدر سابق، ١/ ٤١٣.
(٣) تفسير السعدي نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، مصدر سابق، ص٢١٧.

حق، فكونه حقّاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه[١].

ومن المعاني التي يتضمَّنها هذا الاسم الكريم من أسمائه سبحانه الحسنى:

ـ أنه له الوجود الحق، فالخلق كلهم يزولون ويفنون، وهو سبحانه الحي الذي لا يموت، وهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تعب ولا لغوب.

ـ وأن أسماءه سبحانه وصفاته كلها حق، فليس فيها شيء باطل لا في علمه ولا في قدرته، فهو الإله الحق الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته.

ـ وأنه هو الحق في ربوبيته وألوهيته، فهو (الرب) الحق لكل مربوب، وهو المعبود الحق لكل عابد مربوب.

ـ وأن أفعاله سبحانه كلها حق، وقضاؤه حق وجزاؤه حق، والله أنزل الكتب بالحق، وأرسل رسله بالحق وخلق السماوات والأرض بالحق، وقضى الله تبارك وتعالى القصص بالحق، ووعد الله حق لا يتخلَّف، فنصره لأوليائه حق، والبعث بعد الموت حق، والجنَّة حق، والنار حق، والساعة حق، وكل ما وعد الله به فهو حق، لأنه صدر عن الحق سبحانه وتعالى[٢]. وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: خلق مخلوقاته بسبب الحق ولأجل الحق، وخلقُها متلبس بالحق، وهو في نفسه (حق) فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق[٣].

٢ ـ ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾:

قال الشنقيطي: في تفسير هذه الآية: كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله في هذه الآية إلى ما ينبغي، فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن

---

(١) بدائع الفوائد نقلاً عن ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٢١٧.
(٢) ولله الأسماء الحسني، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٢١٨.
(٣) شفاء العليل، ابن القيم، مصدر سابق، ٢/ ٥٧.

ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرئه هو بعد ذلك، فإن الله يُيسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية، أوضحه الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩] [١].

ولما كانت عجلته ﷺ على تلقُّف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنَّى ويصبر حتى يفرغ المُملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلقي العلم، فإنَّه سبب للحرمان وكذلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب[٢].

أ ـ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أي لا تتعجل ولا تنشغل بالتكرار والترديد فسوف يأتيك نضجها حين تكتمل، فلا تخشَ أن يفوتك شيء منه طالما أني تكفلت بحفظه، فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى.

والعجلة أن تُخرج الحدث قبل نضجه، كأن تقطف الثمرة قبل نضجها وقبل أوانها وعند الأكل تُفاجأ بأنها لم تستو بعد، أو تتعجل قطفها وهي صغيرة فلا تكفي شخصاً واحداً، ولو تركها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص،

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، مصدر سابق، ٢١/ ٢٠٥.

والقرآن كلام في مستوى عالٍ من البلاغة، وليس كلاماً مألوفاً له يسهل عليه حفظه، لذلك كان حريصاً على الحفظ والتثبت.

وهذه الظاهرة من معجزات النبي ﷺ، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن، أو السورة كاملة ثم حين يُسرى عنه الوحي يُعيدها كما أُنزلت عليه، ولك أن تأتي بأكثر الناس قدرة على الحفظ واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع.

أما النبي ﷺ، فكان يأمر الكتبة بكتابة القرآن ثم يُمليه عليهم كما سمعه، لا يُغيِّر منه حرفاً واحداً، بل ويملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول: ضعوا هذه في سورة كذا وهذه في سورة كذا.

وأحياناً الآيات تنزل متفرقة، فإذا ما قرأ ﷺ في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلت آياتها متفرقة، هذه نزلت اليوم، وهذه نزلت بالأمس هكذا، ومع ذلك يقرؤها مرتبة آية آية قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩].

وخاطب النبي ﷺ في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبي ﷺ[١].

ب ـ ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾: أي: انتظر حتى يسرّى عنك، لكن كيف يعرف الرسول ذلك؟ كيف يعرف أن الحالة التي تعتريه عند نزول الوحي قد زالت؟ والصحابة يصفون حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه فيقولون: كُنَّا نسمعُ عند وجهِه كَغَطيطِ النَّحلِ، وكان جبينُه يتصبَّبُ عرَقاً[٢]، ويبلغ منه الجهد مبلغاً وإن نزل الوحي وهو على دابة كانت تنخ برسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥][٣].

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤١٢.

(٢) البخاري، ك بدء الوحي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤١٢.

(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤١٢.

٣ ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾:

هذا توجيه للنبي ﷺ للاستزادة من العلم، فما دمت أنت يا رب الحافظ فزدني منه، ذلك لأن رسول الله ﷺ سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لدنه إلى أن تقوم الساعة، علم يشمل الأزمنة والأمكنة فلا بد أن يُعدَّ الإعداد اللازم لهذه المهمة[١].

وفي هذه الآية إشارة دقيقة إلى أن القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملاً مُرجِّحاً بين بني البشر هي العلم، والشيء الوحيد الذي أمرنا الله أن نزداد منه هو العلم، فلم يقل زدني مالاً ولم يقل: زدني جاهاً، لأن المال ظل زائل، وعارية مستردة، ولأن الجاه ينتهي بالموت، ولكن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

وطريق العلم الرباني وطلب الزيادة منه هو الطريق إلى العلم بالله عزَّ وجلَّ، فيجب أن تعرف الله ويجب أن تعرف أمره ويجب أن تعرف خصائص الأشياء، فإذا عرفت الله عرفت نفسك وعرفت من أنت وعرفت أين كنت، وعرفت أين المصير، وعرفت ما يجوز وما لا يجوز، فإذا عرفته أفلا ينبغي أن تعبده؟ وكيف تعبده؟ ولابد أن تعرف أحكامه وأن تعرف الهدف الذي من أجله خُلقت وأن تعرف أين كنت وأن تعرف أين ستكون، وأن تعرف هويتك وأن تعرف سر الوجود وحقيقة الحياة وجوهر الأشياء وسر التصرف الإلهي، هذا كله ينطوي تحت باب العلم الأعلى، ويسميه الفلاسفة اليوم علم ما وراء الطبيعة، وهذا العلم أصل في صحة العقيدة[٢]، ما جاء منه في القرآن الكريم وصَحَّ عن النبي ﷺ.

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤١٥.
(٢) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٣٧٣.

ولذلك جاءت الآيات الكريمة التي بعدها تتحدث عن فقه آدم عليه السلام، وما فيها من دروس وعبر وفوائد وإجابات لكثير من الأسئلة الوجودية التي يحتاج الإنسان فيها إلى جواب كافٍ وشافٍ وصادق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]:

هذه المرة السادسة لذكر قصة آدم في القرآن، بعد البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف، ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه بعد أن عظم أمر القرآن وأبان ما فيه من الوعيد لتربية التقوى والعظة والعبرة، أردفه بقصة آدم للدلالة على أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم، وأنهم ينسون الأوامر الإلهية كما نسي أبوهم آدم، ثم ذكر إباء إبليس السُّجود لآدم للتحذير من هذا العدو، الذي أخرج بوساوسه آدم من الجنَّة، ثم بين جزاء المُطيع للهدي الإلهي وجزاء المُعرض عنه، وأنه سيحشر أعمى عن الحجة التي تُنقذه من العذاب، بسبب إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التي تهديه إلى سبيل الرشاد[١].

وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أن النسيان وامِّحاء العزم هما سبب هبوط المرء إلى المعصية، ونستطيع أن نقول بناء على هذا أن التذكر وانعقاد العزم هما سبب صعود المرء إلى الرشد والخير، والصعود والهبوط، أو ما لم يكن هناك مثل أعلى ينسب إليه سلوك المرء، وتقاس به الأقوال والأفعال فيعرف الصالح والفاسد، والطيب والخبيث فإن السبل تشتبه، والأعمال تختلط، والقيم تتشابه، ويصبح المحسن والمسيء في ميزان تلك الفوضى متماثلين في الجزاء والتقدير.

لذا ترى الآية الكريمة قد تضمنت الإشارة إلى ذلك القياس، وذلك المثل الأعلى، إذ قالت: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾، فعهد الله ـ سبحانه ـ من أمر

(١) التفسير المنير، الزحيلي، مصدر سابق، ١٦/ ٢٩٥.

ونهي هو المرجع الذي يُرجَع إليه ليُعرف على ضوئه صعود الأعمال أو هبوطها، حسنها أو قبحها، خيرها أو شرها، فنحن ـ إذن ـ بإزاء ثلاثة أمور تقررها الآية الكريمة بشأن الصلاح والفساد وهي:

ـ عهد الله الذي يصف لنا الخير فنتبعه والشر فنجتنبه.

ـ نسيان العهد وذكره.

ـ امِّحاء العزم أو انعقاده[1].

١ ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾:

وعهد الله إلى آدم هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة، تتمثل في المحظور الذي لا بدَّ منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد؛ فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها، وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري. وكلما ضعفت أمام الرغبة وتهاونت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى، من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختيار إرادته، وتربية قوّة المقاومة فيه وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشَّيطان، وإرادته وعهده للرحمن[2].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾: أي أمرنا ووصّينا ووعظنا.

﴿مِن قَبْلُ﴾ هذه الكلمة لها دور في القرآن وقد حسمت لنا مواقف عدة، منها

(١) آدم عيه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٣.

قوله هنا في آدم والمراد: خذ لهم أسوة من أبيهم الذي كلفه الله مباشرة، ليس بوساطة رسول، وكلّفه بأمر واحد، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد: كُل من كُلِّ الجنَّة إلا هذه الشجرة، هذا هو التكليف، ومع ذلك نسي آدم ما أُمر به(١).

وفي القصة عهدان عهد الله بهما إلى آدم: أحدهما خاص والآخر عام، فالعهد الخاص حيث أمره ونهاه وحذره.

ـ أمره أن يسكن الجنَّة وزوجته، وأن يأكلا منها رغداً حيث شاءا.

ـ ونهاه أن يقرب شجرة بذاتها بيّنها له وحذره الشَّيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

والعهد العام يتعلَّق بفطرته عليه السلام إذ يقول تعالى في تقويمه الروحي: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، وإذ يقول تعالى في تقويمه العقلي: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وقد قدمنا خصائص كل من التقويم الروحي والتقويم العقلي ولا سيما خاصيته المعنوية التي تدرك شواهد الربوبية والخالقية في الكائنات، ومما قدمنا في كثير من مواطن هذا الكتاب يتبين أن هذه الروح العلوية، وتلك الخاصية الفكرية، هما التأهيل الخلقي الوحيد في تكوين الإنسان الذي يقيم به شأنه في هذه الأرض على أساس معرفة الله، فهما الجهاز الذي عليه جماع تكوين آدم، والإنسان بمحض التكوين أو الخلقة مفطور على معرفة الله، ولهذا دعاه الله تعالى إلى تلك الخاصية الفطرية ليعدل نهج نظره في الحياة بمعاييرها، إذ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

قال القرطبي في تفسير هذه الفطرة في تلك الآية: وقال ابن عطية والذي

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤١٥.

يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي هي نفس الإنسان، وهي مُعدَّة ومُهيَّأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه[١].

فهذا الاستعداد الخلقي الفطري، لتمييز مصنوعات الله والإقرار بربوبيته، هو عهد من الله تعالى لآدم عهد تكوين وفطرة لا عهد وحي وشريعة.

وإذا كان هذا العهد فد بث خصائصه وقواه في تكوين آدم ابتداءً فقد انتقلت إلينا ـ نحن أبناءه ـ بطريق الوراثة تلك الخصائص والقوى، فكانت هي التأهيل الرباني الذي أعلن عنه عهد الربوبية، إذ قال تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبهذا العهد كانت للإنسان صلاحيته لتلقي وحي الله، وحمل ما في كلامه ورسالته من أمر ونهي وحلال وحرام وعقيدة وشريعة، ولهذا اجتمعت لهذا العهد مزايا العهد العام[٢]. وما ينزل الله من عهد للناس، أي من شرع يأمرهم فيه وينهاهم، لا ينابذ أحكام هذه الفطرة، بل يوافقها ويزكيها، ولو خلا الإنسان إلى فطرته ـ أي إلى عقله الروحي هذا ـ لاستقام على عهد الله وأفضل ما يتضمَّن من مثل عليا.. ولكن تلك الفطرة عُورضت بما في جانبه الحسي من قوى وميول، هي التي يسمونها الغرائز، أو بعبارة أصح عورضت بقابلية هذه الغرائز للانحراف عن هداية الفطرة بما يُزيِّن لها الشَّيطان من غرور وأهداف لا حقيقة لها، وقد رأينا فيما تقدم كيف أن الشَّيطان حين سول لآدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة لم يأته من قبل صوابه الروحي، بل من قبل غرائزه، حتى تحولت عن عهد الله إلى ما أراد لها من المعصية، ولكن كيف وقعت المعصية؟ أو كيف كان النسيان، فكانت المعصية؟[٣].

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٥٠.
(٣) المرجع نفسه، ص١٤٥.

٢ ـ ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ :

هناك من العلماء من يرى : (نسي) هذا العهد ونسي تلك الوصية ، ولم يعص عن عزم وتصميم ، لكنَّ معصيته جاءت عن نسيان وسهو[١] .

ويرى الدكتور سلمان العودة : أما نسيان آدم بالأكل من الشجرة ، فكان مقصوداً ، وكان حالة استسلام لإغراء الشَّيطان وتصديقاً لزعمه ، ولذا نزلت رتبة آدم عن أولي العزم وهم : (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ) وهو النسيان الذي يرفع عنهم المؤاخذة والعتب ، لأنهم فعلوا أو تركوا من غير قصد[٢] .

وهل نسيان آدم عليه السلام نعمة؟ أو رحمة؟ أو زلّة مكتوبة لنفاذ القدر باستخلاف البشر؟ كانت حالة ضعف أو غفلة أو ذهول ، حالة صراع وتردد بين الإقدام والإحجام ، حالة قصور في التذكر بسبب تحرك غريزة أخرى وسيطرتها مثل : غريزة الاستكشاف أو حب البقاء ، أو التملُّك أو الشهوة ، نسي الحال التي كان عليها عندما عهد الله إليه .

كثيرون يمرون بمرحلة إشراق وحماس ثم يعتريهم فتور يجعل التأويل والتملُّص والبحث عن المخارج وسيلة للتجاوز ، وهو لم ينس المعلومة ، ولكن نسي أهميتها وجدارتها وشعوره القوي تجاهها حين أدركها أول مرة .

في الأرض كان آدم وزوجته محتاجين إلى أن يتناسوا ما كانوا عليه في الجنَّة ليتكيفوا مع الأرض وطبيعتها ، ولا ينكفئوا على أنفسهم دون أن ينسوا ذنبهم ولو للحظة .

---

(١) تفسير النابلسي ، مصدر سابق ، ٧/ ٣٧٦ .

(٢) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين ، سلمان العودة ، مصدر سابق ، ص٨٦ .

ما هو النسيان؟

هو أن تفقد معلومة أو تفقد حيوية المعلومة وحرارتها وعمقها في قلبك وتأثيرها فيك. وتشرق الفكرة عندي أحياناً بصورة رائعة وأتحدث عنها مع أصدقائي بطريقة مؤثرة فعالة ومقنعة، وبعد فترة أسبوع تعود الفكرة فتأتي خاملة هامدة غير مؤثرة حتى كأنها غير الفكرة الأولى، وبعض الكتب ليس فيها الكثير من المعلومات لكن فيها روح.

لقد بقي ذنب آدم عليه السلام أمام عينيه حتى هرب من ربه حياءً وخجلاً، النسيان كان من قبل، والذكر الدائم كان من بعد، وظل إلى الأبد حتى يوم القيامة يذكر ذنبه ويعتذر عن الشفاعة، الخطير أن يحيط النسيان بالعبد قبل الذنب وبعده ويمضي قدماً لا يلوي على شيء.

تميز آدم بالذاكرة الإنسانية والحفظ ولذا وُصف بالنسيان، النسيان استثناء في مقابل تعليم الأسماء كلها وإلهام اللغة كما المعصية استثناء والأصل الاستقامة(١). فكما أن آدم عليه السلام ورث ذريته الذاكرة الجيدة المصممة لبناء الحضارة وتطوير المعرفة، فقد ورّثهم النسيان المساعد على التكيُّف والتجدد وتجاوز العثرات.

كلنا ننسى بعض أعمارنا، أو ننسى العمر كله، لأن العمر يطول ويتسع بالإنجاز والتأثير وعمل الخير وليس بعدّ السنين فحسب:

قد يَهُون العُمرُ إلا ساعة ... وتهون الأرض إلَّا موضعا

أضف إلى عمر الطفل عند ولادته سنة، فهي أهم مرحلة في حياته وهي تحدّد مساره وصحته وذكاءه ومزاجه وشكله وأشياء كثيرة في حياته.

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص٨٨.

الصينيون يعدّون العمر منذُ الحمل.

والذاكرة انتقائية متنوعة، فمنها ذاكرة الأرقام أو الأسماء أو الوجوه أو الأفكار أو المبادئ، فما حُفظ في الطفولة يصعب نسيانه وهو نقش على الحجر، والتعويد والتربية للصغير على الأوراد والصلاة بالكلمة الطَّيِّبة والاعتماد على النفس وخدمة الغير، والبر والكرم والجود والفضيلة يحفظ حياته ويزكي عمره[١].

إن النسيان فطرة في الإنسان، وقد يكون إحدى النعم الكبرى حتى لا ينفجر الدماغ، وإن الله تعالى لا يؤاخذ على النسيان بالإثم والعقاب الأخروي، ولكن يرتب عليه المؤاخذة والمسؤولية في أمور الدنيا والتعويض للآخرين لتمام العدالة وحفظ الحقوق، ووقع النسيان لآدم عليه السلام، ولذلك يُقال: إن أول ناسٍ هو أول إنسان ويُقال: وما سُمِّيَ الإنسان إنساناً إلا لنسيانه، وقيل: سُمِّيَ إنساناً من الأنس، وحصل النسيان مع آدم وأصبح النسيان من طبيعة بني آدم، قال رسول الله ﷺ: «**ونَسيَ آدمُ فنَسيَت أمَّتُه**»[٢].

إن الله عزَّ وجلَّ بين من خلال قصة آدم عليه السلام أن الطبيعة الإنسانية تنسى، وأنها إذا لم تُذكَّر بشرع الله ولم تُقوَّ الإرادة برجاء الثواب وخوف العقاب لا تكون للإنسان عزيمة. وآدم أبو البشرية في هذا الوقت الذي نسب الله تعالى إليه أنه نسي، ولم يجد له عزماً، كان وهو على الفطرة الأولى التي لم يكن فيها شرائع مدونة قد جاء بها رسل، ولم يكن قد تسلط عليهم إبليس اللعين، وكل هذا التسلط منه على ذرية آدم بعد أن هبط من الجنَّة إلى الأرض[٣].

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، المرجع نفسه، ص٨٩.

(٢) سنن الترمذي: رقم ٣٠٧٦، وهو حديث حسن صحيح.

(٣) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٧٩٧.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾، أي من قبل الشرائع والرسل، أو من قبل أن يقع، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: والمعنى عهد الله تعالى لآدم قبل أن يوسوس إليه الشَّيطان، وهذا العهد هو أمر الله وتكليفه، وإن لم يكن في دار التكليف، وكل أمر من الله تعالى هو عهد بين العبد وربه، وذلك العهد هو قوله تعالى: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولقد بيَّن الله تعالى أن ذلك عهد مؤكد، وقد أكده سبحانه بـ «اللام» وبـ «قد»، وبإضافة العهد إليه سبحانه وتعالى، وأنه وثق على آدم أشد توثيق، ولقد ذكر سبحانه وتعالى وصفين لآدم أحدهما إيجابي والثاني سلبي، أما الأول فهو النسيان فقد قال: (فنسي)، «الفاء» للعطف و(نسي) منصبة على العهد، أي فنسي العهد ووقع في المحظور الذي حذره منه، وليس ذلك ما يكون غضاضة على آدم، لأن الله تعالى يصف الطبع الإنساني، وأنه يعرض له النسيان وتعرض له الغفلة، وما يقع فيما يُنهى عنه إلا وهو ناس غافل.

الأمر الثاني، وهو السلبي ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ أي عزيمة صادقة تحزم أموره وتقطعها وعبَّر سبحانه بهذا القول ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ عن الأمر الواقع، والله تعالى يعلم به من قبل أن يقع، فقد قدر الله تعالى كل ذلك وعلم ما وقع قبل وقوعه، فكيف يقول: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ وهو الذي خلقه وصوره وقدره، ونقول: إنه وجده واقعاً، وهو يعلم علماً أزليّاً، لأنه هو الذي خلق وصور، وإن إبليس وذريته يجيئون إلى ذرية آدم من نسيانهم وغفلتهم ونقص عزيمتهم، كما جاء إبليس اللعين إلى أبي الإنسانية من جهة نسيانه، وأنه لم يكن له عزم مانع، فليحذر الناسي بعد أن جاءتهم الشرائع من وسوسة إبليس وذريته[1] وأتباعه وجنوده.

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٤٩٧.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: والعزم هو التصميم والتصلب، ويحتمل ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ على القيام على المعصية، فيكون إلى المدح أقرب.

ويحتمل أن يكون المراد، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ على ترك المعصية، أو لم نجد له عزماً على التحفظ والاحتراز عن الغفلة، أو لم نجد له عزماً على الاحتياط في كيفية الاجتهاد إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد(١)، وهناك من قال: عزماً تصميماً صلباً أن يصابر ويجاهد الفتنة ويربط على قلبه إرادة نافذة لحفظ الوفاء بعقد التذكّر والطاعة لله أبداً عبر كل بلاء(٢). ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن آدم عليه السلام ما عصى ربه إلا بعد أن صارت له الإرادة الحرة في الإقدام على الفعل أو الإحجام، فيستطيع بإرادته الإقدام على الطاعة أو العصيان، وهو بهذا العصيان قد غوى أي ضل عن الطريق السوي الذي أمر الله به. ونتأمل هذه الآية مرة أخرى فنرى أن الحكيم الخبير امتحن سيدنا آدم من قبل أن يعهد إليه خلافة الأرض، ولم ينجح عليه السلام في ذلك الامتحان، ولكن الله عزَّ وجلَّ لم يتركه، بل تداركه برحمته فاجتباه وهداه(٣) كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٧]:

١ ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]:

قال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الله أمر الملائكة

---

(١) تفسير الرازي، مصدر سابق، ٨/ ١٠٦.
(٢) التفسير التوحيدي، الترابي، مصدر سابق، ١/ ٧٥٣.
(٣) آدم عليه السلام خلقه ومعصيته، إبراهيم النعمة، مصدر سابق، ص٣٧.

بالسُّجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى أن يسجد، فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار، وذكر عنه الإباء أيضاً في الحجر في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٣١].

وقوله تعالى في آية الحجر هذه: ﴿ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ يبيّن معمول (أبى) المحذوف في آية (طه) هذه التي في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أي: أبى أن يكون مع الساجدين، كما صرح به في الحجر، وكما أشار إلى ذلك في الأعراف في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]، وذكر عنه في سورة ص الاستكبار وحده في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٤]، وذكر عنه الإباء والاستكبار معاً في سورة البقرة في قوله: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] [١].

وقال السعدي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء وفضَّله وكرَّمه، أمر بالسُّجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسُّجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه وامتنع من السُّجود لآدم وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ فتبيَّنت حينئذٍ عداوته البليغة لآدم وزوجه، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجته منه[٢].

٢ ـ ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧]:

وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره عقب نشوزه وعقابه، والامتناع عن السُّجود لآدم كما أمره ربه: ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾، فالشقاء بالكد والعمل والشرود والقلق والحيرة، واللهفة والانتظار

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١٠٦.
(٢) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مصدر سابق، ٢١/ ٢٠٩.

والألم والفقدان، كلها تنتظر هناك خارج الجنَّة، وأنت في حمى منها كلها ما دمت في رحاب الفردوس[(١)].

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ بصيغة الإفراد، ولم يقل فتشقيا. لماذا؟ لأن مسؤولية الكدح والحركة للرجل، وأما المرأة فهي في السكن المريح المنشط لصاحب الحركة، على خلاف ما نرى في مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة من تبعات الحياة[(٢)].

وقد تحدث الشيح أبو زهرة عن تفسير الآية فقال:

ـ (الفاء) للسببية، لأن ما قبلها سبب لما بعدها، فالحكم بأنه عدو لآدم وزوجته مترتب على امتناعه عن السُّجود، وما سوغ له الامتناع هو توهمه أنه خير منه، وأنه يحسده على منزلته عند ربه، وأي عداوة أقوى من ذلك، وإذا كانت العداوة قد بدت فتوقُّع الشَّرِّ والإيذاء يقترن بها لا محالة، ولذا أكد الله هذه العداوة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، وأكد العداوة بـ (إنّ) المفيدة للتوكيد وبالجملة الاسمية وبالإشارة؛ لأن الإشارة متجهة نحو ما بدا منه وهو كلامه وامتناعه عن السُّجود، فالإشارة تشير إلى سبب العداوة، وإذا ثبتت العداوة فلا بد أن يتوقع آدم نتائجها وهي محاولة إخراجه من المكان الذي كُرِّم فيه وكان السُّجود والخضوع فيه، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، (لا) ناهية، والنهي وقد أكد بنون التوكيد الثقيلة، وهذا يفيد بأن الخروج من الجنَّة يترتب عليه الشقاء[(٣)].

ـ وفي قوله ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ لم يقل: فلا يخرجنكما من الجنَّة فتشقيا، بل قال:

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٤.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤٢٨.
(٣) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٧٩٩.

﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾، لأن السعي لطلب الرزق والكدّ على الرجل في نظر الدين الإسلامي، وأما الأمومة والتربية فعلى المرأة، فالرجل يعمل، ليكسب الرزق، والمرأة تربّي الأولاد، وتنشئهم تنشئة عالية.

فالرجل يعمل خارج البيت لكسب الرزق، وأخطر عمل تقوم به المرأة على وجه الأرض هو تربية الأولاد، فمن أجل أن يكون الأولاد في المجتمع صالحين لا بدَّ لهم من أم رؤوم تحنو عليهم وتخصِّص وقتها لهم فلذلك قال: ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أي: فتشقى وحدك، إنها في البيت وأنت خارج البيت، لأنك مكلف بكسب المال، فالرجل يأتي إلى البيت متعباً وليس التعب تعباً ماديّاً فحسب، بل تعب نفسي أيضاً، فإن صعوبات الحياة والمتاعب والعقبات كلها يواجهها الزوج على وجه صارخ، وأما الزوجة فهي في بيتها ناعمة البال، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وعلى الزوجة أن تقدر مشاق كسب المال، وأحوال الحياة الصعبة، فلا تُثقل على زوجها ولا تُحمِّله ما لا يُطيق. وقد كانت نساء السلف رضوان الله عليهن تقول إحداهن لزوجها: يا فلان نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، فاتق الله فينا[(١)].

فقد قال رسول الله ﷺ: «**أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة**»[(٢)]: أي المرأة التي ترضى باليسير الودود الولود، التي تكتم نقاط الضعف في زوجها عن الناس، ولا تفضحه، والمرأة الصالحة تكون عوناً لزوجها على الشَّيطان، ولا تكون عوناً للشيطان على زوجها[(٣)].

---

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٩/ ٤٧٩٩.

(٢) المرجع السابق، ٧/ ٣٧٨.

(٣) المرجع نفسه، ٧/ ٣٧٨.

رابعاً: قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١٢٢]:

١ ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]:

بيَّن الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين أن في الجنَّة كل ما يطمع فيه الإنسان من حياة هنية فيها كل مرافق قوامة الآدمي من أكل وكسوة، وشرب وإقامة، وفي ذلك إشارة إلى ما يجب أن يطلبه، فإذا كُفي هذا فقد أُوتي الدنيا بحذافيرها، فإن وراء المطامع الأخرى من جاه وسلطان وتحكم المصارع كما قال عليّ رضي الله عنه: مصارع الرجال تحت بروق المطامع.

ومعنى الآيات: أنك تجد كفايتك في الحياة فتجد الطعام الذي تأكله واللباس الذي يقيك العري والماء الذي تشربه والسكن الذي يؤويك وحسبك ذلك وكفى[١]. وقال البيضاوي في هذا النص القرآني الكريم: إنه بيان وتذكير لما له في الجنَّة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن، مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيلها[٢].

أي أنه ذكر هذه الكفاية وهي الطعام والكسوة والشراب والمسكن بصيغة النفي، لأن عدمها هو موضع التحذير والمنع، ولأن عدمها هو الشقاء في الجنَّة، وقد نفى بذلك أنه لا يشقى في الجنَّة، إنما الشقاء في غيرها، وإبليس العدو يعمل على شقائكما وكدحكما، إذ أخرجكما من الجنَّة فلا تطيعاه. وقد أشرنا إلى أن هذه الأمور يجب أن تكون مطلبك يا آدم، وإن في طلب غيرها التناحر

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٧٩٩.
(٢) المرجع نفسه، ٩/ ٤٧٩٩.

على البقاء، ومعه الشقاء، وهذه موعظة لمن أراد جنة الدنيا دون شقائها .

وفي الآيتين من أساليب البيان، فذكر المطلب الأساس للإنسان «إن لك» مؤكداً أن له الأكل والكسوة والشراب والمأوى، هذا لك وحده ليس لك غيره في الجنَّة، فيجب الاقتصار عليها في الحياة التي تستقبلك(١) .

وفي الآيات : مقابلة بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذله، والعري جوع الظاهر وذله، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما(٢) .

وقال ابن القيم : تأمل كيف قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى والواقف مع القالب، ربما يُخيَّل إليك : أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة، لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى، لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً(٣) .

وفي هذه الآيات راعى الله عزَّ وجلَّ جانب المعنى، لأن الجوع خلو الباطن عن الغذاء، والتعري خلو الظاهر عن الثياب، و«الظمأ» احتراق الباطن بالحرارة، «والضحى» احتراق الظاهر فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها(٤) .

---

(١) تفسير أبو زهرة، ٩/ ٤٨٠٠ .

(٢) بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، ٣/ ١٧٠ .

(٣) بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، ٢/ ١٧٠ . بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، ٣/ ٢٤٠ .

(٤) بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، ٣/ ١٧١ .

٢ ـ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]:

أ ـ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾: نلاحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشَّيطان اسماً يناسب الإغراء بالشيء، وهي كلمة «الوسوسة» وهي في الأصل صوت الحليّ أي: الذهب الذي تتحلى به النساء، كما نقول: نقيق الضفادع، وصهيل الخيل، وخوار البقر، ونهيق الحمير، وثغاء الشاة، وخرير الماء، وحفيف الشجر، وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذي يجذب الأسماع ويُغري بالتطلع إليه، وأن الحق سبحانه يحذرنا أن الشَّيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين[١].

قال الشنقيطي: اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي: كلَّمه كلاماً خفيفاً فسمعه منه آدم وفهمه، والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسّر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة، وقد أوضح هذا في سورة الأعراف وبيَّن أنه وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم، وذلك في قوله: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢١ ـ ٢٢][٢].

ب ـ ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾:

وهذا من وسوسة إبليس لآدم عليه السلام، ونحن نعجب لإبليس ما دمت

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤٣٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١١٠.

تعرف شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى، لماذا لم تأكل منها وتحوز هذه الميزة[١].

لقد استطاع إبليس أن يلمس في نفس آدم عليه السلام الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة، ومن هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة، وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشَّيطان وآدم عليه السلام مخلوق بالفطرة البشرية وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. من ثم نسي العهد وأقدم على المحظور[٢]، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ...﴾ للتنبيه أي أن هذه الشجرة التي نُهي عن الأكل منها هي شجرة الخلد، مَن أكل منها نال الخلود والبقاء والسيطرة والسلطان[٣]. وجاء إبليس لآدم عليه السلام بصورة الناصح وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم عليه السلام[٤].

وفي هذه الآية إشارة ربانية إلى بعض غرائز الإنسان الأصيلة، كغريزة حب الخلود فهي ليست عارضة، بل هي سرٌّ مُقيم فيه ما قامت به الحياة واستقامت له الظروف على ما يحب، أي أن اتجاهه إلى «حب الخلود» اتجاه طبيعي دائم غير متقطع ولا موقوت بأجل، وقد ورد في البحوث الخاصة بالغرائز عبارات:

- (المحافظة على النفس).
- (وغريزة المقاتلة).
- (وغريزة الخلاص أو الهرب).
- (غريزة الاستغاثة).

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤٣٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٤.
(٣) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٨٠٠.
(٤) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٥/ ١٩٥ ـ ١٩٧.

ـ (غريزة البحث عن الطعام).

ولا شك في أنها كلها معان تهدف إلى التشبث بالحياة ومدافعة كل خطر يتهدد بقاء الإنسان، أي أن ما ذهب إليه أصحاب البحوث يندرج تحت الميل الفطري إلى «الخلود» وهو الميل الذي استغله الشَّيطان في آدم عليه السلام، حين وقف يزين له الأكل من الشجرة.

وقد يبدو للنظرة العابرة أن غريزة «حب الخلود» أصل في فطرة الإنسان من «غريزة الزوج» فهي أولى أن تقدم عليها في «قائمة» غرائز الإنسان، لكن التأمل الدقيق لا يلبث أن يرينا غير هذا.

إذن، ما جدوى حياة أو نعيم يشعر فيه المرء بالوحدة، أو يشعر كأن جانباً من حياته يملؤه فراغ مقفر وخلوٌّ موحش... فالزواج هو تمام الوجود المعنوي للمرء أو هو السالب للموجب والموجب للسالب في حياة الإنسان، فليتم الوجود أولاً، ثم لنعمل على البقاء والتمسك بأسبابه[(١)].

وقد تحدث القرآن الكريم عن غريزة الزواج حين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته، وأن يتحول إلى أفق غرائزه، كان أول غريزة نوى إليها هي «غريزة الزواج» وذلك قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥].

وعلماء النفس يتكلمون عن «الغريزة الجنسية» وعن «غريزة الوالدية» ولكن ما جاء به القرآن أعمق وأصدق وأشمل، فالزواج ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلى الوالدية وشهوة الجنس، وهو نظام رباني يلتئم به شمل كل ما نرى، ويصلح عليه وجوده ويخرج به ثمره، والله سبحانه يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾.

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٣.

ولا يعلم أحد إلا هو سبحانه مدى سعة تلك «الكلية» التي تضمنها قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنها في مفهوم اللغة تنسحب على الأشياء جميعاً، ما نعلم وما لا نعلم، من حي وجامد، وصامت وناطق، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

فنظام الزواج ليس دائرة ضيقة، ولا أفقاً محصوراً أو مقصوراً على الإنسان والحيوان والنبات، بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى، وفطرة أزلية لا يلتئم شمل الشيء إلا إذا أخذت مكانها الطبيعي في وجوده، فهناك حنين أزلي، ونوع فطري يتجاذب به «أزواج» النوع الواحد بعضهما إلى بعض، فلا يُسعِدُ شوقَ أحدهما إلى الآخر، ولا يُسكِنُ قلقَه ويُكمل أمرَه ويُخرج ثمره إلا أن يلتقيا على السنة التي قررها الله سبحانه لأفراد نوعها، وهل السالب والموجب في الكهرباء إلا زوجان ينزع كل منهما إلى الآخر، ويرنو إلى الاتصال به، فإذا لم يتصل فهو في كساد وعطل في خلية الثمر والعمل، أما إذا اتصلا فما شئت من نار ونور وحركة وقوة وخير(١).

فالقصة الكريمة وهي تقرر غرائز الإنسان الأصيلة في بدء الوجود، جعلت أولى هذه الغرائز «غريزة الزواج»، والزواج الكامل بين أفراد الإنسان، هو ما رُوعي فيه أن يكون بين إنسانية إنسان وإنسانية إنسانة باقتران ذكر بأنثى، وأجمل ما في الإنسان إنسانيته، فإذا كل زوج في الأفق الإنساني حياة للآخر، وكلاهما في سماء الجمال التي لا يفتأ يطالعه فيها شموس وكواكب من الفضائل والمحاسن التي لا تُقدَّر(٢).

ومن عجائب خلق الله لإنسانية الإنسان أنها تنقسم إلى زوجين: سالب وموجب، وأن كلا الشطرين يرنو إلى الاتصال بالآخر شوقاً لما ينفرد به من

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٠.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٢.

خصائص التكرمة ونفائس المثل[١]. قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وأهم غرائز الإنسان التي جاءت في قصة آدم عليه السلام:

- غريزة الزواج.
- غريزة الخلود.
- غريزة التملُّك.
- غريزة التدين.

ولنرجع إلى غريزة الخلود فقد مارس آدم عليه السلام رغبات هذه الغريزة فبرزت في مجال نشاطها الأول مرة حين رأت في ثمر الشجرة المحرمة سبباً يصلها بسر الخلود، ولبى آدم نداءها واستجاب لتزيينها، فأكل من الشجرة، وسجل الرقيب العتيد أن «جهاز الغرائز في آدم سليم من هذه الناحية»[٢].

وثمة غريزة ثالثة تعرضها علينا القصة الكريمة، تلك هي «غريزة الملك» وهي القوة التي ناغاها إبليس في آدم ونبَّهها في نفسه لأول مرة وهو يقول له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد تطغى غريزة التملُّك في الإنسان، فيصير بها عنصراً فاسداً في الأرض وآلة تخريب وتدمير، وقد تعتدل وتختلف بالأهداف السامية، فيكون بها عنصر خير وبر وعمارة. وفي القرآن الكريم مثل تاريخية واقعية تُبيِّن طغيان تلك الغريزة في نفوس أصحابها أو اعتدالها، وتبيِّن أثرها الاجتماعي في الحالتين، ولكنا لسنا بصدد بيان شيء من ذلك، وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية التي تنزع إلى ملك ما يمكن ملكه.

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٢.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٣.

وقد ذكر العلماء قائمة غرائز الإنسان ومنها «غريزة التملُّك» وذكروا جانبها «غريزة السيطرة»، ونحسب أن السيطرة نتوء يتفرع من غريزة الملك ليشمل التسلط على الناس بعد أن شمل معنى السيطرة على ما يُحاز من أنواع المال والمتاع[١].

٣ ـ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]:

ما ذكره الله جل وعلا في آية (طه) هذه من ترتُّب بدوِّ سوآتهما على أكلهما من تلك الشجرة، أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله فيها أيضاً: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ [الأعراف: ٢٧][٢].

وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوآتهما، وأنهما لما أكلا الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوآتهما أي عوراتهما، وسُمِّيت العورة سوأة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنَّة كما قال تعالى في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ [الأعراف: ٢٢][٣].

وبمجرد أن أكلا منها بدت لهما سوآتهما أي عوراتهما، فالعورة يسوء النظر إليها، وليس النظر إليها سارّاً عند أهل الطبائع المستقيمة، وكشف السوأتين في هذا الموضع فهم منه بعضُ القارئين للقرآن الكريم أن الشجرة الممنوعة تتعلق بالجنس، ولكن الله لم يبين ورسوله لم يفسر، فحق علينا ألا نخوض فيما ليس لنا

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، ص١٤٤.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١١٣.
(٣) المرجع نفسه، ٤/ ١١٣.

به علم[١]. ومهما يكن من حالهم التي انكشفت فإن آدم الكريم عصى ربه الذي خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ولم يكن في طاعة تقيه ذلك الانكشاف وتجنبه إبليس ووسوسته[٢].

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي ضل عن طريق الرشد واغتر بكلام عدوه، ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحده دون حواء، مع أنها أكلت معه، لأن آدم هو المقصود في القصة وحواء تبع له في الحكم[٣].

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود في الجنَّة والبقاء في نعيمها، فلم ينل بأكله من الشجرة ما أراده لأنه إنما أكل منها ليصير ملكه دائماً، فلما أكل منها زال ملكه وخاب سعيه وضل عن المأمور به، وهو التباعد عن الشجرة الذي أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، لأن الغي خلاف الرشد وقيل: فسد عليه عشية بنزوله إلى الدنيا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ أي: خالف نهيه، فالعصيان: هو المخالفة، لكنه خالف مخدوعاً لاعتقاده أنه لا أحد يحلف بالله كاذباً، أو لأنه اعتقد أن النهي قد نسخ لما حلف له إبليس، أو لأنه اعتقد أن النهي عن شجرة معينة، وأن غيرها من بقية أفراد الجنس ليس منهياً عنه[٤].

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، أي: ثم بعد ما صدر من آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره، فتاب عليه وهداه إلى ما يُرضيه،

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٨٠١.
(٢) المرجع نفسه، ٩/ ٤٨٠١.
(٣) روح المعاني، الآلوسي، مصدر سابق، ٦/ ٢٧٥. التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٢٩٧.
(٤) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله العمروري، سورة طه ص١٧.

ولم يبيّن هنا السبب لذلك، ولكنه بيّن في غير هذا الموضع أنه تلقى من ربه كلمات، فكانت سبب توبة ربه عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]، أي: بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء وقد قدمنا في سورة البقرة: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وخير ما يفسر به القرآن القرآن[١].

والتعبير ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ «ثم» عاطفة للترتيب والتراخي، للإشارة إلى البعد بين المرتبتين مرتبة العصيان والغواية ومرتبة الاجتباء والهداية، وقد اجتباه ابتداء بأن جعله أو خلقه، واجتباه ثانياً بأن اختاره للاختيار، وتاب عليه من هذه المعصية التي عصاها فرجع الله تعالى إليه بالمغفرة، إذ تاب هو بالشعور بالخطأ وعاد الله تعالى عليه بالمغفرة ثم بالهداية بعد ذلك. وهذا المعنى يشير إلى أن الخطأ في طبيعة الإنسان، والتوبة خلق المهديين والله تعالى غفور رحيم[٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: وفقه سبحانه أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بيّن له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه[٣].

ومن الغرائز الأصيلة في الإنسان «غريزة التدين» ومن مظاهرها: الرجوع لله سبحانه وتعالى والإنابة إليه، والنزوع إلى غوثه ورعايته سبحانه، والفرق بين هذه الغريزة وغرائز الزواج والخلد والملك، التي تحدثنا عنها سابقاً، أن الأوليات قوى بشرية تعمل في حقل الماديات للإنسان، وأما هذه فذات مجال علوي، لأنها من خصائص الروح الذي نفخه الله في الإنسان، فالأوليات ينزعن به إلى الأرض، وهذه تذهب به صاعدة إلى السماء، فإذا ما استحقت الخصائص ذات الاتجاه المادي الحيواني أن تسمى «غرائز»، فأولى ثم أولى أن تسمى فطرة

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١١٩ ـ ١٢٠.
(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٨٠٢.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٥/ ٢٩٨.

التدين (غريزة)، لأن مدد الروح من الإنسان من أمر الله وهو أقوى وأدوم وآصل مما سواه، **ويظهر أثر تلك الغريزة بارزاً قوياً من حالتين متميزتين:**

الأولى: حينما يقع أهل الغفلة والشرود عن الله في كرب لا تنفع الحيل والأسباب في دفعه، وتغدو به حياتهم مهددة بالمصير الذي يهلعون منه، وإلى مثل ذلك يشير قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

فهم حينئذ إنما يندفعون إلى الله بدافع الفطرة المخبوءة التي طالما تجاهلوها، وأكثروا من إلقاء ركام الغفلة والشهوات عليها، حتى خيل إليهم أن ليس فيهم ما ينزع إلى السماء، فلما جاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أُحيط بهم، وعجزت الأسباب أن تمد لهم يد المعونة، وحاصرتهم الغفلة، وانحسر عن أذهانهم غرور الحياة الدنيا، فإذا بالفيض المحتبس ينبجس، وإذا بالقوة المطمورة تنبعث، وإذا هم بلسان الفطرة ـ لا بلسان الإرادة ـ يذكرون الله الذي نسوه ويدعونه تضرعاً وخفية: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وهذا الصنف من الناس لا خير فيهم غالباً، فإنهم لا يلبثون إذا نجاهم الله أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الإثم والغفلة: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وأما الحالة الثانية: فتقع لطراز من الناس ألطف حسّاً وأرقى بصيرة وأصفى نفساً، فهم حين لا يستطيعون دفع غريزة ولا مقاومة ميل إلى إثم ولا تبيُّن رشد وسط ما تنشره الشهوة المشتعلة من ضباب في أفق الصواب، فإذا قضت النفس وطرها سكن هائجه وخمد ثائره وانحسر ضباب الشهوة عنه وصفا أفقه، فإذا به أمام صحوة ضمير، ويقظة روح، وإشراق نفس، فيتبيَّن ضعفَه أمام ما كان، ويدركه الأسف وتثور به النفس وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأ من ضميره إلا أن

يقبل على الله تائباً مستغفراً[١]. ولقد أثنى الله سبحانه على هذا الصنف من عباده فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وتلك الحال الأخيرة تماثل ما ذكرت القصة عن آدم عليه السلام، فإنَّه ما لبث بعد المعصية أن أشرقت فطرته فتبين شناعة ما أتى، فلم يتمالك أن ضرع إلى الله من ذل معصيته: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وبهذه التجربة الرائعة سجلت القصة الكريمة نشاطاً لغريزة التدين، فعلمنا أن الإنسان محكوم بلونين من الغرائز: لون يمد له سبيل الفتنة والمعصية، وآخر يمهد له سبل الإنابة والمغفرة، وذلك هو مقتضى ما سُوِّي عليه من خصائص التراب وخصائص الروح، فهو متنازع بين هذين الطرفين الفطريين:

ـ ظلمة ونور.

ـ دنس وطهور.

ـ معصية وتوبة.

وذلك شأن النمط الأوسط من الناس، والله يُحِبُّ التوابين ويحب المتطهرين.

وليس من قصدنا أن نفصِّل أحوال الناس في التقلب بين هذين الطرفين، واختلاف حظوظهم من الاستجابة لهذا النوع أو ذلك، فلذلك مبحث آخر، فلنسجل ما تنص عليه القصة من أن الخطيئة بعص لوازمنا، وأن الإنابة إلى الله من

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٦.

أسمى خصائصنا، وألا ذنب مع إنابة، ولا خطيئة مع استغفار، ولا عقوبة إلا مع الإصرار، وأنه سبحانه أسرع مما يكون إلى عبده بالقبول حين ينكسر إليه ضارعاً من فراش الذلة والخطيئة والمعصية، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] (١).

وبعد: فهذه غرائز أربع كبار يتفرع منها سائر ما يعرف للإنسان من غرائز فرعية، وميول أخر، ومن مجموعها يتألف ما نُسمِّيه: جهاز الغرائز في الإنسان، وقد قصت علينا القصة الكريمة نبأ التجربة الأولى لكل غريزة من هذه الغرائز، وبهذا دخل آدم عليه السلام في أفق غرائزه بصفة عملية، وأثبتت خصائص بشريته وجودها وصلاحيتها للاتصال بما حولها، ولكن القصة الكريمة لم تكتف في باب الغرائز وأسمائها وتسجيل تجاربها الأولى، بل مضت في تعليل انحدارها وهبوطها تعليلاً يدرك به سبب الهمة والتماسك كما ندرك به سبب العزلة وانتقاض العروة على نحو ما سبق(٢).

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، مثَّل آدم صورةَ الإنسان العادي الذي يُطيع ويَعصي ويسمع كلام الشَّيطان، لكن ربه شرع له التوبة كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾.

إذن: عصى آدم وهو إنسان عادي، وليس وهو نبي، كما يقول البعض فقوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، هذه بداية مرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام و«ثم» تعني الترتيب مع التراخي، «اجتباه» اصطفاه ربه.

ولم يقل الحق سبحانه: ثم اجتباه الله، إنما ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ لأنه الرَّبّ المتولي

---

(١) آدم عليه السلام، البهي الخولي، مصدر سابق، ص١٤٧.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٧.

للتربية والرعاية، ومن تمام التربية وإعداد آدم لمهمته أن يمر بهذه التجربة وهذا التدريب في الجنَّة[١].

خامساً: قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧]:

١ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

أ ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ وبذلك أُعلنت الخصومة بين الثقلين، فلم يك هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أُخذتُ على غرة ومن حيث لا أدري، فقد درى وعلم، وأُعلن هذا الأمر في الوجود كله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ [٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطَا..﴾ بصيغة التثنية أمر لاثنين: آدم مطمورة فيه ذريته وإبليس مطمورة فيه ذريته، فقوله: ﴿ٱهْبِطَا..﴾ إشارة إلى الأصل وقوله في موضوع آخر: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ [البقرة: ٣٨] إشارة إلى ما يتفرع عن هذا الأصل[٣].

ـ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾: والمراد أنت عدو للشيطان إن كنت طائعاً لله، والشَّيطان عدوك، فإن كنت عاصياً فلا عداوة إذن، لأن الشَّيطان يريدك عاصياً[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٤٤٣٣.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٥.
(٣) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٥/ ٩٤٣٤.
(٤) المرجع نفسه، ١٥/ ٩٤٣٤.

وطبيعة الحياة الدنيا فيها ابتلاء وفيها امتحان في كل شيء، والإنسان في بعض الأحيان تكون امرأته عدوة له إذا حملته بطلباتها على معصية الله، وقد يكون الزوج عدوّاً لامرأته إذا حملها على معصية الله، وقد يكون الأب عدوّاً لابنه إذا سمح له الأب بشيء يرفع مقامه في الدنيا على حساب دينه، فيأتي يوم القيامة يقول: يا رب لا أُدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فكل إنسان حمل إنساناً على معصية، أو دفعه إلى مخالفة، أو كلّفه ما لا يطيق، فعصى الله عز وجل؛ فستكون له هذه العداوة الحقيقية[١].

ومع هذا الإعلان الذي دوَّت به السماوات والأرض، وشهده الملائكة أجمعون، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى، قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس أنه آتيهم بهدى منه، فنجاةُ كلٍّ منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى[٢].

ب ـ ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾:

والظاهر أن الخطاب لبني آدم، أي: فإن يأتكم مني هُدى أي: رسولي أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتبع منكم هداي أي: من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامتثل ما أمرت به واجتنب ما نهيت عنه على ألسنة رسلي، فإنَّه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وهذا المعنى المذكور هنا ذُكر في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في البقرة: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] ونحو ذلك من الآيات، وفي هذه الآيات دليل على أن الله بعد أن أخرج أبوينا من

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٣٨١.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٥.

الجنَّة لا يردُّ إليها أحداً منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع الله فيما ابتلاه به[١].

إن اتباع هدى الله فيه النفع والفلاح للإنسان، كما أنك إذا اتبعته في كل شيء لا تضل ولا تشقى، أي: لا يضل عقلك ولا تشقى نفسك، بل تسمو وترتقي وتنجح وتتفوق وتفلح وتحقق الهدف من خلقك على وجه الأرض، ففي هذه الآية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ طمأنينة عقليّة وقلبيّة، فإذا اعتقدت اعتقاداً موافقاً للقرآن الكريم، فلن تضل ولن تحار ولن تتفاجأ ولن يأتي يوم يكون الخبر عليك كالصاعقة، أو أن هذا الذي اعتنقته أصبح خرافة.

هذا في الإسلام لن يقع أبداً لأنك مع توجيه خالق الكون ومع الثوابت، وقد يقع ذلك في المذاهب الوضعية، كأن تعتنق مبدأ وتدافع عنه وتتحمس له وتبذل من أجله الغالي والرخيص والنفس والنفيس، ثم في نهاية المطاف تكتشف أن هذا المبدأ باطل، وأنه كلام فارغ لا معنى له، وأن كل المبادئ التي صدّقتها وعملت لها مبادئ خُلبيّة لا أصل لها في الواقع، ولم تؤتِ أُكُلَها إطلاقاً.

وهذا الذي يحدث لأهل الدنيا حينما يعتنقون مبادئ وضعية، يصابون بخيبة أمل كبيرة جدّاً فقد يُفسّر الإنسان حادثة، فإذا كان تفسيره مطابقاً للواقع ترتاح نفسه، وإن اكتشف أن هذا التفسير غير صحيح يحتقر نفسه ويحتقر عقله، فهنيئاً لمن وافق سلوكه الهدى الربّاني في زواجه وبيعه، وشرائه، وعقيدته ومعاملاته، وعلاقاته ومشاعره وعواطفه، والناس على صنفين: من اتبع الهدى، فلن يضلّ ولن يشقى، والصنف الثاني[٢] في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٥.
(٢) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٧/ ٣٨٢.

٢ ـ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه : ١٢٤ ـ ١٢٦] :

أ ـ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ :

واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة، ولا يُكذِّب بعضها بعضاً، وقد قدّمنا مراراً أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة، ومن الأقوال في ذلك : أن معنى ذلك أن الله عزَّ وجلَّ جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله والرضا بقسمته، فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسماح وسهولة فيعيش هنيئاً، ومما يدلل على هذا المعنى من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧].

*** وقوله تعالى :** ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود : ٣].

وأما المُعرض عن الدين فإنَّه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، ويُسلَّط عليه الشح الذي يقبض يده على الإنفاق، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره.

ـ كما قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١].

ومن ذلك : العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله، وبيَّن في مواضع أخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله، فإن عيشهم يصير واسعاً رغداً لا ضنكاً.

ـ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ـ وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

ـ وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧].

وعن الحسن، أن المعيشة الضنك: هي طعام الضريع والزقوم يوم القيامة، وذلك مذكور في آيات من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦].

ـ **وقوله**: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤]، ونحو ذلك من الآيات.

وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار، المعيشة الضنك: الكسب الحرام، والعمل السيئ. وعن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة، المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطته، وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (١).

وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر وبعض طرقه بإسناد جيد، كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية: ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا وطعام الضريع

(١) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، ٢١/ ٢١٨.

والزقوم، فتكون معيشته ضنكاً في الدنيا والبرزخ والآخرة والعياذ بالله تعالى[١]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فالحياة المقطوعة عن الله، ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع.

إن ضنك الانقطاع عن الله يتمثَّل في ضنك الحيرة والقلق والشك، ضنك الحرص والحذر، الحرص على ما في اليد والحذر على الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت، ولا يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله ولا يُحسُّ بالراحة النفسية إلا وهو متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ وانقطع عن الاتصال بي ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [٢].

ـ وقال السعدي: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة شاقّة، ولا يكون ذلك إلا عذاباً.

وفُسِّرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره ويحصره فيه ويعذبه جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

ـ والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٢].

ـ والثالثة قوله عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: ٤٦] [٣].

ومنهم من فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك ـ والله أعلم ـ لدلالة آخر الآية على عذاب يوم القيامة، وبعض المفسرين يرى أن

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٤/ ١٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٦.
(٣) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المغراوي، مصدر سابق، ٢١/ ٢١٩.

المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا، بما يُصيب المُعرِض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام التي هي عذاب مُعجَّل في دار البرزخ وفي الدار الآخرة، وفي الإطلاق تكون المعيشة كلُّها ضنكاً.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أي: هذا المُعرِض عن ذكر ربه، فإنَّه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فيقول على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾، فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب، فأُجيب بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك وعشوتَ عنه، ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحُشرت إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرض عنك الله ونسيك في العذاب[1].

ـ وقال ابن كثير: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وتناسى ما أنزلته على رسولي، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة[2].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]:

قال الشيخ محمد أبو زهرة: ذكر الله تعالى عقوبتين لمن أعرض عن ذكر ربه، أي عن الداعي لذكر ربه:

---

(١) تفسير السعدي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مصدر سابق، ٢١/ ٢٢٠.
(٢) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٥/ ٣١٧.

أولاهما: المعيشة الضنك، أي الضيقة التي تضيق فيها النفوس بتعلُّقها بالمطامع التي لا تُنال، وإن نيلت طلبت غيرها، وقد بين ابن كثير في تفسيره كيف كان الخلو من اليقين يجعل المعيشة ضنكاً، قال ابن كثير في معنى الضنك: أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح صدر، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة.

هذه هي العقوبة الأولى وقد أشرنا إليها من قبل، أما العقوبة الثانية فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾. وذكرنا أن العجز هو عن الحجة والبرهان حيث يجب الإدلاء بها، فهو عجز في موضع الحاجة، ذانكم عقابان أحدهما في الدنيا، وهو مشتق من ذات الجريمة فهو عقاب من ذات الفعل، والآخر وهو على ما لم يستعد له من الحساب وقد جاء من إنكار البعث، ولو كان آمن به فلم يستعد له، وما فوجئ به وأُرتج عليه، فكان هذا عذاباً شديداً لأن اللسان يقف حيث الحاجة أشد ما تكون إليه والبصر يكون عليه غطاء عند إرادة الإبصار.

هاتان العقوبتان قبل عذاب الآخرة الذي يكون بعد الحساب وتقدير الجزاء، وهذان العقابان ينالان من أسرف في أمره وانغمس في الشهوات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾، كهذا العقاب الدنيوي من إحساس بضنك العيش والضيق فيه والتبرم بحياته والإحساس بفقد الاطمئنان لأي شيء، والإسراف على نفسه باللذات وبالإحساس بالحرمان المتجدد الذي لا يشبع من لذة، كما هو شأن المسرفين في المعاصي، والمسرفين على أنفسهم، بقلقهم وعدم اطمئنانهم، ومع ذلك يكون إحساسهم كئيباً مظلماً بسد الطرق في وجوههم.

فالإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ هي إلى المعيشة الضنك

والحشر أعمى، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مفعول لـ ﴿ نَجۡزِي ﴾ والتعبير بالموصول ﴿ مَنۡ ﴾ للإشارة إلى أن الصلة، وهي الإسراف، سبب لذلك الجزاء. وقد بين سبحانه أن وراء هذا العذاب عذاباً أشد وأبقى فقال عز من قائل: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ وهو الذي يكون بعد الحساب، وتقرير أن الجزاء أشد لأنه بالنار، وهو أبقى أي إنهم يكونون في جَهَنَّمَ خالدين فيها وبئس المهاد[١].

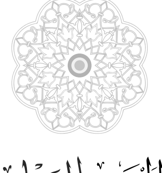
ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ذُخرٍ. وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خُلق له، فلم يبصر من آيات الله شيئاً، فلا جرم أن يعيش معيشة ضنكاً ويُحشَر يوم القيامة أعمى؛ إنه اتساق في التعبير، واتساق في التصوير.

هبوط من الجنَّة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنَّة ونجاة من الشقاء والضلال، وفسحة في الحياة يقابلها الضنك، وهداية يقابلها العمى... ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم ـ وهي قصة البشرية جميعاً ـ فيبدأ الاستعراض في الجنَّة، وينتهي في الجنَّة، كما مر معنا في سورة الأعراف مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك حسب اختلاف السياق[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، ٩/ ٤٨٠٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٤/ ٢٣٥٧.



المبحث السابع

قصة آدم عليه السلام في سورة ص

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٦٥ ـ ٨٨].

وأول مرة جاء الحديث عن قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم ونزول الوحي على النبي ﷺ في سورة «ص» المكية، ونلاحظ أن قصة خلق آدم وبداية الإنسان جاءت في سياق أمر الله عزَّ وجلَّ للرسول الكريم ﷺ بأن يعلن للبشرية جمعاء أن لله وحده الألوهية والربوبية في العالم كله، وجاءت القصة في سياقات أظهرت مجموعة من الفوائد والدروس منها:

ـ تقرير التوحيد بأدلته وعلاماته.

ـ تقرير نبوة محمد ﷺ، وأن ما جاء به وحي من الله، شواهده من الخبر عن الملأ الأعلى الذي لا يُعلم ما يَجري فيه إلا بوحي.

ـ إظهار عداوة إبليس لآدم وذريته.

ـ ذم صفة الكبر والحسد وبيان شرّها وأذاها على من اتصف بها.

ـ تقرير مبدأ الحوار والرد على إبليس بوضوح وصراحة تامة بالحجة البالغة[1].

وغير ذلك من الدروس والفوائد التي سنُبيِّنُها عند شرحنا للآيات بإذن الله تعالى.

أولاً: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٥ ـ ٧٠]:

١ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]:

قل أيها الرسول لأهل مكة: إنما أنا منذر من الله تعالى، أخوفكم عذابه ومخالفته، وآمركم بطاعته واحترام وحيه وكتابه، ولستُ ساحراً ولا كاهناً ولا كذاباً كما تدعون، إنما أنا رسول من عند الله، أحمل لكم وحياً من السماء، ولا أملك الهداية ولا أستطيع أن أجبركم عليها.

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، أما الأصنام التي تعبدونها فليست بآلهة، لأنها لم تَخلق ولم تَرزق، ولا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن أن تنفع غيرها.

---

(١) تفسير المدينة، نخبة من العلماء، مصدر سابق، ٢/ ٤٠٥.

أ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ :

ليس هناك من إله سوى الله تعالى، الواحد الأحد الفرد الصمد، والقهار الذي قهر كل شيء بعزته وجبروته، فهو خالق الكون، وهو رافع السماء، وباسط الأرض(١).

ـ من أسماء الله الحسنى الواحد القهّار :

أ ـ الواحد :

ورد اسم الله الواحد في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن، ومن ذلك :

ـ قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦].

ـ وقوله تعالى : ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل : ٥١].

ـ وقوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦].

وفي الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى يأتي الحديث عن أسماء الله «الواحد، الأحد»، ويقول الشيخ السعدي رحمه الله : «الواحد الأحد» هو الذي توحَّد بجميع الكمالات، وتفرد بكل كمال وجلال وجمال وحمد وحكمة ورحمة وغيرها من صفات الكمال؛ فليس فيها مثيل ولا نظير ولا مناسب بوجه من الوجوه، فهو الأحد في حياته وقيوميته وعلمه وقدرته وعظمته وجلاله وجماله وحمده وحكمته وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايته من كل صفة من هذه الصفات، فيجب على العبيد توحيده عقلاً وقولاً وعملاً بأن يعترفوا بكماله المطلق وتفرده بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة(٢).

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٦.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص١٠٦.

ب ـ القهار: ورد ذكر اسم الله «القهار» في القرآن الكريم ست مرات اقترن فيها باسمه «الواحد» ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وغيرها من الآيات.

وقال الخطابي: «القهار» هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق بالموت[١].

والقهار: اسم مبالغة «للقاهر» وهو الذي خضع له كل شيء وذل لعظمته وقوته كل شيء، لا يخرج شيء عن قدرته وتدبيره وملكه، وقهر كل الخلق بالموت، وهذا يفسر ـ والله أعلم ـ شيئاً من سر اقتران اسمه «الواحد» باسمه «القهار»، حيث إن من موجبات اسمه الواحد في ربوبيته وملكه وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يكون قاهراً قهاراً غالباً لكل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما من دابة إلا هو سبحانه آخذ بناصيتها ماض فيها حكمه عدل فيها قضاؤه، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] وكونه تعالى «الواحد» يقتضي كونه «القهار»[٢].

ووحدته تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً وذلك ينفي الشركة من كل وجه[٣]. إن القهر ملازم للوحدة فلا يكون اثنان قهاران متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده كما كان قاهراً وحده[٤].

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٤١٥. شأن الدعاء، الخطابي، مصدر سابق، ص٥٣.
(٢) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص١١٢.
(٣) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٤/٣٠٨.
(٤) المرجع نفسه، ٤/٢٩٩.

كما يشير هذا الاقتران إلى معنى بديع : وهو أن الغلبة والإذلال من ملوك الدنيا إنما يكون بأعوانهم وجندهم وعُددهم، والله تعالى يقهر كل الخلق وهو واحد أحد فرد صمد مستغنٍ عن الظهير والمعين؛ فاقتران الاسمين يشير إلى كماله سبحانه في تفرده وكماله في قهره[١] .

وقبل الحديث عن قصة بداية الإنسان وصراعه مع عدوه إبليس كانت الدعوة إلى توحيد الله من خلال التعريف بأسمائه الحسنى، وفي هذا الموقع كان الحديث عن «الواحد القهار» سبحانه .

٢ ـ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ [ص : ٦٦] :

فالله عزَّ وجلَّ وصف نفسه في الآيتين (٦٥) و(٦٦) بخمس صفات :

ـ أنه الإله الواحد لا شريك له .

ـ القهار الذي قهر كل شيء بقدرته .

ـ رب السماوات والأرض وما بينهما، حيث رفع السماء وبسط الأرض، وسخّر الهواء والفضاء، والرياح والسحاب والأمطار والنبات والليل والنهار .

قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه : ٦] .

ـ العزيز :

ـ الغفار[٢] :

من أسماء الله الحسنى : العزيز الغفار :

أ ـ العزيز : ورد ذكر اسمه «العزيز» في القرآن في اثنتين وتسعين مرة جاء في أكثرها مقترناً بأسماء أخرى من أسماء الله الحسنى، ومن ذلك :

---

(١) مطابقة أسماء الحسنى مقتضى المقام، نجلاء كردي، مصدر سابق، ص٤٩٢ .

(٢) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٦ .

ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ـ وقوله سبحانه: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

ـ وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

ـ وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

ـ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ـ وقوله: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

والله عزَّ وجلَّ هو العزيز بكل معاني العزة كما قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]. ويقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وهو العزيز فلن يُرامَ جنابُه أنى يُرامُ جنابُ ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معان

وهي التي كملت له سبحانه من كل وجه عادم النقصان[1]

ويوضح العلاّمة السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ هذه المعاني الثلاثة للعزيز، فيقول: «العزيز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته[2].

ب ـ الغفّار:

ورد اسمه سبحانه «الغفار» في خمسة مواضع منها:

ـ قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٤٠٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٠٦.

ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر : ٥].

ـ وقوله : ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح : ١٠].

فالغفار : الستّار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا : أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم(١).

وأما عن وجه اقتران اسمه سبحانه «العزيز» باسمه «الغفار»، فيمكن القول بأن الله عزَّ وجلَّ العزيز الغالب لكل شيء القاهر فوق عباده، قادر على أن يأخذ عباده بذنوبهم ويعذب من يشاء بأنواع العذاب، ولكنه سبحانه مع عزته وقهره إلا أنه غفور رحيم، وعفوه ومغفرته تكون منه سبحانه عن عزة وقدرة لا عن ضعف وعجز، فهو كامل في عزته وكامل في مغفرته، وكامل في الجمع بين مغفرته وعزته، والله أعلم(٢).

٣ ـ ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ :

تأتي هذه الفقرة تأكيداً لما مرّ في أول سورة «ص» من تنبيه للقرآن : ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾، حيث تنبّه على عظمة القرآن، وأهمية الوحي في التعليم والتوجيه والإرشاد والإسعاد والرقيّ، وهو يتحدث عن الملائكة وآدم وإبليس، وهي غيبية ما كان للنبي الأميّ علم بها إلا عن طريق الوحي. وتمهد الآيات لقصة آدم وإبليس، ولمحاورة ومناقشة بين الحق سبحانه وإبليس، وتصوّر الحكمة في خلق الخير والشر في هذه الحياة، وتنبّه البشر إلى رغبة الشَّيطان في إضلالهم، وأنه لا ملجأ للإنسان في هذه الدنيا إلا الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ، والتمسك بكتابه وهديه، والالتجاء إلى عنايته وفضله ورعايته وتوفيقه(٣).

---

(١) ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، مصدر سابق، ص٥٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٤١١.
(٣) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٥.

أ ـ ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ : إن خبر الوحي وإرشاد السماء واختيار رسول الله ليكون وساطة بين الله وبين خلقه نبأ عظيم وأمر خطير، فقد تفضَّل الله على عباده بأن أرسل محمداً ﷺ مبشراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.

إن هذا الوحي في حد ذاته شرف للإنسانية كلها، حيث اختار الله من بينها يتيماً فقيراً أمياً، وأنزل عليه الوحي من السماء لهداية الناس وإرشادهم[١].

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ قل لهم يا محمد: إن ما جئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون، وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون، وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب، إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله وشأن من شؤون هذا الكون بكامله، إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود، ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد، ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها، ويكيف مصائرها منذُ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له.

ولقد حُوِّل خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم، سواء في ذلك من آمن به ومن صدّ عنه ومن جاهد معه ومن قاومه في جيله وفي الأجيال التي تلته، ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم، ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال.

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٦.

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض، ويوجه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في مصير البشرية وواقعها، ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة(١)، والنبأ العظيم هو القرآن الكريم في كل ما جاء به.

ب ـ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ : لكن أهل مكة أخذهم الغرور والكبر، ومنعهم حب الذات والعظمة الكاذبة من أن يتبعوا هذا الرسول رغم الأمانة وفضل ما يحمله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وليت أمتنا تعيد النظر في أمر هذا الكتاب وهديه، وتشريعاته وآدابه وصفاته، لتتجه نحوه قراءة وحفظاً، وتدبراً وشرحاً، وعملاً به واقتداء، وتتمثله سلوكاً وخلقاً، إذن لعاد إليها المجد والخير والبركة والسعادة الحقيقية(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ومنع التقليد، لأن ما جاء به القرآن الكريم من مطالب شريفة وعالية من دعوة لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ونبوة النبي ﷺ، وإثبات الحشر والنشر والقيامة... إلخ، تحتاج لتدبر وتأمل وتفكر وإعمال للعقل حتى يكون الإنسان فيها على الحق، لكي يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل، فقد وقع في أعظم أبواب الشقاوة، فكانت هذه المباحث ومقاصد القرآن الكريم أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام، وألّا يكتفي بالمساهلة والمسامحة(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٥/ ٣٠٢٦.
(٢) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٧.
(٣) تفسير الرازي، مصدر سابق، ٩/ ٤٠٧.

٤ ـ ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: ٦٩]:

أي: لولا الوحي من أين كنت تدري باختلاف الملأ الأعلى في شأن آدم، وامتناع إبليس عن السُّجود، ومحاجته ربه في تفضيله عليه[١].

إن الملأ الأعلى اختصموا، وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال الرازي: وهو أحسن ما قيل فيه[٢]، ولا شك في أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة الحوار المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه[٣].

٥ ـ ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص: ٧٠]:

لقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم، وأمر محمد من عند الله اختياره من بينهم، لينزل عليه الذكر وكانوا يحصرون همهم في هذه الشكلية، فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جدّاً، وأنه أكبر منهم ومن محمد بن عبد الله ﷺ، وأن محمداً ليس إلا حاملاً لهذا النبأ ومُبلِّغاً، وأنه لم يبتدعه ابتداعاً وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه، وما كان حاضراً لما دار في الملأ الأعلى منذُ البدء إنما أخبره الله.

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وعند هذا يأخذ السياق في عرض قصة البشرية وما دار في الملأ الأعلى بشأنها منذُ البدء مما يحدد خط سيرها، ويرسم أقدارها ومصائرها وهو ما أرسل محمد ﷺ ليبلغه وينذر به في آخر الزمان[٤].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٨٧.

(٢) تفسير الرازي، مصدر سابق، ٩/ ٤٠٧.

(٣) المرجع نفسه، ٩/ ٤٠٨.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٥/ ٣٠٢٦.

ثانياً: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص : ٧١ ـ ٧٣]:

١ ـ ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ :

﴿ إِذْ ﴾ ظرف لما مضى من الزمان يفيد استحضار المشهد والتركيز على لقطة معينة منه، فكأنما هو شريط طويل إذ يوقفنا عند لحظة منه أو لفظة معينة منه، فتركز الأنظار عليها.

﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ : قال: فعل ماض كما هو معلوم، لكن كيف قال للملائكة وكيف أبلغهم وكيف أوصل لهم مراده؟ لا يعلم ذلك كله إلا الله، وليس مطلوباً منا معرفة كيف تم ذلك، فنكله إلى من أنزله سبحانه، مع يقيننا به وبحصوله، وأضاف كلمة الرَّبّ إلى ضميره ﷺ وهو ضمير المخاطب كما نقول في مثله دوماً للتكريم والتشريف والتلطف، أي:

- ربك الذي يربيك.
- ربك الذي يعلمك.
- ربك الذي يحفظك.
- ربك الذي يزكيك.
- ربك الذي يرفع شأنك[1].

﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ : الجماعة منهم أم لجميعهم؟ لا يعلم ذلك إلا الله، ولكن ظاهر اللفظ يوحي بالعموم، أم أن هذا العموم الظاهري مخصوص بخصوص الملائكة الذين لهم عمل مع هذا المخلوق سواء كان بتسجيل عمله أم الإيحاء له بالحسنى؟ أم بتأييده وتثبيته ونصرته ببث اليقين في القلب في مواطن اليأس

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص١٩٨.

والشدة والاشتباك؟ أم الملائكة التي تستلم أمانة الروح عند نهاية الأجل؟

كل ذلك محتمل ونكل تحديده وتعيينه إلى صاحب العلم المطلق سبحانه وتعالى، والعموم والخصوص حديث يطول ـ أقصد لفظ الملائكة بين العموم والخصوص ـ فقد عبر الله في قصة مريم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾، فاللفظ عام ولكنه قطعاً مقصود به الخصوص، أي من نزل على مريم وقد يكون واحداً أو جماعة صغيرة، والله أعلم، وعلم كل ذلك إلى العليم الخبير[١].

﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾: هذا أمر قد بُتَّ، وهذه كلمات لتعلموا فقط، و«إن» للتوكيد والياء ضمير المتكلم سبحانه بالإفراد، وهو هنا أليق.

﴿خَٰلِقٌۢ﴾ موجد منشئ، والخالق من أسمائه سبحانه، وهو خالق كل شيء بمعنى موجد من العدم، وعلى غير مثال سابق.

﴿بَشَرًا﴾ مفعول به لاسم الفاعل، والبشر من أسماء النوع الإنساني، ومن أي شيء اشتقاقه؟ أمِن البشرة أم من البشارة، إذ هي التي يعرف بها وهي التي تظهر منه؟ أم لا من هذا ولا هذا؟ كل ذلك محتمل، والبشر: مرادف الإنس أي إني خالق إنساناً، وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم أو أن الله وصف لهم حقيقة الإنسان، بالمعنى الذي عبر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى[٢].

﴿مِّن طِينٍ﴾: فالتراب إذا بُلَّ بالماء يصير طيناً، فإذا أنتَن يصير حمأً مسنوناً، فإذا يبس يصير صلصالاً كالفخَّار، ومرّ معنا أنَّ علم التحليل الكيميائي أثبت أن بُنية الإنسان المادية مكونة من عناصر التراب[٣].

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، المرجع السابق، ص١٩٨.
(٢) تفسير الطاهر بن عاشور نقلاً عن تفسير سورة الحجر، مصدر سابق، ص٢٠٠.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٧/ ٢٢٦.

٢ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] :

وقصة هذا المخلوق «آدم عليه السلام» مستمرة، وهذه مسألة أخرى تتعلق بأمر إلهي آخر بشأنه، فهو يخبر الملائكة أنهم بمجرد أن تدُبَّ الحياة في هذا المخلوق فعليهم أن يقعوا له ساجدين، اعترافاً بقدره وشأنه عند الله(١).

ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ : الفاء تفريعية على ما سبق، وإذا : شرط وفعله سويته، ومعنى التسوية الخلق المستوي أو المسوّى أي المعتدل المُقوَّم المخلوق أتم خلقة وأحسن خلقة(٢)، أي أصبح بين جنبات الجسم جميع المكونات الأساسية لاستمرار وجوده في هذه الحياة، فهو يمتلك الأجهزة الحيوية كافة التي تحافظ على حياته مثل أجهزة الهضم والتنفس والجهاز الدموي والبولي والعصبي وغيرها، والتي تعمل على استمرار حياته وعيشه ووجوده على سطح هذه الأرض، وجميع هذه الأجهزة تعمل بدقة متناهية وبنظام عجيب ومعجز.

وما يزال البحث في علوم الطب الحديث مستمرّاً لاكتشاف أسرار هذا المخلوق ومتابعة الأمراض التي تصيبه، ومن ثم اكتشاف الأدوية المناسبة لعلاجها، وكما ذكرنا أن هذا الجسد مخلوق من تراب وماء «أي من طين»، فهو يأخذ خاصية الطين اللينة والضعيفة التي خلق منها، فمهما كان الجسم قويّاً فلا يستطيع أن يتحمل أي أذى يتعرض له لأن الطين لين ولا يستطيع المقاومة(٣).

إن التعبير القرآني في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ : يشير إلى التسوية : أي تعديل ذات الشيء، وقد أُطلقت هنا على اعتدال العناصر، كما أن التعبير

---

(١) تفسير سورة الحجر، نوفل، مصدر سابق، ص٢٠٠.
(٢) نوفل، المرجع السابق، ص٢٠٢.
(٣) تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص١٢١.

بالتسوية ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ يدلُّ على تعديل الصورة وإتمام الخلق، وبعد نفخ الروح بإذن الله تعالى صار المخلوق بشراً سويّاً[١].

إن التسوية تعني جعل الشيء صالحاً للمهمة التي تُراد له، وشاء سبحانه أن يُسوّي الإنسان في صورة تسمح بنفخ الروح فيه، والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تمّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فم آدم، ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد[٢].

- ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾: لا يعلم هذه الكيفية إلا الله، أي بثثتُ فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها، فهي من عالم الغيب وهي الجزء المهم من هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخة الروح سبب الحياة وسر الحياة، وكم من أمر لا يعلمه البشر ولكنهم يؤمنون به، فالكهرباء حتى الآن ما زالت طلسماً، أفلا يؤمن بها البشر؟

وكيف لا وجل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن ينتفعوا بها، ولا يقول أحد منهم أقنعني بالكهرباء، وأنها موجودة[٣].

إن كرامة الإنسان في نفخة الروح لا في قبضة الطين، فسمت قبضة الطين بنفخة الروح، والدين هو روح الروح وحياتها، فكانت الكرامة لهذا الإنسان بأمرين:

- بالروح.
- وروح الروح، فتأمل[٤].

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٠٥.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٢/ ٧٦٩٤.
(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٢٠٣.
(٤) المرجع السابق، ص٢٠٦.

وفي قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾: «من» بيانية وليست تبعيضية، فحرف الجر «من» للبيان وليس للتبعيض، ولا يمكن أن تكون «من» تبعيضية لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة، وهو الخالق لكل شيء وكل ما سواه مخلوق، وهذا معناه أن الروح التي نفخها الله في آدم مخلوقة، هو الذي خلقها سبحانه، وهذا معناه أن هذه الروح المخلوقة ليست «جزءاً» من ذات الله سبحانه، وهذا معنى قولنا: يستحيل في العقيدة أن تكون «من» تبعيضية، ولو كانت كذلك لكانت هذه الروح التي في آدم «قطعة» من روح الله وجزءاً من روح الله، اقتطعه الله من ذاته وجعله في جسم آدم، فالذي في آدم جزءٌ من الله.

ـ وهل «ذات الله» سبحانه يمكن أن تتجزأ وتتبعّض وتنقسم ليدخل في جسم آدم جزء منها؟ إن هذا مرفوض عقلاً، ومتعارض مع عقيدتنا الإسلامية الصافية(١).

ولذا نقول: إنّ «من» في قوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ بيانية وهي تُبيِّن أن الروح التي جعلها الله في آدم من عنده هو، أي هو الذي خلقها والذي نفخها في آدم، ولذا أضاف تلك الروح إليه: ﴿مِن رُّوحِي﴾، وهذه إضافة تكريم لتلك الروح وتشريف، وهي كإضافة ناقة صالح عليه السلام ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكإضافة البيت المحرّم ـ الكعبة ـ إلى الله في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] (٢).

وقد تحدثتُ بالتفصيل في قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف عن ماهية الروح وجوهرها، ونفخ الروح بكيفية لا ندريها ولا نعرف كنهها، وعن استحالة

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص٥١.
(٢) الروح، ابن القيم، مصدر سابق، ص٢٦٨. علمني أبي، العودة، مصدر سابق، ص٤٩.

معرفة حقيقة الروح وبيان الدلائل عن خلق الأرواح وغير ذلك، فمن أراد التوسع فليرجع هناك.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، قال فيها محمد راتب النابلسي: والسرّ في هذه النفخة أنها من روح الله عزَّ وجلَّ، فصيّر فيه دماغاً يفكر ويحاكم، والعين تبصر الألوان وتبصر جمال الجبل الأخضر وتبصر جمال البحر الأزرق وتبصر جمال وردة فواحة، والأذن تسمع الأصوات، والأنف يشم رائحة عبقة، وهذا الإنسان يعبر، ويتكلم ويضحك، ويخطب ويبيّن ويفسِّر، ويؤلف ويتحرك، حتى إذا مات الإنسان وكان على سرير تحته ميزان، فكم غراماً ينقص وزنه حينما تخرج روحه إلى السماء؟ ولا غراماً، ولا ميليغرام، ولا ميكروغرام، ومع ذلك العين لا ترى، والأذن لا تسمع، والدماغ لا يفكر، والمعدة لا تهضم، والرئتان لا تخفقان، والقلب لا ينبض، فما الذي حدث؟ ما هذا الذي خرج منه؟

الإنسان كائن راقٍ جدّاً، فإذا ذهبت روحه؛ أصبح مخيفاً، والغرفة التي ينام فيها تبقى أياماً بل أسابيع بل شهوراً مهجورة في البيت، مع أنه هو كان مصدر أنس البيت، فهو الأب، فإذا دخل هبّ إليه أولاده فرحين، فما الذي حدث حينما انسحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، وأصبح جثة هامدة بعد أن كان مصدر النظافة والأناقة والعطور الفواحة، وإن مات في الصيف احتاج إلى حمض الكلور، وإلاّ خرجت منه روائح كريهة.

كنت أعجب، لماذا يُصلَّى على الجنائز بعد العشاء؟ الموتى هناك في كل وقت، وفي الشام يكون العصر آخر وقت للدفن، قيل: لا تبقى الجثة في الحنوط هنا أكثر من ساعات وإلا تتفسخ لشدة الحر في تلك البلاد المقدسة[1].

---

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ٥٥٩.

ـ ﴿ فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ : معناه خروا له ساجدين سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة وصلاة، فالعبادة لله وحده لا شريك له(١)، وفي أمرهم بالوقوع أي: السقوط، دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل، بل السُّجود بالمعنى المتبادر استجابة لأمر الله فهو في الحقيقة عبادة لله(٢).

٣ ـ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]:

والملائكة تحتمل المأمور منهم، والأَولى والأمثل أن يكون الأمر للملائكة بأجمعهم وليس فئة منهم كما يرى العلامة الشعراوي، إذ يقول: إن «العالين» من الملائكة لم يسجدوا ويفسر قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي من هؤلاء، ولا دليل عليه، والنص لا يساعد على هذا الفهم.

والأول من الأقوال أقوى وأدعى للامتثال، فنقف عند المتبادر من النص، والذي يساعد عليه التوكيد أجمعون ولا استثناء، فلم نستثن؟

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فنفذ الملائكة أمر ربهم بالوقوع ساجدين، ولم يقل فوقع الملائكة ساجدين، لأن معنى فسجد تنفيذ الأمر كما صدر، لا أنهم تخلَّفوا عن الأمر أو خالفوه، معاذ الله، والملائكة أي عامتهم كما أسلفنا، فليبق على عمومه كما أطلقه الله، وقوله كلهم تفيد العموم كذلك(٣).

قال السعدي: تأكيد بعد تأكيد ليدل على أنه لم يتخلَّف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث إنه عُلّم ما لم يعلم(٤).

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٨/ ٤٠٨٥.
(٢) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٠٨.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٨.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص٢٠٨.

قال الشوكاني: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أخبر سبحانه، بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخ، قال المبرِّد: قوله ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد، وقوله ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ توكيد بعد توكيد ورجّح هذا الزجاج، قال النيسابوري: وذلك لأن «أَجْمَع» معرفة فلا يقع حالاً، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً[١].

وقد يصدق أن يُقال كلا اللفظين ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ يفيد التأكيد، ولكن هذا لا يعني أنهما مترادفان في التأكيد، فيُقال فيهما توكيد بعد توكيد، وإنما لكل منهما تأكيده الخاص وجهته المنفردة.

ـ فلفظ «كُلُّ» في صوره المختلفة يدلُّ على الإحاطة والشمول، يُقال تكلله أي أحاط به الإكليل وهو التاج، وسمي بذلك لإحاطته بالرأس وإكليل الظفر ما أحاط به من اللحم.

ـ أما لفظ «أَجْمَع» فيدل على الضم والاجتماع، ولهذا الفرق بينهما تقول: حضر القوم كلهم تريد الدلالة على الإحاطة والشمول في الإفراد أي لم يتخلف واحد منهم.

وتقول: حضروا ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تريد الدلالة على الاجتماع في الأفعال أي لم يتأخر واحد منهم، فيكون الأول تأكيداً لمعنى الوحدة في الفاعل، والثاني تأكيداً لمعنى الوحدة في الفعل، ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السُّجود وهيئته ليدل بالأول ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ على عموم الامتثال، وبالثاني ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ على سرعة الاستجابة، وبهذا يكون التأكيد بـ «كُلُّ» لإفادة العدد العديد، فصار فرداً واحداً في امتثال الفعل ويكون التأكيد بـ «أَجْمَع» لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل[٢].

---

(١) فتح القدير، الشوكاني، مصدر سابق، ٣/ ١٥٧.
(٢) النور المبين في تدبر آيات من القرآن الكريم، زين محمد شحاته، مصدر سابق، ١/ ٦٧٤.

وقد سُئل المبرد عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال ﴿كُلُّهُمْ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر، فلما قال ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة في وقت واحد(١).

ثالثاً: قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٤ ـ ٧٨]:

١ ـ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]:

إن إبليس لم يسجد لآدم وامتنع عن السُّجود، وبيَّنت الآية سبب الامتناع وهو الاستكبار والكفر، فجوهر فساد إبليس الكبر ورفض السُّجود والاعتراض على الله في شريعته وحكمته، والكبر مانعٌ من دخول الجنَّة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يُحِبُّ الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٢). ومعنى الحديث: مثقال ذرة: زنة ذرة.

ـ بطر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقّاً من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتجبر عن الحق فلا يراه حقّاً، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله.

ـ غمط الناس: الغمط الاستهانة والاستحقار، ومع أن الله سبحانه يعلم السبب الذي دفع إبليس إلى عدم السُّجود فإنَّه سأله، وذلك ليتكلم إبليس ويُظهر ما في نفسه ويعترف بلسانه، ولتكون عقوبته بعد تسجيل اعترافه كما سيأتي بيانه.

---

(١) النور المبين في تدبر آيات من القرآن الكريم، زين محمد شحاته، المرجع نفسه، ١/ ٦٧٥.
(٢) صحيح مسلم: رقم ١٤٧، التدبُّر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، ١/ ٤٠٥.

إن إبليس لعنه الله تعظَّم وتكبَّر عن طاعة الله في السُّجود لآدم، والاستكبار هو سبب الإباء والامتناع، والتعليل له والباعث الذي حمل صاحبه على عدم التنفيذ، وبذلك يكون ترتيب خطوات تمرد إبليس هكذا: استكبار إبليس وهو سبب هلاكه، وهو الذي دفعه إلى الإباء والامتناع، وهذا الإباء قاده إلى الكفر، وبذلك خسر الدنيا والآخرة.

وعبَّر عن كفره بلفظ الماضي: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ للإشارة إلى ما علمه الله عنه منذ الأزل، قبل أن يخلقه، أي إن الله كان يعلم ما سيفعله إبليس قبل أن يخلقه، وأنه سيرفض أمره ويكفر به أو يكون قائد الكافرين، ولما ظهر تمرد إبليس فعلاً، وكفر في عالم الواقع تحقق بذلك ما علمه الله عنه منذ الأزل، فمعنى قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، كان إبليس في علم الله من الكافرين[١].

إن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره، ولم يخبرنا تعالى بكفر أحد قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وما استند إليه من حديث ابن عباس لا يُحتج به، كما قال ابن كثير، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أن إبليس أول من كفر بالله[٢]، فهو إذن من الكافرين الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك، على اعتبار أن الخطاب في الآية موجّه إلى أمة محمد ﷺ، إذ بين حدوث قصة إبليس وصدور الكفر منه وبين بعثة النبي ﷺ قرون كثيرة كان فيها كثير من الكافرين، كفرعون وهامان وقارون ونمرود وغيرهم، فهؤلاء الكافرون بالنسبة إلى زمن النبي ﷺ ماضٍ غابر، وإبليس كذلك، وعليه فإن إبليس من الكافرين الذين وُجدوا فعلاً قبل زمن المخاطبين، والله تعالى أعلم[٣].

---

(١) سيرة آدم عليه السلام، الخالدي، مصدر سابق، ص٨٠.
(٢) عداوة الشَّيطان للإنسان، عبد المنعم الحواس، مصدر سابق، ص٢٢٥.
(٣) المرجع السابق، ص٢٢٦.

٢ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]:

أي: لما خلقته بنفسي بلا وساطة أب وأم، وهو سؤال توبيخ وإنكار، وترتيب الإنكار على خلق الله تعالى آدم بيديه أفاد تأكيد الإنكار، وتشديد التوبيخ، كأنه قال: ما منعك أن تكرِّم بالسُّجود من هو أهل للتكريم، لكونه المخلوق الذي خلقته بيدي.

وفي حديث محاجة آدم وموسى عليه السلام ما يدلُّ على أن المخلوقية بها وصف تعظيم؛ حيث قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله تعالى بيده[١]، وفي هذه الآية إثبات اليدين لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وكماله[٢]، وهذه الآية استدل بها علماء السلف في إثبات صفة اليدين لله عزَّ وجلَّ، والآيات في إثبات صفة اليدين لله واضحة، وكذلك الأحاديث النبوية وإجماع السلف.

ـ قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

ـ قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

والأدلة من السنة قول النبي ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ، وكلتا يديه يمين، والذين يعدلون في أهلهم وحكمهم وما ولوا»[٣].

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عزَّ وجلَّ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك**»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٢٦٥٢.
(٢) صحيح البخاري، رقم ٦٥٦٥.
(٣) صحيح مسلم، ك الإمارة، فضل الإمام ٣/ ١٤٥٨.
(٤) صحيح مسلم، ك صفة المنافقين، رقم ٢٧٨٨.

وأجمع السلف على إثبات اليدين لله فيجب إثباتهما له دون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهما يدان حقيقيتان لله تعالى يليقان به[١]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى صفة اليد بالإفراد والتثنية والجمع:

ـ ففي الإفراد مثل قوله تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

ـ وفي التثنية كقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

ـ وفي الجمع كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١].

والتوفيق بين هذه الوجوه أن نقول:

الوجه الأول مفرد مضاف فيشمل كل ما ثبت لله من يد ولا ينافي الثنتين، وأما الجمع فهو للتعظيم لا لحقيقة العدد الذي هو ثلاثة فأكثر، وحينئذ لا ينافي الثنتين على أنه قد قيل: إن أقل الجمع اثنان، فإذا حمل على أقله فلا معارضة بينه وبين التثنية أصلاً[٢].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمسجد، فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم[٣].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: أستكبرت عن السُّجود من غير استحقاق؟ أم كنت مستحِقّاً للعلو؟ وقد يكون المعنى أحدث لك الاستكبار؟ أم لم تزل منذُ كنت من المستكبرين؟ ولا شك في أنه تعالى يعلم حقيقة

---

(١) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة، مصدر سابق، ص٤٩. من عقيدة المسلمين، الصلابي، مصدر سابق، ص٨٧.
(٢) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة، مصدر سابق، ص٥٠.
(٣) تفسير القرطبي، مصدر سابق، ١٥/ ٢٠٠.

إبليس، وسؤاله له سؤال توبيخ وتقريع[١]، وإنكار لامتناعه عن السُّجود[٢].

٣ ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦]:

وقول إبليس هذا يدلُّ على أنّه رأى لنفسه فضلاً على آدم بأصله، مع أن الفضل لا يكون بالأصل وإنما بطاعة الله تعالى، وامتثال أمره، فاستحق بسبب تكبُّره طرده ولعنته[٣].

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ جملة كبيرة مليئة بكل معاني الأنانية والتكبّر والانتفاش والاستعلاء، وكانت سر هلاك إبليس وخسارته، ودفعته إلى التمرُّد على الله وعصيانه، وهذه الجملة نفسها هي سر هلاك كل مستكبر متعال تملك عليه أنانيته حياته، فلا يرى إلا نفسه متكبرة منتفشة، تلغي كل ما سواها، وتملأ الأماكن والمواضع كلها، ويتصرف على هذا الأساس؛ فيُذِلُّ ويحقر ويزدري، ويطحن، ويسحق ويتطاول على من سواه ويرفض أن يخضع لله سبحانه.

هذا المرض النفسي الخطير الذي انتقل للمتكبرين من إبليس وجعلهم جنوداً له، قاله أول مرة عن آدم ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ فأصابت العدوى كل واحد من هؤلاء المستكبرين المعقّدين ونادى بأنانية واستعلاء ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[٤].

إن الأنانية العمياء والتعاظم وانتفاخ الـ (أنا) نقيض العبودية لله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، كما أن الحسد من شر الأدواء التي تمنع قبول الحق والانقياد له، لذا يجب على المسلم الاحتراز من الكبر والحسد لأنهما إثمان عظيمان.

قال الإمام الرازي: إن إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، كما أن العنصرية البغيضة المقيتة والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة من

(١) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٧/ ٢٢٨.
(٢) تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٩١.
(٣) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٧/ ٢٢٨.
(٤) سيرة آدم، الخالدي، مصدر سابق، ص٨٦.

أسباب الفساد العظيم: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، وهذا هو الكبر الصّراح الذي يتعلل به كثير من بني البشر حيث يعتزّون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر، وقد يكونون من بني جلدتهم أو من أهل لسانهم أو ربما من أقربائهم[١].

ويظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره بمادته التي خُلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه: **الأول**: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم، والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحِبُّ ويُشتهى، و**الثاني**: أن الملائكة خلقوا من النور والشَّيطان خلق من مارج من نار وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ ولا شك في أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسُّجود.

وإذا سلمنا جدلاً أن خيرية الشيء تابعة لأصله الذي خُلق منه، فلا نسلِّم أن النار خير من الطين، فإن جميع الأحياء النباتية والحيوانية في هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أو بالوساطة، وهي خير من النار بكل نوع من أنواع الاعتبارات التي تعرفها العقول، وليس للنار مثل هذه المزايا ولا ما يقرب منها[٢]، ويظهر جهل إبليس وحُمقه حين غفل عما خصّ الله به آدم من خلقه بيده والنفخ فيه من روحه، وشرّفه بسجود الملائكة له وجعله أفضل من الملائكة وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة[٣].

كما أن العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى

---

(١) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشهراني، مصدر سابق، ص٦٣.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مصدر سابق، ٨/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٣) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مصدر سابق، ص٦٤.

التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبّر بأصله وامتنع عن السُّجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه[١].

إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات لنكون منها على غاية الحذر، ومعصية الكبر أو ما يُسمَّى جنون العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ لأن المتكبر لا يرى غيره، فيغمط الناس حقوقهم ويرد الحق ولو كان مثل الشمس[٢].

٤ ـ ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ [ص: ٧٧]:

ـ ﴿ قَالَ ﴾: أي الله عزَّ وجلَّ، وعبر بضمير الغائب.

ـ ﴿ فَٱخۡرُجۡ ﴾: الفاء تفريع على ما قال، وكأنها جواب على رده، والخروج المغادرة مطروداً مبعداً مدحوراً مذموماً.

ـ ﴿ مِنۡهَا ﴾: الضمير في منها محير: فهل المقصود من السماء؟ أم من الجنَّة؟ أم من الحضرة كما يقولون؟ أم من الرتبة أم من هذا الجوار والقرب والكرامة؟ أم من هذه جميعاً، وأظن الأمر شاملاً كل ما ذُكر وما لم يُذكر.

ـ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾: هذه الفاء عللت ما بعدها، أي الإخراج، و«إن» توكيد، وكاف الخطاب لإبليس.

ورجيم: مرجوم مع الطرد والإبعاد، رجم وإرصاد، والرجم واحد من واجبات الحج... للتذكير باستحقاق الشَّيطان لذلك.

ورجيم معناه: ملعون لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد[٣].

---

(١) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، المرجع نفسه، ص٦٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٦٤.
(٣) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٢٢٥.

وقال مخلوف : رجيم مطرود من الرحمة مرجوم بالشهب[١] .

وقال أبو زهرة : ورجيم : معناها مطرود مرجوم بالحجارة[٢] .

وقال عبد الله شحاته : مطرود من رحمة الله وفضله وعنايته وهدايته[٣] .

٥ ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص : ٧٨] :

وإن عليك لعنتي وغضبي إلى يوم القيامة ، فقد حلت لعنة الله بإبليس فأقصته عن مظاهر الرحمة دوماً من غير انقطاع .

ـ ﴿ وَإِنَّ ﴾ : الواو للعطف و«إن» للتوكيد .

ـ ﴿ عَلَيْكَ ﴾ : حرف جر ، وكاف الخطاب تعود للشيطان ، وقد أخبر القرآن الكريم بأن هذه اللعنة ملاصقة لإبليس لا تنتزع عنه إلى يوم الدين حيث عقابه جهنم ، إن إبليس من الذوات التي تحقق فيها لعن الله ، لذلك يكون تأثيره جليّاً بكل معاني اللعن من حيث الإبعاد والإقصاء[٤] .

إن اللعن هو الطرد من رحمة الله ، وقد خُصَّ إبليس به من لحظة قيلت له إلى ما لا نهاية ، فإذا انتهت لعنة ما قبل الحساب بدأت لعنة ما بعد الحساب ، إن جناية إبليس على نفسه ليس لها حدٌّ ولا وصف ولا نظير ولا تصوير ولا تقريب[٥] .

إن السبب الرئيسي في لعن إبليس هو المعصية من التعالي والتكبر والتمرُّد على أمر الله ، والإصرار على المعصية ، وحسده لآدم عليه السلام وغير ذلك من الأسباب التي منعته من التوبة والرجوع إلى الله ، فأبعده الله مع السخط عليه[٦] .

---

(١) تفسير سورة الحجر ، أحمد نوفل ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ .
(٢) تفسير أبو زهرة ، مصدر سابق ، ٨/ ٤٠٨٧ .
(٣) تفسير القرآن الكريم ، شحاته ، مصدر سابق ، ١٢/ ٤٦٩١ .
(٤) نصوص اللعن في القرآن ، عمر الكبيسي ، مصدر سابق ، ص٣٧٢ .
(٥) تفسير سورة الحجر ، أحمد نوفل ، مصدر سابق ، ص٢٢٩ .
(٦) نصوص اللعن في القرآن ، عمر الكبيسي ، مصدر سابق ، ص٣٨٢ إلى ٣٨٥ مع التصرف .

رابعاً: قال تعالى: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٧٩ـ٨٥]:

١ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص : ٧٩] :

هذا طلب إبليس بعد أن سمع الحكم عليه من الله بالإخراج والإبعاد والطرد واللعن، فطلب كما بيَّنت هذه الآية الإمهال إلى يوم البعث أو يوم الدين الذي تُبعث فيه الخلائق(١) .

ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ ﴾ قال: أي إبليس، (ربِّ): هو يعلم أنه الرَّبّ وأنه ربه ورب كل شيء، لكن أضل نفسه على علم فأضله الله، ولم يستخدم ياء النداء إما لأنه في الحضرة أو للتقرب، أي ليُستجاب له، ويتودد في الوقت ذاته، فإن مضمون كلامه التحدي وهو أهون وأقل من هذا التحدي، أوليس كل كافر يبارز الله ويحاربه ويشاقه ويحادّه ويعاديه، ويشكل تحالفاً مع إبليس أعدى أعداء الله؟

ـ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾: إلى يوم البعث لهذا المخلوق وذريته أو للخلائق أجمعين، لكن الذي يهمه الآن من بين الجميع هذا المخلوق الجديد وذريته، إنه يملك معلومات ويبني عليها ويمكر وفقاً لها، وما أسوأ طريق اللجاجة وما أبأس العناد، وأسوأ من كل ذلك ما سبّبه وهو شعور الحسد والحقد، ألا فلتتنظف العقول والقلوب من كل هذه البقع السوداء والتشوهات والمشاعر السلبية(٢) .

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مصدر سابق، ص٢٢٩ .
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٠ .

العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله له بآدم ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح وتكبر[١].

٢ ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [ص: ٨٠]:

هذا جواب الله عزَّ وجلَّ على طلب إبليس: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فأجابه الله ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي كما طلب، لا عن كرامة ولكن عن استدراج، ثم إن النص القادم سيبين أن الإنظار حاصل لكن ليس إلى يوم القيامة، ولكن إلى الوقت المعلوم الذي يحدده الله، فمتى هو ولماذا هذا التعديل؟ فكل ذلك إلى علم الله مَردُّه.

ـ ﴿قَالَ﴾: أي المولى الجليل سبحانه.

ـ ﴿فَإِنَّكَ﴾: كأن الفاء واقعة في جواب الكلام، كما وقعت الفاء في الجواب قبلاً، فكأن المولى يقول له: ما دمت طلبت الإنظار فإنك من المُمهَلين المُنظَرين المؤخَّرين المؤجَّلين، لكن إلى الوقت الذي أُحدده وأُعيِّنه لا الذي تريده[٢].

قال السعدي: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ليست إجابة الله لدعائه كرامة في حقه وإنما ذلك امتحان وابتلاء لعباده، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير وشرح لنا ما يريده منا[٣].

٣ ـ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١]:

معناه إلى الوقت الذي علمه الله وحدَّده لا إلى الوقت الذي أردته أنت لتشتري الوقت، وتؤخر عن نفسك العذاب إلى أقصى المستطاع، وهو مدركك على كل حال[٤].

---

(١) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، المرجع السابق نفسه، ص٢٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٢.
(٣) المرجع نفسه نقلاً عن تفسير السعدي، ص٢٣٢.
(٤) المرجع السابق، ص٢٣٥.

إن إبليس سيذوق الموت حتماً؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وهكذا لم يفلت إبليس من الموت[١].

ولقائل أن يسأل: وكيف كلّمه الله؟

ويقول: لم يُكلّمه الله تشريفاً أو تكريماً، بل غلّظ له العقاب، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكِّنهم أن يبلّغوا ما شاء لمن شاء[٢].

وقد قال مخلوف: الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى[٣]، ولا نستطيع الجزم والقطع إلا بدليل قاطع، لا بمجرد الفهم أو روايات المفسرين، والله أعلم بمراده[٤].

وتظهر بعض الحكم من إنظار إبليس إلى يوم الوقت المعلوم، منها:

ـ أن الله سبحانه لما جعل إبليس محكاً يمتحن به عباده ليميز الطَّيِّب من الخبيث ويميز وَليَّه من عدوه، اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض[٥]، وقد ذكرنا بعض الحكم فيما مضى من سورة الحجر.

٤ ـ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]:

عندما اطمأن إبليس إلى بقائه حيّاً إلى يوم الوقت المعلوم، تجرأ على الله

---

(١) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ١٢/ ٧٧٠٢.
(٢) المرجع نفسه، ١٢/ ٧٧٠٢.
(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، مصدر سابق، ص٣٣٧.
(٤) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص٢٣٥.
(٥) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبيدات، مصدر سابق، ص٥١٠.

وأقسم بعزَّته وجبروته وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأضلن ذرية آدم أجمعين، أي لأحملنهم على الغي والضلال ولأكوننّ سبباً لغوايتهم وضلالهم بتزيين المعاصي لهم وإدخال الشكوك والشبهات فيهم، واستثنى فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام: الذين أخلصتهم واصطفيتهم لطاعتك وعصمتهم من الشَّيطان، وقرئ بالكسر على صيغة اسم الفاعل، أي: الذين أخلصوا أعمالهم وقلوبهم لله تعالى من غير شائبة الرياء، قال بعض العلماء: العبد المخلص: هو الذي يكون سره بينه وبين ربه، بحيث لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيُميله.

ثم لا شك في أن من العباد عباداً إذا رأى الشَّيطان أثر ولايتهم، وعزة أحوالهم، يذوب كما يذوب الملح في الإناء ولا يبقى له حيل، ولا يطيق أن يمكر بهم، بل ينسى في رؤيتهم جميع مكره ولا يطيق أن يرمي إليهم من أسهم وسوسته، بل مكره محيط به، لا بأهل الحق، وهكذا حال ورثة الشَّيطان من المتكبرين المفسدين(١) مع عباد الله المخلصين، فإنهم محفوظون بحفظ الله ومحصنين ضد غوايته، وقد تكلمنا عن المخلصين في قصة آدم في سورة الحجر.

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يُحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾: علم أن الله سيحفظهم من كيده، ويحتمل أن الباء للاستعانة وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، استعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقّاً(٢)، ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون المقرُّون لك بكل نعمة، ذريّة من شرفته وكرمته فنستعين بعزتك العظيمة، التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينيّة والدنيوية، وصرفت

---

(١) حدائق الروح والريحان، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، ٢٤/ ٤٢٠ ـ ٤٦٨.
(٢) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص١٥٠٤.

بها عنّا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربته وعداوته والسلامة من شرّه، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [١].

٥ ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤ ـ ٨٥]:

ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ قال سبحانه وتعالى الحقَّ والأمرَ الثابت، ولا يقول سبحانه سوى الحق، فهو سبحانه الحق ولا يقول إلا الحق[٢]، فالحق وصفه سبحانه، والحق قوله سبحانه[٣] دائماً، والقرآن الكريم يؤكد الإشارة إليه في شتى صوره ومناسباته ومواضيعه، فالله خلق السماوات والأرض بالحق، وأرسل الرسل بالحق، وأنزل الكتب السماوية بالحق، وأمر بالحكم بين الناس بالحق، ثم يجيء ذكر الحق في سياق قصة آدم عليه السلام مع عدوه إبليس على لسان القوي العزيز سبحانه ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ فهو الحق الذي تتعدد مواضعه وصوره، وتتحدَّد طبيعته وكنهه، ومنه هذا الوعد الصادق.

ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهي المعركة إذن بين الشَّيطان وأبناء آدم، يخوضونها على علم، والعاقبة مكشوفة في وعد الله الصادق الواضح المبين، وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان، وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين، فأرسل إليهم المنذرين[٤].

---

(١) تفسير السعدي، المرجع نفسه، ص١٥٠٤.
(٢) تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٩٢.
(٣) تفسير السعدي، مصدر سابق، ص١٥٠٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٥/ ٥٠٢٩.

خامساً: قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٨]:

١ ـ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]:

إنها الدعوة الخالصة للنجاة بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً، وهو الداعية السليم للفطرة، الذي ينطق لسانه بالحق والهدى لا يتكلف ولا يتنطع(١)، وبيَّنت الآية الكريمة براءة دعوة الرسول ﷺ من أي مطلب دنيوي، كما بيَّنت الآيات صدقه في تلقي الوحي وتبليغه، فكل ذلك من أدلة صدقه وصحة رسالته(٢).

٢ ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧]:

أي: ما القرآن إلا ذكر للعالمين، فالضمير عائد على القرآن الكريم، فرسالة القرآن الكريم عامة شاملة للعالمين(٣).

٣ ـ ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٨]:

ولتعرفن خبره وأثره وفضله بعد وقت من الزمان حين يظهر فضل القرآن، ويسطع نوره في المشارق والمغارب، وتفتح البلاد وتنضوي تحت علمه بلاد الفرس والروم وشمالي إفريقيا، ومعظم بلاد العالم في ذلك الحين(٤).

فلم يمر وقت طويل على نزول هذه الآية الكريمة حتى شهدت البشرية أعظم وأعمق تحول في تاريخها الفكري والسياسي والتشريعي، ولا يزال العلم يكتشف كل يوم كثيراً من الحقائق العلمية التي ورد الخبر فيها في بعض آيات الذكر الحكيم إشارة أو تصريحاً، فيزيدنا تصديقاً بصدق رسول الله ﷺ، وعلماً

---

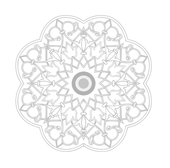
(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، المرجع نفسه، ٥/ ٥٠٢٩.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٧/ ٣٣٠.
(٣) المرجع نفسه، ٧/ ٣٣٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم، شحاته، مصدر سابق، ١٢/ ٤٦٩٢.

بأن القرآن الكريم كلام الله الذي يعلم السرَّ وأخفى[١] .

ومن معاني تفسير الآية الكريمة : أن المراد : ستعلمون صدق القرآن عند موتكم وعند البعث والحشر ، والحساب والجزاء ، وكان الحسن البصري يقول : يا بن آدم عند الموت يأتي الخبر اليقين ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام يا رب العالمين[٢] .

❊ ❊ ❊

(١) التفسير الموضوعي ، الكومي وقاسم ، مصدر سابق ، ٧/ ٢٣٠ .
(٢) تفسير القرآن الكريم ، شحاته ، مصدر سابق ، ١٢/ ٤٦٩٢ .



المبحث الثامن

هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض
وقصة النبي آدم عليه السلام

أولاً: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض:

شاء الله أن تنتهي أحداث قصة آدم في الجنَّة، بعدما تاب وأناب وتاب الله عليه واجتباه واصطفاه، وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء، وعدوّه إبليس، وقد جاء ذكر الهبوط في آيات عديدة، قد تمّ تفسيرها وبيانها في مواضعها في كل من سورة البقرة، والأعراف، وطه، وهي:

ـ قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

هيأ الله آدم وحواء للأرض قبل أن يهبطا إليها، فإنَّه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد، كوكب الأرض تقتضي معرفة أحواله وماضيه وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها،

فقد هيأ الله سبحانه لآدم ذلك كله، وكان أول ذلك ومبدؤه تعليمَه أسماء الأشياء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

ويدخل من ضمن المقصود بذلك أسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأفعال، كالقيام والقعود والحركة والسكون وغير ذلك، وكان ذلك إشارة واضحة إلى أن آدم هو المنوط به عمارة الأرض والإقامة فيها، وجاء في تفسير ابن كثير: عن أبي موسى قال: إن الله حين هبط آدم من الجنَّة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنَّة، فثماركم هذه من ثمار الجنَّة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير[1]، ومن ذلك أن آدم وأمنا حواء هما أصل البشرية التي بث الله منهما الناس، فتكاثرت ذريتهما وانتشرت في الأرض.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أي وذرأ منهما ـ أي من آدم وحواء ـ رجالاً كثيراً ونساءً، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر[2].

١ ـ الحضارة الإنسانية على الأرض:

ومع نزول آدم وحواء إلى الأرض، ومع هذا الواقع الجديد، رضي آدم وزوجته بما قدر الله سبحانه وتعالى عليهم، وقبلوا بهذه الحياة الجديدة وبهذا الواقع الصعب والمؤلم، مقارنة مع ما كانا عليه من رغد العيش والنعيم الذي كان في الجنَّة، وبدأ آدم يتأقلم مع ظروف الحياة الجديدة، فقد أوحي إليه كيف يتأقلم

---

(١) قصة الخلق، محمد الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٠٤.

مع هذه الحياة ويُدبِّر شؤون معيشته، ومن ثم تزوج حواء، وأنجب منها الأولاد العدد الكثير(١).

أ ـ الزواج والتناسل:

إذا كان آدم عليه السلام هو أصل البشرية، الذي خلقه الله بيده من طين لازب، ثم خلق الله زوجه بقدرته سبحانه كما شاء وأراد، فإنَّه سبحانه جعل توالد ذريته وتناسلهم بصورة أخرى من صور الخلق البديعة العظيمة، التي تدل على قدرة القادر العظيم والخالق المدبر لما يشاء كما يشاء، فقد جاء خلق آدم بطريقة، وخلق حواء بطريقة غيرها، وجعل سنة الخلق في ذريتهما بصورة كذلك، ليدل ذلك على تنوع القدرة وتعدد صورها وليعلم الناس أنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] (٢).

وقد تحدّث القرآن الكريم عن أول لقاء جنسي بين آدم عليه السلام وزوجه في الأرض:

قال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، بيَّنت الآية الكريمة أن الله تعالى خلقكم من نفس واحدة، وهي نفس آدم عليه السلام، وجعل منها زوجها حواء؛ ليأوي إليها لقضاء الحاجة واللذة، فلما تغشّاها وتدثّرها لقضاء حاجته حملت منه حملاً خفيفاً، وكذلك هو حال حمل المرأة في بدايته، ومرّت به أي استمرت به قياماً وقعوداً حتى أتمت الحمل، فلما أصبح ثقيلاً بعد أن كان خفيفاً ودنت ولادتها، هناك دعا آدم عليه السلام وحواء ربهما أن يجعل ما في بطنها صالحاً في الخلق وصالحاً في الدين وصالحاً في العقل والتدبير(٣). **ونلاحظ في الآية الكريمة:**

---

(١) تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص٢٠٠.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٩.

(٣) التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، مصدر سابق، ص٢٤٣.

ـ أدب الحديث عن الجنس، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي في البشرية، كما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الأدب والحس، فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً، بل يشير إلى ذلك بعبارة بسيطة في لفظها وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها، فالإنسان أو المسلم إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته، في أي حال من أحواله عليه أن يلتزم الأدب الجم وهو يصف آمراً أو ناهياً أو مسترشداً، فقد عبر القرآن الكريم عن الجماع وكنّى عنه بألفاظ غاية في الأدب والترفع، فإذا شعر الإنسان بحرج من لفظ ما أمام الناس فليعلم أنه حاد طريق الأدب ونزل عن الترفع(١).

ـ الحمل في بداياته خفيف لا تشعر به المرأة، ولا تشعر بثقله إلا بعد أشهر على التدريج، ولو شعرت بثقله للتوّ وفور الجماع لما استطاعت أنثى حمله، لكنها رحمة الله تعالى بالإنسان وعنايته به، سواء أكان في ذلك الجنين أم الأم أم الأب، فاستحق الله تعالى مزيداً من الشكر على ذلك، من المرأة والرجل على الفور، ومن الجنين على التراخي، ألا ترى المرأة تجب عليها الصلاة كل وقتها وهي حامل، ولا تُعذَر بتركها أو التقصير فيها، كما هو حالها أيام حيضها أو نفاسها.

ـ الولادة عملية إنتاج إنسان من إنسان، وهي بحاجة إلى كثير من الدعاء والتوجه إلى الله تعالى، فهي لحظات صعبة وشديدة على الأم الوالدة، ولا يملك الفرد منا أن يكافئ أمه بشيء من آلام الطلق والولادة، حتى لو طاف بأمه على عاتقيه الكعبة بالحج، روى البخاري في الأدب المفرد أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما رأى رجلاً يمانيّاً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره، يقول:

إنَّ لها بعيرَها المُذلَّلَ ... إنْ أذعرَت رُكَّابَها لم أُذْعِرِ

---

(١) قصة الخلق، محمد الخرعان، ص٢٤٤.

ثم قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يا بن عمر أتراني جزيتُها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة(١).

وهكذا بدأت الحياة على الأرض بالتزاوج والتكاثر والتوالد، ولا بد من أن آدم مع شريكة حياته أدارا ما حولهما من أمر الأسرة وتوزيع الأدوار وحل المشكلات بطريقة مناسبة، وسَعيا إلى معرفة نواميس الكون من حولهما وتحقيق العبادة لله وعمارة المعمورة، ونرى في قصة الخلق والتكليف والإعمار أن السيدة حواء عليها السلام لم تغب عن مسرح الأحداث، وإنما كانت في ظل آدم عليه السلام بالمعنى الخفي وليس المبهم الغامض، فهي شريكة في كل التكاليف الشرعية والعمرانية والتربوية وغيرها من المهمات التي تحسُّ المرأة بواجب الوقوف مع زوجها راعية له معينة على همومه، ومواجهة المشكلات التي تعترضه.

والكرامة للجنس البشري في عمومه في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وبنو آدم ليسوا ذكوراً فحسب، وإنما هم ذكور وإناث، وجمع الله تعالى الجنسين على التعميم في ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وهذا في أكثر من آية في القرآن وفي مواضع متعددة، لأن قصة البشرية كانت قد بدأت في الشريكين آدم وحواء، واستمرت في ذريتهما وما زالت وستستمر، فالتكريم لم يكن فيه استثناء لنوع من النوعين الذكور والإناث، وإنما هو جامع لهما في التكليف والتكريم والتشريف والفضل من الله تعالى، فكان آدم وحواء عليهما السلام بطلين في قصة الخلق واستمرار النوع البشري، لقد كرّم الله تعالى الإنسان سواء كان ذكراً أو أنثى لإنسانيته.

فحواء عليها السلام شريكة لآدم في هذا التكريم وهذا التخصيص، كما هي شريكة له في الاستعدادات الكونية لمشاركته مسيرة الحياة على الأرض... من

---

(١) التربية الجنسية في الإسلام، عبد الرحمن داود، مصدر سابق، ص٢٤٥.

علم ومعرفة واستعداد فطري للعمل والتضحية وللمشاركة في إعمار هذا الكون[١].

كانت الحياة بين الأبوين بعيدة عن التنافر، بل كانا متآلفين وبينهما مودة ورحمة، وحقَّقا مفهوم السعادة للأسرة الإنسانية الأولى، وبذلك استطاعا تحقيق ما أراده الله من ذرية تخلف في الأرض، ويقدر لهم العبادة والطاعة، ويختبرهم إبليس «عدوهم الأبدي» لهم ولذريتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيكون الخير للصالحين وجزاؤهم الجنَّة وحسن المآب، وطريق الشر للعاصين وجزاؤهم جهنم وبئس المهاد، وهكذا كان لأمنا العظيمة «المرأة الأولى» مع أبينا العظيم «الرجل الأول» دور بارز في الكون الوسيع الفسيح[٢].

إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم، فأصل الإنسانية «آدم وحواء، رجل وامرأة» خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة، وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة، لهذا فهي تخطئ وتحاسب على خطئها، فهي لم تحاسب لأن آدم أخطأ فقط.

بل هي شاركت آدم في الخطأ وأكلت من الشجرة التي أمرهما الله ألاّ يقربا منها ولا يأكلا، لذا تحملت ذنب ما اقترفته هي، وليس ذنب آدم، وذلك بمقتضى كمال إنسانيتها واستقلال شخصيتها استقلالاً كاملاً كالرجل، فكل منهما مسؤول بما يعمله من خير أو شر، وكل منهما محاسب على عمله ثواباً وعقاباً، فهي مصدر الحب الأمومي والتضحية السامية لزوجها وذريتها وطبيعي أن يكون لهما من علو الشأن والمكانة والاهتمام ما يتَّفق مع طبيعتها ووظيفتها المقدسة التي شرفها الله بها.

---

(١) الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عريان، مصدر سابق، ص. ١٨٧.
(٢) المرجع نفسه، هدى عريان، ص. ١٨٩.

والرجل مسؤول والمرأة مسؤولة، وكلاهما يكملان جوهرة الحياة في الدنيا والآخرة، ولكل بريقه في هذه الجوهرة، لا يطفئ أحدهما الآخر، ولا يسرق بريقه.. بل كل منهما يضيء بنوره ويستمدُّ من إشعاع الآخر، وبهذا نرى حواء شاركت آدم عليه السلام النسيان والخطأ والألم والانكسار، وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى، وشاركته مسيرة الحياة في السماء والأرض، وشاركته تحقيق سنة الكون، ودون دورها الأساسي في قصة الخلق، لم يكتمل الحدث، وينمو ويتطور، ويصل إلى الهدف الإيجابي الذي سعت من أجل تحقيقه أمنا حواء وآدم أبو البشر في قصة الخلق، فدورها رئيسي في قصة الخلق، لأنها ساهمت في نمو الحدث مع آدم عليه السلام إلى نهاية القصة(١).

إن بداية الحضارة الإنسانية الأولى في الأرض بدأت من خلال رجل وامرأة، بتكوين أسرة صغيرة وفق رابطة الزواج الذي هو من سنن الله في خلقه، وفي الأرض كانت حوّاء أم الأمهات وقدوتهن في الأمومة وكل ما تقوم به النساء من أعمال، كانت حوّاء قد غزلت، ونسجت، وعجنت، وخبزت وعملت أعمال النساء كلها، ثمّ علّمت بناتها تلك الأمور لتستمر مسيرة البشرية إلى ما شاء الله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(٢).

وآدم عليه السلام هو الأب لكل البشرية، ولم يكن قلقاً أو مكتئباً لأنه بلا أب، ولا حزيناً لأنه الرجل رقم (١) في أسرته، فهكذا أنت فكن، وأبناء آدم هم البشر، وفيهم بيوت النبوة، آل إبراهيم، وآل عمران، وآل داود، وآل محمد عليهم صلوات الله وسلامه، وفيهم بيوت الحكمة: كآل لقمان، وبيوت الزهد وهي كثيرة في هذه الأمة والأمم قبلها، كما فيهم بيوت المال وبيوت السلطة والجاه، وكل البشر المؤمنين والكافرين والمظلومين والظالمين والأتقياء

(١) الشخصية النسائية في القصة القرآنية، هدى عريان، مصدر سابق، ص١٩٧.
(٢) نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة، أحمد خليل جمعة، مصدر سابق، ص٥٢.

والمجرمين هم من ذرية ذينك الوالدين الصالحين الطَّيِّبَيْن «آدم وحواء»، والأصل بينهما المساواة، من الأرض خرجوا وإليها يعودون، ولا فضل لأحد منهم إلا بالخير والإحسان والتقوى، وأما عدد أولاد آدم في حياته، فلم يستوعبهم كتاب جامع، ولم يأت فيهم نص قاطع هل هم (٢٤٠)، أم (٤٠) أم (٢٥)؟

عاش آدم مئات السنين على الأرض وشاهد الأولاد والأحفاد، ومن بعدهم خلّد الله آدم بذريته ولدى كل الشعوب، وهل كانت حواء تلد توائم «ذكراً وأنثى»؟ ثم يزوّجون الذكر من الأنثى من التوأم الآخر نظراً لضرورة الحياة وعدم وجود غيرهم؟ وقبل أن تنزل الكتب السماوية بتحريم ذلك؟ هناك من قال بذلك، وبعد ذلك اكتملت التشريعات مرحلة بعد أخرى بتطور الحياة البشرية، وتلك الآراء التي حولها قضية موغلة في القدم، ولم يأت فيها نص هادٍ، فلتبقَ إذن متروكة للمزيد من الأدلة، خاصة وهي قضية لا ينبني عليها عمل[١].

إن الأخوة الإنسانية قائمة على النّسب الواحد لآدم وحواء وعلى الفطرة والطبيعة الواحدة، حيث يسهل فهم الآخر، لأنه نظيرك في الخلق، وقد يكون المرء أخاك لأمك ولأبيك، ولكنه على غير دينك فتسميه أخاً، وأُخوّةُ الدين أخصُّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ علينا ألا نتنكر للنسب الواحد، ولا نتجاهل الفطرة المشتركة وعلينا ألا نجور على حقوق الأخوة الإسلامية التي تجمعنا بشركائنا في التوحيد والإيمان برسله، وبخاتمهم ﷺ[٢].

ب ـ توفر أسباب الحياة:

انطلق الأبوان العزيزان في تحقيق مهمة الخلافة في الأرض بالتناسل والتكاثر والزواج، وبدأا يتأقلمان مع الواقع الجديد، واجتهد آدم في عمله في الأرض،

---

(١) علمني أبي آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص٤٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٥.

وساعده أبناؤه لما كبروا، وتفننوا في الزراعة والصناعة وتربية الحيوانات، وطوروا أسلوب حياتهم لأنهم يملكون العقل الواعي الذكي الذي يستطيعون به اكتشاف أسرار الكون ومصادر الرزق، وأساليب الطبخ والأكل من النباتات ولحوم الحيوانات والطيور. . . إلخ وثمار الأشجار وفاكهتها المتعددة الكثيرة من فضل الله ونعمته عليهم.

وبدأ يبني البيوت ليستتر فيها من كل ما يسوءه، ويستمتع مع زوجه بالأنس وإنجاب الأولاد، ويحمي نفسه فيها من تقلبات الطقس، ويتفنن في هندسة بنائها وزينتها[١]. وتطور اللباس فقد كان أول لباس مستقل لبساه «آدم وحواء» من ورق الجنَّة، وتمت صناعته بطريقة الخصف مثل الخرز، ويشبه الخياطة ويعني ضم أطراف الشيء بعضها إلى بعض، شبكها بعود أو نحوه، وبهذا أصبح اللباس ستراً يواري عورة الإنسان ويعينه على احتشامه حتى من نفسه وزوجه، إذا لم يكن ثمّ حاجة تدعو إلى ذلك، وكان آدم وحواء يستتران من بعضهما بهذا الورق المخصوف.

وكشف العورة بين الزوجين من غير داعٍ مستهجن، واللباس يحقق الحشمة والستر ويحقق الجمال والزينة والجاذبية في الوقت نفسه، وبهذا أصبح اللباس رمزاً للفطرة الإنسانية منذُ نشأتها الأولى، فهو كان مع آدم وحواء أول ما تفتّقت فيهما روح الاجتماع والوصال واشتياق بعضهم لبعض، وتمّ التوازن بين الروح الأرضي والروح العلوي، وبهذا أصبح اللباس جمالاً وزينة ويكفي أنه من ورق الجنَّة.

وفي الأرض كانت ثيابهم من شعر الضأن؛ جَزُّوه، ثم غزلوه فنسج آدم جُبَّة، ونسجت حواء درعاً وخماراً، وكانت بداية الصناعة ومباشرة العمل باليد، لتدبير أمر اللبس، فهو من ضرورات الحياة والصحَّة والتعبد، وقد يجوز أن يكون ما نسجوا ولبسوا غير هذا ولكنه من جنسه.

---

(١) تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص٢١٢.

وتوارث الأنبياء حب اللباس الجميل ـ حتى لبس خاتمهم ﷺ ـ الجُبَّة والحُلّة والإزار والرداء والقميص، وكان أصحابه يحبون أن تكون ثيابهم حسنة ونعالهم حسنة، وخافوا أن يكون هذا من الكِبر، فقال لهم: «إن الله جميل يُحِبُّ الجمال»[(١)].

وقد أصبح للباس وظيفة معنوية تُشعِر الإنسان بهويته البشرية وميزته الإنسانية وتذكّره بالعهد والميثاق الإلهي: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾، فثمّ لباس ظاهر من الثياب الخاصة الشخصية أو العامة، التي هي الريش ولباس باطن من الحب والمودة والرحمة، كما سمّى الله الزوجين: لباساً: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ولباس الطِّيِّبة والخير والصلاح والتقوى كما قيل:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى   تقلَّب عُرياناً وإن كان كاسيا
وخيرُ خصال المرء طاعةُ ربه   ولا خير فيمن كان لله عاصيا[(٢)]

وإنزال اللباس قد يعني إنزال المادة التي يُصنع منها، أو المطر الذي ينبته، أو إنزال الامتنان به وإباحته وتشريعه للبشر[(٣)].

وبعض الناس يلبس أفخر الثياب للتجمعات، ويذهب للصلاة في ثياب النوم، وهذه غفلة عن وظيفة اللباس: ﴿ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.

واللباس الجميل فضل ونعمة، والاعتدال فضيلة، والله يُحِبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده، وهو لا يُحِبُّ المسرفين ولا يُحِبُّ المتشدّدين المحرِّمين بغير علم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

(١) صحيح مسلم: رقم ٩١ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) ديوان أبي العتاهية، مصدر سابق، ص٤٣٤.
(٣) علمني أبي مع آدم، سلمان العودة، مصدر سابق، ص١١٠.

والحياء والحشمة للمرأة أوجب وألصق وأليق، واليوم نشكو من إسبال الرجال وتشمير النساء، وكشف المؤمنة البالغة لشعرها لغير ضرورة محرّم ومعصية، وهو مثل مخالفات يرتكبها الرجال علانية ويخالفون فيها شريعة الله، وليس هذا ولا ذاك من الكفر وليس مدعاة للوصم بالفجور، ولا الاعتداء والوقوع في أعراض المؤمنين والمؤمنات وإهدار حقوقهم(١).

كانت الحياة الإنسانية الأولى تشق طريقها على هذه الأرض، وعرف الأبوان وأولادهم وأحفادهم كيف يوفرون لقمة العيش واحتياجاتهم الحيوانية والنباتية والصناعية والسكنية و.. إلخ. فاستصلحوا الأراضي للزراعة، وكان الماء متوفراً من الأمطار المحجوزة في أغوار من التلال، وقد تمكنوا من صنع رحى لطحن القمح، وكذلك صنعوا محراثاً حجرياً، وقطعوا أخشاب الأشجار العتيقة وبنوا كانوناً لطهي الطعام، وتعلموا استخراج النار من قدح الأحجار الصخرية، وكان الله عزَّ وجلَّ يلهم آدم مما علمه من أسماء الأشياء ووظائفها فهيأ لعائلته حياة طيبة رغدة، واستجابت له الأرض ومطر السماء بإذن الله عزَّ وجلَّ، فأعطت من خيراتها الكثير الكثير، وهذا من تسخير الله مخلوقاته للإنسان(٢).

وبدأت تتشكل الأسر الإنسانية الأولى بتوجيهات نبي الله آدم عليه السلام، التي نزلت عليه من الله عزَّ وجلَّ عن طريق الوحي، ومن تلك الأسر انطلقت الحضارة الإنسانية الأولى.

وبهذا يكون قد تم الأمر الرباني الذي أُعلن في الملأ الأعلى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي كل ما جرى من أحداث في قصة آدم عليه السلام وزوجه لتكوين الجنس البشري خليفة في الأرض، ولكي يستمر في وجوده على هذه البسيطة لا بدَّ أن يأكل ويشرب ويتناسل وينجب الأولاد. ولكي يحدث ذلك

---

(١) علمني أبي مع آدم، العودة، ص١١٢.
(٢) قصة أبينا آدم، منصور عبد الحكيم، مصدر سابق، ص١٦٢.

ركَّب الله فيه دوافع للطعام والشراب . . . إلخ، وهذه الرغبات والشهوات جعلها الله سبباً في استمرار الحياة البشرية على الأرض، ومن الطبيعي لكي يحصل الإنسان على ما يشتهي من طعام وشراب . . . إلخ، ليستمر في العيش على سطح هذه الأرض بكل سعادة ويتمتع بهاتين الشهوتين، لا بدَّ أن يعمل ويجد ويجتهد من أجل الحصول على ما يشتهي، ولهذا السبب وغيره مما هيأه الله قام بعمارة الأرض وبالغ في ذلك، حتى وصل الإنسان إلى ما وصل إليه، وكل ذلك بجهده وتفكيره وتوفيق الله لبني الإنسان، ليحصل على ما نراه من التطور الحضاري الحاصل الآن[١]، والذي هو في أشد حاجة لهدايات السماء ووحي الله عزَّ وجلَّ والرسالة الخاتمة المحمدية، التي فيها سعادة الإنسان المادية والروحية والعقلية والنفسية والوجدانية.

٢ ـ آدم عليه السلام داعية التوحيد والهداية الربانية:

إن آدم عليه السلام كان نبيّاً يعبد الله وحده، وعلَّم أبناءه التوحيد، فقد سُئل النبي ﷺ عن آدم: «أنبيٌّ هو؟ قال: **نعم نبي مكلَّم خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه**» [٢].

فالتوحيد هو المنهج الذي صحب البشرية منذُ بدئها، وعليه قامت الحياة وعمرت الأرض، ومن أجله خلق الله الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وأما الشرك والكفر والفساد والضلال فكل ذلك طارئ وانحراف عن أصل الخلقة والفطرة التي فطر الله الناس عليها[٣].

وقد علّم آدم أولاده التوحيد والإيمان بالخالق، وقصته مع الخالق المصور العليم الحكيم التواب الرحيم سبحانه وتعالى، وقد أدى رسالته الربانية إلى

---

(١) تفاحة آدم، بشير محمد، ص٢١٣.
(٢) مسند أحمد: ٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، إسناده صحيح.
(٣) قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٥.

ولده، فقد كان أول الأنبياء الذين أوحى الله إليهم، ومن أهم العقائد التي علّمها لذريته، عقيدة التوحيد، وأنه ليس هنالك من خالق غير الله، فالله هو الذي خلق السماوات والأرض وخلق الملائكة والجن، فلا يجوز أن يُعبَد من دونه شيء في السماوات أو في الأرض.

ـ وعلاقته بالملائكة وقضية خلقه وتصويره زوجه من الله عز وجل.

ـ وعرّف ذريته بأسماء الله الحسنى وصفاته كالعلم والحكمة والسمع والبصر.

ـ وحقيقة الملائكة وعداوة إبليس وقصته وزوجه مع الجنَّة وكيف خرجوا منها، لحكمة أرادها الله عزَّ وجلَّ، وكيفية الرجوع إليها هو وزوجته وذريته من أولاده الصالحين.

ـ وبين لهم خطورة المعاصي والذنوب، وأهمية التوبة وطلب المغفرة والرحمة من الغفار التواب الرحيم سبحانه، وبين لهم الحياة البرزخية، التي سيدخلها الإنسان بعد الموت، وأن الله يبعث من في القبور فيخلقهم من التراب مرة أخرى، وأن الناس سوف تحشر جميعاً ليوم الحساب، وكل من الحياة البرزخية والبعث يُستدلُّ عليها في خطاب الله تعالى لآدم وعدوه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

ـ وبين لهم فناء الحياة الدنيا بأسرها، وهو اليوم الذي جعله الله حدّاً أقصى لحياة إبليس، وأن لعنة الله على إبليس مستمرة إلى يوم الدين، وبعد ذلك سوف يكون مصيره إلى النار كغيره من الكفار.

ـ وبين لهم أن الله تعالى قد أعد للكافرين جهنم يملؤها بإبليس وأتباعه من الجِنِّ والإنس، وقد ذكر الله في قصة آدم عليه السلام أن جهنم هي النار التي شاء

أن يعذب فيها هؤلاء الكفار، وهم الذين كذبوا بآياته ولم يؤمنوا بها، وبيَّن الله أن هذه النار دائمة وأن العذاب فيها مستمرٌّ، وأن أصحابها وأهلها يخلدون فيها، وأنه لا يدخلها عباد الله المخلصون الذي لا سلطان للشيطان عليهم، وآدم عليه السلام هو بطل قصة بداية الخلق للجنس البشري، ومن ثم كل ما تحتويه من دروس وعبر وفوائد من الطبيعي أن يحكيها لأولاده وأحفاده مع مشاركة أمنا حواء في ذلك.

ـ وبين آدم عليه السلام لأولاده وذريته أن خلود الكافرين في جَهَنَّمَ يقابله خلود في نعيم لمن اتبع هدى الله، وهذه المقابلة مبيَّنة في الآيتين الكريمتين سابقتي الذكر، قال تعالى في قصة آدم في سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: نستطيع أن نذكر في هذه المناسبة ما نعتقده من أن كل آية صدرت بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قد أنزل معناها في كتب الرسل ووحي الله إليهم منذُ عهد آدم، أي: أنزلت بنصها على لسان أول رسول بعد آدم، أو على آدم نفسه وباللغة التي كان يتفاهم بها بنو آدم منذُ نشأتهم على الأرض، وأنها أُنزلت على خاتم النبيين، شأنها شأن الآيات الأخرى التي نزلت بلسان النبيين من قبل، ونعتقد أنه بمراجعة هذه الآيات، وتدبرها جميعاً، يظهر صدق ما نقوله. ولنذكر هذه الآيات فيما يأتي:

ـ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ـ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ـ قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ـ قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن الأدلة على أن هذه الآيات لبني آدم كافة في إرشاداتها وتوجيهاتها، ابتداء من آدم عليه السلام، أن معظم الآيات باستثناء ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ نزلت بعد قصة آدم مباشرة في سورة الأعراف، وبعد قول الله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وأن فيها ذكر التفضل من الله بإنزال اللباس الذي يواري السوأة، ولقد كان هذا اللباس من أول الأشياء التي أنعم الله بها على آدم، وعلى آدم وحواء، ويلاحظ في الآيات الكريمة شريعة الصلاة، والأمر بأشياء تتعلق بالشرب والأكل، وهي تعاليم ما كان الله ليُؤخِّر إنزالها إلى ما بعد عهد آدم، ثم إن فيه كذلك التنبيه باتباع الرسل والكتب المنزلة والتفرقة بين المؤمنين ومآل كل فريق منهم، مما جاء مثله في قصة آدم نفسها.

ويلاحظ أن هذه الآيات صُدِّرت بنداء بني آدم على خلاف ما نراه من مناداة المؤمنين من أمة محمد بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومناداة البشر عامة بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ويلاحظ أن الله تعالى بدأ بمناداة الناس في فجر حياتهم بلفظ ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وأنه سوف يناديهم يوم القيامة بهذا اللفظ نفسه لقوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ

تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٥] [(١)].

٣ ـ عبادة الله في الأرض:

أكرم الله آدم عليه السلام بالنبوة والرسالة الربانية، فبدأ يعبد الله كما علمه في رسالته الجديدة التي بلَّغها لأبنائه، وبدأ يعلم أولاده من بعده شرع الله تعالى وكيفية عبادة الله والإخلاص له، وسعى بكل ما يستطيع أن يقيم شرع الله في الأرض، وأن يحقق العدالة في خلق الله سبحانه وتعالى وعلى أرضه[(٢)]. وقد كان أميناً على رسالة الله صادقاً في تبليغها لذريته عليه السلام، وقد غرس الأخلاق الأساسية في بنيه كالصدق والإخلاص والأمانة والعدل.

حرص آدم عليه السلام على غرس عبادة الله في ذريته، وتحقيق العبودية لله قيمة كبرى تسمو بالإنسان إلى معالي الأمور، وترفع مستواه على سائر المخلوقات، وتعتبر من القيم الكلية الكبرى، التي من أهمها العدل والإحسان والحكمة، وتعتبر قيمة العبودية لله عزَّ وجلَّ من أرقى القيم الإسلامية التي دعا إليها آدم عليه السلام، وموكب الأنبياء والمرسلين من بعده.

والأنبياء والمرسلون وعلى رأسهم آدم عليه السلام ينظرون إلى العبادة على أنها شاملة لكل نواحي الحياة، دون خروج شيء منها عن شرع الله تعالى، ودون بتر وتجزئة لمفهومها العام.

ولا بد من التأكيد على أن العبودية: نوعان: عبودية عامة، وعبودية خاصة.

العبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله برّهم وفاجرهم

---

(١) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، مصدر سابق، ص٣٦ إلى ٤٧.

(٢) تفاحة آدم، بشير محمد، مصدر سابق، ص٢١٢.

مؤمنهم وكافرهم، فالناس كلهم عباد الله، بل الأشياء كلها كذلك، فهي عبودية اضطرارية شاملة لجميع المخلوقات، وهي التي يسميها ابن القيم رحمه الله عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣] فهذا يدخل فيه المؤمن والكافر.

ولا شك في أن آدم عليه السلام هو النبي الكريم، وصاحب المعرفة العظيمة والعلوم الغزيرة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، وقد حدّث أولاده عن عظمة الله الخالق العظيم، وعن مخلوقاته المتنوعة العابدة لله طوعاً وكرهاً، ومكانة الإنسان من هذه المخلوقات وعلاقته بها، وأهمية إفراد الله عزَّ وجلَّ بالعبادة له.

العبودية الخاصة: وهي التي قام بها آدم وأمنا حواء غاية القيام، وحرصوا على غرسها في ذريتهم من الآباء والأحفاد: عبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، وهي المأمور بها في نحو:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم: عبيد ربوبيته سبحانه، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته[١]، وهذه هي التي عليها المدار[٢].

تعتبر العبودية لله أساس القيم كلها، فهي قيمة كلية شاملة مهيمنة على القيم الأخرى، بل وعلى الوجود الإنساني كله، وذلك لأنها تبدأ بالإيمان بالله رباً وإلهاً مشرعاً، وبرسله ابتداءً من آدم عليه السلام إلى رسالة محمد ﷺ، فقد جاءت تفصيليةً بصفتها التشريع المنزل من عند الله تعالى، لتحفظ للإنسان إنسانيته، ولتحقق الغاية المنشودة من وجوده على وجه هذه الأرض على أكمل وجه، ثم

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ص٨.

(٢) القيم بين الإسلام والغرب، مانع بن محمد بن علي المانع، مصدر سابق، ص٣١.

تتمثل في الالتزام بهذا التشريع، وترجع أهمية هذه القيم العليا الكبرى إلى عدة أمور:

أ ـ أنها غاية الوجود الإنساني في هذا الكون، ومن أجلها خلق الله الخلق قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فغاية وجود الإنسان على وجه الأرض هي عبادة الله وحده لا شريك له، وإفراده بجميع أنواع العبادات القلبية والبدنية، مع كمال المحبة والخضوع والتَّذلُّل، وتفريغ القلب عما سوى المعبود سبحانه وتعالى.

ب ـ أنها الغريزة الفطرية الكبرى في الذات الإنسانية، تغذيها هدايات السماء، وترشدها دعوة الأنبياء والمرسلين.

ج ـ أنها الغاية التي بعث الله تعالى رسله جميعاً بها، ابتداءً من آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل عليهم السلام لقومهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

د ـ ارتبط التاريخ البشري منذُ بداية الحضارة الإنسانية الأولى بهذه القيمة العظيمة، وسعى آدم وزوجه لتحقيقها في ذريتهما وكانوا على معرفة عظيمة بالله عزَّ وجلَّ، وخشية جليلة له، ومحبة غامرة في قلوبهم للودود الرحيم، فحقَّقوا في ذلك المجتمع الوليد توحيدَ الله عزَّ وجلَّ وإفراد العبادة له.

فكانوا حريصين على ما يُحِبُّه الله ويرضاه، ونشر ذلك في أولادهم وأحفادهم بما في ذلك من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة من صلاة وحج، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان لخلق الله عزَّ وجلَّ، والدعاء والذكر وأمثال ذلك من العبادة، وإخلاص الدين لله وخشيته في السر

والعلن والشكر لنعمائه والصبر على بلائه والرضا بقضائه والتوكل عليه، والرجاء برحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبودية لله عزَّ وجلَّ، فقد حقق آدم عليه السلام مقام النبوة والرسالة وكانت حواء مصدقة له، وانعكس ذلك على جذور الحضارة الإنسانية الأولى في الأسر الجديدة التي قامت على التوحيد وعبادة الله، وهذا هو الأصل في الحياة الإنسانية وبداية انطلاقها، فالإنسانية إذن بدأت بالتوحيد وإفراد العبادة لله ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشرك والتعدد، فكان أول شرك وقع في بني آدم في قوم نوح عليه السلام، وقد فصَّلتُ ذلك في كتابي (**نوح عليه السلام والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية**).

ومهما يكن من شيء فإنَّه حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها شاءت إرادة الله أن يرسل نوحاً عليه السلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدالة في مجال التشريع[(١)].

ـ إن آدم وحواء عليهما السلام حقَّقا العبودية المطلوبة منهما من الله عزَّ وجلَّ بعنصريها الحب والذل لله في غايتهما، ويعني ذلك تلقائيّاً تحلِّيهما بالفضائل وتخلِّيهما عن الرذائل، وذلك لأن تحقيق العبودية لله تعالى له أثر كبير في تسامي العبد خلقيّاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

كما أن انحراف الإنسان خلقيّاً دليل على نقص في عبوديته وضعف في إيمانه، وتعلق جزئي أو كلي نحو محبوبات أخرى سوى الله تعالى، مالاً أو جاهاً أو شهوة أو منصباً أو نحوها، فيرتكب في سبيل تحقيقها وإرضائها ما لا يتوافق وما لا تناسب مع الفضائل الخلقية المنبثقة من العبودية بصفتها قيمة عليا[(٢)].

ـ إن آدم وحواء تحرروا من وسواس إبليس، وتغلبوا على كيده ومكره،

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، مصدر سابق، ص٦٤.

(٢) القيم بين الإسلام والغرب، مانع بن محمد المانع، مع التصرف، مصدر سابق، ص٣٣.

وحققوا كامل الحرية الإنسانية، التي تنسجم مع الفطرة وتقنع العقل وتُرضي الوجدان البشري، فكلما ازداد القلب حبّاً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد عبودية ازداد له حبّاً وحرية مما سواه(١).

ـ إن العبودية لله تعالى تحرر الإنسان من العبودية لغيره، فهي بذلك تحقق له منتهى الكرامة الإنسانية، فهي تُزكِّي نفسه وتربطه بخالقه وترفعه من ثم فوق عناصر الذل والهوان التي كان أسير شباكها، وكلما بذل جهداً أكبر في تحقيق العبودية الخالصة تعالت نفسه وتسامت، فازدادت كرامته، وارتفعت تبعاً لذلك(٢).

ـ تُعدُّ السعادة مطلباً عاماً لكل البشر، وهي في إطار قيمة العبودية ممكنة التحقيق إذا ما سعى إليها الإنسان، وبحث عنها بكل جد ومثابرة، فالسعادة الحقيقية ليست مجرد تلذذ مادي وجسدي فحسب، وإنما السعادة التي يقابلها الشقاء منشؤها القلب، والقلب مرتبط بالله تعالى، ومن ثم فسعادته إنما هي محبة لله تعالى، واتصاله به والعبودية له، وهي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة دونها أصلاً، وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس، واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته(٣)، وفي المقابل فإن شقاء الإنسان وتعاسته في البعد عن الله تعالى والانقطاع عن جانبه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ ﴾ [طه: ١٢٤].

وآدم وحواء عليهما السلام كانا من أسعد خلق الله عزَّ وجلَّ مع التعب والمعاناة والمشقة، فقد كان الله بهما رحيماً، وعلمهما طريق التوبة والإنابة

---

(١) العبودية، ابن تيمية، مصدر سابق، ص٣٣.
(٢) القيم بين الإسلام والغرب، مانع المانع، مصدر سابق، ص٣٤.
(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مصدر سابق، ١/١١٣. القيم بين الإسلام والغرب، مانع المانع، مصدر سابق، ص٣٤.

والعبادة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، والكلمات هي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فقد عرفا ربهما وأخلصا له الحب والرجاء والخشية، وأصبح الله هو غاية مرادهما ونهاية مقصودهما، فحقَّقا حقيقة التوحيد والعبودية، فكانت السعادة لهما من ثمرات ذلك، وسار على هذا المنهج والطريق من أراد الله لهم الخير من ذريتهما، ولم يقع في شباك إبليس اللعين.

٤ ـ آدم عليه السلام والبيت الحرام:

مما يُذكَر في هذا المقام ما ورد عن البيت الحرام ومكانه في الأرض، وأنه أول بيت وضع للناس في الأرض، وأن أول مَن بناه آدم عليه السلام بقول الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

فهو أول بيت وضع للناس يتعبدون الله فيه، يقول ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه أول بيت وُضع للناس ـ أي لعموم الناس ـ لعبادتهم ونسكهم، ويطوفون به، ويُصلُّون إليه، ويعتكفون عنده[١].

ومما يتضح من كثير من الأحاديث أن أول بناء البيت الحرام كان من بدايات تاريخ البشرية على هذه الارض، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وضع ـ يعني إبراهيم ـ البيت على أركان رآها قبل أن تُخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحته، وقال مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ١/ ٣٨٣.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٦.

وقال القرطبي رحمه الله: اختلف الناس فيمن بنى البيت أوّلاً وأسّسه فقيل: الملائكة، وقيل: إن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى آدم: إذا هبطت ابن لي بيتاً، ثم احفُفْ به كما رأيت الملائكة تحفُّ بعرشي الذي في السماء، فهذا بناء آدم عليه السلام، ثم بناه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك، وهذه الأقوال وإن كانت تستند على أدلة لا تخلو من مقال كما ذكر ابن كثير رحمه الله، إلا أن هناك أدلة أخرى صحيحة تؤكد أن الله عزَّ وجلَّ قد اصطفى موقع بناء البيت منذُ خلق السماوات والأرض، وأنه قد بُني قبل إبراهيم عليه السلام، فمن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: **سألت رسول الله ﷺ عن أوّل مسجد وُضع في الأرض قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً**... الحديث.

ومما هو ثابت أن بناء بيت المقدس الأخير كان من قبل سليمان عليه السلام، كما رواه النسائي بإسناده من حديث عبد الله بن عمرو، ومن المعلوم زمنيّاً أن بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام أكثر من أربعين سنة دون ريب، إذ سليمان هو ابن داود عليهما السلام، وقد جاءا بعد موسى وهارون بزمن كذلك، وهم من ذرية يعقوب بن إسحاق عليهم السلام، فدل ذلك على ما أثبته الحديث السابق، وهو أنه بناء غير بناء إبراهيم عليه السلام، فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنمّا جدّدا ما كان أسّسه غيرهما، وقد رُوي أن أوّل من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدّم، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله، وكلٌّ محتمل، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض، وأن يطوفوا به، وكان هذا قبل خلق آدم، ثم آدم بنى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم استتمَّ بناءَه إبراهيم عليه السلام.

ومن الأدلة كذلك ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة(١). فقداسة هذا البلد وحرمته واصطفاؤه قديم قدم الأرض والسماوات، ويقول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، يدلُّ على أن البيت كان قديماً ـ على ما روي ـ قبل الطوفان. فهذه أدلة متضافرة على تأكيد أقدمية بيت الله الحرام، وأنه أول موضع تجلَّى به التوحيد الخالص على وجه هذه الأرض، والتأم فيه شمل المؤمنين لعبادة الله عز وجل.

غير أن البيت رفع ـ كما ورد في بعض الروايات ـ أو أنه تهدم بسبب الطوفان، ولم يبق منه إلا قواعده وأسسه، وتشتَّتِ الأمم في الأرض، ولم يُعدُّ البيت الحرام هو مرتكز النبوة والرسالة، فقوم هود في الأحقاف، وقوم صالح في الحجر، وقوم شعيب في مدين، وهكذا مَن بعدهم من الأمم، ولم يُعَدْ بناؤه إلا على يد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام(٢).

ولعل من أجل العبر والدلائل ما خص الله به هذه الأمة من رعاية هذا البيت العتيق، وأنه جعلها أمة البيت الحرام، وبعث الله هذا النبي الكريم محمداً ﷺ من أهله، في إشارة إلى أن البشرية قد بلغت منتهاها، وآن لها أن تعود إلى ما كانت عليه في عهدها الأول أمة واحدة، كما هي في عهد آدم وذريته الذين كانوا على دين واحد هو التوحيد، لا تتعدد فيه الشرائع ولا يقبل الله من أحد غيره.

إن ميراث أمة محمد ﷺ للبيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس، دليل على أن قيادة البشرية تنتهي إليها، وأنها وريثة آدم في التوحيد والإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وإفراده بالعبودية له وحده سبحانه وتعالى، وأنها الشهيدة على الناس

(١) قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٧.
(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص٣٠٨.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣] [١].

إن الحج ركن من أركان الإسلام الكبرى، يثبت العقيدة في نفوس المؤمنين حتى تقتفي آثار رسولها الكريم وتأخذ عنه مناسكها، أو حين تلبي نداء الله من قبل حين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

كما أنه يزيد الصلاح حيث تجتمع فيه العبادات كلها من صلاة وصيام وصدقة وذكر لله تعالى وإخلاص له في العبادة، وصبر على طاعة الله وطواف بالكعبة وغير ذلك من الأعمال، التي ينال بها الحاج رضوان الله ومغفرته، ومباهاته سبحانه بهم يوم عرفة ملائكته، إنه مؤتمر إسلامي عالمي يتساوى فيه الناس في المشاركة فيه، ويتفاوتون في درجات العمل وصدق التوجه إلى الله، فلا يكتمل صلاح الفرد إلاّ بالحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنَّة[٢].

٥ ـ البناء الأخلاقي للحضارة الإنسانية الأولى:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الأنبياء والرسل من المصطفين الأخيار، فقد قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

فلا غرابة فالأنبياء والرسل جميعاً نماذج مثالية عليا في التربية الأخلاقية والسلوكية، فقد كان آدم عليه السلام حريصاً على تربية أولاده وأحفاده على أسس القيم الأخلاقية الأصيلة المستمدة من هدايات السماء التي أوحاها الله

(١) قصة الخلق، الخرعان، مصدر سابق، ص٣٠٨.
(٢) الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، علي الغامدي، مصدر سابق، ص٢٩٩.

إليه، والإنسانية بفطرتها تميل إلى حب الخير والفضيلة، والله عزَّ وجلَّ منذُ خلق آدم عليه السلام وبارك في ذريته يعلم ما يُزكِّيه ويرفعه، ويعلم ما يُدنِّسه ويُهبِطه ويلغي إنسانيته، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

فجاءت التعاليم الربانية لآدم عليه السلام هادية لبنيه وذريته إلى ما يُصلح شأنهم عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، واجتهد آدم عليه السلام في رفع مشاعر أبنائه الإنسانية نحو الكمال المرغوب، وحرص على تطهير نفوسهم من الأدران الأرضية، وعمل على بناء لبنات صالحة يُقيم عليها تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى القائمة على النقاء والطهر والاتجاه الصادق نحو إرضاء الله وحده دون سواه[1]. ودعا آدم عليه السلام أولاده إلى محمود الأخلاق، ونهى عن مذمومها، مسترشداً بهدايات السماء وما أعطاه الله من علم، وعقل يميز به بين الخير والشر، والحق والباطل، والصالح والفاسد.

وكانت أقواله وتوجيهاته مطابقة لسلوكه وأفعاله، وكانت طبيعة الأخلاق الإنسانية الأولى تستمد مبادئها وأصولها من وحي الله، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

ـ والأخلاق المستمَدَّة من وحي الله عزَّ وجلَّ ثابتة لا تتغير مع الظروف والأحوال، بل هي صالحة لكل الناس، ومناسبة لكل زمان ومكان، فالأخلاق ليست نسبية في الإسلام، وإنما تنبع من حقائق خالدة، تستند إلى الوحي الإلهي[2].

ـ وهي معتدلة وموازنة لطبيعة الإنسان الذي خلقه الله عليها، والتي تتكامل فيها الجوانب المادية والروحية معاً عن طريق التربية المُهذَّبة للأخلاق والمُوجِّهة لطبيعة الإنسان المزدوجة نحو السلوك اللائق به كمخلوق مُكلَّف يحمل أمانة

(١) الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، علي الغامدي، مصدر سابق، ص٣٠١.
(٢) الإسلام والتربية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، مصدر سابق، ص١٤١.

الإسلام الخالدة في الأرض، وهذا العامل الخيِّر المُتوائم مع فطرته الخيرة، وطبيعته الإنسانية الأصيلة المُحبة للخير والفضيلة والرشاد، في سبيل محافظة الإنسان على إنسانيته، يحتاج إلى نظام أخلاقي متزن يستطيع أن يُدخل الاتزان عليه ويُبقيه في دائرة فطرته السليمة[١].

ـ والأخلاق مرتبطة بالإسلام وشعائره الظاهرة، ومبادئ الأخلاق القيمية عند غاية واحدة لها طرفان أصيلان لا ينفكان عن بعضهما، الأول نصّ عليه الكتاب العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والثاني نصت عليه السنة النبوية في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارِمَ الأخلاقِ**»[٢]. فالعبادات تساعد على تأصيل الأخلاق وممارستها في دورة الحياة كجزء أساسي من الحياة الإسلامية الرشيدة[٣].

٦ ـ أصول الأخلاق والفضائل الإنسانية الأصيلة:

اتصف آدم عليه السلام وبنوه من الأنبياء والمرسلين بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل، وفي مقدمتها الصدق والأمانة والفطانة والبيان وغيرها، وقد تحدث القرآن الكريم عن أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، وهي مُتَّفق عليها في كل الديانات السماوية، ومُقرَّرة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشر المذكورة في سورة الأنعام: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ

(١) البخاري: رقم ١٩٠٦.
(٢) البخاري: رقم ١٩٠٣.
(٣) نوح والطوفان العظيم، الصّلابي، مرجع سابق، ص٣٠٦.

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

فهذه الوصايا العشر هي وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنساني كامل يُبنى على أساس التعاون الإنساني والمودّة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات ورعاية الضعفاء:

ـ الوصية الأولى: النهي عن الشرك:

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾:

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ هو الأمر الأول الذي حرّمه الله، وهو أعظم الأمور وأقواها أثراً، لأنه يتعلّق بخالق الكون ومنشئ الوجود، وهو أصل الاعتقاد الديني، وهو أول الشريعة، وعليه اجتمعت كل الرسالات، فالوحدانية لبُّ الإيمان، والله يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك.

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان والإذعان للإنسان والأصنام، وهي تربِّي العزة في المرء، فلا يخضع إلا لله الواحد الأحد، الفرد الصمد[1].

ـ الوصية الثانية: الإحسان إلى الوالدين:

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾

إن الإحسان إلى الوالدين برٌّ بمن جعلهم اللهُ سبباً مادياً في وجود الولد، ولذا قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾، فهذا هو الأمر الثاني وهي الوصية بالوالدين، والوصية بهما هي الإحسان إليهما، والإحسان مرتبة أعلى من العدل، إذ هو فوق العدل في الرحمة والرأفة فهو عدل ورأفة ووفاء وبرّ، ولذلك كان الأمر بالإحسان

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، ٥/ ٢٧٣٢.

بجوار الأمر بالعدل، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ـ **الوصية الثالثة: النهي عن قتل الأولاد:**

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ـ **الوصية الرابعة:** الابتعاد عن الفواحش وعدم الاقتراب منها ما ظهر منها وما بطن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ ﴾.

هذه الوصية الرابعة وهي تتصل بالنهي عن الفواحش والفواحش هي المعاصي، لأن فيها انحرافاً، والأصل في الفحش الزيادة عن المعقول والفطرة، والخروج عن مناهجها، وعن الطريق المستقيم، وما ظهر: ما يُعلن ويجهر به، والجهر في المعصية في ذاته حرام، وما بطن: أي ما استتر ولم يجهر به وهو إثم، ولكنه دون إثم المجاهرة، ومن يجهر بالمعاصي فإن ما يفعله إثمان، إثم الفعل وإثم المجاهرة[1].

ـ **الوصية الخامسة: النهي عن قتل النفس بغير الحق:**

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ﴾:

هذه الوصية الخامسة التي أوصى بها رب العالمين، ﴿ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾، والإشارة إلى المذكور من النهي عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهي عن قرب الفواحش، وهو نهي عن المقاربة لا عن الوقوع،

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، ٥/ ٢٧٣٢.

لأنه نهى عن أن يدنو منها، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، والنهي عن القرب يدلُّ على النهي عن الوقوع، والإشارة تشمل النهي عن قتل النفس، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى، ووصايا الله جديرة بالاتباع، وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لكي تكونوا دائماً متذكرين، والتوصية هي الطلب المؤكد من العباد[1].

ـ الوصية السادسة: تحريم أكل مال اليتيم:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾.

ـ الوصية السابعة: الإيفاء بالكيل والميزان بالقسط:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

ـ الوصية الثامنة: العدل واجتناب قول الزور:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾.

ـ الوصية التاسعة: الوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾.

ـ الوصية العاشرة: اتباع الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم: فإنَّ الله تعالى لما نهى وأمر، حذر هنا من اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه، فكل الوصايا هي طريق الله تعالى، وهي طريق مستقيم. وقوله: ﴿ صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾، فالصراط: الطريق وهو دين الإسلام.

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، ٥/ ٢٧٣٥.

ومستقيماً: حال من اسم الإشارة، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه.

إن هذا الصراط هو جميع التوصيات، لذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله تعالى وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية، ولعلكم ترجون رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى[١].

إن هذه الوصايا مُجمَع عليها من الأديان، وهي الأساس النفسي لتكوين الجماعات الفاضلة، وقد جاءت بها الأديان كلها ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة[٢]، وهي من وصايا الإسلام الذي هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه، وأن هذا الدين هو الذي فرضه الله على البشر، منذُ خلقهم، جاء به آدم عليه السلام ونوح وإبراهيم وآل عمران، وأنه تمّ برسالة خاتم النبيين، وهو الدين الذي يدعو إلى الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك، وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم، ومهما تغيرت مهنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا[٣].

إن التاريخ الإنساني بدأ من أول إنسان خلقه الله في الأرض بخصائص كاملة في مكوناته العقلية والنفسية والروحية، وفي أخبار آخر كتاب منزل من الله فإن ذلك الإنسان هو آدم الذي هيأه الله ليكون خليفة في الأرض بأعماله الحضارية التي تصدر منه بإرادته، وعلى أساس الإيمان بالله واتباع هداه[٤].

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مصدر سابق، ٥/ ٢٧٤٣.
(٢) المرجع نفسه، ٥/ ٢٧٤٠.
(٣) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، مصدر سابق، ص٣١٨.
(٤) الجيو حضارة أو جغرافية الأمم، أحمد سريرات، مصدر سابق، ص٧٧.

إننا لا يمكننا أن نستلهم معالم الاتجاه الإيماني في التاريخ الذي يخلو من الانحياز والتطرف، ولا يمكننا أن نستخلص المنهج السليم في سبر أغواره إلاّ في القرآن الكريم الكتاب الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

إن من مساوئ النظرة التاريخية الغربية للأحداث في المسيرة الحضارية الإنسانية إغفالَها وتجاهلها الجوانب التاريخية لعلاقة الإنسان بالله وما كان من تداعياتها[١]. ولذلك لم ينصفوا قادة البشرية وسادتها في القيم الروحية والأخلاقية والتشريعية، وهم الأنبياء والمرسلون ابتداء من آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين، بل تعرّض الكثير منهم للتشويه والتزوير والإفك المبين.

٧ـ عمارة الأرض:

إن من مقاصد خلق الله عزَّ وجلَّ لآدم وذريته عمارة الأرض، فقد أعطى لآدم الملكات والقدرة على تحقيق العمارة في الأرض، وتوريث تلك المعارف والعلوم لأولاده وأحفاده، وألهمه سياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمر الله فيهم[٢].

قال العلاّمة الطاهر بن عاشور مؤكداً معنى العمارة: فالخليفة آدم، وخَلَفِيّتهُ قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى في تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي[٣].

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١].

قال الطبري مؤكداً معنى العمارة في الآية ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: يقول: وجعلكم عمّاراً فيها[٤].

---

(١) الجيوحضارة أو جغرافية الأمم، أحمد سريرات، مصدر سابق، ص٧٥.
(٢) تفسير البيضاوي، مع التصرف، مصدر سابق، ١/ ٦٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر سابق، ١/ ٢٠٨.
(٤) تفسير الطبري، مصدر سابق، ١٥/ ٣٨٦.

وقال البيضاوي: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ عمّركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها[١]، فالإنشاء من الأرض هو في خلق آدم من الأرض، لأن إنشاءه إنشاء لنسله، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع[٢].

والاستعمار عند كثير من المفسرين هو الإعمار أي جعلكم عامرين لها، فالسين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع، لأن ذلك يُعدُّ تعميراً للأرض، حتى سُمِّيَ الحرث عمارة لأن المقصود منه عمر الأرض[٣]. فمقصود هذه الآيات وغيرها واضح الدلالة في بيان مقصود العمارة، وأن القيام بها واجب على مجموع الخليقة[٤]، وهذا ما حرص عليه آدم وبنوه في نشأة الحضارة الإنسانية الأولى من تحقيق هذا المقصد السامي الذي جعله الله من أهداف خلافة الإنسان في الأرض.

وتعتبر عمارة الأرض، بما يحقق حسن السير فيها والقيام بمعاشها واحتياج الخلق منها، مقصداً من أعظم مقاصد التشريع التي دلت عليها كليات الشريعة وجزئياتها، وقد حكى هذا المقصد العام من التشريع غير واحد من علماء الفقه والأصول، ومنهم الإمام ابن عاشور في قوله: إن من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة بين رعي المنفعة العامة ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطأ به جهده، وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية[٥].

---

(١) تفسير البيضاوي، مصدر سابق، ٣/ ١٠٣.
(٢) مقاصد القرآن الكريم، مجلة علمية محكمة عدد (٣)، ص١٤٥. الوعي الحضاري، مسفر علي القحطاني، مصدر سابق، ص٨٣.
(٣) مقاصد القرآن الكريم، مجلة علمية محكمة عدد (٣)، مصدر سابق، ص١٤٦.
(٤) المرجع نفسه، ص١٤٦.
(٥) المرجع نفسه، ص١٤٧.

ويقول الشيخ علال الفاسي: المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها وقيامهم بما كُلِّفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع(١).

فعمارة الأرض بالبناء والصناعة والزراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن وخيرات مطلوب من الناس عامّة ومن المسلمين خاصّة، فهو من مقتضيات الاستخلاف العامّ للناس في الأرض(٢).

نجح آدم عليه السلام وزوجه وأولاده في تحقيق العبودية لله وعمارة الأرض، والعمل بمقومات الاستخلاف فيها، ومن الوسائل التي استخدمها آدم وبنوه في عمارة الأرض:

أ ـ العقل:

العقل نعمة أنعم الله بها على آدم وزوجه عليهما السلام وعلى ذريتهما وعلى الجنس البشري، وهو موهبة وهبها الله الوهاب، وهي من الأدوات الإنسانية الرفيعة التي أكرم الله بها الإنسان في معرفة كليات الوجود ونواميس الكون وموقعه منها، فالعقل وسيلة الإنسان لإدراك الوجود، والعقل الإنساني أداة الإدراك الأساسية وأداة الفهم والنظر في ملكوت الله والتلقي من وحي الله، والتمييز والموازنة بين الأشياء.

والعقل هو مُوجِّه الإنسان ودافعه ووسيلته في إدراك موقعه من الحياة، وهو موجهه ودافعه ووسيلته في طلب علم الغيب والتلقي عن رسالات الوحي بفهم ورشد، ثم العمل في حصانة تحميه من الخرافة والفساد. فالعقل المسلم يتميز بتكامل مصادر معرفته في عالمي الغيب والشهادة، فالوحي مصدر عالم الكليات

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، مصدر سابق، ص٤١ ـ ٤٢.
(٢) مقاصد القرآن الكريم، مجلة علمية محكمة عدد (٣)، مصدر سابق، ص١٤٧.

وعالم الغيب، والعقل مصدر عالم الشهادة وإدارة الحياة[(١)].

فدور الوحي الرباني الذي نزل على آدم عليه السلام هو إمداد العقل الإنساني، متمثلاً في الجيل الإنساني الأول الذي أنشأ الحضارة الإنسانية، بحاجته من علم الغيب بما يكفل له توضيح الغاية الخيرة من خلق الإنسان في عالم الشهادة ودوره في عمارة الأرض وخلافتها، ودور العقل الإنساني في السعي إلى عالم الشهادة، وإقامة العمارة والخلافة على نور من توجيه الوحي والرسالة الربانية.

فالعقل الإنساني في عهد آدم عليه السلام استمد قوته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي وهدايات السماء التي كان يقود بها آدم عليه السلام ذريته من أولاده وأحفاده في المرحلة الأولى من تاريخ البشرية، فكان عقلاً مؤمناً راشداً مطمئناً غير مكابر ولا جاحد ولا مستكبر ولا تارك اليقين إلى الظن، ولا الهداية إلى الضلالة، وهو عقل مؤمن تستغرقه مسؤولية خلافة الكون والحياة والإعمار والإصلاح، باعتبار ذلك من الأهداف التي خلق الله آدم وذريته من أجلها.

وقد استطاع آدم عليه السلام وبنوه وضع أسس علمية بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، وقد ساهمت هذه الأسس في انطلاق الحضارة الإنسانية الأولى في التعامل مع الوحي والكون والاستفادة من نعمة العقل في إعمار الأرض، وفتحت آفاقاً جديدة لأجيال الإنسانية المتلاحقة في مجال الحضارة التي قاد ركبها الأنبياء والمرسلون في مسيرة الإنسان الطويلة.

وعملية تسخير الكون تمت بتوظيف العقل الإنساني الأول «آدم وبنوه»، في كشف قوانين الكون ونواميسه وخفاياه، والإفادة من ذلك لصالح الحضارة الإنسانية الأولى، وزيادة الإعمار الكوني والحياتي، وإدراك عظمة الخالق من

---

(١) أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد، مصدر سابق، ص١١٨ ـ ١١٩.

خلال الوقوف على أسرار خلقه[١] والرغبة في تحقيق غاية الاستخلاف، وما التراكم المعرفي والرقي الحضاري في الماديات والمعنويات، لدى الإنسانية اليوم، إلا ثمرة من ثمار الجيل الأول الذي أسس الحضارة الإنسانية بقيادة أبينا آدم عليه السلام، وبتوفيق الله له.

إن آدم عليه السلام، المربي الأوّل للإنسانية والمعلم الكبير للبشرية، جعل من التفكير والتأمل مدرسة أصيلة بين أبنائه لمعرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة تأثير أسمائه وصفاته ثم عبادته وخشيته وطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه والوقوف عند تعاليمه، وغرس في أبنائه قيمة الحرية في التفكير والتعبير عن كينونتهم الإنسانية، والتحرر من عبودية الشَّيطان والأهواء، وإفراد الله بالعبادة بالعقل والمنطق والوجدان والفعل والأقوال، وعمارة الكون على وفق منهج الله القويم.

ب ـ الفطرة:

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

ـ يقول القرطبي مُفسِّراً هذه الآية: هي الخلقة التي خُلق عليها كل مولود، وبها يَعرف ربه[٢].

ـ وقال ابن كثير: فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره[٣].

والفطرة: هي الخلقة السليمة التي يُخلق عليها المولود، وهي الجبلة، تقول: جبله الله على كذا أي: فطره عليه[٤].

والفطرة: هي الخلقة السليمة التي خُلق عليها الإنسان، والتي تجعله يشعر بوحدانية الله في صفاء، وهو مطمئن بمعرفته وتوحيده، يدفعه صفاؤها ونقاؤها

---

(١) الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، الغامدي، مع التصرف، مصدر سابق، ص٣١٩.
(٢) تفسير القرطبي، مصدر سابق، ١٤/ ٢٧.
(٣) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٣/ ٤٣٢.
(٤) الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي، الغامدي، مصدر سابق، ص٣٣٢.

إلى حب الخير كله والرغبة في عبودية الله وحده، لأنه الخالق المستحق للعبادة وحده دون سواه، مع رغبة في فعل الخير والبعد عن الشر في توجه صادق مخلص لله يحقق الصفاء الروحي، والاطمئنان القلبي، والسعادة الكاملة للإنسان.

والفطرة غراس رباني جِبِلِّي يملكه كل إنسان، وقد حرص آدم عليه السلام على سلامة فطرة أولاده وذريته وخيريتها، وعمل على حمايتها من الفساد والضلالات بهدايات السماء، وأساس الفطرة هو توحيد الله عزَّ وجلَّ، وجذور هذه المعرفة عميقة في النفس، ولا سبيل إلى إنكارها أو التخلص منها[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

فقد حرص آدم عليه السلام على تعهُّد فطرة أولاده باعتبارها قاعدة الأساس العقدي العبودي والأخلاقي للإنسان السليم، فدعوة آدم عليه السلام لأبنائه هي دعوة الإسلام، وهو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس، فالرغبة في الاتصال بالله أمر فطري، والتطلع إلى ما عند الله هو جزء من طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها.

وقد دلّ آدم عليه السلام بنيه على الطريق التي تجعل الفطرة صحيحة وسليمة، وذلك عن طريق طاعة الله بالعبادة والخضوع لشرعه والرجاء فيه، والتسليم في كل ما جاء من عنده، فالصلاة والذكر والدعاء ومراقبة الله في السر والعلن والخشية لله والخوف منه والرجاء في رحمته ومحبته سبحانه[٢] كلها من دلالات آدم وإرشاده لبنيه وذريته عليه السلام.

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد، مصدر سابق، ص٨١ ـ ٨٢.
(٢) الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص٣٣٥، بتصرف.

وكان آدم عليه السلام قدوة لبنيه في توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وساهم ذلك في الاستفادة من رصيد الفطرة لأولاده في عبادة الله وعمارة الأرض، فالفطرة السليمة مجبولة على توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة والسعي في إعمار الأرض.

ج ـ الحواس:

أحد المعطيات الربانية التي أنعم الله بها على الإنسان وتستحق منا الشكر، فالحواس أمانة عند الإنسان، عليه أن يُسخِّرها في العلم والإيمان والعمل، باعتبارها مقومات أساسية للمعرفة الإنسانية، وتساعد الإنسان على تحقيق غايات وجوده من عبودية الله والاستخلاف في الأرض، وعمارة الكون والحياة وفق المنهج الرباني[١].

فالحواس هي أحد أبواب تحصيل المعرفة وأحد نوافذها المحدودة بعالم الحس، ويُطلَق عليها الحواس الخمس (السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق) اعتباراً لهذه الحواس الظاهرة التي تتعامل مع وسائل الحس الباطنة للحصول على المعرفة، وهذه الحواس بمنزلة منافذ يُطِل منها الفكر على العالم، فيدرك منه بشكل مباشر ما تستطيع هذه الحواس أن تحس به وتنقله من صفات الأشياء إلى منطقة الإدراك الفكري، ثم تسجل الذاكرة من أمور وردت إليها عن طريق الحواس الظاهرة[٢].

والحواس أحد مصادر المعرفة بعد الوحي، وبها يستطيع الإنسان أن يكسب العلم والمعرفة منذُ ولادته بما وهبه من حواس يرى ويسمع ويلاحظ ويميز ويستوعب ويحلل ويتأمل، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص٣٤٨.
(٢) ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حسن حبنكة، مصدر سابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

فالحواس مداخل نافعة لأداء مهمة الفطرة والثبات في معرفة الحق، وأما إذا انحرفت الفطرة عن الحق، فإن نتيجة ذلك تعطيل الحواس عن مهمتها التي خلقها الله لتكون عوناً للإنسان على معرفة الحق(١).

فأخبر الله عن حال من انحرفت فطرته وتعطَّلت حواسه، فقال تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، فالحواس نعمة يمتن بها الله على عبادة فهي وسيلة الإنسان للمحافظة على حياته كما أنها مصدر موثوق للمعرفة، وأداة لتثبيت العقيدة وترسيخ الإيمان(٢).

وقد علق الأستاذ المودودي على الآية السابقة فقال: إن هذه الكلمات لم يتنزل بها الوحي في كتاب الله لتعني فقط مجرد القدرة على الرؤية والسمع والتفكير، وذلك بأن السمع معناه احتراز المعرفة التي اكتسبها الآخرون، والبصر معناه تنميتها بما يُضاف إليها من ثمرات الملاحظة والبحث.

والفؤاد معناه تنقيتها من أدرانها وأوضارها ثم استخلاص النتائج منها، وكل هذه القوى الثلاث إذا ما تضافرت بعضها على بعض نجمت عنها تلك المعرفة التي منّ الله بها على بني آدم(٣).

وقد حرص آدم عليه السلام على توجيه أولاده وأحفاده إلى الاستفادة من نعمة الحواس في تثبيت الإيمان بالله في نفوسهم، واكتشاف أسرار الكون من خلال التجارب العملية في خبرة الحياة، ومعرفة السنن الكونية، مع الوحي والعقل، ودون تعطيل دورها في مساعدة العقل في تدبر هذه السنن والتعرف

---

(١) منهج الإسلام في تزكية النفس، أحمد كرزون، مصدر سابق، ص٢٨.

(٢) مكانة الحواس من المعرفة في الإسلام، صالح سليمان العمرو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى.

(٣) الوسطية في التربية الإسلامية، عبد الله محمد الزهراني، مصدر سابق، ص٢٠.

على آثار خلق الله وآثار عظمته وجمال صنعه في الوجود، والاستمتاع بنعم الله المشاهدة والملموسة، والعمل على المحافظة على أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، وهذا الكون الفسيح، وفق شريعة الله والمفاهيم الربانية والقيم الحاكمة في حياة الناس.

د ـ المنهج الرباني:

هو المنهج الذي أنزله الله على آدم عليه السلام ليبلغه لأولاده وذريته، وهو بداية الرسالات السماوية في حياة الإنسانية، وهو منهج كامل وتام ومُفصَّل ومُحكَم ومتناسق، وهو هدى ونور وشفاء ورحمة وموعظة وبشرى وذكر، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فقد أسس آدم عليه السلام للحضارة الإنسانية الأولى مناهج ورؤى صحيحة في عمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف، من خلال المنهج الرباني الذي ربّى عليه أولاده.

والمنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام ذريته يُحقِّق عبادة الله في الأرض وعمارتها بقيم العلم والإيمان والعبادة والتفكر في مخلوقات الله تعالى، سواء السماوية كالشمس والنجوم والكواكب، أم الأرضية من وديان وجبال وسهول ونبات وأنهار وعيون وحيوانات وليل ونهار، وشتاء وخريف وربيع وصيف ويوم وأسبوع وشهر وسنة... إلخ، وقد قرر المنهج الرباني حقائق الفطرة، وجعل الأسرة من حقائق الفطرة وأقامها بناء أصيلاً، وكرّم المرأة متمثلاً في شريكة الحياة الإنسانية، وبداية مشوارها الطويل متمثلاً بأمنا حواء عليها السلام.

ورسم المنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام الخطوط العريضة للحضارة الإنسانية الأولى لصياغة الإنسان الفاعل في حركة الحياة، وقدم رؤية متكاملة جسميّاً وعقليّاً وروحيّاً للإنسان الأول، ساعدته في عمارة الأرض.

وأجاب المنهج الرباني على الأسئلة الوجودية المتعلقة بالإنسان في قصة خلقه ووجوده في الحياة، ومصيره الذي ينتظره بعد الموت، وإن المنهج الرباني الذي دعا إليه آدم عليه السلام هو تناول الحقائق الكلية كلها، حقيقة الألوهية وحقيقة الحياة وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان، وعمل على تحقيق التوازن بين تحقيق القوة والكرامة الإنسانية، ومقام الإنسان في الكون وعبوديته لله، بل وضح أن رفعة الإنسان وتكريمه وفاعليته مستمدة جميعها من كونه عابداً لله وحده[١]. كما أنه متوازن بين مصادر المعرفة، بين التلقي من الوحي والنص، وبين التلقي من الكون والحياة، وإعطاء كلٍّ منها ما يستحق من الدرجة والاعتبار[٢].

لقد استطاع آدم عليه السلام من خلال المنهج الرباني أن يظهر إيجابية بنيه في الكون وعمارة الحياة باستغلال الحواس وكامل الاستعدادات في معرفة علل الكون وأسراره وتسخيره لخدمة الحضارة الإنسانية الأولى، وكيف لا وآدم عليه السلام هو المعلم الأول وصاحب العقل الرشيد والفطرة السوية، والحواس المباركة، والمؤيَّد من خالقه الجليل العلي الكبير سبحانه وتعالى، فقد أُوتي علماً وفكراً وبياناً ومنطقاً وحججاً ساهمت في إقناع بنيه وأحفاده في تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى.

٨ ـ الاستخلاف:

قال الراغب الأصفهاني: الخلافة: النيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ١/ ٥٣٢ ـ ٥٥٦، بتصرف.
(٢) الإنسان الصالح وتربيته، الغامدي، مصدر سابق، ص٣٥٥.

وإما لموته وإمّا لعجزه، وإما لتشريف المُستخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير: استخلف الله أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] (١).

أ ـ مفهوم الاستخلاف عند بعض المفسرين والعلماء:

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

قال بعض المفسرين: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وتفضيله، وأن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بأنه مستخلفه في الأرض(٢). وللعلماء في خليفة وخلائف وخلفاء آراء كثيرة منها: الخلافة عن الله ومنها: أن خليفة بمعنى خلفاء يعقب بعضهم بعضاً ولا بقاء لهم، ومنها: أنهم يخلفون من كان قبلهم من الجِنِّ بعد أن أهلكهم الله بسبب فسادهم(٣). ويرى بعض العلماء أن الخلافة إما أن تكون متمثلة في آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه(٤)، وإما أن تكون لجميع البشر فيخلف بعضهم بعضاً، ومنهم من يخرج عن طاعة ربه ويكفر بما جاءه من الهدى(٥). ولذلك فرق بعض الباحثين بين مسمّى «خلائف» ومسمى «خلفاء»، وجعل صيغة «خلائف» في الوراثة الزمنية للأمم الكافرة التي أهلكها الله، والتي يجب أن تكون الأمم الخالفة فيها مخالفة للأمم المخلوفة في نهجها وسلوكها(٦). وجعل «صيغة خلفاء» في

---

(١) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٢٥.
(٢) تفسير السعدي، مصدر سابق، ١/ ٧٠ ـ ٧٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، مصدر سابق، ١/ ٦٢.
(٤) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ١/ ٧٠.
(٥) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٢٥.
(٦) الخلافة في الأرض، أحمد حسن فرحات، مصدر سابق، ص٢٣.

الوراثة الدينية الصالحة، لأنها جاءت بعد انقضاء أجل الأمة الصالحة، وهذا يعني أن الأمة الخالفة تقتدي بالأمة المخلوفة وتسير على نهجها وسلوكها(١).

ومهما بلغت الفوارق بين صيغ (خليفة) و(خلائف) و(خلفاء) و(مستخلفين) ونحو ذلك مما ورد في قضية الاستخلاف، فإن العبرة بما قصّه الله من تفضيله لآدم عليه السلام وذريته على سائر المخلوقات، وما فطره الله عليه من التوحيد والعلم، وكذلك ما حدث منه وزوجه من معصية كانت سبباً لإخراجهما من الجنَّة، ثم ما حدث معهما من ندم وتوبة، وما تفضل به أرحم الراحمين(٢) من قبول لتوبتهما. ومن ثمّ بدأ تاريخ الاستخلاف، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ـ٣٩].

وببداية الاستخلاف بدأ الصراع بين الخير والشر، فقد أُهبط آدم وزوجته ومعهما إبليس إلى الأرض لتبدأ ملحمة العداء بين آدم وذريته في جانب، وإبليس وذريته في الجانب الآخر(٣).

قال بعض المفسرين: من المعلوم أن العدو يجد ويجتهد في ضرر عدوه، وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي هذا أي: قوله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، تحذير لبني آدم من الشَّيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) الخلافة في الأرض، أحمد حسن فرحات، المرجع نفسه، ص٢٧.
(٢) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٢٨.
(٣) بدائع التفسير، ابن القيم، مصدر سابق، ١/ ٣٠٤ـ٣١٢.

ثم ذكر الإهباط فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، أي: مسكن وقرار ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] انقضاء آجالكم، ثم تُنقلون منها للدار التي خُلقتم لها وخُلقت لكم، وفيها أن مدّة الحياة مؤقتة، عارضة، ليست مسكناً حقيقيّاً، وإنما هي معبر يُتزوَّد منها لتلك الدار، ولا تُعمَر للاستقرار ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] هدًى أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقرِّبكم مني، ويُدنيكم مني، ويدنيكم من رضائي، فمن تبع هداي منكم، بأن آمن برسلي وبكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي الآية الأخرى ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فترتب على اتباع هذه أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه[١].

ويتبين من هذا ونحوه: أن الاستخلاف ينطوي على شيء من الابتلاء والامتحان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

واقتضت حكمة الله أن يتحقق الاستخلاف بظهور الحق وانتصار الصالحين

(١) تفسير السعدي، مصدر سابق، ١/ ٧٥ ـ ٧٧.

وتمكينهم في كل دورة من دورات الصراع بين الحق والباطل، وأن تكون العاقبة للمتقين، وأن يؤول الاستخلاف إليهم.

ـ قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ [هود: ٥٧].

ـ وفي آية أخرى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

ـ قال ابن كثير في تفسيرها: أي: ولكن يكونون سامعين ومطيعين له ولأوامره[١].

ـ وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ ﴾ [النور: ٥٥].

والاستخلاف في الاصطلاح: عبادة طوعية لله بالتزام هديه وشرائعه، ينشأ عنها ضبط السلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته مع الكون والمخلوقات، بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح[٢]، والمستخلف الأول في هذه الأرض آدم وزوجته وأولادهما وأحفادهما.

ب ـ أهمية الاستخلاف:

وتظهر أهمية الاستخلاف لكونه من الأهداف المهمة التي تحقق توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده في العبادة، وعمارة الأرض وفق منهجه الذي ارتضاه لبني الإنسان.

والاستخلاف في الأرض من أهم الأصول الاعتقادية للحضارة الإنسانية التي

(١) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٤/ ١٨٢.
(٢) استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، مصدر سابق، ص٦ ـ ٧.

قادها الأنبياء والمرسلون منذُ آدم عليه السلام، فإذا كان التوحيد هو إفراد الله بالألوهية والربوبية، فإن الاستخلاف هو التطبيق العملي لهدايات السماء على جميع المستويات المختلفة للفعل الإنساني: الفردية والاجتماعية والتاريخية... إلخ، بل وعلى مستوى الإنسان كنوع من أنواع الخلق، فالاستخلاف هو تطبيق المنهج الرباني في الأرض بقيادة الأنبياء والمرسلين ومن سار على هديهم ونهجهم من المصلحين.

وبذلك اختلفت الحضارة الإنسانية الربانية بمقتضى هذا الأصل عن سائر الحضارات المخالفة لها، والتي استطاع الشَّيطان أن يؤثر على قادتها بالتزيين والشبهات والشهوات، وخاصة الحضارة الغربية المعاصرة التي تقف عقائديّاً وتشريعيّاً على النقيض من الحضارة الإسلامية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذُ آدم عليه السلام، والتي تُعتبَر هي الحضارة الإنسانية الصحيحة الحقة اللائقة بالإنسان بوصفه إنساناً[١].

ج ـ مقومات الاستخلاف:

يمكن بيان مقومات الاستخلاف فيما يأتي:

ـ العلم:

أساسه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال ابن قيم الجوزية في حديثه عن قصة استخلاف آدم في الأرض وسؤال الملائكة ربهم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]:

إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصّه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسُّجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله، ثم إنه

---

(١) دراسات تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٢.

سبحانه لما علّم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جواباً لهم كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنَّه يفسد فيها ويسفك الدماء، فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان ظنُّهم[١].

وبهذا تتضح أهمية العلم في الاستخلاف، وأنّه من مقومات الاستخلاف الرئيسية، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: أما تحقيق السيادة فيقوم على ركيزتين أساسيتين؛ الأولى: وهبها الله للإنسان فهي ركيزة ذاتية، وتتمثل في الفاعلية الإنسانية التي تعمل بترشيد من العلوم التجريبية التي تمكن الإنسان من توسيع دائرة عمله وتأكيد وترسيخ وتقوية فاعليته، فعلم الأسماء يدخل كمقوم أساسي في هذه الركيزة، لأن العلم التجريبي ليس سوى معرفة خصائص الأشياء والقوانين التي تحكم العلاقات والتأثير بينها، فإذا عرف الإنسان طبيعة الشيء وخصائصه، وتأثيره وتأثره بغيره، استطاع تسخيره له والانتفاع به، وتحقيق سيادته عليه، فالعلم التجريبي هو المؤهل الذاتي المحقق لسيادة الإنسان في الأرض[٢].

ومما يلحظ الاستخلاف من حيث المبدأ والتاريخ أن هذا النوع من العلم قد ينفك عن الخلافة الربانية، ويتأتى للأمم الكافرة، وتستطيع عن طريقه أن تحقق شيئاً من السيادة والعلو في الأرض، وبمعنى آخر أن تقيم حضارة بالمفهوم الوضعي، وقد وصف الله بعض الناس بأنهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قال ابن عباس في تفسيرها: يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جُهَّال[٣].

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، ٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩. دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٤.
(٢) دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٤.
(٣) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ٣/ ٤٢٧.

وقال بعض المفسرين إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقَّنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مُسبِّبها المتصرف فيها: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وقد وجَّهتهم قلوبهم وأهواؤهم وإرادتهم إلى الدنيا وشهواتها، وحكامها، فعملوا لها، وأدبروا وغفلوا عن الآخرة.

ومن العجيب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذريّة والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأُعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه[١]. ويندرج تحت هذا النوع من العلم ما توصَّل إليه الإنسان في هذا العصر من: أنواع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أم الحسّ والتجربة، بالإضافة إلى العقل كالطب[٢]، ولكنهم مهددون بصور عدة من العقاب الإلهي إذا لم ترتبط قلوبهم وعلومهم بالإيمان بالله والسير في طريقه المستقيم.

ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

ـ وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) تفسير السعدي، مصدر سابق، ٦/ ١١١ ـ ١١٢.

(٢) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، عبد الرحمن بن زيد بن الزنيدي، مصدر سابق، ص٤٨.

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢ـ٤٥].

فهذه الآيات تُبيِّن بجلاء ووضوح أن الله علَّم الإنسان، وبهذا العلم مكّنه من استعمار الأرض وعمرانها والسيادة عليها وعلى كثير من المخلوقات الموجودة فيها حتى من بني جنسه، وأن هذا التمكين يمثل البلاء والامتحان، فإن أحسن وحقق عبوديته لله واستقام على الطريق المستقيم فاز في الدنيا والآخرة. وإن تنكَّب الطريق وظلم وطغى وبغى، فإنَّه يصبح عرضة للعقاب التدريجي الذي يشمل الإنذار والدعوة لتصحيح المسار والعودة إلى صراط الله المستقيم، فإن حدث هذا تاب الله عليه ومتعه الله إلى حين، وهذا ما حدث لقوم يونس عليه السلام[١]. وإن استمر الإنسان في الخرافة ولم يتَّعظ تتابعت عليه الآيات وكانت كل آية أكبر من أختها[٢]، حتى يتم الاستئصال التام كما حدث لقوم لوط وفرعون، وغيرهم[٣].

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

(١) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٦.
(٢) المرجع نفسه، ٢/ ٨٣٦.
(٣) سنة الله في عقاب الأمم، عبد السلام نصر الله، مصدر سابق، ص٤٩ـ٥٠.

بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الروم: ٩ ـ ١٠].

وإذا كانت الحضارة الغربية ومَن يلتفُّ حولها من أمم في العصر الراهن تتطلع للسيادة والهيمنة، وذريعتها في ذلك العلم ومناهجه التجريبية والتطبيقية ونحوها، فإنها ستواجه المصير الذي آلت إليه الأمم من قبل، لأنها حصرت ـ في مسارها العام ـ العلم فيما جاء عن طريق التجربة والخبرة الحسية وحدها[1]. وفصلت بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

وعن ذلك يقول أحد المفكرين: وعليه فإن العلم باصطلاحهم محصور مصدراً في التجربة، وميداناً في المجال الرياضي والطبيعي، وما يقبل موضوعه الخضوع للتجربة والاستقرار والمقاييس الكمّية، وهذا التجديد لمفهوم العلم مُتولِّد من المذهب التجريبي للفلسفة المعاصرة، الذي يمثل في اتجاهات فلسفية أبرزها الاتجاهان الوضعي والماركسي:

وقد أدى هذا المفهوم إلى إنكار العلم فيما يتجاوز ميدان التجربة وهو: عالم الطبيعة وإنكار عالم ما وراء الطبيعة، وكل ما كان مصدره الوحي الإلهي أو الشعور الأخلاقي من العلوم[2].

وبذلك شقيت أمم الغرب ومن دار في فلكها بهذا العلم، وصرّح نخبة من المفكرين الغربيين بإفلاس الحضارة الغربية وما أسموه الانتحار العلمي[3]، ويقول روجيه جارودي: إن حضارتنا تقوم على أسس خاطئة، فنحن في المرحلة الأخيرة من الحضارة التي لا تكاد تبدأ، ما زلنا لا نعرف أن نحدد لأنفسنا غايات حقيقية، ولا نسيطر على وسائلنا، إن حضارتنا تقوم على هذه الموضوعات الثلاثة:

---

(١) دراسات في تمييز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٧.
(٢) المرجع السابق، ٢/ ٨٣٨.
(٣) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، توفيق الواعي، مصدر سابق، ص٨٧.

ـ تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك.

ـ تحيل الفكر إلى ذكاء.

ـ تحيل اللانهائي إلى الكم(١).

ثم تقرّر أنها حضارة مؤهلة للانتحار، انتحار لفقدان الهدف، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات، وانتحار المراهقين بأعداد كبيرة في الأصقاع، انتحار لإفراط الوسائل، يبرهن على ذلك مثلاً المنظور الجائز لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث، وذلك نتيجة الأزمة لتصور لا يرى في الطبيعة شيئاً آخر، سوى أنها مستودع ومعمل(٢).

وأما الحضارة الربانية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذُ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، فإنها تنظر إلى العلم باعتباره يشمل جميع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات أو الحسّ والتجربة مع العقل كالطب، أو النقل والسماع كاللغة، أو الوحي والنقل كعلوم الدين(٣).

وعلى هذا فإن الأمة التي ورثت الحضارة الربانيّة التي أسسها آدم عليه السلام وطوّرها الأنبياء والمرسلون من ذريته هي الأحق بالاستخلاف فيما بعد الحضارة الغربية، إذا أخذت بسنن الله في النهوض الحضاري وتعاملت مع قوانينه على مستوى القادة والنخب والشعوب، وما من شيء يحول دون ذلك إذا جددت صلتها بدينها، والتزمت صراط الله المستقيم وهديه القويم.

ـ التسخير:

وهو من المقومات العامّة للاستخلاف في الأرض، ويعني ذلك أن الله سخر ما في الكون من مخلوقات على نحو يتماشى مع استخلاف الإنسان في الأرض.

---

(١) دراسات في تميز الأمة، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٨.

(٢) الحضارة الإسلامية، توفيق الواعي، مصدر سابق، ص٦٧٦.

(٣) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٣٩.

ـ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وفي سورة النحل وردت ثلاث عشرة آية على التوالي، تعرض صورة جامعة للكون في شيء من التفصيل بذكر أقسامه الكبرى: عالم الأفلاك، عالم النباتات، عالم الحيوان... إلخ، أوضحت ما سخره الله للإنسان من منافع الطبيعة(١).

فللإنسان في الأنعام دفء ومنافع، وفي الخيل والبغال والحمير وسائل للركوب، وفي الشمس والقمر فوائد، والبحر يأكل من حيتانه، وتسير فيه السفن ليبتغي من فضل الله، وإضافة لهذا التسخير فإن موجودات الكون تشتمل على عنصر الجمال الذي هو عنصر الحضارة، مما يؤكد قضية الاستخلاف، وأن التسخير مقوّم من مقوماته العامة، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار، والعيون، والثمرات، والحبوب، والأقوات، وأضاف الحيوانات، وأمتعتها، والجبال، والجنات، والرياض والمراكب البهيّة والصور البهيجة(٢).

وأخبر عن منافعها وأنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً للأحياء

(١) دراسات أدبية لنصوص من القرآن، محمد المبارك، مصدر سابق، ص٥٨ ـ ٥٩.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم، مصدر سابق، ١/ ١٤١.

والأموات[١]، ما يتسق مع خلافة الإنسان وما يحتاج إليه ليحقق ذلك الاستخلاف، ويستوي بهذا التسخير البر والفاجر، والتقي والشقي، ولكن النهاية للتقوى والمتقين، والوراثة النهائية لعباد الله الصالحين.

وفي ذلك وردت آيات كثيرة منها ـ إضافة لما سبق ـ منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وقوله تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام وهو يخاطب قومه في وقت كان فرعون يهددهم فيه بقتل الأبناء واستحياء النساء: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

هذان المقومان: العلم والتسخير، هما أبرز مقومات الاستخلاف العامّة مع ما يقتضيانه من العقل، وعوامل القوة المختلفة، والوسائل والأساليب، كذلك الإرادة والعزم، وكل ذلك ونحوه هيأه الله للإنسان وزوده به، في إطار الفرد وعلى صعيد الأمّة، والآيات الدالة على ذلك من الكثرة بمكان، وكذلك الأحاديث والآثار والوقائع التاريخية، ممّا لا يتسع هذا المجال لذكره[٢]. ولكن نكتفي بالإشارة إلى أن العلم والتسخير هما الأساس في كل ذلك، وأنهما مرتبطان بالاستخلاف الكوني القدري الذي قد يرتفع به الإنسان إلى أحسن تقويم، أو يرتدّ به إلى أسفل سافلين[٣].

وعن هذا قال أحد الباحثين: بيّن سبحانه أنّ آثار الإنسان في الأرض تشتد، وأن قوته تزيد على الأشياء والأحياء، ويتمكن منها بالعلم، وأن الناس في المجتمعات التي تكون على درجة متقدمة في مجال السيادة بسبب زيادة

---

(١) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٤٠.

(٢) استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، مصدر سابق، ص١٧ ـ ٧٥. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ص٤٧ ـ ٧٢.

(٣) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٤١.

حصيلتهم من العلم، عادة أو غالباً ما يُفتنون وينحدرون في جانب الأخلاق، ويتسفَّلون في الجانب الإنساني، أي: جانب العبودية، ومن ثم تجري عليهم سنة فناء الحضارات بهذا السبب، ولا يُغني تقدُّمهم في الجانب المادي عن ارتدادهم إلى أسفل سافلين في جانب العبودية(١).

قال تعالى مبيِّناً ذلك كله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

ويتضح لنا من قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أن التقدُّم المدني والتقني والعمراني يحدث في جانب السيادة بسبب زيادة حصيلتهم في العلوم والخبرات، وقد فتنهم هذا كله، فلم يستجيبوا لدعوة الرسل للسمو في جانب العبودية، والارتفاع إلى أحسن تقويم، فحقَّت عليهم سنة الله في فناء الحضارات(٢). وما يُقال عن العلم كمقوّم للاستخلاف في مفهومه العام يُقال عن المقوم الآخر التسخير(٣).

٩ ـ بنو آدم عليه السلام والأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أفادت الآية الكريمة الإنباء على سنة عظيمة من سنن الله تعالى في تكوين

---

(١) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٤١.
(٢) استخلاف الإنسان في الأرض، الدسوقي، مصدر سابق، ص٥٧ ـ ٥٨.
(٣) دراسات في تميز الأمة الإسلامية، إسحاق السعدي، مصدر سابق، ٢/ ٨٤٢.

العالم وما فيه، وخاصة الإنسان، ليرقب الناس في تصرفاتهم ومعاملاتهم مع ربهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض، بمقدار جريهم على هذه السنّة ورعيهم تطبيقها، فيكون عرضهم أعمالهم على معيارها مُشعِراً لهم بمصيرهم ومبيِّناً سبب تفضيل بعضهم على بعض واصطفاء بعضهم من بين بعض، والافتتاح بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر أو تنزيله[١].

وافتتاح الآية بمادة العرض، وصوغها في صيغة الماضي، وجعل مُتعلقها السماوات والأرض والجبال والإنسان، يومئ إلى أن هذا العرض كان بعد ما خلق الله الإنسان، لأنه كان بعد خلق الله للسماوات والأرض والجبال، وهناك من العلماء من يقول إن المقصود بالآية: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

ـ **القول الأول**: أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام[٢].

ـ **القول الثاني**: أن المراد بالإنسان الجنس، أي عموم الناس[٣].

ـ **القول الثالث**: أن المراد بالإنسان الكافر والمنافق[٤].

وتبعاً لذلك اختُلف في مرجع الضمير المتصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

فقيل: إن الضمير يرجع إلى جنس الإنسان، سواء أُريد بالإنسان في الآية آدم عليه السلام، أو أريد عموم الناس[٥].

وقيل: يرجع إلى الكافر والمنافق إن حمل لفظ الإنسان عليهما[٦].

---

(١) حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة، يسرى السيد محمد، ص٥٠.
(٢) التدبُّر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، ٢٧/ ٤٨٤.
(٣) المرجع نفسه، ٢٧/ ٤٨٤.
(٤) التدبُّر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، ٢٧/ ٤٨٤.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٦/ ٢٥٩.
(٦) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مصدر سابق، ٢٧/ ٤٨٤.

وقال الشنقيطي: الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ راجع للفظ: (الإنسان) مجرداً عن إرادة المذكور منه الذي هو آدم، والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي كثير الظلم والجهل والدليل على هذا أمران:

أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذّب ومرحوم في قوله تعالى بعده، متصلاً به: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فدل على أن الظلوم الجهول من الإنسان المعذب والعياذ بالله، وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات، واللام في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ لام التعليل وهي متعلقة بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾.

الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر: ١١] لأن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ راجع إلى لفظ المعمَّر دون معناه التفصيلي، كما هو ظاهر، وقد أوضحناه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وبيَّنا هناك أن هذه المسألة هي المعروفة عند علماء العربية بمسألة: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر، كما ترى وبعض من قال من أهل العلم: إن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ عائد إلى آدم، قال: المعنى أنه كان ظلوماً لنفسه جهولاً، أي غرّ بعواقب الأمور، وما يتبع الأمانة من الصعوبات، والأظهر ما ذكرنا، والعلم عند الله(١).

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: مبالغاً في الرحمة والمغفرة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم، وأثابهم بالفوز على طاعاتهم[(١)].

وهنا لطيفة: وهي أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم، وبصَّره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً، ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة، والله أعلم[(٢)].

أ ـ مفهوم الأمانة ومجالاتها:

إن من أجلِّ القيم الخلقية التي بُنيت عليها شريعة الإسلام الأمانة، وهي قيمة عظيمة تُصان بها حقوق الله وحقوق الناس، لذا ألزم الإسلام الناس بها إلزاماً وأوجبها عليهم وجوباً، ودعا إلى أدائها في جميع الأمور التي تتصل بالفرد والمجتمع.

ولعظم منزلة الأمانة نجد المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم وصف بها عباده المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، كما أن النبي ﷺ ربط الأمانة بالإيمان إذ قال: «**لا إيمانَ لِمَن لا أمانةَ له، ولا دِينَ لمن لا عَهدَ له**»[(٣)].

ومن الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان أمام الله عزَّ وجلَّ بالخضوع لأوامره، والانتهاء عن زواجره، انبثقت سائر الأمانات مثل:

ـ أمانة الشهادة لهذا الدين.

ـ وأمانة العلم.

ـ وأمانة الدعوة إلى الله تعالى.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، مصدر سابق، ٧/ ١١٩.
(٢) تفسير الرازي نقلاً عن التدبُّر والبيان، مصدر سابق، ٢٧/ ٤٨٥.
(٣) مسند أحمد: ٣/ ١٣٥، إسناده حسن.

ـ وأمانة المحافظة على حرمات المجتمع.

ـ وأمانة التعامل مع النّاس وردّ أماناتهم إليهم[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشدُّ ذلك الودائع[٢]، فالأمانة في الإسلام مفهومها شامل لدين الإنسان وطاقته في تحمل أعباء التكاليف التي فرضها الله تعالى عليه[٣].

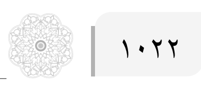
وتدخل الأمانة في مجالات كثيرة منها: الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصايا والشهادة والقضاء والكتابة ونقل الحديث والأسرار والرسالات والسمع والبصر وسائر الحواس، ولكل واحدة من التفاصيل ما يناسبها[٤].

لقد شملت الأمانة التكاليف والواجبات التي طولب بها الإنسان أداء لحقها، ولم يترك الإسلام أمرها إلى مجرد عرف المجتمعات وعقول الأفراد، لأن هذا ما لا تهتدي إليه عقول الناس وآراؤهم وخبراتهم دون توجيهات الوحي وإرشاده، بل انفرد بمنهجه الكامل لشرح الأمانة وتطبيقها في كل مجالات الحياة[٥]، وهذا المفهوم ممتدة جذوره منذ مولد الحضارة الإنسانية الأولى التي أسسها آدم عليه السلام.

وتتمثل الأمانة في الآتي:

ـ **في مجال العقيدة**: ارتباط الأمانة المتين بالإيمان بالله تعالى، وبالملائكة

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٦.
(٢) تفسير الطبري، مصدر سابق، ٢٠/ ٢٤٠.
(٣) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٦.
(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، مصدر سابق، ١/ ٦٤٧.
(٥) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٤.



عليهم السلام، والإيمان بالكتب المنزلة وبالرسل عليهم الصلاة والسلام، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

ـ **في مجال العبادة**: إقرار الأمانة الوثيق بجميع التكاليف والعبادات المتعلقة بالأفراد كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وسائر المعاملات، وكذلك أداء العبادات المتعلقة بالجماعة كإمامة المصلين والأذان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ **في المجال الاجتماعي**: الأمانة آصرة اجتماعية قوية تحث على:

ـ رعاية الأسرة المسلمة وتشمل التأكيد على أمانة الزوجين في أداء الحقوق الزوجية، وأمانة الزوجين في تربية الأولاد، وأمانة الأولاد في البرّ بوالديهم.

ـ العلاقات، وتتمثل الأمانة في حفظ أسرار البيوت والمجالس، وما يُؤتمن عليه من أسرار، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى الدول والحكومات، وما يجب على المسلم من ستر عورات إخوانه صيانة للمجتمع من استشراء نار الفساد.

ـ الولايات، وتعد الأمانة شرطاً أساسياً في تعيين الولاة وتقليد المناصب، والتكليف بالوظائف، لأن الولاية مسؤولية جسيمة، وأمانة ثقيلة لا تصلح إلا لمن كان مؤهلاً لها بصفات معينة مثل: الإيمان وكمال العقل، وتمام القوة، والكفاءة الحقيقة للمنصب، والعفة عن سؤال المنصب، والصدق في الأقوال والأعمال ليتمكن من أداء واجبات الولاية على الوجه الأكمل كما قرره الشرع الحكيم، وبذل النصح لمجتمعه ومشاورة الأمناء فيما يهم من أمر الدنيا والدين.

ـ **في المجال الاقتصادي**، ويمكن إجمال الأمانة في أنها من الأخلاق العظيمة التي تدعو إلى الآتي:

ـ أداء الأمانات إلى أهلها، ويدخل فيها حفظ الديون بكتابتها وعدم الزيادة

على أصل الدين، وحسن أداء الحقوق، وتعني الأمانة توفية الكيل والميزان وعدم التطفيف فيهما، وذلك مدعاة لحفظ حقوق الآخرين، وتأكيد أواصر المحبة في المجتمع وشيوع الأمن والرخاء[١].

ـ الوفاء بالعقود المالية: ويشتمل على تأدية الأمانة في عقود المعاوضات، مثل توفية أجور المستأجرين، وصون بيع المرابحة عن الخيانة والكذب ببيان ثمن السلعة من غير بينة ولا استخلاف، وكذا الأمانة بكتابتها صحيحة خالية من الغدر بحقوق الآخرين، أو الإضرار بالورثة، وعلى الموصى إليه أمانة إنفاذ الوصية على الوجه الصحيح، وتتضمَّن الأمانة ردّ الودائع، وصيانتها من الضياع أو التفريط فيها، وردّها لصاحبها متى طلبها كاملة غير منقوصة، وهذا من قوام ازدهار النشاط الاقتصادي في المجتمع وتكافل أفراده[٢].

ـ المجال العلمي:

العلم أمانة عظيمة يحملها ويؤديها الأخيار من الأمة لفظاً ومعنى وتأليفاً ونشراً، مع القيام بالأمانة في كلٍّ من:

* حفظ العلم بتحمل سماعه أو قراءته على الشيوخ الأمناء، مهتدين بفعل الصحابة رضي الله عنهم في أمانة الحفظ والأداء، ومثال ذلك: جمعُ القرآن الكريم، وحفظ السنة من الضياع والتحريف، والحكم على الإسناد والمتن وفق طرق دقيقة لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف، ومن ثم تأدية العلم للأجيال بعدم كتمانه، والتوقف على الفُتيا بلا علم، وصيانة العلم عن التحريف والتضليل.

* التأليف العلمي ونشره، والتي تُعدُّ من أعظم الأمانات العلمية، وتتحقق بالدقة في نقل الأقوال وتوثيقها، وتصحيح التصحيف، مع ما تتضمَّنه الأمانة من رعاية حق المؤلف والناشر، والتزام المصداقية فيما يُؤلَّف وينشر من كتب

---

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٩٥.

ومصنفات، بما يُنمي الثروة العلمية والمكانة الحضارية للمجتمع(١).

ب ـ مقومات الأمانة:

إن هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ مهمة جدّاً، فهي تحدِّد هوية الإنسان وتحدِّد مهمته ومرتبته بين المخلوقات، وهي آية التكليف، والأمانة هي أصل التكليف، فأنت إنسان مكلَّف، وأنت مخلوق مكرّم وأنت الذي سخر له خالق الكون ما في السماوات والأرض، فيجب أن تعرف من أنت؟ لأنه من عرف نفسه عرف ربه، ويجب أن تعرف المهمة التي من أجلها خُلقت، ويجب أن تعرف الرسالة التي حملت، ويجب أن تعرف الدار التي أنت عليها مقبل، ويجب أن تعرف الحساب الذي سوف تُحاسَب عليه، فهذه أسئلة خطيرة جدّاً(٢).

وإن السماوات والأرض والجبال مخلوقات عُرضت عليها الأمانة: فهذا العرض والإباء والإشفاق كله حق، وقد خلق الله السماوات والأرض والجبال إدراكاً بعلمه هو جلّ وعلا ونحن لا نعلمه، وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها وأبت وأشفقت، أي: خافت.

ومثل هذا تدل عليه آيات وأحاديث كثيرة، فمن الآيات الدّالة على إدراك الجمادات المذكور قوله تعالى في الحجارة: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٧٤] فصرّح بأن من الحجارة ما يهبط من خشية الله، وهذه الخشية التي نسبها الله لبعض الحجارة بإدراك يعلمه هو سبحانه وتعالى.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٦.
(٢) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ١٣٨.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك قصة حنين الجذع، الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل بالخطبة إلى المنبر، وهي في الصحيح وغيره[١]، ومنها ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ، أنه قال: **إني لأعرف حجراً كان يُسلِّم عليّ في مكة**[٢].

وأمثال هذا كثيرة، فكل ذلك المذكور في الكتاب والسنة إنما يكون بإدراك يعلمه الله، ونحن لا نعلمه، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ولو كان المراد بتسبيح الجمادات دلالتها على خالقها لكُنّا نفقهه، كما هو معلوم، وقد دلت عليه آيات كثيرة[٣].

إن الإنسان حينما قبل الأمانة التي عُرضت عليه من رب العالمين، عظمت مسؤوليته وجعلت نفسه أمانة بين يديه، فإذا استطاع أن يعرّفها إلى ربها وأن يجعلها على طاعته وأن يجعلها تتقرب إليه تعالى سعد إلى الأبد، وإذا نسي هذا المخلوق ربه ونسي الأمانة التي حُملها، ونسي التكاليف التي كُلِّف بها وانغمس في شهواته شقي إلى الأبد، لذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠].

فبإمكانك أن تزكي نفسك، وبإمكانك أن تطهرها، وبإمكانك أن تجعلها مستقيمة، وبإمكانك أن تسمو بها، وذلك بأن تحملها على طاعة الله، فتستحق النعيم الأبدي، وحينما تلتفت إلى الدنيا، وتنغمس في حمأتها، وتلهث وراء شهواتها، تدنّسها، وإذا دنستها استحقَّت العذاب الأبدي، هذه هي الأمانة.

---

(١) سنن الترمذي: ٢/ ٣٧٩. التدبُّر والبيان، المغراوي، مصدر سابق، ٢٧/ ٨٣.
(٢) صحيح مسلم: رقم ٢٢٧٧.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، مصدر سابق، ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

والأمانة أن يعرف الإنسان ربه، وأن يُزكِّي عمله، والأمانة ألاّ يكون جهولاً لربه، وألاّ يكون ظلوماً لعمله، أما إذا كان ظلوماً جهولاً، فقد ضيَّع الأمانة واستحقَّ المهانة، وشقي في الدنيا والآخرة، فكيف تزكي نفسك التي جُعلت أمانة عندك؟ وكيف تطهرها؟ وكيف تسعدها؟ وكيف تسمو بها؟ ربنا عزَّ وجلَّ حينما حمّل الإنسان الأمانة أعطاه الوسائل التي يستعين بها، وأعطاه المقومات، وإليكم هذه المقومات.

ـ المقوم الأول:

تسخير الله للإنسان هذا الكون: الله عزَّ وجلَّ سخر للإنسان كوناً هو في الحقيقة مظهر لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفضلى ومظهر لكمالاته، فالكون أول مقوم من مقومات حمل الأمانة، فيستحيل على الإنسان في الدنيا أن يرى الله لأن مادّيته لا تحتمل، فسيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فإذا كان الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يرى الله عزَّ وجلَّ، فكيف السبيل إلى معرفته؟

السبيل أن يرى خلقه، فإذا نظرتَ في خلقه عرفتَه، فهل تريد أن تعرف الله عز وجل؟

انظر إلى جسمك، وإلى أعضائك، وإلى أجهزتك، وإلى حواسك، وتأمل في طبيعة نفسك وفطرتك، ونظام التوالد، ونظام الزوجية، وانظر إلى طعامك وإلى أنواع الخضراوات، وإلى أنواع الفواكه، وإلى البقول، وانظر إلى الماء الذي أنزله الله من السماء، فاهتزت به الأرض، وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، وفكّر في الهواء الذي تستنشقه، وفي الجبال، وفي الأنهار، وفي البحيرات، وفي البحار، وفي السهول، وفي أنواع الطيور، وفي أنواع الأسماك، وفي أنواع المخلوقات، وانظر إلى كل ما في الكون، قال الشاعر:

وفـــي كـــلِّ شـــيءٍ لـه آيـــةٌ تـــدلُّ علـــى أنَّـــه واحـــدُ

وإذا استفاد الإنسان من الكون استفادة مادية، وما استفاد منه في معرفة الله، فقد عطّل السبب الأول لخلق الكون والدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

إذن، إن العلّة الأولى لخلق الكون هو أن تعرف الله عزَّ وجلَّ، فإذا لم تهتم بهذه الناحية واهتممت كيف تستفيد من هذه الأرض؟ وكيف تستخرج الثروات؟ وكيف تربح؟ وكيف تسعد في الدنيا؟ فقد عطَّلتَ الهدف الأكبر والأول من خلق الكون[١].

ـ المقوم الثاني:

هو العقل، فالعقل السليم: يستحسن الأمانة باعتبارها قيمة كبرى وضرورة عقلية للتعامل الإنساني في جميع شؤون الحياة، فالعقل هو المميز الجوهري للإنسان، وهو سرّ الإنسانية المؤهلة للتكليف وحمل الأمانة، فالعقل السليم يُقدر الأمانة؛ لأنه يميز بين طريقي الهداية والضلال بعد بيان الرسل لهما[٢].

وهذا العقل الذي أودعه الله فيه هو مناط التكليف، فلولا العقل لما كُلّف الإنسان، وهذا العقل يتوافق في مبادئه مع مبادئ الكون، ففي الكون نظام السببية، والعقل لا يفهم الشيء إلا عن طريق السبب، وفي الكون نظام الغائية، والعقل لا يفهم الشيء إلا بغاية كافية لوجوده، والكون لا تناقض فيه والعقل يرفض التناقض، وللعقل مهمات محدودة فبإمكانه إذا نظر في الكون أن يحكم بوجود خالق هذا الكون، وبإمكانه إذا قرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ أن يكتشف إعجازه

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ١٤١.
(٢) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٣.

فيحكم عندئذ أن هذا كلام الله عزَّ وجلَّ، ويستنبط أن الذي جاء بهذا الكتاب المعجز لا بد من أن يكون رسول الله[١] . وكلما كان عقل الإنسان سليماً منسجماً مع فطرته حرص على تحقيق الأمانة في حياته بمفهومها الشامل .

ـ المقوم الثالث :

هو الشهوة، فالله تعالى أودع فيك الشهوة، ويجب أن تعلم علم اليقين أن هذه الشهوات ما أُودعت فيك إلا لترقى إلى الله عزَّ وجلَّ، فكيف ترقى إلى الله لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فيك؟ كيف تحس أن الله يُحِبُّك إن لم يودع فيك شهوة تعاكسها؟ قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران : ١٤] .

فأودع فيك حب النساء، فكيف ترقى إلى الله عزَّ وجلَّ إن سرت مع هذه الشهوة؟ وذلك بالالتزام بأمانة التكليف بالحلال والابتعاد عن الحرام، وكذلك الشهوات كافة التي ركبها الله في الإنسان، فمثلاً أن نترفع عن المال الحرام وننفق المال الحلال في سبيل الله، فعن طريق شهوة المال مثلاً ترتقي مرتين : مرة صابراً عن الحرام، وترتقي مرة شاكراً لما وفقك الله من إنفاق في سبيله، فإذا أخذ الإنسان ما أُبيح له يشكر فيرقى، وإذا ترك ما نهي عنه يصبر فيرقى[٢] .

ـ المقوم الرابع :

هو الفطرة النقية : تنمو الأمانة في ظل التزكية والتثقيف، وتنقص في ظل الإهمال والتكاسل، ويميل الناس فطرةً إلى تقدير الأمانة، وإجلال الأمناء في جميع المجتمعات[٣] .

---

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ١٤١ .
(٢) المرجع السابق، ١٠/ ١٤١ .
(٣) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٣ .

فالله عزَّ وجلَّ فطر الإنسان فطرة عالية نقية بيضاء ليلها كنهارها، فإذا انحرفت عن طريق الحق تشعر بالانقباض وبوخز الضمير وبالكآبة، وكل الآلام التي يتحدث عنها علماء النفس ما هي إلا الفطرة التي خلقها الله عزَّ وجلَّ، فإذا حِدْتَ عن منهج الله عزَّ وجلَّ عذبتك فطرتك وأنت لا تدري، فدعك عن كل علم، إن أخذت ما ليس لك تشعر بضيق، وإن أسأت إلى والدتك تشعر بضيق، وإن ظلمت إنساناً تشعر بضيق، وإن أسأت إلى حيوان تشعر بضيق، ما هذا الضيق؟

إنه نداء الفطرة النقية التي خلقها عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

ـ المقوم الخامس:

هو حرية الاختيار، فالله عزَّ وجلَّ أعطاك قوة فيما يبدو، فبإمكانك أن تقوم وأن تسير، وأن تتحرك وأن تقول، وأن تفعل شيئاً، لكن لو كنت مقهوراً مجبراً، ولم تكن مخيراً لم تكن جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب ولا عذاب ولا ثواب ولا جزاء ولا سيئة ولا حسنة، كل شيء يتعطل، ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة[١]، ولذلك فحرية الاختيار من مقومات الأمانة.

ـ المقوم السادس:

هو الشرع: فالله عزَّ وجلَّ أعطاك اختياراً، وفطرة وشهوة، وعقلاً وكوناً، فأنت مخير ومشتهٍ، وذو فطرة عالية، وذو عقل، وهناك كون سخَّره الله لك،

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ١٤٢.

فهذه كلها من مقوّمات التكليف، لكن العقل قد يضل، والفطرة قد تطمس، فأنزل الله لك شرعاً وجعله ميزاناً على العقل والفطرة، فعندك كتاب الله يعرفك بذاتك ويعرفك بربك، ويطلعك على بداية الخلق، وهذه الآية من ذلك، ويطلعك على ما كان، وما هو كائن، وما سيكون.

يجب أن تعرف من أنت؟ أنت إنسان، ولأنك إنسان قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة صار أمامك خياران لا ثالث لهما: إما أن تكون أعلى كل المخلوقات، وإما أن تكون أسفل كل المخلوقات، فيمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون بأن تعرف الله وأن تصلح عملك. فإذا دنّس الإنسان نفسه كان أسفل سافلين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فإذا لم يعرف ربه ﴿رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]. لقد حمل الأمانة فلو أداها بحقها، لكان له عطاء يفوق حدَّ الخيال[١]، ولبلغ في سعادته مراتب متقدمة في رضا الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

قال ابن الماجشون: رُكب الحيوان من شهوة بلا عقل، فالحيوان متعة مادية ولا حساب عليه، ورُكّب المَلَك من عقل بلا شهوة فمتعته روحية ولا حساب عليه، ورُكِّب الإنسان من عقل وشهوة، فإذا غلب عقله شهوته كان فوق الملائكة، وإن غلبت شهوته عقله كان دون الحيوان، ولا يوجد حل وسط، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، أي هم أعلى من الملائكة، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦] أي: هم دون الحيوان[٢].

وحينما ينسى الإنسان ربه، وحينما ينسى المهمة الخطيرة التي نيطت به

(١) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ١٠/ ١٤٣.
(٢) المرجع نفسه، ١٠/ ١٤٣.

وحينما تستهلكه الحياة، وحينما ينغمس في الشهوات الدنيئة إلى قمة رأسه، وحينما يأكل ويشرب وينام ويستمتع كما تفعل البهائم تماماً، فقد صار ظلوماً جهولاً، والدين كلمتان: ألاّ تكون ظلوماً جهولاً، بأن تكون عالماً في عقلك صالحاً في عملك، فأنت في الدنيا لك مهمتان: أن تعلم وأن تعمل بما علمت، وأن تعرف الله عزَّ وجلَّ وأن تزكي نفسك، أن تتعرف إلى الله وأن تحسن إلى الخلق حتى تتأهل لتكون إلى الأبد في جنة عرضها السماوات والأرض.

لذلك يجب أن نعرف من نحن؟ ولماذا نحن في الدنيا؟ وماذا سيكون بعد الموت؟

فقال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣] [١].

ج ـ ضياع الأمانة من علامات الساعة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكَرِهَ ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «**أين أراه السائل عن الساعة؟**» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ**». قال: كيف إضاعتُها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظرِ الساعةَ**»[٢].

قال ابن بطال في شرح حديث أبي هريرة: «إذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانتظرِ الساعةَ»[٣]، هو كلام مجمل أحب الأعرابي السائل النبي ﷺ شرحه له فقال له:

(١) تفسير النابلسي، ١٠/١٤٣.
(٢) البخاري: ١/ ١٨٨ـ ١٨٩.
(٣) البخاري: ١/ ١٨٨ـ ١٨٩.

كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أُسند الأمر إلى غير أهله»، فأجابه بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة، وما كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق، كاتخاذ العلماء الجهال عند موت أهل العلم، واتخاذ ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله، وقد ذكر ابن أبي شيبة من حديث المقبري عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «**سيأتي على الناسِ سنواتٌ خَدَّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتَمنُ فيها الخائنُ ويَخونُ فيها الأمينُ، ويَنطقُ الرويبضةُ، قيل: وما الرُّويبضةُ؟ قال: الرَّجلُ التَّافهُ يتكلَّمُ في أمرِ العامَّةِ**»[١].

وقد رأينا أكثر هذه العلامات وما بقي منها غير بعيد[٢].

قد بين رسول الله ﷺ أن ضياع الأمانة من علامات الساعة، فالأمر جلل وخطير، ويستحق الانتباه واليقظة والحذر.

د ـ من الآثار أداء الأمانة في المجتمع:

ـ الآثار السلوكية والنفسية:

ـ صلاح الفرد واستقامته من خلال تولية النفس وجهها شطر الحق والفضائل، وابتعادها عن الشر والرذائل، فيؤدي الفرد ما افترضه الله تعالى عليه من واجبات في العبادات والمعاملات، ويبتعد عن كل المنهيات التي زجر عنها، فيصدق الأمين في معاملاته، ويقبل الحقّ ويُذعن له، فيستحق ثناء المولى الكريم عليه في كتابه، ويعم الخير أفراده[٣].

ـ الإخلاص في أداء الواجبات والمسؤوليات على النحو المطلوب، وتتضح آثار الأمانة في نمو الرقابة الداخلية ويقظة الضمير الحي، فيتقن الأمين الأعمال

---

(١) السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم ١٨٨٧.
(٢) التدبُّر والبيان في تفسير القرآن، المغراوي، مصدر سابق، ٢٧/ ٤٩٠.
(٣) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٧٩٦.

الموكولة إليه بكل دقة وإحسان، ويتحمل المسؤوليات المنوطة به فردياً وجماعياً، مع مراعاة كلِّ إنسان مسؤول بقدر استطاعته وتحمله، فيحاسب عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ـ نيل السعادة والفلاح، من أعظم الآثار حصول محبة الله تعالى ورسوله ﷺ للأمين، ثم محبة الناس واحترامهم وتقديرهم، فيكون ذلك سبباً لغناه، فيحفظه الله في أهله وماله وفي حياته وبعد وفاته، ثم ينال الفلاح في الآخرة، ويرتقي درجات النعيم الخالدة.

ـ الآثار الاجتماعية: وتتضح في الآتي:

ـ **السمو الخلقي للمجتمع**: تبرز آثار الأمانة في المجتمع في سلامة الصدر، وتماسك الأفراد، وتزكية النفوس؛ لأن المسلم يتمنى الخير للناس جميعاً، ويحرص على تحقيق مبدأ المحبة والنصيحة في ظل مجتمع أمين وارف.

ـ **تبادل الثقة بين أفراد المجتمع**: كلما ازدادت الثقة بين أبناء المجتمع كان ذلك دليلاً على توافر أمانتهم وسمو أخلاقهم، وهو يساعد على تحقيق التكافل الذي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، وكذا الاحترام المتبادل لجهود الآخرين وما يقدمونه من عطاء وإسهام يجعل المجتمع أمة واحدة.

ـ **المظهر الحضاري للمجتمع**: تظهر الأمانة بين الأفراد في وجود نظام اجتماعي شامل لحياة الناس يقوم على العدل والتماسك والترابط والقوة، ما يؤول بالمجتمع إلى التميز والنهضة الحضارية في نشر الإسلام، وظهور الحق[١].

ـ الآثار الاقتصادية: وتتضح في الآتي:

ـ استقامة التعامل المالي وسلامته؛ ذلك أن الاقتصاد في المجالات

---

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٧٩٧.

التي لا يكاد يستغني عنها أي فرد في أي مكان وزمان. لن ينهض المجتمع اقتصاديّاً، إذا لم يسلك أفراده مسلك الأمانة والاستقامة في التعامل المالي، وتنميته وفق أحكام الشريعة، وبجعل الدنيا وسيلة للآخرة، وذخراً لمرضاة الله تعالى.

ـ تحقيق الأمن الاقتصادي في الإسلام بتنمية المال في شتى مجالات الحياة؛ ليتحقق الأمن المنشود باستغلال الموارد الاقتصادية التي هي هبات من الله تعالى، وهي أمانة في يد الأفراد والمجتمعات يمكن أن تُوظَّف في سبيل تحقيق الاستقرار وإشاعة الرخاء، والعمل على إقامة العدل، فيعم الأمن والأمان في أرجاء البلاد ونفوس العباد، وتكون الحركة التجارية أكثر ازدهاراً وتبادلاً للمنافع المعيشية والحاجات الضرورية والكماليات الاستهلاكية[١].

ـ الآثار العلمية:

ـ ضبط الموازين العلمية، وذلك بقيام العلماء بإرساء قواعد منهجية وفق مصادر الإسلام «الكتاب والسنة»، مرتبطة بالإيمان مع الحرص على الأمانة في التحري والتثبت، وقد دفع هذا المنهج غير المسلمين إلى الاعتراف للمسلمين بالأمانة العلمية في مناهجهم العلمية، كما أبدع العلماء المسلمون في علم الإسناد والجرح والتعديل ودفع الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، وكذا التعاون العلمي الموسوعي والتناصح بين العلماء.

ـ ازدهار الحركة العلمية، وتتمثل في كثرة العلماء من الصحابة والتابعين، يأخذون العلم ويدونون الآثار الصحيحة، ويبوبون الأحكام بأمانة فائقة ورعاية تامة، وقد بلَّغوا العلم ونشروه، فلم يبق حاضرة من حواضر المسلمين إلا

---

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، مصدر سابق، ص٤٩٨.

وأصبحت قاعدة للمعرفة، ومنارة للعلم، وواجهوا الشبهات والتيارات الفكرية المنحرفة وحذّروا من الفرقة[١].

١٠ ـ بنو آدم والكرامة الإنسانية:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن بني آدم من أصل واحد على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعراقهم وأديانهم، وكرامتهم واحدة متساوون فيها بلا تفاوت وبلا منّة من أحد، فالله تعالى خلق الإنسان وكرّمه لمجرد آدميته وإنسانيته بغض النظر عن لونه ولغته وعرقه، وقد جسد ذلك رسول الله ﷺ في موقف من أروع المواقف الإنسانية، فقد روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مر بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا به فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، قال: «**إذا رأيتم الجنازة فقوموا**»[٢]، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «**أليست نفساً**»[٣].

ومظاهر هذا التكريم للإنسان كثيرة، ومنها:

أ ـ التكريم الجسدي:

فقد خلقه الله تعالى بيده في أحسن تقويم، منتصب القامة، مرفوع الرأس، يمشي على رجلين، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] هذا في الوقت الذي خلق فيه خلقاً كثيراً ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، ومن تكريم الله لآدم بأن نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته احتفاءً به، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ

(١) الأمانة في الإسلام، عبد اللطيف إبراهيم، ص٤٩٨.
(٢) البخاري، ك الجنائز: رقم ٩٦٠.
(٣) البخاري، ك الجنائز: رقم ١٣١٢.

لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

ب ـ التكريم العقلي:

لقد ميز الله تعالى الإنسان بالعقل عن غيره من المخلوقات وجعله مناط التكليف، فإذا غاب رفع التكليف[١]، وهو أداة العلم والمعرفة، وبه يعقل الإنسان الحق من الباطل والخير من الشر، وبالعقل يعقل الإنسان شهواته ويتحكم فيها، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وهو طريق الإقناع، وخاصة في قضايا العقيدة، وهو وسيلة التواصل والحوار، يقول الدكتور راغب السرجاني: فإذا كان العقل مشتركاً بين جميع البشر، فإنَّه وسيلة مهمه للتواصل بين أبناء الشعوب جميعاً، إذا ما احترمت الشعوب عقول الآخرين، والحضارة الإسلامية خير شاهد على أن المسلمين كانوا يحترمون عقول الآخرين، فالحضارة الإسلامية لم تكن يوماً من الأيام داعية إلى العزلة أو الانغلاق الفكري، بل فتحت أبوابها على مصراعيها للثقافات الأخرى.

وقد رفع الله من قيمة العقل، وأحاطه بعناية خاصة، فحرّم كل ما يفسده من مسكر أو مفتر، ومادام العقل مشتركاً بين جميع البشر، فإنَّه ينبغي أن يسهم الجميع في محاربة كل ما يفسده من مخدرات وخمور وأفكار وغيرها من المفسدات، فهذا من المشترك الإنساني الذي يجب التعاون عليه لما فيه من مصلحة مشتركة للجميع[٢].

---

(١) الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧١.

ج ـ التكليف وأمانة الاستخلاف:

فإذا كان الله تعالى قد حبا الإنسان بالعقل، فإنَّه جعله مناطاً لتكليفه فهو المخلوق الوحيد الذي اجتباه الله تعالى للقيام بمهمة الخلافة في الأرض وعمارتها بالخير، وتحقيق العبودية له، والقيام بالتكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهي مهمة مختصة بالإنسان دون سواه، والفعل المختص بالإنسان هو ثلاثة أشياء، وهي: عمارة الأرض، وعبادته، وخلافته، وقد بيّنا ذلك في الصفحات السابقة.

ـ من مظاهر التكريم للإنسان أن الله سخر له الكون وما فيه انتفاعاً واستثماراً من أجل أداء أمانة الاستخلاف، وتحقيق العبودية الكاملة لله، وقد تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء مهيأ في أصل صنعته من قبل صانعه تهيئة مقدرة، بحيث يستجيب الإنسان بقدر، فيما خص به من مهمة الحياة، ومن هذا المنطلق فإنَّه يجب على هذا الإنسان الخليفة الذي اؤتُمِن على هذا الكون أن يحفظه من الضياع حتى يرده إلى من استخلفه، فالإنسان ليس هو المالك الحقيقي للكون وما فيه، بل هو مجرد حائز له بوكالة من صاحبه، وإنما المالك الحقيقي له هو الله تعالى كما هو واضح ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحديد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٣] [١]. والمطلوب من الإنسان أن يلتزم بهدايات الله وشرعه في عبادته وعمارته للكون، لكي يحقق المقاصد الكبرى التي خُلق من أجلها الإنسان.

---

(١) الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص٧٣.

د ـ الحرية من كرامة الإنسان:

فلا تكتمل كرامة الإنسان إلا بالحرية، فالإنسان يُولَد حرّاً وينبغي أن يبقى حرّاً، ومن ثم فلا سلطة لأحد على أحد، ولا سيادة لأحد على أحد لاستعباده في هذا الوجود، كما قال عمر رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً[١]؟!

فالمظلوم المقهور لا يسلك في أذنه إلا صوت يُبشِّره بالحرية والكرامة، إذ أن الكرامة هي أساس حقوق الإنسان، والحرية هي المظهر الخارجي لهذه الكرامة، فلا كرامة للإنسان إلا بالحرية[٢].

كيف لا والحرية من المقاصد التي تشترك الرسالات السماوية في حفظها[٣]، فما أرسل الله الرسل وما أنزل الكتب إلا لتحرير الإنسان من عبودية غير الله من الطواغيت والشهوات والأصنام وغيرها، إلى عبودية الله وحده. يلخص ذلك ما قاله ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس، لما سأله: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنُخرجَ مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[٤].

فالحرية إذن من المشترك الإنساني الذي تقدره وتقرره كل الأديان وجميع الحضارات وكل الشعوب والأمم منذُ القدم إلى يومنا هذا، ومن أجلها ناضلت الشعوب وقاومت الاستعمار بكل أنواعه[٥].

---

(١) الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، المرجع نفسه، ص٧٣.
(٢) المشترك الإنساني، السرجاني، مصدر سابق، ص٣٩١.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٩٥.
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير، مصدر سابق، ٧/ ٤٦ ـ ٤٧.
(٥) الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، مصدر سابق، ص٧٤.

واليوم تؤكد المواثيق والمعاهدات الدولية التي وَقَّعت عليها كل دول العالم أو جلُّها على قيمة الحرية وأهميتها، مما يدل على أن الحرية من القيم الإنسانية المشتركة التي يجب الاشتغال بها، والنضال من أجل تحقيقها لكل شعوب العالم دون تمييز أو تفضيل حتى لا تبقى حبراً على ورق، فما زال العالم اليوم يخشى التمييز والعنصرية والكيل بمكيالين، فلو مات إنسان غربي واحد لاهتزت له الدنيا وقامت ولم تقعد، وأما أن يموت الآلاف من غيرهم فإنهم لا يبالون، ولا يحركون ساكناً. ومن الحريات التي كفلها الإسلام حرية المعتقد، حيث منع الإكراه في الدين، ولم يجعله سبيلاً لإرغام الناس على اتباعه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهي آية محكمة غير منسوخة، قال ابن تيمية: وهذا نص عام أنّا لا نُكره أحداً على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يُسلم لكان هذا أعظم الإكراه على الدين[١].

ثم قال جمهور السلف والخلف بأن هذه الآية ليست مخصوصة ولا منسوخة، بل يقولون: إنا لا نُكره أحداً على الإسلام، وإنما نقاتل من حاربنا، فإن أسلم عصم دمه وماله، ولو لم يكن مَن فعل القتال لم نقتله ولم نكرهه على الإسلام[٢].

بل إن من غايات الجهاد في الإسلام الدفاع عن العقيدة وحماية الأديان من الازدراء كما هو واضح في الآية في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ابن كثير: في تفسيره الآية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي: لا تُكرهوا أحداً

---

(١) الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، المرجع السابق، ص٧٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٤.

على الدخول في دين الإسلام، فإنَّه بيّن واضح جليّ بدلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونوّر بصيرته، ودخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنَّه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً(١).

وأي حرية أكثر من السماح لنصارى نجران بأن يمارسوا شعائرهم وصلاتهم داخل المسجد النبوي، فقد ذكر ابن القيم والمقريزي وغيرهما أنه لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم**».

هـ ـ فوائد تكريم الإنسان:

ـ إن تكريم الإنسان قيمة عظمى تدفع المسلم للاعتزاز بكرامته وعدم التفريط فيها، مما يجعله يرفض الظلم ويأبى الضيم، فيعيش مرفوع الهامة قوي العزيمة رابط الجأش، لا يخشى في الحق لومة لائم.

ـ إن قناعة المسلم بتكريم الله له ولغيره من البشر تجعله يحافظ على أرواح الناس ويبتعد عن إيذائهم أو إرهابهم، لأنه مطالب بأن يكرم من كرمه الله ورسوله، ومن يكرمه ربه ينبغي ألا يهينه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

ـ إن تكريم الإنسان يدفع المؤمن الحقّ إلى شكر المولى عزَّ وجلَّ على تلك النعم العظيمة التي حباه بها وفضله على كثير مما خلق.

ـ إن من عرف إكرام الله له لا بد أن يبتعد عن معاصيه، وإذا غلبه الشَّيطان فعصى فعليه المبادرة بالتوبة.

---

(١) تفسير ابن كثير، مصدر سابق، ١/ ٦٨٢.

ـ إن تكريم الخادم ـ كما أمر الإسلام ـ كفيل بأن يقضي على حقده والحسد من هؤلاء الخدم، الذين قد تدفعهم الإهانات المنافية لروح الإسلام إلى ارتكاب حماقات تصل إلى حد القتل.

ـ إن تكريم الإسلام للمرأة أمّاً وبنتاً وزوجاً يجعلها تشعر بقيمتها في المجتمع وتعتز بدورها في بناء الأسرة، ولا شك في أن المرأة إذا كانت راضية النفس، موفورة الكرامة، ستُحوِّل بيتها إلى جنة وارفة الظلال، وصدق الشاعر النبيل إذ قال:

الأم مــدرســة إذا أعــدَدتَهــا أعــددتَ شعبــاً طيِّــبَ الأعــراق

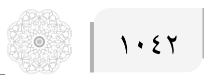
ـ تكريم الإسلام ومن ثم المسلمين لأهل الذمة من المعاهدين والكتابيين وغيرهم يجعل هؤلاء يستشعرون عظمة الإسلام، فتتوحَّد كلمة المجتمع ويصبح آمناً من الدسائس والمكائد التي يلجأ إليها من هُضمت حقوقهم أو انتُهكت حرماتهم، ويجعل من هؤلاء الذميين عناصر صالحة تعمل وتعطي دون خوف.

ـ إن تكريم المحارب ـ حتى وإن كان كافراً ـ يحمي البشرية من تلك المجازر الجماعية التي تقشعر لها الأبدان، ويروح فيها الضحايا من النساء والولدان، وما ضحايا لبنان والبوسنة وغيرهما على أيدي سفاحي العصر الحديث عنا ببعيد، ولو كان هؤلاء يعرفون كرامة الإنسان كما أقرّها الإسلام ما سمعنا عن هذه الأهوال التي يشيب لها الوليد.

ـ إن إكرام الإنسان إذا كان غريباً أو لاجئاً يشعره بعظمة الإسلام ويفرج كربته.

ـ إكرام الإنسان إذا كان شيخاً فيه بشارة للمكرم بأنه سيعيش طويلاً وأنه سيُرزق من يكرمه، حينذاك.

ـ إن من يعرف إكرام الله له بخلقه من طين وتسويته ونفخه فيه من روحه لا يتكبر ولا يتجبر ولا يمنع خيراً رزقه إياه.



ـ إن من يعرف أن الله أكرمه، فسخر له ما في الكون، ينطلق لسانه بالشكر، ويُخلص لربه بالعبادة فينجو يوم القيامة، وإن نسي نسيه الله يوم القيامة.

ـ إن من يُعذِّب الناسَ، وينتهك بذلك آدميتهم ولا يعبأ بكرامتهم، عليه أن ينتظر عذاب الله يوم القيامة، فإذا منعه تكريم الإنسان من ذلك فقد أمن العذاب من هذه الجهة يوم القيامة(١).

ـ الإنسان المؤمن مكرّم حيّاً وميتاً، فالتكريم الإلهي يحفُّ الإنسان من جميع جوانبه منذُ أن خلقه الله سبحانه، وأودع فيه فطرة التوحيد والإسلام، وأسجد له ملائكته، وكلّفه بالعبادة والخلافة، وكرّمه في الحياة بالإيمان والهداية، وفي الآخرة بالجنان، إن اختار طريق الرحمن، لقد كرم الله هذا الإنسان يوم خُلق، ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً(٢).

ـ إن الله تعالى كرّم الإنسان بأن جعل له حصانة من كل ما يضر به نفسيّاً، وعقليّاً، وجسديّاً، وسلوكيّاً.

ـ العقل أهم خصائص الإنسان التي بموجبها فضل الله الجنس الإنساني على سائر المخلوقات، لذلك اعتبر الإسلام العقل مناط التكليف في سائر المسؤوليات الدينية والدنيوية، إذ به يهتدي الإنسان إلى الحقائق الكبرى التي دعا الله إلى الوصول إليها بالبراهين العقلية لا بمجرد الإيمان الأعمى.

ـ كرّم الله بني آدم جميعاً، حيث وهبهم العقل على سواء، فلا تفاوت من حيث المنحة الإلهية، وإنما التفاوت في مدى استعداد الإنسان لها.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد، مصدر سابق، ٤/ ١١٧٥.

(٢) الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية، فاخر عباس الدّاودي، مصدر سابق.

ثانياً: قصة ابني النبي آدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢].

هذه الواقعة لم يشهدها من البشر أحد سوى آدم وزوجته وأولاده، ولولا أنّ القرآن الكريم قد سجلها بهذا التفصيل الدقيق، الذي يُمكِّن من استخلاص العبرة منها، ما علم بها أحد من البشر، وما كان أمام العلماء والمؤرخين من وسيلة للوصول إلى معرفة شيء من تلك الواقعة التي طواها الزمن في أستاره[1].

وإذا علمنا أن العرب من زمن الجاهلية لم يكونوا أهل علم وتدوين، بل كانوا في غالبيتهم من الأميين، وكذلك كانت غالبية أهل الكتاب الذين كانوا موجودين في عدد من الجيوب على أطراف شبه الجزيرة العربية، كالمناذرة الذين سكنوا كلاًّ من شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، وكانوا عرباً اعتنقوا النصرانية وتحالفوا مع الفرس، ثم دخلوا الإسلام بعد الفتح الإسلامي. وكالغساسنة وهم سلالة عربية كذلك، يمنية الأصل هجرت بلادها عند انهيار سدّ مأرب في القرن

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائيّ والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، مصدر سابق، ١/ ١٢٥.

الثالث الميلادي واستوطنت كلاًّ من بلاد حوران وشرقي الأردن وفلسطين ولبنان، واعتنق عدد من أبنائها الديانة النصرانية، أسلمت غالبيتهم بعد الفتح الإسلامي، وكيهود كل من خيبر ويثرب الذين أسلم بعضهم بعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ويهود ونصارى كل من نجران واليمن.

إذا علمنا ذلك أدركنا ومضة الإعجاز الإنبائي في إيراد القرآن الكريم لقصة ولدي آدم بالصورة التي اتسم بها كتاب الله العزيز في إيراد القصة، لا بتفاصيلها المكانية والزمانية ولا بكثرة أسماء وأعمار الأشخاص الواردة أسماؤهم فيها، ولكن بإيراد الدروس والعبر المستفادة منها، وهذا هو الفرق بين الوحي السماوي الذي حفظ بعهد من الله تعالى وبين قصص التراث الشعبي الذي نُقل مشافهة عبر آلاف السنين، فأُضيف إليه ما أُضيف، وحذف منه ما حُذف[١].

والفارق بين روايتي كل من العهد القديم والقرآن الكريم لقصة ولدي آدم هو الفارق بين كلام الله تعالى وتعبير البشر عن الواقعة الواحدة، وذلك بكل ما لله تعالى من صفات الكمال المطلق والعلم المحيط بكل شيء، وما للبشر من محدودية العلم وقصور الحواس، وعرضة النسيان والنقص في كل شيء، أو الرغبة في التدليس والتزوير في كثير من الأحيان[٢].

إن قصة ابنَيْ آدم التي جاءت في القرآن الكريم هي قصة الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه، وفي طاعته ومعصيته، وفي سعادته وشقائه، وفي سموّه وسقوطه، هي قصة البشر، ولقد جعلها الله عزَّ وجلَّ درساً بليغاً لهذا الإنسان لكي يتعظ بها ويستفيد منها في حياته، ويستخرج منها الدروس والعبر.

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائيّ والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، مصدر سابق، ص١٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣١.

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

أ ـ ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾:

يقول الله آمراً نبيه ﷺ: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ على هؤلاء اليهود المجاورين لك والمحيطين بك.

ـ اتل على هؤلاء اليهود الناكثين للعهود، الناقضين للمواثيق، اتل على هؤلاء الذين تصدر منهم الخيانة تلو الخيانة، والغدر بعد الغدر.

ـ اتل على هؤلاء وعلى غيرهم من النصارى والمشركين.

ـ واتل كذلك على أصحابك من المؤمنين والمسلمين، بل واتل على الجميع وذكّر الجميع وحذّر الجميع، إذ الله تعالى قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام: ١٩] [١]. واتل عليهم أي: اقرأ عليهم.

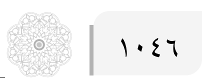
﴿ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ ﴾: النبأ هو الخبر العظيم ذو الشأن الذي يستدعي دراسة وعناية[٢]، وهو الخبر المهم، والخبر المتميز، والخبر الذي له دلالة[٣].

اقصص عليهم خبر ابنَيْ آدم وهم ابناه لصلبه وفي عهده وزمانه[٤]. أما عن اسمهما فلم يرد اسمهما في الكتاب، ولا في السنة بسند صحيح فيما علمت[٥].

إلا أن كتب التفسير والتاريخ نصت على أن المقتول اسمه هابيل والقاتل اسمه قابيل، وهو موجود في الروايات الإسرائيلية وكتب أهل الكتاب.

---

(١) قصص الأنبياء، مصطفى العدوي، مصدر سابق، ١/ ١٦٢.
(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٢٢.
(٣) تفسير النابلسي، مصدر سابق، ٣/ ٥٠١.
(٤) قصص الأنبياء، العدوي، مصدر سابق، ١/ ١٦٢.
(٥) المرجع نفسه، ١/ ١٦٢.



والمهم أصل القصة وعبرتها، ولا يضر اعتماد هذين الاسمين لشهرتهما، وقد ورد هذا عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[١].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي أَمْر نَزَل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وعندما يقول سبحانه: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ فهو يحكي قصة قرآنية تحكي واقعة كونية، وما دام الله هو الذي يقص، فهو سيأتي بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة، ولذلك يسميه سبحانه ﴿ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢][٢].

ب ـ ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾:

شبّ قابيل وهابيل ابنا آدم عليه السلام، واتجها إلى العمل يضربان في الأرض كسباً للرزق وابتغاء للخير، فكان قابيل من زُرّاع الأرض، وكان أخوه هابيل من رعاة الماشية، ثم وقع الخلاف والحسد بينهما، كما هي طبيعة البشر ووسوسة الشَّيطان، وادّعى كل منهما أن الصواب والحق معه، واتفقا أن يُقرّب كل منهما قرباناً إلى الله، فأيهما قُبل قربانه كان الأحق فيما يدعيه ويريده، وقدم هابيل جملاً أو كبشاً من أنعامه، وقدّم قابيل قمحاً من زراعته، فتقبل الله قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل لأنه لم يكن خالص النية[٣].

وأما لماذا قرّبا القربان؟

فالله أعلم لماذا قرّبا القربان، فلم يرد لذلك سبب واضح في الكتاب والسنة. وأما أهل العلم، فبعضهم قد قال: إن الله أمرهما بذلك، وقال آخرون: إنهما

---

(١) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مصدر سابق، ص٢٧١.
(٢) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ٥/٣٠٦٨.
(٣) شرعة الله للأنبياء في القرآن، محمد الزحيلي، مصدر سابق، ص٥٦.

قربا قرباناً يقوم مقام الصدقة، لكون الصدقة لم تكن موجودة في زمانهما لعدم وجود من يقبلها[١].

وقال غيرهم من أهل العلم: إن كلاً منهما تقرَّب إلى الله بقربان كي يفصل بينهما في نزاع قد دار بينهما، ألا وهو أمر زواج أحدهما بأخت الآخر «أعني التي هي توأم الآخر»، وكان التقريب بأمر أبيهما آدم عليه السلام.

وهناك أقوال أُخر ليس عليها دليل ولا تستند إلى مستند صحيح، وقد أورد المفسرون في هذا الصدد آثاراً لا يصح منها شيء عن رسول الله ﷺ.

إن معظم الروايات تتحدث عن الزواج من البنت الأجمل، وهذا معنى ظلَّ ساري المفعول في بني آدم، وكما قال ابن السمّاك: لولا ثلاث لم يقع حيفٌ ولم يُسَلَّ سيفٌ؛ لقمة أسوغ من لقمة، وزوجة أصبح من زوجة، وسلك أنعم من سلك[٢].

فالصراع على الجمال والثياب والطعام سيَّر كثيراً من الحروب التي يوظف فيها من لا يدرك مغزاها، والقرآن لم يُعنَ بتفعيل ذلك، لأن مقصده العبرة بتعظيم الدم وحرمته وحفظ حقوق الأخوة الإنسانية الآدمية القائمة بين البشر كلهم، إلا ما يقتضيه العدل وتأذن به الشريعة.

كما لم يُعنَ القرآن بتفصيل القربان، وكان هابيل صاحب غنم، فقرب أفضل ما لديه بطيب نفس، وقابيل صاحب زرع فقرّب شرّ ما لديه، وبغير طيب نفس[٣].

---

(١) قصص الأنبياء، العدوي، مصدر سابق، ١/ ١٦٣.
(٢) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مرجع سابق، ص٢٧٢.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٧٢.

وأما التقبُّل ويعني قبول الله للقربات فورد على أن علامته أن تأتي نار من السماء فتحرقه، وجاء في القرآن قول اليهود: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وفي قصة «يوشع بن نون» أنهم جمعوا الغنائم فأقبلت النار فلم تأكلها، فأعادوا إليها الذهب المغلول فأقبلت النار فأكلتها، هل كان الأمر حسداً بسبب قبول القربان فحسب؟ أم كان القربان اختباراً ينتج عنه تحديد من يتزوج الأخت الجميلة منهما؟ الأمر محتمل[١].

والقربان كل ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها، والقربة والقرابة هي ما يُتقرَّب به إلى الله عزَّ وجلَّ من أعمال البر والطاعة، وجمعها قُرَب وقُربات، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٩٩].

والقربة في الشرع هي ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من الطاعات، وهي نوع من الطاعة لأن الطاعة تشمل القربة، وتشمل إتيان المأمور به على الوجه الذي أمر به، وقد يتحقق به القرب أو لا يتحقق، كما لو أطاع الأمر مُكرهاً.

والقربة هي أنواع: روحية، وبدنية، ومالية[٢]، والقربة تشمل الصدقة التي تُملَك في الحياة بغير عوض لمحتاج بنية التقرب إلى الله، ولها فضلها بنصوص الآيات والأحاديث الكثيرة[٣].

فالقربان والقربة، والصدقة، والصدقات، هي من شرع الله في منهاج الأنبياء والمرسلين، وجاء القرآن الكريم فأكد ذلك وقرره حتى تقوم الساعة لتكون شرعة

---

(١) علمني أبي مع آدم. . ، سلمان العودة، ص٢٧٣.
(٢) الموسوعة الفقهية الميسرة، ٢/ ١٥٧٢.
(٣) المرجع نفسه، ٥/ ١٢٠١.

الله تعالى واحدة من آدم إلى آخر الدنيا وبابها مفتوح للمسلم، ولها أحكامها التفصيلية[١].

ج ـ ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾: تلك كلمة الظالم الآثم الذي خلا قلبه من كل شعور بالحق، فلم يشعر بالعدالة في ذاتها، ولم يشعر بالرحم الواصلة بينهما، ولم يشعر بحق الحياة التي خلقها الله تعالى وأودعها كل نفس، ولم يشعر بحرمة الدم وبأن القتل أعظم جريمة في هذا الوجود الإنساني.

وقد أكد عزيمته الآثمة وإصراره عليها من غير خور ولا ضعف، ولذلك أكدها أولاً بالقسم المطوي في القول، والذي تدل عليه اللام وهي مؤكدة بنون التوكيد الثقيلة، وكانت المجابهة الآثمة لأخيه بذلك الخطاب المواجه، ولم يستر نيته، فكان التبجُّح السافر الذي أدى إلى الفجور في القول والإجرام في العمل والكسب الآثم، وإن هذا يدل على تصميمه على القتل.

وهذا النص الموجز يُبيِّن روح الإجرام في المجرمين الذين يريدون السوء بالأخيار في المجتمع، وكلما زاد خير الأخيار أوغل المجرمون في الشر والإيذاء، حتى أنهم يستمرئون الشرّ كما يستطيب الأخيار حب الخير، وأن هؤلاء آفة الجماعة الإنسانية، ومن تظهر مآثمه منهم تَحِقُّ عليه كلمة العقاب، زجراً وردعاً وتهذيباً للمجتمع وتطهيراً له، فالذين تلين قلوبهم لهم آثمون في حق جماعتهم، راضون بأن يعيش الشر في قلوب الآثمين[٢].

ـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

تلك أول كلمة نطق بها التقي البر في مجاوبة اعتداء أخيه أو الجهر بنية

---

(١) شرعة الله للأنبياء، محمد الزحيلي، مصدر سابق، ص٥٧.

(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٢٤.

الاعتداء، وهي في ذاتها اعتداء، فقد قال كلمات أربع، كل واحدة منها تُنبئُ عن إيمان مكين عميق، وتلك هي الأولى، وهذه الكلمة تفيد السبب في القبول، وترشد أخاه إلى تطهير قلبه، وإلى الاتجاه إلى ربه، وإلى الاستشعار بخشيته، وفي تلك الكلمة الطَّيِّبة معان كريمة.

فهي أولاً تفيد قصر القبول بلفظ «إنما» على المتقين، والقصر نفي وإثبات، أي أن التقوى هي سبب القبول، فإن وُجدت كان القبول، وإن لم توجد انتفى القبول، وتفيد ثانياً أن عدم القبول إنما يكون من نفس المتصدق، لا من أمر خارجي، فالجزاء على قدر النية، فالتقوى دائماً من القلوب[١].

وتفيد ثالثاً بتوجيه أخيه الفاسد إلى الإقلاع عن ذنبه، بإرشاده إلى موضع الداء في قلبه، والتقوى التي أصبحت سبباً للجزاء الطَّيِّب تتضمَّن خشية الله وامتلاء القلب برضاه، وتتضمَّن اتقاء الذنوب والآثام، وتتضمَّن احترام الإنسان لحقِّ أخيه الإنسان، فهي كلمة جامعة لكل معاني الفضيلة الدينية والخلقية والاجتماعية[٢].

٢ ـ قال تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

أ ـ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾: تلك هي الكلمة الثانية، وبسط اليد مدّها بالاعتداء، ونرى في هذا النص قَسَماً يُنبئ عن الطبيعة والخلق السمح، في المقابل قَسَم يُنبئ عن الشر ونية الأذى والتصميم عليه، وهذا يصور ما بين الأخيار والأشرار من تضاد، فهو هنا يؤكد على سلامة القلب وسلامة العمل، أقسم الأول على القتل، وهو القسم المفهوم من اللام في

---

(١) تفسير أبو زهرة، ٤/ ٢١٢٤.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٢١٢٥.

﴿ لِأَقْتُلَنَّكَ ﴾، وأقسم الثاني على عدم الرد ﴿لَئِنْ بَسَطتَ﴾، وقد أكد نفيه بهذا القسم، وبالتعبير بالجملة الاسمية في جواب القسم.

لأن جواب القسم ﴿ مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾، وقد أكد النفي بأمور ثلاثة:

أولها: التعبير بالوصف، فهو ينفي عن نفسه وصف بسط اليد لأجل الاعتداء، لأن ذلك ليس من شأنه ولا من رغباته.

والثاني: التعبير باليد للإشارة إلى أن ما بينهما من رابطة الرحم الموصولة عنده يمنعه من أن يمد إليه يده بالأذى.

والثالث: التعبير: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فيه أن هذه الجريمة تنفر الطبائع السليمة منها، ولا ترضى بها العقول المستقيمة، وخصوصاً إذا كان يريد قتله.

وقد أقسم الأول على الفعل فقال: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾، وردد كلامه في نية الاعتداء بالفعل أيضاً، لأن موضوع القول هو ذلك الفعل الذي كان ثمرة للنية الخبيثة من فاعله، أما النفي الذي كان من الشاب الطَّيِّب فقد كان عن نفي الوصف، أي أنه لا يقع منه ذلك الفعل، ولا يمكن أن يقع.

ويثير الفقهاء بحثاً من هذا الموضوع، وهو حول ما قرروه من أن الدفاع عن النفس عند محاولة الجاني للقتل أمر مشروع لا يتنافى مع التقوى، ويقرر الحنفية أن الشخص إن تأكد أنه مقتول إذا لم يدافع عن نفسه ولو بالقتل يكون الدفاع واجباً حفظاً لنفسه، ويكتفي الأكثرون من الفقهاء بالقول بأن الدفاع يكون مشروعاً، ولا يكون لازماً، وسواء أكان هذا أم ذاك، فإنَّه ليس من التقوى أن يقف المجني عليه مكتوف اليد لا يدافع[١].

وقد أجاب جمهور الفقهاء بأن التقوى في هذا المقام اختيارية، أي أنه يختار

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٢٦.

أي الطريقين، فإما أن يدفع الشر، وإما أن يكون عبد الله المظلوم، ولا يكون عبد الله الظالم، وليس في كليهما ما ينافي التقوى.

وأما الحنفية الذين قالوا: إن الدفاع عن النفس واجب فقد قالوا: إن السكوت واعتباره من التقوى كان شرع من قبلنا، وأما شرعنا فهو واضح في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

إن موقف ولدي آدم خارج عن موضوع الخلاف، لأن موضوع الخلاف هو في دفع الصائل الذي يجيء ليقتل فإنَّه يجب دفعه حتى لا يستشري شره، أما هنا فأخ يهدد أخاه بالقتل، ولو أنه هدده بمثل ما هدده به لدخلا في ملحمة، ولا يُدرى أيهما الغالب، ويكون هذا داخلاً في معنى قوله ﷺ: **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**[١].

على أن في الصبر أجراً، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذه القضية خارجة خروجاً تامّاً عن موضوع الخلاف، وخصوصاً أن الأمر بين أخوين، لا مع صائل يضرب بالسيف ابتداء من غير فرصة للموازنة والتفكر[٢].

ب ـ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذه الكلمة الثالثة وهي تُنبئ عن الباعث الذي جعله يقف ذلك الموقف السلبي، ويتخلى حتى عن الدفاع عن نفسه، والباعث عليه هو خوف الله تعالى، وفي ذلك إشعار لأخيه الذي يهم بقتله بأن يقف موقفه، ويخاف الله تعالى الذي يقبل الطاعات ويرد المعاصي، وهو عليم بكل ما في الصدور، وهو شهيد على حركات الجوارح والأعضاء والقلوب،

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/٢١٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ٤/٢١٢٦.

ولا يخفى عليه شيء في الأرض، وفي النص الكريم إشارات بيانية يحسن التنبيه إليها.

الأولى: تأكيد خوف الله تعالى بذكر «إنّ» المؤكدة للقول.

الثانية: ذكر الله تعالى جل جلاله بلفظ الجلالة، للإشعار بأنه هو وحده صاحب السلطان على نفسه، ولا سلطان سواه، فلا يدفعه غضب أو حبٌّ انتقام إلى مخالفة أمره.

الثالثة: وصف الله جل جلاله بأنه رب العالمين، أي منشئ الكون ومن فيه، وهو يتعهدهم بالنماء والتربية والتغذية، فقتل النفس التي حرم الله تعالى قتلها هدم لما بناه الله تعالى، وتخريب في الأرض ونشر للفساد[١].

وهكذا يرتسم نموذج من الوداعة والسلام والتقوى في أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني، وحماسة للمُعتدى عليه ضد المعتدي، وإعجاباً بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء، وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين، لقد كان في هذا القول اللين ما يهدّئ الحقد والحسد، ويسكن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة، ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة، وبشاشة الإيمان وحساسية التقوى، أجل لقد كان في ذلك كفاية، ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير[٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]:

إذا أنت مددت يدك لتقتلني، فليس من شأني ولا من طبعي أن أفعل هذه الفعلة معك، فهذا الخاطر ـ خاطر القتل ـ لا يدور بنفسي أصلاً، ولا يتجه إليه فكري إطلاقاً، خوفاً من الله رب العالمين لا عجزاً عن إتيانه، وأنا تاركك تحمل

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٢٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٢/ ٨٧٦.

إثم قتلي وتضيفه إلى إثمك الذي جعلَ اللهَ لا يتقبل منك قربانك، فيكون إثمك مضاعفاً، وعذابك مضاعفاً: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وبذلك صور له إشفاقه من جريمة القتل ليُثنيه عما تراوده به نفسه، وليُخجله من هذا الذي تُحدِّث به نفسه تجاه أخ مسلم مسالم وديع تقي، وعرض له وزر جريمة القتل لينفره منها، ويزين له الخلاص من الإثم المضاعف بالخوف من الله رب العالمين، وبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان من صرف الشر ودوافعه عن قلب إنسان[١]، ولكن النفس الحاقدة الحاسدة لم تنزجر ولم تتعظ بل زينت لصاحبها جريمة القتل، وشجعته عليها[٢].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]:

بعد هذا كله، بعد التذكير والعظة والتحذير، اندفعت النفس الشريرة، فوقعت الجريمة، وقعت وقد ذلَّلت له نفسه كل عقبة، وطوَّعت له كل مانع، وطوعت له نفسه القتل، فقتل أخاه، وحق عليه النذير[٣].

أ ـ ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾:

هذا النص الكريم يدل على أمرين:

أحدهما: أن قابيل الذي قتل أخاه، ولو أنه أكد على الاعتداء بقوله: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ كانت نفسه يتردد منها عاملان:

الأول: عامل الود والرحم الواصلة.

والثاني: عامل الحسد والضغن.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، المرجع السابق نفسه، ٢/ ٨٧٦.
(٢) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مصدر سابق، ٢/ ٢٨٨.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٢/ ٨٧٦.

وثانيهما: أن أخاه فيما ساقه من قول كان يريد أن يزرع في نفسه روح المودة والأخوة لتنتصر على الأخرى، ولذلك ما تحرك لمقاومته، بل تحرك لمراجعته ليثوب إلى نفسه.

ومعنى كلمة: ﴿ فَطَوَّعَتْ ﴾، قال فيها مفسرو السلف معاني تدل على أن هناك مقاومة في داخل شعوره قبل أن يقع في الجريمة، وقد فسر مجاهد «طَوَّعَتْ» شجعت، وفسرها بعض التابعين بسهّلت ووسّعت، وبعضهم بزيَّنت وحسَّنَت، وكلها تشير إلى أنه كانت هناك معركة في داخل نفسه بين الخير والشر، بين الإقدام على الجريمة والإحجام عنها، حتى انتصرت[١].

وقد صور السيد رشيد رضا في تفسير المنار معنى المغالبة في النفس تصويراً حسناً، فقال إن هذه الكلمة «طَوَّعَتْ» تدل على تكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب، فهي تمثل لمن يفهمها ولد آدم الذي زيَّنَ له حسدُه لأخيه قتلَه، وهو بين إقدام وإحجام يفكر في كل كلمة من أخيه الحكيم، فيجد في كل منها صارفاً له عن الجريمة، ويدعم ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة، فينكر الحسد من نفسه الأمارة بالسوء على كل صارف من صوارف نفسه اللوامة، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد ويجذبه إلى طاعته[٢].

وإن في نص القرآن الكريم إشارة إلى هذه المعاني من حيث التردد، فقد عبر عن المقتول بقوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾؛ فالمعنى: أن الأخوة والاطمئنان إلى القرابة كانا يعارضان دواعي القتل، وعبر عن الجريمة بقوله «قَتْلَ»، ما يدل على أن الانقياد للحسد بعد المغالبة ترتب عليه أقوى شر في هذا الوجود وهو إزهاق النفس التي حرّم الله قتلها من غير جريمة، إلا أن

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٢٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مصدر سابق، ٦/ ٣٤٥ـ٣٤٦.

يكون قبول الله لقربانه جريمة عند الحاسدين[١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، التعبير بالأخوة تذكير بالمشترك الإنساني بين البشر من بني آدم وتعظيم لحرمته وحقه وتحذير فوري من التجاوز والعدوان عليه[٢].

والنص القرآني مع كل ما سبق فيه إشارة إلى شناعة الجرم في ذاته من حيث الباعث عليه، ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول، ومن حيث ذات الفعل، فإنَّه أكبر جريمة إنسانية في هذا الوجود. ولكل هذه المعاني أشار القرآن الكريم بأوضح تعبير، وأدق لفظ، وهو سر الإعجاز وفيه بلاغة الإيجاز مع الوضوح، وإشعاع المعاني بالنور من ثنايا الألفاظ[٣].

ب ـ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: أي فصار من الخاسرين بعد تلك الجريمة الكبيرة التي تحيط بها الشناعة من كل أطرافها، والتعبير بـ «أصبح» هيأ لها المقام في الكلام، لأن «أصبح» تدل على أنه كان مدركاً لما ارتكبه عندما أشرق نور الصبح كأنه وقت الحيرة، وإرادة الارتكاب في ظلمة من عقله وقلبه، وفي ديجور من الظلام يشبه ظلام الليل، حتى كان الصبح المنير الذي أراه الأمور على وجهها، وأدرك في ذلك الضوء الذي جاء عند الصبح مقدار الإثم فيما فعل[٤].

والخسران الذي لحقه هو خسران القلب المؤمن إذا أُلقِي بالمعاصي ودخل عليه الشر حتى غلبه، وأُركس في مهاوي الشر بسبب ضغن نفسه وامتلاء قلبه بالحسد، وأحس بأنه خسر أخاه الطَّيِّب الطاهر العفيف، وأحس بغضب الله تعالى، وذلك هو الخسران المبين، وهكذا صار ممن غلبت عليه شقوته،

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٠.
(٢) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، سلمان العودة، مصدر سابق، ص٢٧٣.
(٣) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٠.
(٤) المرجع نفسه، ٤/ ٢١٣٠.

وامتلأت نفسه بالحيرة على سوء ما فعل[١].

وهنا إشارة بيانية وهي في التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فإن مؤداه أنه صار في زمرة الخاسرين الذين كسبوا السيئات، وأُركست نفوسهم في مهاوي الخسران، وأصبحوا لا منجاة لهم ولا بقاء، لأنهم نزلوا إلى قاع الهاوية، بارتكاب أعظم الجرائم بإصرار وتصميم[٢].

ـ لقد خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك.

ـ وخسر أخاه الناصر والرفيق.

ـ خسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة.

ـ وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير[٣].

وقال القرطبي: تضمنت هذه الآية البيان عن حال الحاسد، حتى إنه قد يحمله حسده على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة، وأمسَّهم به رحماً، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عنه[٤].

وقد ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، والتحذير من القتل بالظلم، وعن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُقتلُ نفسٌ ظلماً إلّا كانَ على ابن آدمَ الأولِ كفلٌ من دَمِها، لأنَّه أوّلُ من سنَّ القتلَ**»[٥].

والحسد سبب أول جريمة قتل في الأرض، وتتابعت بعد هذه الجريمة النكبات والمآسي، والمذابح البشرية الجماعية، كل ذلك بسبب الحقد والحسد

---

(١) تفسير أبو زهرة، المرجع نفسه، ٤/ ٢١٣١.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٢١٣١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٢/ ٨٧٧.
(٤) تفسير القرطبي، مصدر سابق، ٦/ ١٤١.
(٥) البخاري: ٦/ ٤٤٨ رقم ٣٣٣٥.

والبغي، ولم يتوقف إلى يومنا هذا، بل زاد حدةً بعد اكتشاف الأسلحة الفتاكة الكيماوية، والنووية والذرية، وكل يوم نسمع عن مذابح للبشر، وتُكتشف المقابر الجماعية لرفات مئات من البشر أُبيدوا جميعاً، ولم يُعلم عنهم إلا بعد حين من الدهر، وهكذا ترخص الدماء ويُستباح القتل، تحت اسم أي شعار لا يمتُّ للدين بصلة[١].

٥ ـ قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]:

من الدلالات العلمية والإنسانية لهذا النص القرآني الكريم أن الغراب طائر شديد الذكاء، ومن أوضح الأدلة على ذلك أنه يدفن موتاه ولا يتركها نهباً للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة، أو للتعفن والتحلل في الجو صوناً لكرامة الميت وترفُّقاً بالبيئة والأحياء فيها، وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بوساطة كل من مخالبه ومنقاره ليكوّن حفرة عميقة فيها، ثم يقوم بطي جناحي الغراب الميت وضمهما إلى جنبيه، ورفعه برفق لوضعه في قبره، ثم يهيل عليه التراب حتى يخفي جسد الميت تماماً، كما يفعل المسلمون اليوم بموتاهم احتراماً لهذا الجسد حيّاً وميتاً[٢].

وتتضح روعة الإشارة القرآنية إلى الغراب، معلم الإنسان الأول كيفية الدفن الصحيح للموتى، ويأتي العلم المكتسب ـ في قمة من عطائه ـ ليؤكد لنا أن الغراب قد وهبه الله تعالى من المواهب الحسية والمعنوية ما جعله أذكى الطيور على الإطلاق وأقدرها على التحايل، وأن له من حدة البصر ما يمكنه من التقاط التفصيلات الدقيقة من الارتفاعات الشاهقة على مساحات تقدر بمئات

---

(١) العقوبات الإلهية، عبد الهادي الشهراني، مصدر سابق، ص١٠٠.
(٢) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، مصدر سابق، ١/ ١٣٢.

الكيلومترات المربعة، وبتفاصيل تفوق قدرة الإنسان بثلاث أو أربع مرات.

وهذه الواقعة التي تَعلّم فيها أحد ولدي آدم كيفية دفن الموتى من الغراب هي من جوانب الإعجاز الإنبائي في كتاب الله، حيث لم يشهدها إلا «قابيل» وحده، وليس لها ذكر في أي من أسفار العهد القديم أو العهد الجديد[١].

أ ـ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾:

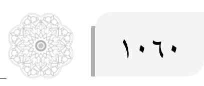
هذا الكلام يدلُّ على أحداث لم يذكرها القرآن الكريم، لأنها تفهم من المعنى والسياق من غير حاجة إلى الذكر، وذلك أن القاتل بعد أن ارتكب الجريمة، وأحس بالخسارة الشديدة التي نالته، لم يرد أن يترك أخاه تنهشه السباع، أو تنقره جوارح الطيور، ولا أن يترك جسمه ملقى، وأُلهم بالفطرة أنه لا بدَّ من مداراة جسمه وستره، وإبعاده عن الأنظار لأنه بعد موته صار جسمه كله سوأة يسوء النظر إليه، ولا تألف الطباع السليمة رؤيته فالمراد بالسوأة الجسم كله بعد موته، لأنه يسوء النظر وخصوصاً بعد أن تتحول حاله ويتعفن، وقد استيقظت الأخوة في نفسه، بعد أن خبت أمداً ارتكب فيه جريمته.

اتجه الأخ القاتل لمواراة جثة أخيه، أي ليسترها، وقد أراد الله تعالى أن يعلمه ذلك، فبعث غراباً، ومعنى بعثه أنه أفهمه أن يفعل ذلك، وقد رأى ذلك الغراب الملهم غراباً آخر ميتاً، وأراد أن يستره عن الأنظار، فأخذ يبحث في الأرض أي يثيرها ويحفرها برجليه، حتى أوجد حفرة تسع الغراب الميت، فوضعه فيها، فكان هذا إعلاماً للقاتل بالطريقة التي يواري بها جثة أخيه.

وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث في الأرض عن شيء من الأشياء ليدفنه لأن من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التي ألقى فيها جثة أخيه القتيل، والكثير من المفسرين

---

(١) من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، زغلول النجار، المرجع نفسه، ١/ ١٣٢.



على أن غرابين تنافرا فمات أحدهما، فدفنه الآخر بحفر حفرة في الأرض.

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث في الأرض حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئاً أو طيراً ميتاً، ولم تتعرض لكون المدفون طيراً أو غير طير، ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، وما دامت الأخبار التي لا مناص من قبولها لصدقها غير موجودة، فليس لنا أن نفرض واحداً من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذي يقتضيه بيان الغرض والمغزى هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر في الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئاً، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه.

وأصل معنى كلمة «بحث»: كشف أو دق الأرض أو حفرها، وقد جاء في مفردات الراغب الأصفهاني: البحث: الكشف والطلب، فيُقال: بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى﴾، وقيل: بحثت الناقة الأرض بأرجلها في السير إذا شددت الوطء تشبيهاً بذلك، والمعنى: أن الغراب أخذ يدق بمنقاره مثيراً للأرض، حتى حفر حفرة فيها، ثم دفن ما شاء أن يدفنه، وأنه دأب في ذلك وقتاً طويلاً بدليل التعبير بقوله ﴿يَبْحَثُ﴾ بالمضارع بدل الماضي، لأن في التعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أن الفعل مكث وقتاً، وكان مجال استمرار.

وفي كل هذه الأمور التي كانت بعد قتل أخيه ما يثير العبرة، وإذا كان الغراب قد أراه كيف يواري سوأة أخيه، فإن ضميره قد استيقظ، وأصبح لا يستطيع كيف يواري سوأة فعله التي فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة، ولذلك صرح القرآن بأنه اعتراه الندم، ولكن في غير مندم، لأن الجريمة قد وقعت ولا منجاة منها[١].

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٣.

ب ـ ﴿ قَالَ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾ :

أخذ القاتل تعتريه الحسرة بعد الفعلة التي فعلها، واكتسب بها ذلك الجرم الشديد البليغ الأثر في هذا الوجود، وقد كانت حسرته للفعل الذي ارتكبه، للعجز الذي لحقه، ولصغر نفسه أمام الطائر، وهو الذي أبى واستكبر لأن الله قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه، وطغى على أخيه وتجبر.

والويلة والويل: البلية والفضيحة، والألف في قوله تعالى: ﴿ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ هي مقلوب ياء المتكلم مثل الألف في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤]، والمعنى ﴿ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ أي يا فضيحتي، وهذا النداء يستعمل للتحسر وإظهار الألم النفسي، وإن هذه البلية والفضيحة اللتين نزلتا به، ويتحسر منهما ويناديهما، وهما بين جنبيه، انبعثا من قلبه، ومن فعلته التي فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنسبة لجثمان أخيه الذي كان سبباً في جعله جثة هامدة، بعد أن كان لساناً نقياً وقلباً تقيّاً وأخاً مباركاً، وقد صوّر جهله بهذا الاستفهام التقريري الذي يصور جهله وغفلته وحسرته، وقد حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾.

والمعنى أنه يقرر عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتقرير والتثبيت، وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم، ولذلك عبر باللفظ «أخي» الذي كان يوجب المودة والمحبة بدل الحسد، وما أدى إلى قتله وهو شطر لحمه وهو جزء أبيه فقال «سوأة أخي»، وحسرته ليست للعجز عن مواراتها بالتراب وغفلته، ولكن لذلك ولأصل الجريمة بالذات، ولذلك كان التعبير بأخي، وإن هذه أولى درجات الندم إذ أن أولى الدرجات فيه أن يحس بعظم الجريمة التي ارتكبها وأثر الإثم الذي فعله، فقد فعل ما فعل بعد ترديد الفكرة مرتين، ولكنه ما إن فعل حتى رأى أثر الجريمة

مجسماً وبذلك كانت الحسرة ثم كان الندم[١].

والآيات تبين لنا كأن ابن آدم القتيل مسجى على الأرض بدمائه وبجانبه أخوه يبكي على صخرة مغطياً وجهه في ندم، ثم يقوم ويحاول أن يقلد الغراب في دفنه لأول قتيل في تاريخ البشرية، بينما تتجلى في أفق الآية الكريمة قيمة إيمانية وإنسانية عظيمة تخبرك أن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس كل الناس، هذه صورة رمزية ذهنية قوية للغاية، اختزلت عدة صفحات في علوم النفس والاجتماع والقيم، تشرّبها ذهنك بسهولة ويسر حينما تكلم الإله[٢].

ومنذ أن حفر القاتل قبر أخيه المقتول، في زمن الحضارة الإنسانية الأولى، أصبح القبر سنة جارية في بني آدم، وقد كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم على وجه الأرض، لهذا جهل القاتل سنة المواراة ولم يعلم سنة الله في الموتى، فأراد الله تعريفه الطريقة في موتى خلقه، فبعث الله غراباً في المكان الذي هو فيه يبحث في الأرض حكمة منه تعالى لِيُرِيَ ابن آدم كيفية المواراة، وهذا هو معنى قول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢١]، أي: صيّره وجعله مقبوراً، ولم يجعله مما يُلقى على وجه الأرض للطير والسباع، فالقبر مما أكرم الله به بني آدم[٣].

ولم يشِذَّ عن هذه السنة في دفن الأموات من بني آدم إلا طوائف قليلة زائغة، وقد اشتهر منها الديانة الهندوسية فهم لا يدفنون الموتى، وإنما يحرقونهم بالنار، وهم على معتقدهم حتى هذا اليوم[٤].

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٤.

(٢) الإجابة القرآنية كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية، مهاب العيد، مصدر سابق، ص٣٣.

(٣) أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، عبد الله السحيباني، ص١٨.

(٤) السحيباني، المرجع السابق، ص١٨.

وهذا زيغ وضلال مع ما هم فيه من الضلال، وهو خروج عن سنة الله في خلقه، قال الله عز وجل: ﴿ ۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]، وقد امتن الله عزَّ وجلَّ على عباده أن جعل لهم الأرض كفاتاً ـ أي وعاءً ـ في حال الحياة والموت، فقال سبحانه مُنبِّهاً عباده على نعمه عليهم: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦]، فهي تضم الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها، فهي تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم، وأمواتكم في بطونها في القبور فيُدفنون فيها[١].

فأكرم الله بني الإنسان بالدفن، وذلك لأن المقصود من دفن الأموات هو ستر سوآتهم بالتراب عن الأحياء، وهذه الآية تدل على وجوب مواراة الميت ودفنه[٢].

وقد أجمع المسلمون على أن دفن الميت فرض ـ على جميع المسلمين ـ على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين، وأخص الناس بذلك الأقربون الذين يلون الميت، ثم الجيرة ثم سائر المسلمين[٣].

وليس في دفن الميت وإدخاله القبر أو حمله دناءة وسقوط مروءة، بل هو بر وطاعة وإكرام للميت، فعله الصحابة والتابعون ومن بعدهم أهل الفضل والعلم[٤]، فدفن الميت والرفق به حال الدفن وقبله الغسل والحمل، وكذا الإسراع بتجهيز جنازته، وعدم حبسه، كلها مظاهر تدل على إكرام الميت واحترامه.

وإذا وُضع الميت في قبره فهو محترم، لا يجوز التعدي عليه وإيذاؤه، فالقبر هو بيت الميت، وللمسلم فيه من الحرمة ما جاءت به السنة، فلا يُترك عليه شيء من النجاسات بالاتفاق، ولا يُوطأ ولا يداس ولا يُتَّكأ عليه عند جمهور

---

(١) أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، عبد الله السحيباني، المرجع نفسه، ص١٩.
(٢) المرجع نفسه، ص١٩.
(٣) مراتب الإجماع، ابن حزم، مصدر سابق، ص٣٤.
(٤) المغني، ٣/ ٣٩٤، ٣٧٧، ٣٦٦.

العلماء[(١)]، ولا يُحاوَر بما يؤذي الأموات من الأقوال والأفعال الخبيثة[(٢)].

فاحترام الميت في قبره بمنزلة احترامه في داره التي كان يسكنها في الدنيا، فالقبور هي ديار الموتى ومنازلهم، وعليهم تنزل الرحمة من ربهم والفضل من محسنهم، فهي منازل المرحومين، فإكرام هذه المنازل واحترامها من تمام محاسن الشريعة كما هو ظاهر[(٣)].

ج ـ ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾:

بعد أن رأى جثة أخيه بين يديه، وعجز عن مواراتها، وأحس البلية التي وقع فيها من رؤية جثمان أخيه الطَّيِّب ملقى، وهو عرضة لسباع البهائم وسباع الطير تنهشه، وأدرك مقدار الشر الذي ارتكبه، ومن المقررات العلمية أن أول إحساس يهول الجريمة أن يرى المجرم الفريسة التي افترسها سواء أكان ذا قربى أم لم يكن ذا قربى، فما بالك إذا كان المقتول لم يرتكب إثماً، بل فعل برّاً، ولم يكن منه شر أو أذى، بل كان منه عظة وإرشاد[(٤)].

وإن ذوي الخبرة من رجال التحقيق يستخدمون رؤية المقتول سبيلاً لاعتراف القاتل، فإنَّه بمجرد رؤيته تضطرب أعصابه، ويتخلى عن ثباته وإصراره على الإنكار، وإن لم يصرخ بالاعتراف، فإن قرائن الارتكاب تتكون من:

ـ اضطراب ظاهر.

ـ ومن سرعة نبض.

ـ ومن اصفرار وجه.

---

(١) أحكام المقابر في الشريعة الإسلامية، عبد الله السحيباني، مصدر سابق، ص٢٠.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، مصدر سابق، ٢/ ٦٦٥.
(٣) أحكام المقابر، السحيباني، مصدر سابق، ص٢٠.
(٤) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٤.

وذلك سبيل لأخذ الاعتراف الصريح، لأن صوت الفطرة المستنكر يستيقظ ويتحرك، ويظهر في حركات الجوارح، وخلجات اللسان واضطراب الأعصاب وسرعة النبض، ولذلك كانت الندامة التي اعترت أول حاسد وأول قاتل، وقد صار من النادمين، أي أنه دخل في زمرة النادمين، بعد أن كان في زمرة الحاقدين الحاسدين الباغين[١].

كما أن ندمه لم يكن ندم التوبة وإلا لقبل الله توبته، وإنما كان الندم الناشئ من عدم جدوى فعلته، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق[٢]، ولا شك في أن ندم التوبة الصادقة ينفع في الآخرة من كل ذنب حتى من الشرك والقتل فما دونهما[٣].

وعلينا أن ننتبه إلى الفارق بين «نَدمٍ» و«ندم» وعلى سبيل المثال هناك إنسان قد تجرأ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التي كان عليه أن يشتري بها طعام الأسرة، وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله في انتظار الطعام ندم لأنه شرب الخمر، فهل كان ندم الرجل لأنه عصى الله، أم لأنه لم يشترِ الطعام لأهله؟ لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض، ليس من التوبة[٤]. وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض وهنا ندم لأن شرب الخمر أوصله إلى هذا الحال؛ فهل ندم لأنه عصى ربه؟ أم ندم لأنه صار هُزأة بين الناس؟ وكذلك كان ندم قابيل، لقد ندم على خيبته، لأنه لم يعرف ما عرف الغراب[٥].

هذا، وقد ذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزناً شديداً، وأنه

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مصدر سابق، ٢/ ٨٧٧.
(٣) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص٢٧٥.
(٤) تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ٥/ ٣٠٨٥.
(٥) المرجع نفسه، ٥/ ٣٠٨٥.

قال شعراً، وقوله الشعر كلام غير مسلَّم به، وأما حزنه على ابنه فأمر طبيعي[١].

٦ ـ قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]:

من مقاصد الشرائع السماوية حفظ الحياة الإنسانية، وبيان ما ينتظر القاتل من عذاب في الدنيا والآخرة، وهذا ما بينه سبحانه بعد أن ساق ما جرى بين ابني آدم، وما شرعه من شرائع تردع المعتدي وتبشر التقي.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد حكمة الشريعة وعظمة تقديرها للنفس الإنسانية وأمن المجتمع، حين بيَّنَت أن قتل النفس يعدل قتل الناس جميعاً بالعقاب، وأن إحياء النفس وحفظها يعدل إحياء الناس جميعاً بالثواب.

وخُص بنو إسرائيل في الخطاب مع أن الحكم عام، لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوباً، وكان قبل ذلك قولاً مطلقاً، ولأنهم أكثر الناس سفكاً للدماء وقتلاً للأنبياء والعلماء والمصلحين، ولأنهم عقدة الاستعلاء والكبر، وقولهم إنهم شعب الله المختار، أنشأ في نفوسهم حسداً وجرأة على الباطل وقتلاً وسفكاً للدماء، وما يجري الآن في فلسطين يصور عقيدتهم الباطلة ونفوسهم الشريرة وحسدهم واستكبارهم[٢].

أ ـ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾:

أي: من جرّاء هذه الجناية التي ارتكبها أحد بني آدم، ودلالتها على تغلغل

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مصدر سابق، ص٤٦.

(٢) خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، إبراهيم الكيلاني، ص١٢٥.

الشر في نفوس بعض الناس، واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة في كل وقت وحين، كان لا بدَّ من رادع زاجر مانع، وهو العقاب.

وقد أشار الأصفهاني إلى معنى جدير بالنظر والترديد، وهو أن الأجل هو الجناية التي يُخاف منها آجلاً، أي تكون لها عواقب على الأشخاص، أو على الجماعات، أي الجناية التي لا تنتهي مغبتها بوقت وقوعها، بل تكون لها آثار مؤجلة بعده إن لم تُعالَج تلك الآثار، وكذلك كانت جريمة أحد بني آدم، فإنها جناية قد فتحت باب القتل والقتال إلى اليوم، وهي جناية دلت على مكنون النفس البشرية من غلبة الحقد والحسد على بعض النفوس، حتى طغت على كل عناصر الخير فيها، فهي جناية آجلها وخيم كحاضرها.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا تُقتلُ نفسٌ ظلماً، إلا كان على ابن آدمَ الأولِ كفلٌ من دمِها، لأنَّه كانَ أوّلَ مَن سنَّ القتلَ**»[1]، أي إن مواجهة هذه الجناية كان بما شرعه الله تعالى من شريعة القصاص الخالدة الباقية لدفع الشر إلى يوم القيامة، وعبر عن السببية بـ «من» لبيان الابتداء في الحكم، مع كون «من أجل ذلك» دالة على السببية وتشير إلى ابتداء الحكم، وأنه مقترن بما وقع من جريمة كان لها آجل هو شر إن لم تقمع النفوس وتردع الأهواء المتغلبة الطاغية[2].

وهنا معانٍ بيانية تجب الإشارة إليها:

ـ في الكلمة السامية: ﴿كَتَبۡنَا﴾؛ فإنها تدل على تقرير العقاب وتسجيله حتى لا يقبل المحو، فإن الذي يُكتب يكون مسجلاً على القراطيس، ويبقى أثر الكتابة باقياً غير قابل للنسيان، وفيها إضافة الفرضية والكتابة إلى الله تعالت قدرته وجل جلاله وتقدست ذاته، وفي ذلك إشارة إلى عظمة المكتوب المفروض، وهو شريعة القصاص، فهي شريعة عظيمة تمد المجتمع بحياة هادئة مطمئنة، إذ تحميه من أوضاره أن تتغلغل في كيانه ومن شراره من أن يتحكموا في خياره.

---

(١) صحيح مسلم، رقم ١٦٧٧.

(٢) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٧.

ـ أن الله تعالى خص بني إسرائيل بالذكر مع أن القصاص شريعة عامة لم يخل منها دين من الأديان السماوية، بل لم تخل منه شريعة وضعية على انحراف في تطبيقه، أو إهمال في العدالة فيه، والنفوس التي انحرفت عنه في الأيام الأخيرة قد غلب عليها هواها، فغلبت عليها شقوتها، وعرّضت الجماعات فيها لأعظم المخاطر من عدوان الأشرار، فلماذا خص الله تعالى بني إسرائيل بالذكر مع أنه مفروض قبلهم ومفروض بعدهم، والجواب عن ذلك نتلمّسه ولا نجد نصاً يدل عليه، ونقول في ذلك، والله أعلم بمراده: إن التوراة فيما بقي منها هي الكتاب الذي اقترن هو والإنجيل بالقرآن زمنياً، فالقرآن جاء مهيمناً عليهما ومصدقاً للصادق منهما، فذكر بني إسرائيل دليل على أنه مفروض علينا بحكم الاقتران الزمني وبحكم أن هذا المبدأ الخالد قرره القرآن وجدده في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] (١).

ـ وفوق ذلك ما يزال هذا المبدأ باقياً في التوراة ولم يندثر فيها، مع أنهم حرَّفوا ما حرَّفوا، والأنبياء الذين سبقوا يعقوب وليست كتبهم قائمة في أيدي الناس في عصر التنزيل، كما بقيت التوراة مع تحريفهم فيها الكلم عن مواضعه وكانت شريعة القصاص باقية بعد هذا التحريف، ثم إن بني إسرائيل قد كُتبت عليهم شريعة القصاص كما كتبت على غيرهم من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك هم أشد الناس إسرافاً في قتل الأبرياء والأطهار وما أشبههم في قتلهم أنبياءهم ودعاة الحق بقابيل الذي قتل أخاه هابيل، فهو قتله لما ظهر فيه من خير، وهم قد قتلوا أنبياءهم لأنهم دعوهم إلى الخير.

ـ أن الله تعالى عندما بيّن شريعة القصاص، قد ذكر الباعث عليها،

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٨.

وحكمتها، وما يؤدي إلى تنفيذها واكتفى ببيان ذلك مكتفياً بما فصلته شرائع النبيين فيها، وما أتت به من بينات[١].

وما كتبه الله تعالى هو أن من قتل نفساً بغير حق شرعي مُبيح لقتلها، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، وقد بيَّن القرآن الكريم متى يكون القتل بغير حق مشيراً بإيجازه المعجز إلى القتل بحق، فبين أن القتل بغير حق هو ألا يكون في نظير نفس، فالقتل قصاصاً لا يكون إلا بالحق، ولكن بعد أن يقرر القضاء أنه يجب القصاص أو يُمكِّن وليَّ الدم من القصاص، وكذلك القتل لمنع الفساد في الأرض، كقتل الذين يعتدون على الجماعات المؤمنة ويرهقونهم في تدينهم، أو من يرتدون ليفسدوا عقائد المؤمنين، أو الزنادقة الذين يفسدون العقائد، أو أهل الدعارة والفساد من أهل الحرابة الذين يخرجون على الجماعات ويحاربون النظم التي قرّرها الشرع الشريف، وهكذا فإذا كان القتل لغير هذين الأمرين فهو قتل بغير حق، ومن فعل ذلك فكأنما قتل الناس جميعاً.

ولقد تكلم العلماء في معنى هذا التشبيه وكيف يكون قتل الواحد بغير حق مشابهاً لقتل الناس أجمعين، قال بعض العلماء: إن المراد نفس الإمام العادل، وذلك لأن قتل الإمام العادل الاعتداء فيه ليس على شخصه وحده ولكن على كل من يسعدون بحكمه ويظلِّلُهم عدله، فمن قتله فكأنما قتلهم، إذ يصير أمرهم بوراً من بعده وتضطرب أحوالهم، وذلك قتل للجماعة، لأن تفريق الجماعة وحل رباطها هو موت لها، ومع سلامة ذلك التفكير، فإن قصر القتل المفسد على قتل الإمام لا دليل عليه، ولذلك كان الأولى التعميم بدل التخصيص، والإطلاق بدل التقييد، إذ لا دليل من مخصص أو مقيد، فالأولى هو تفسيرها بالعموم، ويبقى مع ذلك التشبيه سليماً، لا شبهة فيه، ووجه الشبهة الذي جعل قتل النفس

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٨.

الواحدة كقتل الناس جميعاً يكون من عدة نواحٍ[(١)]:

ـ **الأولى**: أن من قتل نفساً فقد استباح حق الحياة المصون المحترم الذي حماه الإسلام، ومن استباحه في نفس واحدة فقد استباحه في نفوس الناس جميعاً، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير فقال في تفسيره للقرآن العظيم: من قتل نفساً واحدة بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، وعن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئتُ لأنصرَكَ، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: من استحل دم امرئ فكأنما استحل دم الناس جميعاً، ومن حرّم دم امرئ فكأنما حرم دماء الناس جميعاً.

ـ **الثانية**: أن وزر من قتل نفساً واحدة كوزر من قتل ألفاً.

ـ **الثالثة**: أن عقاب قتل نفس كعقاب قتل الأنفس، وهو في الدنيا بالقصاص العادل، وفي الآخرة بعذاب جهنم كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا** مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣][(٢)].

ب ـ ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾:

في هذا النص السامي نتكلم على أمرين:

أولهما: معنى إحياء النفس.

وثانيهما: معنى تشبيه من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً.

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٢١٤٠.

أما الجزء الأول وهو معنى الإحياء، فقد ذكر العلماء له معاني كثيرة، منها إحياؤُها بمعنى تحريم قتلها ومنعُ انتهاك حرماتها، ولكن ذلك أقرب إلى المعنى السلبي، اللهم إلا أن يُقال: إنه كفَّ نفسه عن ذلك الفعل الأثيم عندما تساوره قوة الشر دافعة حاملة له، فإن الكف حينئذ ليس عملاً سلبيّاً، بل هو عمل إيجابي. ومنها أن معناها: من أنقذ إنساناً كان مشرفاً على الهلاك في حرق أو غرق، أو مصاولة إنسان أو حيوان، فإن ذلك إحياء له. ولكن مع سلامة هذين المعنيين لا يمكن أن يكون تشبيه من يفعل ذلك سلباً أو إيجاباً بإحياء الناس جميعاً واضحاً، لأنه إحياء لفرد، اللهم إلا أن يُقال إن مجرد حماية حق الحياة أو احترامه في فرد هو احترام أو حماية له في الناس أجمعين.

ولقد قال بعض المفسرين: إن المراد بإحياء النفس حماية نفس الإمام ومعاونته على دفع شرور البغاة والخارجين عليه، وإن ذلك يعني أن قتل النفس الذي يكون قتلاً للجميع هو قتل الإمام، وقد بينّا أنه خِلاف الأَوْلى.

والحق الذي نراه أن المراد بإحياء النفس هو بالتمكين من القصاص، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فإحياء النفس المقتولة بالقصاص لها ممن اعتدى عليها وقتلها. وقد وجدنا الآلوسي ذكر ذلك الرأي فقال: وقيل المراد، ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما. . . إلخ[١].

وبهذا يتبين بوضوح الأمر الثاني، وهو أن من أحيا نفساً قد قُتلت بالتمكين من القصاص لها فقد أحيا نفوس الناس جميعاً، بأن يوجد الردع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار، وهذا ما أشار إليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ. . ﴾ [البقرة: ١٧٩][٢].

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٤١.
(٢) المرجع نفسه، ٤/ ٢١٤١.

ج ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل لبني إسرائيل يُبيِّنون لهم الحقائق التي يقوم عليها بناء المجتمع السليم، الذي تُحمى به الدماء والأعراض، والفضيلة الإنسانية، والتي تشتمل على ما كتبه الله تعالى من أجل اعتداء أحد بني آدم على أخيه من غير ظلم وقع منه ولا باعث على ما ارتكب إلا الحسد والحقد. وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات، وهي الشرائع البينة الواضحة التي تحمل في نفسها دليل صلاحها، وتوضح غاياتها ومراميها، ومعها الدليل القاطع المثبت لصحة الرسالة من معجزات باهرة وخوارق صارخة، وقد أكد سبحانه بعث هؤلاء الرسل وسلامة ما يدعون إليه بمؤكدات ثلاثة:

أولها: باللام و«قد»، إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾، وقد مؤكدة للخبر، واللام مؤكدة لما بعدها.

وثانيها: بالتعبير بأن الرسل جاءتهم، أي لاصقوهم وصاروا قريبين منهم يخاطبونهم ويحاجُّونهم ويُبيِّنون لهم، ولا يَدَعون أمراً فيه التباس إلا أزالوا لبسه، ومنعوا الاشتباه عليهم.

وثالثها: أنه سبحانه أضاف الإرسال إلى ذاته العَليَّة، وفي ذلك بيان قدسية الرسالة، وفوق ذلك هي في ذاتها فيها حقائق واضحة منيرة للحق، فلها بذلك شرفان:

- شرف ذاتي من حقائقها.
- وشرف إضافي من مُنزلها.

ولكن الآيات والنذر إنما تُغني من يُذعنون للحق ويؤمنون بالبينات مهما تكن نيّرة، لا يدرك نورها إلا ذو البصيرة المستنيرة، وليس بنو إسرائيل من هذا الصنف[1].

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/ ٢١٤٢.

د ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾:

كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ الإشارة إلى بُعدِ ما بين البينات الواضحات التي جاءت بها الرسل، ونتيجتها في قلوبهم، فهي في ذاتها أمر بيّن، ولكن نتيجتها لم تكن كحقيقتها طيبة مثمرة في قلوبهم، بل كانت كالبذر الطَّيِّب يُلقى في أرض سبخة لينبت قليلاً، ويخرج حطباً[١]، في أكثرها. ولم يحكم سبحانه على اليهود جميعهم بأنهم كانوا جميعاً مفسدين، بل حكم على كثير منهم ذلك الحكم، كما قال تعالى: ﴿. . مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقد وصف سبحانه وتعالى كثيراً منهم بأنهم مسرفون، أي مفسدون لأنهم قتلوا المصلحين وعصوا أوامر الله، وعاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الشر في العالم حتى إنك لا تجد فساداً إلا كانوا مصدره، فهم الذين نشروا الربا والمجون والعبث والخمور، وكل ما هو شر في الأرض، والإسراف: هو الفساد مأخوذ من السُّرفة وهي: الدودة التي تأكل الشجر، والإسراف حتى فيما أصله خير يقلبه إلى شر وفساد. وقد أكد الله تعالى إسراف اليهود في الشر بـ ﴿إِنَّ﴾ وباللام في قوله ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾، وبالجملة الاسمية. . وقى الله المسلمين شرَّهم وألبسهم لباس الذل والخوف إلى يوم القيامة، وهدانا الله جميعاً للخير، إنه الهادي إلى قصد السبيل[٢].

لقد كان هذا الحدث في قصة آدم عليه السلام فاتحة لتشريع إلهي أكّدته جميع الرسالات اللاحقة، وخُصّ بالذكر بنو إسرائيل، ويلاحظ أن تذكير القرآن الكريم بهذه الجريمة وتهويل أمرها وربطها ببعد عالمي إنما هو تأكيد لقيمة الكرامة الإنسانية وحق الإنسان في الحياة دون اعتداء على الغير. فالاعتداء على حياة أي

---

(١) تفسير أبو زهرة، مصدر سابق، ٤/٢١٤٢. انتفاخ بطون الماشية من الأكل ولا يخرج ما فيها.

(٢) تفسير أبو زهرة، ٤/٢١٤٣.

فرد إنما هو اعتداء على جميع الناس، واعتداء على آدمية الإنسان وتكريم الله له، والعكس كذلك، فإن أي إحياء للإنسان من مظلمة أو مهلكة إنما هو إحياء لكل الناس. وفي هذا البعد تكريس للوحدة الإنسانية المتعالية على أي بعد آخر، وبهذا تكون حقوق الإنسان في الحياة التي هي من فطرته وتكوينه قد تجلَّت مع أول وحي سماوي، وبلُغة بليغة ذات بعد عالمي يمتد مع امتداد الزمن واستمرار الإنسان.

وفي هذه القصة تجلَّت لنا معان، ومعطيات تشريعية وأخلاقية، سترافق الإنسان مع سائر التشريعات، فنجد المعاني والمفاهيم الآتية:

- التقوى.
- الحسد.
- مخافة الله.
- الآخرة.
- الجزاء.
- الظلم.
- التوبة.
- الندم.
- تحريم القتل وتهويله[١].
- تكريم الإنسان بالدفن... إلخ.

وقد لوحظ من هذا النص التأكيد على أن المرحلة الآدمية كانت تشتمل على وحي سماوي، وهذه الحقيقة قد اتضحت من خلال قصة آدم عليه السلام

(١) رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، مصدر سابق، ص٥٤.

وما نزل عليه من هدايات السماء وتربية أبنائه عليها وتبليغهم إياها، وتتجلى في منهج تلقِّي التشريع الإلهي الذي بدأ مباشرة في المرحلة الآدمية الفردية يتطور مع المرحلة العائلية بالأحكام المتعلقة بالحضارة الإنسانية الأولى، من معرفة أحد ولدي آدم بقبول قربان أخيه دون قربانه. وبالنظر إلى رسالة آدم في جوهرها العام يلاحظ أن الرسالة الآدمية إنما تمثل مروراً من الزمان الطبيعي إلى الزمان التاريخي، والذي تأسست به المؤسسة الأسرية في مدلولها الخلقي والروحي، وتحويل العلاقة الجنسية إلى علاقة تعاقدية تنبني عليها الحضارة الأسرية[١].

فأهم ما يمكن أن نُجمِل به دعوة آدم عليه السلام هو التأكيد على أن لفظ «آدم» يختزل لغةً ومضموناً الإنسانية كلها، ومن ثم فهو متعال على الزمان والمكان، بل يربط الأسس جميعاً ويشدها إليه كأصل واحد ينبغي ألاّ يتنازل عنه في تأسيس العلاقات وبناء الحضارات[٢].

ثالثاً: وفاة آدم عليه السلام والرحيل:

عاش آدم عليه السلام وفيّاً للرسالة الربانية، ووفيّاً للخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، وداعياً إلى حقن الدم ومنع الفساد والوفاء لتعاليم الله عزَّ وجلَّ، واقترب الرحيل من الحياة الدنيا، وحان وقت الأجل والمغادرة، والموت هو نهاية المطاف لجميع الخلق في الدنيا، وهذه سنة الله في خلقه، فالموت مقدّر في اللوح المحفوظ منذ خُلق الإنسان، فإذا جاءت ساعة الإنسان جاءته المنية ولو كان في بروج مشيدة، قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]، فحينما يأتي الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

فالموت هو الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، وهي حياة ما بين

---

(١) رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، المرجع السابق، ص٥٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٥٥.

الموت ونفخة الصور، فعندما انتهى أجل آدم وانتهت مهمته التي خُلق من أجلها، وبعد أن سلّم الراية إلى ولده من بعده، وبعد ما تناسلت ذريته وتكاثرت، وأُنزلت إليها الصحف، جاء أجل آدم لينتقل إلى حياة أخرى(١)، وفي وسوسة إبليس لآدم إغراء بالخلود، وهو ما يشير إلى أن آدم ورد إليه هاجس الموت والفناء.

هل هي الفطرة المحضة وإدراك آدم لطبيعة تركيبه المادي المجوَّف المعرّض للمخاطر؟ أم بناه على حالة النوم التي تتغشاه وزوجه و«النوم أخو الموت»؟ أم أراه الله تعالى مصير الغابرين؟

أيّاً ما كان فقد رأى آدم وحواء مصرع بعض بنيهم في قصة قابيل وهابيل، وفي قصة المولود الذي خرج من بطن حواء خديجاً أو ميتاً، كما في الروايات المسوقة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

خلق الله آدم للخلود، فالأرواح باقية والموت عبور إلى مرحلة جديدة، وليس عدماً ولا فناء محضاً، والرغبة في الخلود مغروسة في جِبِلَّة آدم وأمنية له ولولده، ولكن بصيغة أخرى تستشعرها الروح لأنها من شأنها. عاش آدم ألف سنة كما تواردت على ذلك النصوص(٢)، وقيل غير ذلك.

وفي القرآن عن بعض أهل الكتاب: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ربما كانت الأمنية مبنية على ما في كتبهم من عمر آدم عليه السلام، ويبدو أن ثمَّ تناسباً بين أعمار البشر وأعدادهم، حين كان الناس قليلاً كانت تطول أعمارهم، ثم لم يزل الخلق ينقص بعد.

لم يخلق الله الخلق الأول ليعيش في الجنَّة أو في الحياة إلى الأبد، والموت

---

(١) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مصدر سابق، ص١٧٥.
(٢) علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص٢٩٥. الترمذي: رقم ٣٠٦٨.

ليس لعنة على الأبوين بسبب الخطيئة، فالروايات الكتابية تُسرف في وصف حزن آدم وحواء وعجزهما عن التكليف مع الكون والحياة ورغبتهما الملحة في الموت والرحيل، كما ورد فيها أن آدم قال: يا رب خذ روحي ولا تدعني أرى هذا الظلام... خارت قواي ولا أريد أن أعيش في هذا العالم ولا أعرف متى تأخذني حتى أستريح(١).

وسياق القرآن سهل واضح، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ثمّ استقرار واستمتاع وجمال وانسجام مع مهمة العمارة والعبادة والبناء والخلافة في الأرض، ونسيان آدم للسنين التي أعطاها لداود من عمره، ومواجهته لملك الموت حسب الروايات، تأكيد واضح لانتمائه للحياة ورغبته في أن يعيش مزيداً من السنين لأنه مفطور على حبِّ ذلك، فكراهية الموت فطرة حتى في الحيوان فضلاً عن الإنسان و«**خيركم: من طال عمره وحسُن عمله**» (٢)، «**ولا يزيد المؤمنين عمراً إلا خيراً**» (٣).

والعمر الذي يمنحه الله للعبد فرصة للعمل وميداناً للسباق وسبباً لنمو التجربة ونضجها وإتقانها وتدارك أخطائها ومواطن ضعفها واتضاح الرؤية وجلائها: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

قد يعمر المرء حين يكتمل إنجازه وتضعف قوته ويشيخ ويفقد متعة العيش ويشتاق للقاء الله، فيدعو كما دعا عمر رضي الله عنه: «اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيّتي، فاقبضني إليكَ غير مضيِّع ولا مُفرّط» (٤).

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، المرجع نفسه، ص٢٩٥.

(٢) السلسلة الصحيحة: رقم ١٨٣٦.

(٣) صحيح مسلم: رقم ٢٦٨٢.

(٤) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص٢٩١.

وقد يعاني من اضطراب من حوله، وتفاقم مشكلاتهم، وتفرق أهوائهم، فيدعو كما دعا عليٌّ رضي الله عنه: «اللهم إني قد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملّوني، فأرحني منهم، وأرحهم مني».

وقد يهرم المرء قبل أوان الهرم ويفقد طموحه وحلمه وهو في أول الطريق، ثم شاب يريد إنجازاً سريعاً ودون تخطيط ولا تدريب فيختصر حياته في درس واحد، فحين يفشل يسرع إليه اليأس، ويتخلّى طواعية عن عمر ثمين[١].

وقبل رحيله رتّب آدم أمر خلافته، وعهد إلى أحد أبنائه من بعده بعد ما علّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية ومهارات القيادة لاستمرار الحضارة الإنسانية الأولى، مرض آدم عليه السلام وأحس بقرب الرحيل وشاركته ذاته، ودّع أهله وأولاده، وكان يردد الكلمات المباركات التي تلقّاها من ربه، التوحيد والاستغفار والاعتراف بالذنب: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][٢].

وقد ذكر علماء السير والتاريخ ما ذكره أبي بن كعب عندما قال: إن آدم لما حضره الموت، قال لبنيه: أي بني إني أشتهي من ثمار الجنَّة، فقال: فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل[٣]. فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون، أو ما تريدون وأين تطلبون؟ قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنَّة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم. فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم،

---

(١) علمني أبي آدم، العودة، المرجع نفسه، ص٢٩١.
(٢) المرجع السابق، العودة، ص٢٩٤.
(٣) هي أدوات الحفر والدفن.

فقال: إليك عني خلي بيني وبين ملائكة ربي عزَّ وجلَّ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له وألحدوا وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم. قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح إليه[١]، أي صحيح الإسناد إلى أبيّ بن كعب[٢].

وأخرج الحاكم في مستدركه عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: «**لمَّا توفيَ آدمُ غسَّلتْه الملائكةُ بالماء وتْراً وألْحدوا له وقالوا: هذه سنَّةُ آدمَ في ولدِه**»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٣].

وبموت آدم عليه السلام طويت صفحة البشرية من وجوده البدني والروحي معاً في الأرض، وأصبحت قصته معلماً للهُدى ومصباح نور تسترشد بها الحضارات الإنسانية المرتبطة بهدايات السماء.

وكانت وفاته يوم الجمعة بحديث رسول الله ﷺ: «**يومُ الجمعةِ سيِّدُ الأيامِ وأعظمُها عندَ اللهِ، خَلقَ اللهُ فيه آدمَ وأَهبطَ فيه آدمَ إلى الأرضِ وفيه توفَّى اللهُ آدمَ**»[٤]، وماتت بعده حواء بسنة واحدة، ودفنت مع زوجها في المكان نفسه[٥].

ولا تخبرنا النصوص الصحيحة عن العُمر الذي عاشه آدم، ولا عن المكان الذي توفي فيه، ولا البقعة التي دُفن فيها، فنتوقف عن الجزم في هذه الأمور من حيث التعيين والتحديد، وإنه لا مانع من ذكر بعض أقوال علماء السير والتاريخ كما مرّ معنا في عمره.

ولقد عاش آدم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: عاشها في الجنَّة، ولا نعرف مقدار سنواتها.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مصدر سابق، ١/ ٩١.
(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، أحمد العمصي، مصدر سابق، ص١٧٨.
(٣) مستدرك الحاكم: ١/ ٥٤٥.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة، رقم ٥٥١٦.
(٥) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مصدر سابق، ص١٧٦.

المرحلة الثانية: عاشها على الأرض، ولا يمكن الجزم في معرفة سنواتها أيضاً[١].

واختُلف في مواضع دفنه عليه السلام على عدة أقوال أهمها:

ـ دفن على جبل سرنديب بالهند، ذلك الجبل الذي أُهبط إليه، يُقال له جبل نوذ. وهذا الرأي مروي عن أبي صالح عن ابن عباس، وقال به الثعلبي.

ـ أنه توفي في مكة، وذلك عندما كان في الحج في تلك السنة، فدُفن في جبل أبي قبيس في غار يُقال له الكنز. وهذا الرأي مروي عن مقاتل.

ـ أنه توفي بمنى ودفن بمسجد الخَيْف. هذا الرأي مروي عن عطاء، وحكاه ابن عباس قال: وحملته الملائكة من منى إلى الكعبة، وصلَّت عليه عندها، وطافوا به، ثم ردوه إلى مسجد الخيف فدفن بها.

ـ وقيل: إنه دفن في مغارة تقع ما بين بيت المقدس وقبر الخليل. وهذا القول عن عبد الله بن أبي فراس، ورواه ابن عساكر.

ـ وقيل: إن نوحاً عليه السلام لما كان الطوفان حمله هو وحواء في تابوت فدفنهما في بيت المقدس، وقيل: بل دفنه في أبي قبيس في غار الكنز. وجميع الأقوال السابقة لا دليل عليها، والله أعلم بالصواب[٢]، ومن يدري فقد تتعرّف البشرية يوماً ما إلى قبري آدم وحوّاء عليهما السلام، ويرتفع الشك باليقين[٣].

هذا ما وصلتُ إليه بعد سير وبحث في قصة آدم عليه السلام، والفضل لله وحده، وهو ولي التوفيق، فمنه العون والسداد.

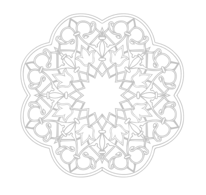
إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان؛ لأنها كانت بداية

---

(١) قصص القرآن، صلاح الخالدي، مصدر سابق، ١/ ١٤٤.
(٢) آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام، العمصي، مصدر سابق، ص١٧٩.
(٣) علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين، العودة، مصدر سابق، ص٢٩٢.

الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسفة معينة لبدء الخليقة، فجاء هذا الكتاب مفصلاً لبدء الخليقة، معتمداً على كتاب الله عزَّ وجلَّ، ومستنداً إلى المصدر الكوني الأول والأصدق كتاب الله العزيز: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

❊ ❊ ❊



الخلاصة

في خاتمة حديثنا عن قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام في سياق التفسير القرآني، ونظراً لأهمية تلك المرحلة التأسيسية ومكانتها العظيمة لدى المخلوقين كلّهم بمختلف ألوانهم وأطيافهم وألسنتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، واستمرار الجدل والنقاش الفلسفي والديني والاجتماعي والأخلاقي الطويل، والذي خاضته وتخوضه الإنسانية بمختلف اتجاهاتها وانتماءاتها الفكرية والعقائدية، وعلماء البيولوجيا والوراثة، ومراكز الأبحاث والدراسات العالمية حول تلك المرحلة منذُ القدم وحتى يومنا هذا، يمكننا أن نلخص أهم ما ورد في هذا الكتاب من أفكار ووقفات وحقائق علمية حول تلك القصة الإنبائية والإعجازية العجيبة في بدء خلق المخلوقات وميلاد الحضارة الإنسانية الأولى، والتي استندتُ من بدايتها إلى نهايتها إلى كتاب الله العزيز الحكيم الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾. وقد اعتمدتُ على تفاسيره المتعددة، كما استفدتُ كثيراً مما قاله الأولون والعلماء المعاصرون، ونهلت من مصادرهم وكتاباتهم الرصينة حول تلك الفترة. وأبرز النتائج التي وصلت إليها هي الآتية:

١ ـ أَوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ «لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله»، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزَّ وجلَّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ ﷺ بالرسالةِ. وقد عُرِفَتْ لا إله إلا الله لدى المسلمين «بكلمة التوحيد»، و«كلمة الإخلاص»، و«كلمة التقوى».

٢ ـ إن معنى كلمة «لا إله إلا الله» أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تُصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه. ومعنى شهادةِ «أنّ محمداً رسول الله»: الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بن عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ الله ِإلى جميعِ الخلقِ من الإنس والجن.

٣ ـ إن لفظ الجلالة في كلمة الشهادة «الله» عزَّ وجلَّ، هو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عندَ قومٍ، وهو أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة. و«الله» هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف ألسنتهم. و«الله» هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية. وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلَّق به أحدٌ سواه، ولا يُطلَق على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

٤ ـ إن لكلمة «لا إله إلا الله» فضائل جمة وردت في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ. فقد وُصفت في القرآن الكريم بالكلمة الطَّيِّبة، والقولِ الثابتِ، والعروة الوثقى. وأنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشِّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. كما ورد فضلها في السنة المشرفة، فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، وأن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، وأنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب.

٥ ـ إنّ ذكرَ الله ِمن أفضل العباداتِ المقرِّبةِ إلى الله ِتعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسّرهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرء: لا إله إلا الله. وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه ﷺ أنَّه قال: «أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله».

٦ ـ إنَّ الولاءَ والبراءَ مِنْ لوازِم لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال

رسول الله ﷺ: «**أوثقُ عُرا الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله**».

٧ ـ إن لكلمة «لا إله إلا الله» آثاراً عظيمة في حياة المؤمن بها، فهو لا يكون ضيّقَ النظر بخلاف من يؤمن بآلهة متعددة أو من يجحد الألوهية والوحدانية، والإيمان بهذه الكلمة يعطي المؤمن بها من الأنفة وعزة النفس ما يجعله لا يخشى إلا الله، فينشأ عنها ترفُّعٌ من غير كِبْرٍ، وتواضعٌ من غير ذلٍّ، والإيمان بهذه الكلمة يُربِّي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، فلا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط.

٨ ـ إنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثِّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً من غيرِ مؤثِّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

٩ ـ من أدلة وجود الخالق دليل الخلق، فالخلقُ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]. ودليل الفطرة والعهد، وهو الذي دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

١٠ ـ من الأدلة على وجود الخالق دليل آياته في الآفاق، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقد أثبت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدل على آيات الله في الآفاق، كنقص الأوكسجين في المرتفعات، وحركة النجوم والكواكب في مداراتها، ودوران الأرض والجبال، والحاجز بين

البحرين المالحين، واهتزاز الأرض وزيادتها بالمطر، وغير ذلك.

١١ ـ إن من أعظم الأدلة على وجود الخالق هو دليل الأنفس، فلما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقُه وبارئُه ومصوّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرة ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

١٢ ـ إن من الأدلة على وجود الخالق سبحانه دليل الهداية، والهداية المقصودة هي إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه. فمن أسماء الله الحسنى «الهادي»، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

١٣ ـ إن انتظام الكون وعدم فساده، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباطَ بعضِه ببعضٍ، وجريانَه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، هو أقوى دليلٍ على وجود الخالق ووحدانيته، قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤ ـ إن من الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته دليل التقدير الذي يبدو في كلّ ما خلقَ الله عزَّ وجلَّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ودليل التسوية وهو إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهياً لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستوياً معتدلاً متناسبَ الأجزاء، بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها، قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].

١٥ ـ يُعتبر الترابط الهادف بين بلايين أجزاء الكون دليلاً باهراً على وجود الله، وهو ترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، فإنَّه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف، فيه القصد وفيه الغاية، إذ إن كل شيءٍ له

غاية، وسمِّي أيضاً «دليل القصد»، وذلك أن كل ما في العالم مقصود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، ومن أجل ذلك اعتُبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سُمِّيَ هذا الدليل أيضاً «الدليل الغائي».

١٦ ـ غاص القرآن الكريم بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون، وهو إشارة إلى دليل على وجود الخالق يُسمَّى «دليل العناية»، وهو كون الله سبحانه معنيّاً بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه، يقول سبحانه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

١٧ ـ إن من أسماء الله اسم «الظاهر»، فالله سبحانه وتعالى ظاهر ظهوراً واضحاً، فهو أظهر من كل ما سواه. والمؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه، وصفاته، وعلاماته، فكل الكون يدل على الله أبداً، لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف على الله من خلاله، ولو لم نستفِد منه.

١٨ ـ الناس في كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده، كما أنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد. ولذلك فقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

١٩ ـ يُصوّر الفكر الغربي المادي الحديث بداية الخلق كبداية غامضة أو هلامية، حيث جاء تفسير بداية خلق الإنسان بعيداً عن الدين فيه، وذلك تبعاً للفكر الاجتماعي والتربوي الإنساني الذي ينطلق من النظرية المادية الملحدة التي ترفض الدين والإيمان بالله وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

٢٠ ـ إن الله سبحانه وتعالى هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**».

٢١ ـ أقام الله عزَّ وجلَّ الحجَّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم التي تصبُّ في الإلحاد والشرك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧]. فهذه الآية تنفي مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق خالقه واحد.

٢٢ ـ إن أخطر شبهة يلقيها الشَّيطان على ابن آدم، ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، هي وسوسة الشَّيطان في مسألة الخلق، فالتفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخل من مداخل الشَّيطان ووسوسته، ولذا نبه لها النبي ﷺ حتى لا يقع فيها المسلم، فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يَبرحَ الناسُ يتساءلون حتى يقولوا: هذا اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، فَمَن خَلقَ الله؟ فإذا بَلَغَه فَليَستَعذْ به وَليَنتَهِ**».

٢٣ ـ إن الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال، وهو المتفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يرجع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فالمرجع والمرد إليه سبحانه. وأما التنزيه: فوصفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه.

٢٤ ـ تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات

الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

٢٥ ـ من أسماء الله الحسنى «الغني» وهي صفة لله سبحانه وتعالى، فهو لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد. قال تعالى: ﴿ ۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

٢٦ ـ قضت إرادة الله تعالى بأن يكون الخلق في أوقات متفاوتة، فهو سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه.

٢٧ ـ إن ثنائية الخلق دليل على وحدانية الخالق عزَّ وجلَّ، فالله سبحانه خلق كل نوع وجنس من الخلق من زوجين، قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، فجعل ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق سبحانه.

٢٨ ـ إن الخلق والوجود لم يُخلق عبثاً، وإنما كان بقصد وحكمة ولغاية إلهية، فالله عزَّ وجلَّ ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩].

٢٩ ـ لا يوجد إجماع واتفاق على أي المخلوقات قد خُلق أولاً؟ فمصدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وما فَهمه أهل العلم منهما، ذلك أن الحقيقة المجردة تقول إنه لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات

وتوقعات، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

٣٠ ـ إن أول المخلوقات وأعظمها العرش والكرسي، فعرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفية وأعلاها مكاناً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم؛ فيُقال: «عرش الرحمن»، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. والكرسي خلق عظيم وهو بعد العرش في عظمة الخلق، فهو يسع السماوات السبع والأرضين السبع معاً في الخلق والحجم، قال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

٣١ ـ الماء من أول المخلوقات وجوداً، فهو سر الحياة ومنبعها، ولذا فهناك من العلماء من قال بأن الماء أول المخلوقات، فقد خُلق قبل العرش، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وفيه إشارة إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء.

٣٢ ـ من آراء العلماء في أي المخلوقات خُلق أولاً، أن بعضهم قال القلم، وقد استندوا في ذلك إلى حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «**أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**». والمقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سبحانه وتعالى في بدء الخليقة أن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه.

٣٣ ـ اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ من أن ينفُذ إليه أو يغير ما فيه من حكم أو قضاء أو قدر. والقرآن الكريم

محفوظ في اللوح منذُ الأزل، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

٣٤ ـ الزمان من مخلوقات الله العظيمة، نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، والوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال. والزمان كان مخلوقاً ومقدراً منذُ بداية الخلق، وقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم لتؤكد هذه الحقيقة، وقد بيَّن الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

٣٥ ـ الأرض من أعظم مخلوقات الله تعالى، وقد خلقها قبل السماوات، فخلقها وقدر فيها الأقوات في أربعة أيام، ودحاها فأخرج منها الماء والمرعى، وأرسى فيها الجبال، وهي سبع أرضين كمثيلتها من السماوات كما صرح النص القرآني، وهي كروية أيضاً بمقتضى الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾ [الزمر: ٥].

٣٦ ـ إن الجبال خلق من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر من أربعين موضعاً؛ فتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها. فالجبال خُلقت بعد الأرض، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣٢]. وقد وصفها الله بأنها رواسي وأوتاد، فهي خلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقد دلت النصوص القرآنية على أنها تعبد الله تعالى فتسجد له وتسبحه وتخشع له، كما أنها تغضب وتخشى وتهتز.

٣٧ ـ تكرر حديث القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض في عديد من المواضع، فقد أشار إلى أن السماوات والأرض كانتا ملتصقتين في رتق واحد،

وأن الله خلق السماء بغير عمد فجعلها سقفاً للأرض، وهيأها لعباده، فمنع سقوطها على الأرض وأحكم بناءها، فجعل الله السماوات على قدر من العظمة بما لا يحيط به وصف، ولا يدركه حسٌّ، وذلك كله لتكون موضع عبرة ومحل تدبر وتفكر لعباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

٣٨ ـ خلق الله الشمس والقمر ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، وليميز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦].

٣٩ ـ خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]. ففي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبُّر والاعتبار بتصرم الأيام وتبدل الأحوال، وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار.

٤٠ ـ إن النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، فالنجوم خلق جميل بلألائه بديع بنوره، أقسم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ زينة للسماء، وهداية للسائرين، ورجوماً للشياطين، وذكر سجودها لربها وخضوعها لسلطانه، فأقسم الله بها، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥]. وقد بيَّن الله سبحانه الحكمة من خلقها، فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ

لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

٤١ ـ إن الله تعالى خلق الهواء، عنصراً أساسيّاً من عناصر الحياة، فالهواء محيط بالأرض، وفيه يتنفس الإنسان والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النبات في حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش دونه.

٤٢ ـ خلق الله تعالى الرياح وسخرها، فهي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والرياح قوة من قوى هذا الكون وجند من جنوده، وذكرها في مواضع للتعبير عن رحمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٤٣ ـ إن من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سبحانه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢ـ١٣].

٤٤ ـ بدأ خلق النبات في الأرض في مرحلة الدحي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١]، فمعنى الدحي هو إخراج الماء والمرعى وتمهيد الأرض للأقوات. وللنبات منافع جمة للعباد في أنواعه وأشكاله وطعومه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ

وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ ـ ١١]، وكما أن النبات للعيش والأكل فهو للبهجة والجمال والسرور، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

٤٥ ـ الأشجار رمز للجمال، وتعتبر من أهم الزينة التي تتزين بها الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم، وأهمها شجرة النخيل التي قال الله تعالى في وصفها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

٤٦ ـ ذكر الله شجر الزيتون والتين في كتابه العزيز في معرض الحديث عن خلقه للنبات، قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣]. وفي القَسَم بالتين تأكيد لتميز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مفيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفر لغيره من النباتات. وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنواعاً أخرى من الأشجار كشجرة اليقطين وشجرة المراعي وغيرها.

٤٧ ـ إن من مظاهر القدرة والجمال في خلق الأشجار تنوعها واختلاف ألوانها وتنوع ثمارها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٤٨ ـ خلق الله تعالى الظلال لتقي الإنسان حر الشمس، ويتقي بها لهيبها وشعاعها، ويستبرد فيها، كما أنها وسيلة توقيت يعرف بها الإنسان مراحل النهار. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

٤٩ ـ إن أول ورود لقصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم هو في سورة البقرة في الآيات (٣٠ ـ ٣٩)، وقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً من بعد جيل إلى ما شاء.

٥٠ ـ إن في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨ ـ ٢٩]، استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم وهي كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم قبل أن يخلقهم، وأنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة، وأنه يُميتهم بعد هذه الحياة، والرابع منتظر موعود به وعد الحق، وهو أنه تعالى يُحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

٥١ ـ افتتح الله عزَّ وجلَّ الحديث عن قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة بذكر اسم من أسمائه الحسنى، وهو «الرب» سبحانه، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذا الاسم من أعظم أسماء الله الحسنى، وعامة ما جاء هذا الاسم مضافاً إلى الخلق عموماً أو خصوصاً، مثل: رب العالمين، رب السماوات والأرض، رب العرش... ونحو ذلك. وقد ورد في القرآن الكريم في أكثر من (٩٠) موضعاً، فهو من أعظم

الممادح التي مجد الله تعالى نفسه بها، وهو من أكثر الأسماء التي يُدعى بها الله عز وجل.

٥٢ ـ «الملائكة» هم أجسام عُلوية قائمة بأنفسها، قادرة بالقدرة الإلهية على التشكّل، ذوو قدرات خارقة لا حصر لها، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، مقرّبون طائعون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء. والذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أن الملائكة خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، خلقهم لعبادته كما خلق الجن والإنس. وعالم الملائكة عالم كريم طاهر، اصطفاه الله في الدنيا لقربه ولتنفيذ أوامره الكونية والشرعية، وجعل الله الملائكة رسله وسفراءه إلى خلقه لإبلاغ وحيه.

٥٣ ـ إن الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد ولا يُقبل إلا بتحقيقها، والقرآن الكريم أمر بالإيمان بهم وحذر من الكفر بهم، وبيّن أحوالهم مع الله ومع الناس. فتارة يقرن اسم الله عزَّ وجلَّ باسمهم ويجعل الإيمان به مستلزماً الإيمان بهم. والإيمان بالملائكة يتضمَّن عدة أمور وأهمها: الإقرار بوجودهم وأنهم من خلق الله وأنه خلقهم لعبادته، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله وإثبات أنهم عباد الله تعالى، والإيمان بما ورد بحقهم في الكتاب والسنة وبمن سمَّى الله لنا منهم كجبريل وميكائيل.

٥٤ ـ إن الإيمان بالملائكة له أهميته في حياة الإنسان، ولذلك جاء ذكرهم في بداية قصة آدم عليه السلام، وأخذت حيزاً من الحديث الرباني عنها في كتاب الله عز وجل؛ فللإيمان بهم في حياة المسلم آثار عظيمة، فهو يقوي شعور المسلم بعظمة الله عزَّ وجلَّ، ويحقق ركناً من أركان الإيمان، كما أن الإيمان بالملائكة يؤدي إلى الحصول على الطمأنينة والأمن في الدنيا وفي الآخرة. وإن هذا الإيمان يدفع الإنسان للتشبه بهم في الإقدام على الطاعات والابتعاد عن

المعاصي، وهو يدفع الإنسان للاستحياء من الله تعالى والبعد عن معصيته في السر والعلن.

٥٥ ـ إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يدل على أن هذا الخليفة ستكون إقامته في الجنَّة مؤقتة؛ لأنه لم يُخلق للإقامة فيها في الفترة الأولى من حياته، إنما خُلق ليكون خليفة في الأرض، وليسكن في الأرض وليعمرها ويصلحها.

٥٦ ـ وردت كلمة «خليفة» في الاستعمال القرآني بالمفهوم الحياتي البنائي الشامل، فمهمة الإنسان عمارة الأرض، ولهذا خُلق: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. و«الخلافة» لا تكون إلا حين يكون هذا الكائن يخلف بعضه بعضاً في عبادة تراكمية اختيارية، تقوم على تلك الأمانة العجيبة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها فحملها الإنسان، فهي تقوم على حرية إرادة هذا الكائن وحرية اختياره. وإن الخلافة والاستعمار في الأرض تجعل الكشف والبناء والعلم والاختراع لخدمة الإنسانية مهمة ربانية وليست أمراً هامشيّاً أو ثانويّاً. وعليه فالاستخلاف هو عمارة الأرض بحسب نظام الله، وإنها تكليف معرفي وإنساني واسع. وليس المقصود بالخليفة شخص آدم فقط، بل المقصود به نوع الإنسان عامة، والاستخلاف في هذا المقام هو استخلاف تشريف للخليفة.

٥٧ ـ إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يؤكد على أن أصل البشرية كلها من زوج واحد خلقه ربنا تبارك وتعالى خلقاً خاصاً بـ «الخليفة»؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم. وقد طمرت الحضارة المادية المعاصرة حقيقة الخلق الخاصة بالإنسان هذه تحت ركام فكرة «التطور العضوي»، وهي فكرة أشاعها عدد من شياطين الإنس للتخلص من الإيمان بالخلق والخالق عزَّ وجلَّ. غير أن ربنا تبارك وتعالى

أكد حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفسٍ واحدةٍ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

٥٨ ـ إن علم الوراثة يردُّ جسد كل واحد منا ومن الآباء والأمهات بالتسلسل الزمني حتى يصل بكل واحد منهم إلى خلية تناسلية من أبينا آدم وأخرى من أمنا حواء، ولما كان علم الوراثة هو من أحدث المعارف المكتسبة، فإن سَبْقَ القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة يُعدُّ واحداً من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله، الذي أكد حقيقة وجود بني آدم جميعاً في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأكد القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٥٩ ـ إن علم الوراثة الحديث قد هدّم كل أسس النظرية الداروينية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تُورِّث الفروع المتفرعة عنها كلَّ ما تحمل من خصائص بوساطة الكروموسومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً.

٦٠ ـ إن الحكمة من خلق الإنسان حدَّدها ووضع معالمها الله سبحانه وتعالى، فالحكمة سابقة على الخلق، وقبل أن يبرز آدم عليه السلام من العدم إلى الوجود بيَّن الله تعالى الحكمة من وراء خلقه؛ ألا وهي الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠]. وإن مفهوم الخلافة يدخل في السياسة، والاقتصاد، والحياة الاجتماعية، والرياضية، والفنية، والأدبية والشعرية، وفي كل نواحي الحياة.

٦١ ـ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، دليل على أن الملائكة كانوا على علم بأن مراد الله من خلق الأرض

وأهلها هو الصلاح لا الفساد، والطاعة لا المعصية. وعليه فلم يكن هذا الاستفهام من الملائكة اعتراضاً على الله فيما أراد من خلق هذا المخلوق، كما أنه لم يكن حسداً من الملائكة لآدم عليه السلام. وإن استفهام الملائكة لا يمكن أن يكون إنكاريّاً، وإنما أرادوا أن يعرفوا الحكمة من استخلاف آدم؛ من باب العلم وزيادة اليقين، فسألوا الله عن ذلك من باب «الاستفهام».

٦٢ ـ الإفساد وسفك الدماء من أسس تعمير الأرض ومن لوازم الخلافة فيها، وهي ضريبة لا بدَّ منها؛ لأن الناس عندما يُستخلفون على الأرض سيختلفون ويتنازعون، وسيتصادمون ويتقاتلون، وستتعارض مصالحهم وتتصادم أهواؤهم، كلٌّ يريد ما يُحقِّق مصلحته وشهوته وهواه. والذي سيُفسد في الأرض وسيسفك الدماء ليس هو الخليفة الأول آدم أبا البشر عليه السلام، لأنه نبي صالح مصلح، إنما سيحصل ذلك من الكثير من ذريته، وهم الكافرون الظالمون.

٦٣ ـ إن في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، إشارة إلى ثلاثة معانٍ تعبدية تقوم بها الملائكة وهي التسبيح والحمد والتقديس. والتسبيح هو تنزيه ذاته سبحانه وتعالى من كل نقص، وتنزيه صفاته من كل سوء وذم، ومن مماثلة صفات المخلوقين. وقد اقترن الحمد بالتسبيح في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وذلك أن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى. وهم يقدسون الله وذلك باعتقاد صفات الكمال المناسبة لذاته العليّة.

٦٤ ـ إن علم الله المقصود في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هو علمه بالظواهر والسرائر، وعلمه أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، وليظهر ما كمن في غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان، وليتبين

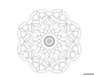
عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، لكفى، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

٦٥ ـ قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، فالله تعالى علّم آدم أسماء الأشياء وألهمه توليد الأسماء وفكرة التسمية ذاتها، وأعطاه القدرة على ابتكار الأسماء المناسبة للأشياء، فعلمه أسماء كل شيء بما فيها أسماء الذوات والأفعال. وبث الله في آدم عليه السلام من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن، ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض. وقد يكون هذا الاستعداد الفطري عاملاً شاملاً لجميع أفراد النوع الإنساني، كما في قوله سبحانه: ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

٦٦ ـ إن العقل هو الأداة الأساسية في التعلم والتعليم. وإن الميزة الأولى التي منحها الله تعالى لأبينا آدم عليه السلام هي الرغبة في التعلم، فكان آدم عليه السلام مزوّداً بملكة التفكير والنظر والتحليل والفهم والفقه واللغة. وفُضّل آدم بالعلم، ولذا سجدت له الملائكة، وفُضّل بنو آدم بعضهم على بعض بالعلم أيضاً. ولذلك فالأفراد كما الأمم يجب أن يقيسوا من أصلهم الأول ديمومة التعلم والتعليم، وطلب الزيادة من العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ [طه: ١١٤].

٦٧ ـ العقل نعمة أنعم الله بها على آدم وزوجه عليهما السلام وذريتهما وعلى الجنس البشري، وهو موهبة وهبها الله الوهاب، وهي من الأدوات الإنسانية الرفيعة التي أكرم الله بها الإنسان في معرفة كليات الوجود ونواميس الكون وموقعه منها، فالعقل وسيلة الإنسان لإدراك الوجود، والعقل الإنساني أداة الإدراك الأساسية وأداة الفهم والنظر في ملكوت الله والتلقي من وحي الله، والتمييز والموازنة بين الأشياء.

٦٨ ـ اختلف العلماء في سبب تسمية آدم عليه السلام بهذا الاسم، فمنهم من قال بأنه سُمِّيَ بآدم لأنه خُلق من أدمة الأرض، ومنهم من قال لأنه مشتق من



السمرة من لونه، ومنهم من قال بأنه سُمِّيَ بآدم لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرقة، وأما الفريق الرابع فقالوا بأنه سُمِّيَ بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخة فيه، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، غير أن أكثر العلماء رجحوا رأي الفريق الأول؛ أن آدم مشتق من أدمة الأرض، وذلك لما دلّت عليه أحاديث خلق آدم من التراب.

٦٩ ـ إن أول تعليم علّمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، فعلمه الأسماء كلها ليقول ما يريد، ويسمّي الأشياء كلها بأسمائها، فأول شيء علّمه إياه بعد خلقه أو مع خلقه هو البيان، وقال تعالى عن بداية خلق الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ٩]، ذلك أن أكبر وظيفة للسان والشفتين هي وظيفة التعبير والبيان، وهي وظيفة من أعظم الخصائص والمواهب الفطرية التي ميّز الله بها الجنس البشري، وجعلها في تكوينه من أول أمره، فهي تشكّل جزءاً من هوية الإنسان وماهيّته.

٧٠ ـ لقد شَرَّف الله تعالى آدم عليه السلام وكرّمه بتعليمه علم الأسماء، حيث وهبه هذا العلم من غير كسب ولا مشقة، وذلك إعداداً لخلافة آدم في الأرض ليكون أهلاً لها ومتسلّحاً بالعلم في حياته، إذ إن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود، ولذا فإن معرفة الأسماء والعلم بها توقيفية من الله ابتداء لآدم عليه السلام، ثم تكون للأجيال من بعده بالاكتساب. فعلم الأسماء الأولي هو أثمن علم حصل عليه آدم وبنوه، فهو يجعلهم قادرين على تحديد قيمة الأشياء إيجاباً أو سلباً، ويساعدهم على تمييز الحسن من القبيح، وهو القاعدة الصلبة والدعامة الحقيقة لفهم العلوم، واكتساب المعرفة، وتطوير الحياة، كما أنه يساعد على معرفة الله بأسمائه وصفاته ودعائه بها، ويعين الفرد على الإيمان والعمل الصالح.

٧١ ـ إن الاعتراف الملائكي في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا

عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، دليل على أن علم الملائكة هبة من الله سبحانه، وأنه ليس علماً ذاتيّاً مكتسباً. فقد اعترفوا بقصور علمهم وأثنوا على الله بما يستحقه، وجمعوا بين وصفه بالعلم ووصفه بالحكمة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٧٢ ـ إن اسم «العليم» من أسمائه الحسنى سبحانه، وهو اسم يدل على أن العلم كلَّه بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فيعلم الله الأمور المتأخّرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وصغيَرها وكبيرَها، ويعلم ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق وما لا يعلمون، ويعلم تعالى الواجبات أو المستحيلات والجائزات. وقد ورد هذا الاسم في كثير من المواضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

٧٣ ـ وصف الله تعالى نفسه بـ «الحكيم» وجعله من أسمائه سبحانه في قوله: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]. فهو الحكيم الذي لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى وغاية وحكمة، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة وغاية مقصودة لأجلها فعل ما فعل. «والحكيم» هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وورد اسم «الحكيم» في واحد وتسعين موضعاً في القرآن الكريم، فجاء في جميع المواضع مقترناً مع اسم آخر من أسماء الله الحسنى كـ «العزيز» و«العليم».

٧٤ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وجاءت هذه الآية في سورة البقرة بعد إعلام الله ملائكته بخلقه آدم لقصد الاستخلاف في الأرض، وبعد بيان فضله عليهم بتعليمه من الأسماء ما عجزت الملائكة عن الإنباء به. وهذه الآية الكريمة تضمنت نقطة محورية وركيزة أساسية في قصة آدم عليه السلام، وهي سجود الملائكة لآدم

مقروناً برفض إبليس له، فلا تخلو سورة من السور التي تناولت قصة آدم من ذكر هذه النقطة، وإن كانت قد وردت بسياقات مختلفة.

٧٥ ـ إن أمر الله تعالى للملائكة بالسُّجود لآدم عليه السلام في قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، هو كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريّته؛ ولم يكن القصد من سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة آدم بذلك السُّجود، بإجماع المسلمين، وإنما كان الغرض منه تنفيذ أمر الله طاعةً له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وتنويهاً بمكانته عند الله.

٧٦ ـ إن العبرة المستخلصة من أمر الله تعالى للملائكة بالسُّجود، وامتناع إبليس عن تنفيذ الأمر، هي أن الإيمان ليس معرفة وحسب؛ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود، وإنما الإيمان خشوع واستجابة، وقول وعمل واعتقاد، إنه سجود، فإذا لم يتأتَّ السُّجود فلا إيمان، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. وقد كان عدم استجابة إبليس ناشئاً عن كبرياء في نفسه، وعن تمرّد في فطرته، فلم تلغ عبادته كبرياءه، فهي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح؛ لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان.

٧٧ ـ لا خلاف بين أهل العلم أن آدم عليه السلام أفضل من الجِنِّ والشياطين، ولم يتبقَّ من المكلفين إلا الملائكة، وقد اختُلف في الأنبياء والملائكة أيهما أفضل، فقد استُدل بسجود الملائكة لآدم على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، ووجه ذلك أن السُّجود هو نهاية التَّذلُّل، ولا يُتصوَّر أن يكون إلا من المفضول إلى الأفضل، مضموماً إلى أدلة أخرى؛ منها أن آدم أعلم من الملائكة والأعلم أفضل، ولقوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

٧٨ ـ إنَّ ظنَّ بعض الناس أن إبليس من الملائكة؛ لأنه شمله الأمر بالسُّجود

لآدم، ظنٌّ باطل وكلام مردود لأنه يتعارض مع صريح القرآن، فإبليس من الجن، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. والكثير من الناس يخطئون في التمييز بين الجن وإبليس والشياطين، فالجن هم العالم الخاص المقابل للإنس، الذين خلقهم الله من مارج من نار، وهم قسمان؛ جن مؤمنون وجن قاسطون كافرون. والشَّيطان وصف يُطلَق على موصوف وليس اسماً لشخص أو جنسٍ أو صنفٍ، فهو يُطلَق على كل الكفار من عالم الإنس أو من عالم الجن؛ أما لفظ «إبليس» فهو خاص به لا يُطلَق على غيره.

٧٩ ـ إن لوجود إبليس على ضلاله حكمة جليلة، فهو ليس بالشر المحض الذي لا خير معه، فوجود إبليس يكمل لرسل الله وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله. وإن في وجوده وقصته لعبرة فهي تزرع الخوف في قلوب المؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس في سقوطه من المرتبة التكريمية إلى المنزلة الإبليسية، فقد جعل الله سبحانه إبليس عبرةً لمن خالف أمره وتكبّر عن طاعته، وأصرّ على معصيته. وإبليس محكٌّ يمتحن الله به خلقه ليتبيّن به خبيثهم من طيبهم، كما جعل أنبياءه ورسله محكّاً لذلك التمييز.

٨٠ ـ نسب الله تعالى الكبر والاستكبار أول ما نسبه إلى إبليس، فقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ومن هذه الآية فإن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله تعالى بكفره، ولم يخبرنا تعالى بكفر أحدٍ قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وذلك أنه تكبَّر عن طاعة الله في السُّجود لآدم، فقال إبليس في معرض الجواب على أمر الله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، وهكذا يكون إبليس أول من صرح بالعنصرية البغيضة المقيتة، والتفاخر بالأصل والفصل، والأب والجد والقبيلة، وهذا هو الكبر الصُّراح الذي يتعلّل به كثير من بني البشر حين يعتزّون بأجناسهم وأحسابهم على غيرهم من البشر.

٨١ ـ قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. جاء هذا النداء بعد خلق آدم عليه السلام ونفخ الروح وتعليمه الأسماء كلها، وبعد إسجاد الملائكة له، فناداه ربه في هذه الآية باسمه لإظهار مزيدٍ من إكرام الله تعالى له، وأمره هو وزوجته بسكن الجنَّة تفضّلاً منه سبحانه وتعالى، وأذِن لهما أن يتمتّعا بكل ما فيها، وأباح لهما أن يأكلا منها ما شاءا غير شجرة واحدة نهاهما عن أكلها والاقتراب منها؛ ابتلاءً واختباراً وتهيئةً لهما بتحمّل التكاليف الشرعية بمقاومة رغبات النفس. وفي هذه الآية أدخل الله عزَّ وجلَّ حواء في خطابه لآدم، وقد سُمِّيَت حواء لأنها أمُّ جميع الأحياء من الجنس البشري.

٨٢ ـ وضح الله لنا أن كلَّ خَلقٍ من خلقه إنما خُلق من زوجين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]. فخلق الله من هذه النفس الواحدة المتكاملة الرجل، ثم خلق من هذه النفس الواحدة المتكاملة المرأة. وهذا معناه أن الرجل نفس إنسانية سوية بجسمه وروحه وشخصيته، وأن المرأة نفس إنسانية سوية لها جسمها وروحها وشخصيتها، وهي معززة مكرمة كالرجل، وليست أدنى أو أحطّ منزلة منه، وهذا تكريم وتشريف عظيم للمرأة.

٨٣ ـ لا يوجد في أحاديث رسول الله ﷺ أن أمنا حواء مخلوقة من ضلع آدم، وإنما هي رواية مصدرها الإسرائيليات وأساطير العهد القديم، فقد عرفنا من خلال آيات القرآن أن حواء خُلقت ـ مثل آدم ـ من النفس الإنسانية الواحدة، غير أن رسول الله ﷺ أخبرنا أن المرأة خُلقت من ضِلْع، فقال رسول الله ﷺ: «**استَوصُوا بالنساءِ خيراً فإنَّ المرأةَ خُلقَت من ضِلْعٍ، وإنَّ أعوجَ ما في الضِّلْعِ أعلاهُ، فإنْ ذهبتَ تُقيمُهُ كسرتَهُ، وإنْ تركتَهُ لم يزلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنساءِ خيراً**». والحديث الصحيح السابق لا يدل دلالة صريحة على أن حواء خُلقت من

ضلع آدم، وهو لا يتكلّم عن أمّنا حواء، وإنما يتكلّم عن المرأة عموماً. وقد استخدم النبي ﷺ كلمة «ضلع» على سبيل المجاز لا على الحقيقة؛ لتأكيد الوصية بالنساء، لما في المرأة من ضعف، وأنه لا بدَّ من حسن معاملتها والرفق بها.

٨٤ ـ مؤسسة الزوجية عريقة عراقة آدم وحواء، ولا بديل عنها شرعاً وفطرةً، ويتحتّم على كل طرف السعي في ترميم العلاقة وحمايتها. فبعدما خلق الله حواء أخبر آدم أنها «زوج» له، كما أنه هو «زوج» لها، وينطبق هذا على الأزواج من البشر، فالرجل زوج لامرأته، وامرأته أيضاً زوج له، وكل منهما زوج للآخر، ومعنى هذا أن الرجل بمفرده لا يمكنه تحقيق ذاته، ولا عمارة الأرض ولا ممارسة الحياة، وهناك جزء مهم في كيانه فارغ لا تملؤه إلا المرأةُ زوجُهُ، فهي بزوجيّتها له تُكمل نقصَه، وتملأ فراغَه، وتحقّق إنسانيته.

٨٥ ـ الزواج سنة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فقد قرَّر القرآن الكريم شِرعة الزواج لآدم عليه السلام لتكون سنّة الله تعالى للبشرية للسكن والمودة وقضاء الشهوة وإنجاب الذرّية، وهو الوسيلة الشرعية الحصريّة الطاهرة النقية المباركة في لقاء الذكر والأنثى واستمرار النسل حتى تقوم الساعة، والزواج سنة من سنن الفطرة لأنه يوافقها ويلائمها، وهو سنة كونية لأن الرباط الذي جمع بين أبوينا آدم وزوجه حواء هو رباط الزواج.

٨٦ ـ الجنَّة المقصودة عند أهل السنة في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، والتي أُخرج منها آدم وحواء وقبلهما إبليس هي جنة الخلد قولاً واحداً عندهم. وقد وصف الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز خلق الجنَّة بأوصافٍ عظيمةٍ جليلةٍ، كما جاء وصف خلق الجنَّة على لسان رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة مُفصَّلاً تفصيلاً دقيقاً؛ وهذا المخلوق العظيم الكريم جعله الله منزلَ كرامةٍ لعباده المؤمنين، ووصفه بأعظم الأوصاف، واختار له أجمل الأسماء وأحسنها؛ لتزداد له النفوس شوقاً، وبه تعلُّقاً، ومن أجله جدّاً واجتهاداً.

٨٧ ـ لم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشجرة المحرّمة، إنما نهاهما عما هو أبلغ؛ وهو الاقتراب منها، حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وهذا هو المسمَّى في الإسلام بسد الذرائع؛ أي تحريم كل طريق توصل إلى الحرام. ولعل الحكمة من ذلك التكليف تقوية إرادة آدم وحواء، وتنمية معاني التكليف والالتزام عندهما، وتدريبهما على ذلك وهما في الجنَّة ليُحسنا النظر إليه، ويتمرَّنا على التفاعل معه، لأن الله سيُنزلهما بعد ذلك إلى الأرض، وستقوم حياتهما الدنيوية على التكليف والأمر والنهي، وسيكون هذا التكليف لهما في الجنَّة تمهيداً للتكاليف الشرعية لذريّتهما من بعدهما.

٨٨ ـ إن التعري كان غاية من غايات الشَّيطان في وسوسته لآدم وحواء، إضافة إلى غايته الأولى وهو إخراجهما من الجنَّة، وستر العورة فطرة مترسخة في النفس البشرية وأصل من أصول تكوينها المغروس في حسها منذُ بدء الخلق، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

٨٩ ـ خاطب إبليس غريزتين في آدم وحواء، وهما: حب التملُّك، والخلود؛ لأنهما غريزتان أساسيتان عميقتانِ في النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. ومن هذا الباب يَدخل الشَّيطان إلى نفوسِ بني آدم، لأنه يعلم أنَّ معظم الناس لا يتمالكون أمام الرغبة في التملُّك والرغبة في الخلود. وقد شاء الله الحكيم ألاّ يجعلَ لبشرٍ الخلود في هذهِ الدنيا، وجعلَ لكل إنسانٍ أجلاً محدداً، ومهما ملكَ الإنسان من ملك فلا بدَّ أن يبلى ويفنى ويزول والمالك الحقيقي لكلّ ما في الكون هوَ اللهُ سبحانه.

٩٠ ـ تبين في قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ بأنَّ آدم وحواء أصل البشرية سارعا إلى ستر العورة بمجرد أن علما أنها عورة، وقبلَ أن يأمرهما الله سبحانه بذلك، وهذا المعنى الإنساني الفطري النبيل جعله الله في كلِّ نفسٍ

إنسانية، فهي مفطورة على السترِ والفضيلة والتعفف والحياء، وعدم إبداء السوأة وكشف العورة.

٩١ ـ لقد ساوى النص القرآني بين آدم وحواء عليهما السلام في المسؤولية بشكل واضح وصريح، فالوسوسة التي كانت من إبليس كانت للاثنين آدم وحواء وأن المعصية وقعت منهما بالتساوي، والاثنان نُهيا عن الاقتراب أو الأكل من الشجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، والاثنان أزلهما الشَّيطان في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾، وكلاهما ظلما أنفسهما وتابا إلى الله، وفي غيرها من المواضع الكثيرة التي ساوت بينهما. فالآيات القرآنية حريصة على تحميل المسؤولية لكل من آدم وحواء، وعدم تبرئة واحد منهما.

٩٢ ـ إنَّ هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]؛ إذ أنه سبب مكتوب، والإهباط إلى الأرض والاستخلاف هو من صنع الله وقدره، فلم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنَّة وإهباطه منها عقوبة له، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبتهُ، وإنما أهبطه إما تأديباً وإما تغليظاً للمحنة، والصحيح أنّ إهباطه إلى الأرض كان مقدَّراً لحكمة أزلية في ذلك، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمنحهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي.

٩٣ ـ إن في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]، سنة ربانية مطردة دائمة حتى قيام الساعة، أجملتها جملة موجزة في القرآن في جملة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهذه العداوة موجودة بين الجن والإنس، وأيضاً فإن من معاني هذه العداوة العلاقات والعداوات التي تقع بين أفراد الجنِّ فيما بينهم، والعلاقات والعداوات التي تقع بين أفراد الإنس فيما بينهم. ولا تنتهي العداوة بين مختلف الأطراف إلا عند قيامِ الساعة، فالخلاف والنزاع والحرب والعداوة كل هذا مستمر على الأرض، منذُ هبوط آدم وإبليس عليها.

٩٤ ـ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وفي هذه الآية إشارة إلى اسم وصفة عظيمة لله سبحانه وتعالى وهي «التواب»، وورد اسمه سبحانه التّواب في إحدى عشرة آية من القرآن الكريم، منها تسع آيات اقترنَ فيها باسمه سبحانه الرحيم كما في الآية السابقة، وجاء في آية واحدة مقترناً باسمه الحكيم، وجاءَ مفرداً في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣]. فهو التائب على التائبين سبحانه، وإن الإيمان بهذا الاسم يُحدِث للإنسان أُنساً ومحبة لخالقه ومولاه عزَّ وجلَّ، فالإنسان الذي خلقه الله عزَّ وجلَّ في حاجة إلى التوبة في جميع مراحل عمره وأنها لا تفارقه ولا غنى له عنها.

٩٥ ـ إن اسم الله تعالى «الرحيم» غالباً ما يأتي رديفاً لاسمه الرحمن، وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة والرقة والتعطف. واسم الرحمن أشدُّ مبالغة من اسم الرحيم. وقد فرق أهل العلم بين الاسمين الكريمين من حيث المعنى والمضمون، إلا أن كليهما يشير إلى رحمة الله تعالى التي تنقسم إلى نوعين، رحمة عامة: وهي لجميع الخلائق بإيجادهم وتربيتهم ورزقهم وإمدادهم بالنعم والعطايا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ورحمة خاصة، وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين به سبحانه وتعالى.

٩٦ ـ يجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة، ولكنه ارتكب خطأ، فهو أمن للغفلة والسهو. فخطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله عزَّ وجلَّ كذنب إبليس، ذلك أن آدم وحواء اعترفوا بخطئهم وتابوا، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ومن هنا فالتوبة تستدعي أن يُنيب الإنسان إلى ربه ويرجع، وأن يُسلم بكل جوارحه لله عزَّ وجلَّ، وأن يسرع بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

٩٧ ـ لا وجه للمقارنة بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس، فمعصية

إبليس كانت عن إصرار وتعمد، وهذا بخلاف معصية آدم التي كانت عن سهو وغفلة ونسيان. كما أن إبليس لم يبادر إلى الاستغفار والتوبة بعدما علم بمعصيته بل تمادى في غيه، في حين أن آدم وحواء سارعا إلى طلب المغفرة والرحمة، وتضرعا إلى الله بكل كيانهما أن يغفر لهما خطيئتهما التي ارتكباها. فالفرق واضح بين معصية آدم ومعصية إبليس، لذلك كان مصير إبليس الطرد واللعنة والخلود في النار، وأما آدم عليه السلام فقد تاب الله عليه وغفر له واجتباه واصطفاه.

٩٨ ـ ليس عند الله خطيئة تحتاج إلى التكفير عنها بصَلْب نبي أو ابن نبي، فليس عند الله خطيئة موروثة كما في عقيدة النصارى التي تقول بأن خطيئة آدم ظلت عالقة في ذريته حتى جاء المُخلِّص يسوع الذي جمع بين الألوهية والبشرية. أما الإسلام فيقضي بأن كل إنسان مسؤول عمّا اقترفه ومحاسب عليه، وأن الإنسان يولد مبرَّأً من كل خطيئة ومن كل ذنب، وإنما يولد على الفطرة السوية مهيأً لقبول الحق، ذلك أن الفطرة هادية إلى الخير والحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

٩٩ ـ شاء الله أن تنتهي أحداث قصة آدم في الجنة بعدما تاب وأناب، وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء وعدوّه إبليس، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وبذلك انتهت أحداث قصة آدم في الجنَّة، دار النعيم للمؤمنين وبدأت أحداث القسم الثاني من قصته وهو المتعلق بحياته على الأرض. والله تعالى ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، وقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾، فما قال في الجنَّة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة وليس نزول إهانة، فإنَّه كان يعبد الله في الجنَّة بالتشريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف.

١٠٠ ـ إن أهم إيحاءات قصة آدم عليه السلام هي القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي الرباني الذي يرسمه الله للإنسان حتى يسير على هداه في رحلة الأرض، والذي يتضح في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]. وكانت هذه وصية الله تعالى لآدم وزوجه حين أخرجهما من الجنَّة وأهبطهما إلى الأرض، فهي من أقدم الوصايا، لذلك كانت خليقة بأن تكون سنة كونية لا يتخلف مدلولها عن أحد من خلقه في أي حال من الأحوال، وهذه السنن ماضية، فمن اتبع هدى الله وآمن برسله وكتبه واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، فقد اهتدى وأفلح.

١٠١ ـ أُعلنت الخصومة في الملأ الأعلى بين آدم وذريته وبين إبليس وقبيله، وشاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]. وهذه الآية تؤكد حقيقة مطردة، وهي الصراع بين الحق والباطل، والمواجهة بين الخير والشر، هذا الصراع الذي بدأ منذ المشاهد الأولى من قصة آدم التي حدثت في الجنَّة، عندما رفض إبليس السُّجود لآدم، ثم زيَّن له الأكل من الشجرة، وقد كان آدم أبو البشر يمثل جانب الحق، وكان إبليس يمثل جانب الباطل. وسيبقى الصراع بين الحق والباطل قويّاً محتدماً مستمرّاً حتى قيام الساعة.

١٠٢ ـ إن نبوة سيدنا آدم ورسالته واضحة في الآيات التي وردت في قصة آدم عليه السلام، فالله نادى فيها آدم غير مرة، وكلمه بلا وساطة، وهذا وحده كاف في إثبات نبوته عليه السلام وهو في الجنَّة، فقد كان نبيّاً يعمل فيها بتوجيهات الله ثم بعد إخراجه من الجنَّة اختاره الله رسولاً يبلغ الرسالة إلى ذريته، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن

بَعۡضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]. فآدم عليه السلام أبو البشر ومنشأ النبوة، فكما أنه أبو البشر بالإجماع كذلك هو أبو الأنبياء.

١٠٣ ـ النُّبوة ضرورة للعدل الرباني بتقديم البلاغ والإنذار للآخرة، بل والرحمة للبشر. فالنبوة كشف لعالم الغيب، وإخبار عن الله تعالى وملائكته، وعن الآخرة والحساب والثواب والعقاب بما هو حق مطابق. والنبوة تشريع مفصل بضبط علاقات الناس وزوجاتهم ومعاملاتهم ويجعلهم أقرب للرشد والصواب، والنبوة ترسيخ لأصالة الخير في الإنسان وفي الأرض وعمقه واتساعه فيها.

١٠٤ ـ وردت قصة آدم عليه السلام في سورة الأعراف، وهي سورة مكية، وقد تضمنت سنة الله الكونية في الأمم المخالفة، وتذكير الناس بآيات الله في الكون وخلقه، وخلق الإنسان وضعفه، وبداية عداوة الشَّيطان للإنسان، وقد مهّد الله عزَّ وجلَّ قبل الحديث عن الأمم السابقة، وقبل الدخول في قصة البشرية تفصيلاً بالحديث عن تمكين الله عزَّ وجلَّ للجنس البشري في الأرض، ومن هنا يبدأ الحديث عن الرحلة الكبرى في مسيرة البشرية، ثم الشروع في قصة آدم عليه السلام وعداوة إبليس له، وجاءت تفاصيل مثيرة وحقائق خطيرة لا توجد إلا في كتاب الله عزَّ وجلَّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد وردت القصة في الآيات [١٠ ـ ٣٤].

١٠٥ ـ ربط الله تعالى الحياة والتمكين فيها بذاته العلية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّـٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَـٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. فالله عزَّ وجلَّ هو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الأرض، وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقويته، وتُعينه بما فيها من أسباب الرزق والمعايش.

١٠٦ ـ إن التصور الإسلامي لقصة الخلق والخليقة هو وحده الذي يمضي وراء جزئيات الكون ليربطها كلها بأصل شامل متناسق. فالله هو الذي خلق

الكون، وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان. وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة، يعيش مطمئن القلب، مشروح النفس، ثابت الخطو، ينهض بأمور عمارة الأرض في اطمئنان الواثق بأنه مُعان على الخلافة، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سرٍّ من أسرار الوجود.

١٠٧ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ خلق الله تعالى الإنسان على مراحل، أولها التراب وثانيها الماء، ومن ثم فالطين، والطين الذي خُلق منه آدم وُصف في القرآن بثلاث صفات، ويمكن اعتبارها مراحل تحول التراب والطين إلى جسد من لحم ودم وعظام وأعضاء، وهذه الصفات هي: الطين اللازب، والحمأ المسنون، والصلصال. وكون الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان من طين الأرض، فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها والضرب فيها. وإن العمل والكدَّ والكدح وعرق الجبين ليس عيباً، إنه سر التميُّز والإبداع.

١٠٨ ـ قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، والصلصال: هو الطين اليابس الذي يُسمع له صوت إذا ضُرب، وهو يشبه الفخار، وقد مر جسد الآدمي في عدة مراحل حتى تشكل، فمادته الأولى من التراب، الذي عُجن بالماء، فصار طيناً، ثم تُرك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح طيناً لازباً ملتصقاً بعضه ببعض، ثم تُرك ما شاء الله من الأزمنة حتى أصبح حمأ مسنوناً منتناً أسود، وربما بدأت تظهر عليه بعض ملامح التكوين الإنساني، ثم تُرك ما شاء الله حتى صار صلصالاً كالفخار.

١٠٩ ـ إن الآيات التي تحدثت عن أبينا آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه لا تعارض بينها، وإنما أخبرت كل آية عن مرحلة من المراحل التي مرَّ بها خلقُه، فأخبرت آية عن مرحلة خلقه من تراب، وأخبرت آية أخرى عن المرحلة الثانية من

تراب وماء، مرحلة الطين، وأخبرت ثالثة عن مرحلة خلقه من طين لازب، وأخبرت آية رابعة عن مرحلة خلقه من صلصال من حمأ مسنون، وأخبرت آية خامسة عن مرحلة خلقه من صلصال كالفخار. فلا بدَّ من جمع الآيات المتفرقة التي تتحدث عن هذه المراحل والنظر فيها مجتمعة لنحسن فهمها واستخراج دلالتها.

١١٠ ـ إذا كان آدم عليه السلام هو أصل البشرية، الذي خلقه الله بيده من طين لازب، ثم خلق الله زوجه بقدرته سبحانه كما شاء وأراد، فإنَّه سبحانه جعل توالد ذريته وتناسلهم بصورة أخرى من صور الخلق البديعة العظيمة، التي تدل على قدرة القادر العظيم والخالق المدبر لما يشاء كما يشاء، فقد جاء خلق آدم بطريقة، وخلق حواء بطريقة غيرها، وجعل سنة الخلق في ذريتهما بصورة كذلك، ليدل ذلك على تنوع القدرة وتعدد صورها، وليعلم الناس أنه: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

١١١ ـ بعدما مر آدم عليه السلام بمراحل الخلق جميعها، وبعد أن انتهى إلى صلصال كالفخار، فأصبح تمثالاً مجسماً وجسداً بلا روح، بدأت مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح فيه. وما جرى لآدم من تصوير قبل نفخ الروح فيه يجري لكل واحد من ذريته حتى قيام الساعة، والفرق بين التصويرين أن تصوير آدم كان خارجيّاً ظاهراً فجاءت صورته المادية تمثالاً مجسَّماً كبيراً، أما تصوير ذريته فإنَّه يكون بداخل الرحم وتكون الصورة مصغرة جدّاً، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

١١٢ ـ الإسلام دين الفطرة، ومقاصده ملائمة للعناصر الأساسية المكونة للإنسان. مادة خلق الجسد التراب والماء وهما طاهران، وتظل صلة الإنسان بهما قائمة باعتبارهما ضرورة حياتية وشرعية. وإن الانتساب لآدم المخلوق من جملة طين الأرض مدعاة للإيمان بالمساواة ورفض العنصرية ضد لون أو جنس.

١١٣ ـ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فالشعور بالقبح، وطول النظر إلى الذات، مرض نفسي يحمل على المبالغة في التجمل المتكلَّف، والوحي ينص على جمال الخلقة وحسنها. وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وإن المبالغة في التجمُّل والإغراء والتعري لدى الأنثى، أو استعراض العضلات والقوة لدى الذكر، هو من الجَور على الجسد والروح معاً، وأسوأ ما يكون حين يتحول الإنسان الكريم إلى أداة لتسويق السلع والربح.

١١٤ ـ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، نفخ الله في هذا التمثال المجسم من روحه، فدبَّت فيه الحياة وصار إنساناً حيّاً متحركاً. فبث فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لا يعلم شأنها إلا من خلقها فهي في عالم الغيب، فالروح سبب الحياة وسرها. وإن حرف الجر «من» في قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِى﴾ بيانية وليست تبعيضية، فقوله من روحي للبيان وليس للتبعيض، لأن هذا يتعارض مع العقيدة الإسلامية الواضحة، فالله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، له صفات الكمال والجلال والعظمة.

١١٥ ـ الروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس، غير أنه مع تقدم العلوم الطبيعية والمادية ظلت الدراسات المتعلقة بالنفس والروح بعيدة عن تحقيق تقدم ملموس، أو اختراق علمي يناسب ما تحقق في سائر العلوم. والروح مُحدَثة بعد أن لم تكن وباقية لا تفنى، والموت هو مفارقة الروح للبدن. والإنسان روح أولاً ثم جسد، والعناية بتحرير الروح وتساميها وعافيتها وإشراقها هو المقصد الأول للرسالات بالتوحيد والعبودية، والمقصد الأول للخلق والاستخلاف، وهو لا يتعارض مع حقوق الجسد والمادة.

١١٦ ـ إن محاولة الكشف عن حقيقة الروح ضرب من المستحيل ما دامت

حواسنا العادية هي سبيلنا الوحيد لما تحصل عليه عقولنا من علم ومعرفة، فقد استأثر الله تعالى بعلمه وحجب تلك الحواس. إذا ليس لنا من سبيل أو مصدر حق للحديث عنه إلا ما جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ وما صح عن رسول الله ﷺ، فإنا سنُعوِّل عليهما وحدهما في الحديث عن تلك الهبة الروحية الجليلة، وأثرها في حياة الإنسان وصلته بالكون الذي يحيا فيه ببدنه وفكره، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقد فشل المذهب المادي فشلاً ذريعاً في معرفة ماهية الروح وطبيعتها وتفسير ظواهرها.

١١٧ ـ بعد أن نفخ الروح في آدم صار إنساناً يعقل وينطق، بل ويتلقى الأوامر والتوجيهات من رب العالمين، وهكذا حال ذريته بتحول الجنين من بطن أمه من حال إلى حال، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوّة بلحم، وهو في تلك الأطوار جثة لا روح فيها إلى أن ينفخ فيه الروح، فيصير بذلك خلقاً يختلف عن الأول، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

١١٨ ـ قال رسول الله ﷺ: «**خَلقَ اللهُ آدمَ على صورتِه ستُّون ذراعاً، ثم قال له: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك النَّفرِ وهم نفرٌ من الملائكةِ جلوسٌ فاستمعْ ما يحيُّونَك فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذريتِك، فذهبَ فقالَ: السلامُ عليكم فقالوا: وعليكمُ السلامُ ورحمةُ اللهِ، فزادوه ورحمة الله، فكلُّ مَن يَدخلُ الجنَّةَ على صورةِ آدمَ في طولِه، ستُّون ذراعاً، فلم يزلِ الخلقُ بعدَه ينقصُ حتى الآن**»، وهذا الحديث يتضمَّن معلومات في غاية الأهمية، فهو يُقرر عكس نظرية داروين في النشوء والارتقاء، فما زال أبناء آدم عليه السلام يقصرون وطولهم يتناقص حتى صار متوسط طول البشر في زماننا حوالي مائة وسبعين سنتمتر.

١١٩ ـ المقصود في قول رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»، هي صورته التي أهبطها الله عليها إلى الأرض وعاشها على الأرض ورآها عليه أولاده، وهي صورته البشرية وجسمه الآدمي بأعضائه وأجهزته، وهي أعضاء وأجهزة جسم كل منا، أي أن آدم عليه السلام خُلق في الجنَّة وعاش فيها مدة من الزمان وكان في الجنَّة على الصورة والجسم والأعضاء والأجهزة نفسها التي رآها عليه أولاده.

١٢٠ ـ إن آدم عليه السلام هو المخلوق الأول من بني البشر، ومن المؤكد أنه كان مخلوقاً تامَّ الحسن والجمال مكتمل الصفات لا عيب فيه ولا تَشوه ولا أمراض ولا عوارض أخرى تكتنفه، كما ستُسلَّط بعد ذلك على ذريته فتنقص من جمالهم وكمال أوصافهم، فهو من صُنع يدي الله، وكلنا من خلق الله عزَّ وجلَّ ولكن آدم تميز عنا بأنه الصنعة المباشرة التي عملت فيه يد الله، وهو المتمتع الأول بنفخة روح الله فيه، وهو الذي قال الله عنه أنه خلقه في أحسن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

١٢١ ـ إن عناية الله بأمرِ آدم عليه السلام تشير بأن له شأناً عظيماً عند الله جل في علاه، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق سواء في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. فالآية نص صريح قاطع أن بداية خلق الإنسان كانت ابتداء في غاية الدقة وروعة الصنعة، وأنه خلق خلقاً أوليّاً في أحسن صورة وأتم خلقة.

١٢٢ ـ بعد إلقاء النطف في الأرحام، أي بعد خروج النطف من المستودع إلى المستقر، هنا تأتي الخطوة الثانية: خطوة القرار المكين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]، فقد وصف القرآن الكريم الرحم بالقرار المكين وهو من

روعة الوصف والتوصيف القرآني، فالرحم قرار والرحم مكين، والرحم من الرحمة، والرحم مجموع ومحاط بعظام حوض المرأة الذي يحميه، ففيه كل ما يجعله مهيَّأً للاستقرار والثبوت، وعليه يكون الرحم بالنسبة للجنين هو المكان الذي جمع بين الثبات والاستقرار وبين التمكين.

١٢٣ ـ يمر تخلّق الجنين في رحم أمه في ظلمات، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، وهذه الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة.

١٢٤ ـ أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة الحواس، والتي من خلالها يستطيع الإنسان الاتصال بالعالم الخارجي، وبها ترتقي البشرية إلى العالم الغيبي عن العالم الحسي المشاهد إذا أحسنوا استخدام تلك الحواس وفق أمر الله وصيانتها عن المحرمات، ويبدأ اتصال الجنين بالعالم الخارجي عن طريق حاسة السمع التي تبدأ عملها قبل بقية الحواس، لذا ابتدأ ذكرها في كثير من الآيات على سائر الحواس، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

١٢٥ ـ الحواس من أهم العطايا الربانية التي أنعم الله بها على الإنسان وتستحق منا الشكر، فالحواس أمانة عند الإنسان، عليه أن يسخرها في العلم والإيمان والعمل، باعتبارها مقومات أساسية للمعرفة الإنسانية، وتساعد الإنسان على تحقيق غايات وجوده من عبودية لله والاستخلاف في الأرض، وعمارة الكون والحياة وفق المنهج الرباني. وإن الحواس أهم أبواب تحصيل المعرفة وأحد نوافذها المحدودة بعالم الحس، ويطل منها الفكر على العالم.

١٢٦ ـ وصف القرآن مراحل تكوين الإنسان، فقد ذكر أطوار الإنسان بعد ولادته وخروجه إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ

مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، فينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم تُكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً، ثم شابّاً وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة.

١٢٧ ـ تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السلام في ثلاثة مواضع، وفي ثلاث سور، وهي: في سورة البقرة؛ بيَّنت بأن حواء خُلقت لتحقيق هدف السكن والطمأنينة. وفي سورة طه؛ عرضت قصة آدم عليه السلام وحواء في الجنَّة ومعصيتهما لله تعالى وكشف السوآت. وفي سورة الأعراف؛ لتبين نزول آدم عليه السلام وحواء على الأرض وأول جماع جنسي بينهما. قال تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

١٢٨ ـ يلاحظ أدب الحديث عن الجنس في قول الله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فالقرآن يتحدث عن أول لقاء جنسي بالبشرية، كما يتحدث عن طبيعة اللقاء الجنسي بين الأزواج بغاية من الأدب والترفع والحس فلا يجرح شعوراً ولا يخدش إحساساً بل يشير إلى ذلك بعبارة بسيطة في لفظها، وارفة بظلالها كثيرة بفوائدها مترامية بآدابها، فالإنسان إذا أراد أن يتحدث عن واحدة من مسائل الجنس ومفرداته في أي حال من أحواله فعليه أن يلتزم الأدب الجم

وهو يصف آمراً أو ناهياً أو مسترشداً. فقد عبر القرآن الكريم عن الجماع، وكنَّى عنه بألفاظ عدة في غاية الأدب والترفع.

١٢٩ ـ إن روعة هذا الكون وجماله وعظمته هو أمر بسيط من إبداع الخالق العظيم، وإن الإنسان عندما يحاول أن يُطبق ما يُسمَّى بفكرة المصادفة بالخلق يقع في مغالطة فاحشة. ولذلك فالإلحاد فكرة جاهلة تستعصي على الفهم خاصة في عصر المعرفة والتخطيط والكشوفات الهائلة، قد يكون الإلحاد قراراً سياسيّاً كما في عصر الشيوعية، أو أزمة نفسية عند أقوام لم تسعفهم سكينتهم النفسية بالوصول إلى استقرار الإيمان، أو مغالطة ذهنية صادرة عن اللامبالاة، وهو ما بينه القرآن بقول الخالق البديع سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

١٣٠ ـ الإيمان باسمه سبحانه «الخالق» يستلزم الإيمان بوحدانيته سبحانه وألوهيته وإفراده وحده بالعبادة، وهذا ما احتج به الله عزَّ وجلَّ على المشركين الذين يُقرُّون بأنه الخالق الرازق وحده ثم هم يعبدون غيره مما لا يخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. والإيمان باسمه الخالق يورث المحبة الكاملة له عزَّ وجلَّ، ويحمل على الإقرار بألوهيته وتقدمه على كل شيء، كما أن الإيمان باسمه الخالق يستلزم الإيمان بحكمته سبحانه وقبول شرعه.

١٣١ ـ بعد معرفة مراحل خلق أبي البشر آدم عليه السلام، ومراحل خلق ذريته، يتضح لكل عاقل متبصر في تلك المراحل أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وهو ما يبطل كل دعوى في أن الخلق وُجد مصادفة، أو أن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون، وما فيه من مخلوقات، أو أن المخلوقات كانت بدائية ثم تطورت بعد مرور الزمان، وبعد أن انتهت مراحل تكونها وتطورها أخرجت لنا الإنسان. وهذا ما تدعيه نظرية داروين التي تسمَّى بنظرية التطور والارتقاء، وهذه

النظرية مخالفة للحقيقة العلمية التي جاء بها علم التشريح الذي بيَّن فروقاً خَلْقِيَّة بين الكائنات الحية، مما يُثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه تلك النظرية.

١٣٢ ـ كتب العلماء مئات الكتب والتقارير والنشرات حول بطلان نظرية داروين علميّاً وعقليّاً، وقد توصلوا بجهودهم العلمية إلى نسف النظرية من أساسها، وتقويض أركانها ودعائمها مستندين في ذلك على العلم الحديث كعلم الوراثة والجيولوجيا وغيرهما، مستخلصين عشرات الأدلة على بطلانها. فأشار بعض العلماء إلى أن داروين نفسه في كتابه (أصل الأنواع) أقر بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة ومعقدة في نظريته. وقد أثبت العلم الحديث أن لكل نوع من الأحياء خارطة وراثية ثابتة لا تتغير مهما تطاول الزمن، وبذلك يحافظ كل صنف على استقلاليته وخصائصه، فلا ينشأ من تكاثره مع صنفه أو صنف مغاير له في خارطة المورثات صنفٌ جديد، فلا تلد القرود إنساناً ولا يلد الإنسان قرداً أبداً.

١٣٣ ـ زعم داروين أن الإنسان متسلسل من سلالات حيوانية، وأنه أخذ صورته الإنسانية منذُ مليون سنة، ولكن علم المستحاثات هنا لا يُثبت ذلك الزعم، إذ لم يُعثَر على السلاسل المزعومة التي تسلسل منها الإنسان، فهناك حلقات كثيرة مفقودة بين الإنسان والغوريلا أو الشمبانزي الذي يُتوهَّم أن أصل الإنسان منها. وإن المكتشفات التي عثر عليها الجيولوجيون تنقض نظرية داروين من أساسها، فقد زعم داروين أن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسان يُعثر عليها في الطبقات السفلى من الأرض دائماً بينما أثبتت الحفريات عكس ذلك، فقد وُجدت من الهياكل والصور الحية المستخرجة من باطن الأرض أحياء أعقد تركيباً وأرقى مما فوقها من الأحياء.

١٣٤ ـ إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من النازية والفاشية إلى الستالينية والماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية والتقنية العرقية، وأن هناك أجناساً أفضل من أجناس.

١٣٥ ـ إن تفضيل إبليس أصل خلقه على أصل خلق آدم عليه السلام،

واستناده في زعمه هذا على قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ غير صحيح ولا يُؤخذ به، فالتراب منفعته أكثر من النار، فإذا وُضع فيه القُوتُ أنتج أضعافاً كثيرة وهذا من بركته، إذ وصف الله الأرض بالبركة، والتراب هو مادة الأرض وعنصرها. وأما النار فلم يخبر الله تعالى أنه جعلها مباركة كما أخبر عن الأرض، ولم تُذكَر النار في القرآن الكريم إلا في معرض العقوبة والتخويف إلا في موضع واحد بأنها تذكرة ومتاع للمقوين. كما أن النار طبعها الخفة والطيش والحِدَّة، وأما التراب ففيه الثبات والرزانة. والتراب لا يفتقر إلى حامل يحمله فهو قائم بذاته، في حين أن النار لا تقوم بنفسها، فهي مفتقرة إلى محل تقوم به ويحملها، إضافة إلى غير ذلك من الأسباب التي تجعل التراب أفضل من النار.

١٣٦ ـ لو سُلّم بطريقة الفرض الباطل أن النار خير من الطين، كما ادعى إبليس، فلا يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فالله تعالى قادر على أن يخلق من المادة الأدنى من هو خير من المخلوق من المادة الأفضل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو من كمال قدرته تعالى. وقد شرف الله تعالى طينة آدم عليه السلام التي خلقه منها وفضلها فخلقها بيديه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وشرّفها بنفخ الروح المقدَّسة فيها كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]. وهذا من أعظم الأسباب الموجبة لتفضيل الطين على النار.

١٣٧ ـ خرج إبليس صاغراً ذليلاً بحكم الله العادل، ثم عاد إلى ربه يطلب منه أن يبقيه حيّاً إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤ ـ ١٥]، وكان طلب إبليس من الله عزَّ وجلَّ دليلاً على خُبثه ومكره، فهو يريد أن يكون مخلَّداً في هذا الوجود ولا يموت كما يموت باقي المخلوقين، ولكن هذا يتعارض مع سنة الله في المخلوقين من الإنس والجن والملائكة وغيرهم، التي تقرر أنهم لا بدَّ أن يموتوا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ

نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ولذلك ردّ الله على طلبه قائلاً: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ـ٣٨]، فأنظره الله وأمهله ليس إلى يوم يبعثون، ولكن ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

١٣٨ ـ إن الله سبحانه وتعالى بَيَّن لآدم بكل وضوح نمط معيشته في الجنَّة في حال التزم بأوامر الله تعالى، أما إذا اتبع آدم خطوات الشَّيطان فسوف يعيش في نمط معاكس تماماً لنمط معيشته في الجنَّة، وهو نمط شقاء العيش خارج الجنَّة، قال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طه: ١١٧ـ١١٩]. فبالطاعة يُستجلب النعيم، وبالمعصية يُستجلب الشقاء.

١٣٩ ـ إن كثيراً من المؤرخين الغربيين يروّجون لنظرية الإنسان الحجري، أي أن الإنسان كان بدائيّاً في كل شيء، ومن مقتضى ذلك أن الإنسان كان يمشي عرياناً كما ولدته أمه، ولم يكن على جسده لباس يستر به عورته. وهذا كله كذب وافتراء على البشرية في تاريخها، وتنكُّر لنعم الله التي أنعم الله بها على بني آدم، من ستر عوراتهم، ولم يكن الإنسان في تاريخه يوماً فاقداً ما يستر به عورته، فقد أوجد الله لآدم وحواء وهما في الجنَّة من اللباس ما يستران به سوآتهما، واستمرت تلك النعمة من ستر العورة من ذلك الوقت، وتلك نعمة تكفلها الله لبني آدم من بعده إلى قيام الساعة.

١٤٠ ـ إن من الفطرة الاستتار والتزين باللباس ولو بين الزوجين، وإبداء السوأتين والعورات بين الزوجين بلا حاجة ولا مقصد مأذون به غير أنه مكروه، لأنّه يسقط هيبة الحياء في النفس، وتزهد النفوس بعضهما في بعض، وتتشوف إلى غيرهما من الحرام. والعري ليس من الفطرة السليمة ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً. وقد فطر الله آدم وحواء على الفطرة السليمة الصحيحة، فسترا عوراتهما بورق الشجر مع أنه لا يراهما أحد من البشر

غيرهما، فليس لهم ذرية عند ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

١٤١ ـ في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد وهو الإنسان الذي ينسى ويُخطئ، إن فيه ضعفاً يدخل منه الشَّيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ولكنه يدرك خطأه ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ويثوب ويتوب إلى الله، فهي خصيصة الإنسان التي تصله بربه وتفتح له الأبواب إليه، وهذه التجربة الأولى له في التوبة قد تمت. وهذه الآية غنية بمفاهيم عديدة كمفهوم الربوبية، ومفهوم الظلم، ومفهوم النفس، ومفهوم المغفرة، ومفهوم الرحمة ومفهوم الخسران.

١٤٢ ـ لما أظهر آدم عبوديته لله وافتقاره إليه رفع الله مكانته، فكانت حاله بعد التوبة أحسن منها قبلها، يقول تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]، فالله عزَّ وجلَّ أوحى إلى آدم كلمات تعرّف من خلالها على كيفية الخروج من هذه المعصية، وتبين له طريقة التوبة من تلك المعصية. وتلك الكلمات تلقاها آدم إما بطريق الوحي وهو الأظهر، أو الإلهام، فكانت سبباً في قبول توبته وقد قبل الله توبته ومحا ذنوبه، وهذه منّة أخرى من الله على آدم، لأنه لو شاء الله لما رضي عنه، ولكنه لما علم الله من آدم صدق التوجه إليه والإقبال عليه للخروج من تبعات ذلك الذنب قبل الله توبته، ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢].

١٤٣ ـ قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف: ٢٤]، إن تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المالية ووسائل الإنتاج كما زعم إنجلز وماركس في نظرياتهما الاقتصادية،

ولكن الصراع الذي يُحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال. الخير والحق والهدى المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بوساطة الأنبياء والمرسلين، وبين الشر المتمثل بالشَّيطان وأوليائه من الجِنِّ والإنس.

١٤٤ ـ وجه الله تعالى نداء لبني آدم عامة في قوله تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ففي هذا النداء تحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة، أن يستسلموا للشيطان، فيما يتخذونه من مناهج وشرائع وتقاليد؛ فيسلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنَّة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما، فالعري والتكشف الذي يزاولونه، والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً، هو عمل من أعمال الفتنة الشَّيطانية وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم، وأن ينتصر في هذه المعركة، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف.

١٤٥ ـ إن الانقطاع عن ذكر الله يسبّب للمسلم جفافاً روحيّاً، وذكر الله يروي هذا الجفاف ويتسامى بالروح نحو خالقها، ودوام ذكر الله والإكثار منه من الأمور المأمور بها شرعاً. وسمو الروح من أهم الوسائل في الارتقاء بإنسانية الإنسان والتي تُكوّن معيناً وزاداً معنويّاً لأداء رسالته المنوطة به في الأرض وتحقيق أشواقه الروحية في عبادة خالقه العظيم. والتوازن في طبيعة الإنسان المادية والروحية وسيلة عليا للارتقاء بإنسانية الإنسان والعبودية في مراتب الغطاء الديني والدنيوي لتكون صلته بالأرض وعمارتها وصلته بالسماء متوازنة لا يطغى جانب على جانب ولا يتفضل أحد المزيجين عن الآخر. وإنما التوازن بين خصائص الطين وبين النفحة الربانية في الإنسان.

١٤٦ ـ من الوسائل الشَّيطانية في تزيين الباطل تسمية الأمور المحرمة بأسماء

محببة إلى النفوس، فأضل وأغوى بهذه الوسيلة الخبيثة كثيراً من الناس الذين كانوا يبتعدون عن المعاصي والمنكرات ويشمئزون منها، حين كانت الموبقات تُسمَّى بأسمائها الشرعية والعرفية، وهذا أمر ملاحظ في كثير من الناس الذين يقترفون المعاصي ويغشون المنكرات، فتجدهم يخرجون لأنفسهم بمخارج إبليسية، من أهمها إخفاء الاسم الحقيقي لتلك الأمور المحرمة وتقنيعها بأسماء أخرى مغرية، فسموا الزنى حرية شخصية، وسمُّوا الخمر بالمشروبات الروحية، وسمّوا سفور المرأة وتبرُّجها خارج بيت الزوجية واختلاطها بالرجال الأجانب حضارة وتقدماً ومدنية، والربا فوائد، والغش والخيانة ذكاء وفطنة و«دبلوماسية»... إلى غير ذلك من المعاصي والمنكرات التي قنَّعها دعاتها بأسماء لامعة.

١٤٧ ـ التزيين والإغواء هما ركنا الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، وقد استخدم الشَّيطان أساليب عديدة لإغواء بني الإنسان وهي أساليب تدل على المكر والدهاء وإجادة الأدوار، ومنها التشكيك بوجود الخالق، والتشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الأصنام، والتشكيك في العقائد الإيمانية، مثل إنكار الملائكة والجن وبعث الرسل واليوم الآخر وغير ذلك. والتشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام.

١٤٨ ـ يُعد الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعِظم المنزلة في الآخرة، لذلك كان لابد أن يتصدر هذا الخلق كل الأخلاق السلوكية الإيمانية والفردية والاجتماعية لما يقصد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

١٤٩ ـ إن التصور القائل بأن للشيطان قدرة يستطيع بها أن يجبر الإنسان على ترك الطاعات وفعل المعاصي، ومن ثم فلا ذنب على الإنسان إذا قصر في طاعة

الله أو فعل معصية من المعاصي، إنما سببه الجهل بالقرآن الذي بيَّن حقيقة الشَّيطان، وهذا هو عين الشرك في الربوبية، ولو كان للشيطان مثل هذه السلطة لكان في ذلك مناقضة لتكليف الله للبشر، وفي ذلك مناقضة صريحة لما في القرآن الكريم؛ لأن التكليف مبني على قدرة الإنسان على اختيار الخير أو الشر، فالله بعث الرسل على مدار التاريخ لاختبار هذه الإرادة عند الإنسان، فإما أن يستجيب هذا الإنسان لداعي الله، وإما أن يستجيب لداعي الشَّيطان الذي يوسوس للإنسان بالجنَّة أو النار.

١٥٠ ـ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، إنما هو إقرار بأن العبودية لله تُحرِّر الإنسان من العبودية لسواه. ولا حر إلا من اختار نهج العبودية لله، والعبودية نوعان: عبودية اختيار وهؤلاء هم العباد وعبودية اضطرار وهؤلاء هم العبيد، والإنسان بين خيارين إما الهدى والرشاد وإما الغي والضلال. وقد كرر القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

١٥١ ـ قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، فالسلم والأمن من أهم أوصاف وأحوال أهل الجنَّة ودخولهم إليها وفيها. والترويع أكثر ما واجه المسلمين والمؤمنين من الأذى في الدنيا، والأمن والسلم أول ما يواجهون في الآخرة، وهو نقيض ما كانوا عليه. وقوله تعالى: ﴿بِسَلَامٍ﴾: أي سالمين أو مسلماً عليكم؛ ولذا وجب إحياء تحية الإسلام.

١٥٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، فالله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وإحسانه أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه أحدث له ذلك الخوف والرهبة والإقلاع منها.

١٥٣ ـ إن لإبليس أصواتاً عالية يطلقها ويرفعها ليؤثر بها في جنوده ويستفزهم ويحذرهم ويصرعهم ويهلكهم، وهم ينفعلون مع تلك الأصوات الشَّيطانية ويخضعون لتأثيرها واستفزازها وأصوات الشَّيطان تملأ العالم في هذا الزمان، وتسحر الذين يسمعون لها ويتفاعلون معها، وكل داعٍ إلى معصية الله هو صوت لإبليس.

١٥٤ ـ ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾: لعل هذا من أخطر أساليب الشَّيطان، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشَّيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف إلى تلك النفوس المتحرجة ويزين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة، وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية المخادعة كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص والوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة.

١٥٥ ـ الله عزَّ وجلَّ هو الوكيل الحق الذي يغنينا ويرضينا ويكفينا وعندما نتعامل مع هذا الاسم تعاملاً حقيقياً لا نكتفي بمعنى الوكيل تعريفه. فالقضية أكبر من ذلك، المهم أن نكل إليه أمرنا، ولا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاص شديد وبصدق بالغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا يتولّى الله أمره.

١٥٦ ـ إيمانك ببداية الخلق تصديق، لأن هذا الشيء يعجز عن الوصول إليه فلا بدَّ من التصديق به فنحن لا نعرف ما كان في الماضي السحيق، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن لا نعرف ما سيكون في المستقبلِ البعيد وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، فأنت بين تحقيق فيما وُكِلَ إلى عقلك وتصديق لما عجز عنه عقلك.

١٥٧ ـ كلما تقدَّم العلم كشف خطأ ما فسره العلماء المنحرفون، فالإنسان مخلوق من حيوان منوي واحد من بين ثلاثمئة ألف حيوان، يلقح بويضة فتنقسم

في ثمانية أيام إلى عشرة آلاف قسم، ثم تلتصق بجدار الرحم ثم يبدأ تكوّن الدماغ والأحشاء والأعضاء، وهذا في تسعة أشهر وعشرة أيام، فيصبح طفلاً كاملاً له دماغ وجمجمة، ومخ، ومخيخ، وبصلة سيسائية ونخاع شوكي، وقلب وشرايين ورئتان ومعدة وأمعاء وكبد وبنكرياس، وكليتان ومثانة، وأعصاب وعضلات، وعظام، وجلد، وغدد دهنية، وغدد صبغية.

١٥٨ ـ يجب علينا البعد عن المُضلِّين الذين يتحرّكون في الموقع الذي يمنع الناس عن السّير في خط الهدى، ويبتعد بهم عن الإيمان بالله وعن خطّ طاعته، فلا ندخلهم في مشاريعنا الثقافية والاجتماعية والسياسية ليكونوا لنا أعواناً في تخطيطها وتنفيذها، لأنهم لن يكونوا في موقع الإخلاص للأهداف الكبيرة التي نستهدفها، بل يكونون مشكلة لنا في الاستفادة من هذا الموقع للتخريب والإرباك والإضلال، ولا بد لنا من اختيار الناس الطَّيِّبين المخلصين الذين يلتقون معنا بالفكر والخط والهدف في عملية تكامل وتعاضد وانسجام.

١٥٩ ـ كانت الحياة الإنسانية الأولى تشق طريقها على هذه الأرض، وعرف الأبوان وأولادهم وأحفادهم كيف يوفرون لقمة العيش واحتياجاتهم الحيوانية والنباتية والصناعية والسكنية... إلـخ. فاستصلحوا الأراضي للزراعة، وكان الماء متوفراً من الأمطار المحجوزة في أغوار من التلال، وقد تمكنوا من صنع رحى لطحن القمح وكذلك محراثاً حجرياً، وقطعوا أخشاب الأشجار العتيقة وبنوا كانوناً لطهي الطعام، وتعلموا استخراج النار من قدح الأحجار الصخرية، وكان الله عزَّ وجلَّ يلهم آدم مما علمه من أسماء الأشياء ووظائفها فهيأ لعائلته حياة طيبة رغدة، واستجابت له الأرض ومطر السماء بإذن الله عزَّ وجلَّ، فأعطت من خيراتها الكثير الكثير وهذا من تسخير الله مخلوقاته للإنسان.

١٦٠ ـ أكرم الله آدم عليه السلام بالنبوة والرسالة الربانية، فعبد الله كما علمه الله وبلغ رسالته لأبنائه، وبدأ يعلم أولاده شرع الله تعالى وكيفية عبادة الله

والإخلاص له، وسعى بكل ما يستطيع لإقامة شرع الله في الأرض، وتحقيق العدالة في الخلق على الأرض.

١٦١ ـ إن ميراث أمة محمد ﷺ للبيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس، دليل على أن قيادة البشرية تنتهي إليها، وأنها وريثة آدم في التوحيد والإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وإفراده وحده سبحانه وتعالى بالعبودية، وأنها الأمة الشهيدة على الناس قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

١٦٢ ـ لا يخفى أن كل خطاب لبني آدم في القرآن إنما يُقصد به الجنس البشري جميعاً، فإن ما في القرآن من تشريع وعظة وبيان وامتنان يُقصد به الناس جميعاً، ولا تختص به طائفة دون غيرها، وكما تبين أن ما يُوجَّه من خطاب إلى بني آدم فهو لجميع الجنس البشري، كذلك أيضاً ما يوجه من خطاب إلى الناس لا تختص به طائفة من البشر دون أخرى، كما في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٦٣ ـ إن أفضل ما يعطي التصور الحقيقي والعلم اليقيني عن نشأة الإنسان وبداية خلقه وعلاقته بالكون والمخلوقات والخالق العظيم (الله عز وجل) هو القرآن الكريم، وما ثبت من الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

١٦٤ ـ إن صفة الملك لله عزَّ وجلَّ تقتضي الحكمة في خلق الخلق، وعدم تركهم سدى، كما تقتضي إرسال الرسل وإنزال الكتب وأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وهذا ما بيَّنته الآيات الكريمة التي جاءت بعدها وفصلت قصة آدم عليه السلام وعداوة الشَّيطان له، وأهمية تتبع هدى الله وخطورة مخالفته كما سيأتي بيانها بإذن الله تعالى، لأن من لوازم الملك لله تعالى الحكم والتشريع، فكان لازماً على العباد قبول حكم الله وشرعه ورفض ما سواه والإعراض عن التحاكم لغيره، فالحكم لله وحده.

١٦٥ ـ لقد بقي ذنب آدم عليه السلام أمام عينيه حتى هرب من ربه حياءً وخجلاً، النسيان كان من قبل، والذكر الدائم كان من بعد، وظل إلى الأبد حتى يوم القيامة يذكر ذنبه ويعتذر عن الشفاعة. الخطير أن يحيط النسيان بالعبد قبل الذنب وبعده، ويمضي قدماً لا يلوي على شيء.

١٦٦ ـ تميز آدم بالذاكرة الإنسانية والحفظ، ولذا وُصف بالنسيان، النسيان استثناء في مقابل تعليم الأسماء كلها وإلهام اللغة، كما المعصية استثناء والأصل الاستقامة[1]. فكما أن آدم عليه السلام ورَّثَ ذريته الذاكرة الجيدة المصممة لبناء الحضارة وتطوير المعرفة، فقد ورّثهم النسيان المساعد على التكيُّف والتجدد وتجاوز العثرات.

١٦٧ ـ تحدث القرآن الكريم عن غريزة الزوج حين آن لآدم عليه السلام أن يزاول اختصاص بشريته، وأن يتحول إلى أفق غرائزه، كان أول غريزة نوى إليها هي «غريزة الزواج» وذلك قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥].

١٦٨ ـ أهم غرائز الإنسان التي جاءت في قصة آدم عليه السلام: (غريزة الزواج ـ غريزة الخلود ـ غريزة التملُّك ـ غريزة التدين).

١٦٩ ـ قد تطغى غريزة التملُّك في الإنسان، فيصير بها عنصراً فاسداً في الأرض، وآلة تخريب وتدمير، وقد تعتدل وتتهذَّب بالأهداف السامية، فيكون بها عنصر خير وبر وعمارة، وفي القرآن الكريم مثل تاريخية واقعية تبين طغيان تلك الغريزة في نفوس أصحابها أو اعتدالها، وتبين أثرها الاجتماعي في الحالتين، ولكنا لسنا بصدد بيان شيء من ذلك، وقد أكل آدم من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية التي تنزع إلى الملك والخلود.

١٧٠ ـ جاءت التعاليم الربانية لآدم عليه السلام هادية لبنيه وذريته إلى

(١) علمني أبي آدم، العودة، مصدر سابق، ص٨٨.

ما يصلح شأنهم عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، واجتهد آدم عليه السلام في رفع مشاعر أبنائه الإنسانية نحو الكمال المرغوب، وحرص على تطهير نفوسهم من الأدران الأرضية، وعمل على بناء لبنات صالحة يُقيم عليها تأسيس الحضارة الإنسانية الأولى القائمة على النقاء والطهر والاتجاه الصادق في إرضاء الله وحده دون سواه.

١٧١ ـ هبوط من الجنَّة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنَّة ونجاة من الشقاء والضلال، وفسحة في الحياة يقابلها الضنك وهداية يقابلها العمى. . . ويجيء هذا تعقيباً على قصة آدم ـ وهي قصة البشرية جميعاً ـ فيبدأ الاستعراض في الجنَّة وينتهي في الجنَّة كما مر معنا في سورة الأعراف، مع الاختلاف في الصور الداخلة في الاستعراض هنا وهناك، حسب اختلاف السياق.

١٧٢ ـ الإنسان كائن راقٍ جدّاً، فإذا ذهبت روحه أصبح مخيفاً، والغرفة التي ينام فيها تبقى أياماً بل أسابيع بل شهوراً مهجورة في البيت، مع أنه هو كان مصدر أنس البيت، فهو الأب، فإذا دخل هبّ إليه أولاده فرحين، فما الذي حدث حينما انسحبت هذه الروح؟ أصبح مخيفاً، وأصبح جثة هامدة بعد أن كان مصدر النظافة والعطور الفواحة، وإن مات في الصيف احتاج إلى حمض الكلور، وإلّا خرجت منه روائح كريهة.

١٧٣ ـ يظهر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام جهل إبليس في افتخاره بمادته التي خُلق منها؛ جهل ظاهر من وجوه: **الأول**: أن أصل بعض الأشياء النفيسة خسيس أو نجس أو قذر؛ فالمسك من الدم، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم والأقذار التي تُعاف من مادة الطعام الذي يُحبُّ ويُشتهى. **والثاني**: أن الملائكة خُلقوا من النور، والشَّيطان خلق من مارج من نار وما فوقه دخان وما تحته لهب صافٍ، ولا شك في أن النور خير من النار، والملائكة على قدرهم وحسن خلقهم امتثلوا لأمر الله وسجدوا لآدم، فكان هو أولى بالسُّجود.

١٧٤ ـ العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة، ويسوقانه سوقاً إلى التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند أمر الله، وافتخر وتكبّر بأصله وامتنع عن السُّجود، ولم يتنازل عن مبدئه مع علمه بهلاكه، نعوذ بالله من غضبه وأليم عقابه.

١٧٥ ـ إن معصية إبليس معصية عظيمة وخطيرة، ولهذا كررها الله في القرآن الكريم وأعادها بضع مرات لنكون منها على غاية الحذر، ومعصية الكبر أو ما يُسمَّى جنون العظمة يؤدي في الغالب إلى الكفر ـ والعياذ بالله ـ لأن المتكبر لا يرى غيره، فيغمط الناس حقوقهم، ويرد الحق ولو كان مثل الشمس.

١٧٦ ـ إن التاريخ الإنساني بدأ من أول إنسان خلقه الله في الأرض بخصائص كاملة في مكوناته العقلية والنفسية والروحية، وفي أخبار آخِرِ كتاب منزل من الله فإن ذلك الإنسان هو آدم الذي هيأه الله ليكون خليفة في الأرض بأعماله الحضارية التي تصدر منه بإرادته، وعلى أساس الإيمان بالله واتباع هداه.

١٧٧ ـ إن آدم عليه السلام هو المربي الأوّل للإنسانية والمعلم الكبير للبشرية جعل من التفكير والتأمل مدرسة أصيلة بين أبنائه لمعرفة الله عزَّ وجلَّ ومعرفة تأثير أسمائه وصفاته ثم عبادته وخشيته وطاعته والالتزام بأوامره ونواهيه والوقوف عند تعاليمه، وغرس في أبنائه قيمة الحرية في التفكير والتعبير عن كينونتهم الإنسانية، والتحرر من عبودية الشَّيطان والأهواء، وإفراد الله بالعبادة بالعقل والمنطق والوجدان والفعل والأقوال، وعمارة الكون على وفق منهج الله القويم.

١٧٨ ـ إن في قول الشَّيطان: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، دليلاً على اجتهاد الباطل وأهله، وتقاعس حملة الحق، فهذا الشَّيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سيُنجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي من الزمان، ولئن كانت أطول مدة من دعوات الأنبياء والمرسلين، وممن دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً «نوح عليه السلام» فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم، وهو درس لنا نحن المؤمنين من نحمل الحق. ولقد صدَّق إبليس ظنه وهذا ليس

غريباً، فمن خطّط حصد، ومن جدّ وجد ولو في مجال الشر والشيطنة.

١٧٩ ـ الفطرة غراس رباني جِبِلِّي يملكه كل إنسان، وحرص آدم عليه السلام على سلامة فطرة أولاده وذريته وخيريتها، وعمل على حمايتها من الفساد والضلالات بهدايات السماء، وأساس الفطرة هو توحيد الله عزَّ وجلَّ، وجذور هذه المعرفة عميقة في النفس، ولا سبيل إلى إنكارها أو التخلص منها.

١٨٠ ـ كان آدم عليه السلام قدوة لبنيه في توحيد الله، وإفراده بالعبادة وعمارة الأرض، وساهم ذلك في الاستفادة من رصيد الفطرة لأولاده في عبادة الله وعمارة الأرض، فالفطرة السليمة مجبولة على توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة والسعي في إعمار الأرض.

١٨١ ـ خلق الله آدم للخلود، فالأرواح باقية، والموت عبور إلى مرحلة جديدة، وليس عدماً ولا فناء محضاً، والرغبة في الخلود مغروسة في جبلة آدم وأمنية له ولولده، ولكن بصيغة أخرى تستشعرها الروح لأنها من شأنها. فالموت ليس لعنة على الأبوين بسبب الخطيئة.

١٨٢ ـ هيأ الله آدم وحواء للأرض قبل أن يهبطا إليها، فإنَّه لما كانت الحياة على هذا الكوكب الجديد، كوكب الأرض، تقتضي معرفة أحواله وماضيه وكيفية التعامل معه وأساليب العيش والأكل والشرب والزراعة والعمل والطبخ وطرائقه، والسعي في الأرض بما يُقيم حياة الإنسان، ويحقق مبدأ الخلافة فيها وعمارتها.

١٨٣ ـ الولادة عملية إنتاج إنسان من إنسان، وهي بحاجة إلى كثير من الدعاء والتوجه إلى الله تعالى، فهي لحظات صعبة وشديدة على الأم الوالدة، ولا يملك الفرد منا أن يكافئ أمه بشيء من آلام الطلق والولادة، حتى لو طاف بأمه على عاتقيه حول الكعبة بالحج.

١٨٤ ـ بدأت الحياة على الأرض بالتزاوج والتكاثر والتوالد، ولا بد من أن آدم

مع شريكة حياته أدارا ما حولهما من أمر الأسرة وتوزيع الأدوار وحل المشكلات بطريقة مناسبة، وسعيا إلى معرفة نواميس الكون من حولهما وتحقيق العبادة لله وعمارة المعمورة، ونرى في قصة الخلق والتكليف والإعمار أن السيدة حواء عليها السلام لم تغب عن مسرح الأحداث، وإنما كانت في ظل آدم عليه السلام بالمعنى الخفي وليس المُبهَم الغامض، فهي شريكة له في كل التكاليف الشرعية والعمرانية والتربوية وغيرها من المهمات التي تحس المرأة بواجب الوقوف مع زوجها راعية له معينة على همومه ومواجهة المشكلات التي تعترضه.

١٨٥ ـ إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم، فأصل الإنسانية «آدم وحواء، رجل وامرأة» خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة، وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة، لهذا فهي تخطئ وتحاسب على خطئها.

١٨٦ ـ الرجل مسؤول والمرأة مسؤولة، وكلاهما يكملان جوهرة الحياة في الدنيا والآخرة، ولكل بريقه في هذه الجوهرة، لا يطفئ أحدهما الآخر ويسرق بريقه.

١٨٧ ـ رتب آدم عليه السلام قبل رحيله أمر خلافته، وعهد إلى أحد أبنائه من بعده بعد ما علّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية ومهارات القيادة لاستمرار الحضارة الإنسانية الأولى، ومرض آدم عليه السلام وأحس بقرب الرحيل وودّع أهله وأولاده، وكان يردد الكلمات المباركات التي تلقّاها من ربه، التوحيد والاستغفار والاعتراف بالذنب: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨٨ ـ إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان، لأنها كانت بداية الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسفة معينة لبدء الخليقة، فجاء هذا الكتاب مفصلاً لبدء الخليقة معتمداً على كتاب الله عزَّ وجلَّ

ومستنداً إلى كتابه العزيز الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

١٨٩ ـ إن بداية الحضارة الإنسانية الأولى في الأرض بدأت من خلال رجل وامرأة بتكوين أسرة صغيرة وفق علاقة الزواج الذي هو من سنن الله في خلقه، وفي الأرض كانت حوّاء أم الأمهات وقدوتهن في الأمومة، وكل ما تقوم به النساء من أعمال، كانت حوّاء قد غزلت، ونسجت، وعجنت، وخبزت وعملت أعمال النساء كلها، ثمّ علّمت بناتها تلك الأمور لتستمر مسيرة البشرية إلى ما شاء الله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

١٩٠ ـ عاش آدم مئات السنين على الأرض، وشاهد الأولاد والأحفاد، ومِن بعدهم خلّد الله آدم بذريته ولدى كل الشعوب.

١٩١ ـ إن آدم عليه السلام كان نبيّاً يعبد الله وحده، وعلم أبناءه التوحيد، فقد سئل النبي ﷺ عن آدم: «أنبيٌّ هو؟ قال: **نعم، نبيٌّ مكلَّمٌ خلقَه الله بيدِه، ثم نفخَ فيهِ رُوحَه**».

١٩٢ ـ التوحيد هو المنهج الذي صحب البشرية منذُ بدئها، وعليه قامت الحياة وعمرت الأرض، ومن أجله خلق الله الجن والإنس: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وأما الشرك والكفر والفساد والضلال فكل ذلك طارئ وانحراف عن أصل الخلقة والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

١٩٣ ـ حرص آدم عليه السلام على غرس عبادة الله في ذريته، وتحقيق العبودية لله قيمة كبرى تسمو بالإنسان إلى معالي الأمور، وترفع مستواه على سائر المخلوقات، وتعتبر من القيم الكلية الكبرى التي من أهمها العدل والإحسان والحكمة، وتعتبر قيمة العبودية لله عزَّ وجلَّ من أرقى القيم الإسلامية التي دعا إليها آدم عليه السلام وموكب الأنبياء والمرسلين من بعده. والأنبياء والمرسلون وعلى رأسهم آدم عليه السلام ينظرون إلى العبادة على أنها شاملة لكل نواحي الحياة دون خروج شيء منها عن شرع الله تعالى، ودون بتر وتجزئة لمفهومها العام.

١٩٤ ـ عاش آدم عليه السلام وفيّاً للرسالة الربانية وللخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، عاملاً على حقن الدم ومنع الفساد والوفاء لتعاليم الله عزَّ وجلَّ، واقترب الرحيل من الحياة الدنيا وحان وقت الأجل والمغادرة، والموت هو نهاية المطاف لجميع الخلق في الدنيا، وهذه سنة الله في خلقه، فالموت مقدّر في اللوح المحفوظ منذ خُلق الإنسان، فإذا جاءت ساعة الإنسان جاءته المنية ولو كان في بروج مشيدة، قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨]، فحينما يأتي الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

١٩٥ ـ تُعتَبر العبودية لله أساس القيم كلها، فهي قيمة كلية شاملة مهيمنة على القيم الأخرى، بل وعلى الوجود الإنساني كله، وذلك لأنها تبدأ بالإيمان بالله ربّاً وإلهاً مشرعاً، وبرسله ابتداءً من آدم عليه السلام إلى رسالة محمد ﷺ.

١٩٦ ـ إن آدم وحواء تحرَّرا من وسواس إبليس، وتغلَّبا على كيده ومكره، وحقَّقا كامل الحرية الإنسانية، التي تنسجم مع الفطرة وتُقنع العقل وتُرضي الوجدان البشري: فكلما ازداد القلب حبّاً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد عبودية ازداد له حبّاً وحرية مما سواه.

١٩٧ ـ كان آدم عليه السلام حريصاً على تربية أولاده وأحفاده على جدار القيم الأخلاقية الأصيلة المستمدة من هدايات السماء التي أوحاها الله إليه، والإنسانية بفطرتها تميل إلى حب الخير والفضيلة، والله عزَّ وجلَّ منذُ خَلق آدم عليه السلام وبارك في ذريته يعلم ما يُزكِّيه ويرفعه، ويعلم ما يُدنِّسه ويُهبطه ويُلغي إنسانيته، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

١٩٨ ـ إن من مساوئ النظرة التاريخية الغربية للأحداث في المسيرة الحضارية الإنسانية هو إغفالها وتجاهلها الجوانب التاريخية لعلاقة الإنسان بالله وما كان من تداعياتها، ولذلك لم ينصفوا قادة البشرية وسادتها في القيم الروحية والأخلاقية والتشريعية، وهم الأنبياء والمرسلون ابتداء من آدم عليه السلام إلى

خاتم النبيين، بل تعرّض الكثير منهم للتشوية والتزوير والإفك المبين.

١٩٩ ـ نجح آدم عليه السلام وزوجه وأولاده في تحقيق العبودية لله وعمارة الأرض، والعمل بمقومات الاستخلاف فيها، ومن الوسائل التي استخدمها آدم وبنوه في عمارة الأرض التي هي رحمة من الله بعباده: العقل، والفطرة، والحواس، والمنهج الرباني، والاستخلاف في الأرض.

٢٠٠ ـ من مظاهر التكريم للإنسان أن الله سخر له الكون وما فيه انتفاعاً واستثماراً من أجل أداء أمانة الاستخلاف وتحقيق العبودية الكاملة لله، وقد تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء، مهيأ في أصل صنعته من قبل صانعه تهيئة مقدرة، بحيث يستجيب الإنسان بقدر، فيما خص به من مهمة الحياة.

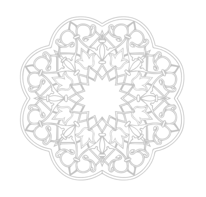
٢٠١ ـ إن العبودية لله تعالى تحرر الإنسان من العبودية لغيره، فهي بذلك تحقق له منتهى الكرامة الإنسانية، فهي تُزكِّي نفسه وتربطه بخالقه وترفعه من ثم فوق عناصر الذل والهوان التي كان أسير شباكها، وكلما بذل جهداً أكبر في تحقيق العبودية الخالصة تعالت نفسه وتسامت فازدادت كرامته وارتفعت تبعاً لذلك.

٢٠٢ ـ الحضارة الربانية التي قادها الأنبياء والمرسلون، منذُ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، تنظر إلى العلم باعتباره يشمل جميع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أو الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب، أو النقل والسماع كاللغة، أو الوحي والنقل كعلوم الدين.

٢٠٣ ـ لا تكتمل كرامة الإنسان إلا بالحرية، فالإنسان يولد حرّاً وينبغي أن يبقى حرّاً، ومن ثم فلا سلطة لأحد على أحد، ولا سيادة لأحد على أحد لاستعباده في هذا الوجود، كما قال عمر رضي الله عنه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فالحرية إذن من المشترك الإنساني الذي تقدره وتقرره كل الأديان وجميع الحضارات وكل الشعوب والأمم منذُ القدم إلى يومنا هذا، ومن أجلها ناضلت الشعوب، وقاومت الاستعمار بكل أنواعه.

٢٠٤ ـ إن الأمة التي ورثت الحضارة الربانيّة التي أسسها آدم عليه السلام وطوّرها الأنبياء والمرسلون من ذريته هي الأحق بالاستخلاف فيما بعد الحضارة الغربية، إذا أخذت بسنن الله في النهوض الحضاري، وتعاملت مع قوانينه على مستوى القادة والنخب والشعوب، وما من شيء يحول دون ذلك إذا جددت صلتها بدينها، والتزمت صراط الله المستقيم وهديه القويم.

* * *



المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم**، عبد الله ميرغني محمد صالح، دار الاعتصام.

٣ ـ **الصلاة وحكم تاركها**، أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٤ ـ **إثبات علو الله على خلقه «مائة دليل من الكتاب والسنة»**، جمع وإعداد: أبي الحسن خوجلي إبراهيم عمر، ٢٠١٥م.

٥ ـ **الإجابة القرآنية كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية**، مهاب السعيد، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الإسماعيلية، مصر، ط١، ٢٠١٦م.

٦ ـ **اجتماع الجيوش الإسلامية**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٩٨٨م.

٧ ـ **أحكام المقابر في الشرعية الإسلامية**، عبد الله بن عمر السحيباني، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٣، ١٤٣٣هـ.

٨ ـ **إحياء علوم الدين**، أبو حامد محمد الغزالي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٩ ـ **الإخلاص في القرآن**، حمد محمد الوهيبي، دار التوحيد، ط١، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.



١٠ ـ **الأخلاق الإسلامية وأُسسها**، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ـ بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١١ ـ **أخلاق النبي في القرآن والسنة**، أحمد عبد العزيز الحداد، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٢ ـ **آدم بين التطور والتطور الموجه والوحي**، إبراهيم الشحات محمد خميس، مركز تكوين، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

١٣ ـ **آدم عليه السلام بين اليهودية والنصرانية والإسلام**، أحمد جابر العمصي، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان.

١٤ ـ **آدم عليه السلام خلقه ومعصيته**، إبراهيم النعمة، المكتبة الوطنية، طبعة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٥ ـ **آدم عليه السلام من وحي القرآن**، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٦ ـ **آدم عليه السلام**، محمد البهي، دار البشير، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٧ ـ **آدم وحواء أسرار وحقائق**، محمد عبد الباقي فهمي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م.

١٨ ـ **آذان الأنعام**، عماد محمد بابكر حسن والمهندس علاء الدين محمد بابكر حسن، دار وعد، القاهرة، ٢٠١١م.

١٩ ـ **الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والمرسلين**، محمد وصفي، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٠ ـ **إرشاد العقل السليم**، **أبو السعود**، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٢١ ـ **أزمة العقل المسلم**، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، كوالالمبور، ١٩٩١م.

٢٢ ـ **إزهاق الباطل الرد على شبهات القمص زكريا بطرس،** صلاح أبو السعود، دار الطَّيِّبة للطباعة، الجيزة، ط١، ٢٠٠٩م.

٢٣ ـ **الأساس في التفسير**، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.

٢٤ ـ **استخلاف الإنسان في الأرض**، فاروق الدسوقي، دار الدعوة للنشر والطبع والتوزيع، الإسكندرية.

٢٥ ـ **أسرار التكرار في القرآن**، محمد بن حمزة الكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

٢٦ ـ **الإسلام والتنمية الاجتماعية**، محسن عبد الحميد، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٧ ـ **الأسماء والصفات**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد الله محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، ط١.

٢٨ ـ **إشراقات سورة الكهف**، ناصر العمر، مؤسسة ديوان المسلم، الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٢٩ ـ **أصل الإنسان بين الإسلام والفكر المادي**، صالح الفريج.

٣٠ ـ **أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية**، موريس بوكاي، ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية.

٣١ ـ **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ط٢، ١٩٨٥م.

٣٢ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م.

٣٣ ـ **إعجاز القرآن**، أمير عبد العزيز، مكتبة دنديس، عمان، ٢٠٠٤م.

٣٤ ـ **الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث**، مروان وحيد شعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦.

٣٥ ـ **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

٣٦ ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشَّيطان**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢ هـ.

٣٧ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار إشبيلية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٨ ـ **آكام المرجان في أحكام الجان**، محمد بدر الدين الشبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٩ ـ **الاكتشافات العلمية الحديثة**، سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط ١، ١٩٨٧هـ.

٤٠ ـ **الأمانة في الإسلام**، عبد اللطيف إبراهيم، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٦هـ.

٤١ ـ **الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله**، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٣م.

٤٢ ـ **الأمثال القرآنية**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٠م.

٤٣ ـ **الإنسان الصالح وتربيته من منظور إسلامي**، علي خميس الغامدي، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م.

٤٤ ـ **الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر**، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ ـ١٩٨٩م.

٤٥ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التنزيل**، ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ ـ١٩٨٢م.

٤٦ ـ **آيات النبات في القرآن الكريم**، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤٧ ـ **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ٢٠٠٣م.

٤٨ ـ **الإيمان بالقدر**، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، ط٢، ٢٠١١م.

٤٩ ـ **الإيمان بالملائكة**، الصلابي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٥٠ ـ **الإيمان باليوم الآخر**، علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، ط٢، ٢٠١١م.

٥١ ـ **الإيمان والحياة**، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٣٩٩هـ.

٥٢ ـ **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٥٣ ـ **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق عبد الله بن

عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٩٩٧م.

٥٤ ـ **بدائع التفسير**، ابن القيم، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٥٥ ـ **البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية**، عبد المجيد العرجاوي، دار وحي القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٨م.

٥٦ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٥٧ ـ **بين الإسلام والمسيحية**، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق محمد شامة، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٢.

٥٨ ـ **بينات الرسول ومعجزاته**، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة.

٥٩ ـ **التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٦٠ ـ **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٦١ ـ **التخويف من النار**، ابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان، ١٩٨٨م.

٦٢ ـ **التدبُّر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن**، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٦٣ ـ **التربية الجنسية في الإسلام**، عبد الرحمن داود، شركة دار البيروني، ط١، ٢٠١٧م.

٦٤ ـ **التسبيح في الكتاب والسنة**، محمد كندو، مكتبة دار المنهاج، ط١، ١٤٢٦هـ.

٦٥ ـ **التسهيل لتأويل التنزيل (سورة الأعراف)**، أبو عبد الله مصطفى العدوي، مكتبة مكة، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٦٦ ـ **تفاحة آدم وشجرة الختام**، بشير محمد، دار العرّاب، دمشق، سوريا، حلبوني الجادة.

٦٧ ـ **التفسير التوحيدي**، حسن الترابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٦٨ ـ **التفسير الحديث**، محمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٦٩ ـ **تفسير الشعراوي**، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة.

٧٠ ـ **التفسير العلمي المعاصر**، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

٧١ ـ **التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه وموقف العلماء منه**، بكر زكي إبراهيم عوض.

٧٢ ـ **تفسير الفاتحة**، ابن قيم الجوزية.

٧٣ ـ **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩م.

٧٤ ـ **تفسير القرآن الكريم**، **ابن عثيمين**، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٧٥ ـ **تفسير القرآن الكريم**، عبد الله شحاته، دار الغريب، القاهرة.

٧٦ ـ **تفسير القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧٧ ـ **التفسير الكبير: مفاتيح الغيب**، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٧٨ ـ **تفسير المدينة**، نخبة من العلماء، مركز تعظيم القرآن الكريم، دار الصميعي، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

٧٩ ـ **تفسير المراغي**، أحمد مصطفى المراغي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٨٥م.

٨٠ ـ **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٨١ ـ **التفسير المنير**، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ.

٨٢ ـ **التفسير الموضوعي**، أحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٨٣ ـ **التفسير الموضوعي**، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٨٤ ـ **تفسير النابلسي**، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٨٥ ـ **التفسير الواضح**، محمد محمود حجازي، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١٠، ١٤١٣هـ.

٨٦ ـ **التفسير الوسيط**، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

٨٧ ـ **تفسير سورة الإسراء**، أحمد نوفل، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٨٨ ـ **تفسير سورة الحجر**، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط١، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م.

٨٩ ـ **تفسير من وحي القرآن**، محمد حسنين فضل الله، دار الملوك، بيروت، ط٣، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

٩٠ ـ **التفسير والبيان لأحكام القرآن**، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، مكتبة دار المنهاج، ط٢، ١٤٢٩هـ.

٩١ ـ **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط ١، ١٩٨٦م.

٩٢ ـ **تلبيس إبليس**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٩٣ ـ **تنوع خطاب القرآن في العهد المكي**، رجاء صالح البحر، مكتبة المتنبي، الدمام، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٦م.

٩٤ ـ **تهذيب سيرة ابن هشام**، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط١٤، ١٩٥٨م.

٩٥ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م.

٩٦ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠م.

٩٧ ـ **جامع الرسائل**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط ١، ٢٠٠١م.

٩٨ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.

٩٩ ـ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٩٩٧م.

١٠٠ ـ **الجيو حضارة أو جغرافية الأمم**، أحمد سريرات.

١٠١ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، ابن القيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ١٤٢٨هـ.

١٠٢ ـ **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط٥، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

١٠٣ ـ **الحريات من القرآن الكريم**، علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

١٠٤ ـ **الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية**، توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٥ ـ **الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية**، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، دار ابن القيم، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠٦ ـ **حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة**، يسرى السيد محمد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٠٧ ـ **حماية الرسول ﷺ حمى التوحيد**، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

١٠٨ ـ **الحوار والاستدلال في القرآن**، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني، دمشق، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

١٠٩ ـ **الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم**، المصطفى السماحي، عالم الكتب الحديث، إربد، ١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م.

١١٠ ـ **الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية**، المصطفى السماحي، مركز ابن غازي للأبحاث والدراسات الاستراتيجية، إربد، الأردن، ٢٠٢٠م.

١١١ ـ **خصائص الأمة الإسلامية الحضارية**، إبراهيم زيد الكيلاني، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١١٢ ـ **الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه**، أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١١٣ ـ **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

١١٤ ـ **الخلافة في الأرض**، أحمد حسن فرحات، دار عمّار، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

١١٥ ـ **الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية**، المستشار سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٦ ـ **خلق آدم ونظرية التطور**، محمد علي البار، سلالة من طين، مقال نشر على شبكة معلومات بصيغة pdf.

١١٧ ـ **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، محمد البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط٤، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

١١٨ ـ **خليفة الله في الأرض، الإنسان من الخلق إلى البعث**، عبد الحافظ سلامة حافظ، مركز الكتاب للنشر، ط١، ٢٠١٤م.

١١٩ ـ **دراسات أدبية لنصوص القرآن**، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط٤.

١٢٠ ـ **دراسات في العقيدة الإسلامية**، أحمد محمد أحمد الجلي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م.

١٢١ ـ **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه**، إسحاق بن عبد الله السعدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

١٢٢ ـ **دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة**، عبد الرحمن عبد الواحد شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء، اليمن، ط١، ١٤١٩هـ.

١٢٣ ـ **درج الدرر في تفسير الآي والسور**، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: وليد بن أحمد بن صالح الحسين وإياد عبد اللطيف القيسي، مجلة الحكمة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٢٤ ـ **الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية**، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.

١٢٥ ـ **دلائل الإعجاز العلمي**، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، ٢٠٠٦م.

١٢٦ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، الحافظ أبو بكر أحمد

البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٢٧ ـ **ديوان أبي العتاهية**، أبو العتاهية، دار بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٢٨ ـ **الرد على الجهمية والزنادقة**، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط ١.

١٢٩ ـ **رسالات الأنبياء**، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٥م.

١٣٠ ـ **الرسالة**، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م.

١٣١ ـ **الرسائل المفيدة**، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تصحيح عبد الرحمن الرويشد، دار العلوم، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

١٣٢ ـ **ركائز الإيمان**، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

١٣٣ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، محمود شكري الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٣٤ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت.

١٣٥ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٩٩٤م.

١٣٦ ـ **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة.

١٣٧ ـ **السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي**، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٩م.

١٣٨ ـ **سفر التكوين في ميزان القرآن من آدم إلى إبراهيم**، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٣٩ ـ **السلسلة الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٤٠ ـ **سنة الله في عقاب الأمم**، عبد السلام نصر الله، دار المقاصد، إستانبول، ط١، ٢٠١٥م.

١٤١ ـ **سنن ابن ماجه**، الحافظ أبو عبد الله بن زيد القزويني، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٤٢ ـ **سنن أبي داود**، الإمام أبو داود السجستاني، تحقيق وتعليق عزت الدعاس، ١٣٩١هـ.

١٤٣ ـ **سنن الدارمي**، عبد الله بن محمد بن الفضل السمرقندي، خرج آياته وأحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٤ ـ **سيرة آدم عليه السلام**، صلاح الدين الخالدي، دار الفاروق، عمان، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠١٦م.

١٤٥ ـ **سيرة آدم**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفاروق، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠١٦م.

١٤٦ ـ **شأن الدعاء**، أبو سليمان الخطابي، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤١٢هـ.

١٤٧ ـ **الشخصية النسائية في القصة القرآنية**، هدى عبد اللطيف عريان، دار غار حراء، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٤٨ ـ **شرح أسماء الله الحسنى**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد ١١٢، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

١٤٩ ـ **شرح السنة**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.

١٥٠ ـ **شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة النبوية**، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٨م.

١٥١ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.

١٥٢ ـ **صحيح البخاري**، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٥٣ ـ **صحيح الترمذي**، الألباني، مكتبة التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٥٤ ـ **صحيح تفسير القرآن العظيم**، مصطفى العدوي، دار ابن رجب، ط١، ٢٠١٠.

١٥٥ ـ **صحيح مسلم**، شرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٥٦ ـ **صفوة البيان في معاني القرآن**، حسين مخلوف، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٩٨٧م.

١٥٧ ـ **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥٨ ـ **صلاح الأمة في علو الهمة**، سيد حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥٩ ـ **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٦٠ ـ **ضوابط المعرفة**، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم، ط١، ١٩٨١م.

١٦١ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤هـ.

١٦٢ ـ **عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة**، عبد الكريم نوفان عبيدات، كنوز إشبيلية، ط٣، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٦٣ ـ **عبودية الكائنات لرب العالمين**، فريد إسماعيل التوني، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، فرع العقيدة.

١٦٤ ـ **العبودية**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار المدين للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٦٥ ـ **عداوة الشَّيطان للإنسان**، عبد المنعم الحواس، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٦٦ ـ **العقائد الإسلامية**، السيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٧ ـ **العقوبات الإلهية في القرآن الكريم**، عبد الهادي سعد هادي الشمراني، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٦٨ ـ **العقيدة الصافية**، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، ١٤٣٤هـ.

١٦٩ ـ **العقيدة في الله**، عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط١٢، ١٩٩٩م.

١٧٠ ـ **العلاج النفسي وخطورة المنطلق**، إدريس الوزاني، مركز التراث الثقافي المغربي، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٧١ ـ **العلامة اللغوية في قصة آدم عليه السلام**، هاني صبري آل يونس ورشا طه حامد، دار الحامد، عمان، الأردن، ط١، ١٤١٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١٧٢ ـ **العلم بين التوراة والإنجيل والقرآن**، موريس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٧٣ ـ **علمني أبي مع آدم من الطين إلى الطين**، سلمان العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

١٧٤ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٧٥ ـ **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق حسن خان القنوجي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٧٦ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر.

١٧٧ ـ **الفردوس المستعار والفردوس المستعاد**، أحمد العمري، دار الفكر، ٢٠٠٧م.

١٧٨ ـ **الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه،** أسامة ظافر كبارة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

١٧٩ ـ **فقه التحضر الإسلامي**، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

١٨٠ ـ **فلسفة الحياة الروحية**، مقداد يلجن، دار عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٩م.

١٨١ ـ **في التزكية والسلوك**، عدنان سعد الدين، دار عمار، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م.

١٨٢ ـ **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

١٨٣ ـ **الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين**، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط ١، ٢٠٠١م.

١٨٤ ـ **قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات**، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: أشرف بن محمد بن عبد المقصود، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٨٥ ـ **القرآن وقضايا الإنسان**، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطى، دار المعارف، القاهرة.

١٨٦ ـ **قصة أبينا آدم من الطين إلى الجنَّة**، منصور عبد الحكيم، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م.

١٨٧ ـ **قصة آدم**، عمر إيمان أبوبكر، دار الفكر العربي، ط١، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

١٨٨ ـ **قصة آدم**، ياسر برهامي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٥م.

١٨٩ ـ **قصة الخلق**، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ٢٠٠٨م.

١٩٠ ـ **فقه الشورى والاستشارة**، توفيق يوسف الواعي.

١٩١ ـ **قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل**، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٠م.

١٩٢ ـ **قصص الأنبياء**، إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٩٣ ـ **قصص الأنبياء**، عبد الوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٩٤ ـ **قصص الأنبياء**، محمد متولي الشعراوي، دار الراية، الجيزة، مصر، ٢٠١٨م.

١٩٥ ـ **قصص الأنبياء**، مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

١٩٦ ـ **قصص الرحمن في ظلال القرآن**، أحمد فائز الحمصي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.

١٩٧ ـ **قصص القرآن**، فضل حسن عباس، دار النفائس، لبنان، ط٧، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

١٩٨ ـ **القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث**، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩٩ ـ **القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط٢، ١٩٩٧م.

٢٠٠ ـ **القيم بين الإسلام والغرب**، مانع بن محمد بن علي المانع، دار الفضيلة، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٠١ ـ **كتاب الروح**، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة السادسة، ٢٠١٣م.

٢٠٢ ـ **كتاب السنة**، باب في الجهمية، أبو داوُد، صححه الألباني.

٢٠٣ ـ **الكرامة الإنسانية في الشريعة الإسلامية**، فاخر عباس عيسى الداودي، دار رواد المجد، دار العصماء، دمشق، ط١، ١٤٤٠هـ ـ ٢٠٢٠م.

٢٠٤ ـ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، الزمخشري، دار المعرفة، ١٩٦٧م.

٢٠٥ ـ **لا يأتون بمثله**، محمد قطب، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢م.

٢٠٦ ـ **لا يأتيه الباطل**، محمد سعيد رمضان، دار الفكر، دمشق، سوريا.

٢٠٧ ـ **لأنك الله**، علي بن جابر الفيفي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط١٣، ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

٢٠٨ ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٠٩ ـ **لطائف التعبير القرآني**، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط٤، ٢٠٠٦م.

٢١٠ ـ **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، موفق الدين أبو محمد عبد الله أحمد بن قدامة، مكتبة الإمام البخاري والدار السلفية، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢١١ ـ **الله أهل الثناء والمجد**، ناصر سفر الزهراني، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٣، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٢١٢ ـ **المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار**، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٨هـ.

٢١٣ ـ **مباحث في إعجاز القرآن**، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ.

٢١٤ ـ **مبادئ الإسلام**، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط٣، ١٩٦١م.

٢١٥ ـ **مجموع الفتاوى**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥م.

٢١٦ ـ **محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت.

٢١٧ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، الدوحة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م.

٢١٨ ـ **المحكم في العقيدة**، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط١.

٢١٩ ـ **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٦م.

٢٢٠ ـ **مختصر إغاثة اللهفان من مكائد الشَّيطان**، للإمام ابن قيم الجوزية، أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

٢٢١ ـ **مختصر العلو للعلي العظيم**، شمس الدين الذهبي، حققه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٢٢ ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م.

٢٢٣ ـ **مختصر تفسير البغوي**، عبد الله بن أحمد الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٢٢٤ ـ **مختصر شرح العقيدة الطحاوية**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠١م.

٢٢٥ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

٢٢٦ ـ **مدارك التنزيل وحدائق التأويل**، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطَّيِّب، بيروت.

٢٢٧ ـ **دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر ـ الأسس ـ الخصائص ـ التحديات)**، أحمد محمد بن جلي، ٢٠١٦م.

٢٢٨ ـ **مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي**، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٢٩ ـ **المرأة في القصص القرآني**، أسماء عبد المنعم العميري، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٢٣٩ ـ **مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات**، ابن حزم الظاهري، تحقيق: حسن أحمد أسبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.

٢٣١ ـ **المستدرك على الصحيحين**، الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٢٣٢ ـ **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٣٣ ـ **مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي أبو يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ٤، ١٩٨٤م.

٢٣٤ ـ **مسند أحمد**، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

٢٣٥ ـ **مسند البزار**، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتيكي، تحقيق: محفوظ عبد الرحمن زين الله وعادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٣٦ ـ **المسيح عيسى ابن مريم**، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٢٠م.

٢٣٧ ـ **المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة**، محمد علي الصلابي، دار ابن كثير، ط ١، ٢٠١٩م.

٢٣٨ ـ **المسيح والتثليث**، محمد وصفي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٩٣٧م.

٢٣٩ ـ **المشترك الإنساني**، راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٢٤٠ ـ **مشكلة الشر ووجود الله**، سامي عامري، إصدار المؤسسة العلمية للدعوة العالمية، رعاية مركز تكوين للأبحاث والدراسات، ط٢، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

٢٤١ ـ **مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي**، عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٤٢ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ٢/ ٢٠٥.

٢٤٣ ـ **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٨، ٢٠٠٥م.

٢٤٤ ـ **مصرع الإلحاد ببراهين الإيمان**، أحمد الخليلي، دار الكلمة الطَّيِّبة، مسقط، سلطنة عمان، ط١، ١٤٤١هـ ـ ٢٠١٩م.

٢٤٥ ـ **مطابقة أسماء الله الحسنى مقتضى المقام في القرآن «الأسماء المقترنة»**، نجلاء عبد اللطيف الكردي، رسالة دكتوراه، جدة، السعودية، ١٤٢٢هـ.

٢٤٦ ـ **مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب**، محمد علي عبد المعطي، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٢٤٧ ـ **مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى**، سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم، الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٤٨ ـ **مع الله**، حسن أيوب.

٢٤٩ ـ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٩٩٠م.

٢٥٠ ـ **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، الحسين بن مسعود البغوي، دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٥١ ـ **معتقد فرق المسلمين واليهود والنصارى والفلاسفة والوثنيين في الملائكة المقربين**، محمد بن عبد الوهاب العقيل، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٥٢ ـ **المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة**، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٦م.

٢٥٣ ـ **معجزة القرآن**، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٧٨م.

٢٥٤ ـ **المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي**، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.

٢٥٥ ـ **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.

٢٥٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.

٢٥٧ ـ **المعجم الوسيط**، أحمد حسين الزيات ورفاقه، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، تركيا، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٥٨ ـ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥٩ ـ **مفردات ألفاظ القرآن**، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ.

٢٦٠ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط٥، ١٩٩٣م.

٢٦١ ـ **مقاصد الشريعة الإسلامية**، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠١١م.

٢٦٢ ـ **مقاصد القرآن الكريم**، مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات القرآنية، (الترتيل) الرباط، المملكة المغربية.

٢٦٣ ـ **مكانة الحواس من المعرفة في الإسلام**، صالح بن سليمان بن صالح العمرو، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى.

٢٦٤ ـ **المِلل والنحَل**، أبو الفتح محمد الشهرستاني، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، مكتبة الحسين التجارية، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٦٥ ـ **من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي**، زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ ـ٢٠١٣م.

٢٦٦ ـ **من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم**، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.

٢٦٧ ـ **من آيات الإعجاز العلمي في السماء**، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٧م.

٢٦٨ ـ **من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، ط ٤، ٢٠٠٧م.

٢٦٩ ـ **من عقيدة المسلمين**، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٩م.

٢٧٠ ـ **من لطائف التعبير القرآني**، فؤاد السندي، مكتبة مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٢م.

٢٧١ ـ **منهج الإسلام في تزكية النفس**، أحمد كرزون، دار نور المكتبات، دار ابن حزم، ط٢، ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م.

٢٧٢ ـ **منهج القرآن الكريم في التربية**، محمد شديد، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

٢٧٣ ـ **موارد الظمآن لدروس الزمان**، عبد العزيز المحمد السلمان، ط٣٠، ٢٠٠٤م.

٢٧٤ ـ **مواقف الأنبياء في القرآن**، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٧٥ ـ **موسوعة أسماء الله الحسنى**، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٧٦ ـ **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، محمد السقا عيد، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٢٧٧ ـ **موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور**، حكمت بشير ياسين، دار المآثر، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٧٨ ـ **الموسوعة القرآنية خصائص السور**، جعفر شرف الدين، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٧٩ ـ **موسوعة نضرة النعيم**، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن محمد، دار الوسيلة، جدة، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٨٠ ـ **نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار**، محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق عبد العزيز الهبدان وعبد العزيز الدخيل، دار الصميعي، ط١، ١٩٩٦م.

٢٨١ ـ **النسق القرآني «دراسة أسلوبية»**، محمد ديب الباجي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٢٨٢ ـ **نصوص اللعن في القرآن الكريم وأثرها في الأحكام الشرعية**، عمر الكبيسي، مؤسسة الريان، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٨٣ ـ **نظم الدرر**، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٨٤ ـ **نهاية الإقدام في علم الكلام**، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥ .

٢٨٥ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٣٨٥هـ.

٢٨٦ ـ **النهاية في غريب الحديث**، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩ .

٢٨٧ ـ **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى**، محمد محمود النجدي، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٨٨ ـ **نوح والطوفان العظيم**، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م.

٢٨٩ ـ **النور المبين في تدبر آيات القرآن الكريم**، زين محمد شحاته، دار ابن كثير، الكويت، ٢٠١٥م.

٢٩٠ ـ **نونية ابن قيم الجوزية**، أبو عبد الله بن أبي بكر الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢٩١ ـ **نونية القحطاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، دار السوادي، السعودية، ط٣، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٩٢ ـ **الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم**، المرابط بن محمد يسلم الشنقيطي، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٩٣ ـ **الوسطية في التربية الإسلامية**، عبد الله محمد الزهراني، رسالة دكتوراه، ٢٠٠٠م.

٢٩٤ ـ **الوعي الحضاري**، مسفر بن علي القحطاني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان.

٢٩٥ ـ **وقفات في حياة الأنبياء**، خالد عبد العليم، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن كثير، عمان.

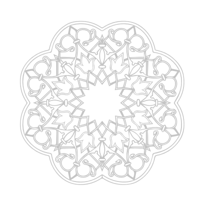
٢٩٦ ـ **وقفات مع الإنسان في القرآن**، فايز الربيع، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

٢٩٧ ـ **الولاء والبراء في الإسلام**، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط١.

٢٩٨ ـ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

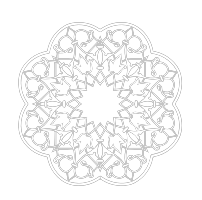
٢٩٩ ـ **اليوم الآخر في القرآن الكريم والسنة المطهرة**، عبد المحسن بن زبن المطيري، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ٢٠٠٨م.

* * *



فهرس المحتويات

❊ ❊ ❊



كتب صدرت للمؤلف

١ ـ السيرة النبوية : عرض وقائع وتحليل أحداث .

٢ ـ سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : شخصيته وعصره .

٣ ـ سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .

٤ ـ سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : شخصيته وعصره .

٥ ـ سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : شخصيته وعصره .

٦ ـ سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب : شخصيته وعصره .

٧ ـ الدولة العثمانية : عوامل النهوض والسقوط .

٨ ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم .

٩ ـ تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا .

١٠ ـ تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي .

١١ ـ عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين .

١٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .

١٣ ـ الدولة الأموية ، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار .

١٤ ـ معاوية بن أبي سفيان ، شخصيته وعصره .

١٥ ـ عمر بن عبد العزيز ، شخصيته وعصره .

١٦ ـ خلافة عبد الله بن الزبير .

١٧ ـ عصر الدولة الزنكية .

١٨ ـ عماد الدين زنكي .

١٩ ـ نور الدين زنكي .

٢٠ ـ دولة السلاجقة .

٢١ ـ الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد .

٢٢ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني .

٢٣ ـ الشيخ عمر المختار .

٢٤ ـ عبد الملك بن مروان وبنوه .

٢٥ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة .

٢٦ ـ حقيقة الخلاف بين الصحابة .

٢٧ ـ وسطية القرآن الكريم في العقائد .

٢٨ ـ فتنة مقتل عثمان .

٢٩ ـ السلطان عبد الحميد الثاني .

٣٠ ـ دولة المرابطين .

٣١ ـ دولة الموحدين .

٣٢ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج .

٣٣ ـ الدولة الفاطمية .

٣٤ ـ حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي .

٣٥ ـ صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس .

٣٦ ـ استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧ ـ الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨ ـ الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩ ـ المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠ ـ سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١ ـ الشورى في الإسلام.

٤٢ ـ الإيمان بالله جل جلاله.

٤٣ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٤٤ ـ الإيمان بالقدر.

٤٥ ـ الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦ ـ الإيمان بالملائكة.

٤٧ ـ الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

٤٨ ـ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

٤٩ ـ المعجزة الخالدة.

٥٠ ـ الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

٥١ ـ البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢ ـ التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣ ـ الشورى فريضة إسلامية.

٥٤ ـ الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥ ـ العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦ ـ المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧ ـ العدل في التصور الإسلامي.

٥٨ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩ ـ الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١ ـ سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢ ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣ ـ أعلام التصوف السني «ثمانية أجزاء».

٦٤ ـ المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٥ ـ الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٦ ـ الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٧ ـ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ـ الحقيقة الكاملة ـ.

٦٨ ـ نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٩ ـ قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام.

* * *



المؤلف في سطور
د. علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي
مفكر ومؤرخ وفقيه

ـ ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

ـ نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

ـ حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

ـ نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

ـ اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

ـ زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

❋ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

❋ سير الخلفاء الراشدين.

❋ الدولة الحديثة المسلمة.

❋ الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

❊ ❊ ❊